

# إقامة الدولة الإسلامية في ظل قانون السببية والسنن الإلهية والسنن التاريخية



ثائر أحمد سلامة ـ أبو مالك

الطبعة السادسة / مزيدة ومنقحة



هذه هي الطبعة السادسة من هذا الكتاب، وتتضمن إضافات مهمة للطبعات السابقة، ومراجعات وتدقيقا للأفكار، فيرجى اعتماد الطبعة السادسة هذه بديلا لما سبق!

هذا الكتاب يمثل جهوداً طويلة من البحث والتنقيب والدراسة والتمحيص، والنظر وإعادة النظر!

سائلين المولى عز وجل القبول، والإخلاص في العمل، وأن يفتح بهذا الكتاب عقولا و أفئدة وينيرها لاتباع سننه وطريقته التي أوحى بها، فيعمل العاملون على استئناف الحياة الإسلامية على بصيرة، وأن ينزل الله نصره على الأمة، إنه ولي ذلك والقادر عليه!

وقد تم نشر الطبعة الأولى منه في موقع المكتب الإعلامي لحزب التحرير ومن ثم نشر في موقع الخلافة.



# إقامة الدولة الإسلامية في ظل قانون السببية والسنن الإلهية والسنن التاريخية.

## إضاءات فكرية، وتأملات عقدية في مفاهيم:
## التوكل والأخذ بالأسباب، والقضاء والقدر، والنصر والرزق والإحياء والإماتة، والنفع والضر. في ظل قانون السببية.


**ثائر أحمد سلامة – أبو مالك**

**شارك في التأليف: الأستاذ المفكر يوسف نجيب الساريسي،**

**راجعه ودققه، الأستاذ عصام الشيخ غانم،**



**الطبعة السادسة/ مزيدة ومنقحة**

**الطبعات السابقة:**

١٤٣٨ هـ ٢٠١٧ م

الفهرس

# توطئة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، ٱللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ،

ٱلْحَمْدُ للهِ ﷻ الَّذِي شَرَحَ صُدُورَ أَهْلِ الإِسْلامِ بِالْهُدَى، وَنَكَتَ فِيْ قُلُوبِ أَهْلِ الطُّغْيَانِ فَلا تَعِيْ الْحِكْمَةَ أَبَدَاً، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ إِلَهاً أَحداً، فَرْدَاً صَمداً، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ مَا أَكْرَمَهُ عَبْداً وَسَيّداً، وَأَعْظَمَهُ أَصْلاً ومَحْتِداً، وَأَطْهَرَهُ مَضْجعاً وَمَوْلِداً، وَأَبْهَرَهُ صَدْراً وَمَوْرِداً، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ غُيُوْثِ النَّدَىْ، وَلُيُوْثِ الْعِدَا، صَلَاةً وَسَلاماً دَائِمَيْنِ مِنْ الْيَوْمِ إِلَى أَنْ يُبْعَثَ الْنَّاسُ غَدَاً[1]،

ٱلْحَمْدُ للهِ ذِيْ الْمِنَّةِ وَالطَّوْلِ، وَالْقُوَّةِ وَالْحَوْلِ، ذِيْ الْفَضْلِ وَالْعَطَاءِ، إِلَهِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، مُعِزِّ الإِسْلامِ بِنَصْرِهِ، وَمُذِلِّ الشِّرْكِ بِقَهْرِهِ، وَمُصَرِّفِ الأُمُورِ بِأَمْرِهِ، وَمُدِيْمِ النِّعَمِ بِشُكْرِهِ، وَمُسْتَدْرِجِ الكَافِرِيْنَ بِمَكْرِهِ، الَّذِيْ قَدَّرَ الأَيَّامَ دُوَلاً بِعَدْلِهِ، وَجَعَلَ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِيْنَ بِفَضْلِهِ، وَأَفَاءَ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ ظِلِّهِ، وَأَظْهَرَ دِيْنَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ، القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ فَلا يُمَانَعُ، وَالظَّاهِرُ عَلَى خَلِيْقَتِهِ فَلا يُنَازَعُ، وَالآمِرُ بِمَا يَشَاءُ فَلا يُرَاجَعُ، وَالْحَاكِمُ بِمَا يُرِيْدُ فَلا يُدَافَعُ، الغَنِيُّ الْـمُفْتَقَرُ إِلَيْهِ، الْقَوِيُّ الْـمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ، الْـمُسْتَغْنِيْ عَنِ الشَّرِيْكِ وَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدْ، رَافِعُ السَّمَواتِ بِلَا عَمَدٍ، ترونها، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَنَزَّهَ عَنِ الأَنْدَادِ وَالأَضْدَادِ وَالأَكْفَاءِ وَالْشُّرَكَاءِ، وَتَعَالَى عَنِ الأَمْثَالِ والْظُهَرَاءِ وَالنُّظَرَاءِ، هُوَ الأَوَّلُ بِلَا ابْتِدَاءْ، وَالآخِرُ بِلَا انْتِهَاءْ، لَا سَمِيَّ لَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَلَا يُشْبِهُهُ أَحَدْ، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيْ جَعَلَ مِنْ أَلْبَابِنَا بَصَائِرَ تَقُوْدُنَا إِلَى مَعْرِفَتِهِ، وَمَعَارِفَ تُرْشِدُنَا إِلَى الإِقْرَارِ بِرُبُوْبِيَّتِهِ، لِيُخْرِجَنَا مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ بِرَحْمَتِهِ، أَحْمَدُهُ عَلَى إِظْفَارِهِ وَإِظْهَارِهِ وَإِعْزَازِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَنَصْرِهِ لِأَنْصَارِهِ، وَتَطْهِيْرِ قُلُوْبِنَا مِنْ أَدْنَاسِ الشِّرْكِ وَأَوْضَارِهِ، وَإِعْمَارِهَا بِخَالِصِ الإِخْلاصِ وَأَنْوَارِهِ، حَمْدَ مَنِ اسْتَشْعَرَ الحَمْدَ بَاطِنَ سِرِّهِ وَظَاهِرَ جَهْرِهِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، إِلَهٌ يَسَّرَ وَسَهَّلَ مَا تَعَسَّرَ، سُبْحَانَهُ مَا أَعْظَمَ قُدْرَتِهِ، وَأَبْدَعَ صَنْعَتِهِ، وَأَعْجَبَ حِكْمَتِهِ، وَفَّقَ إِلَى سَبِيْلِ الخَيْرَاتِ مَنْ أَسْعَدَهُ، وَصَرَفَ عَنْ فِعْلِهَا مَنْ أَشْقَاهُ عَمَلُهُ وَأَبْعَدَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدَاً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ، وَصَفِيُّهُ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلِيْلُهُ، أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ الْسَّاعَةِ بَشِيْرَاً وَنَذِيْرَاً، وَدَاعِيَاً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجَاً مُنِيْرَاً، عَمَّ نُوْرُهُ الآفَاقْ، وَلَمْ يَحْجِبْ ضِيَاهُ كُسُوْفٌ وَلَا مَحَاقْ، الْمُصْطَفَى مِنْ خَلِيْقَتِهِ، وَأَكْرَمُ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ مِنْ بَرِيَّتِهِ، رَافِعُ الشَّكِّ وَدَاحِضُ الشِّرْكِ، وَرَاحِضُ الإِفْكِ، الْمَخْصُوْصِ بِالْمَقَامِ المَحْمُوْدِ، فِي اليَوْمِ المَشْهُوْدِ، صَاحِبِ اللِّوَاءِ المَعْقُوْدِ، وَالْحَوْضِ الْـمَوْرُودِ، ٱللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّد فِي الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَفِي الْمَلأِ الأَعْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، صَلاَةً تَكُونُ لَكَ رِضَاءً وَلِحَقِّهِ أَدَاءً، وَأَعْطِهِ الْوَسِيلَةَ وَالْمَقَامَ الَّذِي وَعَدْتَهُ، ٱللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَيَسْتَحِقُّهُ، كَمَا يَلِيقُ بِعَظِيمِ شَرَفِهِ وَكَمَالِهِ وَرِضَاكَ عَنْهُ وَمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى لَهُ دَائِمَاً أَبَداً، أَفْضَلَ صَلاَةٍ وَأَكْمَلَهَا وَأَتَمَّهَا كُلَّمَا ذَكَرَكَ وَذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِكَ وَذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ وَسَلِّمْ تَسْلِيماً كَثِيْراً، وبعد،

---

[1] مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري للعلامة ابن حجر العسقلاني رحمه الله رحمة واسعة.

**تنويه بالغ الأهمية عن استعمال كلمة الأسباب في هذه الدراسة:**

**السُّنن: طرائق مطّردة أجراها الله في الكون والمجتمع والتاريخ، تقوم على علاقاتٍ سببيّة/شرطيّة قابلةٍ للاستقراء؛ لا تُحابي أحدًا، وتتكرّر متى تكرّرت أسبابُها وشروطُها، ولا تتخلّف إلا لانتفاء شرطٍ أو لوجود مانع. وتنقسم، من حيث مجالات الجريان، إلى: ١) سنن كونيّة (فيزيائيّة)، ٢) سنن تاريخيّة/مجتمعيّة (إنسانيّة)، ٣) سنن إلهيّة (وعديّة/متعلقة بالنصر).**

**خصائص السنن**

- **الاطراد وعدم المحاباة: مأمورون بالسير في الأرض لاستخراجها لأنّها تتكرّر بتكرّر أسبابها** ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [١٣٧ آل عمران]؛ **ولو لم تطرّد لما صحَّ أن تُسمَّى سُننًا.**
- **قابليّة الاستنباط بالاستقراء: تُستخرج من قراءة التاريخ قراءةً موضوعيّة تربط الأسباب بالمسبَّبات.**
- **تنوّع الأسباب والشروط: في المجتمعات تعمل الأسباب العاديّة/اللغويّة (تفاعل الإرادات الحرّة) أكثر من "الأسباب العقليّة" الحتميّة؛ لكن مع استمرار تسليط السبب تتولّد النتيجة حتمًا، وقد تتراخى زمنيًا.**
- **سننٌ إلهيّةٌ موجِّهة: وعودٌ ربّانيّة بالنصر والتمكين توجّه مسار السنن المجتمعيّة إلى غاياتٍ شرعيّة، وتوقيت إنفاذها بيد الله.**

**صيغ التعبير عن السنن: ١) قضية شرطية، إذا تحقق الشرط ترتب المسبَّب، ٢) قضيّة مُنجَزة (حكم محقّق الوقوع في ظرفه) ٣) اتجاه طبيعي طويل المدى يتكرر.**

**والسنن أيضا أقدارٌ جارية رتّبها الله في خلقه؛ وهي خصائص في المجتمعات، كالخصائص التي في الأشياء والتي نسميها بالقدر، لا يخرج الإنسان عنها، بل ينجح بقدر ما يكتشفها ويُفعّل أسبابها ضمن حدود الشرع. فحين تتخلّف الشروط الشرعيّة مثلا قد ترتفع السنن الإلهية المتعلقة بالنصر، ويخضع الناس للسنن الإنسانيّة العامّة (تداول الأيام وغلبة من أعدّ العدّة).**

**واستنباط السنن يكون بتعريف المجال أولا، فيتم تحديد ظاهرة اجتماعية أو تاريخية محددة، مثل النهوض والانحطاط، والتداول والاستبدال، ثم نجمع النصوص الشرعية ذات الصلة، (نحو: ﴿*إنّ الله لا يغيّر ما بقوم*﴾، ﴿*وتلك الأيّام نداولها*﴾)، أو بالدراسة العقلية لتكرر جريان الأقدار وفقا لعلاقاتها بهذه الظواهر، (الاستقراء التاريخي المُنظّم) باستحضار شواهد عبر حقب تاريخية وثقافية مختلفة، مع تحديد المتغيّرات والتمييز بين السبب، والشرط، والمانع. (في منهج الكتاب: السنن تُفهم بالاستقراء والاستنباط)، ثم يتم البحث عن الاطراد، وعدم المحاباة، ويتم اختبار التكرار عبر أزمنة وأمكنة مختلفة، وفاعلين مختلفين، إن تكررت النتيجة بتكرّر الأسباب، فتكون سنة، لكن هذه الدراسة تستدعي دراسة ظروف أخرى مؤثرة قد تعترض تفاعل الأسباب والمسبّبات، فتؤثر فيها، فلا تصلح تلك الأمثلة لإثبات السننية أو عدمها، بل تُدرس الأمثلة التي تحقق فيها ذلك التفاعل تحققا مطردا، ثم يجب النظر في السنن أهي مجتمعية إنسانية خالصة، تجري على**

البشر كلهم، أم هناك ارتباط بشروط إلهية تدير دفة تحرك العلاقة بين الأسباب ومسبباتها، وتجريها على نحو معين، فتكون سننا إلهية، وإلا فهي سنن مجتمعية، تاريخية إذا تساوت الشروط الدنيوية بين جميع الأطراف، فإذا رُفعت شروط السنن الإلهيّة المتعلقة بالنصر، خضع المؤمنون لقانون التدافع العام.

حين التأمل في السنن التي أوجدها الله تبارك وتعالى ليسير عليها الكون والإنسان والحياة، فرَّقنا بين ثلاثة أنواع من السنن: السنن الكونية، وَسِمَتُها الرئيسية أنها تجري وفقاً لقانون السببية العقلية، فينتج المُسَبَّبُ فيها ضرورةً وحتماً فور تسلط السَّبَبِ عليهِ بطاقَةٍ سَبَبِيَّةٍ كافيةٍ لإحداثِ التغييرِ فيهِ، لأنها تفاعلٌ بينَ مادةٍ وطاقةٍ وقوىً غير عاقلة، فتنفعل المادة بما فيها من خواص انفعالية مع الطاقة والقوة الفاعلة، وتنفعل لهما فوراً دون إبطاءٍ.

والسنن المجتمعية الإنسانية، وسمتها الرئيسية أنها تجري وفقا لقانون السببية أيضا، ولكن ليست السببية العقلية التي تنتج المُسَبَّبَ فور تسلُّط الأسباب عليه، بل وفق أسباب العادة، أو الأسباب اللغوية، أو وفق شروطٍ لغوية نزلت منزلة أسباب العادة لأنها تفاعلٌ بين إرادات حرة، وفق نواميس مجتمعية تتحرك وتتخامد، ولكن، ولأنها سننٌ فإن الفاعليَّةَ السَّبَبِيَّةَ فيها ستنتج النتيجة ضرورةً وحتماً مع استمرار تسليط الطاقة السببية وتفعيلها، لكن قد تتراخى النتائج زمناً عن زمن تسلُّطِ الأسبابِ الفاعلةِ.

والسنن الإلهية التي توجِّهُ بوصلة الحياةِ كي ينتصرَ الحقُّ على الباطلِ مهما انْتَفَشَ الباطلُ، بتدخُّل إلهيٍّ لتوجيه السنن المجتمعية وجهات تحقق غايات شرعية، أو وعوداً إلهِيَّةً ربَّانِيَّةً، كالوعد بالنصر والتمكين، أو الوعد بظهور الدين على الدين كله، وأما وقت إنفاذ هذه السنن الإلهية فبيد الله وحده،

وفي كل هذه السنن لا بد من تصميم وتفعيل الأنظمة السببية بنفس الطريقة: فَالأَسْبَابُ تَدْفَعُ الأعْمَالَ مِنَ الخَلْفِ والغَايَاتُ تَجُرُّ الأعْمَالَ مِنَ الأَمَامِ، والغَائيّةُ (أي العِلَّةُ الباعثةُ) هي محرك تصميم النظام السببي.

لذلك فإننا ننبه هنا للضرورة: أن استعمال مصطلح الأسباب في هذه الدراسة: قد يعني الأسباب العقلية، أو قد يعني الشروط اللغوية التي تنزل منزلة الأسباب وتختلف عن الأسباب العقلية اختلافاً بالغاً، أو قد تعني الأسباب الشرعية، أو أسباب العادة، فكل حالة فكرية في الكتاب تدرس دراسة منفصلة، لمعرفة وتحديد المعنى بالأسباب أو بالشروط فيها.

وننبه أيضا أن كلمة "الأخذ بالأسباب" قد قُيِّدت في الفهم عند كثيرين من المسلمين بالأسباب العقلية دون غيرها، مع أن الشرع استعمل أنواع الأسباب كلها، (السبب الأصولي، واللغوي، والشرعي، والعقلي وأسباب العادة) و أنواع الشروط كلها (الشرط اللغوي، والشرط الشرعي، والشرط العقلي، والشرط العادي)، في خطابه فينبغي فهم الأخذ بالأسباب بهذه الشمولية لا بقصرها على الأسباب العقلية وحدها.

فحين تقرأ في هذا الكتاب جملة تقول بالأخذ بالأسباب أو بتصميم الأنظمة السببية، أو تتكلم عن الأسباب، والنتائج فلا يعني هذا حملها بالضرورة على الأسباب العقلية دون غيرها، بل تفهم فهما شموليا للأنواع المختلفة من الأسباب والشروط ما لم يتم تحديد أن المعني بها نوع من الأسباب بعينه دون غيره في ذلك الموضع.

## مقدمة الطبعة السادسة: السببية الكونية، والأنظمة السببية المجتمعية:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدي رسول الله، أما الدافع لإخراج الكتاب في طبعة جديدة فلأسباب أهمها:

**أولا:** فصل بحث قانون السببية والسنن الإلهية والتاريخية والكونية في بحث إقامة الدولة، عن بحث دراسة طريقة الرسول ﷺ في التغيير، التي كانت موضوع الجزء الأول من الكتاب، والتي تم التركيز فيها على التأصيل الشرعي للطريقة، والخطوات العملية التي يقوم بها الحزب لإحداث التغيير، والتوسع في دراسة الجزء الثاني من الكتاب توسعا اقتضته الحاجة الملحة، وإفراده في كتاب خاص أسميناه: "**إقامة الدولة الإسلامية في ظل قانون السببية" وعنوانه الفرعي: إضاءات فكرية، وتأملات عقدية في مفاهيم: التوكل والأخذ بالأسباب، والقضاء والقدر، والنصر والرزق والإحياء والإماتة، والنفع والضر. في ظل قانون السببية.**

**ولعل ضرورة التأصيل لمفاهيم السببية والسننية، وما يتعلق بها من أبحاث كبحث القضاء والقدر، والقدر، والتوكل والأخذ بالأسباب، والنفع والضر، والنصر والتمكين، وغيرها اقتضى أن تكون أكثر من نصف مادة هذا الجزء متعلقة بالتأصيل لتلك المفاهيم توطئة لدراسة أثر تلك المفاهيم على طريقة إقامة الدولة، اقتضت هذه المنهجية في البحث.**

**ثانيا:** يكاد موضوع السببية (Causation- Causality) أن يكون من أهم المواضيع التي بحثت في تاريخ الفلسفة والعلم الحسي التجريبي على مستوى العالم كله، وكان التأسيس لفكرة الاستقرار والقصور الذاتي والسببية والتغيير الأثر العظيم في أبحاث الفلسفة والفيزياء في آن، لدرجة أن السببية تكاد تكون حجر الزاوية في بناء التفكير في العلم التجريبي، وغيره، فلئن انفكت العلوم الطبيعية عن السببية فكيف ستُبنى العلاقة والارتباط بين ظاهرتين؟ ولئن سارت الأحداث والظواهر في الوجود سير عشواء بلا انضباط، -إذا ما انفكت عن التفكير السببي- فأي القوانين يمكن استنباطها أو تعميمها؟ وما تُغْني التجارب إن كان السبب سيتخلف عن إحداث النتيجة مرة وينتجها مرة أخرى! أي إن انفكت السببية عن الحتمية؟ لقد كان التفاعل السببي الذي تجري وفقه العمليات الفيزيائية والكونية بين المادة والطاقة والقوى لاعبا أساسيا في خطة الوجود حتى أنني اعتبرته في كتابي: (نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىْ وُجُوْدِ الْخَالِقِ): **الْبُعْدَ الخامسَ الذي تتشكل منه هندسة الكون**!

**ثالثا:** وعلى صعيد آخر، تخوض الأمة الإسلامية في العصر الراهن مخاض ميلادها من جديد، تسير فيه الأمة الإسلامية سيراً حثيثاً باتجاه استعادة مكانتها السامقة، وإعادة بناء صرح حضارتها العظيمة، وتقديم مشروعها النهضوي للأمم كافةً كاملاً متكاملاً، وهي الآن على مفترق طرق، ويتم هذا السير وفقاً لعمليةٍ تغييريةٍ جذريةٍ انقلابيةٍ شاملةٍ، وفقاً لأعمالٍ جبارةٍ سارت على منهجٍ قويمٍ مستنبطٍ من الوحي، بعد دراسة الأنظمة المجتمعية السببية دراسةً تفصيليةً، لكن هذه العملية التغييرية أشبه ما تكون حَفْراً في الصخر، لشدة ما يعترضها من المعوقات، ولخطورة ما يتآمر به أعداء الأمة عليها من مؤامرات بغية إحباط هذه العملية التغييرية، الأمر الذي دفع الكثير من العاملين في حقل التغيير على مستوى الأمة ليتساءلوا: هل نحن بحاجة لمراجعات للأعمال التي نقوم بها؟ هل أخفقت العملية التغييرية؟ ولماذا لم يتنزل نصر الله إلى الساعة؟ هل هو بسبب أننا لم ننصر الله؟

هل العيب فينا وفي أعمالنا؟ وجدير بالذكر أن البعض يطرح هذه التساؤلات بدافع الإخلاص، بينما نتج الإحباط عند ثلة أخرى نتيجة عدم فهم طبيعة العملية التغييرية والنظام السببي الذي تقوم عليه، وقفزهم عن العلاقة بين الفعل السببي الذي تقوم عليه العملية التغييرية، وبين الأفعال التي نسبها الخالق سبحانه وتعالى لنفسه بأنه هو من يباشرها، ويختار موعد إنفاذها، بحكمته وعلمه، مثل أفعال النصر والاستخلاف، والتمكين، وإبدال الخوف أمناً، فكانت هذه الدراسة لتوضيح هذه العلاقة الدقيقة، حتى يقف المسلم على دوره في العملية التغييرية وعلاقة هذا الدور وهذه الأعمال مع النتيجة المبتغاة منها.

فقد أمر الله تعالى نبيه أن يسأله **سلطاناً** ناصرا: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ **وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً**﴾ الإسراء ٨٠، نلاحظ فورا: واجعل لي **من لدنك**، يعني طلب النصر والتأييد من الله تعالى، وأن يمنح الداعي قوة وسلطة تكون عونًا له في مواجهة أعدائه ومخالفيه، وأن تكون هذه القوة ناتجة عن تأييد الله وعونه المباشر، لإقامة الحق والدفاع عنه، ولا يكون مثل هذا السلطان النصير إلا بتوفيق الله وعونه بنص الآية.

ومسألة الاستخلاف نفسها أيضا تعضد هذا الفهم بقوة لا متناهية إذ يقول رب العزة سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فتمكين الدين: سيادته وتطبيقه، والأمن بعد الخوف: معطوفان على الاستخلاف في الأرض، من باب عطف الخاص على العام، لأن الاستخلاف في الأرض ومنه الحكم بالإسلام، لمن آمن وعمل صالحا، من مستلزماته وجود الأمان وتمكين الدين أي تطبيقه وظهوره وسيادته، وهما الأمران اللازمان للدار لتكون دار إسلام".[٢] والملاحظ أيضا في آية الاستخلاف أن الوعد من الله، والتمكين من الله، والاستخلاف من الله، والذي يبدلهم من بعد خوفهم أمنا هو الله وحده، والذي يؤلف بين قلوب المؤمنين هو الله، ﴿وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألَّفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم﴾، بل أوسع من ذلك: إن الله تعهد بإظهار هذا الدين على الدين كله، مهما كره الكافرون، ووعد أن يُورث الأرض لعباده الذين كانوا يُستضعفون، وأن يجعل النصر من عنده وحده، إننا لا يجوز لنا ولا للحظة واحدة أن ننظر إلى الأمور بموازين مادية بشرية، ترى الفجوة الواسعة بين قدرات الباطل وقدرات أهل الحق قبل أن يتمكنوا، فلا نكون ماديين فقط، بل نحسب حساب تدخل الله تعالى في المعركة، وأنه إذا وعد بالنصر والاستخلاف والأمن، وهو -سبحانه وتعالى- فهو آت به لا محالة.

لذلك أرى أنه موضوعٌ بالغ الأهمية على كافة الصعد التي تتعلق به، لذلك أهيب بالقارئ الكريم أن يوليه الصبر الكافي، والدراسة الحثيثة التي تتخلى -مؤقتا- عن الأحكام المسبقة، والآراء السابقة المتعلقة بهذه المسائل، كي لا تتسلط على البحث وما يحتاجه من تدبر، وكي لا تكون عائقا بينه وبين دراسة هذه المسألة الدقيقة.

ومن أهم ما تضمنته هذه الطبعة الجديدة أولا: إعادة النظر في فكرة أن سبب النصر في المعركة هو الإعداد، حيث إن كل مسألة النصر في الاعتقاد -سواء في الحرب أو في صراع الحق مع الباطل- لا يجوز أن تربط بالسبب

---

[٢]: محمد حسين عبد الله: الطريقة الشرعية لاستئناف الحياة الإسلامية ص ١٠-١١.

العقلي نهائيا، وقد أثبتنا في طيات الكتاب أن الفهم الصحيح لقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧ محمد]، هو الشرط اللغوي، وليس بالشرط الاصطلاحي، ولا بالسبب العقلي، وفصلنا في إثبات ذلك أيما تفصيل، ودللنا عليه بما يكفي لفهم الفكرة فهماً بالغ الدقة ولله الفضل وله المنة.

ثانيا: ثم إنني قمت بدراسة بالغة لمجموعة من الأبحاث المتعلقة بقيام الدولة، سواء اللازمة لإقامتها مثل كيفية إقامة الرأي العام، وكيفية التأثير في المجتمعات تأثيراً منتجاً، وكيف تعمل الأحزاب، ودور العلماء في إحداث التغيير، ودور الأمة في ذلك التغيير، والأعمال التي يمكن القيام بها لإنتاج التغيير، ودرسنا معوقات مهمة ينبغي فهم سنن عملها وسنن إفشال عملها مثل: الدولة العميقة، واستعمال الغرب للقوة الناعمة وللحروب السياسية الثقافية الحضارية، وبعض المخططات والاستراتيجيات الغربية المستعملة لضرب الإسلام والخلافة، وإعاقة قيام الدولة الإسلامية وغير ذلك من الأبحاث بالغة الأهمية التي تنعكس على أعمال التغيير.

وينبغي التنويه إلى أنني قمت بتدقيق أفكار الكتاب ثانية في ظل هذه الأفكار بحيث يكون الكتاب مرجعاً شاملاً في عملية التغيير، بصورةٍ أدينُ الله تعالى بها، نصحاً للأمة، وللأحزاب السياسية فيها، وللعلماء وللعاملين المخلصين من أبناء الأمة، أضعهم على محجة بيضاء مستنبطة من الأدلة، سائلاً الله تعالى أن يُبَلِّغَ عنا، وأن يؤتي هذا الجهد ثماره، ويبلغ الأمر منتهاه بأن نرى تطبيق الشريعة الإسلامية يعم أرجاء المعمورة عن قريب، والله ولي ذلك والقادر عليه.

ثائر سلامة، أبو مالك، في العاشر من يوليو ٢٠٢٤، الموافق الأول من محرم ١٤٤٦ هـ

## توطئة بين يدي الطبعة الثالثة من الكتاب

الحَمْدُ للهِ مُعِزّ الإِسْلامِ بِنَصْرِهِ[٣]، وَمُذِلّ الشِّرْكِ بِقَهْرِهِ،وَمُصَرِّفِ الأُمُورِ بِأَمْرِهِ، وَمُدِيْمِ النِّعَمِ بِشُكْرِهِ، وَمُسْتَدْرِجِ الكَافِرِيْنَ بِمَكْرِهِ، الَّذِيْ قَدَّرَ الأَيَّامَ دُوَلاً بِعَدْلِهِ، وَجَعَلَ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِيْنَ بِفَضْلِهِ، وَأَفَاءَ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ ظِلِّهِ، وَأَظْهَرَ دِيْنَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ، القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ فَلا يُمَانَعُ، وَالظَّاهِرُ عَلَى خَلِيْقَتِهِ فَلا يُنَازَعُ، وَالآمِرُ بِمَا شَاءَ فَلا يُرَاجَعُ، وَالْحَاكِمُ بِمَا يُرِيْدُ فَلا يُدَافَعُ،

وبعد، فقد من الله علينا بأصحابِ نُهَىً وعُقولٍ وفَضْلٍ راجعوا الطبعة الثانية من الكتاب، وأشاروا إلى قليل من الأخطاء الطباعية فيها، ثم إنني وبينما كنت أدرس قضية **النصر والاستخلاف بين الشرطية والسببية**، رأيت أن مفهوم السببية **بحاجة لمزيد من بذل الجهد في دراسته وتوضيحه**، فنطرح أربع قضايا:

**القضية الأولى**: الفرق بين السببية العقلية، وبين السُّنَنيّة المجتمعية:

أما السببية العقلية، فتقتضي أن وجود الطاقة السببية الكفيلة بإنتاج المُسبَّبات، حين تعاونها مع الشروط الضرورية، وإبطالها للمعوقات، فإن المُسَبَّبَ سينتج عنها حتماً، وضرورةً، وفوراً، وإلا لم تصلح لأن تكون أسباباً عقلية، كحال إشعال النار، فإذا ما توفرت الطاقة السببية الكافية، وهي وجود إشعال للنار، وأن تتعاون مع الشروط، وهي وجود مادة قابلة للاشتعال، ووجود الأوكسجين، ووجود مادة قابلة للاحتراق بنسب كافية من هذه الشروط الثلاثة، وأن تبطل المعوقات أو أن لا توجد تلك المعوقات، مثلا ضرورة أن لا يكون الجو ماطراً مطراً قادراً على إطفاء الحريق، حين اجتماع هذا كله، فإن السببية العقلية تقتضي حصول الاشتعال فورا، وبدون تأخير، وإذا لم يحصل، فإما لانتفاء بعض الشروط، أو لوجود عوائق، أو أن الطاقة السببية لم تكن كافية (مثلا أن تكون شعلة النار ضعيفة والمادة القابلة للاشتعال جذع شجرة ضخم، يحتاج لطاقة اشتعال أكبر)، فلا يصلح بذلك أن تكون أسباباً، أما إذا تحقق وجود الطاقة السببية الكافية، والتعاون مع الشروط، وانتفاء الموانع، فإن السببية تقتضي حتمية وضرورة إنتاج المُسَبَّبات فوراً وبدون تأخير متى ما وصلت فعالية الطاقة السببية القدرة على إنتاج الاحتراق.

أما السنن المجتمعية، فإنها تتفاعل مع وجود الإرادة الحرة عند الإنسان، والقدرة على الاختيار والتخطيط والتنفيذ، إلا إن تحققها مرتهن من طرف الإنسان والمجتمعات العاملة بفهم تلك السنن وتفعيلها والتفاعل معها، وهذه السنن، وإن كانت ضرورية، لأن الله تعالى أخبرنا عنها بأنك لن تجد لها تحويلا، ولا تبديلا، فإن نتيجتها قد تتراخى زمنياً، فتحتاج لدوام تسليط الأسباب ومدافعة العقبات، وقد تكون هذه السنن عقوبات ينزلها الله على أقوام كذبوا الدعوات مثلا، وحاربوا الرسل، لكن تنزيل العقوبة نزل وقتما شاء الله، مع أن التكذيب والإيذاء أخذ زمنا طويلا، حتى تنتج النتيجة، لكن، إذا ما تعلقت النتيجة بسنن إلهية، كنزول النصر مثلا، فإن الأمر يتجاوز

---

[٣] استعاد المسلمون، بقيادة البطل صلاح الدين الأيوبي، المسجد الأقصى من أيدي الصليبيين الغاصبين، وشاء الله أن يكتمل النصر يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب عام ٥٨٣ هجرية. وقد أوعز القائد صلاح الدين الأيوبي للقاضي محي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بأن يرقى المنبر ويخطب الجمعة فنهض وارتجل خطبة عصماء، هذه مقدمتها، بشيء يسير من التصرف، ونصها الكامل في مجلة الوعي كانون الثاني ١٩٩٤ العدد ٨١.

مسألة إنتاج النتائج وفقا للسنن المجتمعية إلى ارتباط إنفاذ النتائج بإرادة الله تعالى وقدرته وتدبيره، والسنن المجتمعية تتنزل متى ما شاء الله تعالى دون ارتباطٍ بسببيةٍ عقليةٍ ضرورةً.

**القضية الثانية**: الفرق بين السببية العقلية، وبين الشرط اللغوي الذي ينزل منزلة السبب:

فبدراسة الشرط في قوله تعالى ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وجدنا[٤] أنها من الشرط اللغوي[٥]، وقد استفضنا في التدليل على ذلك وبيان الفرق الشاسع بين الشرط اللغوي، مع أنه ينزلُ مَنزلةَ الأسبابِ، وبينَ السببِ العقلي. فإننا وجدنا أن مفهوم المخالفة في الشرط يُعطَّل، إذ لا يوجد ولا دليل على مفهوم المخالفة: بأنكم إن لم تنصروا الله فلن ينصركم، وأيضا، فإننا وجدنا الأنبياء عليهم سلام الله قاموا بالدعوة آخذين بأتم الأسباب، مداومين عليها، ومع ذلك فلم ينزل النصر إلا حين شاء الله تعالى، وبالصورة التي أرادها، وهذان فَرقان بين أن يكون سببا عقليا، وأن يكون من الشرط اللغوي، فلم يَرِدْ في دين الله أن الله لن ينصر من لم يحقق شروط نصر الله تعالى على صورة من الكمال، بل قد يفعل الله تعالى ذلك لخيرٍ يريده بالأمةِ وبنصرةِ دينِهِ، وذلك أيضا، لأن إنفاذها هو من باب وعد الله تعالى بنصر المؤمنين، إذا ما التزموا الشروط، أو إن شاء الله إنفاذها -حتى وإن لم تتحقق الشروط، أي إن الله تعالى قال ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾،

**القضية الثالثة**: أن المؤمنين لا يملكون أسباب النصر فيستطيعون إنزاله متى ما قاموا بتلك الأسباب:

وذلك أن الله تعالى وعد بنصر من ينصره، فقال عز ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧ محمد]، وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٤٧]، وقال الحق سبحانه في محكم كتابه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور ٥٥]، **وقد اختلط فهم هذه الآيات على بعض المسلمين فظنوا أن من لم يتنزل عليه نصر الله في الدنيا، وقضى نحبه، فإنما لخلل عنده، كيف وقد وعد الله -ووعده حق- بأن ينصر المؤمنين، ويستخلفهم؟** وقد اختلط أمر النصر على بعض المسلمين فظنوا أنهم يملكون أسباب النصر، فيستطيعون إنزاله متى شاءوا بقيامهم بتلك الأسباب، وكما أن سبب الموت هو انقضاء الأجل، فمتى ما وقع السَّبَبُ وَقَعَ المُسَبَّبُ لا يتخلف عن ذلك، فإنهم ظنوا أنهم متى ما قاموا بالأعمال آخذين بأسبابها، فإن ذلك يعني بالضرورة أنها جاءوا بأسباب النصر نفسه، ويتحتم وجوب وقوعه **فوراً**، وتبين لنا بالبحث أن هذا المفهوم مخالفة عقدية بالغة الخطورة، **إذ إن الفاعل فيه (أي من يقوم بإنزال النصر) على الحقيقة هو الله تعالى**، وبإنزال فهم السببية العقلية على موضوع النصر، نجد أن في المعادلة السببية طرفان: الطرف الأول هو العاملون على التغيير الذين يقومون بأعمال "سببية" تستنزل النصر، عليهم أن يأخذوا بأسباب تلك الأعمال، ويتعاونوا مع الشروط، ويتغلبوا على العوائق، والطرف الثاني في المعادلة السببية هو الله تبارك وتعالى: الفاعل على الحقيقة في إنزال

---

[٤] الشرط لغةً وإصطلاحاً، والفرق بين الشرط والسبب، مشروع التخرج للأستاذ عبد الحميد الشرباتي في أصول الفقه.

[٥] أنواع الشروط أربعة: راجع فصل: الشرط اللغوي، والشرط العقلي، والشرط الشرعي، والشرط العادي.

النصر، فإذا ما كان الأمر ينتظر أن يحقق الطرف الأول في المعادلة السببية: العاملون على التغيير، أو المقاتلون في المعركة، أن يحققوا الأعمال السببية التي تكفل إيجاد الطاقة السببية الكافية لتحقيق النصر، وتعاونوا مع الشروط، بأن ينصروا الله، وأبطلوا العوائق، فالمتصور بحسب السببية العقلية أن "**ينفعل**" الطرف الثاني في المعادلة السببية، وهو الله تعالى، -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- مع تحقق وجود الأسباب "فيضطر"، و"يتحتم عليه" فوراً أن ينزل النصر، فإن هذا الفهم باطلٌ عقيدةً وواقعاً، فالله تعالى مستغنٍ، لا يخضع لقوانين الكون، والقول بأن الله منفعل بالسببية مستحيلٌ وباطلٌ شرعاً وعقلاً، فالانفعال حاجة واحتياج، والحاقٌ لـمُسَبِّبِ الأسبابِ -سبحانه وتعالى- بأسبابٍ كونية خلقها، وخضوعٌ لله تعالى لقوانينَ فرضها في الكون تسير المادة بناء عليها، -يتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-. إذ إن أفعال الله تعالى على الحقيقة لا تتوقف على أفعال العباد، فلا يمكن أن يكون النصر متوقفاً على أسبابٍ يقومُ بها العاملون على التغيير بتاتاً.

فنصر الدعوات والرُّسل **في ساحة الصراع بين الحق والباطل**، وانتصار الحق على الباطل الذي تتجلى صورته في الاستخلاف والتمكين والأمن والعبودية لله، **ليس له سبب (عقلي)**، وإنما هو من فعل الله تعالى، كقضائه، **فالمؤمنون مأمورون بالأخذ بأسباب الأعمال التي خوطبوا بها**، والنصر بيد الله ينزله متى شاء، غير منفعل بالأسباب العقلية، ولكنه إنفاذ للوعد الإلهي، ومثل ذلك يقال عن النصر في المعركة، قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، فموضوع هذه الآية هو النصر في المعركة، على أن **النصر في المعركة**، يخضع أيضا لسُنَّةٍ إلهيةٍ خصَّ الله المسلمين بها، راعت أسباب السنن المجتمعية/ التاريخية (فكان لا بد من الإعداد ما استطيع من قوة)، حتى يُعْذَرُوا، لكنها أضافت شروطاً وفرضت فروضاً إن أخذ بها المسلمون وقعوا في مظنة أن ينصرهم الله، حتى وإن ضعفت شوكتهم! فالسنن الإلهية تنصر من أعد قدر استطاعته، ولكنه لم يتفوق على عدوه في الإعداد والاستطاعة، إنْ نَصَرَ اللهَ، وصبرَ وثبتَ وأطاعَ وتوكّلَ، وغيرها من الشروط نصره الله، فهذه التزاماتٌ تُوقِعُ في مَظِنَّةِ حُصولِ السننِ وفقاً للسنةِ الإلهيةِ، وكلا النوعين من النصر مشروط بنصر الله، وينزله الله تعالى إن شاء على من يشاء وقت يشاء.

**القضية الرابعة:** وجوب الأخذ بالأسباب في الأعمال على أفضل وجه مستطاع:

خوطب المؤمنون بتحري السنن ودراستها، والعمل بمقتضاها، وخوطبوا بتكاليف وأعمال فُرض عليهم القيام بها على وجهها أو على أفضل وجه مستطاع، بصورة تبرئ الذمة، وتحقق مرضاة الله تعالى، ويتضمن ذلك: حسن تنظيم الأنظمة السننية المجتمعية التي تتعلق بها، والتي توقع في مظنة تحقيق شروطها التي يتنزل النصر من الله بشرط تحقيقها، **أما نتيجة الأعمال المرجوة: أي النصر، فأنه لا أسباب له، وإنما هو مشروط**، وينزله الله تعالى بصور متعددة سأقتصر في هذه المقدمة على صورة منها وهي: إهلاك الأقوام وتدميرهم كما فعل بقوم نوح ولوط وصالح وهود وشعيب عليهم سلام الله، وهذه الصورة لم تكن على صورة هدايتهم كنتيجة للتبليغ، أو تمكين الدين وتحكيمه في الحياة كما هي وظيفة الكتب والرسالات، فهذه صورةُ نصر النبي على قومه، (وسنورد الصور الأخرى في موضعها من البحث إن شاء الله تعالى)، والشاهد فيها أن النبي قام "بالأعمال السببية" لتبليغ الدعوة وهداية الناس بالرسالات بغية تحكيم الكتاب، وقام بهذه "الأعمال السببية" على أتم وجه، ولم ينتج عنها تحقق نتيجتها في

الواقع، إنما اختار الله صورةً للنصر تمت بإهلاك عدوهم وتدميرهم لم تكن امتداداً أو تحقيقاً للأفعال التي قام بها الرسل عليهم سلام الله، والتي كانت غاياتها: هداية الناس وإخضاعهم لعبودية الله وتحكيم الكتب فيما اختلفوا فيه، بل كانت النتيجة تدمير تلك الأقوام، فلو كانت الأفعال سببية عقلية لكان تحقق غاياتها فور وجود وتحقق الأخذ بالأسباب ضرورة، لكنه لم يحصل، مما يدل على أن النصر ليس مرتبطا بالأسباب العقلية.

والسنن المجتمعية اقتضت القيام بأعمال معينة للتفاعل مع المجتمع وإحداث التغيير فيه، لا بد من إحسانها وإتقانها وامتلاك ناصية ذلك بصورة يُرجى أن تؤتي ثمارها معها،

من هنا ينبغي التفريق بين: أعمال حملة الدعوة للتغيير، والتي يجب أن تخضع لشروط تحقيق نُصرة الله تعالى، للوقوع في "مَظِنَّةِ الأسباب" أي مظنة الوقوع في الشرط اللغوي الذي يقوم مقام السبب، وللسننية المجتمعية وفوقها: الإلهية، فتصمّم الأنظمة السببية الصحيحة لإحداث التغيير، وتعمل وفقاً لها، وفقا لنظام الوجود الذي نظم الله الوجود عليه من سنن مجتمعية إنسانية تاريخية، وبين نتائجها، وذلك لأنه مع أن غاية هذا النظام السببي هو إحداث التغيير، أي الاستخلاف والتمكين والأمن والنصر، إلا إننا وجدنا أن هذه الغاية ليست مما ترك الله شأنه للبشر يفعلونه هم، أو يحدثونه هم، بل اختص ذاته العلية بشأنه، فهو تعالى الناصر، كما أنه الرازق، فلم يترك للبشر أن يرزقوا أنفسهم، ولا أن يرزق بعضهم بعضا، بل اختص ذاته العلية بأمر الرزق ينزّله متى شاء لمن شاء وبالصورة التي يشاء، واشترط السعي وسيحاسب عليه، وكذلك النصر، اشترط فيه نصرة الله، وأمر باتباع منهجه وطريقته بالاقتداء بسنة نبيه ﷺ، وبالتالي فإن من يصمم الأنظمة السببية ويقوم بالأعمال يعلم أن نتيجة هذا العمل ليست مترتبة على فعله هو ترتيب السبب العقلي والمُسَبَّبِ، بل ترتيب الشرط أو الحالة، يتوسل بها إلى تحقيق هذه الغايات، مع الإيمان المطلق بوعد الله وأنه ناصر دينه.

لذلك اقتضى الأمر هذه المراجعة للكتاب، فأفردت لبحث النصر والتمكين والاستخلاف، مقرونا ببحث: **التوكل والأخذ بالأسباب، والقضاء والقدر، والنصر والرزق والإحياء والإماتة، والنفع والضر، في ظل قانون السببية** لعلاقته الوثيقة بها فصلا كاملا جديدا، **ثم نقلته لكتاب خاص به في تفصيلاته، (هو هذا الكتاب)** يجلي هذه المفاهيم ويدقق فيها، وأعدت صياغة بعض فصول الكتاب التي كان هذا المعنى فيها غامضا، خصوصا وأن هذا البحث الجديد جديدٌ غير مسبوق، مما يستدعي النظر العميق المستنير فيه، لتقديمه للأمة بما ينير بصائرها بإذن الله تعالى، والله تعالى الموفق وهو الهادي، نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وينير بصائرنا للحق ويرشدنا إليه.

في السادس من شهر تموز للعام ٢٠١٨ م، الموافق ٢١ من شهر شوال ١٤٣٩ هـ.

## مقدمة لا بد منها لفهم الكتاب

لقد أقام الله سبحانه وتعالى الكون وفق نظامٍ محكمٍ، سواءً ما تعلق بالشقِّ الكونيِّ/ الفيزيائيِّ من قوانين صارمة كقانون الجاذبية، أو ما تعلق بالشق الإنساني/ المجتمعي من أنظمة ونواميس صارمة سماها في القرآن الكريم: سنناً، لن تجد لها تبديلاً، ولن تجد لها تحويلاً، وأمر بالنظر فيها ودراستها، ويمكن استنباطها بالاستقراء الصحيح للتاريخ، وسنطلق عليها اسم السنن التاريخية.

وبالنظر وبدراسة نظام الكون وجدنا ثلاثة أنواع من السنن، تجري وفقا للأسباب بأنواعها المختلفة: العقلية والشرعية وأسباب العادة، وكذلك وفقا للشرط العقلية والشرعية والعادية، والشروط اللغوية التي قد تنزل منزلة الأسباب، ولكنها ليست بالأسباب العقلية، فيمكننا **استعارة لفظ الأسباب** هنا لا لتعني الأسباب العقلية دون غيرها:

١) السنن الكونية (الفيزيائية)، ٢) والسنن التاريخية (الإنسانية/ المجتمعية)، ٣) والسنن الإلهية!

والسنن التاريخية (المجتمعية/ الإنسانية) هذه تحكم تدافع الناس بعضهم بعضاً في هذه الحياة الدنيا! فيغلب القوي، ويغلب من أخذ بالأسباب ويصل لمبتغاه!

وأما السنن الإلهية، فلها أسبابها أيضا، وشروطها، وتكون عاقبتها انتصار الحق على الباطل، وإقامة العدل في الدنيا، وما إلى ذلك! فتكون نتيجة التدافع بين الناس هي غلبة الحق لا غلبة القوي! ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ٢٤٩ البقرة.

وصحابة رسول الله ﷺ حين خالفوا عن طاعة الرسول ﷺ في غزوة أحد، ارتفعت عنهم سنة النصر الإلهية، لتخلفهم عن بعض أهم شروطها[٦]، وخضعوا للسنة الإنسانية الثابتة في انتصار القوي على الضعيف، انتصار من يعد العدة أفضل، سواء العدة الحربية من عتاد وجند وسلاح، أو الخطة والحنكة، فكانت الغلبة لعدوهم! قال تعالى يصف ذلك الموقف: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران/ ١٤٠]، فسمَّاهم بالناس، وعد ما حصل لهم في غمار ما يحصل للناس في مثل تلك المواقف! فخضعوا بذلك للسنن التي يخضع لها سائر الناس، لعدم استحقاقهم حصولهم على السنة الإلهية في ظل عدم طاعتهم للرسول ﷺ.

وقد وجدنا بالدراسة والاستقراء؛ أن السنن التاريخية تتطلب الأخذ بأسباب معينة لحصول المسبَّبِ أي النتيجة أو المعلول، (وننبه هنا للضرورة: أنها قد تكون أسبابا عقلية، أو قد تكون شروطا لغوية تنزل منزلة

[٦] ولسائل أن يسأل: فهل هذا يعني أن المسلمين لن ينتصروا إلا إذا لم يرتكبوا أي خطأ أو معصية؟ فنجيب بأن عصر الصحابة امتاز عن عصرنا بأنه أشبه ما يكون بالميزان الذي يراد له أن يستعمل على مر الزمان وفي أي مكان، فلا بد لهذا الميزان من أن يُعَيَّرَ ويُضْبَطَ تعييراً دقيقا، وضبطاً محكماً ليصلح للوزن في كل ظرف، فلئن أتاهم النصر مع المعصية وإن دَقَّت! فإن هذا قد يفتح المجال لمن بعدهم في أن يستسيغوا المعصية، وقد يتسع الشق على الراتق! فكان لا بد أن يكون التعامل مع الصحابة صارماً جداً، بحيث يكونون حجة على من جاء بعدهم، فلا يتصور أن يتحول المسلمون إلى ملائكة ليستحقوا النصر، ومع ذلك ففي قصة طالوت وجالوت عبرة مهمة إذ إن طالوت رفض أن يصحب معه من عصاه فشرب أكثر من غرفة اليد، لأن أمثالهم لا يصلحون لاستجلاب النصر من الله!

الأسباب وتختلف عن الأسباب العقلية في كثير منها، فكل حالة تدرس دراسة منفصلة، وأن كلمة الأخذ بالأسباب قد قيدت في الفهم عند كثيرين على الأسباب العقلية دون غيرها، مع أن الشرع استعمل أنواع الأسباب كلها، و أنواع الشروط كلها في خطابه فينبغي فهم الأخذ بالأسباب بهذه الشمولية لا بقصرها على الأسباب العقلية وحدها) أو تتطلب تصميماً لأنظمة سببية تتفاعل فيها الأسباب مع الشروط والحالات والطرق لإنتاج المُسَبَّبِ، أو للوقوع في مظنة إنتاج المسبب، وأما السنن الإلهية فإنها تتطلب الأنظمة السببية ذاتها، التي اقتضتها السنن التاريخية، وقد تحدد بعض الطرق أو الحالات أو الشروط التي تقتضيها أو تسمح بها تلك الأنظمة، دون غيرها من الطرق، وتمنع الأخرى، مع أن سلوك أي من الطرق والحالات يمكن أن يفضي للغاية، ويكون تجسيدا للقيام بالأعمال التي توقع في مظنة الشروط التي تنزل منزلة الأسباب، لإنجاح العمل وفقا للسنن التاريخية، إلا إن السنن الإلهية تقتضي تلك الطرق تحديدًا[٧]، فالسنن الإلهية تشترط وتسمح وتمنع، وتشق طريقة معينة لا ترتضي سواها، وتشكِّلُ عمليةَ التفاعل بين عناصر النظام السببي بقالب معين، وشكل معين من أخذ به استحق الرضا والقيام بشرط نصرة الله، بالتزامه، حتى وإن ضعف جانبه وفق أنظمة السنن التاريخية.

إن الله تعالى جعل لإقامة الدول وتغيير المجتمعات وإيجاد الرأي العام فيها، وتحوله لأعراف وقيم، وما إلى ذلك، جعل لذلك كله سنناً تاريخية مجتمعية لا تحابي أحدا، تنطبق على المسلمين وعلى الكفار، مُطَّرِدَةً مُنْعَكِسَةً، فهي بمثابة القوانين أو النواميس التي ينبغي سلوكها لإقامة الدول بشكل صحيح قابل للبقاء، ومن لم يتبعها، فقد يقيم دولة ولكنها ستكون هشة ولن تعتمد على العلاقات الطبيعية بين الراعي والرعية، لن تكون دولة تمثل إعطاء الرعية سلطانهم الذي يمتلكون لحاكم يحكمهم وفق منظومة أحكامٍ ارتضوها، ولا تكون الرعيةُ سنداً طبيعياً للحاكم، فيضطر الحاكم إذ يخالف السنة المجتمعية تلك أن يقيم ملكاً جبريةً وحكماً متجبراً يستند لقوىً خارجية، ثم ما يلبث حكمه أن ينهار ولا يعيش حياة طبيعية آمنة في مجتمعه الذي يحكمه، بمخالفته للسنن المجتمعية لإقامة الدول، أما من سلك تلك السنن المجتمعية فسيقيم دولة قابلة للاستمرار، تؤدي وظيفتها الرعوية، وتطبق النظام الذي وجدت من أجل تطبيقه كما يجب أن تكون الدولة!

فإذا ما أضاف للسنن التاريخية/ المجتمعية تلك الشروط التي أوجبتها السنن الإلهية، كانت دولته دولة إسلامية عالمية أذن الله تعالى بنصرها وتحقيقها وإقامتها وتمكينها، في ظل الهجمة الشرسة من الكفر وأنظمته التي تسهر الليل والنهار في عمل دؤوب يحاول منع قيامها،

فهذه السنن الإلهية تتمثل في طريقة الرسول ﷺ في التغيير، والتي تشكّل أحكاماً شرعيةً عمليةً واجبة الاتباع، وهذه الأحكام تأخذ بالاعتبار تلك السنن المجتمعية، ولا تهمل شيئاً منها، وتضيف إليها الأخذ بحالات وشروط

---

[٧] فمثلا: تقتضي السنن التاريخية الأخذ بحالات تستعمل فيها القوة لإيصال الفكرة للحكم، بعد حصول القناعات بها من قبل المجتمع، فقد تستعمل القوة المادية للوصول للحكم طريقة من طرق تتصل بالأخذ بأسباب التغيير التاريخية لتفعيلها، مثل القيام بالثورة أو بالانقلاب العسكري، وقد تمنع الأسباب الإلهية القيام بالأعمال المادية طريقة لتفعيل تلك الأسباب والشروط، وتسلك طريقا أخرى، لتفعيل عين الأسباب، أو الشروط فهي تحدد ما يجوز وما لا يجوز!

وطرق إضافية، مهمة مثل الصبر على الابتلاء، والثبات، والعمل في جو إيماني، وما إلى ذلك! أو تفصّل في الطرق المسموحة والممنوعة كما أسلفنا!

فكما أن المسلمين - بوضعهم الحالي، من قلة في الإمكانيات، والتفكك والضعف- غير قادرين على أن ينتصروا على أعداء الأمة من الشرق والغرب ممن جمعوا للأمة خيلهم وركابهم، وذلك وفق ما تقتضيه السنن التاريخية/ المجتمعية، إلا أن تقوم الأمة بالأخذ بالأسباب الإلهية للنصر في المعركة، فحين ذلك فقط ستنتصر الأمة على أعدائها تحقيقا، مهما بلغت قوة أعدائها، فلو توحدت لما انهزمت، ولو نصرت الله لنصرها، وهكذا، وكذلك الأمر، فإن الأمة إذا أخذت بالسنن الإلهية المتمثلة بطريقة التغيير التي سار عليها المصطفى ﷺ، فإنها ستقيم الدولة ويتنزل عليها نصر الله تعالى، بحول الله تعالى وقوته، مهما اشتدت وادلهمت الخطوب ومهما بلغ من كيد أعداء الأمة لها، وما لم تأخذ بالسنن الإلهية، فإنها لن تقيم دولة، ولن تنهض وستبقى في واد سحيق تتخطفها الأمم، وتتداعى عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، وفقا لسنة التدافع بين الأمم! إلا أن يتداركها الله برحمته!

## التغيير بين طريقة الرسول ﷺ والسنن التاريخية

يقتضي البحث في إقامة الدولة الإسلامية التمييز بين مجالين:

١. **المجال الشرعي**: وهو ما يتعلّق بأحكامٍ شرعيةٍ مستنبطة من طريقة الرسول ﷺ في التغيير. فهذه الأحكام تُعامل وفق درجتها؛ فرضها فرض، وندبها مندوب، وقطعيها قطعي لا يُخالف، وظنيها ظني تجوز فيه الاجتهادات وفق أصول الفقه. وهذا الجانب يمثل الأخذ بالسنن الإلهية في التغيير.
٢. **المجال السنني/التاريخي**: وهو البحث في تعريفات الدولة والمجتمع والحزب، وكيفية نشأة الكيانات المؤثرة وتفاعلها، وصراع الحق مع الباطل، وما تقتضيه السنن الإلهية والتاريخية. وهذه السنن التاريخية -الكونية منها والمجتمعية- قوانين مطّردة لا تحابي أحدًا، تجري أسبابها على المسلم والكافر سواء، ومن الواجب دراستها والأخذ بها.

**تطابق الطريقة النبوية مع السنن:**

تظهر دراسة طريقة الرسول ﷺ في إقامة الدولة أنّها تتطابق مع السنن التاريخية في خطوطها العريضة للتغيير في المجتمعات: المراحل الثلاث لتغيير المجتمع، وحمل الدعوة، والصراع الفكري والكفاح السياسي، والتثقيف، واستهداف الفئات القادرة على فرض التغيير. لقد شكّلت هذه الأعمال نظامًا سننيًا متكاملًا صيغ في قالب شرعي خاص بالمسلمين، يستجلب النصر والتمكين حتى في حال الاستضعاف.

**أهمية الجمع بين السنن الإلهية والتاريخية**

- **أولًا**: السنن التاريخية لا تتخلف ولا تجامل، ومراعاتها شرط حتمي لتحقيق الغاية. والسنن الإلهية لم تُلغها، بل جاءت لتضيف إليها وتوجّهها نحو غلبة الحق.
- **ثانيًا**: الرسول ﷺ نفسه أخذ بهذه السنن؛ فكما التزم بالشروط الشرعية الموحى بها، استعمل أيضًا الأسباب التي تقتضيها السنن التاريخية، سواء في الأعمال الكبرى أو الجزئية. فقد خاطب الناس في أسواقهم، بينما نحن اليوم نلزم باستعمال أساليب تناسب واقعنا مثل الترويج والإعلام والتواصل الرقمي.

**النتائج المترتبة**

يـؤدي اسـتقراء السـنن إلى حقيقـة أنّ طريقـة الرسـول ﷺ هي السـبيل الوحيـد الـذي يضـمن نشـوء الدولـة الإسلامية نشوءًا طبيعيًا واستمرارها. أما مخالفتها، فإمّا أن تنتج دولة متسلطة جبرية، أو دولة ناقصة الشرعية. وقد تختلف الأمم في تفاصيل الوسائل التي توصل القناعات إلى الحكم، لكن "السنة" نفسها لا تتغيّر: لا بد من وجود قناعات راسخة في المجتمع، ثم قوةٍ توصلها إلى التنفيذ.

وعليه، فالتزام الطريقة النبوية واجب لأنها حكم شرعي، وهي في الوقت نفسه التطبيق الأوفى للسنن التاريخية. دراسة التجارب الأخرى (كالثورة الفرنسية أو الأمريكية) تكشف تنوّع الأساليب التي سلكتها الأمم لتحقيق الأسباب التاريخية، لكننا نأخذ من ذلك دروسًا في فهم السنن، لا بديلاً عن الطريقة التي أمرنا الله بها، وننوه هنا إلى أن التغيير من الأمور الخاضعة للسنن التي أقامها الله في الوجود، وبالتالي فإنه من نافلة القول اعتبار نجاح تلك التجارب مرهونا بموافقتها للخطوط العريضة للسنن المجتمعية، وإلا فلا معنى لأن نعتبرها سننا إن كانت خاصة بقوم دون قوم!

## الجزء الثاني من الكتاب[٨]:

## إقامة الدولة واستمرارها في ظل قانون السببية والسنن التاريخية والسنن الإلهية[٩]

### توطئة مهمة[١٠]:

سنقوم في هذا البحث بوضع الأسس السليمة لبحث قوانين السببية والسنن الإلهية، والسنن التاريخية (بشقيها: الكونية- الفيزيائية، والإنسانية- المجتمعية)، لنضع الباحثين من بَعد على سكة قطار يسير بهم نحو المزيد من الاستنباط لأبرز هذه النواميس والسنن الفاعلة في التغيير، لمطابقتها على طريقة التغيير، ولدراسة حركة المجتمعات صعوداً وهبوطاً بناءً على أسسها الراسخة، فهذا البحث يشكل بداية الطريق لأبحاث بعده. على أن حزب التحرير قد قام باستنباط أكثر هذه السنن والنواميس وجرت في عروقه جريان الدم، فمنها أفكاره في كتاب التكتل الحزبي مثلا، ويعتبر كتاب التكتل الحزبي الدستور والمرجع الأساسي لنا في سير الحزب بناء على طريقة الرسول ﷺ، وبناء على إدراك سنن التغيير وتجارب الحركات والأحزاب التي سبقتنا واستفادتنا من أخطائها ونواقصها[١١]، ومنها ما توزعت به نشراته وأعماله من بيان طرق صناعة الرأي العام وقيادة الأمة، والعملية الصهرية وغيرها المئات من الأفكار، إلا أننا نريد بلورة تلك من خلال زاوية السنن التاريخية والإلهية ليحدث الربط بين الأمرين على أتم وجه من الفهم والبحث!

لا بد عند تغيير أي شيء أن نحدد واقعه بمعنى تحديد واقع المجتمع، وواقع الدولة، وواقع الكتلة المنوط بها تغيير المجتمع والدولة[١٢]، الأمر الثاني لا بد لنا من تحديد واقع المشكلة القائمة في المجتمع والدولة ومعرفة أسبابها ونتائجها، ثم الانتقال إلى تحديد الحل المناسب بتحديد الغاية والأعمال التي يجب القيام بها للوصول إلى النتائج المرجوة[١٣]،

---

[٨] كتاب: هل حدد الرسول ﷺ طريقة لإقامة الدولة الإسلامية.

[٩] لله تعالى الفضل الأعظم والثناء الجميل في إخراج هذا الفصل بهذه الصورة وقد رفدني الأستاذ يوسف الساريسي بالمعلومات، والمراجعة، والمراجع، والأفكار!

[١٠] الأستاذ يوسف الساريسي.

[١١] ورد في نشرة للحزب بعنوان: "الخطوط العريضة التي أعطاها حزب التحرير للمحامين الذين يترافعون عن شبابه" "كل ذلك دفع بِخُلَّصٍ واعين من أبناء هذه الأمة العظيمة إلى التفكير في هذا الواقع، الذي آل إليه المسلمون، ودفعهم إلى دراسة هذا الواقع، **ودراسة الأسباب التي أدت إليه**، ودراسة الحركات التي قامت لإنقاذه، مما وقع فيه، **سواء أكانت حركات إسلامية أم كانت حركات قومية أو وطنية**، ودراسة **الأسباب التي أدت إلى إخفاقها**، وعدم نجاحها، **ودراسة الحركات الكبرى التي كان لها أثر في التاريخ، ودراسة أسباب نجاحها**، ودفعهم إلى الرجوع إلى أحكام الإسلام، ودراستها دراسة واعية، من كتاب الله وسنة رسوله، واجتهادات فقهاء المسلمين، ودراسة كيفية سير الرسول ﷺ لبناء الكيان السياسي الذي طبق فيه هذه الأحكام" ٤ / ذي القعدة / ١٤٠٣هـ.١٢ / آب / ١٩٨٣م.

[١٢] وهذا ما قام به الحزب في الكثير من الكتب (التكتل الحزبي) والنشرات.

[١٣] وهذا الأمر قام به الحزب في الكثير من الكتب مثل نداء حار للمسلمين من حزب التحرير، ومفاهيم حزب التحرير، والشخصية، والعديد من النشرات.

توصلنا في هذا البحث أنه من أجل الوصول إلى الغاية، فإنه بالإضافة إلى التزام الحكم الشرعي في اتباع طريقة الرسول ﷺ في التغيير في كلياتها وجزئياتها، والتي سنثبت في هذا البحث أنها تتوافق مع السنن الإلهية، والتاريخية (المجتمعية) في تغيير المجتمع وإقامة الدولة، فإنه لا بد من دوام البحث في السنن التاريخية واستنباطها للأعمال الجزئية لتنجح الأعمال الأساسية على أتم وجه.

وقلنا بأن الأسباب التي تقتضيها السنن التاريخية قد تحصل بطرق متعددة وقد يكون الشارع قد حدد لنا أيها يمكن سلوكه وأيها يمنع سلوكه! مع أن هذه الطرق جميعا قد تفضي للأخذ بالأسباب التي تلزم لقيام السنة التاريخية – المجتمعية، إلا إن المنع والإلزام الذي قامت به الشريعة يدخل في باب الأخذ بالسنن الإلهية وهو ليس مسألة اختيارية! وتوصلنا إلى سنة أخرى وهي أن الفرد بوصفه الفردي لا يستطيع تغيير المجتمع، بل لا بد من حزبٍ منظَّمٍ على نحو صحيحٍ يقوم ببث الأفكار وحملها إلى الناس لتغيير الفكر القائم المنحط واستبدال الفكر الناهض به، ولهذا لا بد من أقامة حزب سياسي، وكذلك توصلنا إلى سنة النهضة وهي أن النهضة الحقيقية تقوم على المبدأ وأن المبدأ الصحيح للنهضة هو الإسلام، وتوصلنا إلى استنباط طريقة الرسول ﷺ في التغيير كما فصلنا في هذا الكتاب من قبل في جزئه الأول؛

### فما الذي يدعونا لنكون متأكدين من أن طريقة الرسول ﷺ موصلة حتما للخلافة؟

الدليل الأول والأساس هو الاستدلال الشرعي بالاستنباط الصحيح للطريقة من سنة الرسول ﷺ، وهنا قام حزب التحرير بإعادة النظر مرات ومرات لمراجعة الطريقة ووجدها سليمة وصحيحة وستحقق الغاية بإذن الله تعالى، وأما المعيقات فقد تؤخر الوصول للغاية، ولكنها لن تمنع تحقيقها. وهذا الالتزام بالطريقة هو قوام تحقيق السنة الإلهية التي تقع في مظنة تحقيق شروط نزول النصر وبالتالي فإن الحيدة عن تلك الطريقة تورد المهالك أو لا تقيم الدولة قياماً صحيحاً طبيعياً!

الأمر الثاني الذي يدعونا للتأكد من الوصول هو مراعاة الطريقة للنواميس والسنن الفاعلة في تغيير الدول والمجتمعات، وتسخيرها لإنجاز الهدف المطلوب والإسراع به وإزالة العوائق أمام تحقيقه، ولأن هذه العوائق متغيرة بتغير الظروف في ساحة الصراع بين الحق والباطل، فدأْبُ أعداء الله أن يخططوا وينفذوا سياسات تحاول إطالة عمر الباطل، فكان لا بد من طرح دراسات للتغلب على تلك العقبات، وهذا دأب الحزب إذ يداوم على كشف المخططات ودراسة سبل التغلب على العقبات، وهذا ما نحاول طرحه في هذا البحث، والتأصيل له، كي يكون رديفا لتلك الدراسات، للبحث في العلل والأسباب والأساليب، وطرق تفعيلها، والمعوقات وطرق إزالتها، حتى نكون أخذنا بالأسباب التي تقتضيها السنن التاريخية والسنن الإلهية، فيتحقق الوصول للغاية بإذن الله تعالى، ويتحقق الوقوع في مظنة تنزيل النصر علينا بإذن الله تعالى.

والأمر الأهم هو أن الخطة السببية اللازمة في السير للوصول إلى الغاية قد تكون صحيحة ومثالية قبل البدء بالعمل، ولكن لا يمكن وضع خطة سببية فاعلة للموانع والمعيقات إلا إذا كانت الموانع موجودة عند وضع الخطة الأساسية، ولكن العوائق تأتي -عموماً- أثناء السير لتحقيق الغاية ولا بد من العمل على إزالتها، ولا بد من اتخاذ إجراءات مناسبة للتغلب عليها، فكيف نفعّل ذلك؟

التغلب على العوائق أمام الخطة السببية يكون ببحث واقع كل عائق ثم البحث عن الأسباب التي تزيله أو الشروط التي تحبط عمله، ليصبح غير فاعل أمام سير الحزب، وكذلك لا بد من معرفة السنن والنواميس التي تتحكم في العوائق ومحاولة استغلالها من أجل تعطيل عمل العوائق أو تجاوزها دون الاصطدام بها، فمثلا الملاحقات الأمنية والمخابرات تحاول إحباط أعمالنا فندرس كيفية عملها، وكيف تقوم باختراق الحركات، والسنن والقوانين الناظمة لعملها ثم نعمل على التغلب عليها، أو تجاوزها، لئلا تؤثر في جسم الكتلة وهكذا، وكذلك يحصل التكتيم (أو التشويه) الإعلامي على أعمالنا، فكيف نتجاوز هذا العائق، وكذلك وجدنا عائق استعمال الدولة العميقة لمحاولة إحباط قيام الدولة، فوجب دراسة طرق تفكيك الدولة العميقة وإحباط فاعليتها، وهكذا.

وهذا لا يعني أن قيام الدولة يتوقف على إزالة كل المعوقات، أو على أن تكون الخطة السببية بالغة الإحاطة بالغة الدقة، إذ إن هذا قد يُدخل العمل في دائرة التكليف بما لا يطاق، فلا بد من اختيار ما هو قطعي من أحكام الطريقة والتزامه بحذافيره، وما يغلب على الظن والتزامه بحذافيره، ومحاولة بذل الوسع في تحصيل العمل بهذا كله، ولكن تفاصيل الجزئيات المتعلقة به قد تتبدل بسرعة يصعب معها ملاحقتها، فمثلا، من وسائل التبليغ اليوم استعمال وسائل التواصل، وهناك تقنيات تتسارع في التقدم والتغير وتحتاج لتقانة فائقة، وما أن تتقن عمل بعضها حتى يظهر لك غيره، فأن تواكب ذلك أمر بالغ الصعوبة، فلا يمكن أن نقول في هذه الأحوال: إذا لم نتقن أحدث التقنيات ونحسن استعمالها ومخاطبة الناس بها، ونداوم على الجديد فإن القطار سيسبقنا ونبقى في الخلف لا يستمع لنا أحد!

## أسباب دنيوية، مدنية، مجتمعية ينبغي دراستها!

إذن: فكيف نتأكد من أننا أخذنا بالأسباب الدنيوية للوصول إلى الغاية؟ إن الجواب يكون بدراسة سيرة النبي ﷺ ودراسة الحركات الجماعية التي حققت أهدافها ووصلت إلى النهضة في التاريخ ومحاولة فهم أسباب وآليات وصولها لننتفع بها[١٤]، إن كانت تلك الأسباب والآليات جارية على أساس السنن التاريخية بشكل صحيح، فالسنن

---

[١٤] لرب سائل يقول: ألا يتناقض هذا مع الاقتصار على الأخذ بما نزل به الوحي؟ فنجيب: إن سنة تغيير الأنظمة سنة مجتمعية لا تختص بقوم دون قوم، وإلا لم تكن سنّة! لقد فصلنا في باب: مقدمة لا بد منها لفهم الكتاب في العلاقة بين السنن الإلهية والسنن التاريخية (المجتمعية)، وبينا فيه أن السنن الإلهية، وهي هنا تتمثل في أحكام الطريقة، قد راعت السنن المجتمعية وفصلت في الأسباب والأعمال والطرق التي يمكن سلوكها وتلك التي لا يمكن استعمالها في طريقة التغيير، فهناك إذن جامع مشترك بين السنن المجتمعية الإنسانية الثابتة وبين السنن الإلهية التي بنت على تلك السنن وخصصت وأوجبت ومنعت وصقلت تلك السنن وفق طريقة ثابتة، لذلك فهذا يضمن عدم إدخال ما ليس من الطريقة فيها. أما الخشية من الأخذ من الشرق أو الغرب والاستفادة من حركات التغيير العالمية، فعندنا الضوابط اللازمة للأخذ والترك، من **خلال** مقياس الحضارة والمدنية، والنظر في الأعمال التي قد تحقق وجود الأسباب، فمن هذه الأعمال ما **منعته الطريقة الشرعية**، فلا يؤخذ به، ومنها ما حددته بدقة **فيجب التزامه على وجهه**، وهكذا، **وكذلك الأمر فالتفريق بين الطريقة وهي ثابتة لا تتغير**، لا تؤخذ إلا من الوحي، **وبين الوسائل والأساليب** وهي مباحة، فالأخذ بتقنية الراديو واستعماله لإذاعة خطبة ليس إلا من الوسائل المباحة، واستعمال تقنيات وسائل الاتصال الاجتماعي أمر مباح من الأساليب المباحة للتخاطب، فلا تعارض، وهو من المدنية وليس من الحضارة، وقد تم التفريق بينهما بدقة، فالأشكال المدنية مثل الحاسوب والراديو والمواقع الالكترونية من الأشكال المدنية التي لا تؤثر بالحضارة، وهي عالمية يجوز أخذها، وكذلك السنن التاريخية التي تحكم حركة المجتمعات أمرنا الله تعالى بدراستها والاستفادة منها لأنها نواميس أودعها الله تعالى في الكون والإنسان والحياة والمجتمعات وأمرنا باستنباطها والأخذ بها، وسنة التدافع بين الحق والباطل سنة مجتمعية خالدة ذكرها الله تعالى في القرآن وبيَّن نواميسها وأسبابها وأمرنا بدراستها لنتفاعل معها على بينة! فهذا من هذا! وقد رأينا تطبيق هذا في الأعمال الجزئية الخادمة للأعمال الشرعية

التاريخية تُفهم بالاستقراء والاستنباط، وليست كل تجربة تعني أنها قامت بناء على السنن التاريخية[15]، ولا شك أن السنن التاريخية تلك إن كانت جارية على أساس السببية، فإنها مما نظم الله تعالى الكون بناء عليه، **ولكن تفاصيل الأخذ بأسبابها هنا مما قد تفترق فيه التجارب الإنسانية وهنا يدخل ما يجوزوما لا يجوز، ما سمحت به الطريقة الشرعية وما منعته**، لذلك فهذا مرتقى صعب، ودقيق، وينبغي فيه امتلاك آليات العقل والفهم

اللازمة للطريقة، مثل ما يتفرع عن حمل الدعوة من دعاية وإعلان مثلا، فالدعاية شكل مدني عام، سواء أكانت دعاية لمنتج يباع ويشترى، أو كانت دعاية لفكرة، فالدعاية أسلوب، ولها تقنيات لا تغير من طبيعة الفكرة، بل تدرس الآليات التي تحمل بها الفكرة، لتبلغ الطرف الآخر وتؤدي غرضها، وهذا يشبه الاستفادة في الخطابة من المذياع والحاسوب، فهما آلات ولا يغير في مضمون الرسالة شيئا! ثم إن الحزب درس جميع الحركات الجماعية المحلية والعالمية وذكر ذلك في كتاب التكتل سنة ١٩٥٣، وذكر كيفية استفادته من تجاربها عموما، فلا مانع مثلا من الاستفادة من تجربة الثورة البلشفية في مجال السنن والقوانين **ما دامت من المباحات** ولا تخالف الشرع، فالشرع أمر بإقامة حزب، ولم يفصل في قوانينه الإدارية، ولا في الشكل الأنجع الذي يضمن حسن تكتله، بل **ترك ذلك للسنن التاريخية التي تحكم إقامة الأحزاب، فهي قوانين مجتمعية مدنية**، مثل بناء البيوت على أسس ونوافذ وأبواب وجدران، فهي عالمية، وهذا الفهم فهمه الإمام أبو حنيفة في القصة المشهورة: جاء عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ﷺ كما ورد في أحكام القرآن للجصاص وغيره من المراجع الموثوقة: حدثنا الحماني قال: سمعت ابن المبارك يقول: لما بلغ أبا حنيفة قتل إبراهيم الصائغ بكى حتى ظننا أنه سيموت، فخلوت به فقال: كان والله رجلا عاقلا، ولقد كنت أخاف عليه هذا الأمر؛ قلت: وكيف كان سببه ؟ قال: كان يقدم ويسألني، وكان شديد البذل لنفسه في طاعة الله وكان شديد الورع، كنت ربما قدمت إليه الشيء فيسألني عنه، ولا يرضاه، ولا يذوقه وربما رضيه فأكله، فسألني عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن اتفقنا على أنه فريضة من الله تعالى فقال لي: مد يدك حتى أبايعك، فأظلمت الدنيا بيني وبينه؛ فقلت: ولم؟ قال: **دعاني إلى حق من حقوق الله** فامتنعت عليه وقلت له **إن قام به رجل وحده قتل، ولم يصلح للناس أمر**، ولكن إن **وجد عليه أعوانا صالحين ورجلا يرأس عليهم** مأمونا على دين الله لا يحول. الخ. فقد فهم الإمام أبو حنيفة أن من سنن التغيير أن يقام من خلال حزب سياسي عليه أمير مطاع. وأما فيما يأتي من الغير فيما يخالف الشرع فنرفضه، فنحن مثلا **لا نجيز وجود جناح مسلح** كما تفعل باقي الحركات وخصوصا اليسارية لأنها تخالف طريقة الرسول ﷺ، ولكننا استفدنا منهم في كيفية التكتيل وكيفية تحول الحزب من كتلة حزبية إلى حزب متكامل، وكذلك استفدنا فكرة مبدئية الصراع والكفاح السياسي ضد الخصوم الفكريين والسياسيين، وكذلك نحن نقول بوجود سنن وقوانين تحكم سير التغيير للمجتمعات والدول، ولكننا نخالف الشيوعيين الذين يقولون بالحتمية التاريخية من حيث إن التاريخ تحكمه قوانين حركة التاريخ التي تجري جبرا عن الناس باتجاه تصاعدي نحو التطور والتقدم لإقامة المجتمع الرأسمالي ثم المرحلة الاشتراكية وانتهاء بالشيوعية، فنرى أن افعال الناس وتصرفاتهم لها تأثير في سير حركة تغيير المجتمع وهي ليست حركة جبرية -كما يدّعون-، بل الإنسان فاعل فيها ومؤثر صعودا ونزولا حسب أفكار النهضة والانحطاط الفاعلة في المجتمع والدول، **أي إننا نلزم صحة التصور الإسلامي أيضا ولا ندخل فيه جسما غريبا أو قالبا غريبا للفهم كقالب المرونة وهو قالب رأسمالي مثلا**، وهكذا.

فهذا ما ينبغي فهمه هنا فلا يفتح الباب على أهواء من يريدون تغيير الطريقة وإدخال طرق مخالفة للشرع فيها مثل التغيير من خلال مجالس النواب، أو التغيير من داخل الأنظمة، وهكذا، فهذه مخالفة للشرع، وليست من دائرة الأساليب المباحة! ولا تشبه المذياع والصحيفة كأدوات لنقل الفكرة! ولا يمكن أن يصح اجتهادٌ يقوم عليها بنسبةٍ إلى الشرعِ صحيحةٍ!

[15] واستنباط السنن يكون بتعريف المجال أولا، فيتم تحديد ظاهرة اجتماعية أو تاريخية محددة، مثل النهوض والانحطاط، والتداول والاستبدال، ثم نجمع النصوص الشرعية ذات الصلة، (نحو: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾)، أو بالدراسة العقلية لتكرر جريان الأقدار وفقا لعلاقاتها بهذه الظواهر، (الاستقراء التاريخي المُنَظّم) باستحضار شواهد عبر حقب تاريخية وثقافية مختلفة، مع تحديد المتغيّرات والتمييز بين السبب، والشرط، والمانع. (بالاستقراء والاستنباط)، ثم يتم البحث عن الاطراد، وعدم المحاباة، ويتم اختبار التكرار عبر أزمنة وأمكنة مختلفة، وفاعلين مختلفين، إن تكررت النتيجة بتكرّر الأسباب، فتكون سنة، لكن هذه الدراسة تستدعي دراسة ظروف أخرى مؤثرة قد تعترض تفاعل الأسباب والمسبّبات فتؤثر فيها، فلا تصلح تلك الأمثلة لإثبات السننية أو عدمها، بل تُدرس الأمثلة التي تحقق فيها ذلك التفاعل تحققا مطردا، ثم يجب النظر في السنن أهي مجتمعية إنسانية خالصة، تجري على البشر كلهم، أم هناك ارتباط بشروط إلهية تدير دفة تحرك العلاقة بين الأسباب ومسبباتها، وتجريها على نحو معين، فتكون سننا إلهية، وإلا فهي سنن مجتمعية، إذا تساوت الشروط الدنيوية بين جميع الأطراف، فإذا رُفعت شروط السنن الإلهيّة المتعلقة بالنصر، خضع المؤمنون لقانون التدافع العام.

والدقة والاجتهاد الصحيح، والمرجع النهائي فيه للصواب والخطأ هو قياس الأفكار على الوحي وعلى طريقة الرسول ﷺ في التغيير.

فمثلا توصَّل حزب التحرير في كتاب التكتل الحزبي إلى سنة مجتمعية وهي أن التغيير الفاعل حتى يكون مؤثرا في المجتمعات، فإنه يكون فاعلا في الأماكن التي يكثر فيها الفساد والظلم والإلحاد، حيث يكون الدافع للتغيير لدى الناس أكبر من العمل في المجتمعات المستقرة والخالية من الفساد والظلم، وكذلك توصَّل إلى أن سنة أخذ الحكم بالتسلط والقوة دون رضى الناس يوجِدُ متسلطين على رقاب الناس فترة من الزمن، ولكن ذلك لن يقيم دولة حقيقية، ولذلك لا ينفع الانقلاب العسكري دون وجود الرأي العام، وتوصَّل إلى أن المتسلطين يلجأون إلى السند الخارجي لتثبيت حكمهم، فيكونون عملاء لمن يساندهم من دول الكفر والاستعمار.

وتوصَّل حزب التحرير كذلك إلى ضرورة وجود برنامج عمل تفصيلي لتنفيذ المبدأ عند الوصول للحكم ولا ينفع الارتجال، فقام بتأليف مجموعة من الكتب اللازمة للدولة كالنظام الاقتصادي، والاجتماعي، والحكم، والدستور، ونظام التعليم، وغيرها.

فليس هدف الحزب هو أخذ الحكم، بل استئناف الحياة الإسلامية من خلال إقامة الدولة، فأخذ الحكم أمر أسهل من إقامة الدولة، لأنه يحتاج إلى أخذ أهل القوة بجانب الحزب، وهذا أمر قد يتم من خلال الاتصال ببعض السفارات التي لها تأثير على الجيوش فيكون الوصول سهلا كما فعلت الكثير من الحركات الوطنية والقومية، وليس ذلك مما يفعله حزب التحرير البتة، وبالتالي لا يمكن مقارنة الأمرين معا! لأننا نريد **بناء دولة مبدئية و إقامة الحكم على فكرة الإسلام** فليست غايتنا الوصول للحكم بأي وسيلة، بل الحكم هو طريقة لتنفيذ المبدأ وليس هو غاية بحد ذاته.

## عوائق وعقبات، تقف في طريق الوصول للغاية:

ولكن هل تم انجاز المهمة؟ ولماذا تأخرنا حتى الآن؟

القضية لا تتعلق بالفكرة أو الطريقة أو العمل الحزبي، بل تتعلق بدراسة الموانع والمعيقات أمام نشر الدعوة وأخذ النصرة، فبعد الدراسة وجد الحزب أن من أهم المعيقات هو حصار النشر أمام أفكار الحزب، ولكن هذا الأمر تم **التغلب عليه نسبياً** بعد انتشار الانترنت والمواقع الدعوية والفضائيات والجرائد منذ أكثر من عشرين سنة، ولكن الأمر ما زال بحاجة لتحسين فعاليته لتحقيق هدف وصول الفكرة والرأي لكل الناس!

أما مسألة النجاح في طلب النصرة فهذا أمر بحاجة إلى أهل الاختصاص في الجيوش لبحثه وإزالة المعيقات من أمامه وهو خارج شأننا وبحثنا هنا على الرغم من أهميته، فليست عندنا تفصيلات تفيد في بحثه.

وكذلك لا بد من الانتباه إلى سنة التدافع بين الناس، خصوصاً ونحن لا نواجه الحكام والغرب فحسب، بل نواجه الكثير من الحركات والأحزاب ومنظمات المجتمع المدني والجمعيات النسوية وغيرها ممن يعمل لهدم ما نبنيه من أفكار وشل عملنا السياسي وفاعليتنا، ومزاحمتنا على قيادة المجتمع، فكيف نواجه هذا التدافع مع هؤلاء؟ ونعاني كذلك من فهم بعض الحركات السيء للاسلام، ومحاولتهم تشويه صورتنا وأفكارنا ونزع ثقة الناس بنا منا، وكذلك أحيانا تشويه صورة الإسلام ككل أمام العالم!

كذلك لا بد لنا من الانتباه إلى سنة الابتلاء والتمحيص للدعوات، وهل صبرنا على الإيذاء، وهل نحن مستمرون في السير حسب ما يرضي الله؟ لا بد أن تكون الصورة واضحة لحملة الدعوة لفهم سنن الابتلاءات والتمحيص فيجتازوا الامتحان! وهل نستحق تنزل نصر الله علينا بأن نَصَرْنا دينه؟ أم قصرنا في بعض الجوانب الحزبية أو الفردية مما أخر النصر؟

بل فوق ذلك، هل تأخر النصر؟ أم إننا نسير نحوه سيراً حثيثاً، يتناسب مع عظم الغاية، وعظيم المجهود الذي تستوجبه هذه الغاية، فأن توقظ أمة من سباتها، وأن تنفث فيها روحاً حاول الغرب إخمادها باذلا في ذلك أقصى جهوده، وأن تصنع الأسس التي ستقوم عليها الحضارة الإسلامية من جديد، وأن تواجه الشرق والغرب في هذا كله، مع كل ما يسخر من الإمكانيات لإعاقته ومنعه، على ضعف الإمكانيات التي تمتلكها إذا ما قيست بما يقابلها، ليس بالأمر الذي يتصور حصوله في بضع سنين، فالمقياس إذن سيكون: كم قطعنا في شوط عملنا الجبار هذا، وكم أحدثنا من التغيير؟ لا شك أن الأرقام والإحصائيات التي وثقناها في فصل: **هل تم بناء الرأي العام المنبثق عن الوعي العام في الأمة الإسلامية؟ هل تم إحداث الانقلاب الفكري والشعوري في الأمة الإسلامية؟ في كتاب: هل حدد الرسول ﷺ طريقة لإقامة الدولة**، مبشرة للغاية.

الموضوع إذن عميق جدا ومتشعب وبحاجة إلى جهود جبارة وعقول مبدعة لتخطي كل العقبات المستحدثة، من خلال البحث عن السنن والنواميس التي تعجل في الوصول إلى الأهداف، وحسن استنباط هذه السنن والنواميس التي تخص كل فعل وكل أمر وكل أسلوب، والأخذ بالأسباب الموصلة للأهداف،

أعان الله الأمير والحزب والأمة على القيام بهذه المهمات العظيمة والجليلة، وهي بحاجة إلى تشمير السواعد في البحث والاستنباط وتنزيل السنن والنواميس بشكل صحيح على الواقع!

## السنن التاريخية والسببية بين جيلين:

ينبغي أن نعلم أن مفهوم السببية، والسُّنَنية من المفاهيم الأساسية عند المسلمين، ويجب أن يظل واضحاً لديهم لأن رسالتهم في الحياة رسالة عملٍ، ويعيشون في الحياة من أجل غاية محددة. والسببية، والسنن من المفاهيم الإسلامية التي تتصل بسلوك المسلم اليومي، حيث إنه لا يتأتى له تحقيق عمل من أعماله اليومية دون مراعاة لهذه القاعدة، أي قاعدة السببية؛ وبالمثل تقع على الأمة الإسلامية طوام عظيمة إن لم تتنبه إلى السنن الكونية والإلهية، وتأخذها بالاعتبار.

وحين أدرك المسلمون الأوائل في عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومَنْ بعدهم من أجيال النهضة هذه المفاهيم، حين أدركوها إدراكاً تاماً وفهموها فهماً صحيحاً مبلوراً، ومارسوها مفهوماً في تصرفاتهم وسلوكهم حققوا أعمالاً أشبه بالمعجزات إذا قيست بوقتنا الحاضر، إذ حملوا الإسلام ونشروا دعوته وفتحوا الفتوحات في أرجاء الأرض، وأقاموا صرح أعظم حضارة عرفتها البشرية في أسرع وقت مرَّ بتاريخ أمة من الأمم مع أن وسائل الاتصال والتنقل كانت الناقة والبعير على أحسن حال.

## التاريخ ليس كومة من الأحداث!

"قد يفسر الإنسان العادي أحداث التاريخ بوصفها كومة متراكمة من الأحداث، وقد يفسرها على أساس الصدفة تارة وعلى أساس القضاء والقدر[١٦] والقدرية الغيبية[١٧]، والتعلل بالاستسلام الغيبي لأمر الله سبحانه وتعالى تارة، وكأنه ريشة في مهب الريح، ولكن القرآن الكريم قاوم هذه النظرة العفوية وقاوم هذه النظرة الاستسلامية، ونَبَّهَ القرآنُ الكريمُ العقلَ البشري إلى أن لساحة أحداث التاريخ، ولحركة تغيير المجتمعات، وللتدافع بين الأمم سننٌ ولها قوانينها، وأنها لا تسير خبط عشواء، وأنه لكي تستطيع أن تكون إنسانا فاعلا مؤثرا، ولكي تكون الأمة فاعلة مؤثرة، لابد لنا أن نكتشف هذه السنن[١٨]، لابد لنا أن تتعرف على هذه القوانين لكي نستطيع أن نتحكم فيها، وإلا تحكمت هي فينا ونحن مغمضوا العينين"![١٩] فإدراكها إذن ليس من باب الترف الفكري!

"وهذا ما تؤكد عليه العقيدة الإسلامية، حيث بينت لمعتنقيها أن حركة التاريخ وسنة التاريخ، إنما تحدث وفق نظام وتقدير خاص، وكل ما يحدث في الوجود انما يقع في إطار سنة الله المحكمة بربط الأسباب بمسبباتها، قال

---

[١٦] راجع فصل: **القضاء والقدر والنصر والرزق والإماتة أين يقع بحث السنن والسببية منها؟** في هذا الكتاب!

[١٧] فبدلا من العمل على إيجاد الإسلام في معترك الحياة، واستئناف الحياة الإسلامية وإقامة الدولة، قعد من قعد بانتظار المهدي!

[١٨] لقد برزت هذه النظرة الصحيحة لمفهوم السنن والسببية في مواطن كثيرة في حياة الرسول ﷺ والصحابة الكرام، خصوصا في باب الانتقال من التواكل إلى حقيقة التوكل والأخذ بالأسباب، وأنه ﷺ كان يعد للقاء العدو عدة من لا يعتمد إلا على هذه الأسباب، ومن ثم بعد أن يأخذ بالأسباب يتكل عليه وكأن العدة التي أعدها وهذه الأسباب ليست بشيء، ولم يكن ﷺ يقعد عن الجهاد مثلا ويكتفي بالدعاء حين يكون عليه أن يجاهد، وقد قام ابن خلدون بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه، ثم بعد ذلك بأربعة قرون اتجه الفكر الاوروبي في بدايات ما يسمى بعصر النهضة هذا الاتجاه، ولكي يجسد هذا المفهوم، بدأ بأبحاث متنوعة ومختلفة حول فهم التاريخ وفهم سنن التاريخ، ونشأت على هذا الأساس اتجاهات مثالية ومادية ومتوسطة ومدارس متعددة، كل واحدة منها تحاول أن تحدد نواميس التاريخ. وقد تكون المادية التاريخية أشهر هذه المدارس وأوسعها تغلغلا وأكثرها تأثيرا.

[١٩] السيد محمد باقر الصدر، بتصرف كبير.

تعالى ﴿**وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ**﴾ [ص، ٢٧]، ﴿**وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الدخان، ٣٨-٣٩]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء ١٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١١٥ المؤمنون]، فكل ما في الكون لم يخلق عبثاً، وكل ما يجري في دنيا البشر ليس اعتباطياً، ومن هنا لا سبيل لنهضة الأمة إلا بمراعاة هذه السنة المطردة، ومراعاةُ هذه السنة يدفع بالأمة كي تنطلق في حركتها النهضوية بكل جدية وإخلاص، مهتدية في ذلك بهدي الله تعالى الذي يوجهها إلى النظر في أن أسباب انحطاط الأمم واندثارها بعد رقيها وظهورها إنما هو ناشئ عن إهمالها لأساسها الفكري ومنطلقها العقائدي، لأن النهضة للأمم لا تكون إلا بسبب رقيها على أساس روحي، وارتكازٍ فيها على أساسٍ فكريٍ عقدي، وليس على أساس الازدهار الاقتصادي، والتقدم العلمي، والتوسع العمراني؛ قال الله تعالى ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء ١٦]، وقال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦۖ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت ٤٠] وقال سبحانه ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [آل عمران ١١]، فهذه الآيات تبين مدى الترابط السببي بين تخلف الأمم وانحطاطها وبين إعراضها عن المنطلق العقدي الذي كلفها الله به، وهناك العديد من الآيات التي تربط بين نهوض الأمم، ورفعتها وحركتها التاريخية، ودورها القيادي، و بين التزامها بعقيدتها وتعيين وجهة نظرها في الحياة على أساسها، وجعل ذلك هو السبب الرئيس في كينونتها خير الأمم على الإطلاق من مثل قوله سبحانه ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف ٩٦]، فعدم أخذهم بالأسباب التي وضحتها السنن الإلهية لهم أثمر أخذهم بالعذاب، ﴿فَأَخَذْنَاهُم **بِمَا** كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، والباء هنا سببية، فلا يصح بحال إهمال هذه السنن!

وهذا هو السر في انطلاقة المسلمين الأولى، إنما كان بفضل إدراك المسلمين الأوائل أن النهضة هي الارتفاع الفكري على أساس الإسلام، وتعيين وجهة نظرهم في الحياة على أساس العقيدة الإسلامية، وإقامة الدولة والأمة على هذا الأساس نفسه، وبناء العلاقات، وعلاج مشكلاتهم في الحياة وفق الأحكام الشرعية، وسيرهم في الحياة كلها وفق توجيهات الإسلام، وتفاعلهم مع العقيدة الإسلامية التي تهدي الإنسان المؤمن بها للتي هي أقوم في كل أمر من الأمور"[٢٠]

وحين طرأت الغشاوات على المفاهيم الإسلامية، وفقدت لمعانها في أذهان المسلمين المعاصرين وأجيال ممن قبلهم رمت بهم إلى عصور الظلام والانحطاط، حين فقد مفهوم السببية وضوحه لديهم واختلط بمفهوم التوكل؛ فلم يفهموا التوكل حق فهمه، واختلطت أيضا بمفهوم القدر والعلم الأزلي، وقعدوا عن تحقيق رسالتهم في الحياة، قعدوا عن العمل، بل قعدوا عن إزالة سيطرة الكفر وهم يلمسون وجوده وخطره على دمائهم وأموالهم ومقدساتهم وأعراضهم يومياً، وفي كل لحظة من لحظات حياتهم. وحين أهملت الأمة الأخذ بالسنن، وبالسببية،

---

[٢٠] دور السنن الإلهية في نهضة الأمة الإسلامية. إحسان سمارة. بتصرف.

وأهملت أيضا فهم مفهوم التوكل حق فهمه، وفهم معنى أن النصر من الله وحده، والتمكين واستبدال الخوف أمنا من الله وحده، مشروطا بأعمال تقوم بها، تخلفت الأمة الإسلامية عسكرياً وعملياً وفكرياً واقتصادياً وسياسياً وأصبحت نهباً بين دول الكفر تتقاسم ثرواتها وخيراتها، وتسخر دماء المسلمين للمحافظة على هذه الثروات والخيرات؛ إلى أن وصلت إلى ما هي عليه الآن من ترك إسلامها وتساهلها في أبعاده عن الحياة من قبل حكامها وتقليدها للغرب، بل ولعشقها لأفكاره ومحاكاته في مظاهر الحياة وقشورها فظلت الأمة ولا تزال تنحدر من السيئ إلى الأسوأ[21].

حين أغفلت الأمةُ الإسلاميةُ السُّنَنَ الناظمة لحركة التدافع بين الأمم، وغفلت عن مقومات قوتها، وأهملتها، انحطت من علياء خير أمة أخرجت للناس، وتردت إلى أن وقعت صريعة الاستعمار، وما زالت تحت نيره، وأضحت غثاءً كغثاء السيل[22]!

وها هي تخطئ ثانية بأنها لا تأخذ بسنن التدافع ثانية وهي تحاول إزالة الاستعمار عن صدرها! وما لم تفهم السنن الثابتة في نهضة الأمم ورقيها، وتأخذ بها، فإنها ستبقى غثاء كغثاء السيل!

يقول الإمام النبهاني رحمه الله: "فإزالة الدولة المستعمرة عن البلاد التي تستعمرها، **لها قوانين ونواميس**، وهي أن تكون لدى من يعملون لإزالتها، القوة المادية التي تتغلب على قواها المادية، [أي على القوى المادية للمستعمر] والقوة الفكرية التي تمكنها من إدراك الأحابيل، وإدراك معنى القوة المادية[23]. [أي استغلال القوى الفكرية لفهم مواطن القوة المادية الكامنة في الأمة واستغلالها] فما لم توجد القوة الفكرية والقوة المادية لا يمكن إزالة الدولة المستعمرة؛ وانتفاضات الامم، مهما عظمت لا يمكن أن تزيل الاستعمار، ولو كان عدو الله! [فالسنن لا تحابي أحدا] لذلك لا بد من معرفة **قوانين ونواميس الله في التسلط والاستعمار**"![24]

---

[21] أبحاث إسلامية، السببية، مجلة الوعي العدد ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ١٥١ بتصرف.

[22] روى ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قال قلنا يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل **ينتزع المهابة من قلوب عدوكم** ويجعل في قلوبكم الوهن قال قلنا وما الوهن قال حب الحياة وكراهية الموت،» رواه الإمام أحمد في المسند وإسناده حسن، وروى الإمام أحمد في مسنده: عن أبي هُرَيْرَةَ قال سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول لِثَوْبَانَ"كَيْفَ أنت يا ثَوْبَانُ إِذْ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كَتَدَاعِيكُمْ على قَصْعَةِ الطَّعَامِ يُصِيبُونَ منه قال ثَوْبَانُ بأبي وأمي يا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا قال لاَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ يُلْقَى في قُلُوبِكُمُ الْوَهَنُ قالوا وما الْوَهَنُ يا رَسُولَ اللَّهِ قال حُبُّكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَتُكُمُ الْقِتَالَ».

إن هذا الحديث يعلمنا سنة كونية من سنن الله تعالى في تدافع الأمم: أن الأمم في تصارعها على المصالح إنما هي كالسيل، فمن كان أصل السيل ومادته كان إما رحمة للناس بما يحمله من هدى الإسلام، فجرى مجرىً طيباً، فأنبت الزرع ودر الضرع، ورفع الظلم وأقر العدل، وإما أن يكون سيلا جارفا لا تحركه إلا الأطماع والشهوات، وتكون الأمم الضعيفة فيه كالغثاء والزبد والرغوة، لا أثر لها في مجرى السيل، فتسير معه على غير هدى، ويجرفها ويلقي بها على الأحجار الناتئة، والأشواك القاتلة، ويفرقها شذر مذر، ولا مهابة ولا شيء إلا الإبادة! **فتأمل أهمية دراسة السنن حتى نتحكم بها لا أن تتحكم بنا!**

[23] هناك قوة مادية هائلة كامنة في الأمة الإسلامية سنبينها في باب لاحق بعنوان: العنصر الثاني: الأمة الإسلامية، العنصر البشري، الثروات، البعد الجغرافي، الموقع الاستراتيجي، الترابط الحضاري، وبعنوان العنصر الثالث: هو القوة المادية المتمثلة بالجيوش. وكذلك من القوة المادية: الثروات الاستراتيجية التي يمكن من خلالها الضغط وإخضاع الأمم الأخرى، فليس المقصود إذن فقط تكنولوجيا الحرب والأسلحة، فمن القوة الفكرية إدراك واستعمال مكامن القوة المادية المختلفة في الأمة، والأهم: العمل المنظم المفضي إلى استثمار هذه القوى الكامنة وتسخيرها لقضايا الأمة بدلا من الاستعجال إلى ردات الأفعال قبل التهيؤ الكامل للمواجهة بما تقتضيه من تحضير.

[24] جواب سؤال عن الغيبيات والأسباب والمسببات ١٩٧٤ تقي الدين النبهاني. بتصرف يسير ما بين الأقواس شرحا.

لقد حرص المستعمر على تفتيت الأمة حتى يستطيع التغلب على القوى المادية الهائلة الموجودة لدى الأمة الإسلامية، فكان من السهل عليه جعلها تابعة له! لقد عمل وفقا للسنن الكونية ونجح في استغلالها أيما نجاح!

وفي المقابل: حين تعرضت الأمة للهجمة الصليبية الشرسة، قام عماد الدين زنكي، ومن ثم ابنه نور الدين محمود، ومن ثم صلاح الدين الأيوبي بالعمل منذ ٥١٦ هـ إلى تاريخ فتح بيت المقدس في ٥٨٣ هـ، أي حوالي ٦٧ سنة من الإعداد والأخذ بأسباب ضم مصر للشام وتقوية الجيوش، ومغالبة من لا يفقهون سنة التدافع من أمراء المدن وحكام القلاع، وتفكيك إماراتهم الصغيرة ومقاتلة أمرائها، أخذا بأسباب القوة والوحدة، حتى استقام له المنسم، وقام بحرب حطين ففتح بيت المقدس بعدها، ولم يقم عماد الدين ولا ابنه نور الدين، ولا صلاح الدين بالمواجهة الحاسمة إلا بعد أن أكملوا أسباب الاستعداد! إذ إن للحرب سننا، فالنصر في المعركة مشروط بالإعداد قدر الاستطاعة.

ينبغي على الأمة اليوم إذن أن تنتقل من أمة ردات الأفعال إلى أمة أفعالٍ مبنيةٍ على دراسةٍ مستفيضةٍ للسننِ التي ملأت جنبات القرآن والتاريخ!

## الأمر الإلهي الحكيم بالنظر في السنن:

قال الحق سبحانه: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ** فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ **فَانْظُرُواْ** كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ﴾ [١٣٧ آل عمران]، علاوة على أمر الله تعالى بالنظر في السنن التي مضت، ففي هذه الآية دلالة واضحة على **اطراد السنن**، أي **تكرارها متى ما تكررت الأسباب المفضية لها**، ودلالة واضحة على أن **هذه السنن لا تحابي أحداً**!

وإلا فإن النظر في السنن إن لم تكن تتكرر بتكرر أسبابها لا يفيد في أخذ العبرة للحاضر! بل ولولا أنها تتكرر لما صح أن تسمى بالسنن!

فالسنن هنا للعبرة والعظة، مخافة الوقوع في مَظِنَّة السَّبَبِ فيقع المسبَّبُ، وقال تعالى ﴿**يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ٢٦ النساء.

وهناك آيات أخرى أكدت على الاستقراء والنظر والتدبر في الحوادث التاريخية، من أجل تكوين نظرة استقرائية من أجل الخروج بنواميس وسنن كونية للساحة التاريخية ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد ١٠]. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر ٨٢]، ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ **فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ...**﴾ [٤٥- ٤٦ الحج]. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ **لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [٣٦- ٣٧ ق]، من مجموع هذه الآيات الكريمة يتبلور المفهوم القرآني.. وهو **تأكيد القرآن على أن الساحة التاريخية لها سنن ولها ضوابط** كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الاخرى، وأن **استكشافها**، والتفكر فيها، **ومجانبة الوقوع في مَظِنَّة مهلكاتها** آيات لأولي القلوب والأبصار!

**وتتميز هذه السنن بالثبات، والاطراد، وأنها لا تحابي أحداً**، فبحدوث المسبّبات التي تتسبب بوجود هذه السنن توجد، أي إنها تسير وفقاً لقانون السببية، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**﴾ [الفتح/٢٣]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ **تَحْوِيلًا**﴾، [فاطر/٤٣]، فلا تتبدل، ولا تتحول، **فهي قوانين صارمة**، **والسنة الطريقة الثابتة، ولا تسمى سنة إلا إذا كانت ثابتة**، ولأن الأمر فيه عبرة، **والعبرة لا تكون إلا في سنة جارية مضطردة لا تتبدل ولا تتغير**.

فهي منهج قائم على قانون دائم يجري حين تتوفر شروط معينة، وأسباب معينة، **هذه الأسباب والشروط تمتلك القدرة على إحداث التغيير في واقع ما حين تتسلط عليه، (فيها طاقة كافية لإحداث التغيير إذا ما تسلطت على ذلك الواقع) فإذا ما وجدت حصل التغيير من حال إلى حال**! فمعرفة الشروط والأسباب غاية في الأهمية في كل عمل! ولا توجد **الجدية** في أي عمل إلا إذا درست هذه الشروط وهذه الأسباب حق الدراسة، وتم العمل بناء عليها!

يقول السيد محمد باقر الصدر رحمه الله: "حينما أراد القرآن أن يتحدث عن انكسار المسلمين في غزوة أحد [الأصح القول: قرح، وأيضا فإن نهاية غزوة أحد كانت في اليوم الثاني بالضبط من يوم أحد حين انتصر المسلمون على قريش في حمراء الأسد] بعد أن أحرزوا ذلك الانتصار الحاسم في غزوة بدر، قال: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا **بَيْنَ النَّاسِ**﴾ آل عمران/١٤٠. هنا أخذ يتكلم عن المسلمين بوصفهم أناسا، قال: بأن هذه القضية هي في الحقيقة ترتبط بسنن التاريخ، المسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التاريخ تفرض أن ينتصروا، وخسروا المعركة في أحد حينما كانت الشروط الموضوعية في معركة أحد تفرض عليهم أن يخسروا المعركة. ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا **بَيْنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران/١٤٠]. لا تتخيلوا أن النصر حق إلهي لكم، وإنما النصر حق طبيعي لكم بقدر ما يمكن أن توفروا الشروط الموضوعية لهذا النصر، بحسب منطق سنن التاريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونيا لا تشريعيا، وحيث إنكم في غزوة أحد لم تتوفر لديكم هذه الشروط ولهذا خسرتم المعركة"[٢٥] انتهى قول الصدر.

أقول معقبا، ومخالفا له في التصور: من شروط النصر التي تستجلب سُنَّةً إلهية أن ينصروا الله، فلما لم يطع بعض المسلمينَ الرسولَ ﷺ في أحد، لم يحققوا الشرط **فخضعوا لسنةٍ مجتمعية، ورُفِعَتْ عنهم سُنَّةٌ إلهية** هي التي نصرتهم في بدر وهم قلة! أين رأينا هذه السنة من قبل في التاريخ؟ حين جاوز طالوت بجنوده الذين أطاعوه النهر لمواجهة جالوت وجنوده، ولم يشربوا من الماء إلا غرفة باليد، ولم يجاوز معه من شرب وعصى، وحققوا شروط نصر الله، نصرهم الله وهم قلة! فثمة فرق بين السنن المجتمعية، وبين السنن الإلهية.

---

[٢٥] السيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن الكريم.

## التفاتة سريعة لمواضع ذكر السنن في القرآن

لا نستطيع في عجالة أن نبلور كل السنن المذكورة في الآيات ولا استنباطها، وسنقتصر على استنباط ما يحتاجه البحث إن شاء الله تعالى **لاحقا**، فنكتفي هنا بالالتفاتة السريعة حيث وردت السنن الإلهية في القرآن في المواضع التالية:

١) العبرة من سنن الله في عقابه للمكذبين، سنة تكذيب المتكبرين للرسل، واغترارهم بالدنيا، في السنن عبرة لهم بمن كان أشد منهم قوة وبطشا، فأحاط بهم العذاب، وتهديد المنافقين والكفار بما يخلع قلوبهم ويزلزل أفئدتهم إذا مردوا على النفاق، واستمروا في معاداة الرسول ﷺ ولم يرجعوا، وكذلك هي عبرة لأصحاب الدعوات لدفعهم للثبات على الحق، وسنة عدم قبول الإيمان عند الموت،

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ﴾ [١٣٧آل عمران]، ﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ﴾ [٣٨ الأنفال]، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [١١-١٣ الحجر]، والآيات الكريمة تكشف عن طبيعة الصراع بين الحق والباطل، وعن عاقبة المكذبين والمستكبرين، فالصراع دائم، والأذى والاستهزاء من أدواته، ونتيجته حقيقة حتمية لا تتخلف ولا تتبدل، وهي انتصار أصحاب الحق بنصر الله إياهم، ويتمثل ذلك النصر بوجوه مختلفة، منها إهلاك عدوهم، ومعاقبتهم، جراء ما ألحقوه بأصحاب الإيمان والحق من استهزاء وتنكيل، وهذه الحقيقة سنة ماضية ما تخلفت في الأمم الذين جاءوا من قبل، والآيات خطاب للمؤمنين، إذ إن من طبيعة هذا الصراع أن يحتاج لتهيئة للنفوس وصقل لها لتحمل مشاقه وتبعاته، ولفهم حقيقة هذا الصراع الذي لا هوادة فيه، وكما أن استقراء الآيات والسنن تبين أن البشارة بالعاقبة والنصر للمؤمنين، فإن فيها أيضا خطابا للمعاندين والمستكبرين أن لا يسلكوا عين المسلك الذي سلكه أسلافهم فإن سنن الله تعالى لا تحابي أحدا.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [٥٥ الكهف]، ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [٦١ – ٦٢ الأحزاب]، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [٧٦- ٧٧ الإسراء]، "وردت هذه الآية في سياق الحديث عن صورة من صور الصراع بين الحق والباطل، تنتقل من مجرد بغض الحق وكراهته إلى إظهار العداوة والمبارزة مع أصحاب الدعوة، فالباطل لا يرضى حتى بمجرد وجود الحق لأنه موقن أن في الحق قوة ذاتية متحركة غير ساكنة لا تقبل إلا الانتشار والتوسع والتأثير وكسب الأنصار والأتباع والتمكين والهيمنة له. وسنة الله انتصار الحق ولو بعد حين ولو دالت للباطل دولة يوما ما فإنها لا تدوم فسرعان ما ينجلي الباطل ويحل الحق وإن أخرجوا الدعاة من ديارهم وإن حبسوهم وإن قتلوهم فلن يحل الباطل محل الحق أبدا؛ سنة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل"[٢٦]

[٢٦] السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع، أبو مريم محمد الجريتلي، موقع الألوكة، بتصرف.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [٤٢ – ٤٤ فاطر]، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [٨٤ – ٨٥ غافر].

٢) سنة الله في نصر المؤمنين، بشارة لهم بالنصر والتمكين، بتمسكهم بالإيمان، والاستعانة بالله والاستنصار به، وضعف الكفار، والعبرة في طريق الدعوات ومآلها بشارة ونذارة ودفعا لحسن العمل.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [٢٢ – ٢٣ الفتح]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ **بِأَيَّامِ اللّهِ** إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [٥ إبراهيم].

**٣) سنن ثابتة في الشرائع التي أنزلت على الرسل، وللتأمل في سنن السابقين لأخذ العبر في أي شأن من شئون الحياة، وللهداية:**

﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٢٦ النساء]، ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [٣٨ الأحزاب]، أي: وكان أمره الذي يقدره كائنا لا محالة، وواقعا لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن[٢٧].

**٤) سنن استفدناها من العلية، والشرطية، ودلالات الآيات على السنن في مواطن مختلفة من القرآن:**

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [٢١٤ البقرة]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧ محمد]، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٤٠ آل عمران]، ﴿مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٩ آل عمران]، وأمثال هذه الآيات حيث تبين سننا لنزول النصر، وفهم شروطه وسننه للوقوع في مظنة نزوله من الله تعالى.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء** ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [١٥ الحج]، قال القرطبي: قال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل فيها أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذي أوتيه. ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء. ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ أي ثم ليقطع النصر إن تهيّأ له. ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ وحيلته ما يغيظه

---

[٢٧] تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩٢)

من نصر النبيّ ﷺ. والفائدة في الكلام أنه إذا لم يتهيأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا **لم يصل إلى قطع النصر**[٢٨]. **وفي هذه الآية بشارة عظيمة لحملة الدعوة، بأن الغرب الكافر مهما حاول أن يقطع عن الإسلام الحبل المتصل بالسماء الذي وعد بنصر الله، فإنه لن يستطيع، فالله ناصر دينه ولو كره الكافرون.**

تأمل البلاغة: إن سبب النصر متصل بالله تعالى، فلو صعد من كان يظن أن الله لن ينصر نبيه ودينه إلى السماء بسبب، ووصل إلى سبب النصر فليقطعه، ليعلم أنه لن يستطيع أن يحول بين نصر النبي ﷺ ونصر دينه، والسبب الذي اتصل بالسماء والذي به يتنزل النصر، فإذ لن يستطيع قطع السبب ومنع النصر، فليمت كمدا وغيظا! وهكذا فالأسباب متصلة بالسماء، متحققة بوجود المسببات! حتمية لا يستطيع أحد تغييرها، تتنزل بأمر الله تعالى!

٥) وسنن لمداولة الأيام بين الناس، وسنن الاختبارات والتمحيص، وإلى ما ذلك، فكما ترى فالقرآن مشحون بالسنن وبالأسباب والمسببات!

## حديث شريف يختصر مآسي الأمة الإسلامية وفق قانون السببية! فهل من مُدَّكِر؟

وقد جاءَ في قولِ الرسولِ الأكرمِ ﷺ: « يا معشرَ المهاجرينَ: خصالٌ خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ وأعوذُ باللهِ أن تدركوهنَّ لم تظهرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهمُ الطاعونُ، والأوجاعُ التي لم تكن مضتْ في أسلافِهمُ الذين مَضَوْا، ولم يَنقصُوا المكيالَ والميزانَ إلا أُخِذوا بالسِّنينَ وشدةِ المؤونةِ، وجَورِ السلطانِ عليهم، ولم يَمنعوا زكاةَ أموالِهم إلا مُنعوا القطرَ من السماءِ، ولولا البهائم لم يُمطَروا، ولم يَنقُضوا عهدَ اللهِ وعهدَ رسولِهِ إلا سَلَّطَ اللهُ عليهم عدوَّهُم من غيرِهم، فأخذوا بعضَ ما كانَ في أيديهم، **وما لم تَحكم أئمتُهُم بكتابِ الله عزَّوجلَّ، ويَتحرَّوْا فيما أنزلَ اللهُ، إلاَّ جعلَ اللهُ بأسَهُم بينَهُم**» رواه ابن ماجة، وهو حديث حسن، سنده متصل ورجاله ثقات، صححه الذهبي في التلخيص.

## قانون السببية وقوانين السنن الإلهية من المفاهيم الأساسية في الإسلام

لذلك لنا أن نقول إن مفهوم السنن الإلهية من المفاهيم الإسلامية المهمة جدا، ولا تقتصر أهميته على أخذ العظة والعبرة من العقاب الذي حل بالأمم السابقة جراء وقوعها في محاذير تعتبر العقوبة عليها من سنن الله تعالى، ولكنها فوق ذلك تنبهنا إلى سنن الله تعالى التي ينبغي فهمها لبناء سلوك معين مبني عليها، **وسنقوم بإسقاط هذا المفهوم، وهذه السنن الإلهية والكونية والمجتمعية على مسألة تغيير الدولة، و إقامتها ثم استمرارها بعد قيامها، وتغيير المجتمعات، وتغيير الأفراد**، لنعلم أن إهمالنا للفاعلية السببية، وسلوكنا لطرق أخرى لا تأخذ السنن في الحسبان سيفضي إلى مزيد من الفوضى وقد لا يوصل إلى التغيير المرجو، وأن أهمالنا لسنن الله في التغيير، والذي بدوره سيفضي إلى الوقوع في مظنة نزول النصر وتمكين الدين وإقامة الدولة، قد لا يزيدنا إلا شقاء!

---

[٢٨] تفسير القرطبي

## ذو القرنين، وقانون السببية والتمكين:

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف/٨٤ - ٨٥]، فهذا ذو القرنين، مكن الله له في الأرض، والتمكين: جعل الشيء متمكناً، أي راسخاً، وهو تمثيل لقوّة التصرف بحيث لا يزعزع قوته أحد"، وأعطاه الأسباب، "والسبب: حقيقته الحبل، وأطلق هنا على ما يتوسل به إلى الشيء من علم أو مقدرة أو آلات التسخير على وجه الاستعارة"[٢٩] آتاه من كل شيء معرفة، وذريعة يتوصل بها، فاستعملها ليتوصل إلى الغايات، فتأمل كيف يجري قانون السببية في عروق نظام الوجود، وكيف ينبغي الأخذ به للتغيير، إذ إن التمكين لذي القرنين اقترن بمعرفته واستعماله الأسباب. حين أتبع ذو القرنين السبب الأول أوصله إلى أحد الأماكن التي تغرب فيها الشمس عن الأرض عند قوم لهم قصة، (سماه مغرب الشمس)، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ فبلغ أحد الأماكن التي تشرق فيها الشمس عند قوم لهم قصة، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ فبلغ بين السدين، عند قوم لهم قصة، وهكذا كان سيره في الأرض وتمكينه فيها بأخذه بالأسباب واتباعها!

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [٣٦- ٣٧ غافر]. ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [١٠ ص]، إذا كانوا يملكون حقا، فليستعملوا الأسباب والحبال الموصلة، وليصعدوا في المعارج التي يُتَوَصَّلُ بها إلى العرش، حتى يرتقوا لمكانة أن يدبروا أمر العالم وملكوت الله، ولكنهم لا يملكون على الحقيقة! قال ابن عاشور: "وحرف الظرفية استعارة تبعية للتمكن من الأسباب حتى كأنها ظروف محيطة بالمرتقين" انتهى، ومن الواضح في الآية الربط بين بلوغ ملك السموات والأرض وبين امتلاك ناصية الأسباب التي تسيره ليكون من يسيره هو الملك، أي امتلاك ناصية القوانين والسنن والقدرة على التحكم بها، وهذا ليس إلا لله تبارك وتعالى **فتأمل كيف تقرر الآية أن السببية والسنن والقوانين الثابتة في صميم خلق الكون**، يدبر الله تعالى ملكوته بها، **ولا حاجة له -سبحانه وتعالى- إليها** إلا أن حكمته تعالى اقتضت أن يَسِيرَ الكون بها، لنتوصل من خلالها إلى الإيمان به، والله تعالى أعلى وأعلم.

[٢٩] التحرير والتنوير لابن عاشور

## السنن الكونية، والسنن المجتمعية والسنن الإلهية

إذا لم يأخذ مصمم الطائرة بعين الاعتبار حسابات دقيقة لأوزان الطائرة، بأجنحتها ومحركاتها وهيكلها، وأوزان الركاب وبضائعهم، والقوة التي ينبغي للمحرك أن يمتلكها للتغلب على الجاذبية ومقاومات الهواء، ولدفع الطائرة للأمام، وأطوال الأجنحة وأشكالها الانسيابية التي تسبب فرق الضغط بين أعلاها وأسفلها، وأجهزة الملاحة والتوجيه فيها، وعمليات الاحتراق في المحركات لبلوغ درجات حرارة معينة قادرة على إنتاج قوة دفع، وأشكال المراوح في المحرك، والمواد المستعملة في الصناعة، وقدرتها على تحمل الحرارة الشديدة في المحرك، وسائر القوانين الحاكمة لهذا كله، فإنه لن يستطيع أن يجعل الطائرة تطير، فهو في هذا كله إنما يستعمل قوانين السببية والسنن الكونية التي نظمت هذا كله وفقا لقوانين منضبطة عليه أن يحسن استقراءها، وأن يجري التجارب التي تعينه على إنجاح التصميم ووضع كل مادة في موضعها، وأن يقوم كل جهاز، وكل نظام في الطائرة بعمليات منضبطة للغاية، وهكذا فإن أي اختراع بشري، وأي تصميم ذكي، وأي عمل غائي، لا بد أن يقوم صانعه ومصممه باستقراء القوانين الناظمة للكون والاستفادة منها، فإذا ما عرف المسببات وأخذها بالحسبان، بلغ الغاية، وإذا فشل في أي منها فقد تكون النتائج كارثية! فهنا استثمار للعلاقات السببية ضمن نطاق السنن الكونية الحتمية، استثمرت في عمل غائي منتج.

ومثال آخر: أن يجتمع أهل القوة في مجتمع على اعتقاد مجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات المنبثقة عن عقيدة كلية، ويرون إقامة السلطان عليها، فيفرضوا رأيهم على الباقين، ويكون لهم قوة مادية ومعنوية في المجتمع كافية لتجعل المجتمع ينقاد لرأيهم، فيشكلوا الرأي العام، فيقوم المجتمع وفقا لمفاهيم وأنظمة معينة، ويتغير المجتمع بناء على المفاهيم والقناعات التي تحملها هذه الفئة، فتقوم دولة مكان دولة، فهؤلاء لو قاموا بهذا الفعل، مع وجود الشروط اللازمة فإن قيامهم به سوف يوجد النتيجة حتما، وإن تأخر وقوع النتيجة زمنا، فهذه سنة إنسانية أو مجتمعية، مستنبطة من النظر في سنن قيام الدول واستمرارها. ولكن هذا التفعيل للطاقة السببية، وإحداث النتيجة مرهون بوجود الحزب السياسي، فالأنظمة السببية العاقلة كالإنسان والدول والأحزاب لها دوافع إرادة وغاية وراء كل فعل سببي تقوم بأدائه وتكون سابقة للأفعال السببية، وعليهم أن يستنبطوا هذه السنن اللازمة للتغيير، ويسيروا في ركابها تشدهم الغائية للأمام، وتدفعهم الأسباب من الخلف ليصلوا لمبتغاهم.

أما الأنظمة السببية غير العاقلة كالسيارة والطائرة والساعة والنظام البيئي فليست غائية بذاتها أي لا توجد لها أهداف خاصة بها، بل تقوم بأداء عملها ووظيفتها كما هي مبرمجة عليه وفق القوانين والسنن الطبيعية، ولذا فإن مبرمج أو صانع الأنظمة السببية غير العاقلة هو من يملك الإرادة وهو صاحب الهدف وهو الذي يحدد وظيفة وعمل النظام، ولكن عليه أن يدرك السنن الكونية المحكمة ويعمل في إطارها وإلا فإن تصميمه لن ينجح.

لذلك فإن السببية يمكن أن تُفَعَّلَ تفعيلا، بناء على تصميم وحكمة وغاية، بمعرفة أسبابها وشروطها، واستغلالها، وليس بالضرورة أن تكون تصرفا آليا لا دخل للعقل والحكمة في الأخذ بشروطه وأسبابه وإيقاعه!

إذن فقد فرقنا بين السنن الكونية (الفيزيائية) التي لا يتأخر فيها حدوث المعلول بمجرد وجود علته وبشكل حتمي، فالإنسان الذي يطير في الجو من غير آلة، ستجذبه الأرض فورا نحوها بالجاذبية، فلا تتأخر، وبين السنن

الإنسانية/ المجتمعية والتي يحتاج فيها المصمم لدراسة المؤثرات اللازمة له لإنجاح تصميمه، والتي يسير فيها الإنسان في استثمار العلاقات ودراسة السنن ليستعمل العناصر اللازمة لإنجاح منظومته السببية، أو للوصول لغاياته المجتمعية وأنه إذا أغفل أي عنصر أساسي في العلاقة السببية أو أغفل شروطا أساسية للسببية فإن تصميمه سوف يكون ناقصا ولا ينجح بالشكل المطلوب، فإذا استغل كل العناصر السببية أنتج المسبب حتميا ونجح في مهمته، ولكن النتيجة قد لا تحدث دائما فوراً، أو بشكل آلي، إنما بمقتضى الإرادة، وتدافع الدوافع مع المعيقات ونجاح ذلك، والشروط مع الغايات وما شاكل.

سنعرّف **السنن الإنسانية/ المجتمعية، والسنن الكونية/الفيزيائية** بأنها "الشيء الذي يكتسب طاقة التغيير في زمن معين، ويستطيع بامتلاكه هذه القوة السببية أن يؤثر في غيره من الأشياء القابلة للتأثر ونقلها من حالة معينة إلى حالة جديدة مغايرة للحالة السابقة، بشكل لا يتخلف، تغييرا فيه من الآلية (أي الحتمية في استجابة المسبَّب للطاقة السببية بمجرد وجودها – السنن الكونية/ الفيزيائية)، مع تأثره بطبائع وسنن إنسانية مصممة (السنن الإنسانية/ المجتمعية)، وهي وإن كانت بذكاء تصميمها تفضي إلى إحداث التغيير، إلا إنها غير حدية، فهي قابلة للتفاعل، بحيث تفضي إلى التغيير نتيجة حسن التدبير والتصميم، ومناسبة الآليات والشروط المصممة خصيصا لإحداث التغيير مع الشيء المراد تغييره، فالتغيير الذي تحدثه ليس تغييرا آليا مجردا، وهذه السنن أو النواميس الكونية والإنسانية تجري على الصالح والطالح، على المؤمن والكافر سواء، فعمل قانون السببية الكوني يتلاءم ونظام الوجود، ينتصر فيه القوي على الضعيف، وإن انتصر الضعيف فلاستعماله عناصر قوة لم يستعملها القوي مثل الذكاء والحيلة، فيتفوق بقوة ذكائه، وهكذا.

فالسببية والسنن هي ربط الأسباب المادية بمسبباتها المادية من أجل تحقيق قصد معين أو هدف معين بمعرفة جميع الأسباب والشروط المفضية إلى تحقيقه ثم ربطها فيه جميعها ربطاً صحيحاً، وعندها فقط نقول إننا أخذنا بالأسباب أي بقاعدة السببية.

وليس المقصد من العلاقة السببية مجرد أن نفهم شرط وجود الشروط والسبب، لتحقق المسبب ووقوعه، وإنما الغاية هي حسن فهم هذه العلاقة بغية الاستفادة منها في تسيير شئوننا بما يفضي للقيام بالواجبات المنوطة على الوجه الأكمل، أي توظيف السببية لإنجاز الغايات وتحقيق الأهداف.

**وسنقابل ذلك بالسنن الإلهية**، وهي تلك النواميس التي تحصل بسبب الاستجابة لقوانين إلهية بينها الله لنا، تتميز بتوجيه النواميس الكونية **وجهة التماشي مع قصد الخلق**، فينتصر الحق على الباطل مثلا، وينصر الله رسله والذين آمنوا، حتى وإن كانوا قلة مستضعفين، فتقضي السنن الإلهية بتسيير المسببات بالغائية فالأسباب تدفع الحدث من الخلف والغايات تجر الهدف إلى الأمام، **فتحقق السببية الإلهية مقصدا يفوق مجرد التفاعل بين الأسباب والمسببات لإنتاج تغيير ما، ليعمل قانون السببية بما يحقق غايات الشر ائع وقيام ميزان الحق والعدل في الأرض.**

## الغائية والسببية كجناحي الطائر:

للأنظمة السببية العاقلة كالإنسان والدول والأحزاب دوافع إرادة، وغاية وراء كل فعل سببي تقوم بأدائه، وتكون هذه الغايات سابقة للأفعال السببية، إذ إنه لا بد أن يكون وراء الأسباب غاية تدفعها إلى تحقيق وظيفة معينة،

**والغائية باعث على تسخير الأسباب اللازمة لإنتاج الغايات بالتفصيل!** أو **الغائية هي الباعث على إيجاد وتفعيل العمليات Processes التي يتم من خلالها تنفيذ التصميم الذكي في كل مرحلة من مراحله!** هذه **العمليات تُسَخِّرُ القدرةَ والإرادةَ والعلمَ والمعارفَ الخاصةَ لتفعيلِ الأسبابِ اللازمة وتذليلِ العقبات اللازمِ تذليلُها، والتفاعلِ مع الشروطِ اللازمة لإنتاجِ الهدف! هذه هي الغائية بكل دقة!**

**والذكاء هو اختيار خيارات محددة دون غيرها**، والمعارف المخصوصة، والخبرات اللازمة، ودراسة **كيف يمكن لهذه الخيارات أن تقوم في الو اقع**، من حيث أشكالها وارتباطاتها، وكيفية التغلب على قوى الطبيعة، أو تسخير تلك القوى لخدمة المشروع بشكل ذكي، والسير في المشروع بخطوات محددة مدروسة تنتجه بالصورة المطلوبة، منذ كان المشروع فكرة إلى أن نتج بتفاصيله على أرض الواقع.

فالمخطط الهندسي (مثلا الطائرة في مثالنا السابق) على الورق هو "تصميم ذكي"، والمخطط الهندسي بعد التنفيذ هو "تصميم ذكي" نقلته الغائية من الورق إلى الواقع عبر تسخير الأسباب ومدافعة العوائق، والتعاون مع الشروط، في كل خطوة من الخطوات، ودائما في كل خطوة يلاحظ **أن الغاية فيها تجر الأسباب من الأمام وأن الأسباب تدفع الحدث من الخلف، وأن الغائية تعمل على تحقيق التنفيذ، وأن الذكاء يربط بين التخطيط والتنفيذ واختيار الخيارات المعينة المطلوبة دون غيرها**، وهكذا.

إذن: فالغايات والسببية كجناحي الطائر، لا يطير إلا بهما، فالأسباب تدفع الحدث من الخلف، وتحقق وجوده، والغايات تجره من الأمام بتشكيلها ل "**باعث**" في كل خطوة من الخطوات لدراسة الأعمال اللازمة والأسباب اللازمة للقيام بتلك الأعمال، هذا الباعث وما ينتجه من أعمال نسميه بالغائية، أو "العلة الغائية"، أو "العلة الباعثة"، **فالغائية هي الواصل بين الغايات والأسباب لتحقيق التصميم الذكي على صورة صحيحة**، أي تصميم وصناعة الطائرة في مثالنا السابق، وبين السببية والغايات والغائية كلها عروة وثقى لا تنفصم!

قلنا في التنويه الذي تلا مقدمة هذا الكتاب أن استعمال الأسباب والشروط في دراستنا لا يقتصر على الأسباب العقلية فقط، تلك التي يغلب وجودها في السنن الكونية، بل في السنن المجتمعية فإن الغالب استعمال الأسباب العادية واللغوية والشروط اللغوية التي تنزل منزلة الأسباب، وميزة هذه عن الأسباب العقلية هي في وجود فسحة قد تطول وقد تقصر من الوقت ما بين وجود واكتمال الأسباب، وبين حدوث النتيجة، بل إن النتيجة قد لا تحدث بتاتا في بعض الأحيان لأن الطرف الثاني يملك الإرادة الحرة، وكمثال على ذلك أن الرسول ﷺ حرص على دعوة عمه أبي طالب، وعلى دعوة الوليد بن المغيرة، وكلاهما أدرك وعلم أن الرسول ﷺ مرسل من ربه، وأن ما لديه معجزة على الحقيقة، ليس بكلام بشر، ومع ذلك فإن نتيجة الدعوة لم تفض إلى التغيير المطلوب، لوجود عقبات لدى الطرف الآخر تتمثل في الخشية من ترك دين الآباء، أو في المكانة في المجتمع، وقد تحدث النتيجة في

موضع آخر، فالدولة قامت في المدينة ولم تقم ابتداء في مكة، مع أن العمل في مكة استغرق ثلاث عشرة سنة، وهكذا فإن علينا أن نفهم مسألة الأخذ بالأسباب في ضوء ذلك وأن نفرق بينها وبين الأسباب العقلية التي توجب وجود المُسَبَّب فور تفعيل الطاقة السببية والتغلب على العوائق والتعاون مع الشروط)

لكننا نعلم أن السببية حتى تتفاعل مع الأسباب وتحدث العمل المطلوب، لا بد أن تمتلك القدرة على إحداث التغيير أو إنتاج المسبب، فلا بد لها أن تمتلك الطاقة الكافية للتغيير، ولا بد لها من القدرة على التفاعل مع الشروط المحيطة اللازمة لإحداث التغيير، لا بد لها من أن تكون عللا للتغيير، بحيث إن التغيير (المعلول) محتاج لها لحدوثه! أي لا بد أن تكون هي هي الأسباب الحقيقية للتغيير (فمثلا: المجتمع لا يمكن أن يرقى برقي الأخلاق فقط، بل يرقى بتغير المفاهيم المؤثرة في العلاقات القائمة فيه، وبتغير الأنظمة الحاكمة له، وبتغير المشاعر والأفكار التي يمتلكها أفراده، فإذا ما أراد حزب ما أن ينهض بالمجتمع مُتَّخِذَاً الأخلاق وحدها سببا للتغيير، فإنه سيفشل حتما، فلا بد له من الأخذ بالأسباب الحقيقية المؤثرة في المجتمع ليحدث التغيير! ومثلا: النهضة هي الارتفاع الفكري، فهذه سنة مجتمعية ثابتة راسخة)

على أن نظام الأسباب لا يمكن أن يعمل وحده دون وجود الطاقة الدافعة التي تجرها الغايات ليأثر الفاعل في الفعل على نحو معين بناء على التصميم الذي وجد لدى القادر على إحداث التغيير، (ففي مثال الطائرة السابق: لو لم يستغل المصمم الحسابات الدقيقة التي تحسب له القوة اللازمة لدفع الطائرة للأمام، فإن تصميمه لن ينجح في دفعها، وبالتالي، فعلى الرغم من أن القوانين الناظمة للكون والتي في طياتها تحمل العلاقات بين الأشياء، مثل كمية الوقود اللازم إحراقها لإنتاج كم معين من الطاقة يستطيع دفع الطائرة، إلا إن المصمم إذا لم يستغل هذه المعلومات والعلاقات السببية الموجودة في سنن الطبيعة، فإنه لن يستطيع الاستفادة من تصميمه، لذلك فالغايات تدفعه للبحث عن العلاقات السببية وتفعيلها) فيما لا يستطيع التغير وحده (أي القاصر ذاتيا) دون وجود السبب أو العلة، (بمعنى آخر، فإن العلاقات السببية الموجودة في الطبيعة مثل كمية الوقود اللازمة لإنتاج طاقة معينة وحدها، من دون تصميم ذكي، لن تستطيع أن تنهض لتصمم وتصنع طائرة تطير! فلا بد من الغايات والأسباب ولا بد من الغائية![٣٠]

[٣٠] بتصرف كبير عن الأستاذ المفكر يوسف الساريسي!

## تعريفات لازمة للفهم:

### تعريف السنن:

السنة: السين والنون أصلٌ واحد مطرد، وهو جريَان الشيء وإطرادُهُ في سهولة،[٣١]. والسنن، وهو الطريقة، يقال: امضِ على سَنَنِكَ وسُنَنِكَ، أي على وجهك. والسُنَّةُ السيرةُ.[٣٢] والسنَنُ: المَذْهَبُ والطَّرِيْقُ. وكذلك السنَنُ: القَصدُ الذي تُرِيْدُه.... والسنةُ: العادَةُ أيضاً... وسَنَ اللّهُ قَضَاءَ حاجَتي على يَدَيْه: أي أجْرَاه **وسَبَّبَه**.[٣٣] فالسنن: جمع سنة، وسنة النبي ﷺ: طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته[٣٤]

لم يشع استخدام أي معنى اصطلاحي للفظة سنن بحيث تساوي معنى قوانين الأشياء المادية فيبقى المعنى اللغوي لاصقا بها، وقد رأينا أن القرآن والحديث قد استخدما السنة والسنن **للدلالة على طريقة التصرف أو تأثر المجتمعات البشرية عقب قيامها بأفعال معينة**. فالله عز وجل قد سن سننا للناس وطلب من المسلمين معرفتها أو اكتشافها، قال الله تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [١٣٧ آل عمران] وفي تفسير ابن كثير: "يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين"[٣٥].فهي سنة انتصار الحق على الباطل ولو بعد جولات قد ينتفش فيها الباطل!

## أنواع السُّنَنْ:

يرى السيد محمد باقر الصدر أن القرآن الكريم أكد على ثلاث حقائق بالنسبة إلى سنن التاريخ:

"الحقيقة الاولى: أن السنن القرآنية للتاريخ ذات طابع علمي؛ لأنها تتميز بالاطراد الذي يميز القانون العلمي.

الحقيقة الثانية: أنها ذات طابع رباني؛ لأنها تمثل حكمة الله وحسن تدبيره على الساحة التاريخية.

الحقيقة الثالثة: أنها ذات طابع انساني؛ لأنها لا تفصل الإنسان عن دوره الايجابي ولا تعطل فيه إرادته وحرية اختياره، وإنما تؤكد أكثر فأكثر على مسؤوليته على الساحة التاريخية.[٣٦]"

وليست كل الأحداث والقضايا تحكمها السنن التاريخية، إذ قد تحكمها السنن (القوانين) الفيزيائية، وقوانين الحياة، وإنما "العمل التاريخي الذي تحكمه سنن التاريخ هو العمل الذي يكون حاملا لعلاقة مع هدف وغاية، ويكون في نفس الوقت ذا أرضية أوسع من وجود الفرد، ذا موج يتخذ من المجتمع علة مادية له وبهذا يكون عملا اجتماعيا".

ثم يستنبط الصدر ثلاثة أشكال للسنة التاريخية في القرآن الكريم، ويفرق بينها:

---

[٣١] معجم مقاييس اللغة لابن فارس

[٣٢] الصحاح للجوهري.

[٣٣] المحيط في اللغة للصاحبي ابن عباد

[٣٤] مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني

[٣٥] تفسير ابن كثير

[٣٦] السيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن الكريم.

١ . **الشكل الأول للسنة التاريخية**: هو شكل القضية الشرطية. في هذا الشكل تتمثل السنة التاريخية في قضية شرطية تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، وأنه متى ما تحقق الشرط تحقق الجزاء. وهذه صياغة نجدها في كثير من القوانين والسنن الطبيعية والكونية في مختلف الساحات الاخرى. فمثلا: حينما نتحدث عن **قانون طبيعي** لغليان الماء، نتحدث بلغة القضية الشرطية، نقول بأن الماء إذا تعرض إلى الحرارة بدرجة معينة سوف يحدث الغليان. هذا قانون طبيعي يربط بين الشرط والجزاء.

نفس الشئ نجده في الشكل الأول من السنن التاريخية القرآنية، فإن عددا كبيرا من السنن التاريخية في القرآن قد تمت صياغتها على شكل القضية الشرطية التي تربط ما بين حادثتين اجتماعيتين أو تاريخيتين، بحيث إنه متى وجدت الحادثة الأولى وجدت الحادثة الثانية. ففي قوله تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد ١١] إشارة إلى سنة تاريخية بُيِّنَتْ بلغةِ القضيةِ الشرطيةِ؛ لأن مرجع هذا المفاد القرآني إلى أن هناك علاقة بين تغييرين: بين تغيير المحتوى الداخلي للإنسان، وتغيير الوضع الظاهري للبشرية والإنسانية. مفاد هذه العلاقة قضية شرطية: أنه متى ما وجد ذاك التغيير **في أنفس القوم** وجد هذا **التغيير في بنائهم وكيانهم**. هذه السنة جاءت بلغة القضية الشرطية كما هو الواضح من صياغتها النحوية أيضا.

٢ . **الشكل الثاني الذي تتخذه السنن التاريخية**: شكل القضية الفعلية الناجزة الوجودية المحققة، وهذا الشكل أيضا نجد له أمثلة وشواهد في القوانين الطبيعية والكونية. مثلا: العالم الفلكي حينما يصدر حكما علميا على ضوء قوانين مسارات الفلك، بأن الشمس سوف تنكسف في اليوم الفلاني أو أن القمر سوف ينخسف في اليوم الفلاني، فإنه قانون علمي وقضية علمية، إلا أنها **قضية وجودية ناجزة، ليست قضية شرطية**. فالإنسان لا يملك تجاه هذه القضية أن يغير من ظروفها، أو أن يعدل من شروطها؛ لأنها لم تبين كلغة قضية شرطية، وانما صيغت بلغة التنجيز والتحقيق بلحاظ مكان معين وزمان معين. هذا هو الشكل الثاني من السنن التاريخية. «وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء».

٣ . **الشكل الثالث للسنة التاريخية**: وهو شكل اهتم به القرآن الكريم اهتماما كبيرا، هو السنة التاريخية المصاغة على صورة تجاه طبيعي في حركة التاريخ لا على صورة قانون صارم حدي. وفرق بين الاتجاه والقانون. ولكي تتضح الفذلكة في ذلك لابد وان نطرح الفكرة الاعتيادية التي نعيشها في أذهاننا عن القانون!

القانون العلمي كما نتصوره عادة: عبارة عن تلك السنة التي لا تقبل التحدي من قبل الإنسان؛ لأنها قانون من قوانين الكون والطبيعية فلا يمكن للإنسان أن يتحداها ويخرج عن طاعتها. يمكنه ألّا يصلي؛ لأن وجوب الصلاة حكم تشريعي وليس قانونا تكوينيا، يمكنه أن يشرب الخمر؛ لأن حرمة شرب الخمر قانون تشريعي وليس قانونا تكوينيا، لكنه لا يمكنه أن يتحدى القوانين الكونية والسنن الموضوعية، مثلا: لا يمكنه أن يجعل الماء لا يغلي إذا توفرت شروط الغليان، لأن هذا قانون، والقانون صارم، والصرامة تأبى التحدي.

هذه هي الفكرة التي نتصورها عادة عن القوانين، وهي فكرة صحيحة إلى حد ما، لكن ليس من الضروري أن تكون كل سنة طبيعية موضوعية على هذا الشكل بحيث تأبى التحدي ولا يمكن تحديها من قبل الإنسان بهذه الطريقة،

بل هناك تجاهات موضوعية في حركة التاريخ وفي مسار الإنسان، إلا أن هذه الاتجاهات لها شئ من المرونة بحيث إنها تقبل التحدي ولو على شوط قصير، وإن لم تقبل التحدي على شوط طويل. أنت لا تستطيع أن تؤخر موعد غليان الماء لحظة، لكن تستطيع أن تجمد هذه الاتجاهات لحظات من عمر التاريخ، لكن هذا لا يعني أنها ليست تجاهات تمثل واقعا موضوعيا في حركة التاريخ، هي تجاهات ولكنها مرنة تقبل التحدي لفترة ثم تحطم المتحدي نفسه.

إن هناك تجاها في تركيب الإنسان، تجاها موضوعيا لا تشريعيا، إلى إقامة العلاقات المعينة بين الذكر والانثى في مجتمع الإنسان ضمن إطار من أُطر النكاح. لا نستطيع أن نقول: إن هذا مجرد قانون تشريعي أو مجرد حكم شرعي، وإنما هذا تجاه رُكب في طبيعة الإنسان وفي تركيبه، وهو الاتجاه إلى الاتصال بين الذكر والأنثى وإدامة النوع عن طريق هذا الاتصال ضمن إطار من أُطر النكاح الاجتماعي **هذه سنة**، لكنها سنة على مستوى الاتجاه لا على مستوى القانون. لماذا؟ لأن التحدي لهذه السنة (أي غريزة حفظ النوع، وإقامة العلاقات بين الذكر والأنثى للمحافظة على النوع البشري) لفترة ما ممكن. أمكن لقوم لوط أن يتحدوا هذه السنة وخالفوها فترة من الزمن، لكنهم بخلافهم لتلك السنة الإنسانية لم يلبثوا إلا قليلا وجاءتهم العقوبة، ومن فعل فعلهم عوقب بالأمراض والأوبئة التي لم تكن فيمن سبق!

بينما لم يكن بإمكانهم أن يتحدوا سنة الغليان بشكل من الاشكال، لكنهم تحدوا هذه السنة الإنسانية، إلا أن تحدي هذه السنة على المدى الطويل يؤدي إلى أن يتحطم المتحدي كما تحطم مجتمع قوم لوط.

كل تجاه من هذا القبيل هو في الحقيقة **سنة موضوعية من سنة التاريخ** ومن سنن حركة الإنسان، ولكنها سنة مرنة تقبل التحدي على الشوط القصير، ولكنها تجيب على هذا التحدي

... لكن هناك ظواهر على الساحة التاريخية تحمل علاقة من نمط آخر وهي علاقة ظاهرة بهدف علاقة نشاط بغاية أو ما يسميه الفلاسفة بالعلة الغائية تميزا عن العلة الفاعلية، هذه العلاقة علاقة جديدة متميزة، غليان الماء بالحرارة، يحمل مع سببه مع ماضيه لكن لا يحمل علاقة مع غاية ومع هدف مالم يتحول إلى فعل انساني [يغلي الماء لهدف لديه] والى جهد بشري بينما العمل الإنساني الهادف يحتوي على علاقة لا فقط مع السبب، لا فقط مع الماضي، بل مع الغاية التي هي غير موجودة حين إنجاز هذا العمل وإنما يترقب وجودها. أي العلاقة هنا علاقة مع المستقبل لا مع الماضي، الغاية دائما تمثل المستقبل بالنسبة إلى العمل، بينما السبب يمثل الماضي بالنسبة إلى هذا العمل. **فالعلاقة التي يتميز بها العمل التاريخي، العمل الذي تحكمه سنن التاريخ هو أنه عمل هادف، عمل يرتبط بعلة غائية** سواءً أكانت هذه الغاية صالحة أو طالحة، نظيفة أو غير نظيفة، على أي حال يعتبر هذا عملا هادفا، يعتبر نشاطا تاريخيا يدخل في نطاق سنن التاريخ على هذا الأساس وهذه الغايات التي يرتبط بها هذا العمل الهادف المسؤول، هذه الغايات حيث إنها مستقبلية بالنسبة إلى العمل فهي تؤثر من خلال

وجودها الذهني في العامل لا محالة، لأنها بوجودها الخارجي، بوجودها الواقعي، طموح وتطلع إلى المستقبل، ليست موجودة وجودا حقيقيا وإنما تؤثر من خلال وجودها الذهني في الفاعل. إذن المستقبل أو الهدف الذي يشكل الغاية للنشاط التاريخي يؤثر في تحريك هذا النشاط وفي بلورته من **خلال الوجود الذهني أي من خلال الفكر** الذي يمثل فيه الوجود الذهني للغاية ضمن شروط ومواصفات، حينئذ يؤثر في إيجاد هذا النشاط، إذ حصلنا الان على مميز نوعي للعمل التاريخي لظاهرة على الساحة التاريخية، هذا المميز غير موجود بالنسبة إلى سائر الظواهر الاخرى على ساحات الطبيعة المختلفة، هذا المميز ظهور علاقة فعل بغاية نشاط بهدف في التفسير الفلسفي، ظهور دور العلة الغائية، كون هذا الفعل متطلعا الى المستقبل، كون المستقبل محركا لهذا الفعل من خلال الوجود الذهني الذي يرسم للفاعل غايته أي من خلال الفكر اذن هذا هو في الحقيقة دائرة السنن النوعية للتاريخ.

إذن فالسنن النوعية للتاريخ موضوعها ذلك الجزء من الساحة التاريخية الذي يمثل عملا له غاية، عملا يحمل علاقة إضافية إلى العلاقات الموجودة في الظاهرة الطبيعية وهي العلاقة بالغاية والهدف، بالعلة الغائية، لكن ينبغي هنا أيضا أنه ليس كل عمل له غاية هو عمل تاريخي، هو عمل تجري عليه سنن التاريخ، بل يوجد بعد ثالث لا بد أن يتوفر لهذا العمل لكي يكون عملا تاريخيا أي عملا تحكمه سنن التايخ. البعد الأول كان هو «السبب» والبعد الثاني كان هو الغاية «الهدف».

لا بد إذن من بعد ثالث لكي يكون هذا العمل داخلا في نطاق سنن التاريخ، هذا البعد الثالث هو أن يكون لهذا العمل أرضية تتجاوز ذات العامل، أن تكون أرضية العمل هي عبارة عن المجتمع، قد يأكل الفرد إذا جاع ويشرب إذا عطش، لكن هذه الأعمال على الرغم من أنها أعمال هادفة أيضا تريد أن تحقق غايات ولكنها أعمال لا يمتد موجها أكثر من العامل خلافا لعمل يقوم به الإنسان من خلال نشاط اجتماعي وعلاقات متبادلة مع أفراد جماعته، فمثلا التاجر حينما يعمل عملا تجاريا أو القائد حينما يعمل عملا حربيا أو السياسي حينما يمارس عملا سياسيا، المفكر حينما يتبنى وجهة نظر في الكون والحياة [٣٧].

## ملخص الأشكال الثلاثة للسنن عند السيد محمد باقر الصدر:

إذن فالسيد الصدر ينظر إلى السنن من حيث علاقة مسبباتها بحدوثها، فهي على قسمين:

**قسم حتمي يحدث فورحدوث مسبباته**، **الشكل الأول** صيغ بصورة الشرط، فمتى ما وجد المشروط تحقق الشرط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ٧ محمد، **والشكل الثاني حتمي أيضا**، يتحقق فورا وهو السنن الفيزيائية الناظمة لحركة الكون والإنسان والحياة، فبحدوث أشراطها تحدث، كغليان الماء عند درجة حرارة معينة، عند ضغط معين، أو أنها تسير على هيئة قضايا وجودية ناجزة كحركة الأفلاك وما ينشأ عنها من تعاقب الليل والنهار والخسوف والكسوف، فيمكن استقراؤها، ولا يمكن للإنسان أن يغير فيها،

---

[٣٧] السيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن الكريم.

**<u>وأما القسم الثاني فحتمي ولكن قد لا يقع جزاؤه فوروقوع مسبباته</u>**: وأما الشكل الثالث: فحركة الإنسان والجماعة في ضمن دائرة اختيارهم، فيخالفوا عن أوامر الله، ويتحركوا في الأرض بما يخالف ما طبعوا عليه من السنن الفطرية، وما شابه، فيتحدون السنن مدة قصيرة ثم يأخذهم الله تعالى بظلمهم. لكن هذه السنن من هذا الشكل **<u>تمتاز بميزتين</u>**:

**أولاهما:** أنها تتعدى حركة الفرد إلى حركة ذات تأثير في الجماعة،

**والثانية**: ارتباطها بالعلة الغائية، وأن العلة الغائية تحرك الأسباب وتتفاعل معها، وفق نشاط ذهني ومخطط فكري!

## خلاصة التفسير التاريخي عند السيد الصدر:

ويلخص لنا المفكر الأستاذ يوسف الساريسي خلاصة التفسير التاريخي عند السيد الصدر:

١) إن المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس في حركة التاريخ.

٢) إن حركة التاريخ حركة غائية مربوطة بهدف وليست سببية فقط أي أنها حركة مشدودة إلى المستقبل فالمستقبل هو المحرك لأي نشاط من أنشطة التاريخ.

٣) المستقبل معدوم فعلاً وإنما يتحرك من خلال الوجود الذهني.

٤) الوجود الذهني هو الحافز والمحرك والمدار لحركة التاريخ.

٥) في الوجود الذهني يمتزج الفكر والإرادة وبامتزاج الفكر والإرادة تتحقق فاعلية المستقبل وتحريكهُ للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية.

إذن العلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان الفكر والإرادة وبين البناء الفوقي والتاريخي للمجتمع هي علاقة تبعية أي علاقة سبب بمسبب فكل تغير في البناء الفوقي والتاريخي للمجتمع إنما هو مرتبط بتغيير المحتوى الداخلي. انتهى[٣٨]

نستطيع صياغة الأفكار السابقة بشيء من التحوير فيها، والبناء عليها بناء فكريا نضيف إليها نظرتنا للموضوع فنميز بين ثلاثة أنواع من السنن: السنن الإلهية، والسنن الكونية، والسنن الإنسانية.

## السببية والغائية: تعريف العلة والسبب، والغاية، والعلة الغائية:

**<u>الغاية</u>:** ما لأجله وجود الشيء[٣٩]

**العادة**: ما استمر الناس عليه على حكم المعقول، وعادوا إليه مرة بعد أخرى.[٤٠]،

---

[٣٨] المفكر الأستاذ يوسف الساريسي

[٣٩] التعريفات للجرجاني

[٤٠] التعريفات للجرجاني

"**السبَبُ**: الحَبْلُ. والقَدَرُ أيضاً"[٤١] "السَّبَبُ: الحَبْلُ يُصْعَدُ بِهِ وُينحَدَرُ"[٤٢] فالسَّبَبُ يتخذ طريقة لبلوغ المُسَبَّبِ كما يستعمل الحبل للصعود والهبوط. "والسبب في اللغة: **اسم لما يتوصل به إلى المقصود**، والسَّبَبُ التام: هو الذي يوجد المُسَبَّبُ بوجوده فقط. والسَّبَبُ غير التام: هو الذي يتوقف وجود المُسَبَّبِ عليه، لكن لا يوجد المُسَبَّبُ بوجوده فقط"[٤٣]. "وسمي كل مايتوسل به إلى شيء سبباً، قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف ٨٤ - ٨٥]، ومعناه: أن الله تعالى آتاه من كل شيء معرفة، وذريعة يتوصل بها، فاتبع واحداً من تلك الأسباب، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ [غافر ٣٦ - ٣٧]، أي: "لعلي أعرف الذرائع والأسباب الحادثة في السماء، فأتوصل بها إلى معرفة ما يدّعيه موسى"، [٤٤]. "وهكذا فإن معنى السبب هو كل شيءٍ يُتوصل به إلى غيره، وبهذا المعنى استعملها العرب والقرآن الكريم والعلماءُ والفقهاءُ؛ وعليه فإن الحبلَ والطريق وانتهاء الأجل وإعداد العدَّة مثلاً كلُّها أسبابٌ لأنه يمكنُ التوصل بها إلى الغير؛ فحين نستعملُ لفظ السبب في قولنا مثلاً أسباب الإرث، أو أسباب التملك، أو ربط الأسباب بمسبباتها، أو أسبابُ النزول فإنها تعني كلَّ ما يتوصل به إلى الغير ولا نعني غيرَ ذلك مطلقاً، فواسطةُ التوصل إلى الغير هي السبب والغيرُ هو المسبَّبْ."[٤٥]

**والعلة**[٤٦] في اللغة[٤٧] تأتي من العوائق المعيقة، ومن ضعف في الشيء، والعلة بالتالي هي "باعث" على التفكير والتخطيط لتجاوز العقبات والعوائق، أو لوضع الحلول، والتغلب على الضعف والوهن، من أجل بلوغ غايات معينة، **فالعلة الغائية** إذن **علة باعثة**، **وليست هي الغاية**، بل هي التي تبعث على تصميم الأنظمة، ووضع الحلول كي توصل إلى الغاية. **وعِلَّةُ الشيء**: ما يتوقف عليه ذلك الشيء،[٤٨]، العِلَّةُ الصورية: ما يُوجِدُ الشَّيْءَ بالفعل. العِلَّةُ الغَائِيَّةُ: ما يُوجَدُ الشيءُ لأجلهِ. العِلَّةُ الفَاعِلِيَّةُ: ما يُوجَدُ الشَّيءُ لِسَبَبِهِ. العِلَّةُ المادية: ما يُوجِدُ الشَّيءَ بالقوة.[٤٩] ولا

---

[٤١] المحيط في اللغة للصاحبي ابن عباد

[٤٢] فقه اللغة وسر العربية للثعالبي

[٤٣] التعريفات للجرجاني

[٤٤] مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني

[٤٥] السببية ودورها في حياة المسلم. عبد الكريم الشامي، دار البيارق، وكذلك مجلة الوعي الأعداد ١٨-٢١

[٤٦] وهي قسمان: الأول: ما تقوم به الماهية من أجزائها، وتسمى: علة الماهية، والثاني: ما يتوقف عيه اتصاف الماهية المتقومة بأجزائها بالوجود الخارجي، وتسمى علة الوجود، وعلة الماهية، إما لأنه لا يجب بها وجود المعلول بالفعل بل بالقوة، وهي العلة المادية، وإما لأنه يجب بها وجوده، وهي العلة الصورية، وعلة الوجود، إما أن يوجد منها المعلول، أي يكون مؤثراً في المعلول موجوداً له، وهي العلة الفاعلية، أو لا، وحينئذ إما أن يكون المعلول لأجلها، وهي العلة الغائية، أو لا، وهي الشرط إن كان وجودياً، وارتفاع الموانع إن كان عدمياً.

[٤٧] العين واللام أصول ثلاثة صحيحة: أحدها تكرُّرٌ أو تكرير، والآخر عائق يعوق، والثالث ضَعف في الشَّيء، قال الخليل: العِلّة حدَثٌ يَشغَلُ صاحبَه عن وجهه. ويقال اعتلَّه عن كذا، أي اعْتَاقَهُ. قال: والأصل الثالث: العِلّةُ: المرض، وصاحبُها مُعتلّ. معجم مقاييس اللغة لابن فارس. والسَّبَبُ كلُّ شيءٍ يُتَوَصَّلُ به إِلى غيره؛ أو كلُّ شيءٍ يُتَوَسَّل به إِلى شيءٍ غيرِه، وقد تَسَبَّبَ إِليه، والجمعُ أَسْبابٌ. لسان العرب.

[٤٨] قسم أرسطوطاليس العلل إلى أربع: ١- علة مؤثرة – ٢- علة مادية- ٣- علة صورية- ٤- علة غائية. والمثال الذي مثّل به هو صنم الرخام؛ فالنحات علته المُؤثرة، والرخام علته المادية، وشكل الصنم علته الصورية، وتخليد ذكرى الشخص الذي نُحت الصنم على صورته علته الغائية، وسنرى بعد قليل خطأ أرسطو في هذه التقسيمات.

[٤٩] التعريفات للجرجاني

بد لكل معلول من علة، تعرف بالاستقراء التام، يعرف أثرها في المعلول بالبرهان اليقيني، **والعلة** تتميز بظاهرة **الاطراد، والانعكاس**، أي كلما وجدت العلة وجد المعلول، وكلما فقدت العلة فقد المعلول، والعلة واضحة غير مضطربة.[٥٠]

**العلة الغائية والعلة الباعثة:**

بمعنى واحد، وهي عبارة عن القصد الذي يدفعك إلى تحقيق عمل من الأعمال، فلولا قيام هذا القصد في الذهن واتجاهك إلى تحقيقه لما قمت بهذا العمل المعين، فقد كان قصدك هذا علة لوجوده. ومن شأن العلة الغائية هذه أنها تسبق المعلول في الوجود الذهني، وتتأخر نتيجتها (الغاية) عنه في الوجود الخارجي، فالحصول على الشهادة عِلَّةٌ غائية لدراسة الطالب، وهو أمر موجود في الذهن قبل الدراسة، ثم يصبح موجودا (تتحقق الغاية) في الخارج من بعدها.

ولفهم معنى العلة الباعثة، نرى أنك حين تشعر بالبرد قد تشعل النار، فالشعور بالبرد "**علة باعثة**" لتحقيق غاية، فهي "**علة غائية**"، تدفع الإنسان للتفكير بالعمل الذي يحقق غاية ما، وهي هنا الشعور بالدفء، فالغاية إذن هي الدفء، والبرد هو علة غائية، فينشأ عن العلة الغائية باعثٌ لفعلٍ يكون عكس البرد، فالغاية إذن متصورة في الذهن، فيقوم الإنسان حينها بإشعال النار أو ارتداء المعطف الثقيل، فالنار أو المعطف أسباب لا بد من تفعيلها لبلوغ الغاية المتصورة في الذهن، أو النتيجة، **فالعلة الغائية باعث على تحريك الأسباب وتفعيلها بما يحقق النتيجة أي الغاية.**

لذلك حين النظر في النظام من حيث الغايات التي حققها، أو التي يمكن استنباطها من وجوده، أو التي نراها فيه، ندرك أنه لوجود هذه الغايات المنظمة، كان لا بد بالضرورة أن يوجد باعث ما (أو مجموعة بواعث/ مشاكل، علل، حاجات...الخ) تم تحريكُ أسبابٍ لازمة تتغلب على تلك العوائق، وتفعيل الطاقة السببية لإيجاد ما يحقق تلك النتائج والغايات بشكل منظم وذكي،

تلك الغايات كانت مُتَصَوَّرَةً في الذهن، وكان لا بد من أن يكون تصور الأسباب اللازم تفعيلها قائما في الذهن أيضا، وبالتالي **فالتصميم الذكي المحكم، أو تصميم الأنظمة السببية لا بد أن يكون غائياً، والغائية أيضاً قرين للتصميم الذكي**، ولا محل للعشوائية أو المصادفة، أو العبثية (العبث لا يوصل لغاية، ولا يحقق قصداً، لأن القصد أصلاً غير موجود عند العابث، وقد يكون العابث عاقلا، إلا أنه لا يقصد بفعله تحقيق غاية، ومتى ما وجدت الغاية عنده، حتى ولو كانت تافهة فإن فعله يوصل للقصد، وبالتالي فهو غائي،

فالعبثية لا تعني الفعل غير المفيد هنا، بل تعني الفعل الذي لا يفضي لتحقيق قصد وغاية لانتفائهما أصلا، والغائية لا تعني حصر الفعل بالفعل المفيد، بل هي تسخير الأسباب (لتحقيق غايات معينة)، في الأنظمة الغائية الذكية التي يلاحظ فيها طرقٌ ذكية تعالج المشاكل، يؤدي فيها كل جزء من أجزاء النظام وظيفة معينة لتحقيق النتيجة المطلوبة، فالذكاء وحسن التصميم مقترنان بالاستجابة لحل معضلة ما، أو تجاوز عقبة ما، أو تسخير

[٥٠] كبرى اليقينيات الكونية للبوطي ص ٤٤- ٤٥.

سبب ما، فَيُسَخِّرُ المصمم إذن ذكاءه ليحل المشكلة ويتجاوز العقبات، لذلك فقولنا: "التصميم ذكي" هو نفسه قولنا "التصميم غائي".

## الفرق بين العلة والسبب، وبين الغاية والعلة الغائية:

قال بعض الفلاسفة والمفكرين: "الغاية ما لأجله وجود الشيء، وتطلق على الحد النهائي الذي يقف العقل عنده، وعلى التمام أو الكمال المقصود تحقيقه، والمصير المراد بلوغه. وقد تطلق كذلك على **الغرض**، ويسمّى علة غائية، وهي **ما لأجله** إقدام الفاعل على الفعل، وهي ثابتة لكل فاعل يفعل **بالقصد والاختيار"**، وتعليقنا على هذا التعريف هو ملاحظة تفريقنا بين العلة الغائية والغاية، قال ابن سينا: "والغاية بما هي شيء فإنها تتقدم سائر العلل، وهي علة العلل في أنها علل... وذلك لأن سائر العلل إنما تصير عللا بالفعل لأجل الغاية، وليست هي لأجل شيء آخر... ويشبه أن يكون الحاصل عند التمييز هو أن الفاعل الأول والمحرك الأول في كل شيء هو الغاية".[٥١] واضح ان ابن سينا يخلط بين الغاية والعلة الغائية، وقد وجدنا هذا يتكرر كثيرا عند الفلاسفة والمفكرين، وكذلك وجدنا كثيراً منهم يخلط بين العلة والسبب، ولكن كلامنا أدق، وتعريفنا أضبط.

**والفرق بين العلة والسبب**، هو أن السبب "فاعل"، بينما العلة "باعث" على التغيير. والسبب هو ما يلزم من وجوده وجود، ومن عدمه العدم، **ولم يكن هو الباعث على التغيير**، بل **هو الذي به يحصل التغيير**.

كذلك بالتحليل نجد أن السبب ينتج المسبب حتما، بينما العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما، ولا تنتج المعلول، فالعطش باعث (علة) على الشرب للإرتواء، وقد يشرب العطشان وقد لا يشرب، وقد يعطش الإنسان يومه وقد لا يعطش ذلك اليوم، فإن عطش وجد المعلول، فوجدت العلة بوجوده، وإن لم يعطش انتفى المعلول ولم يعد للعلة وجود، بينما الشرب سبب في الإرتواء، إن حصل الشرب حصل الإرتواء دائما.

ولا بد لكل مُسبَّبٍ من سببٍ، يُعرف بالاستقراء التام، أو بالاستقراء الناقص[٥٢] مع ملاحظة تكرر إنتاج المُسَبِّبِ للمُسَبَّبِ، (كثيرا ما يسميها المفكرون: علة، ويمكن أن نسميها علاقة معلول بعلة إذا فهمناها في إطار الباعث على الغليان مثلا الذي يحرك العلاقة السببية في اللحظة المناسبة لإنجاز الغليان، وذلك لأن العلاقة العلية لا توجد إلا بوجود السببية، أي أنه **لا تتحقق العلية إلا بتفعيل السببية**! من هنا كان المفكرون يستعملونهما بشكل متبادل! ولا بأس في ذلك، طالما أن الفرق بينهما واضح في الذهن)، وهذا التكرار في تكرر العلاقة بين السبب والنتيجة أو العلة والمعلول يستحيل أن يكون مصادفة كل مرة، ويعرف أثره في المُسَبَّبِ

---

[٥١] الأنطولوجيا العربية، باب: الغاية ومقولة ابن سينا مقتبسة من (النجاة، ص ٣٤٥).

[٥٢] نعني هنا أننا لا نحتاج أن نستقرئ كل حالات غليان الماء كل مرة في الدنيا وفي المستقبل حتى يكون الاستقراء كاملا!

بالبرهان اليقيني، والسبب يتميز بظاهرة **الاطراد، والانعكاس**، أي كلما وُجِدَ السَّبَبُ وُجِدَ الـمُسَبَّبُ، وكلما فُقِدَ السَّبَبُ فُقِدَ الـمُسَبَّبُ.

والفرق بينهما أن الغايات قد لا تكون لها أي علاقة بالأسباب، وقد كان لعدم تفريق علماء الغرب التجريبيين بين الغايات وبين العلة الغائية **نتائج كارثية على المعرفة**، يعرض لنا باروخ برودي مثلين على غايات معينة يعتبرهما مثالين للتفسير "الوظيفي"[٥٣] في سياق العلوم الاجتماعية والبايولوجية، أولهما: لماذا يستمر هنود الهوبي في أداء طقوس الاستسقاء رغم أنها في العادة لا تفضي إلى النتائج المرجوة؟ السبب هو توظيف هذه الطقوس في تعزيز التماسك الاجتماعي عبر خلق مناسبات للمساهمة في أنظمة مشتركة، الأمر اللازم لبقاء وحدة الجماعة ورفاهة أعضائها، والرابط هنا في المثال الأول هو رابط الغايات المقصودة من الأعمال، وقابلية هذه الأهداف للتفسير، واختلاف النظرة لهذه الغايات مما يجعل إقحام العلم في تفسيرها مركبا "صعبا" قد يخطئ تلك الغايات، فلا يهمه إذن من هذه الظاهرة التي هي هنا: الاستسقاء، إلا بحث طبيعتها ونتيجتها بأنها لا تجلب المطر، وخلو هذه الظاهرة من قوانين أو نظريات، الأمر الذي يفضي إلى أن يصرف العلم وجهه عنها" انتهى، والطامة في هذا الأمر هو **إسقاط بحث العلل الغائية من البحث العلمي برمته**، حين اختلط مفهوم الغاية بمفهوم العلة الغائية أو الباعثة، فحين قام علماء البيولوجيا بدراسة **حقيقة كون نوع من الفراشات يظهر نوعا من الألوان، غير قابلة لأن تشتق، ومن ثم غير قابلة لأن تفسر**، من قبل القضية التي تقرر أن لهذا النوع من الألوان أثراً **في الحول دون مطاردة الطيور لتلك الفراشات**، فهناك مشكلة مطاردة الفراشات، وهي علة غائية أي باعث على التصميم الحكيم، كان الحل هو تلك الألوان، تماما كما للحرباء من ألوان تخفيه، فالعلة الباعثة أو العلة الغائية هي التخفي من المطاردة والحفاظ على الحياة، والأسباب التي تحركت هي ألوان معينة تحقق هذه النتيجة،

الأمر الذي سيفضي إلى التساؤل: من الذي جعل العجماوات من الحيوانات كتلك الفراشات التي لها ألوان تصرف عنها اعتداء وملاحقة الطيور، أو الألوان التي تتخذها الحرباء للاختفاء لحماية نفسها أو الانقضاض الصامت على فريستها، وما يشبه ذلك من أعمال ذكية تدل على تصميم مسبق محكم؟ هل قامت العجماوات بوضع هذا التصميم المبهر واختيار ألوان غير قابلة للاشتقاق، أو ألوان تتكيف مع الوسط المحيط؟ لكن هذه الخيارات ذكية وهي عجماوات؟ الأمر الذي سيدفع العلم ليقدم الصلة بين تلك الظواهر وتلك التصاميم، والخالق المبدع،

ولأن علماء البيولوجيا لا يريدون ربط التصميم المحكم بالخالق، حاروا، واحتجوا بأن هذه "غايات" يختلف تفسيرها، كما لا يمكن تفسير الرابط بين الاستسقاء الذي لم ينزل معه أي مطر، وبين المطر وهو غايته!

فرأوا أن بحث الغايات هذا لا يسمى بالبحث العلمي، فالواضح أن المنهج المعرفي الطاغي في الوسط العلمي التجريبي الغربي يريد أن يضع مسمارا في نعش الغائية، والوظيفية، ويصرف التفكير عن مثل هذا التفكير الغائي مهما كان ظاهرا وواضحا، إلى محاولة تلمس تعليلات مادية بحتة لا علاقة لها بالتفكير الغائي المسبق! أي إلى البحث في أمورٍ طبيعية، لا تدخُّلَ فيها للذكاء المسبق، ولا للتخطيط لغائيات بايولوجية تفسر ظواهر محسوسة،

---

[٥٣] أنظر: باروخ برودي في كتابه: قراءات في فلسفة العلوم، ترجمة د. نجيب الحصادي ص ٢٩.

أو سلوكاً وظيفياً ظاهرا على كف اليد. إذن، فعدم التفريق بين الغاية وبين العلة الغائية أفضى إلى كوارث على نظرية المعرفة عند الغربيين. وهذا ما يفسد مسار العلم ويبعده عن أن يكون أداة لتفسير العالَم!

نلاحظ أيضا أن كلمة العلة الغائية، (الغائية) ترتبط عادة بالهدف، أو الغرض، أو الوظيفة التي تتمثل في نتيجة الفعل الغائي، (الباعث على القيام بأفعال توجد النتيجة)، لذلك يحرص بعض العلمانيين الرافضين للغائية على تجنب استعمال هذه الألفاظ للدلالة على "وظائف" الأجهزة، كقولهم: "الكِلْيَةُ جهاز لازم للتخلص من البول" بدلاً من "وَظِيْفَةُ الكِلْيَةِ هي التخلص من البول"، وذلك لأن بعضهم ينكر الغائية ويعتبرها تتناقض مع العلم، ويؤمن فقط بالسببية والحتمية، **على أساس الانفصام بين السببية والعلة الغائية**، فكأن الأسباب لا تتحرك تبعا لوجود بواعث غائية تحركها، فيظنون أنه إذا توافرت الأسباب نفسها في الظروف ذاتها حصلت النتائج نفسها **بشكل حتمي** أو ذاتي، **فمناهج "العلم التجريبي" المتمثلة في الاستقراء والاستنتاج لا تقوم على افتراض غاية سابقة تحكم الوجود، و إنما هناك قوى كامنة في طبيعة الأشياء تفعل فيها**[٥٤]،

وما نود الإشارة إليه هنا، أن هناك **فرقا بين الغائية والغايات**، فحيثما وجدت مصطلح "الغائية" في هذا البحث، فهو يعني: العلة الغائية، وهو غير الغاية أو القصد، فالغاية أو القصد يرتبطان ب "الحكمة" من الشيء، فالحكمة هي ما ينتج عن الفعل من مصالح ومنافع بعد حصوله.

ففي مسألة الاستسقاء التي طرحها برودي قبل قليل نجد "حكمة" أو "غاية" من ذلك الفعل، يصعب على من لم يفهم طبيعة ذلك الشعب بلوغها، وقد يستنبط فلاسفة "حكما وغايات" أخرى، ولا مجال لتقنين هذه الحكم، وبالتالي أسقطوا مثل هذه الأبحاث من العلم جملة، وأسقطوا بحث الغائية، مع أنه لا يمكن دراسة "التصميم الذكي المحكم" في كثير من مجالات العلوم بغير فهم للغائية، والغائية هي المحرك الذي يطور العلوم والاختراعات!

لذلك ترى تراكم كم هائل من القضايا التي لم يستطع العلم أن يقول فيها كلمة، وحين حاول الفلاسفة والمفكرون ربط تلك القضايا بالغائية وبالخالق هاجمهم بعض الفيزيائيين أو الملحدين باتهامهم باستعمال ما أطلقوا عليه: "إله الفجوات"، **وهؤلاء الملحدون في الو اقع يقطعون الصلة الحتمية بين الظواهر وأسبابها الواضحة فيملأون العلم بالفجوات الهائلة!**[٥٥]

## نقد تقسيمات أرسطو للعلل:

لقد وجدنا بالدراسة خلطا شديدا بين مفهوم العلة ومفهوم السبب عند كثير من المناطقة والفلاسفة والمفكرين، من ذلك مثلا: قيل: -وهو قول فيه جملة من الأخطاء- العِلَّةُ:[٥٦] علة الشيء: "ما يتوقف عليه ذلك

---

[٥٤] أنظر: موقع المعرفة، بحث: الغائية.

[٥٥] أنظر تفاصيل كثيرة في كتابنا: نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال.

[٥٦] وهي قسمان: الأول: ما تقوم به الماهية من أجزائها، وتسمى: علة الماهية، والثاني: ما يتوقف عيه اتصاف الماهية المتقومة بأجزائها بالوجود الخارجي، وتسمى علة الوجود، وعلة الماهية، إما لأنه لا يجب بها وجود المعلول بالفعل، بل بالقوة، وهي العلة المادية، وإما لأنه يجب بها وجوده، وهي العلة الصورية، وعلة الوجود، إما أن يوجد منها المعلول، أي يكون مؤثراً في المعلول موجوداً له، وهي العلة الفاعلية، أو لا، وحينئذ إما أن يكون المعلول لأجلها، وهي العلة الغائية، أو لا، وهي الشرط إن كان وجودياً، وارتفاع الموانع إن كان عدمياً.

الشيء"، والصواب أن وجود الشيء يتوقف على وجود السبب الذي أوجده، لا العلة، فالنحات حين ينحت التمثال يسخر الأسباب التي توجده، فيوجد بوجود تلك الأسباب، لكن علة النحات أو الباعث على النحت قد يتغير، فبينما هو ينحت تمثال امرأة قد يغير التصميم مرات ومرات، فالعلة الغائية تغيرت لديه كل مرة، والتصميم تغير لديه، لكنه سخر الأدوات التي تنتج الصورة أو التصميم النهائي الذي استقر عليه ويوجد بوجود تلك الأسباب.

قسم أرسطوطاليس العلل إلى أربع: ١- علة مؤثرة (فاعلية) ٢- علة مادية ٣- علة صورية (أو الماهية) ٤- علة غائية.

والمثال الذي مثّل به هو صنم الرخام؛ فالنحات علته المُؤثرة، (أو الفاعلية)، والرخام علته المادية (أي وجوده الخارجي الحقيقي المحسوس ماديا)، وشكل الصنم علته الصورية (أو الماهية) أي التصور الذهني لأجزاء الشيء أو هيئته أو صورته التي سيكون عليها، وتخليد ذكرى الشخص الذي نُحت الصنم على صورته علته الغائية (أو الباعثة)، ولا شك أنه هنا يخلط بين العلة والسبب ولا يفرق بينهما.

وقد تابعه كثير من المفكرين، فعلى سبيل المثال: تجد التعريفات التالية لأنواع العلة:

العِلَّةُ الصورية: ما يُوجِدُ الشَّيْءَ بالفعل. العِلَّةُ الغَائِيَّةُ: ما يُوجَدُ الشيءُ لأجلِهِ. العِلَّةُ الفَاعِلِيَّةُ: ما يُوجَدُ الشَّيءُ لِسَبَبِهِ. العِلَّةُ المادية: ما يُوجِدُ الشَّيءَ بالقوة.[٥٧]

**من خلال تفريقنا السابق بين العلة والسبب، يتبين خطأ تقسيمات أرسطو للعلل، و أنه يخلط بين العلة والسبب**، وأن مفهوم السببية غير واضح لديه تمام الوضوح، ففي مثال التمثال الرخام قال: "فالنحات علته المُؤثرة، (أو الفاعلية)"، والصحيح أن النحات هو الذي يحرك مجموعة الأسباب اللازمة لحصوله، وهو الذي لديه التصميم الذكي الذي ينفذه بالنحت، فهو الفاعل، وليس بالعلة، هو الذي يوجد الصنم بالقوة، فهو المسبِّبُ.

قيل: "والرخام علته المادية (أي وجوده الخارجي الحقيقي المحسوس ماديا)"، ولا دخل للرخام بالعلية في شيء، فالرخام مادته التي تعمل عليها الأسباب حتى تشكلها بصورة متصورة في الذهن، فالرخام منفعل بما فيه من خصائص.

قيل: "وشكل الصنم علته الصورية (أو الماهية) أي التصور الذهني لأجزاء الشيء أو هيئته أو صورته التي سيكون عليها"، وهذه وصفناها بالغاية المتصورة في الذهن، فهي والعلة الغائية سواء، لا فرق بينهما، فالشكل أو الصورة باعث يسخر النحات الأسباب للوصول إليهما، فهو "التصميم الذكي" الذي ينفذه النحات، وليس هو الباعث الوحيد، بل "وتخليد ذكرى الشخص الذي نُحت الصنم على صورته علته الغائية (أو الباعثة)"، أي إن الصورة أو التصميم، والتخليد علتان باعثتان غائيتان.

### الموقف من العِلِّيَّة:

---

[٥٧] التعريفات للجرجاني

يقول الدكتور محمد محمد قاسم: "كان مبدأ العلية أكثر المبادئ استهدافا لهجوم الفيزياء المعاصرة، كانت نظريات نيوتن في مجملها ترجمة وإيضاحا لمقولة العلية أو لتلك العلاقة الضرورية بين العلة والمعلول، بحيث يتاح لنا -طبقا لها- التنبؤ بالحالة المقبلة لأية مجموعة استنادا إلى حالتها السابقة، وقد قادنا هذا التصور العلي إلى الفهم الميكانيكي للطبيعة بحيث أصبح "بمثابة مثل أعلى للتفسير العلمي في كل مجالات المعرفة أيا كان الطريق الذي نسلكه للوصول إليها" كما يقول نيلز بور في كتابه: "الفيزياء الذرية" ص ٨١، وجاءت ردود الفعل مختلفة تجاه مبدأ العلية بين العلماء المعاصرين، فهناك رفض تام في ناحية، أو قبول له مع تحفظ في ناحية ثانية، أو تعديل له مع إعطائه صبغة إحصائية في ناحية أخرى، وتمثل نتائج نظرية ديراك موقف الرفض التام وهي التي انتهت إلى أن التجارب المتماثلة كما تسجل مشاهدتنا ليس من الضروري أن تؤدي إلى نتائج متطابقة، وهذه النتيجة تنفي مبدأ الاطراد كما تنفي مبدأ العِلِّيَّة،

وطائفة أخرى من العلماء لم تستبعد العلية، وإنما استبعدت المفهوم التقليدي لها، الذي كان يوحد بينها والحتمية، لأن الفيزياء لن تصبح علما في نظرهم إذا ما هي تخلت عن البحث عن علل الظواهر، ولكن ما دامت الظواهر التي تدرسها الفيزياء المعاصرة لا تتميز بالحتمية التقليدية نتيجة التشابك والترابط بينها، فليس أمامنا سوى أن نثبت العلية إذا انطوت عليها بعض نتائج تجاربنا وأن نتخلى عن إعلانها إذا لم تثبتها أدوات قياسنا الدقيقة، ويمكن أن نمثل لهذا الاتجاه بآينشتاين.

والاتجاه الثالث يرى أن العِلِّيَّة في مجال الظواهر الجديدة عِلِّيَّة مجالية، وهي محصلة لتأثيرات متعددة ناتجة عن التفاعل الدائب بين التركيبات الأولى لهذه الظواهر، هي عِلِّيَّة يمكن تحديدها إحصائيا بمقتضى حساب الاحتمالات ونمثل لهذا الاتجاه بأصحاب الميكانيكا الموجية، ورغم ما قد يبدو من اختلاف في وجهات النظر المعاصرة تجاه مبدأ العلية، فإن ما يتفقون عليه في الحقيقة هو أن ذلك المبدأ العِلِّيَّ القديم الذي يجعل لكل معلول علة ولكل علة معلولا هو شكل من أشكال القيم الأخلاقية التي ما تزال تفرض ثقلها على الطبيعة الخارجية"[٥٨]

هذا، وقد بحثنا المسألة هذه، وأثبتنا ضرورة السببية (العلية) والحتمية، وفرقناهما عن مفهوم التنبؤ ووضعنا المسألة في نصابها بالتفصيل الشديد في كتابنا: (نَشْأَةُ الْكَوْن، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسّيٌّ عَلَىْ وُجُوْد الْخَالِقِ)، فراجعه.

## السبب اللغوي والسبب الأصولي والسبب الشرعي والسبب العقلي وأسباب العادة:

"السَّبَبُ في اللغة: الحَبْلُ. والقَدَرُ أيضاً"[٥٩] "السَّبَبُ: الحَبْلُ يُصْعَدُ بِهِ وُينحَدَرُ"[٦٠] فالسَّبَبُ يتخذ طريقة لبلوغ المُسَبَّبِ كما يستعمل الحبل للصعود والهبوط. "والسبب في اللغة: **اسم لما يتوصل به إلى المقصود.**

[٥٨] الدكتور محمد محمد قاسم: كارل بوبر، نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي ١٩٨٦، ص ١٢٢-١٢٣

[٥٩] المحيط في اللغة للصاحبي ابن عباد

[٦٠] فقه اللغة وسر العربية للثعالبي

أما **السَّبَبُ في الأصول**، فالسبب أحد أقسام الحكم الوضعي، وعُرّف بأنه: كلّ وصف ظاهر منضبطٍ دلّ الدليل السمعي على كونه معرفاً لوجود الحكم لا لتشريع الحكم،[٦١]، "فالسبب أمارة مُعَرِّفَةٌ لوجود الحكم، مثل زوال الشمس أمارة مُعرّفة لوجود الصلاة"، "وطلوع هلال رمضان أمارة مُعَرِّفَةٌ لوجود صوم رمضان في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ وقوله ﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ» أخرجه أحمد، وهكذا. فالسبب ليس موجباً للحكم، وإنما هو مُعَرِّفٌ لوجوده. وواقع السبب أنه وُضع شرعاً للحكم الشرعي، لحكمة يقتضيها ذلك الحكم"[٦٢].

ونقيضه: المانع، "فالمانع نقيض السَّبب أو نقيض الحكم، فالقرابة سبب الإرث، والقتل العمد مانع من الإرث، فالمانع نقيض الحكم، لكنه لم يمنع القرابة"[٦٣] نفسها.

وأما **السَّبَبُ الشَّرعي**: فهو ما يلزم من وجوده وجود، وما يلزم من عدمه العدم، كالصيغة بالنسبة إلى العتق الواجب، ونحو: أسباب الإرث: النكاح والولاء والنسب.

والسبب الشرعي أيضاً: هو السبب الذي جاء الخبر بذكره، فَبَيَّنَهُ لنا ولم يكن العقل ليستطيع الكشف عنه، مثل كون انتهاء الأجل هو سبب الموت.

اعلم أن مظان العلم تطلب من أبواب أربعة[٦٤]، أولها: العقل (وقوانين التفكير)، وضرورات التوحيد، وسنن العادة، والخبر، وما يهمنا هنا هو استنباط ثلاثة أنواع من أسباب من هذه المظان الأربعة:

وأما **السَّبَبُ العقلي** فهو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم لذاته.

فأما العقل فينتج عنه السبب العقلي، باستعمال قوانين التفكير[٦٥] (وهي قوانين بنيت على المنطق) وتستند إلى القوانين التالية: قانون الهوية، وقانون التناقض (أي مبدأ عدم التناقض)، وقانون التضاد، وقانون الثالث المرفوع، وغيرها من قوانين التفكير، والقوانين الأولية، ويتم استنباط السببية أو السننية منها بملاحظة الربط العقلي بين السبب ومسببه، وبملاحظة واستقراء الاطراد (أي مبدأ اطراد سير الحوادث الطبيعية بخضوعها لتفاعل قوانين الطبيعة مع خصائص المادة على كيفية معينة دائمية، أو اطراد سير العلاقات المجتمعية وفقا لسنن ونواميس معينة نظم الله المجتمعات وفقا لها)، والارتباط بين شيئين أحدهما تسبب في حدوث الآخر، والثاني كان نتيجة له، وتعرف الدلالة بينهما بتلازمهما، ولكن هذه الدلالة لها أنواع بحسب إفادة اليقين من هذا التلازم أو الظن أو غير ذلك، كذلك يجري ذلك وفقاً لمبدأ نفي تكرار المصادفة[٦٦].

---

[٦١] تيسير الوصول إلى الأصول لعطاء بن خليل أبو الرشتة. ص٣٢.

[٦٢] الشخصية الإسلامية الجزء الثالث أصول الفقه للعلامة: تقي الدين النبهاني ص ٤٩

[٦٣] **تيسير الوصول إلى الأصول، عطاء بن خليل** أبو الرشتة ص ٣٢، وص ٣٨.

[٦٤] يراجع كتابنا: "نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال"، وبحث الأستاذ يوسف الساريسي: "قوانين التفكير"، وكتاب الأستاذ محمد باقر الصدر رحمه الله "فلسفتنا"، وكتاب: "كبرى اليقينيات الكونية" للبوطي، وبحث: "خبر الآحاد بين فخ السؤال، وإشكالية المنهج" وأظن اسم كاتبه: علي عقيل الحمروني.

[٦٥] راجع كتابنا: نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال، فيه تفاصيل كاملة حول قوانين التفكير.

[٦٦] ومثال ذلك أن نحصر تجربة بتسخين المعدن بالحرارة، وحين تصل الحرارة لدرجة معينة يتمدد المعدن مقداراً معيناً، وفي ظروف معيارية منضبطة تماماً، تحصر كل العوامل المؤثرة، ثم نكرر التجربة مرة إثر مرة، فيتكرر التصرف نفسه، وليس ثمة عوامل مؤثرة غير الحرارة في ظروف التجربة المخبرية المنضبطة، فيأتي قائل ليقول: ماذا لو كان هناك عامل مجهول غير الحرارة يصادف تدخله في كل مرة، ويكون هو السبب في بعض حالات التمدد والحرارة في بعضها الآخر! فنقول له يستحيل تكرار المصادفة!

فيقع الحس على ذات العلة وذات المعلول، فندرك ببصرنا سقوط القلم على الأرض إذا سحبت من تحته المنضدة التي وضع عليها، وندرك باللمس حرارة الماء حين يوضع على النار، وكذلك ندرك تمدد الفلزات في وسط حار. ففي هذه الأمثلة **نحس بظاهرتين متعاقبتين** **ولا نحس بصلة خاصة بينهما**، (أي قدرة تأثير إحدى الظاهرتين في الأخرى، وتوقف حدوث التغيير في الخصائص على وجود هذا التأثير)، وغاية ما يحصل هو تكرار التجربة واستقراء حدوث الظاهرة عند ظروف معينة، ومن ثم تقنين هذه العلاقة بصورة رياضية! هذه الصلة التي نسميها **بالعلية أو السببية** ونعني بها:

أ- **قدرة أو استطاعة إحدى الظاهرتين أن تؤثر في الأخرى وتحدث فيها التغيير**، (مثلا: حين تدفع منضدة فتحركها نقول بأنك استعملت القوة للتأثير عليها، فالقوة هي الشيء الذي يحدث تأثيرا في حركة الجسم أو مكانه في زمن معين، فالقوة مقدار قيس بتناسب سرعة الحركة مع كتلة الجسم المتحرك في زمن ما، فلم تقع القوة نفسها تحت حس المختبر، وإنما آثارها! **أي من خلال المعلول (المُسَبَّب) لا العلة (السَّبب) نفسه**!

ب- وحاجة الظاهرة الأخرى إليها لأجل أن توجد أو تتأثر أو يحصل فيها التغيير.

ت- وجود صفات وخصائص في الظاهرة الثانية تجعلها قابلة للتأثر بالظاهرة الأولى، (الوقود فيه خصائص القدرة على الاشتعال مثلا، بخلاف الماء)

ث- وجود صفات وخصائص في الظاهرة الأولى تجعلها قابلة للتأثير في الظاهرة الثانية.

ج- والتعاون مع الشروط اللازمة لإحداث التغيير، أو فرض هذه الشروط أو تفعيلها، ففي مثال الغليان لو وجد الملح في الماء لما كانت حرارة الغليان ١٠٠ درجة مئوية، لذلك من شروط حصول الغليان على تلك الدرجة نقاء الماء مثلا، وفي حال النار يحتاج الحطب أو الوقود الذي فيه قابلية الاحتراق لوجود الأكسجين، ولوجود مصدر للإشعال، ولوجود كمية كافية من كل هذه العناصر لحصول الحريق، فقطعة حطب كبيرة لا يكفي القليل من مصدر الإشعال أو القليل من الأكسجين لإشعالها!

ح- غياب الموانع والعوائق التي تعوق العملية التفاعلية أو تعطيلها، أو التغلب عليها.

خ- **وامتلاك زمن كاف لإحداث التغيير منذ بدء الفعالية السببية وحتى حصول التغيير**، وكلما زاد عامل الزمن زاد التأثير وكلما قلَّ قلَّ التأثير، فأنت إذا وضعت شعلة نار عند خشبة وتوفرت لك كل العوامل والشروط مثل الأوكسجين والتلامس، ولكن إذا كان الوقت هو مثلا نصف ثانية فهو غير كافٍ لاشتعال الخشبة، ولكنه قد يكون كافيا لاشتعال البنزين لاختلاف الخصائص، وحتى الشغل يعرفونه بمقدار القوة المبذولة في زمن معين، فالشغل هو الذي يحدد مقدار التأثير ككمية، والانفعال في المسبب يكون بمقدار متناسب مع الفعالية السببية. لأن الطاقة السببية تنتقل من السبب إلى المسبب بمقادير معينة حسب زمن التأثير.

د- **وحتمية أو ضرورة الإنتاج للمُسَبَّب**، أي حتمية أن تنتج الظاهرة الأولى الظاهرة الثانية كل مرة، لوجود قدرتها على التأثير، وقدرة الأخرى على التأثر، فإذا لم ينتج عن وجود السبب وجود المعلول (المسبَّب) لا يكون علة (سببا) له.

ذ- يتم الاستقراء، ويستعمل العقل مفاهيمه عن "التلازم الذهني"، ويستعمل هذه المفاهيم لتفسير واستنباط العلاقات، فيستنتج وجود العلية، أي ولأنه في كل مرة وصلت حرارة الماء لمائة درجة حصل الغليان، ربطنا من خلال الاستقراء واستعمال مفهوم "التلازم الذهني" ربطنا بين الفاعل والنتيجة، واستنتجنا وجود العلية، وقلنا: حرارة مائة مئوية تسبب الغليان! وفي كل مرة تؤثر قوة في طاولة فتزيحها مقدارا معينا في زمن معين، وبتلازم ذلك قلنا بأن المؤثر هو القوة. فالتلازم الذهني ليس جزءا من التجربة، وإنما **هو قانون عقلي تركز في العقل**! أي أنه من قوانين التفكير.

وهذا هو السبب العقلي.

وأما العادة فينتج عنها **السَّبَبُ** "**العادي**"، ونعني بذلك الطرائق الجارية في الكون، والإنسان، والحياة. أي القوانين والسنن والنواميس المودعة في جنبات الكون، وفي حركة الإنسان، والحياة، والطبيعة، والمجتمعات البشرية بكل تفاصيلها، من مثل، وجود خاصية الإحراق في النار، للأجسام القابلة للاحتراق، أو خاصية تمدد المعادن بالحرارة، وانكماشها بالبرودة، أو قوانين الفعل ورد الفعل، أو قوانين تغيير المجتمعات وإقامة الدول، والصراع والمدافعة، والحروب وغلبة القوي ذي الإعداد الأفضل فيها، فبتكرار وقوع العادات هذه، نجد العادات المستقرة والغالبة والمشتهرة والقلية والنادرة،

فالعادة المستقرة لا تنخرم إلا بالمعجزات، من مثل: عدم اختراق النظر للأجسام المعتمة، وعدم طيران الإنسان دون آلة، وسقوط الأجسام الثقيلة إلى أسفل في حال تواجدها في مجال جاذبية الأرض، ومثل هذا النوع يفيد القطع، ويحصل بالاستقراء، فالسبب الراجع لعادة مستقرة يفيد القطع، مثل قولنا: الجاذبية سبب في سقوط الأجسام من أعلى لأسفل، ويترتب عليه صحة استنباط وجوب حصول المعلول بوجود علته، وأما العادة الغالبة، فكأن يولد الطفل وفي يده خمسة أصابع، وينقطع أحياناً فيولد المرء بستة أصابع في اليد الواحدة مثلاً!

وهذا النوع يفيد نسبة غلبة الظن المرتفعة، بحيث يغلب على الظن وبصورة مرتفعة وقوع وتكرار متعلقه في العادة. وبالمثل تكون العلاقة السببية المبنية عليه تفيد غلبة الظن بوقوعها، مثل أن يحصل النصر لمن أعد إعدادا أفضل من خطة وعتاد وتسليح، ومصابرة على الحرب، فإنه في الغالب الساحق يتسبب هذا بفوزه في المعركة، ويكون الإعداد سببا في انتصاره.

وعندما يريد الباحث أن يكتشف سنة معينة من سنن العادة أو الطبائع التي تجري وفقها الأمور في المجتمعات البشرية فلا يستطيع أن يحدد جميع العوامل التي تدخل في السنة من أسباب وشروط بشكل دقيق ولا أن يحصرها ويحدد مقاديرها، وبالتالي فهو يلجأ إلى عملية اختزال وتقريب لهذه المجموعة من العوامل وإلى التركيز على عدد قليل من هذه المجموعة من الأسباب والشروط ويتم تجاهل أسباب أخرى أقل أهمية في نظره[٦٧]

---

[٦٧] من بحث: السببية وسنن الحياة للأستاذ يوسف الساريسي بتصرف يسير.

وأما **الأسباب الراجعة للخبر**، فأمثلته: الإماتة، **فالفاعل فيها على الحقيقة هو الله تعالى**، يميت، ولم يسند فعل الإماتة لغيره، فالموت يحصل حتماً بالأجل ولا يتخلف مطلقاً فكان الأجل سبباً للموت، والذي يميت هو الله سبحانه وتعالى، **فهو الذي يباشر فعل الإماتة، وإسناد الفعل له على الحقيقة، والمراد منه فعل الإماتة**، **وليس خلقه**، لأن الأصل في الإسناد الحقيقة، ولا ينصرف إلى المجاز إلا بقرينة، ولا قرينة تصرف الإسناد عن معناه الحقيقي، **فتكون نسبة الإماتة إلى الله نسبة حقيقية**، ونفت الآيات نفيا مطلقا قاطعا أن ينسب لغيره -وسيأتيك بيانها بعد قليل إن شاء الله-، فينتج عن هذا معرفة **السبب الشرعي** أو الذي جاء الخبر بذكره، فبينه لنا ولم يكن العقل ليستطيع الكشف عنه.

## مفهوم الأخذ بالأسباب في الأعمال:

تتعلق الأسباب بالأعمال بصور مختلفة، فمثلا: الطهارة سبب لصحة الصلاة، فهو سبب أصولي، وشهود شهر رمضان سبب لوجوب الصوم على من شهده: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ [البقرة ١٨٥]، فالسبب هنا متعلق بوجود الحكم في الواقع، وليس متعلقاً بتشريع الحكم لمعالجة الواقع، والأخذ بالسبب هنا وجود الشهر فيجب على من شهده الصوم، والسبب يأتي قبل وجود الحكم، فإذا وجد أصبح الحكم الواجب المشرع واجباً، وقبل أن يوجد السبب يكون الحكم المشرع واجباً على المكلف، ولكن وجود هذا الوجوب يتوقف على وجود السبب[٦٨].

وحين يقوم المرء بالزراعة يدرس المسلم أسباب العادة، والتجارب الحياتية كتلك المتعلقة بالحرث والزرع، مما سينتج عنه نجاح الإنبات، وتحسين المحصول وما شابه.

وحيث إن تعريف السبب: أنه الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فإن الموقع الصحيح لدراسة الأسباب هي توسطها بين العلل الباعثة، وبين الغايات، أو بين الأحكام وبين الغايات المقصودة منها، أو نتائجها، أو دراسة طريقة إيجادها في الواقع على صورة معينة، فمثلا حين يكون القصد أو الغاية بناء بيت، فإن خيارات كثيرة ستكون؛ مثل عدد الغرف، واختيار لون الطلاء، وتقسيم الغرف ونوع البلاط، إلى غير ذلك، فلا بد من البدء بتحديد الخيارات المطلوبة، وكل خيار منها يتطلب تسخير طاقات سببية معينة لإيجاد ذلك الخيار في الواقع، الأمر الذي يحتاج لإرادة، ولقدرة على إحداث الفعل، أي لتنفيذ المخطط الهندسي بطريقة معينة توجد الغايات في الواقع، ولأجل ذلك لا بد من تسخير معارف فنية خاصة، وامتلاك المواد اللازمة للبناء، وخلطها بكميات ونسب معينة، وتوجيه القدرة والإرادة لتنفيذ المخطط بصورة منظمة غير عشوائية. فيلزم من وجود كل هذا وجود الغايات وتحقيقها، وينتفي نجاح بناء البيت بالصورة الموافقة للمخطط الهندسي إذا انعدم تسخير الأسباب بالصورة المنتجة، أو إذا انعدمت الإرادة أو القدرة أو الخبرات الفنية المخصوصة، إلى غير ذلك. وهذا قولنا: ما يلزم من وجوده الوجود، وما يلزم من عدمه العدم، يعني أن وجود السَّبَبِ يوجِدُ الـمُسَبَّب ضرورةً، (في حال صحة

---

[٦٨] بخلاف العلة، فإنها تصاحب تشريع الحكم، إذ هي الباعث على شرع الحكم. فمثلاً رؤية هلال رمضان سبب لوجود وجوب الصوم، فهي سابقة على الصوم، بخلاف شلالات المياه العامة التي تولد الكهرباء، فإنها علة لجعل الكهرباء ملكية عامة، فهي مصاحبة لتشريع الحكم.

اختيار الأسباب، من إرادة وقدرة وخبرات فنية، ووجود المواد اللازمة الخ)، وقد عبرنا عن ذلك بقولنا امتلاك الطاقة السببية الكافية والتعاون مع الشروط والتغلب على العوائق، وبالتالي فإن غياب السبب سيؤدي بالضرورة إلى غياب النتيجة المرجوة (نجاح العمل) أو قصوره. وهذا لا يعني أن تكون النتيجة هي الأفضل، أو أن تضمن أن يكون التصميم الهندسي هو الأذكى، لذلك ستجد بيتا أفضل من بيت، وستجد بعض الأخطاء التي لم تعق قيام النتيجة، ولكن كان بالإمكان القيام ببعض الأعمال بطرق مختلفة لإنتاج نتائج أفضل، لكن على كل حال كانت السببية كفيلة بإنتاج المسبَّبات.

لاحظ أيضا أن الغاية وهي بناء البيت بصورة معينة، وتصميم معين، قد دفعت المهندس وفريق البنائين المنفذين لوضع "مخطط قابل للتنفيذ" وقاموا بجملة من الأعمال وبتسخير طاقاتهم وأدواتهم لتشكيل البيت بتلك الصورة، ولتنفيذ ذلك التصميم، (هذا ما نسميه الأخذ بالأسباب، أو تسخير الأسباب لإنتاج المُسَبَّبات، لتنفيذ ذلك التصميم الذكي في الواقع)، وأنهم لا بد قد تغلبوا على عوائق كثيرة، مثلا الصخور في التربة، وأنهم أخذوا بالاعتبار حاجة البيت لإسناد ودعامات وأساسات قوية تتحمل الأوزان وتمنع الجدران من الانهيار، أي أنهم سخروا **إرادتهم**، و**قدراتهم** التقنية والفنية للقيام بأعمال ضرورية لإنتاج الغاية في الواقع بما يوافق المخطط الذي درس هذه الغايات وكيف يمكن أن يتم الوصول إليها، فالغايات شكلت لدى الفريق العامل من المهندس إلى البنائين **"باعثا"** لتسخير الأسباب **بشكل ذكي**، لإنتاج الأعمال، وهذا التسخير نسميه **"الغائية"**، لأنه محكوم بها (بالغاية)، ومنضبط بمحدداتها بالذات دون غيرها، فهي الباعث على وجوده بالصورة تلك، فالغائية إذن يمكن فهمها أنها: **دراسة ما يلزم كل عقبة من أعمال للتغلب عليها، وتسخير كل سبب قادر على إنتاج المسبب، ودراسة كيفية تنفيذ المخطط لإنتاج الغاية**، فالغائية هي: التدبير اللازم لتحقيق المخطط، أي إن الغائية عبارة عن المحرك الدؤوب الذي يلزم في كل خطوة من خطوات العمل للانطلاق من الأخذ بالأسباب اللازمة لتحقيق الغايات أي المقاصد، والتغلب على العوائق والموانع، والتفاعل مع الشروط اللازمة (فالسقف حتى لا يسقط يحتاج لإسناد في نقاط معينة مدروسة بإحكام، وربما يحتاج لشكل هندسي معين كالأقواس مثلا)، **فالغائية باعث على تسخير الأسباب اللازمة لإنتاج الغايات بالتفصيل**! أو **الغائية هي الباعث على إيجاد وتفعيل العمليات Processes التي يتم من خلالها تنفيذ التصميم الذكي في كل مرحلة من مراحله**! هذه العمليات **تُسَخِّرُ القدرةَ والإرادةَ والعلمَ والمعارفَ الخاصةَ** لتفعيلِ الأسبابِ اللازمةِ وتذليلِ العقباتِ اللازمِ تذليلُها، والتفاعلِ مع الشروط اللازمة لإنتاجِ الهدف! **هذه هي الغائية بكل دقة**!

**والذكاء هو اختيار خيارات محددة دون غيرها**، والمعارف المخصوصة، والخبرات اللازمة، ودراسة **كيف يمكن لهذه الخيارات أن تقوم في الواقع**، من حيث أشكالها وارتباطاتها، وكيفية التغلب على قوى الطبيعة، أو تسخير تلك القوى لخدمة المشروع بشكل ذكي، والسير في المشروع بخطوات محددة مدروسة تنتجه بالصورة المطلوبة، منذ كان المشروع فكرة إلى أن نتج بتفاصيله على أرض الواقع.

فالمخطط الهندسي على الورق هو "تصميم ذكي"، والمخطط الهندسي بعد التنفيذ هو "تصميم ذكي" نقلته الغائية من الورق إلى الواقع عبر تسخير الأسباب ومُدافَعَة العوائق، والتَّعاون مع الشروط، في كل خطوة من

الخطوات، ودائما في كل خطوة يلاحظ أن الغاية فيها تجر الأسباب من الأمام وأن الأسباب تدفع الحدث من الخلف، وأن الغائية تعمل على تحقيق التنفيذ، وأن الذكاء يربط بين التخطيط والتنفيذ واختيار الخيارات المعينة المطلوبة دون غيرها، وهكذا.

إذن: فالغايات والسببية كجناحي الطائر، لا يطير إلا بهما، فالأسباب تدفع الحدث من الخلف، وتحقق وجوده، والغايات تجره من الأمام بتشكيلها ل"باعث" في كل خطوة من الخطوات لدراسة الأعمال اللازمة والأسباب اللازمة للقيام بتلك الأعمال، هذا الباعث وما ينتجه من أعمال نسميه بالغائية، أو "العلة الغائية"، أو "العلة الباعثة"، فالغائية هي الواصل بين الغايات والأسباب لتحقيق التصميم الذكي على صورة صحيحة، أي البيت في مثالنا هذا، وبين السببية والغايات والغائية كلها عروة وثقى لا تنفصم!

وسنفصل تفصيلا كبيرا في الخطة السببية لإقامة الدولة إن شاء الله في فصل: **تَصْمِيْمُ الأَنْظِمَةِ السَّبَبِيَّةِ لعَمَلِ الأحْزَابِ، فَالأَسْبَابُ تَدْفَعُ الأعْمَالَ منَ الخَلْفِ والغَايَاتُ تَجُرُّالأَعْمَالَ مِنَ الأَمَامِ، والغائية هي محرك تصميم النظام السببي.**

## الشرط اللغوي، والشرط الشرعي، والشرط العقلي، والشرط العادي[69]:

"الشرط في اللغة: ما يُتقرر ليُلتزم به في البيع ونحوه، والاشتراط: إلزام الشيء والتزامه، شَرَطَ له أمراً: أي التزمه، وشرط عليه أمراً، واشترط عليه: أي ألزمه إياه، ومفهوم الشرط في اللغة معناه: ما يُعرف بالقلب ويُحْسَن تصوّره في الذهن من تعلق الشرط بالمشروط، واصطلاحا: "دلالة اللفظ المفيد لحكم معلق على شرط على انتفاء ذلك الحكم عند انتفاء ذلك الشرط، أو: دلالة تعليق الحكم بالشرط على انتفاء الحكم عند انتفاء الشرط"[70]...

والشرط في الاصطلاح: قال الرازي: والشرط هو الذي يلزم عند عدمه عدم المشروط، لكن لا يلزم عند وجوده وجود المشروط،[71] وقال الإمام النبهاني في الشخصية الإسلامية: الشرط: وهو الذي يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم.

والشرط إما أن يكون شرعياً، أو عقلياً، أو عادياً، أو لغوياً.

فالشرط الشرعي: قال الإمام النبهاني في الشخصية الإسلامية: "الشرط (في خطاب الوضع) هو ما كان وصفاً مُكمِلاً لمشروطه فيما اقتضاه ذلك المشروط أو فيما اقتضاه الحكم في ذلك المشروط".

---

[69] العمدة الأساس في هذا الفصل هو بحث الشرط لغةً وإصطلاحاً، والفرق بين الشرط والسبب، مشروع التخرج للأستاذ عبد الحميد الشرباتي في أصول الفقه، حيث إنه قضى سنوات في التنقيب والتدقيق حتى وضح التعريفات ودقق الفروقات، وأظهر المهمات، ثم اتكأنا ثانياً على مفهوم الشرط عند الأصوليين، وأثره في الفروع الفقهية، د. عبد السلام عبد الفتاح محمد عفيفي.

[70] مفهوم الشرط عند الأصوليين، وأثره في الفروع الفقهية، د. عبد السلام عبد الفتاح محمد عفيفي، ص ١٥، راجع: أنواع مفهوم المخالفة حقيقتها، وحجيتها، وآثارها الفقهية، للأستاذ الدكتور حمدي صبح طه، ص ١٥، بحث منشور بمجلة كلية الشريعة والقانون بطنطا، العدد ١٢ سنة ١٤٢٠ هـ.

[71] تفسير سورة آل عمران من تفسير الرازي.

فالشرط الشرعي: ما جعله الشارع شرطاً، أي إنه ما كان مستفاداً من الشرع، كجعل طهارة الأعضاء من الحدث والنجس شرطا لصحة الصلاة، وكالوضوء، وكحولان الحول شرطاً لوجوب الزكاة، وكالقدرة على تسليم المبيع شرطا لصحة عقد البيع.

والشرط العقلي: "قال النبهاني: وهو الذي يكون لازماً للمأمور به عقلاً، كترك أضداد المأمور به" إذن: فالشرط العقلي: ارتباط ذاتي بين المشروط والشرط، لا يمكن لهما فكاكاً، كما في اعتبار الحياة شرطا للعلم، فالميت لا علم له، وقيام العلم بالجماد محال، ومرد الشرط العقلي إلى العقل، أي إنه يستنبط بالتفكير.

وبما أن الشارع قد استعمل أنواع الشروط المختلفة، فيمكن القول إن الشرط الشرعي يشمل كافة أنواع الشروط الأخرى أيضا.

والشرط العادي: هو اقتضاء وجود الشرط عادة بوجود المشروط، أي لا ينفك عنه عادة، كغسل جزءٍ من الرأس في الوضوء، أي إن الأمور في العادة تجري وفق نمط معين قدره الله فيها، فلا يمكن وجود الفعل عادة إلا بتحقيق ذلك الشرط، مثل نصب السُّلّم للصعود إلى السطح، أو الغيمة بالنسبة لنزول المطر، والشرط العادي ينطبق عليه واقع الشرط الاصطلاحي من حيث أثره، إذ لا يلزم من وجوده الوجود ويلزم من عدمه العدم، وهو يقبل الإبدال والإخلاف، فقد يُرفع شخصٌ للسطح بدون سُلّم، بخلاف الشرط العقلي، فهو لا يقبل الإخلاف أو الإبدال، فالشرط العادي: ما كان مرد اشتراطه إلى العرف أو العادة، كما في اعتبار الغذاء شرطا لبقاء الحياة في الحيوانات،

والفرق بين الشرط الشرعي والشرط العقلي وشرط العادة: إمكان وجود الفعل بدون الشرط الشرعي، (كأن يقوم المصلي بالصلاة على غير طهارة، فقد وُجد الفعل مع الإخلال بالشرط، لكن صلاته غير صحيحة، أي باطلة) بينما لا يمكن وجود الفعل بدون الشرط العقلي، ولا يمكن وجود الفعل بدون شرط العادة[٧٢]

وهذه الأنواع الثلاثة (الشرط الشرعي، والشرط العقلي، وشرط العادة) (ولنطلق عليها جميعا مسمى: الشرط الاصطلاحي) لا خلاف بين العلماء في أنه يلزم من عدمها العدم، ولا يلزم من وجودها وجود ولا عدم لذاتها، فيلزم من عدم الطهارة عدم صحة الصلاة، ولا يلزم من وجود الطهارة وجود صحة الصلاة ولا عدمها، ويلزم من عدم القدرة على تسليم المبيع عدم صحة عقد البيع، ولا يلزم من وجود القدرة على تسليم المبيع وجود صحة عقد البيع ولا عدمها، **لاحتمال** اختلال ركن من أركان عقد البيع أو شرط آخر من شروطه، وكذلك القول في صحة الصلاة، ويلزم من عدم الحياة عدم حصول العلم أي انتفاؤه، ولا يلزم من وجود الحياة وجود حصول العلم، ولا عدم حصوله، إذ قد توجد الحياة مع الجهل، إذن: يجمع هذه الثلاثة وهي: الشرط الشرعي والشرط العقلي والشرط العادي تعريف واحد للشرط، وهو: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته، فيحترز بالقيد الأول، وهو قولهم: "ما يلزم من عدمه العدم" عن المانع، فإنه لا يلزم من عدمه شيء، وبالقيد الثاني، وهو قولهم: "ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم" عن السبب، فإنه يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، وبالقيد الثالث: وهو قولهم "لذاته" عن مقارنة الشرط وجود السبب، فإنه يلزم من وجوده الوجود لكن لا لذات الشرط،

---

[٧٢] (ابن النجار، تقي الدين أبو البقاء. شرح الكوكب المنير).

وإنما لذات وجود السبب، كما إذا قارن (اقترن) حولان الحول اكتمال النصاب، فيلزم من ذلك وجود وجوب الزكاة، لكن لا لذات الشرط -وهو حولان الحول- وإنما لوجود السبب، وهو بلوغ النصاب، ويحترز به أيضا عن مقارنة الشرط وجود لمانع، فإنه يلزم من وجوده العدم، لكن لا لذات الشرط، وإنما لوجود المانع، كما إذا اقترن حولان الحول بوجود الدَّين المستغرق للنصاب عند من يرى الدَّينَ مانعاً، فيلزم عدم وجوب الزكاة، لكن لا لذات الشرط، وإنما لوجود المانع، وهو الدَّين.

وأما الشرط اللغوي: فهو ما كان مَرَدُّ اشتراطه إلى اللغة، وأسلوب الشرط هو من الأساليب التي وضعها أهل اللغة في اللغة العربية، أي: ما استفيدت شرطيته من اللغة، ويسمى أيضا: بالشرط النحوي، **وهو ما دخل عليه أداة من أدوات الشرط المخصوصة الدالة على سببية الأول ومسببية الثاني**، فأسلوب الشرط مكوَّن من الجزء الاول، ويسمى الشرط أو "عبارة الشرط " أو فعل الشرط، وهو **بمنزلة** السبب، والجزء الثاني، "المشروط "، ويسمى، "جواب الشرط"، وهو **بمنزلة** المسبَّب. والجزء الثاني، "المشروط "، يتعلق تحققه بتحقق الاول، وينعدم بإنعدامه، نحو، "إنْ تنجحْ تنل جائزة"، فإن نيل الجائزة سببه الفوز، ويتحقق نيل الجائزة بوجود النجاح، وينعدم بإنعدامه. فالعلاقة بين الشرط والمشروط في هذا المثال علاقة سببية، لكن السؤال هنا: هل لهذه الجملة مفهوم مخالفة؟ بمعنى هل يمكن أن تنال جائزة إن لم تنجح؟

أو هو عبارة عن تعليق حكم على شيء بأداة من أدوات الشرط عند النحويين، كـ: إنْ، (وهي أُمّ أدوات الشرط) وإذا، ومن، ومتى، وحيثما وأينما، ونحو ذلك مما يدل على التعليق من الشروط اللغوية، أو على سببية الأول ومُسَبَّبِيَّة الثاني، كقوله تعالى: ﴿إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات ٦]، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ﴾ [الطلاق ٦]، فهذه من الشروط اللغوية، وفي حديث سليمان بن بريدة: «ثم ادعُهُم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبِرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين»، فإنه يدل على أنهم إن لم يتحولوا فليس لهم ما للمهاجرين وليس عليهم ما على المهاجرين، **فعلَّق الحكم بالشرط**. "[٧٣]

**وقد أنزل الأصوليون الشرط اللغوي منزلة الأسباب، "وذلك لأن الشروط اللغوية تشبه تعريف السبب، فيلزم من وجودها الوجود، ومن عدمها العدم لذاتها، فتكون أسباباً بهذا المعنى، أي تنزل منزلة الأسباب، ولهذا يقول النحاة في الشرط والجزاء بسَبَبِيَّة الشرط ومُسبَّبية الجزاء، بخلاف الشروط الشرعية والعقلية والعادية، فإن كل واحد منها يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته، فإن كل واحد منها ينتفي المسمى بانتفائه، ولا يوجد بوجوده."[٧٤] لكنها ليست الأسباب العقلية التي يترتب عليها ضرورة حصول المُسَبَّب فوروجود السَّبب**، وذلك لأن الشروط اللغوية، وإن كان يظهر منها في الغالب العلاقة السببية

---

[٧٣] مفهوم الشرط عند الأصوليين، وأثره في الفروع الفقهية، د. عبد السلام عبد الفتاح محمد عفيفي، ص ١٠-١٣، وعن الشرط لغةً وإصطلاحاً، والفرق بين الشرط والسبب، مشروع التخرج للأستاذ عبد الحميد الشرباتي في أصول الفقه، وعن: الشخصية الإسلامية الجزء الثالث: أصول الفقه، لتقي الدين النبهاني.

[٧٤] مفهوم الشرط عند الأصوليين، وأثره في الفروع الفقهية، د. عبد السلام عبد الفتاح محمد عفيفي، ص ١٣-١٤

بين الشرط والمشروط[٧٥]، وبالتالي يترتب على ذلك في هذه الحالات أن يكون لها مفهوم مخالفة، إلا إنه قد يخرج السبب فيها عن العلاقة السببية، (التعاليق)، أو عن العلاقة التلازمية، ولا يكون وقوعُ المشروط متوقفاً على الشرط، فتعريف النحاةِ للشرط، "وقوع الشيء لوقوع غيره" ليس في كل الشروط اللغوية، فليست كل الشروط اللغوية فيها العلاقة السببية بين الشرط وجواب الشرط، وبالتالي يكون لها مفهوم مخالفة. فقوله تعالى ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور ٣٣]، فهذا شرط لا مفهومَ مخالفة له لأن الإكراه لا يقع عادة مع الرغبة في البغاء، إنما يقع وهنَّ يُردِنَ العفة، فالمعنى لا يحل إكراههن على البغاء أردنَ تحصناً أو لم يردن،[٧٦] يقول المرزوي السمعاني: (قال الآمدي: إتفقَ القائلون بالمفهوم على أنَّ كلَ خطاب خَصصَ محلَ النطقِ بالذكر، لخروجه مَخرج الأعمِ الأغلب، لا مفهوم له، ومنه كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء ٣٥]، وقوله ﷺ «أيما امرأةٍ نكحتْ نفسَها بغير إذن وليها فنكاحها باطل» فإنَّ تخصيصه بالذكر لمحل النطق، في جميع هذه الصور، إنما كان لأنه الغالب، إذ الغالب أن الخلع لا يكون إلا مع الشقاق، وأنَّ المرأة لا تزوج نفسها إلا عند عدم إذن الولي لها وإنابة من يزوجها)[٧٧]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة ١٧٢]. فشكر الله واجب على جميع البشر، سواء كانوا له عابدين أم لا، جاء في البحر المحيط في تفسير هذه الاية "ولا يرادُ بالشرط هنا إلا التثبت والهز للنفوس، وكأن المعنى: العبادة له واجبة، فالشكر له واجب، وذلك كما تقول: لمن هو متحقق العبودية، إن كنت عبدي فأطعني، لا تريد بذلك التعليقَ المحض، بل تبرزه في صورة التعليق، ليكون أدْعى للطاعة وأهز لها"[٧٨]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى ٩]، جملة معترضة وليس متعلقة بالجملة التي قبلها ولا تقييداً لمضمونها إذ ليس المعنى: فذكر إذا كان للذكرى نفع، حتى يفهم منه بطريق مفهوم المخالفة، أنْ لا تذكر إذا لم تنفع الذكرى، "إذ لا وجهَ لتقييدِ التذكير بما إذا كانت الذكرى نافعة، إذ لا سبيل إلى تَعرُّف مواقعَ نفعِ الذكرى"[٧٩] فالعلاقة إذن ليست سببية هنا.

ومن التفريق بين "الشرط الاصطلاحي" والشرط اللغوي أن الأخير يعمل في حال عدمه، وفي حال وجوده، إذا أريد به التعليق، ويكون له مفهوم مخالفة في حال كون الحكم معلَّقاً بالشرط اللغوي،(مثلا التعليق نتيجة العلاقة السببية أو التلازمية في الشرط اللغوي) فإن مفهوم المخالفة معمول به، كما في حديث التحول إلى دار المهاجرين أعلاه، وحينها يعمل عمل السبب الاصطلاحي، أو "ينزل منزلته". فسبب نيلهم ما للمهاجرين من حقوق هو تحولهم إلى دار الإسلام، وانعدام المماثلة مُسَبَّبٌ بانعدام تحقيق المشروط، فهذا التعليق جعل للشرط اللغوي مفهوم مخالفة، أما إذا لم يرد به التعليق، فليس بالضرورة أن يكون للشرط اللغوي مفهوم مخالفة (وذلك حين

---

[٧٥] يقول إبن يعيش: "أداة الشرط يليها فعلُ الشرط، ثم جواب الشرط، أو جزاءه. والركنان في جملة الشرط "الشرط والجواب"، يكونان فعلين متلازمين في الاصل، إنْ وقع أحدُهما وقع الاخر. إبن يعيش، موفق الدين علي. **شرح المفصل**. ١٥٥/٨.

[٧٦] القرافي، أحمد بن إدريس. **الفروق مع هوامشه**. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الاولى ١٩٩٨. ١/ ١٠٥

[٧٧] المرزوي السمعاني، ابو المظفر، منصور بن محمد. **قواطع الادلة**: بيروت. دار الكتب العلمية. الطبعة الاولى ١٩٩٩. ١/ ٢٣٣.

[٧٨] ابو حيان الاندلسي، محمد بن يوسف. **تفسير البحر المحيط**. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الاولى ٢٠٠١. ١٣٧/٢.

[٧٩] المرداوي، علاء الدين. **التحبير شرح التحرير في أصول الفقه**. ٢٨٤/٣٠.

خروجه عن التعاليق مثل: خروجه عن العلاقة السببية[80] أو التلازمية أو التبادلية)، ودليل ذلك: إنه لا خلاف في ثبوت المشروط عند ثبوت الشرط اللغوي، ولا خلاف في دلالة «إنْ» عليه، أي على الثبوت، ولا خلاف في عدم المشروط (أي انتفاء وجود المشروط: وهو مماثلة الحقوق كما في مثال التحول إلى دار الإسلام أعلاه) عند عدم الشرط اللغوي (أي عند عدم التحول)، وهذا وحده كاف في الدلالة على العمل بمفهوم الشرط، فإن ثبوت المشروط يلزم عند ثبوت الشرط، ودلالة «إنْ» عليه كافية في الدلالة على أن الحكم معلق بوجود الشرط؛ لأن معناه أنه إذا لم يثبت الشرط لا يثبت المشروط، فكيف إذا أضيف إليه أيضاً بأن عدم المشروط كذلك محقق عند عدم الشرط، فإن ذلك يؤكد هذا المعنى صراحة.

وأما دلالة «إنْ» على العدم فإن الصحيح أنها تدل عليه، والدليل على ذلك أن النحاة قد نصوا على أنها للشرط، ويلزم من انتفاء الشرط انتفاء المشروط.[81]

وقد يخرج الارتباط بين الشرط ومشروطه عن العلاقة السببية الى الارتباط التلازمي. أي يكون الإرتباط بين الشرط ومشروطه على التلازم، نحو قوله تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ**﴾، فإن أجل الله آتٍ، سواء كان الانسان يرجو لقاء الله، أولم يكنْ، أي إن الأمرين متلازمان، وانتفى أن يرتبط مجيء أجل الله تعالى على من امتلك الرجاء وحده، فينعدم إذا ما انتفى الرجاء.

وقد يخرج الشرط اللغوي عن العلاقة السببية والتلازمية، إلى المجاز، وقد تخرج صيغة الشرط الخبرية إلى الإنشائية الطلبية،

وقد يخرج الشرط اللغوي عن الشرطية نفسها لخروجه مخرج العام الأغلب، فالشرط اللغوي قد يعمل في تخصيص النصوص، وذلك لأن الشرط اللغوي قد يعمل في حال عدمه، (فقد لا ينجح ابنك ولكنك، مع انعدام تحقيق الشرط تعطيه جائزة لرفع همته ومعنوياته، فيتحقق المشروط مع عدم الشرط) لذلك استطاع تخصيص النصوص، لأن له في هذه الحالة منطوق ومفهوم مخالفة، وقد يُستعمل الشرط في التَّعليل والعِلَّة في بعض

---

[80] **العلاقة السببية (Causal Relationship):** هي العلاقة التي فيها يكون هناك سبب يؤدي إلى نتيجة محددة. مثلا: سقوط جسم ثقيل على زجاج سيؤدي إلى كسره. هنا، سقوط الجسم هو السبب، وكسر الزجاج هو النتيجة.

**العلاقة التلازمية Correlational Relationship:** مثل التلازم بين صوت صفير سيارة الإسعاف وبين تصور وجود مريض أو حريق أو حالة طارئة، وهو تلازم ذهني بين الملزوم واللازم، وليس بالضرورة أن كل تلازم قطعي.

العلاقة التبادلية Reciprocal Relationship: وهي العلاقة التي يكون فيها التأثير متبادلاً بين عنصرين، حيث يمكن أن يؤثر كل منهما على الآخر. كالعلاقة بين النشاط البدني والصحة النفسية، فالنشاط البدني يمكن أن يحسن الصحة النفسية، والصحة النفسية الجيدة يمكن أن تشجع على المزيد من النشاط البدني، ومثل قوله تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة ٢٢٨]، وهناك أنواع أخرى من العلاقات.

[81] فالعرب استعملوا «إنْ» للشرط، فسميت حرف شرط، فهي مستعملة فيما استعملها العرب وليست منقولة، وإنا نستدل باستعمالها الآن للشرط على أنها في اللغة كذلك. إذ لو لم تكن كذلك لكانت منقولة عن مدلولها، والأصل عدم النقل؛ وعليه فإن ثبوت المشروط عند ثبوت الشرط ودلالة «إن» عليه، وعدم المشروط عند عدم الشرط ودلالة «إن» عليه، يثبت أن مفهوم الشرط معمول به، فإذا كان شرطاً في الثبوت كان العدم معمولاً به، وإن كان شرطاً في العدم كان الثبوت معمولاً به، فيكون مفهوم المخالفة في الحكم المعلق به معمولاً به، فيكون مفهوم المخالفة في الحكم المعلق به معمولا به، إذ أن ما دخلت عليه "إنْ" شرط في الحكم، وإذا كان شرطا لزم من عدمه عدم المشروط، كما يلزم من وجوده وجود المشروط. (الشخصية الإسلامية الجزء الثالث)

النصوص والشعر العربي، كقولك لابنك: إن كنت ابني فأطعني، أي إن علة طاعتك لي كونك ابني، فهي ليست شرطية سببية، ولا تلازمية ولا تبادلية، بل المقصود هنا: التعليل.

في هذه الحالات التي خرج فيها عن العلاقة السببية (التعاليق) المفضية للضرورة (أي ضرورة تحقق المُسَبَّب)، إلى الارتباط الالتزامي، أو الخروج من العلاقة السببية ومن العلاقة التلازمية أحياناً إلى المجاز، أو إلى الإنشاء الطلبي، فتفقد هذه العلاقة في كل هذه الحالات بعض مقومات السببية العقلية، وتبقى في إطار السببية الاصطلاحية.

من هنا، فالعلاقة السببية في الشرط اللغوي ليست السببية العقلية، التي تتميز بالحتمية، ولا ينفك فيها وجوب ولزوم حدوث المسبب فور وجود الطاقة السببية الكافية والتعاون مع الشروط وانتفاء الموانع.

وفيما سبق كله لم يعمل الشرط اللغوي عمل السبب الاصطلاحي في كل جوانبه.

وسنطبق هذه المفاهيم الدقيقة على آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧ محمد] في فصل: **دراسة الشرط في قوله تعالى ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ إن شاء الله تعالى، فراجعه للأهمية القصوى.**

## المصادفة ومبدأ السببية[٨٢]

لا بد، قطعا وحتما <u>لأي حدث يحدث من سبب يتسبب في حصوله</u>، **<u>فلا حدث يحدث دون فاعل مؤثر</u>. فالادعاء بأن حدثا ما قد يحدث بدون سبب محدد -سواء أكان السبب معروفا أم غير معروف-، يتناقض مع قانون كوني بدهي هو: لكل فعل فاعل، أو بتعبير آخر: <u>بطلانُ الرَّجْحَانِ من غير مُرَجِّحٍ</u>**[٨٣].

والدليل على ذلك هو قانون القصور الذاتي (العطالة)[٨٤]؛ <u>فالأصل</u> في أشياء الكون جميعًا أنها مستقرة[٨٥] ومتزنة لا تتغير ذاتيا، أي أنها عاجزة وقاصرة عن تغيير حالة الاستقرار التي هي فيها لوجود صفة الاحتياج (أي

---

[٨٢] الأستاذ يوسف السارسي

[٨٣] من القواعد البدهية التي يتفق عليها العقلاء بطلان الرجحان من غير مرجح، أي بطلان أن يكون الشيء جاريا على نسق معين، ثم يتغير نسقه ويتحول عنه بدون وجود أي مغير أو محول إطلاقا، وجميع العقلاء يعلمون أن الأصل بقاء ما كان على ما كان عليه، (القصور الذاتي) ولا بد لتحويله عن حاله السابقة من محول ومؤثر يفرض عليه هذا الوضع الجديد وينسخ حاله القديمة. وهذا القانون يعني منع حدوث فعل من غير فاعل، **إننا نلاحظ أنه لا بد لكل تغير يحدث من سبب، أثَّر فيه تأثيراً يكفي لأن يحوله ويغيره من وضع إلى آخر، ولا يسلم عاقل أن هذا التغير يحدث بنفسه من غير سبب يؤثر فيه تطبيقاً لمبدأ السببية البدهي في عقولنا، لذلك كان من المُسلَّم به أن كل هذه التغيرات الكونية لا بد لها قطعاً من مؤثر حقيقي.**

[٨٤] **العطالة** "Inertia" أو عزم **القصور الذاتي** مصطلح فيزيائي يعني مقاومة الجسم الساكن للحركة ومقاومة الجسم المتحرك للتغيير في حركته، ففي الحالة الأصلية يبقى الجسم ساكنا إلا أن تحركه قوة خارجية، وتكسبه طاقة حركية، فيسير إذن بسرعة ثابتة أكسبته إياها تلك القوة الخارجية، وبنفس الاتجاه الذي دفعته إليه تلك القوة الخارجية التي أخرجته من حالة العطالة الأصلية، ويبقى على نفس السرعة والاتجاه ما لم تؤثر عليه قوة أخرى تغير سرعته أو اتجاهه، فهي عطالة أو قصور ذاتي، ولقد عبر نيوتن عن هذا المصطلح في قانونه الأول المعروف بقانون القصور الذاتي أو العطالة (Law of Inertia): الجسم **الساكن** يبقى ساكنا ما لم تؤثر عليه قوة خارجية فتحركه، والجسم المتحرك بسرعة ثابتة في خط مستقيم يبقى على هذه الحالة ما لم تؤثر عليه قوة خارجية فتغير حالته **الحركية أو اتجاهه**.

[٨٥] الاستقرار: هو حالة من السكون والركود أو حالة من الثبات بحيث تكون الأشياء في وجودها وصفاتها وخواصها وجميع ما يتعلق بها ثابتة غير متغيرة، وإن كانت في الأصل متحركة فلا يحصل تغيير في الحركة ضمن المحيط أي الظروف التي تكتنفها، ويلزم بالضرورة – أي بالبداهة - أن تبقى حالة الأشياء في الزمن الحاضر كما كانت عليه في الزمن الماضي أو الزمن المستقبلي دونما تغيير. فالأصل استمرار الحالة التي تلازم الأشياء ما لم يطرأ عليها أمر مرجّح

"**عدم استطاعة الأشياء التصرف والانتقال من حال إلى حال إلا بغيرها**"[86]) أو القصور الذاتي فيها، **فهي تقاوم تغيير تلك الحالة من الاستقرار ولا تتغير إلا بتأثير أسباب معينة**. لإخراجها من حالة القصور إلى التغيير، ومن نزوعها الطبيعي نحو العشوائية والفوضى إلى التنظيم، **والسبب هو الشيء الذي يكتسب طاقة التغيير في زمن معين**، ويستطيع بامتلاكه هذه القوة السببية **أن يؤثر في غيره من الأشياء القابلة للتأثُّرِ** ونقلها من حالة معينة إلى حالة جديدة مغايرة للحالة السابقة. ومن الملاحظ أيضا، أن بيضة القبان في فهم السببية هي **الطاقة السببية** القادرة على إحداث التغيير أو الحفاظ على التنظيم أو منع انفراط عقد النظام، أو التغلب على الموانع والعوائق.

وسنلاحظ أيضا، أن الأنظمة الغائية هي التي تصمَّم تصميماً فعالاً ذكيا لإنتاج الغايات، لتفعيل الطاقة السببية لإنتاج المسببات، وأن هذه الأنظمة الغائية قد تقصر، إن لم تصمم تصميما صحيحا يأخذ بالاعتبار طبيعة الأنظمة التي يتعامل معها، فلا تصلح حينذاك لتكون أنظمة سببية تامة، بل ستقصر عن إنتاج المسببات، أو قد تؤدي وظيفتها بشكل صحيح، فتكون أنظمة سببية فعالة، إذن فالأنظمة الغائية بيضة قبان في نجاح الأنظمة السببية.

**ويمكن ملاحظة ثلاثة أشكال من حاملات الطاقة السببية: أولها: أي نوع من أنواع القوى، (النووية القوية، والكهرومغناطيسية، والجاذبية، والنووية الضعيفة)، وثانيها: أي نوع من أنواع الطاقة[87]، وثالثها: أي نوع من أنواع الحقول Fields أو المجالات. فالتأثير السببي يتم بواسطة أي منها.**

كما أن أي مجال أو حقل[88] يمتلك أيضا الطاقة التأثيرية السببية في الجسيمات التي تقع تحت تأثيره وتتأثر بهذا النوع من المجالات أو الحقول، كالحقل الكهرومغناطيسي، أو حقل هيجز أو مجال الجاذبية الأرضي وغيرها.

---

يؤدي إلى تغيير تلك الحالة المستقرة التي تكون فيها الأشياء، بشرط امتلاك ذلك المرجح أو المؤثر طاقة سببية كافية قادرة على إحداث التغيير، فالماء السائل يبقى في حالة السيولة ما لم يؤثر عليه شيء خارج عنه كالحرارة فتؤدي إلى تغيير حالته إلى الغازية أو التجمد، فالرجحان إذن يحتاج إلى مرجح وإلا فالاستقرار هو الحالة الأصلية للأشياء. فالأشياء إذن عاجزة وقاصرة عن تغيير حالة الاستقرار التي هي فيها والملازمة لوجود صفة الاحتياج أو القصور الذاتي فيها. وتقاوم هذه الأجسام تغيير تلك الحالة من الاستقرار إلا بتأثير غيرها. والغير هنا هو ذلك المؤثر الخارجي (السبب) صاحب القوة المرجحة الذي يتصف بالقدرة الحاسمة والاستطاعة القاهرة على تغيير حالة الاستقرار التي في ذلك الشيء على نحو حتمي ولازم.

[86] نقض الاشتراكية الماركسية - غانم عبده صفحة (٤)

[87] يمكن حصر أنواع الطاقة – حسب العلوم الطبيعية – بأربعة عشر نوعا منها: الطاقة الكيميائية، والطاقة الكهرومغناطيسية، والطاقة الميكانيكية (الموجية، والصوتية، والمرنة، والجاذبية، والسكون)، والطاقة الحرارية، والطاقة الإشعاعية، والطاقة النووية (والكرومودياناميكية)، وطاقة التأين. فأي شيء يكتسب أي نوع من أنواع الطاقة هذه أو يحوي أية قوة من أنواع القوى الموجودة في الكون يصير سببا، ويصبح قادرا على تغيير حالة الأشياء التي يؤثر فيها والتي فيها القابلية للتأثر بفعله إلى حالة جديدة مغايرة للوضع الأصلي التي كانت عليه.

[88] يقول روجر بنروز في كتابه: عقل الإمبراطور الجديد، روجر بنروز، ترجمة محمد الأتاسي، وبسام المعصراني ١٩٩٨ ص ٢٣٢: "وهكذا نجد أن العنصر الأساسي الجديد في تصور الحقيقة الفيزيائية، الذي قدمته لنا نظرية ماكسويل علاوة على ما كان عليه سابقا هذا التصور، هو أن **الحقول يجب أن تؤخذ الآن مأخذ الجد بحكم حقيقتها الخاصة بها**، ولا يجوز اعتبارها مجرد ملحقات رياضية بالجسيمات التي كانت هي وحدها "الحقيقة" في نظرية نيوتن، إذ بيَّن ماكسويل بالفعل أنه حين تنتشر الحقول على صورة أمواج كهرومغناطيسية فإنها تحمل معها كميات معينة من الطاقة، بل لقد استطاع أن يعطينا عبارة رياضية واضحة لهذه الطاقة، كما أثبت هيرتز بالتجربة فعلا عندما استطاع كشف الأمواج الكهرومغناطيسية. صحة هذه الحقيقة الرائعة، وهي أن الطاقة يمكن نقلها من مكان إلى آخر بهذه الأمواج "اللامادية"، ولقد أصبح من الأشياء المألوفة لنا أن أمواج الراديو تحمل معها طاقة، على الرغم من أن هذه الحقيقة لا تزال مذهلة بالفعل!"

**فكونُ أمرٍ ما يحصل مصادفة لا يعني أنه يحصل بدون فاعل!** إذ إنه من غير الممكن للفطرة السوية القبول بوجود شيء من العدم أو من غير مسبِّبٍ. مهما تقعرت ألفاظ المتفلسفين.

**يقول الفيلسوف الملحد ديفيد هيوم في رسالة إلى ستيوارت: "لا شيء أكثر عبثية من القول بأن شيئا ما يحصل من دون سبب"**[89] **وبالمثل قال ب.ج. زوارت في مقالته "حول الوقت": "إذا كان هناك شيء لا يمكن تصوره فهو أن شيئا ما يمكن أن ينشأ من لا شيء".**

وقد يكون **السببُ عشوائيا** غير عاقل (أعمى)، أو من عاقلٍ لا قصد له، وقد يكون **السبب نتاج فعل عاقل قاصدا إيجاد الحدث لغاية** يريدها، فالريح تدفع الزجاجة الفارغة فتقع على الأرض وتنكسر، ونفس الحدث يحدث بفعل فاعل يدفع الزجاجة بقوة يده فيسقطها أرضا وتنكسر بإرادته وقصده ولغاية في نفسه، إذن نفس الحدث وهو انكسار الزجاجة **قد يحدث** عشوائيا أي **مصادفة** أو يحدث **قصدا**. ففي كل الأحوال **نتج الحدث عن فاعل ولم ينتج بغير فاعل**! وبالطبع فإن هذا لا يعني أن ما نشأ مصادفة قد نشأ من لا شيء، أو بدون مُسَبِّبٍ، ولكن معناه أن **المُسَبِّبَ لم يقصد إنتاجه**، ولكن السَّبَبَ تفاعل مع الشروط اللازمة لإنتاج الحدث، وامتلك الطاقة السببية الكافية لإنتاج المُسَبَّبِ، لكنه **افتقر فقط إلى القصد.**

**فالأفعال والأحداث والتغيرات التي تجري في الكون كلها سَبَبِيَّةٌ، وتُحصرُ في إطار العشوائية (المصادفة) والغائية فقط، بناء على وجود قصد وتدبير وتسخير للأسباب أو عدم وجودها، سواء أكان القصد والتدبير والتسخير محكماً وصحيحاً ومدروساً ومنتجاً، أم لم يكن كذلك**، لكنه يبقى قصداً، ويحتاج لتدبير لبلوغ الغاية، كما ويحتاج لتسخيرٍ للأسباب اللازمة لإنتاج الحدث، وبالتالي فالعمل سيكون غائيا، والعمل الغائي الذي يتوفر فيه القصد، ويخلو من التدبير وتسخير الأسباب لن يفضي للنتيجة أيضا، وفي المقابل، نجد أن **العمل الخالي من القصدِ عشوائيٌّ، حتى لو أوصل لنتيجة معينة بالمصادفة**، لأنه إنما أوصل إلى تلك النتيجة من غير تخطيط ولا قصد.

إن ملاحظة عملية التغيير التي تحدث في عالم الواقع تشير إلى أن هذا التغيير لا يمكن أن يحدث قطعا إلا بوجود طاقة سببية فاعلة تحرك **الخواص الكامنة في الأشياء** فتجعلها مؤثرة ومنتجة للتغيير، ولولا هذه الطاقة لما حصل تغير مطلقا، والإحساس يدل أيضا أن التغير يحدث بفعل عوامل متعددة، وعند النظر في هذه العوامل يلاحظ وجود بعض منها يلزم حتماً لحصول النتيجة، ولكن هذه العوامل اللازمة ليست متشابهة ولا متساوية فبعضها خامل وبعضها فعال متحرك، ولحدوث التغيير لا بد حتما من وجود عامل واحد على الأقل يحمل طاقة سببية تدفع لحدوث التغيير، فيما باقي العوامل اللازمة الخاملة لا طاقة فيها، الأمر الذي يجعلنا نقوم بالتمييز بين

---

كذلك: يحمل الحقل المغناطيسي طاقة، وبناء على معادلة أينشتاين الشهيرة فالحقل مادة أيضا إذ إن له كتلة، فالحقول الكهرومغناطيسية الموجودة داخل أي جسم تشارك مشاركة جوهرية في كتلته، أنظر تفاصيل في عقل الإمبراطور الجديد، روجر بنروز، ترجمة محمد الأتاسي، وبسام المعصراني ١٩٩٨ ص ٢٦٧

[89] http://www.humesociety.org/hs/issues/v1n2/craig/craig-v1n2.pdf

هاتين المجموعتين من العوامل فنعطي العامل الحامل للطاقة (قوة، مجال، طاقة) اسم السبب فيما تكون العوامل اللازمة الأخرى هي شروط لازمة لحصول النتيجة.

وبالارتكاز إلى ما تم من بلورة لواقع السبب في هذا البحث، فإن المعيار الذي يمكن التمييز فيه بين العوامل اللازمة لإحداث النتيجة هو اختيار تلك العوامل أو العامل المتصف بالاستطاعة على التغيير ليكون هو السَّبب، أي ذلك العامل الذي اكتسب الطاقة ولنسمها "طاقة التأثير السببية". وكذلك لابد لحصول النتيجة من عوامل معاونة لازمة لإحداث التأثير والتغيير بشكل مخصوص وهذه العوامل المعاونة هي الشروط.

**فالسبب هو شرط لازم وضروري يحمل طاقة سببية فاعلة، يترتب على وجود الطاقة السببية في السبب حصول النتيجة ويترتب على عدم وجود السبب عدم حصول النتيجة.**

فمثلا: لإضرام النار شروط وهي وجود كمية كافية من الأوكسجين، وكمية كافية من الوقود أو من مادة قابلة للاشتعال، ومصدر للاشتعال قادر على إيصال الوقود أو المادة القابلة للاشتعال لدرجة حرارة كافية لإحداث الحريق، والتفاعل الكيميائي الطارد للحرارة exothermic reaction، فهذه الشروط الأربعة يجب توفرها حتى يحصل الحريق، فإذا ما ألقى إنسان بعقب سيجارة في وسطٍ تتحقق فيه هذه الشروط، فإن ذلك الفعل من الإنسان/ السيجارة هو السبب في إحداث الحريق، تعاونت معه الشروط اللازمة لحصول المُسَبَّبِ، وانتفت الموانع مثل وجود مطر شديد يطفئ النار فور اشتعالها. بينما لو ألقيت عقب السيجارة على جذع شجرة، فإنه لا يحوي طاقة سببية كافية لإشعال الحريق، ولا يستطيع التغلب على العوائق أو الموانع.

### فالسببية إذن:

- ✓ انتقالٌ وتغيرٌ من حالة القصورِ الذاتيّ، أو العَطَالَةِ
- ✓ لشيء اتصف بصفات:
  - ○ العجز عن القيام بالتغيير ذاتيا،
  - ○ بل ومقاومة ذلك التغيير ليبقى في وضعٍ يكون فيه في أقل طاقةٍ ممكنةٍ،
  - ○ لكنه في الوقت ذاته يمتلك قابليةَ التأثُّرِ، أي أنه يمتلك الاستعداد للانتقال والتغيير بما فيه من خواصَّ ذاتيَّة،
- ✓ فاحتاج لمؤثر آخر (نسميه السَّبَبَ (أو المُسَبِّبَ)):
  - ○ يملك طاقةً (قدرة) سببية كافيةً لإحداث التغير والانتقال،
  - ○ وقابليةً للتفاعل مع الخواص الذاتية الموجودة في الشيء،
  - ○ وملاءمةً لطبيعةِ الخواصِ الذاتيةِ للشيء بحيث تستطيع التأثير فيها، والتفاعل معها
  - ○ وبحيث تستجيب تلك الخواص لذلك التأثير (والتفاعل) فتتأثر (وتتفاعل)،
  - ○ ويملك السَّبَبُ (أو المُسَبِّبُ) نسباً معينةً،
    - ▪ كافيةً لإحداثِ النقلة والتغيير المطلوب،

- كافيةً للتفاعل مع الخواص الموجودة في المُسَبَّبِ،
- كافيةً للتعاون مع الشروط،
- كافيةً للتغلب على العوائق والموانع،

  - وقدرةً على إحداث التغيير حتماً، وبشكل لا يتخلف (الاطراد، وتكرر إحداث الحدث كل مرة بشكل لا يتخلف)، أي قدرة على إجبار الشيء الذي يقاوم التغيير على التغيير.
  - وزمناً كافيا لإحداث التغيير[٩٠].

✓ وبشرط

  - التعاون مع الشروط اللازمة لإحداث التغيير، أو فرض هذه الشروط أو تفعيلها،
  - غياب الموانع والعوائق التي تعوق العملية التفاعلية أو تعطلها
  - أو قدرة المُسَبِّبِ على التغلب على تلك العوائقِ والموانعِ.

تقوم العلاقة السببية على أركان ثلاثة هي: -

أ. السَّبَبُ ب. المُسَبَّبُ جـ صِلَةُ السَّبَبِيَّةِ بين السَّبَبِ والمُسَبَّبِ.

أما السَّبَبُ فقد عرّفناه بأنه عامل (قوة، طاقة، مجال) يحمل طاقة تغيير مؤثرة ينقل بها الأشياء التي فيها قابلية التأثر من حال إلى آخر، وأما المُسَبَّبُ بمعنى النتيجة أو الأثر (الأعراض) فهو التغيير الذي حدث على حالة الشيء أو وضعه كأثرٍ لفعل السَّبَبِ. بمعنى أن الشيء انتقل من حالة معينة في الزمن الأول قبل تأثير السبب إلى حالة جديدة في الزمن الثاني بعد انتهاء فعالية وتأثير السَّبَبِ. وأما العلاقة السَّبَبِيَّةُ فهي الصلة بين السَّبَبِ والنتيجة أو هي ربط بين ظاهرتين محسوستين هما السَّبَبُ والمُسَبَّبُ. **وتقوم هذه الصلةُ أو العلاقةُ السَّبَبِيَّةُ فيما بين السَّبَبِ والنَّتيجةِ ولا تقوم بين الشرط والنتيجة.**

والعلاقة السببية تثبت بين واقعتين متتابعتين إذا تبين بالتحليل والربط الفكري أن حصول الواقعة السابقة زمنا (بدء فعالية السبب) قد حدث جراء تفاعل خصائص معينة في السبب (مثل القوى، والطاقات والمجالات) لها القدرة على التأثير في خصائص معينة في المُسَبَّبِ لها قابلية التأثُّر، فتم التفاعل أو التحرك وفق قانون أو مجموعة من القوانين الطبيعية، وهذا التفاعل أفضى وأدى حتما ولزوما إلى حصول الواقعة التالية، وظل دور تأثير هذه القوى والطاقات والمجالات وتفاعلها مع الخصائص وفق هذه القوانين مستمراً خلال جميع حلقات التسلسل السببي (التفاعل بين القوى والطاقات والمجالات والخصائص) حتى النهاية أي حتى حصول النتيجة، وبما أن خضوع الأشياء للقوانين الطبيعية التي تصف تصرف القوى والمجالات والطاقات وسير المادة بما فيها من خصائص لازم وحتمي، فيكون نقل الشيء من حالته في الزمن الأول إلى حالته في الزمن الثاني حتميا ولازما أيضا.

---

[٩٠] امتلاك زمن كاف لإحداث التغيير منذ بدء الفعالية السببية وحتى حصول التغيير، وكلما زاد عامل الزمن زاد التأثير وكلما قلَّ؛ قلَّ التأثير، فأنت إذا وضعت شعلة نار عند خشبة وتوفرت لك كل العوامل والشروط مثل الأوكسجين والتلامس سيحدث الاشتعال، ولكن إذا كان الوقت المعطى للاشتعال هو مثلا نصف ثانية فهو غير كافٍ لاشتعال الخشبة، ولكنه قد يكون كافيا لاشتعال البنزين لاختلاف الخصائص، وحتى الشغل يُعرَّف بمقدار القوة المبذولة في زمن معين، فالشغل هو الذي يحدد مقدار التأثير ككمية، والانفعال في المسبب يكون بمقدار متناسب مع الفعالية السببية. لأن الطاقة السببية تنتقل من السبب إلى المسبب بمقادير معينة حسب زمن التأثير.

وحيث إن من **البدهيات** التي لا يمكن إنكارها بداهة **استحالة تكرار المصادفة،** فإن العلاقة السببية بين طرفيها أي بين السبب والمُسَبَّبِ يمكن **تعميمها** إذا تكررت كل مرة بشرط القدرة على تحديد دور كل فاعل في هذا التفاعل وأثره في العملية، فمثلا حين يغلي الماء النقي جراء رفع درجة حرارته إلى مائة مئوية عند ضغط جوي معين، وفق ما يسمى بالظروف المعيارية، فإن هذا الغليان سيحدث كل مرة، وتكون علاقة الحرارة بتغيير حالة الماء من السيولة إلى الغازية (البخار) علاقة سببية، ويؤدي الضغط الجوي فيها دورا سببيا أيضا، ولو انتقلت إلى أعلى الجبال واختلف الضغط الجوي اختلفت درجة الحرارة المطلوبة لإحداث الغليان نفسه، ولكن هذا يبقي على العلاقة السببية نفسها، وإنما الذي اختلف هو النسب وفقا للظروف المعيارية أو غيرها، ويصح تعميم النتيجة واعتبارها قطعية، **بدليل استحالة تكرار المصادفة،** فيستحيل أن يتدخل عامل آخر غير الحرارة والضغط ونقاء الماء **كل مرة مصادفة** فيحدث التغيير في حالة الماء عند درجة حرارة معينة، وتتكرر هذه المصادفة مرة بعد مرة **فنظن** أن الحرارة والظروف المعيارية هي السبب في حين أن ذلك الأمر "الآخر" الذي يتكرر كل مرة مصادفة ولا نراه ضمن العملية السببية هو السبب على الحقيقة! يستحيل هذا، لذلك يمكننا التعميم! وبالتالي: القطع، والحتمية!

إن تفاعل الطاقة السببية التي في السبب مع الشروط اللازمة المحيطة بحالة الأشياء تؤدي إلى إنهاء تحكم تلك القوانين الطبيعية التي كانت تتحكم في الأشياء في حالة الاستقرار، وتنقل وتحرك قوانين جديدة غير قوانين حالة الاستقرار فتقوم هذه القوانين بإخضاع الأشياء إلى تصرف وانفعال جديد مغاير للتصرف الأصلي، وتحدث بالتالي التغيير على وضع وحالة هذه الأشياء.

فالتغيير يكون بتحويل واستبدال القوانين التي تتحكم في حالة الاستقرار والسكون بشكل حتمي ولازم إلى القوانين التي تتحكم في حالة الحركة والنشاط بفعل الطاقة السببية المحركة. وهذا التبدل للقوانين يؤدي إلى إجبار الأشياء على التصرف والتحرك على نسق جديد مغاير للوضع الأول في الزمن الأول. وإذا انتهى تأثير السبب تكون الأشياء قد اكتسبت طاقة هذا السبب بأقصى درجة فتتحرك بتأثير الطاقة التي اكتسبتها بشكل معين إلى أن ينتهي تأثير هذه الطاقة التي فيها بتحويلها أو إكسابها لشيء آخر فتعود هذه الأشياء إلى حالة الاستقرار والثبات من جديد بالخضوع لقوانين أخرى تتحكم في حالة الاستقرار الجديدة.

**فالضابط للعلاقة السببية إذن أنه "يترتب على وجود السبب وجود النتيجة حتما، ويترتب على عدم وجود السبب عدم حصول النتيجة حتما".**

والمعيار الصحيح للتفريق بين العوامل التي تحدث النتيجة أي التفريق ما بين السبب وباقي الشروط يكون بناء على اكتساب واحد من هذه العوامل أو أكثر للطاقة المؤثرة فيتم اعتباره سببا لتلك النتيجة، وعدم تخلفه عن القدرة على إنتاج المُسَبَّبِ.

**السبب له ثلاث صفات**

أ- **امتلاك الطاقة السببية الكافية (بنسب معينة، في زمن معين) لإحداث التغيير، أي استطاعة إحداث التغيير، والقدرة على التأثير في المُسَبَّبِ،**

ب- **<u>والتعاون مع الشروط اللازمة لإحداث التغيير</u>**، أو فرض هذه الشروط، **والقدرة على التغلب على الموانع**،

**<u>وحتمية أو ضرورة الإنتاج للمُسبِّب</u>**. فإذا لم ينتج عن وجوده وجود المعلول لا يكون علة له، وضربنا مثلا على تغيير المجتمع بتغيير أخلاقه مثالا على ما ظُنَّ بأنه علة للتغيير وما هو كذلك!

وتثبت العلاقة السببية بين واقعتين متتابعتين إذا تبين بالتحليل العقلي أن حصول الواقعة السابقة زمنا (بدء فعالية السبب) قد حرك قانونا أو مجموعة من القوانين الطبيعية (أو نواميس المجتمعات) أفضت وأدت حتما ولزوما إلى حصول الواقعة التالية، كمثال غليان الماء بالحرارة؛ فالعلاقة سببية، **فالقوانين الطبيعية، ونواميس المجتمعات** هي الرابط بين طرفي العلاقة السببية.

## العلة الغائية دليل على وجود الله: العلة الغائية عند الأشاعرة:

وهذا الموضوع كان مدار نقاش طويل بين الفلاسفة والمتكلمين، وسنستعرضه سريعاً أولا، ثم نبين الرأي فيه إن شاء الله تعالى، وطرحه مهم لدراسة تدبير الله تعالى في الخلق وفق نظام السببية، هل ينتج عنه نقص؟ أو جبر له -تعالى- على شيء (من باب أن صورة العلة الغائية حملها للفاعل على القيام بتسخير سببٍ ضروري لتحقيق الغايات، لا تتحقق بدونه)؟ وهل الأسباب تنتج المسببات بالضرورة تلقائيا، بمعنى آخر هل نتحكم بنتيجة أفعالنا السببية؟ وهل خلق الله الكون ووضعه على سكة، وفقا لنظام الأسباب والمسببات، وتركه يسير وحده؟ هل نفصل العملي عن العقدي؟ أم لا بد أن يتداخلا؟ كيف نفهم القدر فهماً إيجابياً، بدلا من فهم القدرية الغيبية السلبي؟

لقد نفى الأشاعرةُ[٩١] تعليلَ أفعال الله تعالى، والمعنى المقصود -بحسبهم- هو العلة الغائية، وهي الغرض والباعث والمؤثر، وهذا لأن لله تعالى الكمال المطلق وأنه المؤثر لا المؤثر عليه، وأنه قادر على <u>خلقِ</u> النتائج دون <u>توسيط</u> الأسباب، وأنه ليس له حاجة في شيء لأنه غني عن المخلوقات جميعا.

وينطلق الفلاسفة والمتكلمون جميعاً؛ من معتزلة وأشاعرة وماتريدية، من مقررات تعريف العلة وأركانها كما وردت من الفلسفة الإغريقية، وبالأخص فلسفة أرسطو. وطبقوا هذا الأمر على أفعال الإله، -على عادتهم في قياس من لا يقع الحس عليه تعالى، على الشاهد- وبالتالي نفوا وجود العلة الغائية في أفعال الله سبحانه وتعالى. أما الدليل الذي استند اليه المتكلمون عموماً -والأشاعرة منهم- على نفي العلة الغائية فهو دليل أو حجة **الاستكمال**؛ فالإمام الفخر الرازي يقول: "إنّ كلّ مَنْ فَعَل فعلاً لغرضٍ فهو مُسْتَكْمَلٌ بذلك الغرض، والمستكمل بغيره ناقص بذاته وذلك على الله محال، وإما أن يكون الداعي هو الحكمة والمصلحة فالله قادر على تحقيقها دون توقف على وسائط".

فالمخلوق قد يدفعه البرد إلى إيقاد النار ليصطلي بها أو يدفعه الجوع إلى تناول الطعام ليصل إلى الشبع، أما الإله فإنه مستغن بنفسه ولا يسعى ليسد نقصاً أو يزداد كمالاً، ونفي العلة- بهذا المعنى – عن أفعال الإله لا يعني أبداً أن أفعاله عبثية غير مقصودة كأنما أتت بها المصادفات، وإنما تحدد الإرادة أفعال الله تعالى، وسننُه الكونيةُ

---

[٩١] الأستاذ يوسف الساريسي، العلة الغائية عند الأشاعرة

وشرائعهُ على نحو متسق وحكيم، دون غرض أو باعث أو علة تتسلط على الإله، فإرادته تامة لا يشوبها أي معنى من معاني الجبر أو الحمل على ما لا يريد. يقول الإمام الشهرستاني: (إن الله تعالى خلق العالم... لا لعلة حاملة له على الفعل، سواء قُدّرتْ تلك العلةُ نافعةً له أو غيرَ نافعةٍ، إذ ليس يقبل النفع والضرر، أو قُدّرت تلك العلة نافعةً للخلقِ إذ ليس يبعثه على الفعل باعث فلا غرض له في أفعاله ولا حامل، بل علة كل شيء صنعه).

يقول البوطي: (صفة الإرادة في ذات الله صفة تامة كاملة لا يشوبها أي جبر أو قسر، فلو قلت بأن الله أنزل المطر من أجل علة استهدفها، وهي ظهور النبات على وجه الأرض، وأنها حاملة له على إنزال المطر -كما هو شأن العلة الغائية- فمعنى ذلك أنك تقول إن الضرورة هي التي حملته على الإمطار، إذ كانت هي الواسطة التي لا بد منها للنبات فالإرادة متجهة إذن إلى الإنبات أما الأمطار فإنها مشوبة بقدر كبير من الضرورة التي تنافي الإرادة،... وهذا الاعتقاد في حق الباري جل جلاله كفر محض وأنه يتناقض مع مقتضى الألوهية تناقضاً بيّناً).

وأدلة من ذهب من المتكلمين كالأشاعرة إلى نفي التعليل هي نفس أدلة الفلاسفة، إلا إن المتكلمين متفقون على أن أفعال الله تصدر عن إرادته وعلمه، فهي صادرة بالاختيار فلا شيء في أفعال الله يصدر وجوباً عن ذاته كما يقول الفلاسفة، حيث إن الفلاسفة يقولون بأن **صدوروتولد المعلول عن علته التامة هوواجب تلقائي ضروري دون إرادة**، وبالتالي **قالوا بقدم العالم** أي إن الوجود أزليٌ مع الله، لأن العلة الفاعلة وهي الله وجميع ما يلزم للوجود قد وجد منذ الأزل، فالعالم موجودٌ ضرورة منذ الأزل فهو قديم حسب اصطلاحاتهم، وقد كفّرهم حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي على مقولتهم بقدم العالم. وقد خالف الماتريديةُ -من المتكلمين- الأشاعرةَ في قولهم بنفي العلل الغائية عن أفعال الإله، حيث إنهم عللوا أفعال الله بأنها لرعاية مصالح العباد.

وأما السببية الكونية فإن السادة الأشاعرة قد نفوا أيضا أي ترابط ضروري بين العلل والمعلولات، أو بين الأسباب والنتائج ردا على الفلاسفة الطبيعيين الذين لا يرون وراء المعلول إلا علته، ولا يدركون إلا الأسباب الظاهرة القريبة؛ فإيجاد الممكنات أو إعدامها -عند الأشاعرة- يأتي مقارنا للسبب **لا بواسطة السبب ذاته**؛ فالإحراق **يُخلَقُ** عند ملامسة النار للورق لا بملامسة النار للورق، ولكن من اطراد اقتران النار بالإحراق تصور بعض الفلاسفة أن النار هي التي أوجدت الإحراق! وأن الماء هو الذي يوجد الري بذاته، فانتصب لهم الأشاعرةُ **نافين أيَّ فاعليةٍ للمادة الصماء**".

الآن وقد استعرضنا المذهب، والخلاف، نبين الرأي فيه إن شاء الله تعالى، وبالله تعالى التوفيق:

إن أول خطأ ارتكبه المتكلمون والفلاسفة هو قياسهم ما لا يقع الحس عليه، أي الله تعالى، على الشاهد، أي على الإنسان وإرادته وأفعاله. وأيُّ فهمٍ لصفات الله تعالى يقترن بالزمن فهمٌ مرفوضٌ، إذ إنه يعني إخضاع الخالق سبحانه وتعالى لنظام الوجود، بأن تُجعل أفعاله، محل تأثُّر بالزمن، لها بداية، ولها نهاية، وكانت بعد أن لم تكن، وانعدمت بعد أن كانت، وفهم الصفات على هذا الأساس يجعل الله تعالى محلا للحوادث، ويلزم منه حدوثه (تعالى الله عن ذلك)، إذ إن أدلة وجود الله تبرهن بما لا يقع فيه شك وجوب مخالفة الله تعالى للحوادث في كل شيء، وإلا كان من جنسها!

ولذلك تجد الله تعالى يصف تأثير إرادته فيما يوجده بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِۗأَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُۗتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف ٥٤] فانتفى احتياج أمر الله وقدرته وإرادته إلى الزمن ليحصل التأثير فيه، كما أن "الزمن" ابتدأ لحظة خلق الكون، أي لم تكن هناك لحظات زمنية، ولا ساعة أزلية مع الله تعالى قبل خلق الخلق، فتقاس أفعاله بها، ولا وجود للزمن أبداً بدون وجود المكان والمادة والطاقة، ويتعلق الزمنُ بوجود الأشياء وبحدوث التغييرات فيها، ليقيس وقت انتقالها من حال إلى حال، وهذا محال في حق الله تعالى، وبالتالي فلا يقال: أراد الله أن يخلق الخلق منذ الأزل، وأنفذ إرادته بعد زمن طويل جداً من إرادته! وهذا ما أوقع الفلاسفة بالقول بقدم العالم، لأنهم يرون أنه لا يصح تأخير الإرادة عن الإنفاذ[٩٢]!

وحيث إن الله تعالى في ذاته، وفي صفات ذاته، وفي صفات فعله (في الشق الذي أسميناه فيها "الصفة الحقيقية" في كتابنا (ضوابط التعامل مع مسائل الصفات) تلك الصفات التي تتضمن شقاً متعلقاً بالله تعالى، وهو صفته، وتتضمن شقاً متعلقا بالمخلوقات وبنظام الوجود، وهو تجليات أو مُتعلقات هذه الصفة التي يسيّر الله بها الوجود، بأن يرزق الله تعالى الناس، فشاهدنا تجليات الرزق بصور كثيرة منها العطاء)، ليس محلا للحوادث[٩٣]، ولا يخضع لقانون الزمان والمكان، ولا يحصل فيه تغيير، فالإرادة والقدرة والخلق والعلم والحياة عنده هي هي، لا تتأثر، ولا تتغير، ولا تزيد، ولا تنقص، ولا تتجدد، ولا تطرأ، ولا يسبقها جهل، كحال العلم عند المخلوقات، بل علمه سبحانه وتعالى، وصفاته غير هذا الذي نعرفه في المخلوقات، وأما صفات فعله في الشق المتعلق بالوجود، (أي صفة الرزاق من حيث تعلقها بمن يرزقه) والذي تُأثِّرُ إرادةُ الله تعالى وقدرتُهُ وصفاتُ فعلِهِ في الأشياءِ بها لتُحدث في تلك الأشياء التغيير والتقدير والتسيير والتدبير، أي ما نلحظه من **أثر هذه الصفات، ومتعلقاتها**، (مثل تعلق صفة الرزاق بأثرها وهو أنه يرزق، فترى تجليات ذلك الأثر في حياتك اليومية رزقاً، والرحمن بأنه يرحم، وأنه ينصر، والعزيز الذي يعز من يشاء) ففي هذا الشق، **آثار الصفات هي غير الصفات**، وهي تتفاعل مع الوجود وفق نظام الوجود بأمره أن كن فيكون، وبسيطرته وإرادته وخلقه لها على نظام معين أرادَهُ، فيحصل مُتعلَّق الإرادة في اللحظة التي قدرت الإرادة أن يحصل الشيء فيها، ويبدأ خلقٌ ما في اللحظة التي قدر الله تعالى فيها أنه سيبدأ، **من غير تغير في الصفات الحقيقية كالإرادة أو القدرة**، (لأنه تعالى لا يخضع للزمن، ولا لقوانين الوجود التي خلقها) ومن غير أن يحتاج الخالق سبحانه وتعالى في صفة الخلق والرزق وغيرها لإحداث إرادة جديدة، ولا لإحداث قدرة جديدة، ولا لتكلُّف القيام بالفعل على النحو الذي يقوم به المخلوق، فحين ينصر الله تعالى ترى تجليات ذلك النصر بتسخير الريح في الخندق مثلا بأمره، وهذا تسخيرٌ لأسباب كونية خاضعة لأمر الله تعالى يسخرها متى شاء فينصر بها عباده! أي يتجلى فعل الله بأن النصر بيده ويتمثل في صور من نظام

---

[٩٢] وقد ناقشنا رأيهم وأبطلناه بالتفصيل في مجموعة من كتبنا، منها: (ضوابط التعامل مع مسائل الصفات)، و(نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال)، و(نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىٰ وُجُوْدِ الْخَالِقِ/ فصل: دليل الحدوث والتغير والسببية).

[٩٣] فهذا يعني إثبات صفات الفعل لله تعالى، ومنع أن يكون محلا للحوادث، وتفويض معنى تلك الصفات على الحقيقة لله تعالى، والإقرار بحدوث متعلقاتها، والمهم أن الله تعالى في ذاته وفي صفاته، لا يخضع لقانون الزمان، وليس محلا للحوادث ولا للتغيرات، بدليل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى ١١].

الوجود، لا خرقاً له، أو يفتح أبواب السماء بماء منهمر، وتجري الأرض عيوناً ليلتقي الماء على أمر قد قدر، وهذا ما لا يحدث إلا بأمر منه ليسخره لنصر نبيه، وهذا من نظام الوجود، ولكنه لا يحدث عادة، بل حصل وفقا لأمره سبحانه وتعالى نصرة لنبيه، أو أن يسخر الأسباب بصورة طبيعية وفقا لنظام مخصوص جرى عليه نظام الوجود، فيسخر المطر لإنبات الزرع، ويُجري الرزق بين الخلائق بأسبابٍ دنيوية مثل الكسب والميراث. أو ينصر الله دينه بأن يشرح صدور الأوس والخزرج للهداية فيستعدون لنصرة الدين، لذلك نرى أن صفات الفعل عند الله تعالى غير منفعلة بأفعال البشر، ولا تخضع لنظام الوجود، ولكن تجلياتها، ومتعلقاتها وطريقة عملها في الوجود، يكون بتسيير وسائط مما هو في الوجود وفقا لإرادة الله تعالى لا عن احتياج لها، وإنما عن تسيير، وتدبير، وقدرة، وملكوت.

## فهل يخضع الخالق للأسباب أم تخضع الأسباب له؟

بالتأمل في فهم العلة الغائية الدقيق الذي توصلنا إليه في هذا البحث، نجد أن الإنسان يقوم بالتفاعل مع الخصائص التي أودعها الله في المواد، والنواميس التي خلق الله تعالى الكون عليها، (أي يتفاعل مع القدر)، لتسخيرها من خلال القيام بأفعال سببية قادرة على إنجاز المهمات وتحقيق النتائج، فهذه الخصائص وتلك النواميس، ومثلها الحاجات أو المشاكل التي تؤثر في الإنسان جبراً عنه مثل الجوع والبرد مما نتج عن وجود الطاقة الحيوية في الإنسان كما قدرها الله سبحانه وتعالى، كلها في الدائرة التي تسيطر على الإنسان ولا يتحكم فيها، وهو من نظام الوجود أو مما يقع على الإنسان وهو يعيش حياته مما خلق الله تعالى الكون وسخر ما فيه له، وفِعْلُ الإنسان هو التفاعل مع خصائص الأشياء والنواميس (أي مع القدر)، واستعمال ما سخر الله تعالى له مما في الكون، لتحقيق النتائج عن طريق الأفعال السببية، مثل اتقاء البرد بإشعال النار، ومثل شرب الماء للارتواء، والعلة الغائية بهذا المعنى منفية عن الله تعالى قطعاً، لأن من صفات كمال الله تعالى أنه صمد، قيوم، أي قائم بذاته، أي إنه غير محتاج، غير عاجز، والصمد لا يحتاج إلى شيء، ولا يستند إلى شيء، فهو يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، ويشفي المرضى، وينزل من السماء ماء، فينبت به الزرع، بل كل المخلوقات تستند إليه وتعتمد عليه في وجودها وفي سد وقضاء حوائجها، بوصفه رباً يرعاها، وخص ذاته العلية بالقيام بتحقيق **بعض هذه الغايات** تحديداً، لأنها **من صفات ألوهيته وربوبيته**[٩٤]، (الرزق، النفع، النصر،...الخ)، فلا يستطيعها الإنسان بنفسه ولا بغير الله تعالى: قال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ

---

[٩٤] يأتي الرب في العربية بمعنيين: ١) السيد أي المتصرف المدبر، الآمر الناهي، الحاكم المشرع، ٢) المالك: أي مالك العين أو الشيء ملكية تعطيه حق التصرف في العين. أنظر: الحاكمية وسيادة الشرع للدكتور المسعري ص ٢٨-٢٩. قال ابن فارس: "(الرب) الراء والباء يدلُّ على أُصولٍ. فالأول **إصلاح الشيء والقيامُ عليه**. فالرّبُّ: المالكُ، والخالقُ، والصَّاحب. والرّبُّ: **المُصْلِح للشّيء**. يقال رَبَّ فلانٌ ضَيعتَه، إذا قام على إصلاحها. والرّبُّ: المُصْلِح للشّيء. والله جلّ ثناؤُه الرَّبُّ؛ لأنه مصلحُ أحوالِ خَلْقه". معجم مقاييس اللغة. و "﴿رب﴾ في الأصل: مصدر بمعنى التربية، وهو تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا، وذلك يجمع النعم كلها، ثم وصف به للمبالغة كالصوم والعدل. وقيل: هو وصف من ربّه يربّه، وأصله: ربب ثم أدغم، سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه، ولا يطلق على غيره تعالى إلا بقيد كقوله تعالى: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾. قال ابن جزيّ: ومعانيه أربعة: الإله والسيد والمالك والمصلح، وكلها تصلح في ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾، إلا أن الأرجح في معناه: الإله لاختصاصه بالله تعالى". تفسير البحر المديد لابن عجيبة بتصرف. وقال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: "الرب: السيد والمالك والثابت والمعبود والمصلح وزاد بعضهم بمعنى الصاحب".

وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم ٤٠]، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ١٠]، فجعل ما يفعله الإنسان لمثل هذه القضايا -حين النظر من زاوية السنن الإلهية فيها- "حالات أو شروطاً" يتوسل بها إلى تحقيق هذه الغايات، لكن حين النظر من زاوية السنن المجتمعية والإنسانية التي أقام نظام الوجود عليها جعل لها أسبابا على الحقيقة، فقد جعل لكل شيء سبباً في نظام الوجود، لذلك وجب اتباع أسبابها المجتمعية.

وبما خلق الله تعالى عليه الكون من نواميس لا يستطيع غيره خلقها أو التصرف فيها إلا في ضمن النطاق الذي سمحت به هذه النواميس (كتحول خاصية السيولة في الماء إلى الغازية بالتسخين).

أين المشكلة التي تترتب على تصريف الله تعالى للكون وفقا للسببية إذن؟ يقول البوطي: "إن الله أنزل المطر من أجل علة استهدفها، وهو ظهور النبات على وجه الأرض وأنها حاملة له على إنزال المطر -كما هو شأن العلة الغائية- فمعنى ذلك أنك تقول إن الضرورة هي التي حملته على الإمطار، إذ كانت هي الواسطة التي لا بد منها للنبات".

إذن انتقل الموضوع من أنه يقتضي أن يكون الله محتاجا في ذاته، فليس الله تعالى بحاجة للنبات في ذاته، فيتوسل بالأمطار لتحقيق ذلك، بل أراد سبحانه الإنبات لسد حاجات مخلوقاته، لأنه ربها، وليس من أجل ذاته، وذلك بواسطة تفعيل سبب معين وهو الإمطار هنا، لكننا نرى بالتدقيق أن هذا لا يترتب عليه أي نقصٍ أو حاجةٍ عند الذات العلية سبحانه، بل النقص في المخلوقات، وهذا النظام السببي يسد تلك الحاجات، وترتيب الله سبحانه لعلاقة الإمطار بالإنبات مما سن الله عليه الوجود من نواميس، فالله تعالى خالق الأشياء وخالق القدرة على التأثير الذي في الأسباب، وخالق ومقدّر قابلية التأثُّر الذي في المُسبَّبات، وخالق للعلاقة السببية بينهما، ويخضعها جميعا لقدرته ونواميسه التي قدرها لتسير عليه فتجري وفقه لا تستطيع الخروج عنه، وفقاً لنظام الوجود، وليس في هذا أي جبر له تعالى يجبره على الخضوع للنواميس؛ **لذلك كان قوله لشيء إذا أراده "كن"، و إنما يسخر هذه الوسائط التي هو خالقها وهو الذي أخضعها لنظام الوجود، وجعلها نواميس يسير عليها نظام الوجود**، ﴿سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس ٦٨]، ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان ٢٦]، والخطأ الذي وقع فيه المتكلمون أنهم رأوا أن الإنسان يخضع لهذه الأسباب، ولا يستطيع تحقيق الغايات إلا بها، ولم يلتفتوا إلى أن الأمر بالنسبة لله تعالى يختلف، فهو خلقها، ونظم الكون بها، وسخرها تسخيرا، يدبر به ملكوته، يسلط الأسباب على المسببات وفقا لإرادته، فهو مسيطر متحكم حكيم مريد قادر، وأمره لها من باب كن فيكون، ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [٨٢ يس]، ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ﴾ [الشورى ٤٩] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة ١٧]، فلا يمكن أن يكون خاضعا لها، وإلا لم يكن مسيطرا متحكماً، وحينذاك، كانت الأسباب لتستغني عنه سبحانه، وتصبح غير محتاجة! والواقع يقرر عكس ذلك تماما، فالله سبحانه ولا شك مالك الأسباب كلها، نظم جريان هذا الكون وفقا لنظام السببية، ولو حدث كل شيء لوجود الأسباب لما كان الطفل لينتظر وجود أبيه ليوجد، بل إن الأسباب متصلة وموجودة، كان كل شيء ليكون دفعة واحدة وهذا واضح الفساد والبطلان،

وكون الأسباب والمسببات مفتقرة محتاجة يعني أنها خاضعة، وحاجتها لا تقتصر على الإيجاد بعد العدم، بل التنظيم والقدرة على التفاعل المتبادل والتأثير، فلو لم تكن المُسَبَّبات قابلة للتأثُّر بالأسباب لما تمت العلاقة السببية، والعكس، فليس أيٌّ منها بمستغن بنفسه، وأي خلل في أي من هذه الحاجات يجعلها غير فاعلة في سببيتها، أو يجعلها معدومة في وجودها، ولا تملك السير إلا وفقا لهذه النواميس، بالصورة التي قدرها خالقها سبحانه وتعالى، ولا تملك تغيير نظامها ولا خصائصها بنفسها أو بغيرها إلا في نطاق ما سمح به الخالق بما أوجده فيها من خصائص، فالماء يمكن أن يتحول إلى بخار بتعرضه للتسخين، فتتغير فيه خاصية السيولة، وهذا مما سمح به نظام الوجود، إذن، فحاجتها للخالق مستمرة، فهو المسيطر عليها (الأسباب والمسببات (وهي التي تجري فيها أو عليها الأحداث)، والنواميس التي تجري العلاقة السببية وفقها، وكل ذلك من نظام الوجود، تسير وفقاً له)، وبالتالي فلا يمكن أن يخضع هو لها، ولا يمكن أن تكون هي المسيطرة، وهذا دليل على أنه مستغن عنها، وعلى انتفاء صفة العجز ترتيبا على تسخير الأسباب.

كذلك لا شك أن بيد الخالق القدير الذي خلق الكون وفق نواميس معينة، ونظمه بنظام خاص، أن يخلق الكون على غير النظام الذي نظمه عليه، فأسباب خلقه على وجه أو نظام آخر مملوكة له سبحانه، قادر على أن يخرق نواميس الكون، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج ١٦] [هود ١٠٧] وبيده خلق أسباب كثيرة أخرى، أو التأثير في تلك الأسباب كيف يشاء، لتحصيل نفس المسببات، فهو لا يخضع لها، بل خضع كل ما في الوجود لأمره سبحانه وتعالى، ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ** سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٦٨ القصص]، لكنه تعالى شاء وأراد هذا النظام بعينه ليسير به الوجود، وجعل في النظام السببي دليلا عليه.

ولو خُرِقَ نظامُ السببية، وأضحى بالإمكان أن يحدث الشيء بغير السببية، فإن هذا يُفقد نظام السببية نفسه ميزته، ويعطله، فيختل نظام الوجود، فقسمٌ فيه يحدث بالسببية، وقسم يحدث بنظام آخر[٩٥]! وحينذاك لا يستطيع الإنسان الاستدلال على خالقه، ولا استنباط العلل، ولا دراسة نظام الوجود ليفهمه ويعمر الأرض، لذلك جرى إجراء رزق الله وتنزل رحمته وتنزل نصره وتوفيقه بتسخيره سبحانه للأسباب، فينصر بالريح، أو بالصاعقة، أو بالطوفان، أو بالهداية، ويرزق مالا، أو عقاراً، وكل ذلك يتنزل وفقا لنظام الوجود، لكنه تعالى خص نفسه بالرزق والنصر والإحياء والإماتة والبعث وغيرها، وملّك الإنسانَ أو الأشياء القدرة على تفعيل أسبابِ أمورٍ معينة كإشعال الحريق، والتفاعل الكيماوي، دون غيرها، كالخلق والإماتة والرزق والنصر، وذلك لأن من شأن مثل هذه الأفعال أن تكون من اختصاصه بوصفه رباً مالكاً -سبحانه وتعالى- ﴿اللَّهُ الَّذِي **خَلَقَكُمْ** ثُمَّ **رَزَقَكُمْ** ثُمَّ **يُمِيتُكُمْ** ثُمَّ **يُحْيِيكُمْ** هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٤٠ الروم]،

هذا من جهة، ومن جهة ثانية: لم يخلق الخالقُ سبحانه نظام الوجود ونقيضه، أو نظام الوجود وآخر غيره، فهذا باطل، فالأسباب لا تتصرف آليا دون حكمة، ولا تتصرف ذاتياً وآليا على هواها بدون أمره وتدبيره، بل

---

[٩٥] قد تتعدد الصور التي يجري عليها نظام السببية، فقد ناقشنا في كتاب (نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىْ وُجُوْدِ الْخَالِقِ) صورة جريان السببية وعلاقتها بالحتمية في الجسيمات تحت الذرية (الكوانتم) والفرق بينها وبين الأجسام المرئية، أو التي لا تنطبق عليها فيزياء الكم.

تتصرف في خلقٍ غائيّ غير عبثيّ! ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٨٢ يس]، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [٢٥٣ البقرة].

وقد رأينا أن الله تعالى أحدث اختلافا في بعض الأنظمة الحيوية لفتا للنظر أنها لا تسير سيراً آلياً ذاتياً ميكانيكياً بلا تدبير أو تدخل منه، فمثلا وجدنا فرس البحر والكائنات التي تنتمي إلى نفس فصيلته مثل الأسماك الأنبوبية وتنين البحر المورق كائنات غير عادية للغاية، فيحمل الذكور الأجنة في كيس يشبه نوعاً ما كيس الكنغر، ويلدون بدلا من الأنثى، ورأينا بعض النباتات تحمل العضو المذكر والمؤنث معا، وبعض الكائنات تتكاثر بالانقسام (التكاثر اللاجنسي، في الكائنات وحيدة الخلية)، ووجدنا بعض الحيوانات جرابية (كالكنغر والكوالا، تكمل حمل وليدها بعد ولادته في الجراب)، وبعضها ثدييا، وبعضها يبيض، وهكذا، وهذا كله وفقاً للسببية، ولكن قدر الله أشكالا متعددة تجري وفقاً لها حتى لا يظن ظان أن الله تعالى خلق الكون ووضعه -كالقطار- على سكة، وكل شيء ينتج تلقائيا وحتميا وآلياً بنفس الصورة دون تدخل من الخالق سبحانه وتعالى.

## ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾

بدراسة آيات القرآن، وجدنا أن الله تعالى ينفي عن الإنسان أنه هو من ينبت الزرع، أو ينزل الماء من الـمُزنِ، أو يُنشئ شجرة النار، (الآيات ٥٧-٧٤ من سورة الواقعة[٩٦])، ويلاحظ فيها بقوة أن التذكير هو بالخصائص التي أودعها الله في الأشياء لينتفع بها الناس، فالماء الذي ينزل من المزن يمكن أن يصيّره الله تعالى أُجاجا، والمعنى لو نشاء جعلناه غير نافع لكم. فهذا استدلال بأنه قادر على نقض ما في الماء من الصلاحية للنفع بعد وجود صورة المائية فيه، والنار يمكنكم أن توروها بصور مختلفة منها: حك نوعين من الخشب الأخضر (المرخ والعفار) فينقدح الشرر منهما، والزرع لا ينبت إلا بما في البذور والماء الذي يرويها من خصائص، لا دخل لكم في إنشائها وتقديرها، بل فقط الاستفادة منها، وآيات نسبت الضر والنفع لله، ولا يملك غيره نفعاً ولا ضراً، ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [يونس ٤٩]، ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢا﴾ [الفتح ١١]، ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾ [الأنبياء ٦٦]، ونسب لنفسه الرمي والقتل، ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال ١٧]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ ﴾ [يونس ١٢]، ﴿فَإِذَا مَسَّ

---

[٩٦] ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ۝ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ۝ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ۝ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ۝ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ۝ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ (74)﴾، أما شجرة النار: فللعرب شجرتان: إحداهما المرخ، والأخرى العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فَحُكَّ أحدهما بالآخر، تباين من بينهما شرر النار. فإن النار تخرج من الشجر بالاقتداح وتذكى بالشجر في الاشتعال والالتهاب. وهذا استدلال على تقريب كيفية الإحياء للبعث من حيث إن الاقتداح إخراج، والزند الذي به إيقاد النار يخرج من أعواد الاقتداح وهي ميتة، والتعبير عن خلقها بالنشأ، المنبئ عن بديع الصنع، الـمُعْرِب عن كمال القدرة والحكمة لِما فيه من الغرابة الفارقة بينهما وبين سائر الأشجار. (محاسن التأويل، والتحرير والتنوير، والبحر المديد)

ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر ٤٩]، فهذه الآيات كلها تتحدث عن الاعتقاد، وملاحظة قدرة الله تعالى على تسخير الأشياء التي في الكون بما أودع فيها من خصائص لنفع الإنسان وضره، ولا يملك غيره أن يمتلك قدرة خلق تلك الخصائص فيها، فينفع نفسه أو يضر غيره كيف يشاء، بل يخضع لما في نظام السببية من خصائص يتفاعل معها بحسب ما قدر الله فيها.

وبدراسة آيات أخرى، وجدنا أن الله تعالى جعل أسبابا لحصول المراد، فمثلا: من أسباب الهداية القرآن الكريم، ومحمد ﷺ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى ٥٢]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل ٦٠]، أي أنبت بالماء حدائق، فلنتأمل أكثر، كيف يزاوج الله بين أنه هو الفاعل، وبين تسخيره الخصائص التي أودعها في الأشياء ليسير الكون وفقا لنظام مخصوص:

قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل ٦٠]. ونون الجمع في ﴿أنبتنا﴾ إلتفاتٌ، عَدَلَ عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم، ومن لطائف هذا الالتفات هنا التنصيص على أن المقصود إسناد الإنبات إليه لئلا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء، ولا إلى الإنسان بسقيه وحرثه وزرعه، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾، وتذكرنا هذه الآية بآية الواقعة عن النار: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾، لأن التذكير بالمنبِت الحقيقي الذي خلق الأسباب أليق بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نِعَمَهُ، والتذكير بمن أنشأ نوعين خاصين من الأشجار ينقدح شرر من احتكاك عوديهما، بما فيهما من الخصائص الغريبة، مع ملاحظة أن للإنسان دور في تحصيل نعم الله تعالى، كالحرث والزرع والسقي، وقدح الشرر لإيقاد النار، لكن الإنسان لا ينبت النبات، ولا ينزل المطر، ولا يخلق في البذرة القدرة على الإنبات، ولا يخلق في الماء خصائص يتفاعل فيها مع البذرة للإنبات، لكنه يستفيد من خصائص المواد التي أودعها الله فيها لصنع ما يقدح الشرر لإشعال النار، كأن يقدحها من حك حجرين، لذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة ٦٣-٦٤][٩٧]، فالله تعالى هو الفاعل في الإنبات -الذي كنّى عنه هنا بنتيجته وهو الزرع-، هو الفاعل على الحقيقة لا المجاز، والباء في قوله ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ سببية، لفتاً للأنظار إلى عظيم قدرة الله تعالى إذ إن نفس الماء ينزل من السماء لإنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان، والطعوم والأشكال، مع بهجتها، بماء واحد، لا يقدر على تقدير تلك الخصائص في الماء غيره سبحانه وتعالى، ولا في البذور والنباتات خاصية التفاعل مع نفس الماء، فتنبت

---

[٩٧] ذكر بعد دليل الخلق دليل الرزق فقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ﴾ إشارة إلى دليل الخلق وبه الابتداء، وقوله: ﴿أَفَرَءيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إشارة إلى دليل الرزق وبه البقاء، وذكر أموراً ثلاثة المأكول، والمشروب، وما به إصلاح المأكول، ورتبه ترتيباً فذكر المأكول أولاً لأنه هو الغذاء، ثم المشروب لأن به الاستمراء، ثم النار التي بها الإصلاح وذكر من كل نوع ما هو الأصل، فذكر من المأكول الحب فإنه هو الأصل، ومن المشروب الماء لأنه هو الأصل، وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية وأعمها، ودخل في كل واحد منها ما هو دونه، هذا هو الترتيب، وأما التفسير فنقول: الفرق بين الحرث والزرع هو أن الحرث أوائل الزرع ومقدماته من كراب الأرض، وإلقاء البذر، وسقي المبذور، والزرع هو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على الساق، فقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي ما تبتدئون منه من الأعمال أأنتم تبلغونها المقصود أم الله؟ ولا يشك أحد في أن إيجاد الحب في السنبلة ليس بفعل الناس، وليس بفعلهم إن كان سوى إلقاء البذر والسقي،

زروعاً مختلفة الألوان والأصناف والمذاق، ويلفت النظر إلى أن قدرة الله تعالى جرت على تسيير الكون بتسخير النواميس التي لا يستطيع إيجادها غيره، وفقاً لنظام الوجود الذي نظم الله الوجود وفقه، لفتا للأنظار إلى أنه وحده هو من قدّر تلك النواميس، بصورة تجعل الكون مسخراً وفق النظام الذي نظمه عليه، وليس في إنبات النبات حاجة عند الله تعالى، أو ضرورة تتوسط كي تسد عجزاً أو تستكمل حاجة، أو تحقق غرضاً متعلقا بذاته العلية، بل تسد حاجات المخلوقات الناقصة العاجزة التي هو ربها -وعجزها هذا دليل على حاجتها لخالقها-، وبصورة تسيّرُ الوجود وفقا للنظام الذي فرضه عليه بما أودعه فيه من خصائص تفاعلية بين خواص المواد، والقوى والطاقات، ليسير الكون وفقا لهذا النظام الدال عليه، لكنه تعالت قدرته، جعل نظام الوجود قائماً على ظهور وبروز قدرته من خلال تجليها في إحكام الصنعة بإيجاد تلك العلاقات التنظيمية السببية بين أشياء نظام الوجود، لتوجد نظاما محكماً، لا فوضى! وهذا كله من باب الاعتقاد، وصناعة الشخصية المؤمنة التي تتخذ العقيدة الإسلامية قيادة فكرية لها في غمرات الواقع، مدركة دورها في الحياة، مطمئنة إلى حسن تدبير خالقها، ومؤمنة بقدرته، شاكرة لأنعمه، ومراقبة بديع صنع الله تعالى، وليس من باب العمل، إذ إن الإنسان مكلفٌ، فيقوم الفلاح بالزراعة، مستغلا تلك الخصائص والتفاعلات السببية، ليسعى في الأرض، وهو مكلف، عاقل، مسؤول، محاسب، حر الإرادة، سيحاسبه الله إن زرع القمح (الحلال) أو زرع القنب الهندي! وسيحاسب الإنسان إن رمى بإطلاق النار من بندقية فقتل، ولن يقبل منه أن يقول: بل الله هو من قتل، وهو من رمى!

وهذا بالضبط هو ما يجسر الهوة التي أحدثها فصل المتكلمين والفلاسفة بين تسخير الله تعالى للأسباب والنواميس في الكون لتحقيق الغايات التي تدل عليه سبحانه وتعالى، وبين إرادته وعلمه وخلقه وقدرته، وظنهم أنه يتصرف بالأسباب كتصرف الإنسان الخاضع لها، أو كتصرف المادة في الكون في تفاعلها السببي، فلا تستطيع خروجاً عنه، ولا تغييراً له، فهي خاضعة له.

وهذا بالضبط هو ما نريد أن نخرج به من قيامنا بالأخذ بالأسباب، فلسنا من يحدث، ولسنا من يفعل على الحقيقة، كما أننا لا نزرع، والله هو الزارع، ولا نرزق والله هو الرازق، ولا ننبت، والله ينبت، لأنه هو مسبب الأسباب، وليس معنى هذا ما ذهب إليه الأشاعرة من قولهم "إن إيجاد الممكنات أو إعدامها يأتي مقارناً للسبب **لا بواسطة السبب ذاته**؛ فالإحراق **يُخلَقُ** عند ملامسة النار للورق لا بملامسة النار للورق"، فالأشاعرة أعدموا وأبطلوا فيها القدرة على الفعالية السببية التي أوجدها الله فيها، وهذا خطأ، بل الله خلق في النار خاصية الإحراق، وفي الورق خاصية الاحتراق، فلا يبحث الموضوع في إطار "الخالق للفعل"، بل في إطار أن الخالق هو الذي أودع هذه الخصائص، وأن الإنسان يتفاعل معها بأفعاله، ويسخرها بما فيها من الخصائص لمعاشه، تسخيراً مسؤولاً، وتسخيراً يدرس فيه هذه الخصائص ليستفيد منها وينظم الأفعال السببية بناء على ما فيها من فعالية سببية، ويلاحظ حين الاستفادة منها أن الخصائص التي قدرها الله فيها هي التي مكنته من الاستفادة والقدرة على التفاعل، لذلك يشكر الله عليها، ويبصر إتقانه لصنعته.

لقد درج المفكرون والفلاسفة على استعمال دليل العلة الغائية ودليل العناية، على وجود الله سبحانه وتعالى، وهما من أمتن الأدلة وأدقها، واستعملهما القرآن الكريم بكثرة، ولقد سمى شيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله

في كتابه موقف العقل هذا الدليل ب(دليل العِلّة الغائية) أو (دليل الحكمة ودليل نظام العالم)، ورآه أفضل الأدلة وأقواها، فقال: "لقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الدليل أكثر من غيره حتى أمكنت تسميته بدليل القرآن لأن كثيراً من آياته ولا نحصيها هنا لكثرتها طافح به، وهو أثرى الأدلة وأوسعها وأكثرها استعدادا لنصرة المستدل وخذلان المنكر وأوفقها لأمزجة العصريين".

وقال أيضا: "إن ما بلغه العالم من كمال الإتقان في جميع أجزائه الكبيرة والصغيرة وجميع ما في أجرامه وما بين أجزاء الجميع من التناسق والتوافق والارتباط والاتزان والانسجام ليدل على وجود إله مدبر حكيم"، انتهى قوله، وقوام دليل العناية: التعرف على الله تعالى من خلال مصنوعاته التي تظهر إتقان صنعته وطلاقة قدرته، وبديع آياته في خلقه، وتتجلى في التنظيم المعجز للكون والإنسان والحياة بشكل خارق يظهر عظمته وترتبط العناية بالغائية ارتباطاً وثيقاً بحيث تدلل على أن صنع الله ليس من باب العبث، ويتم التدليل عليها من خلال استحضار ظواهر تتجلى فيها عناية الله تعالى بإتقان الصنعة، وإحكامها، فكيف إذن يصح الاستدلال بدليل العلة الغائية إذا كان واقعه كما فهم الأشاعرة مما يفضي إلى عجز وجبر؟ وكيف استعمله القرآن الكريم إذن؟

ولكن المقصود أن الكون مركب في وجوده، ووجود أجزائه على نحو تنظيمي معين، يستتبع غايات مهمة للإنسان، مع العلم بأن الله كان ولا يزال قادراً على أن يحقق له هذه الغايات بدون وساطة شيء من مظاهر الكون. لكنه تعالت قدرته، جعل نظام الوجود قائماً على ظهور وبروز قدرته من خلال تجليها في إحكام الصنعة بإيجاد تلك العلاقات التنظيمية السببية بين أشياء نظام الوجود، لتوجد نظاما محكماً، لا فوضى!

ونبَّهنا القرآن إلى النظر المحكم فيها للاستدلال عليه سبحانه وتعالى، فهو أوجدها بقدرته على الخلق والإيجاد، ونظمها بقدرته على إتقان الصنعة، لتكون دليلا عليه، لا لكونه محتاجا لها كوسائط ووسائل كما يحتاج الإنسان مثلها حين قيامه بالتنظيم والاختراع والتصنيع!

## من ملأ البرميل بالماء؟ أنت أم الله[٩٨]؟

ولو أنك فتحت الصنبور لتملأ البرميل ماء، فالسؤال هو: من الذي ملأ البرميل؟ أنت أم الله؟

للماء صفات وخصائص كثيرة، منها خاصية الإرواء، ومنها الرابطة الهيدروجينية التساهمية ( Covalent bond) التي تربط ذرتي الهيدروجين بذرة الأوكسجين، بزاوية معينة (١٠٤.٥°) أفضت لإعطاء الماء خصائص مميزة، من سعة حرارية نوعية تكسبه مقاومة كبيرة في التحول من الصلابة إلى السيولة ومن السيولة للغازية، وبسبب هذه الرابطة أيضا تجد أن لزوجة الماء عالية، واللزوجة هي مقاومة السوائل للانسياب، فالسائل الأسرع انسيابا أقل لزوجة، والرابطة الهيدروجينية أيضا تسبب زيادة في التوتر السطحي للماء مقارنة بغيره من السوائل، والتوتر السطحي هو ظاهرة شد جزيئات السائل السطحية ليصل إلى أقل مساحة ممكنة، فيأخذ شكل الإناء الذي يوضع فيه.

---

[٩٨] المفكر الأستاذ بلال فتحي سليم، بتصرف.

ألا ترى أنك لم تخلق في الماء خصائصه السابقة؟ ولا خلقت الجاذبية التي تجذب البرميل والماء معا، فلا يتسرب الماء للأعلى، ولا خلقت المادة التي صنع البرميل منها، صلبة قادرة على حبس الماء والتشكل بصورة برميل، ولولا هذا كله لما استطعت أن تملأ البرميل، وهذا كله من زاوية التأمل، والتفاعل مع الخصائص التي أودعها الله في الوجود، وإدراك قدرة الله والثناء عليه، ومن الناحية الإيمانية.

لكن من ناحية عملية (الفعل) أنت من ملأ البرميل! أنت من صنع البرميل، ومثل هذا أنت من فلح الأرض وزرعها، وأنت من أورى الشرار من العودين وأوقد النار. والإيمان هو ما طلب الإيمان به، والعمل هو ما طلب القيام به تكليفاً، وعند السعي للرزق لا بد أن يكون الايمان بأن الرازق هو الله وبأن ابنَ آدم لو صبر لأتاه رزقه بالحلال، وبأن الله تعالى قادر على أن يرزقنا بالحلال مهما كانت فرصنا في هذا العالم السيء ضيقة أساساً للعمل، وأن يمزج الإيمان بالعمل مزجاً إيجابياً منتجاً، بأن يفكر المسلمُ من هذه الزاوية العقدية، أي يتخذ العقيدة الإسلامية قيادة فكرية له في غمرات الحياة، (مع زوايا أخرى كثيرة تجدها في الهامش[99]) حين القيام بعمله ضبطا لإحسانه للعمل، إذ إن الإسلام حرص على أن يرفد العمل بدافع إيماني إيجابي يملأ القلب طمأنينة. ويجعل التشريع فعَّالا حين تطبيقه.

[99] فالتاجر مثلا اختار التجارة وانتهى عن الربا وفقا لمنظومة وإطار (الحلال والحرام)، ملتزما بما يسمح به الوحي وما يمنع، يمتنع عن بيع الخمر وإن كانت فيه مرابح مادية دنيوية لأنه ملتزم بإطار الحلال والحرام لا بإطار المادة وجني الأرباح، ويجب عليه أن يتحرى الصدق، وممنوع عليه الغش، وفقا لمنظومة وإطار (الأخلاق)، وممنوع من الاحتكار (يظهر فيه استغلال حاجة الناس لجني الأرباح) (وفقا لمنظومة الاقتصاد الذي يعنى بعلاج مشاكل المجتمع وضمان كيفية توزيع الثروة ووصول الناس لقضاء حاجاتهم)، كما أنه أمره بالتقوى في كل حال ومع كل فعل، (مراقبة الله) وهذا إطار عام يلزم في كل فعل يضمن تحقيق غايات كثيرة تتعلق بالحرص على التزام النظام الإسلامي بشكل عام في كل شأن، وأمره بالإحسان، (وهو إطار عام يتكفل بإتقان وإحسان كل عمل يعمله)، واعتبر سعيه في الرزق طلبا للحلال نوعا من العبادة يؤجر عليه، إذ لو داخله الحرام أثم، فلا يأكل إلا حلالا، (وهذا إطار جمع الاعتقاد بالعبادة، فهو إطار عقدي ناظم لتصوره لطبيعة نتيجة عمله المادية إذ تربطه بالاعتقاد ولا يكتفي بالسعي لجني الأرباح بأي طريقة كانت)، وأمره بالأخذ بالأسباب، (وهو إطار عام مطلوب في كل عمل ليحقق غايات دينية ودنيوية، فيختار سلعا معينة للتجارة بها تدر عليه الربح أو يحتاجها المجتمع وهكذا، فهو إطار دافع لحسن اختيار أفضل الأعمال المحققة لغايات الإنسان والمجتمع، فلم يغفل الإسلام مصلحة هذا التاجر ومنفعته وحاجات المجتمع)، والتوكل على الله، (وهو إطار عقدي جامع مانع، يتجاوز معضلة إخفاق بعض الأسباب في تحقيق المراد، فيربط عمله بالاتكال على الله ليدبر له من شأنه ما لا يستطيعه بأسبابه التي قدرها بمعطياته الإنسانية البشرية القاصرة)، وربط عمله بمفهوم الرزق أنه على الله، فهو مدبر الكون وهو الرب الذي يرعى خلقه، فيطمئن، ولا يخاف إلا الله، وهو إطار ضامن بأن لا يعتبر التزامه بأفعال أخرى مؤثرا على عمله كتاجر، كأن يقول بالحق أينما كان، ولا يخشى إلا الله، وأمره بتطهير ماله بالزكاة، والصدقة، (وهو إطار يصب في تحقيق غايات مجتمعية يتكامل فيها النظام الاقتصادي بالاجتماعي ليحقق التكافل الاجتماعي ويكفي حاجات من لا يستطيع قضاء بعض الحاجات، وهذا الإطار يتضمن أيضا أن يقوم بهذه الصدقات والزكاة لا من باب الإحسان للفقير فقط، ولكن من باب مسئولياته المجتمعية التي أناطها الإسلام به، ومن باب الولاية العامة بين المؤمنين بعضهم بعضا، فهي أطر كثيرة تحقق غايات عظيمة خطيرة)، ووضع على السوق محتسبين، وأمر التجار بالفقه في الدين لمعرفة الحلال من الحرام في معاملاتهم، وهكذا تجد المزاوجة بين الأفعال وبين العقيدة وبين الأخلاق وبين القيم التي تمثل الغاية المطلوب تحقيقا من وراء تلك الأفعال، والتي يراد لها أن تسود! وبين الفعل وبين الثواب والعقاب، والتخويف من عقوبة الدنيا والآخرة، والمفاهيم العقدية، وهذا من شأنه أن يضمن تكامل الأنظمة المختلفة لتحقيق غايات مجتمعية وأخروية، **وكل ذلك يجتمع في عمل واحد**! فلم يعد التاجر يمارس التجارة فقط، بل **تتجسد فيه مجموعة القيم والأخلاق والمقاييس والمقاصد والمفاهيم العقدية و أنظمة الإسلام المختلفة في آن واحد** وهو يمارس التجارة! وهذا بالضبط هو ما ضمن **فعالية تطبيق نظام الإسلام وسرعة الاستجابة لتشريعاته**، فهذا مثال يبين **الضمانات التي تحقق فعاليّة تطبيق التشريع الإسلامي في الو اقع**، مقارنة بفشل التشريعات البشرية التي تستعمل عصا القانون لتطبيق التشريعات ولا **تحيط التشريعات بأي سياج يضمن فعاليتها**!

## السببية والحتمية في ظل تدبير الله، والتنبؤ، وسؤال حرية إرادة الإنسان:

مع تزايد ثقة الغرب في العقل إثر ما يسمى بعصر التنوير، ونجاح قوانين الفيزياء الكلاسيكية بإثبات دقة حساباتها، ومعرفة قوانين الحركة بصورة جعلت من الممكن التنبؤ بحركة الكواكب في المستقبل "هيمنت مقولة الحتمية (Determinism) الميكانيكية الشاملة التي فرضتها فيزياء نيوتن على العلم الكلاسيكي من رأسه حتى إخمص قدميه، وحكمته بقضبان حديدية. والحتمية تعني عمومية قوانين الطبيعة وثباتها واطرادها، فلا تخلف ولا مصادفة ولا جواز ولا إمكان، لأن كل شيء في الكون ضروري ذو علاقات ثابتة، وكل حدث مشروط بما يتقدمه أو يصحبه، فترتبت أحداث الكون في اتجاه واحد من مطلق الماضي إلى مطلق المستقبل، مما يجعل نظام الكون ثابتاً شاملاً مطرداً، وكل ظاهرة من ظواهره مقيدة بشروط تلزم حدوثها اضطرارا، أي خاضعة لقانون يجعلها نتيجة ضرورية لما قبلها ومقدمة شرطية لما بعدها، **مما يعني أن كل مايحدث لابد أن يحدث ويستحيل حدوث سواه.**

لقد أصبحت الحتمية العلمية شاملة، ومن هذه الحتمية الفيزيائية خرجت الحتمية الاجتماعية التي تزعم قوانين ضرورية للحركة الاجتماعية، وتعضدت الحتمية التاريخية التي تزعم طريقاً واحداً محتوماً لمسار التاريخ".[100] وقد انساق القائمون على المنهج الحسي التجريبي وراء نجاح الفيزياء وأرادوا أن يطبقوا المنهج ذاته على سائر العلوم الإنسانية، واعتبروه أصلا للمعرفة البشرية لا ثاني له! من هنا برزت الحتمية المادية والحتمية التاريخية في تلك الفترة من تطور المنهج العلمي التجريبي الحسي الغربي! لقد كانت الشيوعية، التي كانت توصف بالماركسية العلمية (وقوامها: الحتمية العلمية التاريخية المادية كما يصفها منظروها) وليدةً للعلمانية تأخذ بأكثر رؤاها تطرفاً وتبني عليه منهجها المادي! إذن امتدت الحتمية الكونية الفيزيائية وبسطت جناحها على سائر العلوم والمعارف عند الغرب. "ولم يكتف العلماء الغربيون في شتى المجالات بجعل الحتمية الأساس في نظرية المعرفة، بل سلموا أيضاً بأن الغرض الأولي من كل دراسة علمية تجريبية هو تعيين حتمية موضوعها، وصولا إلى الحتمية الشاملة التي هي الحقيقة المطلقة وبالتالي هدف العلم النهائي"[101] قال العالم الفيلسوف الفرنسي بيير سيمون دي لابلاس Pierre Simon de Laplace في القرن التاسع عشر: "من الممكن أن نعتبر حالة الكون الآن نتيجة لماضيه، وهي السبب في مستقبله"[102]

"وحينما اقترح إسحاق نيوتن قوانينه للميكانيكا في القرن ١٧ بُنيت الحتمية عليها تلقائيا، فعند التعامل مع النظام الشمسي وبمعرفة قوانين الحركة يمكن تحديد سرعات كواكبه وأقمارها وأوضاعها في أي وقت مستقبلي، والتنبؤ بمواعيد الخسوف والكسوف، والوقوف عكسياً على متى حدث أي حدث في الماضي، وكل هذا وفقا لمنظومة السبب والنتيجة، وعليه فإن الماضي والمستقبل "مُحتَوَيَانِ" في الحاضر، ويكون الكون كله "آلة هائلة" أو

---

[100] فلسفة العلم في القرن العشرين د. يمنى طريف الخولي ص ١٢،

[101] فلسفة العلم في القرن العشرين د. يمنى طريف الخولي ص ١٠٠.

[102] فيزياء الكوانتم حقيقة أم خيال، تأليف أليستر راي، ترجمة أسامة عباس، إصدار مركز براهين، ص ٢٦.

"ساعة ضخمة منتظمة الإيقاع". **وحين لا نستطيع التنبؤ** بنتيجة التجربة العملية فإن هذا يرجع إلى **محدودية معلوماتنا عن العالم وحقيقة الأشياء**.

وبقيت هذه الرؤية الحتمية الميكانيكية مسيطرة على الغرب حتى برزت فيزياء الكم في بدايات القرن العشرين، وجرى الفصل بين السببية والحتمية، بل شكك البعض في السببية نفسها، وهذا موضوع طويل تناولناه بالتفصيل في كتابنا: (نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىْ وُجُوْدِ الْخَالِقِ). وبرزت ثورة اللاحتمية في العلوم الإنسانية، وجدير بالذكر أن السبب في اضطراب الموقف الفكري في الغرب من قضية النسبية والحتمية يرجع إلى غرض نظرية المعرفة لديهم، والذي وجَّهَ بوصلة التفكير، فقد حددوا للعلم التجريبي أطراً أربعة هي القدرة على القياس والتنبؤ والتحكم والسيطرة، وقد وقع العلم التجريبي أسيراً للعلمانية، وهذه قصة طويلة قصصناها في كتابنا "نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال"، وما يهمنا هنا هو أن القدرة على القياس في عالم الكم[١٠٣] اصطدم بصخرة الطبيعة الكمومية للأشياء في المقاس ما تحت الذري، وظهر مبدأ عدم اليقين، الذي ملخصه أنك حتى تتنبأ بموضع جسيم أو سرعته (الأدق: اندفاعه Momentum) في المستقبل عليك أن تقيس مكانه واندفاعه الآن بدقة، وذلك بتسليط ضوء على الجسيم، إلا أنك لن تستطيع تحديد موضعه بدقة أكبر من المسافة بين ذروات موجات الضوء، وهكذا كلما قصرت طول موجات الضوء المستعمل للقياس زادت دقة القياس، إلا أن الضوء المستعمل للقياس له كمَّات هو أيضا، وهذه الكمَّات ستؤثر على الجسيم الذي تقيسه، فتغير سرعته أو موضعه، وكلما قصرت طول موجة الضوء المستعمل للقياس زادت طاقته التي تصاحبها كماته، وهذا سيزيد التأثير على الجسيم المقيس، فهنا يأتي عدم اليقين، فعدم اليقين عن موضع الجسيم، مضروبا في عدم اليقين في اندفاعه، مضروبا في كتلته لا يمكن أن يكون أصغر من قدر معين يسمى ثابت بلانك، **ومبدأ اللاحتمية أو عدم اليقين كما يقول ستيفن هاوكينج في موجز تاريخ الزمان "أعطى الإشارة لنهاية حلم لابلاس بنظرية علمية، أو نموذج للكون يكون حتمياً بالكلية**[١٠٤]**، ومن المؤكد أن المرء لا يستطيع أن يتنبأ بأحداث المستقبل بالضبط ما دام لا يستطيع حتى أن يقيس الوضع الحالي للكون بدقة**"، إذن، فمشكلة نفي الحتمية ناتجة عن **عدم قدرة الإنسان على القياس**، لا على أن طبيعة الأحداث السببية يمكن أن تكون لاحتمية، وفي الواقع ما يجب نفيه هو **حتمية التنبؤ، لا حتمية وقوع الحدث**![١٠٥] وكما أسلفت، فهذا نقاش طويل حبرنا فيه

---

[١٠٣] ميكانيكا الكم: مجموعة من النظريات الفيزيائية ظهرت في القرن العشرين، وذلك لتفسير الظواهر على مستوى الذرة والجسيمات دون الذرية، ولا تنطبق على الجسيمات التي مقياسها أكبر من $١٠^{-٩}$ متر، أي أكبر من نانو متر، ودراسة الخصائص الموجية والجسيمية لتلك الجسيمات بالغة الصغر.

[١٠٤] يعني أن ستيفن هاوكنج لا ينفي الحتمية تماما، وإنما يعني أن بعض نتائج العلم حتمي، وبعضها لا حتمي.

[١٠٥] وهنالك معضلة أن التنبؤ يحتاج إلى معطيات وفهم دقيق للواقع، أو للحالة الأولى للأشياء قبل حصول التأثير السببي، وفهم دقيق لكيفية جريان العملية السببية وتأثيرها، ومن ثم الخروج بتنبؤ دقيق عن النتيجة! فدقة معرفة البشر بالبيانات الابتدائية محدودة دوما، خصوصا في ظل عدم استقرار تلك المعطيات، وأثر أي تغير في البيانات الأولية على النتائج النهائية، فمثلا حين تريد أن تضرب كرتي بلياردو بعضهما ببعض بطريقة غير مباشرة، فتصوب الكرة البيضاء على الطاولة بزوايا معينة تحسبها كي ينتج عن ذلك أن تتحرك في مسارات معينة تنتهي بضرب الكرة الأخرى بزاوية معينة فتسقط في الجيب، تجد أن أي تغير في المعطيات الأولى، له أثر كبير على النتيجة النهائية، فعملية الارتداد عن حواف الطاولة تعتمد على جودة تنضيدها، وتعتمد على قوة الضربة والزاوية التي ضربت بها، وطريقة حركة الكرة كدورانها مثلا، وما إلى ذلك، وكذلك لو كانت الضربة موجهة لكرتين معا، فقد تضرب إحداهما قبل الأخرى بأجزاء بسيطة من الثانية، ويحدث هذا الاصطدام تغييرات معينة تغير زاوية الاصطدام بالثانية، أو طريقة

صفحات في كتابنا: (نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَليْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىْ وُجُوْدِ الْخَالِقِ)، وهذه الفكرة هي التي نريد إيصالها في هذا الموضوع حول السببية والحتمية، **وهي أن سبب تحول الغرب عن الحتمية في عالم الكم هو تأطيرهم لهدف نظرية المعرفة بالقيام بالقياس والتنبؤ، فإذ لم يستطيعوا القياس، فلن يستطيعوا التنبؤ، وبالتالي تصوروا أن هذا يعني أن التصرف لا حتمي، فهذا سؤال يرجع لنظرية المعرفة لا لطبيعة الأشياء.**

وقبل أن نلج إلى سؤالنا المتعلق بالحتمية وحرية الإرادة، نريد لفت النظر إلى سؤال مهم عن دور الله تعالى في تدبير الكون! هل خلق الله تعالى الكون على شاكلة قطار ووضعه على السكة فأخذ الكون يجري وحده وفقا للقوانين والنواميس؟

قال الإمام تقي الدين النبهاني: "والله هو الذي خلق نظام الوجود، وجعلهُ **منظِّماً للوجود**، وجعل الوجود يسير بحسبه ولا يملك التخلف عنه"[١٠٦]، إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون ويضعه على سكة مثل القطار، ويتركه من دون تدخل، كما يفهم أصحاب المدارس الخَلْقِيّة الغربية، مثل مدرسة الخلقيين الطبيعيين، الذين يؤمنون بأن الله تعالى خلق الكون ووضع فيه هذه السنن والنواميس لتعمل بشكل آلي لتحقيق الغاية، إذ إننا معاشر المسلمين نؤمن أن الله تعالى يقدّر ويُسيِّر، ويدبر الكون، ويخرق النواميس، ويسبب الأسباب، كما أن من طبيعة معاش الإنسان أنه سيخوض غمرات الحياة ليسعى وراء رزق، وأن تحوط به سهام المنون من كل جانب، وأن يتدافع الناس، ويتظالموا، فكان لا بد من أن تعضد السنن المجتمعية التاريخية سننٌ أخرى هي السنن الإلهية التي تغير في طبيعة طريقة عمل السنن المجتمعية، فمثلا تقتضي السنن المجتمعية أن ينتصر القوي على الضعيف، فتأتي السنن الإلهية لتحدد مجموعة من الأسباب أو الشروط التي تفضي إلى انتصار الحق على الباطل، بغض النظر عن عوامل الضعف والقوة، أو تحجب رزقا عن إنسان سعى سعيه التام وراءه، فلا تجعل الرزق مرتبطا بالنظام السببي ارتباطا آليا على شاكلة السبب والنتيجة، بل على أساس نظام الحالة والشرط، وتقدير الله تعالى وإرادته، أو تعطي من لم يستطع تحقيق الأسباب على وجهها -إذ يتوكل على الله- طاقةً قادرة على بلوغ الغايات، يصعب تصور بلوغها في ظل النظام السببي نفسه عادة، لكنه يبلغه بعون الله له وتسخيره للنظام السببي، باختصار: أمرنا الله بالعمل، وباتخاذ أسبابه وفقا لنظام الوجود، ونسب فعل النصر والاستخلاف والتمكين وإبدال الخوف أمنا إلى ذاته العلية، فهو الفاعل على الحقيقة للنصر والتمكين والاستخلاف والتأمين، وهو المباشر لذلك الفعل حقيقة لا مجازا، وفعله غير منفعل ولا ناتج عن قيامنا نحن بالعمل الذي كلفنا به، أي ليس بمسبب عن أخذنا نحن بالأسباب، إذ إن الله تعالى لا يخضع لنظام الوجود الذي خلقه، ولا للقوانين التي أقام الكون بناء عليها (ومنها قانون السببية)، وعلى هذا الأساس، نفهم معنى الخلق والرزق والإحياء والإماتة والبعث والهدى والضلال، والمهم التنبه له: هو أن نتيجة العمل الذي نقوم به، وهي الاستخلاف والتمكين والأمن

---

الاصطدام بها، وهكذا، ومع ذلك، فإن هذا لا يؤثر على التفاعل الحتمي في سلوك الكرات وجريانها وفقا لقوانين منضبطة في كل الأحوال، فالكرة التي ضربت ضربة غير مباشرة حين تتوجه الكرة البيضاء إليها بزاوية معينة وبقوة معينة ستدفعها للتحرك وفقا للقوانين الطبيعية بشكل حتمي، ولكن الذي سيتغير هو **حتمية قدرتنا على التنبؤ**، وهكذا، **ففرق بين قدرتنا على حتمية التنبؤ، والتفاعل السببي و إنتاجه للمُسَبَّبِ حتما** وفقا لقوانين كونية منضبطة.

[١٠٦] الشخصية الإسلامية، تقي الدين النبهاني، الجزء الأول باب: القضاء والقدر.

والنصر، متوقفة على فعل الله، لا على فعلنا نحن، فنحن مطالبون بالعمل، لا مؤاخذون بتحقق نتائجه عاجلا أو بعد حين!

لكننا نمتلك وعدا من الله بأنه سيكافؤ على نتيجة العمل بإنفاذ وعده، متى شاء،

قام البروفسور مايكل دينتون، Michael J. Denton بتأليف كتاب اشتمل على بحث قيم بذل فيه جهوداً خارقة أسماه: (**قدر الطبيعة**: كيف تُظهر قوانين البيولوجيا (علم الحياة) وجود هدف وغاية في الكون)[١٠٧].

ويجدر أن نقول إن البروفسور يؤمن بأن الله تعالى خلق الكون ووضع فيه هذه السنن والنواميس لتعمل بشكل آلي لتحقيق الغاية، فهذا التصور قام نتيجة مشاهدات البروفسور لحقائق غائية قامت النواميس الكونية وبشكل دقيق بالاجتماع والتوافق لتحقق قيام الحياة في ظل شروط دقيقة تخرج عن نطاق الصدفة إلى نطاق التصميم والغائية. وقامت نظريته على أساس أن القوانين أفضت إلى وجود الحياة، بالشكل الدقيق الذي نعرفه، وأنها منعت قيام حيوات على شاكلة مخالفة، لأن تلك الشاكلة لا تتوافق مع هذه القوانين، أي إن القوانين لا تسمح بسير الأحداث سيراً يفضي إلى غير ما أفضت إليه، وهو في هذا كله ينطلق من منطلق أن الخالق وضع القاطرة على السكة وتركها تسير دون تدخل منه. فهذه المدرسة الأولى (الخلقيون الطبيعيون) تضع في الحسبان أن القوانين تفضي إلى غاية وتصميم، لكن من دون تدخل الخالق بعد أن وضع التصميم الأساس[١٠٨].

ما يهمنا هنا هو السؤال الذي ثار في الغرب وملخصه: إن سلوك الأشياء الحتمي نتيجة خضوعها للسببية، ونتيجة خضوعها للقوانين الكونية يسلب عنها حرية الإرادة، وبتعبير آخر **يجعل كتاب القدر مفتوحاً**، فيستطيع المستقرئ للسلوك الحتمي للأشياء حين تفاعلها أن يتنبأ بما سيحدث، فيتنبأ بموعد ولادة الهلال بدقة، ويتنبأ بشيء من الدقة بأحوال الطقس وتقلباته، (بمقدار ما لديه من المعلومات اللازمة للتنبؤ)، والجواب عليه هو أنه صحيح، فكتاب القدر لا يعني "القضاء"، بل يعني الخصائص التي أودعها الله في الأشياء والسنن في المجتمعات، لذلك يمكن أن يستقرئه الإنسان بدقة ويتفاعل معه، وليس في خصائص الأشياء ولا سنن المجتمعات ما يجبر الإنسان -حين تفاعله معها- على سلوك معين يحمله على الخروج عن إرادته الحرة، فهو لديه القدر فاعل وليس بمنفعل في الدائرة التي يسيطر عليها، قادر على التغيير وليس ريشة في مهب الريح ولا سنا في الدولاب،

---

[107] Michael J. Denton. 1998. Nature's Destiny: How the Laws of Biology Reveal Purpose in the Universe. New York: xix+454 pages

[١٠٨] أما المدرسة الثانية، فهي مدرسة الخلقيين الخاصة، نظريتهم أن المخلوقات ليست إلا نتاج عمليات طبيعية، تستطيع أن تضع اليد على أصلها وتصميمها وفقا للقوانين الطبيعية لكن ليس بناء على تصميم من الخالق، أو بتدخل مباشر منه في هذه العمليات، بل على النقيض من المدرسة الأولى، مدرسة الخلقيين الطبيعيين، فإنهم يرون أن قرينة أو دليل التكامل والاستمرارية بين المخلوقات التي في الطبيعة، هو نتاج طبيعي، لا يحتاج معه إلى تدخل خالق يصمم ذلك، بل يتشكل بشكل طبيعي ذاتي خال من التصميم المسبق. البروفسور مايكل دينتون Michael Denton، كان له الأثر الأكبر على نشوء مدرسة الخلقيين الجدد، ونشوء حركة التصميم الذكي The intelligent design movement التي كان من أساطينها: البروفسور فيليب جونسون Phillip E. Johnso، ومحور أبحاث هذه الحركة هو أن التفسير الأدق لظواهر معينة في الكون وفي الكائنات الحية، هو التصميم الذكي، وليس عبر احتمالات عمليات تطور غير متحكم بها، مثل "الانتقاء الطبيعي" التي هي قوام الدارونية، وهي حركة خرجت من رحم حركات نصرانية منتشرة بكثرة، تهدف إلى رفض المادية والالحاد.

## خطة الوجود: هل الإنسان مسلوب الإرادة؟ أين يقع سؤال حريةِ الإرادةِ في عالمٍ سببيٍ حتميٍ؟

سنَّ اللهُ للناس سنناً (مجتمعية (تاريخية / إنسانية))، وطلب من الناس معرفتها أو اكتشافها، وكان من طبيعة هذه السنن أنها ذات طابع انساني؛ لأنها لا تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي، ولا تعطل فيه إرادته وحرية اختياره، وإنما تؤكد أكثر فأكثر على مسؤوليته على الساحة التاريخية والمجتمعية، وزوّدَ الإنسانَ بأدوات المعرفة: الحواس، التي تنقل له صورة الواقع ليفكر فيه ويفسره، وزوّد الإنسان بالدماغ القادر على التفكير، وسخر ما في الأرض للإنسان يستطيع أن يتفاعل مع خواص الأشياء التي قدرها فيها، فتفاعل الإنسان مع غيره لا يتم على شاكلة السنن الكونية بين المواد والقوى والطاقات، بل يظهر أثر حرية الإرادة في صورة القدرة على الاختيار والتفاعل المسؤول، وذلك كي يتسنى للإنسان القيام بواجب الاستخلاف في الأرض.

## "فلسفة الإسلام في تصور الحياة" (خطة الوجود)

لقد لاحظنا الفرق بين السنن الكونية وقوانينها الصارمة وتفاعل القوى والطاقات مع خصائص المادة، والذي ينتج عنه المسبب بشكل حتمي ومباشر، وبين الأنظمة السببية المجتمعية، إذ إن نظام الاستخلاف في الأرض اقتضى أن يستخلفَ اللهُ الإنسانَ العاقلَ المكلَّفَ المسؤولَ المحاسَبَ، ذا الإرادة الحرة والقدرة على الاختيار والتخطيط والتنفيذ، وسخر الله تعالى للإنسان كل شيء، ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان ٢٠]، لتمكينه من أسباب ما يلزم لاستخلافه في الأرض، وفق معادلة بشرية يوضحها القرآن، سنحاول اختصار "فلسفة الإسلام في تصور الحياة" (أي خطة الوجود)، وهذه المعادلة فيها مجموعة من العوامل التي تؤدي دوراً اساسياً في تصور الحياة:

أولا: العقل، والعقل آلة الإنسان لمعرفة خالقه وإدراك سر وجوده في الحياة، وللعلم وفض كثيرٍ من مغاليق هذا الوجود وتفسيرها بالربط الذكي، والفهم والإدراك، وإنشاء الأفكار، والبحث والاستنباط والاستقراء، والعقلُ مناطُ التكليفِ. وحيث كان للعقل هذه المكانة الهائلة في "خطة الوجود"، وفي امتياز الإنسان العاقل عن سائر المخلوقات والاتكال على العقل في إدراك الصلة بالخالق؛ فلا شك أنه آلة بالغة الأهمية، **<u>بالغة القدرة</u>**. ويؤكد القرآن على التحالف بين الايمان والحق والعقل. ومن أسلوب القرآن أنه يطرح الأسئلة على القارئ بطريقة نقدية ليجبره على إعادة التفكير في معتقداته، لأن الوصول إلى الحق يستلزم تحرير العقول من الموروثات، فالتعلم يؤدي دورا أساسيا في تطورنا وتزكيتنا كبشر. يركز الإسلام بقوة على ترسيخ الإيمان من خلال الأدلة العقلانية القطعية التي لا لبس فيها، متجاوزاً مجرد الخضوع. ويحرم الإسلام التقليد في العقيدة، بما في ذلك تقليد اعتقاد الآباء أو المجتمع الأوسع. بدلا من ذلك، يدعو الإسلام إلى الإيمان الذي يتم زراعته من خلال البحث الدقيق والاستجواب النقدي والتفكير المستنير. يؤكد هذا النهج على أهمية المشاركة الفكرية الفردية في رحلة الإيمان، مما يضمن أن الإيمان ليس موروثا فحسب، بل يتم فحصه بدقة وتأكيده شخصيا. تؤدي هذه المنهجية دورا حاسما في تنمية أساس قوي من الإيمان والتحفيز والثقة في المبادئ الأساسية التي توجه الفرد طوال رحلة حياته. وهذا ضروري بشكل خاص عند مواجهة الشدائد والابتلاءات والمحن. ومن خلال تبني هذا النهج، يكون المسلم مستعدا جيداً، ويتعزز لديه الشعور بالرضا بالاعتماد على الله، والتوكل عليه، فيستمد القوة منه لتجاوز أي واقع صعب. وهذا

يضمن مرونة متجذرة بعمق في الإيمان، وثقةً لا تتزعزع في الحكمة الإلهية، مما يمكّن الفرد من التنقل وسط تعقيدات الحياة بنعمة وثبات، وصبر ورضا.

ثانيا: التكليف، والمنهج، والمسؤولية، والمحاسبة، والواجبات، والحقوق: وقد أقام الله تعالى نظام الوجود على العدل ومنع الظلم، وإعطاء كل ذي حق حقه، واستخلف الإنسان وارتضى له أن يُصلحَ في الأرضِ ولا يُفسدَ فيها، فرداً أو جماعة، ولم يترك تنظيم الحقوق وإقامة العدل ومنع الظلم، وضبط السلوك الذي يفضي للإصلاح لا الإفساد، وفض الخصومات والنزاعات دون تشريعٍ وتنظيمٍ يضبطه وينظمه، ويقيم الحجة على الخلائق، ويحاسبهم على أساسه، لم يتركه للبشر وأهوائهم وتسلط قويهم على ضعيفهم، وتخبطهم في معرفة التنظيم الصحيح الذي يصلح أحوالهم ويقيم نظامهم ويمنع فسادهم. فتشريع الله هو الضامن لتحقيق العدل وإقامة ميزان القسط في الأرض، ويتحقق ذلك التنظيم على مستوى الجماعة من خلال دولة وأنظمة الحياة المختلفة، وقد أكمَلَ اللهُ الدينَ، وأتمَّ به النعمةَ على المسلمين، وأيأسَ منه الكافرينَ، والمسؤولية مفهوم بالغ الأهمية، يتضمن مسؤولية الإنسان عن أفعاله، ومسؤوليته عن نفسه وعن غيره، ومسؤوليته وواجباته تجاه الآخرين بحمل الدعوة لهم والحرص على صلاحهم، والمحافظة على القيم الإسلامية التي تسود مجتمعهم، كما وتتضمن المسؤولية معنى المساءلة عن الأفعال والحقوق والواجبات.

ثالثا: العبودية والطاعة، والعدل والإحسان، والمراقبة والتقوى، والمحبة والخوف والرجاء، "وحيث إن الوجود كله من السماوات والأرض وما سواهما لله تعالى، فهو الأوْلى أن يُعبَدَ، فيُتَذلَّلَ إليه، ويُخضع له، ويُنقاد لأمره، فيُطاعَ فلا يُعْصَى، وأوّل قمةٍ للعبادةِ أن تشهد بأن لا إله إلا الله، وحيثية ألوهيته الأولى أن له ملك السمٰوات والأرض[109]"؛ "يدبر أمر عباده؛ يأمر وينهى، ويرسل الرسل وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، يرى ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، منزه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقه إلا بعلمه، ولا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع[110]" وما دام إلهاً فلا بد أن يطاع، ولا يطاع إلا بمنهج، ولا منهج إلا بأمرٍ ونهيٍ، أي بافعل ولا تفعل، ولقد حصر الله تعالى حقَّ التشريع بِهِ وحدهُ، واختص بِهِ ذاتَهُ العَلِيَّةَ، فأنزله كتاباً وسنةً أوحى بهما إلى نَبِيّهِ ﷺ، ومنع غيره منه (وهو ما اصطُلح عليه بمسمى الحاكمية[111])، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ﴾ [٥٧ الأنعام، ٤٠ يوسف، ٦٧ يوسف]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى ١٠]،

---

[109] تفسير الشعراوي.

[110] ابن قيم الجوزية، الفوائد

[111] الحاكمية من خصائص الربوبية باختصاص الله بالتشريع، ومن خصائص الألوهية بإفراده تعالى بالعبودية والتقديس بالتزام ما شَرَعَ وعدم اتخاذ غيره أرباباً يَشرَعونَ من الدينِ ما لم يأذنْ به اللهُ، أو يغيروا أحكامه، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف ٤٠]، جمع في هذه الآية بين حق الطاعة وحق العبادة، فحق على العباد أن يطيعوا الله فيما أمر، وأن يعبدوه، فالربوبية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية ومن يحكم بغير ما أنزل الله فإنه يرفض ربوبية الله وخصائصها في جانب، ويدّعي لنفسه هو حق الربوبية وخصائصها في جانب آخر.

والحكم في اللغة هو المنع ومنه قيل للقضاء حكمٌ لأنه يمنع من غير المقضيّ، وعليه فلله وحده الحق في منع المحكومين من أن يتصرفوا إلا وفق شريعته[١١٢]، فالتشريع يقيم معنى العبودية لله!

فالعبودية لله تحرر الإنسان من أن يستعبده غيره من البشر، بتشريعاتهم، وقوانينهم، وأحيط مفهوم العبودية بمفاهيم **المحبة والخوف والرجاء**، فالله تعالى ذو الهيبة والعظمة والجلال، فلا بد للأعناق من أن تخضع لعظمته، وللنفوس من أن تنكسر أمام هيبته، وتتذلل لعزته، وتستكين أمام كبريائه، ولا بد للقلوب من أن تخشع له، وللجوارح من أن تستقيم على أمره. والله تعالى ذو الكمال المطلق والجمال الكامل، والحكمة البالغة في أفعاله وتشريعاته، وتصرفه في ملكوته، فلا يملك العبد تجاه ذلك إلا أن يُقبِل عليه بحبٍّ يكون له طبْعاً لا تَكلُّفاً، والله تعالى أرحم الراحمين، البَرُّ اللطيف، فتتجلى عبودية العبد لربه ومولاه بانبعاث الرجاء والأمل في كل أرجاء نفسه، طمعاً في فضله ورغبة في تفضله، ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف ٥٦]، وبإحسان الظن بربه. فهو الكافي، وهو الرزاق، وهو المحيي، وهو المميت، وهو الرب، كاشف الضر، بيده الخير، فيفوض العبد أمره كله إلى ربه، راضياً بقضائه، واثقاً بحكمته، يطمع في أن يتولاه ربه.

ويتدبر المرءُ ما أحاط الله به أحكام الشريعة من جعلها حدوداً لله، بيَّنها للناس، وأمَرَ بإقامتها، ونهى عن الاعتداء عليها، أو تجاوزها، وجعلها آيات الله، وحذر من اتخاذها هزواً، فهي من الكتاب والحكمة، وحذَّر من مخالفة الأمر ومعصيته، وتوعد على ذلك بالعقوبة بالعذاب الأليم، وأمر بالطاعة المطلقة غير المقيدة للأمر والنهي، فإن لم تترجم تلك الطاعة إلى عمل، ملؤه الامتثال والتنفيذ، والتسليم التام بالحكم، حتى تخلو النفس من كل أثر للحرج من الحكم والقضاء، عدَّ الإيمان زعما لا حقيقة له، وجعل طاعة الرسول ﷺ طاعةً لله، واتباعَه شرطاً لمحبة الله، وأمر بالتأسي بأفعاله، وبالرد إليه وإلى كتابه، والأخذ بكل ما يأتي فيهما، وتحكيمهما في كل ما يشجر من أمر، وجعلت قضاء الرسول ﷺ في أي أمر كقضاء الله تعالى **لا تخيير في وجوب الأخذ به**، فقد أحيطت الأوامر والنواهي بسياج العدل، والانتقام والعقوبة، والسخط لتنقمع النفوس الأمارة بالسوء، ولتستعين بذلك على كبح جماح شهواتها، ولهوها ولعبها، فتنقبض أَعِنَّةُ رعوناتها عن أن تقتحم سياج حدود الله، امتثالا للطلب، واجتنابا للنهي، خوفاً وخشيةً وحذراً، طاعة وامتثالا وأملاً، ورغبةً ورهبةً ومحبةً وتقرُّباً، وهذه كلها من تجليات العبودية لله.

والطاعة والتقرب والتقوى والمراقبة سياج يقرب المؤمن من ربه، ويباعده عن المعاصي، فهو يعلم أن ربه سميع بصير عليم خبير بذات الصدور، فلا يكتفي العبد بالامتثال بالقول والفعل، بل في خطرات النفس، وفي أعماق النوايا والسرائر، يزن كل ذلك بميزان الشرع، فلا يبقي في أعماق نفسه ولا في ظاهر أمره ما يستحيي منه من الله، أو ما يخالف فيه عن أمره!

والإحسان يرقى به في معالي الارتقاء نحو أعلى الدرجات في صقل شخصيته، وإدراك معنى إنسانيته، والمحبة والخوف والرجاء يُبلِّغه سموَّ القرب من الله. "وجماع ذلك أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات إلهيته تارة،

[١١٢] من هنا فإن تشريع العبيد بعضهم لبعض فيه اتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله!

وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهودُ صفاتِ الإلهيةِ: المحبةَ الخاصةَ الخالصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته، والمنافسة في قربه، والتودد إليه بطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده همه دون ما سواه. ويوجب له شهود صفات الربوبية: التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له، وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في إلهيته، وإلهيته في ربوبيته، وحمده في ملكه، وعزّه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبرّه ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه"[113].

رابعا: الاجتماع، والتدافع، وحاجة الإنسان إلى الاجتماع والتعاون على قضاء المصالح وتنظيم رعايتها يتطلب اجتماعهم، وسينتج عن الاجتماع بالضرورة أن يتعارف الناس، وأن يتدافعوا، ومن فوائد التدافع أن يحصل التوازن والاستقرار والتعارف، وألا تفسد الأرض، إذ إن انتصار الحق على الباطل حتمي، والأرض مسرح لتدافع الحق مع الباطل، ومن التدافع بين البشر: تصادم الحضارات، وينتج عنه بروز نزعات السيطرة وتنتج النزاعات والحروب، والعدل والظلم، ويريد الإسلام أن يخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأن يحقق الاستخلاف والتمكين والأمن والعبادة.

خامساً: والإيجابية، والابتلاء، (الابتلاء بالفتنة، بالخير وبالشر، وبالمحن والشدائد، والدنيا دار اختبار ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك ٢] وهو اختبارٌ في كتاب مفتوح لا مغاليق فيه، وابتلاء التمحيص (للتمييز)، والعقوبة على المعاصي)، وعلى عكس كل الديانات يؤكد القرآن على عدم سلبية الابتلاء والمعاناة، فهما ضروريان لتزكية الإنسان ولصيرورته، وقد صقل الإسلام معان إيجابية راقية **للصبر والقدر والرضا بالقضاء وللتوكل وللنفع والضر، والموت والحياة،**

فالصبر كمفهوم متعلق بالأعمال يتمثل في حمل النفس على القيام بالطاعات بأقصى ما تطيق، وبحبس النفس عن المعاصي بأبعد ما تستطيع البعد، فيكون الصبر بذا حمل النفس على التزام الحكم الشرعي بأحسن ما يكون الالتزام. ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [97 النحل]، وروى مسلم في صحيحه: «ما نَهَيْتُكُمْ عنه فَاجْتَنِبُوهُ، وَما أَمَرْتُكُمْ به فَافْعَلُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ»، وقال الله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا** أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ **وَلاَ تَطْغَوْاْ** إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١٢ هود]، فلا تخيير في التزام أمر الله تعالى، أي إن ضد الاستقامة الطغيان، أي تجاوز الأمر وعدم الالتزام به، فإن اشتد في الطغيان وأسرف فيه دخل في وصف الطاغوت، أي أعظم الطغيان، الذي أمرنا الله تعالى بالكفر به، ونهانا عن الاحتكام إليه، وجاء سفيان بن عبد الله الثقفي يوما فقال: يا رسول الله: حدثني بأمر أعتصم به، قال ﷺ: «قل آمنت بالله، ثم استقم»، رواه مسلم، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف ١٣]، وَقَالَ اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّه عَنْهُمَا فِي قَوْل اللَّه تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: مَا نَزَلَتْ عَلَى رَسُول اللَّه

[113] ابن قيم الجوزية، الفوائد

ﷺ في جَمِيعِ الْقُرْآنِ آيَة أَشَدّ وَلَا أَشَقُّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَة وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ حِين قَالُوا: قَدْ أَسْرَعَ إِلَيْك الشَّيْبُ فَقَالَ: «شَيَّبَتْنِي هُود وَأَخَوَاتهَا»؛ وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: «اِسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا».

وأما الصبر كمفهوم متعلق بالاعتقاد، فيكون بتسليم مقاليد تصريف الأمور في الكون إلى الخالق، فيما يقع في دائرة القضاء والقدر، فلا تغير صروف الدهر من حسن صلة المسلم بربه، فلا يجزع، ولا تغيره الابتلاءات والمحن، بل تشحذ نفسه بعزيمة ليمضي في الدنيا عالما أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فيبقى المسلم بصبره شامة بين الخلائق يرقى دوما في معالي العلا. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [31 محمد]، ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [17 لقمان].

ومن الإيجابية أن الإسلام رفض أن يكون فلسفة جامدة، وإنما كان عقيدة حية مؤثرة، تصوغ الحياة على مزاجها الإيجابي، يسير فيه المؤمن مغمورا بسعادة الرضا بالقرب من الله وطاعته، ويحس على الحقيقة أن كل ما أصابه هو مما كتبه الله له لا عليه، وأن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وعلامة على محبة الله له، يبتليه ليرفع درجاته، وليحط عن سيئاته، وإن مع العسر يسرا، وإن الله تعالى بقدرته قادر على أن يسخر له من الأسباب ما لا يحسنه بقدراته البشرية، إذا ما أحسن التوكل عليه، وأن التوفيق من عند الله، يستنهض الإسلام عزيمته ليقوم بمعالي الأمور، وينتهي عن سفاسفها، دائم السعي للكمال وإحسان العمل ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر ٣٢]، باب التوبة مفتوح، فلا يأس حتى مع الإسراف في المعاصي.

سادساً: والاختيار (في ظل أن الإنسان كائن أخلاقي، لديه نوازع للخير وأخرى للشر ﴿وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وقدرة على الاختيار بين الإيمان أو الكفر، بين الهدى أو الضلال، بين الاتباع أو المعصية، بين الإصلاح أو الإفساد، بين الاختيار أن يكون شاكراً أو كفوراً ﴿إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إمّا شاكِرًا وإمّا كَفُورًا﴾)، فقد أعطي الإنسان مطلق حرية الإرادة في اختيار معتقداته وأفعاله، وتمكينه من خيار اتباع المنهج الرباني أو الإعراض عنه، مع تحميله المسئولية الكاملة على أفكاره وأفعاله وقراراته، وما ينتج عنها من ظلم لنفسه أو لغيره، ومع المحاسبة الدقيقة على أفكاره وسلوكه وعلاقاته، والثواب والعقاب، وإنصاف المظلوم من الظالم في الدنيا والآخرة.

سابعاً: الدنيا والآخرة، والثواب والعقاب، والجنة والنار، فالآخرة خير لك من الأولى، والدنيا ممر للآخرة، والدنيا زائلة، والآخرة باقية، يحاسب الإنسان على أعماله التي قام بها في الدنيا، ويرى جزاء مثقال الذر من الخير والشر، فيحاسب نفسه قبل أن يُحاسبه الله، ويمتنع عن المساس بحقوق الآخرين لعلمه بأنه سيضطر للتكفير عنها وأنها مبنية على المشاحة لا المسامحة، فلا تفريط.

ثامناً: تحقيق الغاية من الوجود والهدف من الحياة. فلم يخلق اللهُ الكونَ عبثاً، ولم يترك الإنسان سدى بلا أمر ونهي، "وبالبحث في القرآن نجد أن أقصى ما سيحققه البشر في الدنيا والآخرة هو علاقة الحب مع الله، ونجد في القرآن ذكر رحمة الله وكرمه وتوفيقه وعطاءه، وسائر صفات الله، يعطيها الله لكل البشر المقبلين عليه بلا

موانع، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه باعاً، وأبوابه مشرعة، ويده مبسوطة، وعفوه قريب، ويبسط رزقه حتى للكافر!

والحب هو علاقة بين اثنين، أَمَا وقد غمرَنا اللهُ برحمته ومغفرته وعطائه وتوفيقه ورعايته، فإذا لم نقم بمقتضيات المحبة بعد هذا العطاء بأداء حق الله، فكأنما نكون رفضنا عطاءه، ولم نحبه على الحقيقة، والنتيجة أننا لم نتمكن من الشعور بعلاقة الحب مع الله، لأننا لم نفتح قلوبنا له، وحب الله ينتظرنا ولن نحصل على محبة الله ما لم نَسْعَ لذلك، فلا ينمو هذا الحب أبداً. وكفر النعمة يحدث من خلال الرفض والتجاهل والتنكر للنعمة التي يعطيها الله لنا. من ناحية أخرى فالقرآن يؤكد أن المؤمنين المتبعين سيتمتعون بهذه العلاقة من الحبّ مع الله، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران ٣١] والله يؤكد أنه يحب صفاتٍ معينةً في البشر كالتقوى والإحسان، والرحمة، والكرم، والصبر.

وبهذا يتضح من القرآن بشكل جلي بأن الهدف من الحياة، أن الله استخلف الإنسان في الأرض، لا ليفسد فيها ولا ليسفك الدماء، بل أراد مجموعة من البشر أنشأت بإرادتها الحرة، وبتفكيرها المستنير، وبقدرتها على التفاعل مع ما سخره الله لها، علاقةً ساميةً من معرفة الله، ومن الحب مع الله، وهؤلاء سيستمتعون بسعادة في علاقتهم مع البشر وفي علاقتهم مع الله، وهي أقصى المتع التي ستبهجهم في الدنيا وكذلك في الآخرة، عندما تنتهي كل المشوشات للأبد، لكن يلح سؤال مهم وهو أنه كان بالإمكان أن يخلقنا الله في الجنة، ويبرمجنا على حبه، فلماذا كان لا بد من الإيمان والابتلاء والصبر والاختبار والتكليف طريقاً للجنة؟

للإجابة عن السؤال، يجب أن نجد الرابط بين المؤمنين وبين الله. إن ما يطلبه القرآن من المؤمنين هو صفات معينة يحبها الله فيهم، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم ٩٦]، وإذا ما حصرنا قائمة الأعمال الصالحة والصفات الحسنة، كالرحمة والرأفة والمسامحة والكرم والعلم والحكمة والحق وحب الآخرين؛ وسألنا أنفسنا: ما الذي يخبرنا القرآن عن الطرف الثاني في العلاقة (الله)؟ الله هو أحدٌ صمدٌ، ليس كمثله شيء، غير محدود بالزمان ولا بالمكان، حيٌ لا يموت، الخ، لذلك فليس هناك وجه مقارنة ولا تكافؤ بين الله والمخلوقات، ويصعب حينها الوصول للرابط الأساس بيننا وبين الله، فأين هي الصفات الجامعة في العلاقة بين الإنسان وبين الله تعالى؟ ولو تأملت القرآن، فستجد الآيات تصف الله بوصف ثنائي: بأنه رحمن رحيم، وأنه غفور شكور، وأنه عزيز حكيم، وأنه حليم غفور، وتستطيع معرفة العشرات من صفات الله في القرآن وهذه هي الاسماء الحسنى، فإذا ما قابلتها بصفات المؤمنين التي أرادها منهم، اذن ينبغي علينا التحلي بهذه الصفات، نحن هنا في الدنيا لنعبد الله ونحب الله ونقيم معه علاقة، ولكن كيف نقيم معه علاقة ونحن محدودون نفنى ونموت وهو أزلي غير محدود، فهذه صفات متضادة بيننا وبين الله. فكيف نصبح قريبين من الله بهذه الصفات؟ إذا أردت أن أكون قريبا منك عليّ أن أشاركك في شيء مشترك بيننا، تماما كما يحدث بين الناس بعضهم بعضا،

ولكن كيف لشخص أن يقترب من الله؟ ما المشترك بيننا وبينه؟ لو نظرنا لوجدنا أنه سبحانه أعطانا عند خلقنا نفخة من روحه. لذلك نأتي الى الدنيا بهذه الصفات والميزات بسبب نفخة الروح هذه، ونحن بدورنا كبشر إما ان نُدَسّي هذه الصفات أو أن نزكيها، والتزكية ليست فقط تشعرنا بالسعادة بسبب هذه الخبرة في الحياة الدنيا،

ولكن سنتمكن من الإحساس بصفات الله الرائعة من الجمال والقدرة والرحمة والود وكل أسمائه الحسنى، وكل هذه الصفات اللامتناهية تأتي من المصدر اللامتناهي لهذه الصفات الحسنى من الله، كلما جاهدنا لنتصف بالرحمة تمكنا من الاقتراب من الرحمة العظمى لرب العالمين في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكذلك الأمر بالنسبة للرأفة ولنصرة الحق، وكلما جاهدنا لنتصف بصفات المؤمنين كلما تمكنا من الاقتراب من الله ذي الصفات الحسنى وبالتالي نستطيع أن ندرك الله ونعرفه، فكلما تزكينا اقتربنا من الله، وأدركنا عظمة الله، وهو قربٌ أعظم من القرب المادي او العاطفي أو العقلي إنه الاقتراب من الخالق المعبود، المستحق للعبادة، الرب المالك المربي القائم على إصلاح أحوالنا، إنها أعظم المشاعر التي يمكنك أن تختبرها وتمر بها على الاطلاق، لكن، ولأننا كائنات تنمو وتتزكى بالفعل، ولكننا لا نستطيع أن نتصف بصفات الله، ولا أن نرقى بشخصياتنا الإسلامية لنتقرب إليه، ما لم نمر بهذه الأمور السابق ذكرها، من الابتلاء، والتفكير، والإيجابية في تعاملنا مع القدر، والرضا بالقضاء، والتقوى والإحسان... فهي اذن هي كلها لازمة وأساسية لتزكية النفس البشرية، ولا يمكن إسقاط أي عامل منها من أجل أن تكون هذه النفس مؤهلة لعلاقة مع الله"[١١٤].

[١١٤] النقطة الثامنة مبنية على محاضرة بعنوان: الهدف من الحياة - قصة إسلام البروفيسور جيفري لانج المحاضرة الكاملة. بتصرف شديد.

## القضاء والقدر والنصر والرزق والإماتة؛ أين يقع بحث السنن والسببية منها؟

ثمة علاقة وثيقة بين السنن وكذلك النصر، وبين القضاء والقدر، وبين بحث السببية وبحث القدر، وبحث القضاء والقدر، وبحث الرزق؛ ولكي نفهم هذه العلاقة لا بد من الاستفاضة بعض الشيء في بحث القضاء والقدر والنصر والرزق والإماتة لتجلية مفاهيم مثل: السبب، والحالة، والشرط!

ليس من طبيعة هذا البحث الخوض في تفاصيل الخلاف في فهم مسألة القضاء والقدر عند المتكلمين، ولكننا سنعرض للنقاط المهمة التالية حتى نفهم موقع السببية والأخذ بالأسباب من هذه الأبحاث العقدية المهمة:

١) نشأت مسألة القضاء والقدر رجعا لأبحاث الفلاسفة اليونان،

تسمى مسألة القضاء والقدر، وتسمى الجبر والاختيار، وتسمى حرية الإرادة.

٢) كلمة قضاء[115] من الألفاظ المشتركة التي لها عدة معانٍ منها: صَنَع الشيء بإحكام، وأمضى الأمر، وجعل الشيء، وأمر بأمر، وأتم الأمر، وحتم وجود الأمر، وأبرم الأمر، وانتهى الأمر، وحكم بالأمر، وأمر أمراً مقطوعاً به.

وكلمة قدر من الألفاظ المشتركة التي لها عدة معانٍ منها التقدير، والعلم، والتدبير، والوقت (التوقيت)، والتهيئة، والتضييق، والقضاء والحكم، وجعل خاصية في الشيء، وغيرها.

٣) موضوع القضاء والقدر: هل الإنسان مجبور أم مخير؟ حر الإرادة أم مسلوبها؟

٤) فالقضاء والقدر بناء على منهجية بحث المتكلمين هو أفعال العباد وخاصيات الأشياء التي يحدثها الإنسان من فعله في الأشياء (والصواب: التي قدرها الله، وسخرها للإنسان ليتفاعل الإنسان معها، أو لتتفاعل الأشياء والقوى وفقا للسببية بناء على وجودها). **فالقضاء** هو **أفعال العباد** **والقدر** هو **الصفات والخاصيات في الأشياء**[116]، **والقدر هو أيضا السنن في المجتمعات.**

٥) **والقدر الذي طلب الإيمان به هو أيضا: تقدير الأشياء من الأزل، قبل خلقها، وهو حكم مبرم حتمي الوقوع، إذ إن الله بالغ أمره النافذ، حسب تقديره في الوقت الذي يقع فيه، وأن علينا التسليم للقدر والتوكل على الله** ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر ٤٩-٥٠]، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر٥٣]، أي كل صغير وكبير من الأعمال والأشياء وكل ما هو كائن مسطور في اللوح المحفوظ.

٦) وبالتفكر في أبحاثهم نجد تعلق لفظة القضاء لديهم بأفعال العباد، وتعلق لفظة القدر لديهم بخاصيات الأشياء،

٧) بدأ البحث عند المعتزلة ببحث هل يقوم الإنسان بأفعاله مختاراً أم مجبراً؟

---

[115] نظام الإسلام لتقي الدين النبهاني، الشخصية الإسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني، إزالة الأتربة عن الجذور" ربط الأفكار والأحكام بالعقيدة الإسلامية، لحزب التحرير، نقض الإشتراكية الماركسية لغانم عبده، بتصرف عن كل تلك المراجع.

[116] كالألم الناتج عن الضرب، وخاصية القطع في السكين، وطعم ما نطهو من المأكولات ولونه، والبرودة والسخونة والجبن والشجاعة، والصلابة والسيولة...

٨) الزاوية التي تناول المعتزلة المسألة منها هي زاوية عدل الله تعالى؛ وبالتالي الثواب والعقاب بناء على تحقق العدل، فإذا أجبر اللهُ عبداً على فعل شيء وحاسبه عليه يكون في هذا ظلم على العبد،

٩) من تنزيه المعتزلة المطلق لله تعالى، رأوا وجوب ألّا يكون الله تعالى هو خالق الأفعال أيضا، بل إن الإنسان يقوم بخلق فعله حين القيام به، والفعل عند الإنسان نتاج الإرادة والقدرة، فهو يقدر على القيام بالفعل، ويريد القيام به عند القيام به، فمجموع الإرادة والقدرة يفضي أنه هو خالق أفعاله.

١٠) ثم تفرع عن بحث خلق الأفعال بحث ما يتولد عن هذه الأفعال، كالألم الناشئ عن الضرب، ورأوا أن المتولدات عن الأفعال أيضا من خلق الإنسان.

١١) خطأ منهج المعتزلة تمثل في قياس من لا يقع الحس عليه (المسمى خطأ بقياس الغائب، إذ إن الله تعالى لا يغيب) على الشاهد، فقد وصف الله تعالى نفسه بقوله عز وجل: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، وصفات الله تعالى التي تسمى صفات الأفعال، تشترك مع صفات الإنسان في الإسم فقط، وفي المعنى الإجمالي، دون معرفة تفاصيل أو الخوض في شروح، نفهم فهماً إجمالياً أن الله تعالى عادل لا يظلم، ولا نخوض في التفاصيل، إذ إن بحث صفات الله ممنوع مثل بحث الذات، لا يحيط بالله عقل ولا فكر، وحين تقول: الله حي، فإن وصف الحي يختلف عن وصف الحي عند الإنسان، فالله حي بحياة لا أمس فيها ولا غد، ولا تغيير، ولا بداية ولا نهاية، ولا شباب ولا هرم، وعقل الإنسان يعجز عن تصور هذا لأنه معتاد على القياس بما اعتاده من معان، لذلك من الخطأ تشبيه الله تعالى أو صفاته بصفات المخلوقين، أو إنزال المعاني التي نعرفها عن صفات المخلوقين على الذات العلية[١١٧].

١٢) وكذلك، فإن عقولنا لا تملك المعلومات الكافية لفهم كيف يتحقق العدل المطلق، إذ تتوقف استطاعة العقل على إصدار الأحكام على العدل والظلم على فهم طبيعة الأفعال، والمصالح، والعواقب، والخير والشر، والحسن والقبح، والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، وعلى أدوات ومعلومات وقدرات ليست متاحة له، (كمعرفة عواقب الفعل أو الواقع المستقبلية، هل سيكون خيراً له أم شراً عليه؟ هل هو خير عاجل في الدنيا، وشر آجل في الآخرة؟ أو العكس؟ هل تكمن المصلحة التي حكم من خلالها بحصول الظلم أو العدل في النفع المادي، أم في تحقيق منافع غير مادية؟ فهذه مغاليق لا يستطيع العقل فكها)، أو إن بعض القضايا التي تلزم لإنشاء الأحكام متاحة بشكل جزئي للعقل، لكنه لا يكفي لإصدار الأحكام (كفهم طبيعة الواقع)، أضف إلى ذلك أن **القضايا التي تتوقف عليها صحة الحكم بالعدل أو بالظلم متشعبة**، أو معلومة بصورة نسبية أو غير كاملة للعقل، مما سيؤثر قطعا على أحكامه فلربما يجعل الإنسانُ العدل ظلماً، أو ينصرف عن فعل فيه صلاحه إلى نقيضه للأسباب السابق ذكرها، من هنا فلا مجال للعقل للإحاطة بشئون الدنيا (لماذا هذا مريض، والآخر سليم، ولماذا حصل لي هذا...الخ)، ولا بشؤون الآخرة ولا بعواقب الأمور، ولا بحساب الله تعالى يوم القيامة، ولا كيف سيقضي بين الخلائق حتى ينصب نفسه حاكما على عدل الله تبارك وتعالى!

---

[١١٧] أنظر باب: عدل الله تعالى، تأملات في مناظرة رائعة.

١٣) وقالت المعتزلة: إنا نرى أن مريد الخير خيّر، ومريد الشر شرير، ومريد العدل عادل، ومريد الظلم ظالم، فلو كان الخير والشر مرادين لله تعالى لكان الله تعالى موصوفا بالخيرية والشرية، والعدل والظلم، وهذا محال في حق الله تعالى،

١٤) فخطؤهم منشؤه قياس صفات الله تعالى على صفات الإنسان.

١٥) انظر كيف قاسوا فعل الله على فعل الإنسان، فالإنسان حين يفعل، يُقّدِّرُ، ويريد، وينفذ حين يقدر على الفعل، فحين يسرق الإنسان مثلا، يقدر، وتتوجه إرادته نحو ذلك الفعل السيء، وينفذ، ويتمكن (يقدر) على السرقة، فيوصف بأن فعله السيء نتاج إرادته وتقديره وقدرته،

تأمل: هناك كافر مثلا: أبو لهب، فكفره فعل، فدرسوا علاقة الله تعالى بهذا الفعل: لو كان فعل الكفر من أبي لهب بتقدير الله وإرادته، لما استقام أن يأمره بالإيمان، ولما استقام أن يعذبه، وهم بهذا يقيسون الله تعالى على الشاهد، على ما يرونه من أفعال البشر، وهذا منهج خطأ في التفكير، فقد علم الله أنه لن يؤمن، مع إنذاره وإقامة الحجة عليه، ولم يكن الحكم عليه بالكفر سابقاً لأمره بالإيمان، بل إنه اختار الكفر بعد سماع النذارة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ ٢١٤ الشعراء، فاختار الكفر وعلم الله أنه لن يرجع عنه! وقد سبق وبينا أن أفعال الله تعالى لا تخضع للزمان، وهذا فرق شاسع يجعل قياس أفعال الخالق عليها مستحيلا.

١٦) وليس كل المعتزلة على قلب رجل واحد في الفهم والاصطلاح، وإن كان يجمعهم عموميات لا تخرج عن سياق ما سبق، وبالمثل باقي الفرق مثل الجبرية والأشاعرة هناك الكثير من الآراء والأفهام.

١٧) ثم جاءت الجبرية وعلى رأسهم الجهم بن صفوان ورأوا الرأي النقيض، رأوا أن الإنسان كالريشة في مهب الريح.

١٨) وكان رأي أهل السنة (الأشاعرة) مشابهاً لرأي الجبرية رغم أنهم كانوا يرمون إلى الوقوف موقف الوسط بين الرأيين، إلا أن ما يفضي إليه قولهم هو أن الله تعالى هو صاحب الإرادة والمشيئة، وقالوا: أن الإرادة والمشيئة بمعنى واحد[١١٨]، وهي صفة أزلية في الحي توجب تخصيص أحد المقدورين في أحد الأوقات بالوقوع، مع استواء نسبة القدرة إلى الكل.

---

[١١٨] بالتدقيق في استعمال القرآن الكريم للفظتي الإرادة والمشيئة نجد أن: الإرادة هي طلب شيء، أما المشيئة فهي الطلب والإيجاد. وكلمة المشيئة إذا أسندت إلى لفظ الجلالة "الله" كان معناها طلب الشيء وإيجاده، وتحقق المشيئة بالنسبة للإنسان متعلق بالأسباب، علما بأن موجد الأسباب هو الله وحده، فمن ذلك قول رسول الله ﷺ «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن». وإرادة الشي لا يلزم تحققه على عكس المشيئة. يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء، ٢٨]. وتتحقق إرادة الله تعالى بقوله «كن» وهي بهذه الحالة بمعنى المشيئة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس، ٨٢]، والله تعالى يريد أن يسلم له كل الناس، ولكنه لا يجبرهم على ذلك. أي أنه أراد كونهم مسلمين، ولكنه لم يشأ ذلك منهم وإلا كان الناس كلهم مسلمين لا محالة. يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد، ٣١] إذا صارت إرادة الإنسان للهداية مشيئةً من ذلك الإنسان تقبل الله منه وهداه. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل،١٦/٩٣] أي يضل الإنسان الذي يشاء الضلالة، ويهدي الإنسان الذي يشاء الهداية، ف﴿مَنْ﴾ هنا تعود على الإنسان بدليل: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ

١٩) فهناك قدرة الله، وهناك قدرة العبد، اعتبروا قدرة العبد كسباً، وهي حادثة عند قيامه بالفعل، وهذه القدرة لا تؤثر في المقدور وإنما تؤثر به قدرة الله، التي خصصت قيامه بما كسب في لحظة معينة، والتخصيص أتى من إرادة الله، ولأن قدرة العبد عاجزة عن تحقيق المقدور، لأنه يلزم أن يوجده من العدم، والإنسان ليس بخالق، لزم وجود قدرة الله، لكن نسبة القدرة التي أثرت استوت نسبتها إلى الكل أي إلى الله وإلى الإنسان، لوجود شق بشري هو الكسب، وشق قادر على إحداث الأثر أي الإيجاد من العدم، من القادر سبحانه!

٢٠) معنى الكسب عند الأشاعرة: أن يكون الفعل بقدرة محدثة فكل من وقع منه الفعل بقدرة قديمة، فهو فاعل خالق، ومن وقع منه بقدرة محدثة، فهو مكتسب، فالله تعالى هو الفاعل على الحقيقة أي الخالق، يخرج الفعل من العدم إلى الوجود، والإنسان يفعل بقدرة محدثة، وبعبارة أخرى: إن الله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بقدرة العبد وإرادته.

٢١) وهم هنا يثبتون أن الفعل من الله تعالى، مثل الخلق والرزق مثلا وغيرهما يقع بتعلق الإرادة به، ولا يقع بتعلق القدرة أو العلم به، فإذا تعلقت الإرادة حصل الخلق والرزق وغيرها من المتعلقات، لكن كما ترى النتيجة عندهم سواء تعلق العلم أو القدرة أو الإرادة بفعل أبي لهب مثلا، فالنتيجة أن الحاصل لديهم أن أبا لهب خصصت الإرادة جانب الكفر لديه فكفر، قالوا: إن قيل: فإن على قولكم يكون الكافر مجبوراً في كفره فلا يصح تكليفه بالإيمان والطاعة، قلنا (أي الأشاعرة) إن الله تعالى أراد منه الكفر باختياره فلا جبر! أي أراد من الكافر الكفر، ولم يجبره عليه، إذ الإرادة غير القدرة، وغير العلم، فكونه يعلم أنه كافر شيء وكونه يقدر له الكفر شيء، غير أن يريد منه الكفر، فالإرادة تختلف عن القدرة، فالإنسان هو الذي قام بالكفر بإرادة الله، والحاصل إذن أن الأشاعرة جبريون، وأن اختفاءهم وراء التمييز بين الإرادة والقدرة والعلم لم يجنبهم نتيجة أنه مجبور.

٢٢) واختبأوا أيضا وراء مفهوم الكسب، فالله تعالى يقدر الفعل للعبد حين إيجاده، والإنسان في اللحظة نفسها يصرف قدرته وإرادته للفعل، فالله يخلق الفعل حين (في اللحظة التي) يقدر الإنسان ويريد، فالإنسان يكسب والله يخلق! إمساك للعصا من المنتصف بين المعتزلة والجبرية.

٢٣) زاوية النظر التي نظر الأشاعرة فيها إلى مفهوم الكسب وعلاقته بمسألة القضاء والقدر هي الخطأ، أي زاوية خلق الله للفعل عند قيام العبد به، إذ إن بحث القضاء لا يكون من زاوية خلق الأفعال، فلا علاقة لهذه الزاوية بالثواب والعقاب، أما أن القيام بالفعل كسب، فهذا مفهوم قرآني ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر ٣٨]

٢٤) وأما فرقة القدرية فهي التي تقول بأنه لا قدر، أي لا مقدر، وأن كل شيء يحدث دون سابق تقدير، وهم يقولون إن الله خلق أصول الأشياء وترك جزئياتها ولا يعلم جزئياتها.

---

نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف، ٢٩/١٨] فلا يتحقق أي شيء في الكون إلا بمشيئة الله تعالى. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً. إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ [الكهف، ١٨/ ٢٣-٢٤]. أ. د. عبد العزيز بايندر: التجارة والربا بتصرف.

٢٥) لفظ القضاء والقدر مجتمعين بهذا المعنى الذي بحثه المتكلمون[١١٩] لم يرد في كتاب أو سنة، ولم توجد في أبحاث المسلمين قبل عصر المعتزلة،

٢٦) أساس البحث عند المتكلمين في مسألة القضاء والقدر، أو الجبر والاختيار هو: أفعال الإنسان هل هو يخلقها (يوجدها)، أم الله يخلقها؟

وأساس آخر هو: هل فعل العبد، والخاصيات التي يحدثها ذلك الفعل، نتاج تعلق إرادة الله تعالى وقدرته بهذا الفعل فوجد الفعل بهذه الإرادة وبهذه القدرة؟ أم بقدرة العبد وإرادته؟

وأساس ثالث هو: علم الله تعالى بأن العبد سيفعل الفعل الفلاني، ويحيط به علما

وأساس رابع هو: كون الفعل مكتوبا في اللوح المحفوظ، فلا بد أن يقوم به وفق ما هو مكتوب.

وأساس خامس هو: علاقة عدل الله تعالى بالإنسان، فكيف يتحقق العدل إن أجبر إنسانا على فعل أو اعتقاد أمر ثم حاسبه؟ مع ملاحظة فهمهم لعدل الله تعالى مقارنة بمفهوم العدل عند البشر، وقياسهم من لا يقع الحس عليه (المسمى خطأ بقياس الغائب، إذ الله تعالى لا يغيب) على الشاهد،

الملاحظ أن هذه الأسس تقوم على أساس علاقة الفعل بالإيجاد والعدم، ومن حيث تعلق الإرادة بالممكنات، أو إحاطة العلم بكل شيء، أو احتواء اللوح المحفوظ على كل شيء.

وهذه العلاقات لا أثر لها في موضوع الثواب والعقاب.

٢٧) فالخلق والإرادة صفتان من صفات الله، وبحثُهما إنما يكون في بحث الصفات، ولا علاقة لهما في بحث أفعال العبد من حيث الثواب والعقاب، فإن صفات الله بحثٌ آخر غير بحث إثابة العبد على فعله، وعقابه عليه، بل هما بحثان منفصلان كل الانفصال، موضوعا واستدلالا، فموضوع صفات الله هو ما تتصف به الذات الإلهية من العلم والإرادة والحياة والسمع والبصر والخلق والكلام إلى غير ذلك، وموضوع الثواب على الفعل، والعقاب عليه، هو ما يستوجبه ذلك الفعل من جزاء.

والدليل على صفات الله، هو البرهان على إثباتها لله، ثم إن الدليل على الصفات ليس كالدليل على وجود الله ووحدانيته يؤخذ عقلا، وإنما يؤخذ الدليل على الصفات سمعاً (بعض الصفات تعرف بالعقل كالحكمة والقدرة[١٢٠]).

وأما الدليل على الثواب والعقاب فهو النص الذي يتضمن أن هذا الفعل يثاب عليه، وأن هذا الفعل يعاقب عليه، وهذا غير البرهان، لأنه يثبت أنه يتضمن وجود الثواب على الفعل والعقاب عليه في النص، وليس بإقامة البرهان عليه. ثم أنه لو كان دليلا لإقامة البرهان عليه، فإنه إقامة برهان على ثواب وعقاب، لا على صفة من صفات الله. ولهذا كان الموضوعان منفصلين تمام الانفصال.

---

[١١٩] وإن وردتا مجتمعتين بمعناهما اللغوي فيما أخرجه البزار في كشف الأستار، (والطيالسي في مسنده والطحاوي في مشكل الآثار) من حديث جابر بسند حسن عن النبي ﷺ قال: «أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء الله وقدره بالأنفس» قَالَ الرَّاوِي: يَعْنِي بِالْعَيْنِ.

[١٢٠] فالعقل يستطيع التدليلَ والقطعَ **بوجود** الخالق، **وبوجود** بعض صفاته التي تجلت في بديع صنعه المتقن: كالقدرة والخلق والحكمة، بدراسة نظام الكون وعظمته، لكن العقلَ لا يستطيع إدراك ذات الله تعالى، ولا سبر أغوار تلك الصفات لإدراك **ماهيتها** وحقيقتها، ولا يستطيع الحكم بوجود بعض الصفات الأخرى مثل الرحمة والمغفرة والعدل بالعقل مباشرة.

٢٨) أما كون الله خلق الفعل، أم العبد، فليس ذلك واردا هنا، لأن المسألة هنا هي قيام العبد نفسه بفعله مختاراً غير مجبر، وليست المسألة هي إيجاد الفعل من العدم، فالمسألة هي الإثابة على الفعل والعقاب عليه، والعبد قام بالفعل مختاراً غير مجبر، ولذلك كان الإنسان مسئولاً عن هذا الفعل، مسئولاً عما كسبه ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [٣٨ المدثر] فإيجاد الفعل من العدم غير وارد هنا، ولا محل له، فلا محل لبحثه في الأفعال الاختيارية.

وأما إرادة الله للفعل فإنه قد أراده خيراً كان أم شراً، لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد (أو ما يشاء)، ولكن معنى إرادته هنا أنه لا يقع في ملكه شيءٌ جبراً عنه، فإذا عمل العبد عملاً ولم يمنعه الله منه ولم يرغمه عليه، بل تركه يعمل مختارا، كان فعله هذا بإرادة الله تعالى، لا جبرا عنه سبحانه وتعالى، وكان فعل العبد نفسه باختياره، وكانت الإرادة غير مجبرة على العمل. علاوة على ذلك، فقد شاءت إرادة الله تعالى أن يخلق الإنسان عاقلاً قادراً، (حر الإرادة)، ويمكّنه من الاختيار بين الخير والشر فتنة وابتلاء واختباراً، وأرسل الرسل، وأقام البينات والحجج، وأنذر وبشر، وملأ جنبات الكون بالآيات والأدلة، فكانت إرادته أن يكون الإنسان مختاراً قادراً على فعل الخير والشر، فمسئولية الاختيار تقع على الإنسان لأنه قادر عليها، فهو ليس مسلوب الإرادة بإرادة الله تعالى، ولا تسلطت عليه إرادة الله تعالى ليقوم بالشر!

فبحث الإرادة لا دخل له في الأفعال الاختيارية، لأن البحث ليس أن الله أراد الفعل، أم لم يرده، بل البحث هل قام العبد بالفعل مجبراً أم مختاراً؟ وبما أنه ثبت أنه قام بالفعل مختارا في الأفعال الاختيارية، أي التي تقع في الدائرة التي يسيطر عليها، لذلك لم يكن مجبراً، فلا تكون هذه الأفعال داخلةً بالقضاء والقدر بالمعنى الاصطلاحي الذي ترجم عن الفلسفة اليونانية.

٢٩) علاقة الثواب والعقاب تظهر في مسألة الجبر والاختيار، هل العبد ملزم على القيام بالفعل أم مخير فيه؟ حيث إن الإنسان محل تكليف، يترتب على فعله الثواب أو العقاب، وهذا لا شأن له بالأسس السابق ذكرها، فالإنسان مكلف بأفعاله، بعضها واجب وبعضها مندوب وبعضها مكروه وبعضها حرام، وبعضها مباح.

٣٠) والإنسان عاقل، والعقل مناط التكليف، وحين تم تكليفه كلفه الله ما يطيق، لا ما لا يطيق: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، أي لم يكلف الله تعالى نفساً تكليفاً إلا وكان هذا التكليف في وسعها، أي ألزمه من الأعمال ما يطيق، فالتكليف في ضمن المقدور والمستطاع، كما أن الإنسان حر الإرادة، فيه قابلية فعل الخير وقابلية فعل الشر، ولديه منهج رباني يبين له ما الخير وما الشر، وتكليف بالفعل، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت ١٧]، والباء في ﴿بِمَا﴾ سببية، أي بسبب ما كسبوه أصابتهم الصاعقة، وهداهم الله ولكنهم اختاروا العمى، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت ٤٦]، وروى الإمام مسلم في صحيحه عَنْ جَابِرٍ قَالَ جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ قَالَ «يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ،

وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، قَالَ فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ زُهَيْرٌ ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو الزُّبَيْرِ بِشَيْءٍ لَمْ أَفْهَمْهُ فَسَأَلْتُ مَا قَالَ فَقَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ وفي رواية: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلُّ عَامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ» وفي رواية ابن حبان: قال سراقة بعد جواب رسول الله ﷺ "فلا أكون أبداً أشد اجتهاداً في العمل مني الآن"، وفي روايات أخرى صحيحة قرأ رسول الله ﷺ آيات تبين المعنى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل ٥-١٠]، والفاء في قوله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وفي قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ رابطة لجواب الشرط، وسنيسره جواب الشرط، فجعل اليسرى مسبَّبة عن إعطاء الإنسان وتقواه، وجعل العسرى مسبَّبة عن معاصي الإنسان المتقدمة[١٢١]، أي إنها مرتبة على فعل الإنسان واختياره[١٢٢]، وهذا معنى: كلٌّ ميسر لعمله من قول رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد ١١].

لذلك الأصل أن يكون أساس البحث فيما يتعلق بأفعال الإنسان هو بحثها في ضمن نطاق التكليف، ومقياس الأفعال الصحيح هو الحلال والحرام، أي إن الشرع هو المقياس، هذه هي النظرة الصحيحة لأفعال الإنسان، لا نظرة هل الله هو خالقها أم الإنسان؟ هل هي نتاج تعلق الإرادة الإلهية بها أم إرادة الإنسان؟

٣١) والإرادة الحرة ليست نظير حرية السلوك أو التصرف، (أي ليس كالحرية الشخصية أو حرية التدين) وحين ترى تعاريف الإرادة الحرة تجدها كما يعرفها قاموس ميريام وبستر: "حرية الإنسان في اتخاذ خيارات لا تحددها أسباب سابقةٌ أو تدخلٌ إلهيٌّ". بمعنى آخر: هي الجواب على سؤال: هل الإنسان مجبر (من قبل الخالق) أم هو مخير! فإذا كان مخيراً فهذا يعني أنه يملك الإرادة الحرة في أن يفعل أو لا يفعل"، أي إن الناس ولدوا أحرارا لا يجوز لأحد أن يستعبدهم لغير خالقهم، ولا تناقض في هذا مع وجود الإرادة والمشيئة والقدرة على القيام بالفعل عندهم، فالإنسان يمتلك إرادة حرة في الدائرة التي يسيطر عليها.

٣٢) بالنظر في الأفعال إجمالا يرى الإنسان يعيش في دائرتين، دائرة يكون الإنسان فيها مسيراً، لا يملك الاختيار في أفعاله وتصرفاته في ضمنها، ودائرة ثانية يسير فيها الإنسان سيراً اختيارياً لا إكراه فيه ولا جبر، وقد أحاطت النصوص الشرعية هذه الدائرة الثانية بجملة من التكاليف والمعالجات، وترك له الخيار للقيام بما أمر به أو عدم القيام به، وعلى أساس اختياره يتم الحساب ويكون الثواب والعقاب.

٣٣) أما الدائرة التي يكون الإنسان فيها مخيراً فلا علاقة لها بالقضاء والقدر،

---

[١٢١] الفروق ١٤٧/٢ للقرافي.

[١٢٢] الإيمان بالقدر، علي السعود، ص ١٦، وإعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحي الدين الدرويش،

٣٤) وأما الدائرة التي تسيطر عليه ويجبر فيها على أفعال لا خيار له فيها، فعلى قسمين: قسم يقتضيه نظام الوجود مباشرة[١٢٣]، يخضع الإنسان فيها مباشرة لنظام الوجود ويسير بحسبه سيراً جبرياً، طبق ذلك النظام الذي لا يتخلف، على غير إرادة من الإنسان،

وقسم لا يقتضيه نظام الوجود مباشرة، وإن كان كل شيء لا يخرج عن نظام الوجود.

فأما ما يقتضيه نظام الوجود: يأتي الإنسان للحياة جبراً عنه، وشكل رأسه، ولون عينيه، وكونه يسير على الأرض لا يطير في الهواء، هذه كلها من القسم الذي يقتضيه نظام الوجود، فالله تعالى خلق الكون وأجرى فيه قوانين معينة تجعل الكون صالحا للمعيشة، مثل قانون الجاذبية، ومثل أن الجينات تتحكم في جنس المولود ولون عينيه، ولا أثر للعبد ولا علاقة له في ذلك، فالوجود مفطورٌ على السير وفق هذه القوانين.

وهناك قسم لا يقتضيه نظام الوجود مباشرة، وإن كان خاضعاً لنظام الوجود، مثل أن يسقط جسم من أعلى على شخص دون تحكم منه في ذلك، ولو أطلق شخص رصاصة في الهواء فأصابت شخصا لم يكن يقصد أن يصيبه، فهو قضاء عليهما معا، أو أطلق عليه الرصاصة بإرادة القاتل، فهو قضاء على المقتول لا يستطيع دفعه، والقاتل يحاسب على فعله، ومثل تدهور السيارة، وسقوط طائرة لخطأ لم يكن بالإمكان تلافيه، هذه الأفعال وقعت على الإنسان أو منه على غير إرادة منه، وهي ليست في مقدوره، ولا قِبَلَ له بدفعها، ولا يقتضيها نظام الوجود، فتدخل في الدائرة التي تسيطر عليه.

٣٥) الدائرة التي تسيطر على الإنسان تسمى دائرة القضاء، لأن الله هو الذي قضى الفعل، ولا توجد حرية إرادة للعبد في الفعل أي ليس له اختيار، ولذلك لا يحاسب العبد عليها مهما كان فيها من نفع، أو ضرر، أو حب، أو كراهية بالنسبة للإنسان، أي مهما كان فيها من خير أو شر **حسب تفسير الإنسان لها**، **وإن كان الله وحده هو الذي يعلم الشر والخير في هذه الأفعال**، لأن الإنسان لا أثر له بها ولا يعلم عنها ولا عن كيفية إيجادها ولا يملك دفعها أو جلبها مطلقاً، ولذلك لا يثاب ولا يعاقب عليها. فهذا هو القضاء، ويقال حينئذ أن الفعل وقع قضاء، وعلى الإنسان أن يؤمن بهذا القضاء أنه من الله سبحانه وتعالى.

٣٦) يخضع الإنسان للقضاء، ولا يملك دفعه، **ويخضع لنواميس القدر** ولا يستطيع تغيير تلك **النواميس**، ولكنه **يتفاعلُ مع القدر** إذ هو **مُسَخَّرٌ له**، وعليه مسؤوليات محددة تجاه ما يقع من القضاء.

٣٧) فالأفعال التي تقع على الإنسان جبراً عنه، والتي نسميها القضاء، هذه الأفعال ودرجة مسئولية الإنسان عنها أمر دقيق، فأن يقود شاب السيارة بسرعة ٢٠٠ كيلومترا في الساعة ثم يفقد السيطرة عليها فيموت، فإنه يتحمل جزءاً من المسئولية عن الحادث، ولا يقال بأنه لا مسئولية عليه! ولا عقوبة! بل إنه

---

[١٢٣] فالنار تحرق إذا كانت المادة الأخرى فيها قابلية الاحتراق، وإذا لم تكن فيها قابلية الاحتراق لا تحرقها. وبعض الأحماض تذيب بعض العناصر ولا تذيب غيرها. وبعض العناصر تتحد مع عناصر أخرى وتتفاعل معها ولا تتفاعل مع غيرها، وذرتان من الهيدروجين مع ذرة من الأكسجين تنتج ماءاً، ولكن حتى نحصل على الماء الثقيل لا بد من اتحاد ذرتين من الهيدروجين الثقيل مع ذرة من الأكسجين. فهذه الأشياء لم تستطع أن تتصرف في كل شيء ولا أن تنتقل من حالة إلى أية حالة أخرى إلا ضمن وضع قاصر على حالات معينة، ولا تستطيع سواها إلا بإحداث تغيير فيها أو في سواها، أو بعامل آخر، اقتضى نظام الوجود إمكانية أن يحدث مثل هذا التغيير، مثل أن تطير بطائرة فتتخطى الجاذبية، فهي إذن محتاجة، وخاضعة لنظام الوجود جبرا.

يتحمل جزءاً من العمل لأنه لم يأخذ بالسببية، أي "بالتفاعل مع القدر وفقا للسببية"، والسببية تقتضي البحث في حالة الطرقات (الخصائص التي سنها الله في الأشياء، كيف تتفاعل مع الأسباب)، وحالة السيارة، وحالة عجلاتها، وحالة السائق من اليقظة والانتباه، وقدرته على السيطرة عليها، فكل هذا إن لم يؤخذ بأسبابه، فإنه لا يصح أن يقال: نتوكل على الله! نعم كل شيء يقع بقضاء الله، وهنا لم يُرد الشاب الوقوع في الحادث عمداً، ووقع عليه رغماً عنه، أي قضاءً من الله، ولكن متى يكون الإنسان محاسباً على عمله؟ **متى يقع في مظنة القتل الخطأ** حين يرمي بالنار في عرس مكتظ بالناس، فيقتل، وهكذا، لذلك وجدنا القاتل الخطأ يَدِيْ، أو يدفع الأرش من باب السببية! أو بشكل أدق: من باب: السننية، أي **من باب التفاعل مع القدر، ومع خواص الأشياء تفاعلا صحيحا أو خطأ**، فالله تعالى قدَّر في الأشياء خواص معينة، وقدَّر في المجتمعات سنناً معينة، والإنسان يتفاعل مع هذه الخواص وهذه السنن، فمن خواص عجلات السيارة مثلا أن تنزلق في ظروف معينة، عند سرعات معينة، فتفاعل الإنسان مع هذه الخواص مما هو مطلوب منه، ويُسأل عنه، ويقع في دائرة السببية، ومسؤولية الإنسان، بمعزل عن النتيجة التي وقعت جبراً عن الإنسان، وهي قضاء الله، ولا يخلط بينهما، وحاله كحال من يشعل ناراً في حطبٍ بالقرب من أشياء قابلة للاشتعال، فيتسبب بحرق غابة أو بيوت، فهو مسؤول عن فعلته، وهذا البحث يقع تحت التفاعل مع القدر، لا تحت بحث القضاء والقدر (الجبر والاختيار)، فالحادث وقع "قضاء"، ولكن الإنسان مسئول عن أفعاله الناتجة عن التفاعل مع خواص الأشياء، كقطعه بالسكين، فإن حز بها رقبة، فهو مسؤول عن فعله، وفعله في الدائرة التي يسيطر هو عليها، أو رميه شخصا بالرصاص، وهكذا، فهذا التفاعل والأفعال الناتجة عنه ليست في الدائرة التي تسيطر عليه، فهو مسؤول عنها، سواء فعلها باختياره (كحز الرقبة)، أو فعلها بغير تخطيط ونية على القتل، كمن أطلق النار في عرس فقتل بالخطأ، ومسئوليته أقل ولكنه مسئول، وبالتالي **فيتحمل عو اقب عدم أخذه بالسنن، ويتحمل عو اقب تفاعله الخطأ مع خواص الأشياء.**

ومن ناحية أخرى، فإن إهمال المرء لصحته، وعدم الاعتناء بها قد يعجل في أجله، ونحن نعلم أن الآجال بيد الله تعالى، علم ما سيكون من حال المرء فقدر له أجله، لكن: هل لو أخذ بالأسباب الدنيوية واعتنى بصحته، فهل يطيل عمره؟ (علماً بأن الأجل معلومٌ لله تعالى مجهولٌ للخلق)، والجواب بأنه وفقا للسببية فإنه يأخذ بالأسباب التي أمر بالأخذ بها، وقد يأتيه الأجل بحادث أو أمر ليس بالحسبان، ليس هذا هو البحث، لكن البحث أن هذه الأجهزة التي زود الله الإنسان بها من قلب ودماغ ورئتين، إن أحسن إليها طال عمرها، واستطاعت أن تبقى تضخ وتشتغل فترة أطول، وإن تجنب أسباب الأمراض واعتنى بنفسه فإنه يأخذ بالأسباب، وهكذا، فهذه الأبحاث مما يتناسب مع السببية! «إن لبدنك عليك حقا!».

## الصفات والخواص في الأشياء، والسنن في المجتمعات:

٣٨) سخر الله تعالى الأشياء في الكون للإنسان حتى يستفيد منها ويستعمل خواصها في عمارة الأرض، لذلك ينتج عن وجود مادة قابلة للاحتراق، ونار قابلة للإحراق، وأكسجين بكميات كافية من كل منها ينتج

عن هذا نار بشكل حتمي، يتفاعل الإنسان مع هذه الصفات والخواص، ويستغلها لقضاء حوائجه، لأنها مسخرة بأمر الله تعالى له، ويخضع الإنسان كما قلنا لقوانين الكون مثل قانون الجاذبية، وينتج الأثر الحتمي لوجوده في نطاقها فورا، فإذا ما قذف حجرا في الهواء بطاقة تتغلب على الجاذبية، لا تلبث تلك الطاقة أن تتفاعل مع الجاذبية فتتحول من طاقة حركة لطاقة وضع تبلغ ذروتها حين تضامر الطاقة الحركية فيرجع الحجر للأرض ثانية متأثراً بقوة الجاذبية (سنة كونية)، قدر، وعليه فالإنسان يخضع للقدر في نواميسه، لا يستطيع تغيير تلك النواميس، وما سخر له منها يستطيع التفاعل معها واستغلالها.

٣٩) **فالصفات والخصائص** التي في الأشياء تسمى بالقدر، لأن الله تعالى **هو الذي قدر فيها هذه الخاصيات**، وذلك أن الأفعال التي تحصل من الإنسان أو عليه في أي من الدائرتين (المسيطرة عليه أو التي يسيطر عليها) تقع أفعاله على أشياء أو من أشياء من مادة الكون والحياة فيحدث هذا الفعل أثرا، أي يترتب على هذا الفعل أمر ما، فهذه الآثار ليست من خلق الإنسان حين قيامه بالفعل، وإنما هي من الخصائص التي قدرها الله في الأشياء فتتفاعل مع الأفعال على نحو مخصوص حين القيام بالفعل أي يظهر أثر هذه الخواص، كخاصية الإحراق في النار، وخاصية القطع في السكين، وخاصية إنبات النخل من النواة، وخاصية حب البقاء في الكائن الحي.

فقد قدر الله تعالى في الأشياء صفات ثابتة، كصفة اللون والطول والصلابة والسيولة، تظهر هذه الصفات حال الاستقرار، وقَدَّر في الأشياء الخاصِّيات، والتي هي في الأساس صفات ذاتية لازمة في الأشياء، فإذا ما **تفاعلت الصفات مع الأسباب** وتحركت **انبثقت الخاصيات**[١٢٤]، مثل قابلية الخشب للاحتراق، وقابلية إرواء الماء للعطشان، وقابلية تحول الماء السائل إلى بخار بالتسخين، **فالخاصية هي الانفعال الحاصل في الشيء بسبب فعل وقع عليه**، وباطراد التلازم المؤثر بين هذا الفعل والانفعال الناتج نستنبط وجود علاقة ثابتة بينهما نسميها الخاصية. ويمكن دراستها بدقة بالغة، كما وجدنا سابقا في علم المعادن، وحين يحصل التأثير بين السبب الذي يمتلك طاقة سببية كافية للتفاعل مع الصفات أو الخواص فتنفعل بهذه الطاقة وتتعاون معها الشروط اللازمة، فلا بد أن يحصل التغيير بشكل حتمي ضروري، وإن لم يحصل التغيير فإما أن الطاقة السببية كانت غير كافية، (مثلا درجة الحرارة لم تكن كافية لتحويل خصائص المعدن) أو أن الشروط لم تتوفر كلها، ففي كل هذه العلاقات تجد ضرورة تفاعل الصفات مع الأسباب

---

[١٢٤] فمثلا في علم المعادن Metallurgy نرى اعتماد خصائص المعادن materials of properties على الروابط ما بين الذرية، فتجد بعضها غير متبلور amorphous، وبعضها متبلورا crystalline، والأخير تجد أن الذرات فيه تصطف بشكل شَعْرِيٍّ lattice ثلاثي الأبعاد، وتُكرر هذه الأشكالُ الشَّعْرِيَّةُ طريقةَ تكوينها في كل الاتجاهات بنفس الطريقة البلورية الهندسية، وذلك عبر قوى ترابط كيميائية بين تلك البلورات تكرر النسق ذاته، ومن الخصائص المهمة مقياس الحُبيبة grain the of size وهذا يحدد الخصائص الخاصة بذلك المعدن، ومن الخصائص الأخرى تجد مثلا الصلابة Hardness والهشاشة Brittleness والليونة Ductility، والقوة Strength وهكذا، وبتأثير الحرارة على المعدن تتغير أشكال البلورات وتراتيبها بشكل متناسب مع درجات الحرارة وطريقة التبريد، وبالتالي يستطيع الإنسان الاستفادة من هذه المعادن ومعرفة خصائصها على نحو دقيق! ففي كل **مجال من درجات الحرارة** تجد خصائص المعادن تتشكل بصورة معينة، فإذا انتقلت إلى نطاق **درجات حرارة آخر** بالتسخين أو التبريد تغيرت تلك الخصائص، لكن بشكل متناسب مع درجات الحرارة وطريقة التبريد، فهي خصائص دقيقة الإحكام لا عشوائية!

بشكل دقيق لإنتاج النتيجة، فهذه هي الضرورة والحتمية بالمفهوم الفكري العقلي الفلسفي، والذي يثبت علمياً أيضاً، **وعلى أساسه تقوم العلوم التي تبحث خواص الأشياء!**

٤٠) **والسنن أيضا من القدر لأن الله تعالى هو الذي قدر في الجماعات والشعوب والمجتمعات والدول هذه السنن، وهذه النواميس، وأخضعها لقوانين معينة تسير عليها، لا تجد لها تبديلا، ولا تحويلا،**

**فالسنن أو النواميس أو الطبائع** هي صفات منبثقة للجماعات والشعوب أمرنا **باستكشافها والتفاعل معها**، وهي لا تظهر من الإحساس المباشر، بل تظهر فقط من خلال الآثار أي من خلال وجود هذه الشعوب والجماعات تحت تأثير فعل أو أفعال أو أوضاع معينة، فينتج من ذلك نتائج وآثار وحين نقوم بمشاهدة وجود اطراد معين بين أفعال محددة مع نتائج لها واقعة على المجتمعات نستنبط وجود علاقة ثابتة نسميها السُّنَّةُ أو النَّامُوسُ أو الطَّبْعُ **وهو يخص الإنسان والمجتمع البشري فقط**".[١٢٥] . فالسنن في المجتمعات كالصفات والخاصيات في الأشياء، قدرها الله تعالى وأجراها وفقا لنواميس معينة ينبغي دراستها **وفهمها وفهم الأسباب التي تحركها**، والشروط اللازمة لإحداث التغييرات فيها، **والإفادة من هذا في العملية التغييرية**. فكما تحدّ السكين ليصلح القطع بها، وتستعمل السكين المناسب لقطع اللحم ولا تقطع به المعدن الأقوى منه، أخذاً بالخاصيات المودعة في هذه الأشياء، فإنك كذلك **ينبغي أن تفهم سنن ونواميس التغيير في المجتمعات للأخذ بها**. **والأخذ بالأسباب، تفاعلٌ مع القدر.**

٤١) ومن زاوية أخرى، فإن الفرق بين السنن المجتمعية وبين السنن الكونية واضح، فالسببية الكونية تمثل تفاعل القوى والمجالات والطاقات مع خصائص المادة وفقا للقوانين لا تخرج عنها، وتنتج النتيجة الحتمية فور حصول التفاعل السببي كما تم شرحه أعلاه، وأما السنن المجتمعية، هذه السنن التي تحكم حركة المجتمعات، وتأثُّرها بالأسباب والمسببات، لا تسير على شاكلة القطار الذي يسير على سكة إن خرج عنها انقلب وخرب، بل هي أشبه ما تكون بحركة السيارات المنضبطة بقوانين السير الصارمة، **مع مساحة بسيطة من التسامح في قوانين جزئية لم يلزم ضبطها بدقة**، مثل زمن الوقوف على إشارات التوقف، والسير في منتصف المسرب الذي يمكن أن تتخذه بالضبط، ولا تخرج عن هذه الدائرة الضيقة من التسامح، فقد تخرج دولة عن نظام العدل، ومع ذلك تحقق مستوى جريمة منخفض محدود في المجتمع، إلا أن عدم سيرها في ركاب نظام العدل لا يلبث أن يفسد عليها سيرها فتنقلب المركبة بمن عليها، لأنها لا بد أن تخضع في النهاية لسنن منضبطة ناظمة لحركة المجتمعات، وكذلك حصل مع قوم لوط عليه سلام الله، حين خالفوا سنة الله في العلاقات بين الرجل والمرأة، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى نزل عليهم العذاب، وقد تقوم دولة باغتصاب حاكم للسلطة فيها، وفرضه نظرته على المجتمع، وإقامته دولة بوليسية، إلا إن هذه الدولة لن تستمر لأنها تخالف السنن الكونية في نشوء الدول واستمرارها! لذلك تجد مثل هذه الدولة تستعين بعوامل غير ذاتية لاستمرارها، مثل الاستعانة بالاستعمار! وقد مثَّل رب العزة سبحانه على إحدى هذه

---

[١٢٥] من بحث: السببية وسنن الحياة للأستاذ يوسف الساريسي.

السنن بقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [٧٦- ٧٧ الإسراء]، فهو تهديد للكفار بأنهم إن أخرجوا نبيهم لن يلبثوا خلافه إلا قليلا، وكان لبثهم بعده إلى يوم فتح مكة، أي إنه استغرق سنوات، فثمة فسحة في الوقت بين الوقوع في تحقيق الأسباب المستوجبة للسنن، وبين وقوع نتائجها، فالحتمية لا مناص عنها، ولكنها قد تستغرق زمناً، ولا يُعرف كم مقدار هذا الوقت خصوصا في القضايا التي اختص الله تعالى نفسه بها مثل الرزق والنصر، ولا الصورة التي ستتحقق فيها تلك السنن.

٤٢) وعندما يريد الباحث أن يكتشف سنة معينة من سنن العادة أو الطبائع التي تجري وفقها الأمور في المجتمعات البشرية فلا يستطيع أن يحدد جميع العوامل التي تدخل في السنة من أسباب وشروط بشكل دقيق ولا أن يحصرها ويحدد مقاديرها، وبالتالي فهو يلجأ إلى **عملية اختزال وتقريب** لهذه المجموعة من العوامل وإلى التركيز على عدد قليل من هذه المجموعة من الأسباب والشروط ويتم تجاهل أسباب أخرى أقل أهمية في نظره[١٢٦]

٤٣) من هنا، فإننا إذا ما **طبقنا هذا على بحث التغيير، و إقامة الدولة، فللعملية التغييرية سنن، وأسباب وشروط، ومعوقات يجب التركيز على الأهم منها، بالتقريب والاختزال، والتزام الرئيسي الضروري منها، الذي يشكل عمود الطريقة**، إذ إن العوامل المؤثرة والمتغيرات كثيرة جداً، ومتغيرة دائماً (ديناميكية)، بحيث يصبح من الصعب حصرها جميعاً بأصولها وفروعها، **والأخذ بأسباب فروعها جميعاً، فيجتهد الحزب ويقدر، ويسدد ويقارب، ويتوكل على الله تعالى فيما لا يستطيعه من أسباب بقدراته البشرية، بعد أن يستفرغ وسعه**، ولا يمكن أن يُتَصوّر أن التغيير يتم بتحول الحزب وأعضائه إلى ملائكة لا يخطئون، ولا أن تكون العملية التغييرية نفقاً لا نهاية له، كلما أخذت بأسباب أفعال جزئية من الفروع والأساليب طلب منه الوصول للكمال المطلق في كل ما يتعلق بشروطها والتغلب على معوقاتها حتى يحصل التغيير، إذ إن كثيراً من المعوقات والأساليب ديناميكية حركية متغيرة متقلبة، فتحتاج إلى خطط متفاعلة معها، الأمر الذي قد يطيل أمد العمل أو قد يرهق كثيرا، **فلا بد من التركيز على أهم الأساليب التي يمكن أن تثمر، وأهم المؤثرات والعوامل الرئيسة، وأن تدرس خطورة كل المتغيرات وتعالج بحسب حجمها وضررها أو نفعها بما يناسب**، ومثال ذلك دوام التغير في تقنيات التواصل الاجتماعي، فما أن تتقن تقنية حتى تجد غيرها قد أخذ محلها، والأخذ بأسبابها كلها ودوام ملاحقتها صعب للغاية، في ظل محدودية الإمكانيات، ولكنها أساليب تقع في إطار حمل الدعوة، والصراع الفكري، والكفاح السياسي، **وأهم ما في هذه الأعمال هو الأفكار التي تقيمه في الوجود، وهي موجودة على أفضل وجه، فلا تقصير في أسبابها**، أما تغير الوسائل الدائم، فهو عقبة تحتاج للتغلب عليها، لكن ليس لقتلها بحثاً وشروطا لإتقانها.

[١٢٦] من بحث: السببية وسنن الحياة للأستاذ يوسف الساريسي بتصرف يسير.

## معنى القضاء والقدروالتسليم به

٤٤) وبذلك تخرج الأفعال الاختيارية عن بحث القضاء والقدر، فيملك الإنسان فيها حرية الإرادة، ويحاسب على أفعاله. ولأن الله حين خلق الإنسان وخلق الخاصيات في الأشياء والغرائز والحاجات العضوية، وخلق للإنسان العقل المميّز، أعطاه الاختيار بأن يقوم بالفعل أو يتركه ولم يلزمه القيام بالفعل أو الترك، ولم يجعل في خاصيات الأشياء والغرائز والحاجات العضوية ما يلزمه على القيام بالفعل أو الترك، ولذلك كان الإنسان مختاراً في الإقدام على الفعل والإقلاع عنه بما وهبه الله من العقل المميّز، وجعله مناط التكليف الشرعي، ولهذا جعل له الثواب على فعل الخير لأن عقله اختار القيام بأوامر الله واجتناب نواهيه، وجعل العقاب على فعل الشر لأن عقله اختار مخالفة أوامر الله وعمل ما نهى عنه. وكان جزاؤه على هذا الفعل حقاً وعدلاً لأنه مختار في القيام به وليس مجبراً عليه، ولا شأن للقضاء والقدر فيه،

٤٥) معنى الإيمان بالقضاء والقدر: أن الإيمان بأن أفعال العبد التي تقع في الدائرة التي تسيطر عليه والتي لا قبل له بدفعها ولا إرادة له بالقيام بها والخاصيات التي يحدثها في الأشياء كل ذلك من الله تعالى، وليست من العبد، وفي حين أن العبد لا يملك دفعا للقضاء، ولا تغييرا في السنن والخاصيات والصفات، إلا في ضمن ما سمحت به الخاصيات والصفات من تفاعل مع أسباب تسمح بتغييرها، كالحرارة تحول صفة السيولة للبخار، أقول، في حين لا يملك العبد تغييرا للسنن والخاصيات والصفات، فإنه يملك التفاعل معها وتفعيلها واستغلالها للقيام بأفعال تدخل في دائرة سيطرته هو، ويحاسب عليها!

٤٦) معنى الإيمان بالقدر[١٢٧]: لقد استفاضت الأدلة الشرعية بالتركيز على الإيمان بالقدر، حتى جعلته أساساً من أسس العقيدة، في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ: «قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت» وقوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، [القمر ٤٩] ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان ٢]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد ٨]، أي إن كل ما يجري في الكون مقدرٌ تقديراً، كَمَّاً وقَدْراً ومَبْلَغَاً بمقدارٍ محددٍ، ومخلوقٌ بقَدَرٍ، على مقدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ، حسبما اقتضت الحكمة، وبصنعة متقنة، بلغت نهاية الإحكام والدقة، ومنضبط فلا يخرج عن القوانين، وله نواميس وطوابع وخصائص، تمكن الإنسان من التفاعل معها، لتسخيره سبحانه وتعالى ما في السموات والأرض للإنسان كي يقوم بوظيفته كخليفة في الأرض، وما يترتب على ذلك من مسئوليات للقيام بالتفاعل وفقا لنظام صحيح، أو نواميس وطوابع وخصائص تمكن الأشياء من البقاء والتفاعل وفق نظام الكون ليجري الكون على سنن معينة، وفق نظام معين، لحصول غايات معينة، وهذه السنن تضبط وجود واستقرار واستمرار وفناء وحركة الأشياء، إذن، فالإيمان بالقدر هو أساس من أساسيات الاعتقاد، يلفت النظر إلى دقة الصنعة، وإلى النظام، وإلى عظمة الصانع سبحانه وتعالى، وإلى السنن والنواميس التي تسير عليها حركة

---

[١٢٧] أنظر: الإيمان بالقدر، علي السعود، والسببية وسنن الحياة يوسف الساريسي.

المجتمعات، والتي يضمن حسن استغلالها أن يقوم نظام العدل والقسط في الدنيا على أساس صحيح يتآلف مع قيام السموات على الحق والعدل[١٢٨] ، وهذا هو معنى الإيمان بالقدر.

٤٧) علينا تجنب الخلط في الفهم بين واقع القضاء والقدر وبين ما ينتج عنه من التسليم به، فلا دخل لنا بالقضاء والقدر، وهو يقع بعلم الله وإرادته وقدرته، وأما ما ينتج عنه من التسليم به فإنه يدخل في باب العقيدة التي أمرنا فيها بالإيمان بالقدر الذي قدره الله تعالى.

## القدرية الغيبية أفيون الشعوب

٤٨)تناولنا في كتاب: (ضوابط التعامل مع مسائل الصفات) خطأ المتكلمين الأخطر في منهجهم في البحث والتفكير، والذي تمثل في وضع المسائل العقدية في قالبٍ غير القالب الذي كانت العقيدة الإسلامية تؤسس له، مما حرف دراسة العقيدة الإسلامية عن طريقتها المتميزة، فتشابه قالبهم الجديد مع قالب اليونان الفلسفي المعرفي النظري الجاف المنبت عن الواقع، فحادوا عن طريقة عمل هذا المنهج العقدي القرآني (أي حادوا عن الإجراء العملياتي الذي يفعّل هذا المنهج ليكون أساسا تنبثق عنه نظم الحياة، ولتنبثق عنه الحضارة الإسلامية طريقة في العيش)، وتسرب إلى المسلمين جراء فهمهم لمسألة القضاء والقدر وفق بحثهم لها من تلك الزوايا المختلفة وخلطهم بين تلك الزوايا، تسرب قالب "التسليم والاستسلام، وما هو مكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين، قالب: القعود والتواكل" الذي أفضى لانتشار القدرية الغيبية بينهم، بدلا من قالب العقيدة الذي صبت فيه، وهو قالب الإيجابية والتحريك والدفع للقيام بالعمل على أفضل وجه، من هنا كان لا بد من فصل القدر عن القالب الذي صب فيه، وإعادة مزجه بالقالب الأصلي العقدي.

٤٩)إن الله أمرنا بالايمان بالقدر[١٢٩] خيره وشره (ونعني هنا من معاني القدر بالتحديد: علم الله وما كتبه في اللوح المحفوظ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ

---

[١٢٨] أنظر باب: عدل الله، تأملات في مناظرة أخرى رائعة.

[١٢٩] القدر في بحث القدرية الغيبية ليس هو القدر نفسه في بحث "القضاء والقدر"، ففي بحث القضاء والقدر يكون مداره حول الجبر والاختيار، وحرية الإرادة، ومعنى القدر فيها هي خواص الأشياء، وسنن المجتمعات التي قدرها الله تعالى، وبحث القدرية الغيبية لا يتعلق بهذا المفهوم، أي إنه لا يدور حول سؤال هل تقوم بالفعل مجبراً أم مخيراً؟ أما في بحث القدر ككلمة منفصلة، والتي تبحث قضية القدرية الغيبية في ظلها، فيقصد بها علم الله وكتابة كل شيء في اللوح المحفوظ، فالبحث فيها يدور حول عدم قدرة الإنسان على الوقوف في وجه ما خطه القلم، وما هو مكتوب عليه، أي إن القضية أن الفعل "مكتوب عليه"، "والمكتوب على الجبين يجب أن تراه العين".

يَسِيرٌ﴾ [الحج ٧٠])، ولكنه لم يُعْلِمْنا بما قدره لنا وكتبه علينا. بل أمرنا بأوامر ظاهرة، ونهانا عن نواه معينة. أعلمنا بها، وبيَّنها لنا. فخلطُ الايمان بما أمرنا أن نؤمن به (علم الله، وكتابته في اللوح المحفوظ)، بالأوامر التي أمرنا بتنفيذها، قد يُفهم بصورة تلبس علينا وجه العمل، وكيفية السير، حين يتخذ هذه الغيبيات تكئة لاختيار الأسهل الأهون على الأشق الأصعب، ويحتج الذي يختار الأسهل بالغيبيات، مع أنه لم يطلع عليها، فيأتي من ذلك الخلط خطر الاستسلام والقعود عن الأعمال، أي إنه قالب دخيل يُتَّخذُ **مدخلا لتحويل التوكل إلى تواكل**. مع أن الوضع السليم هو أن يتخذ الإيمان بالغيب دافعا إيجابيا للعمل، وقيادة فكرية تذلل الصعاب وتبعث على الطمأنينة **والتوكل الحق**، والإنسان محاسب على تفاعله مع الخاصيات التي قدرها الله في الأشياء وعلى نتيجته، ومأمور بالأخذ بالأسباب ومحاسب على التقصير، فالإيمان بالقدر، والتفاعل مع الخواص التي قدرها الله في الأشياء موضوعان مختلفان!

٥٠)روى الترمذي عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد»، فالكتابة إنما هي لتسجيل أو تثبيت ما هو كائن، أو ما تجري به المقادير حتى قيام الساعة، وما كُتِبَ في اللوح المحفوظ أيضاً هو علم الله بكيف ستسير الأمور بحسب مقاديرها، وما سيجري، ومقدار كل شيء خلقه الله، وخصائصه، وكذلك علم الله بكل تلك المقادير أو الأقدار وعلمه بما سيجري، **فالذي كُتب هو القدر**، على أن المؤثّر في حصول الأحداث ووجود الأشياء وفقاً لمقادير خاصة، ليس كون ذلك مكتوباً ومسجلاً، أي "ليست الكتابة هي المؤثرة، بل السبب المؤثر في ذلك هو فعل الله في قيوميته للسموات والأرض وتدبيره للخلائق"[١٣٠]، والكتابة وثقت ذلك فلا تغيير، وفعل الإنسان في تفاعله مع الخصائص تفاعلا سببياً مؤثر في حصول الأحداث بحسب السنن والنواميس وما سمحت به من تمكين للإنسان بالتفاعل وفي الخصائص من سماح مقدر فيها.

٥١) قال العلامة تقي الدين النبهاني رحمه الله: "مما لا شك فيه أن الغيبيات نوع من المخرج السهل من الضيق والأزمات، بدلا من تعميق التفكير في الأسباب والمسببات وهو الطريق الصحيح للخروج من الضيق والأزمات. ولقد مرت الأمة الإسلامية في فترات صعبة كثيرة. وكانت تخرج من الضيق والأزمات بالتفكير المستنير لاجتياز تلك الأزمات. بمعرفة الأسباب والمسببات، وبالتالي التفكير في الأسباب والمسببات... والثغرة التي يدخل منها اللجوء إلى الغيبيات لدى المسلمين هي الإيمان بالقضاء والقدر، واليقين بأن الله هو الذي يخلق كل شيء، ويفعل كل شيء فكان المخرج السهل أن يتكل المرء على القدر. ذلك أن "الأمر مُقَدَّرٌ"، وأن الله هو الفعال، فلتكن مشيئة الله، وليكن ما أراده الله. هكذا بكل بساطة، يجري القعود عن التفكير بالأسباب والمسببات ويستسلم للاقدار!...

والحقيقة كذلك هي أن الله أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء، فما أراده بنا طواه عنا وما أراده منا أمرنا به، فنحن لم نطلع على قدر الله لأنه مطوي عنا، فلا نعلمه ولا يمكن أن نعلمه، وأما ما أراده منا فقد أمرنا

[١٣٠] الإيمان بالقدر، علي السعود، ص ١٦٣ بتصرف.

بالقيام به،... فالله تعالى، قد خلق الوجود، وخلق له قوانين، وخلق الناس وخلق لعيشهم قوانين. وأمرهم بأوامر ونهاهم عن نواه، **فيجب أن لا يخلطوا ما أمرهم بالإيمان به من الأمور، بما أمرهم بالقيام به من الأعمال**،[131] فهذا الخلط هو الذي يسبب الغيبية ويُتَّخَذُ تَكَئَةً للجوء اليها. فهو لم يأمرهم بالعمل على أنه قادر على خرق القوانين والنواميس، وإنما أمرهم بالإيمان بأنه قادر على كل شيء، وأمرهم بالعمل وفق هذه القوانين والنواميس... لذلك يجب التفريق بين ما يجب الإيمان به وما يجب العمل فيه. وما لم يحصل هذا التفريق ويُتَّقى الخلط فإنه ستظل الغيبيات تتسرب إلى النفوس، وستظل الناس تتخذ الغيبيات تكئة للخروج إلى الأسهل الأهون في الضيق والأزمات، ولا سيما في الفترات الصعبة من الحياة"[132].

٥٢) قال العلامة تقي الدين النبهاني رحمه الله (**بتصرف**): "وكذلك فإن علم الله بأن الأمر الفلاني سيحصل لا يعني عدم **الأخذ بالأسباب والمسببات** وعدم **ربط الأسباب بمسبباتها**، لأن علم الله لم ينكشف لأحد، حتى يعلم الشيء ولا يأخذ بأسبابه، فالكتابة، والقدر يستحيل أن تُعرف من قِبَلِ الخلق حتى يحكموا على وقوع الشيء وعدم وقوعه، فلا يصح أن يتركوا **الأخذ بالأسباب والمسببات** بحجة القدر والكتابة، لأن ذلك ربط بمجهول، بل لا بد **من الأخذ بالأسباب والمسببات** دون ربطها بالقدر [ما كتب في اللوح المحفوظ]، أي دون التفكير به، ولهذا فإن عمر بن الخطاب استنكر على أبي عبيدة حين ربط القدر **بالأخذ بالأسباب والمسببات**،... فهذا الحوار بين عمر وأبي عبيدة، واستنكار عمر لاعتراض أبي عبيدة، يدل على أن الاثنين عمر وأبا عبيدة كانا يفهمان أن قدر الله يعني علم الله، غير أن عمر كان يرى أن قدر الله لا دخل له في موضوع **ربط الأسباب بالمسببات**، فالذهاب إلى الشام مع وجود الطاعون قد يتسبب عنه موت، والرجوع **أخذ بالأسباب والمسببات** للنجاة من الطاعون، ولهذا أنكر على أبي عبيدة أن يعترض عليه فقال له: "لو غيرك قالها يا أبا عبيدة" ولم يكتف بذلك، بل شرح رأيه بأن الذهاب إلى الشام ذهاب بقدر الله، والرجوع إلى المدينة رجوع بقدر الله، أي بعلم الله. مما يرشد بأن **القدر لا يصح أن يربط بالأعمال**، ولا يصح أن **يترك الأخذ بالأسباب والمسببات بحجة القدر**،

---

[131] [مثال عملي: فُصل موظف من العمل، وهذا أمر مقدر من الله، فقد يتصرف بأن يقعد عن البحث عن عمل محتجاً أو مقتنعاً بأنه مقدر عليه الشقاء وأن يعاني، وفي الواقع هو لا يعلم هل مكتوب عليه الشقاء أم السعادة! فلا يصح أن يخلط "قنوطه" وتخريصه بأنه مكتوب عليه الشقاء بعمله، فهذا الخلط هو القدرية الغيبية، ويجب أن يُفْصَلَ عن العمل أيُّ تفكيرٍ يضع في الاعتبار أنه مكتوب عليه كذا أو كذا. لأنه لا يعلم، فلعل في فصله من عمله الأول خير له، فحين يسعى ويحصل على العمل الجديد يجده أفضل من سابقه (في دنياه وعاقبة أمره)، وأن عمله السابق كان مقيّداً له عن البحث عن عمل أفضل، فخلَّصه الله من هذا القيد، لذلك فالموقف السليم هو أن يتصرف بأن يأخذ بالأسباب ويبحث عن عمل جديد، وحصوله على عمله الجديد الأفضل هو بقدر الله أيضاً، لم يكن يعلمه، ولكن حسن ظنه بالله، وأن ما يأتيه من الله كله خير، وما أصابه ما كان ليخطئه، وإيمانه بأن الرزق من عند الله، كلها شكلت عنده دافعا للإيجابية والسعي والهمة والطمأنينة بدلا من الارتكاس واليأس والقنوط الذي تدفعه له القدرية الغيبية والقعود، لذلك ينبغي فصل العمل عن القالب الأول (قالب القدرية الغيبية) ودمجه بالقالب الثاني: أي الطمأنينة والإيجابية والثقة بالله، دون أن يضع في حساباته حين السعي بحث أن الله قدَّر عليَّ فصلي من العمل، والشقاء، وهو مكتوب، ونتيجته الطبيعية المعاناة ونقص في الأموال، (فالفصل عن قالب القدرية الغيبية هو المطلوب) لكن لا يمكن أن نفصل المسلم عن فهم القدر الإيجابي المبني على الثقة بالله وأنه الرزاق، فهذا قالب إسلامي عقدي، وفي كل الأحوال ينبغي السعي والأخذ بالأسباب].

[132] جواب سؤال عن الغيبيات والأسباب والمسببات ١٩٧٤ تقي الدين النبهاني،

وإذا كان القدر [أي علم الله] لا يجبر العبد على القيام بالعمل، بل يقوم به مختارا، بدليل محاسبة الله للعباد على أعمالهم، وقد رفع عنهم ما استكرهوا عليه، أي ما أجبروا على القيام به، وإذا كان القدر لا يصح أن يتكل عليه بدليل نهي الرسول ﷺ عن الاتكال عليه وأمره بالعمل، وإذا كان القدر [بمعنى علم الله، وما كتب في اللوح المحفوظ] لا يصح أن تربط به الأعمال لأنه مجهول لنا، ولا يصح أن يترك الأخذ بالأسباب والمسببات بحجة القدر، كما يرشد إلى ذلك فهم عمر للقدر، وإنكاره على أبي عبيدة اعتراضه على هذا الفهم، إذا كان القدر كذلك فإنه يظهر بوضوح أن **القدرية الغيبية مخالفة للشرع كل المخالفة**، بل جاء الشرع بالنهي عن الاتكال على القدر، وأمر الشرعُ بالعمل، وهي فكرٌ [قالبٌ] غير إسلامي تسرب للمسلمين مع ما تسرب إليهم من أفكار الفرس واليونان، بل هي تناقض أفكار الإسلام، للنهي الصريح عنها. ولهذا لا بد من مقاومتها للقضاء عليها وهي من أخطر الأفكار على حيوية الأمة الإسلامية، بل على حيوية جميع الشعوب وجميع الأمم.

وإذا كانت القدرية الغيبية تعتبر بحق أفيون الشعوب لأنها تقتضي الاستسلام للأقدار والتواكل عليها وتثبط الهمم وتميت العزائم، **فإن الإيمان بالقدر [علم الله] يبعث على الجرأة والإقدام**، وعدم المبالاة بما يعترض طريق المؤمن من مخاطر وصعاب، [أي إن الإيمان بالقدر يشكّل: قيادة فكرية إيجابية تدفع المؤمن للعمل ولتذليل الصعاب] فالذين يؤمنون بأنه ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٥١ التوبة]، وبأن ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [٣٨ الرعد]، وأن ما من شيء يقع إلا بقدر الله، هؤلاء المؤمنون إذا اعتزموا أمرا **اتخذوا له أسبابه**، [أي: درسوا القدر بمعنى السنن والنواميس والخصائص، وذللوها واستعملوها، واطمأنوا إلى أمر الله فما أصابهم فهو ما كتب الله لهم لا عليهم] مضوا فيه قدما لا يصدهم دونه خطر، ولا يقعدهم عنه بلاء أو ضرر، ولا تقف في وجههم العقبات، لأنهم يؤمنون أن ما قدره الله سيقع قطعاً، وإن ليس عليهم إلا **الأخذ بالأسباب والمسببات**، والنظر في الأمور، والتدبر فيها لإحسان التصرف، حتى إذا نضج الرأي عندنا وعزمنا، وجب أن نغض الطرف عن كل ما سوى هذا الأمر، فإنه **لا يقع في الوجود إلا ما قدره الله**. وهذا هو ما كان عليه رسول الله ﷺ في كل أعماله، في بدر، وفي حنين، في الهجرة يوم بيتوا قتله، وفي غشيانه أبا جهل يطلب منه أن يدفع المال لصاحبه، وأبو جهل كان ينتظر الفرصة لإيذائه. وهذا هو ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم يوم اندفعوا في الفتوحات، ويوم خرج إلى العالم يحملون له رسالة الإسلام، وعليه **فالقدر [بمعانيه السابقة] غير القدرية الغيبية**، بل **هو على النقيض منها**، فإنها تميت الأمم، **والإيمان بالقدر يحييها ويدفعها للإقدام**، والسير قدماً لتحقيق عظائم الأمور وأسمى الغايات."[١٣٣]

بخلاف من لم يأخذ بالأسباب فإنه يلقى جزاء التقصير، فتمضي فيه عواقب السنن، فمن لم يدرس لن ينجح، ومن لم يعد العدة ويجاهد لن ينتصر، ولا يصح لوم القدر حينها! وها هو رسول الله ﷺ حين هاجر أخذ بكل الأسباب، فموه على أعدائه، وقصد الجنوب بدلا من الشمال، واستأجر من يطمس آثاره، ومن

---

[١٣٣] ("إزالة الأتربة عن الجذور" ربط الأفكار والأحكام بالعقيدة الإسلامية، لحزب التحرير، وما بين الأقواس [] تعليق مني)

يأتيه بالزاد والأخبار، واختبأ في الغار، واستأجر دليلا خريتا كفؤا، يعرف الطريق مع أنه كان كافرا، وهكذا، أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم توكل على الله تعالى، وقال لأبي بكر ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»! كثيرون من المسلمين اليوم ينامون، ويرفعون أكف الضراعة: يا رب عليك بهم! وهذا من قلة الأدب مع الله تعالى لأنه أمر بالأخذ بالأسباب والإعداد والعمل لا القعود والعجز واستبدال الدعاء بالعمل!

"والحقيقة هي أن الله كما قال ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ قد قال ﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٤١ التوبة]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [١٢٣ التوبة]، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [١٩١ البقرة]، وكما قال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٦٣ الأنفال]، قد قال ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [١٠٣ آل عمران]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾. [٤ الصف]. [١٣٤]

## السببية والقدر، بين الإيجابية والسلبية في الفهم والتطبيق:

٥٣) إذن، حين أساء بعض المسلمين فهم مسألة القدر؛ (علم الله، وما كتب في اللوح المحفوظ)، واستسلموا للقدر: بمعنى أنه مكتوب ولا يسعهم عمل شيء غيره (مع جهلهم إياه، فربطوا تدبيرهم بالمجهول، وقعدوا عن التدبير)، وبمعنى أنه مُقَدَّر: فقالوا: لتكن مشيئة الله، وليكن ما أراده الله، وتحولوا عن التوكل إلى التواكل، فالقدرية الغيبية قوامها هو عدم تفريق المؤمن بها بين علم الله بما هو كائن إلى يوم القيامة، وكتابته في اللوح المحفوظ، وبين قدرة الإنسان على الاختيار والتخطيط والأخذ بالأسباب، من هنا ظن المؤمن بالقدرية الغيبية عدم قدرة الإنسان على الوقوف في وجه ما خطه القلم وما هو مكتوب ومقدّرٌ عليه، وسلم تسليما مطلقا بأن أفعاله مسيّرة بهذا المكتوب لا يستطيع دفعه، فالإخفاق -وهو نتيجة الفعل- مقدر عنده، والنجاح -كذلك- مقدر عليه، في وقته ومكانه وظروفه كما يؤمن، وأنه لا يملك الخيار الذي يمكنه من الأخذ بأسباب النجاح وتجنب الإخفاق، فالأفعال يفعلها القدر، أي يوقعها الله تعالى عليه جبراً عنه، وإرادته مشلولة، ويقوم بالفعل كيفما اتفق، مع أنه لا يعلم ما هو مقدر عليه أصلا، لا يعلم أي شيء عما قدره الله تعالى، ولم يطلب اللهُ منه ربط أفعاله بغيب لم يطلع عليه، لا قبل القيام بالأفعال، ولا حين القيام بها، بل طلب منه تفاعل أسبابه مع الخصائص التي قدرها الله في الأشياء، والسنن التي أقام الله المجتمعات عليها، بغية تحقيق الغايات، فيأتي قائلهم ويقول: لن أعمل، ولن آكل، أو لن أتخير بين أن أفعل كذا أو كذا بعد دراسة للموضوع، طالما أن ما شاء الله كائن، وما لم يشأ لن يكون، وطالما أن كل شيء يسير حسب إرادة الله، ونقول له: صحيح أن ما شاء الله كائن، وأن كل شيء يسير بحسب إرادته وعلمه، فلا يحدث جبرا عنه، ولكن النتيجة التي خرجت بها من فهمك خطأ، وهي أن على الإنسان أن يستسلم للأقدار،

---

[١٣٤] جواب سؤال عن الغيبيات والأسباب والمسببات ١٩٧٤ تقي الدين النبهاني،

والصحيح أنه مكلف ومسؤول، ومحاسب، ومطالب بالأخذ بالأسباب ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت ٤٦]، فالرسول ﷺ اختبأ في الغار ولم يقل "السترة على الله"، وحفر الخندق، وكتم عن جل أصحابه خطة فتح مكة، فهو قد قام بالفعل حسب ما يقتضيه الفعل، وأنه -وإن كان في المحصلة سيفعل فعلا علم الله أنه فاعله، إلا أنه فعله بإرادته هو، وبتخطيطه هو، وباختياره هو، وسيحاسب على اختياره.

ولم يلتفتوا إلى معنى القدر بأنه السنن والنواميس والخصائص التي عليهم أن يحسنوا التفاعل معها ودراستها، والأخذ بأسبابها، ولم يلتفتوا إلى أن القدر يعطيهم إيجابية في التفكير، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ٥١]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد ٢٢-٢٣]، فانقلب معنى الإيمان بالقدر عندهم من الإيجابية التي كان يجب أن يكون عليه، إلى السلبية والتواكل والقعود والتقصير، ومن ذلك ما رواه ابن عبادة بن الصامت: دَخَلتُ على عُبادةَ، وهو مَريضٌ أتخايَلُ فيه المَوتَ، فقُلْتُ: يا أبتاه، أَوصِني واجتهِدْ لي، فقال: أجلِسوني، فلمَّا أجلَسوه قال: يا بُنَيَّ، إنَّكَ لنْ تَطعَمَ طَعمَ الإيمانِ، ولنْ تَبلُغَ حَقَّ حَقيقةِ العِلمِ باللهِ حتى تُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه، قال: قُلْتُ: يا أبتاه، وكيف لي أنْ أعلَمَ ما خَيرُ القَدَرِ مِن شَرِّه؟ قال: تَعلَمُ أنَّ ما أخطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصيبَكَ، وما أصابَكَ لم يَكُنْ لِيُخطِئَكَ، يا بُنَيَّ، إنِّي سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، ثُمَّ قال: اكتُبْ، فجَرى في تلك السَّاعةِ بما هو كائنٌ إلى يومِ القِيامةِ»، يا بُنَيَّ، إنْ مِتَّ ولستَ على ذلك دَخَلتَ النَّارَ.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «كنتُ خلفَ رسولِ اللهِ ﷺ يومًا قال يا غلامُ، إني أعلِّمُك كلماتٍ: احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظِ اللهَ تجِدْه تُجاهَك، إذا سألْتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفَ»، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد ٢٢]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام ٣٨] معناها إلا أمم أمثالكم مكتوب أرزاقها، وآجالها وأعمالها، كما كتب أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم، ما تركنا وما أغفلنا في اللوح المحفوظ من شيء، فأطلق الكتاب على اللوح المحفوظ، أي كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ، وهذا كناية عن علم الله، أي ما من شيء إلا والله يعلمه. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود ٦]، ومن علم أن رزقه على الله وأجله بيد الله، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ أحداً لا يملك له نفعا ولا ضراً إلا الله تعالى، وأن رزقه وأجله ليس بيد أحد غير الله، ولا يطول عمره، ولا يقصر، روى أبو سعيد الخدري: «ألَا لا يَمنَعَنَّ أحَدَكم رَهْبةُ النَّاسِ أنْ يقولَ بحَقٍّ إذا رَآهُ أو شَهِدَه؛ فإنَّه لا يُقرِّبُ من أجَلٍ، ولا يُباعِدُ من رِزْقٍ؛ أنْ يقولَ

بحَقٍّ أو يُذكِّرَ بعَظيمٍ»، **فالمؤمن الذي يدمج إيمانه بهذه المعاني للقدر مع أفعاله**: لا يخشى إلا الله، ولا يتهاون في أداء أمر بمعروف ولا نهي عن منكر مخافة اقتراب أجل أو انقطاع رزق، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة ١٨]، ولم يخش إلا الله فيقول الحق، فهذا هو المعنى الإيجابي لدمج الإيمان بالقدر بالعمل، فهو طاقة هائلة تعطي المؤمن زخماً هائلا لأداء الأعمال غير هيّاب، وقد امتاز المؤمنون بتسليمهم ورضاهم بقضاء الله وقدره على غيرهم من الأمم، الأمر الذي ملأ نفوسهم طمأنينة ورضا، وحياتهم إيجابية، فلم يرتكسوا لما أصابهم، ولم يهنوا ولم يضعفوا ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٦]

٥٤) **إذن: تبين جليا أن ملاحظة السنن، أي القدر، لا يعني الوقوع في القدرية الغيبية**، إذ إن الإيمان بالقدر بالصورة الصحيحة هي الإيمان بأن كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ، لعلم الله بما سيختاره العبد، وبما سيقع في الوجود في ملكوته سبحانه وتعالى، والفهم الصحيح للقدر هو أن تسليم المؤمنين للقدر بأن «ما أصابك لم يكن ليخطئك»، وتسليمهم بأنه ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ٥١]، والتي جاءت جوابا على الآية السابقة لها في قول القاعدين عن الخروج مع الرسول ﷺ للجهاد والمنافقين: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة ٥٠]، "في قولهم ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ وفرحهم بمصاب المسلمين، فيقول لهم جوابا: إن كل ما يصيبنا ما كان إلاّ **بتقدير الله لمصلحة المسلمين** في ذلك، **فهو نفع محض** كما تدلّ عليه تعدية فعل ﴿كَتَبَ﴾ باللام المؤذنة بأنّه كتب ذلك لنفعهم، وموقع هذا الجواب هو أن العدوّ يفرح بمصاب عدوّه لأنّه ينكد عدوّه ويُحزنه، فإذا علموا أنّ النبي لا يحزَن لما أصابه زال فرحهم. وفيه تعليم للمسلمين التخلق بهذا الخلق وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم لئلا يهنو وتذهب قوتهم"[١٣٥]، فالإيمان بالقدر يفهم بصورة إيجابية دافعة للعمل، ومدعاة للدخول في معية الله وكنفه ورعايته، فينطلق المؤمن ليقتعد الذرى، وتسليم المؤمنين بأن علم الله محيط بكل شيء، فهو من يدبر الكون ويصرفه، وهو في الوقت ذاته من عليه حسن الاتكال، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [٣٨ الأنعام]، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾: أي في اللوح المحفوظ، رفعت الأقلام وجفت الصحف، فلا يقع شيء في الوجود إلا وقد علم الله أنه سيقع، وقدر ذلك من الأزل، وأن المسلم لا يعلم ما قُدّر إذ إنه لم يطلع على قدر الله، ولا على اللوح المحفوظ (وهذه صورة الإيمان الصحيح بالقدر)، انتقل القائلون بالقدرية الغيبية من هذه الصورة الصحيحة للإيمان إلى التسليم بأن كل شيء مكتوب عليهم، فيجب التسليم بالمكتوب الناتج لا محالة في الواقع، سواء فعلوا كذا أم كذا، فينسبون النجاح أو الإخفاق للقدر، ظنا منهم أنه من العبث مجاوزة المقدور، (مع أنهم لا يعلمونه، فكيف يستسلمون لغيب لا يعلمونه؟)، متناسين وجوب قيامهم بالعمل آخذين بأسباب النجاح، مبتعدين عن أسباب الإخفاق، **فيشل ذلك الفصلُ إرادتهم**، فيقعدوا عن

---

[١٣٥] التحرير والتنوير لابن عاشور

عظائم الأمور، ولا يقتحموا الصعوبات، ويستسلموا لكل ما ينال الناس من خير وشر، **بسلبيةٍ لدورهم في التغيير**، هذا هو **و اقع القدرية الغيبية**، **فيجب على المسلم أن لا يلاحظ القدر، (بمعنى لا يدخل في حساباته عند القيام بالعمل علم الله بما سيقع لأنه أصلاً لا يعلمه!)، لكن عليه أن يفهم أن القدر هو أساس إيجابي دافع للعمل، والهمة، والأخذ بالأسباب.**

٥٥) على أنه ثمة فرق بين الاستهداء بقدر معروف، رغم أن توقيته غير معلوم، وكيفية تحققه غير معلومة لنا، كوعد الله تعالى أنبياءه والذين آمنوا بنصره، وتكفله سبحانه وتعالى لعباده بالرزق، فيطمئن المؤمن إلى أن الله سينصره، وسيرزقه، وأنه حسبه إذا توكل عليه، فلا يبالي حينها بمقدار اضطراب موازين القوة في الدنيا، ولا يقول: إذا قامت الدولة فكيف لها أن تقف في وجه الشرق والغرب، وبالتالي: يُقْدِمُ على العمل مطمئنا مشحونا بعزيمة وطاقة هائلة، بخلاف من يتسرب اليأس إليه، ويترك السعي والعمل، ويثبط العزائم ناظرا في موازين القوى مستثنيا منها ميزان أن الله ناصر دينه ومتم نوره ولو كره الكافرون، فالناظر في حال الرسول ﷺ قبيل بيعة العقبة يرى أن قومه كانوا قد قاطعوه مقاطعة شاملة، ألجأت المؤمنين إلى أكل ورق الشجر والجلود، وكان جل المؤمنين له في الحبشة، ومن كان في مكة كان المستضعفون منهم يُسامون سوء التعذيب، ومن يعايش حالا كهذا يصعب عليه أن يقبل أن الأسباب المادية توحي باقتراب نصر مؤزر، ومع ذلك كان الصحابة يؤمنون بفتح فارس منذ ذلك الوقت! بل وفي ظل هذا الوضع طلب الرسول ﷺ النصرة من بني شيبان، فوافقوا على نصرة مشروطة منقوصة يعطونه إياها على العرب دون العجم، لارتباطهم بعهود ومواثيق مع الفرس، فرفض الرسول ﷺ قبول نصرتهم لأن «دِينَ اللهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إلّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ»، وما هي إلا أن سخر الله لهم الأنصار حتى قامت الدولة.

وأيضا، بخلاف قَدَرٍ غير معلوم، ومثاله: هل الخير في هذا العمل أو في هذا التخصص من الدراسة أم لا؟ فأمثال هذا لا يوضع الغيب في الحسبان، يأخذ بالأسباب ويفوض الأمر إلى الله أن يختار له أحسنه، وفي هذا يدخل موضوع الاستخارة، التي كان الرسول ﷺ يعلمها أصحابه في كل شأن، فعليهم الأخذ بالأسباب والقيام بالخيارات، ومن ثم يستخيرون الله بأن يختار لهم الخير، وأن يوفقهم لما فيه خيري الدنيا والآخرة.

٥٦) **وهذا البحث لا يعني بحال أن ينتقل لبحث نفي أن الله الفعال**، فهو بحث منفصل[١٣٦]،

٥٧) **ولا يمكن أن يقع بحث الأفعال التي خص الله تعالى بها نفسه، كالقضاء والرزق والنصر والإماتة تحت بحث القدرية الغيبية، خصوصا وقد تم الأخذ بالأسباب ودراسة السنن والتفاعل معها على أتم وجه، ولذلك فإن خلط موضوع القدرية الغيبية ببحث أن النصر من عند الله، والادعاء بأن من ينتظر النصر من الله بعد أخذه بالأسباب بأنه و اقع في القدرية الغيبية خلل في الاعتقاد، وسوء في الفهم، وإهمال لدراسة السنن الإلهية لا يصح الوقوع فيه.**

---

[١٣٦] أنظر: نشرة مؤرخة: ٢٥ من ذي القعدة ١٣٨٨، ١٩٦٩/٢/١٢ م في ملف النشرات الفكرية لحزب التحرير.

## السببية، والتوكل على الله، نحو فهم دقيق:

**٥٨) كذلك، من الخطأ خلط مفهوم السببية بمفهوم التوكل،بحيث يوضع التوكل على هامش السببية، فيقال خذ بالأسباب، وتوكل على الله شكلياً، لا حقيقة، فلكلٍّ منهما دوره، ومفهوم التوكل من أعظم مفاهيم العقيدة وأخطرها، وله أثر مباشر على العمل، فهو ليس مجرد مفهوم غيبيّ يُنَحّى عن الواقع!! ومن الخطر العظيم أيضاً فصل الارتباط بين حقيقة أن النصر بيد الله تعالى و أنه الفاعل فيه على الحقيقة، -وهذا المفهوم من ضمن مجموعة مفاهيم عقدية اختص الله تعالى نفسه بها بوصفه ربا، كالرزق والإحياء والإماتة والنصر- وبين هذه الحقيقة، (أو هذه الحقائق) وخلطه بمفهوم الأسباب، فنظن أن أسبابنا المادية فقط كفيلة بتحقيق الرزق أو النصر أو الإماتة، فإننا في الوقت الذي نحن مطالبون فيه بالأخذ بأسباب الأعمال التي خوطبنا بها على وجهها، والأخذ بسننها المجتمعية، ولا نقعد عنها وعن اتخاذ أسبابها كي نقع في مظنة تحقيق ما اشتُرِط علينا من نصرة الله ودينه، فإن قعودنا عن العمل، أو عن اتخاذ أسبابه إثمٌ، لكن هذا لا يعني البتة أن نُخضع التغيير للسنن المادية التاريخية الحتمية الماركسية، بثوب "إسلامي" لا يضع في الاعتبار تصرف الله في النصر، فنظن أن بأيدينا مفاتحه، و أننا نستطيع تنزيله بأفعالنا، وأن "دور الله تعالى فيه مجرد دور رمزي، منفعل بأفعالنا"، حاش لله،** وبذلك يجب أن تكون حقيقة أن النصر من عند الله عقيدة، وأنه الفاعل فيه على الحقيقة **بغض النظر عن الأسباب والمسببات**، فهي ليست قيدا له، ولا ينفعل فعله سبحانه وتعالى بها، وإنما هي شروط لازمة ضرورية.

٥٩) قال الإمام تقي الدين النبهاني: "وأما **التوكل على الله**، فإن المسلمين الأوائل قد فهموه حق الفهم، وتوكلوا على الله حق التوكل، ولذلك قاموا بعظائم الأمور، واقتحموا أشد الصعاب، بخلاف المسلمين المتأخرين،... فكان من نتيجة ذلك أن انحطت الهمم، وضعفت العزائم، وضاق الأفق في النظرة إلى الحياة، فصاروا يحسون بالعجز، ويعتقدون أن قدرتهم محدودة، وأنهم لا يستطيعون إلا ما استطاعوا تحقيقه، ولهذا لن يرجع المسلمون إلى اقتعاد ذرى المجد، والاندفاع في الحياة لتحقيق المعالي، إلا إذا فُهم التوكل على الله حق الفهم، وتوكلوا على الله حق توكله، فإن عظائم الأمور لا يمكن أن يحققها الرجال **إذا حدوا قدرتهم بقواهم الإنسانية وحدها**، فإن هذه القوى الإنسانية إذا نظر إليها وحدها، وعمل بمقدار نظرته هذه قصرت باعه، حتى عن تحقيق الأمور العادية، فضلا عن الأمور غير العادية، ولكن إذا آمن الرجال أن هناك قوى وراء الإنسان تساعده على تحقيق طلباته، فإنه ولا شك يندفع إلى ما هو أكبر من قوته، معتمدا على تلك القوى... فكيف بالمسلم وهو **يؤمن بالله** عن دليل قاطع، ويصدق بوجود الله تصديقاً جازماً مطابقاً للواقع عن دليل، فإنه ولا شك يحقق بتوكله على الله أضعاف أضعاف ما يحققه غير المسلمين، ومن هنا كان التوكل على الله من أعظم مقومات الأمة الإسلامية ومن أهم أفكار الإسلام... وطلب التوكل على الله في هذه الأدلة كلها لم يأت مقرونا بشرط، ولا مشروطا فيه عمل من الأعمال، بل جاءت الأدلة مطلقة في طلب

التوكل، فيكون الواجب هو التوكل على الله بشكل مطلق، **في كل أمر من الأمور**، **وفي كل عمل من الأعمال**، يجب أن نتوكل على الله.

وبذلك يكون التوكل على الله فرضاً **بغض النظر عن الأسباب والمسببات**، **وهي ليست قيدا له، ولا بيانا لحكمه**، لأن أدلته جاءت مطلقة غير مقيدة، ولم تقيد ولا بنص من النصوص، ولأن أدلته ليست مجملة، حتى تحتاج إلى بيان، **ومسألة الأخذ بالأسباب والمسببات، مسألة أخرى غير مسألة التوكل**، فهي مسألة ثانية غير التوكل، وأدلتها غير أدلة التوكل، **فلا يصح أن تحشر معه**، أو تجعل قيداً له. **فكما يجب على المسلمين أن يأخذوا بالأسباب والمسببات، كما ثبت ذلك بالأدلة الشرعية، كذلك يجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى**، كما ثبت ذلك بالأدلة الشرعية، وليس أحدهما بقيد للآخر، ولا شرطا من شروطه."[١٣٧].

## التوكل على الله: طاقة الإيمان التي تصنع الفعل وتبني الأمم

ملخص تنفيذي:

**أركان التوكل الستة**

**١. المعرفة (المعرفة بالله – المَعْرِفَة)**

- معرفة صفات الله: القُدرة (القادر)، الحِكمة (الحكيم)، الرحمة (الرحمن)، الكفاية (الوكيل).
- إدراك أن الأسباب أدوات لا تعمل بذاتها، وإنما بإذن الله.
- قاعدة الإيمان: كل حركة في الكون جاريةٌ بقضائه وقدره.
- مرآة قرآنية: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]

**٢. الثقة (الاعتماد على الله – الاعتماد)**

- تسليمٌ داخليٌّ يورث يقينًا بأن اختيار الله خيرٌ من اختيار العبد.
- يبدأ التوكل حين تنتهي القدرة البشرية، غير أنّ الثقة الحقّة تبقى حاضرة حتى في حدود الطاقة، طلبًا للعون الإلهي في كل خطوة نحو النجاح.
- قال ابن عاشور: "*لا تستبعد وعد الله لأنك لا ترى وسيلة لتحقيقه*".
- الثمرة: سكينة نابعة من اليقين.

**٣. الرضا (الرِّضا بالقضاء)**

- قبول قضاء الله بعد بذل الجهد المشروع.
- ثمرة التوكل: الطمأنينة بما أُعطي وما مُنع.
- مرساة نبوية: قال ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» (رواه مسلم.)
- نداء القلب: "*ما اختاره الله لي خيرٌ مما أختاره لنفسي*."

**٤. التحرر (التحرر من التعلّق بالمخلوق)**

[١٣٧] ("إزالة الأتربة عن الجذور" ربط الأفكار والأحكام بالعقيدة الإسلامية، لحزب التحرير)

- حرية القلب من الاعتماد على الخلق.
- لا خوف من الناس، ولا رجاء فيهم.
- ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]
- يصبح التوكل عبادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]

**٥. السكينة (سَكِينَة القلب)**

- سكون نابع من الإحساس بمعية الله.
- ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]
- الحالة الشعورية: ثبات، هدوء، طمأنينة، قلب راسخ بقرب الله.

**٦. التمكين (تَمْكِين الإيمان والعمل)**

- العون الإلهي يحوّل الإيمان إلى أثرٍ ونجاحٍ ملموس.
- ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]
- حقيقة التاريخ: كل نهوضٍ يبدأ من قلبٍ وثق بالله أكثر من الثقة بالأسباب.

**ثمار التوكل**

- **سلام داخلي:** حرية من القلق والخوف.
- **شجاعة أخلاقية:** قوة على فعل الحق دون النظر إلى العواقب.
- **تفاؤل:** الإيمان بحكمة الله في السراء والضراء.
- **بركة:** نتائج تفوق الجهد؛ توفيق لا يُرى بالأسباب.
- **قوة حضارية:** صلابة إيمانية تبني الأمم (غزة نموذجًا).

مادة البحث:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، "أي لا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله حين ترون أسباب ذلك مفقودة فإن الله إذا وعد وعداً فقد أراده وإذا أراد الله أمراً يسَّر أسبابه". (ابن عاشور)، إن من سلَّمَ قلبَهُ للهِ، وفوَّضَ قُدرةَ الله تعالى وحكمته لتدبير جميع أموره، واعتمد عليه في جلب المنافع ودفع المضار، فإن الله يكون كافيه في ما أهمَّه من أمره؛ فإذا عجزت الأسباب وكفّت الوسائل، فلا ينقصه شيء، لأن **كفايته** من عند الله وحده.

المتوكل على الله حقًّا عبدٌ خالَطَ الإيمانُ بشاشةَ قلبه، حفظ الله فحفظه، ووجده تجاهه، فسكنت روحه في ظلّ ربٍّ يعلم يقينا أن نواصي الخلق جميعًا بيده، وأن شيئا في الوجود لا يتحرك إلا بإذنه، ولا يقع رزقٌ أو ضرٌّ أو كشفُ ضرٍّ، أو نصرٌ إلا بتقديره. قلبه موقنٌ أنّ الأسباب وسائط وأدوات، وأن وراءها آمِراً أَمْرُهُ بين الكاف والنون، **فاعلًا واحدًا** هو الله، فلم يسأل غيره، ولم يعتمد إلا عليه، موقنٌ بأن أحداً في الكون لا يملك له نفعا ولا ضرا إلا الله.

قد ألقى المتوكل سُدّة الأمر بين يدي ربّه، فلا يرى في الكون مُدبِّرًا سواه، ولا في الخلق مُستغاثًا غيره، ولا في المستقبل ما يُقلقه، لأن الذي كتب الأقدار هو الذي تكفّل بتدبيرها، والذي خلق كل شيء بقدر، على قدر

مخصوص، ووجه مخصوص، وبصنعة متقنة، وبانضباط وفق قوانين لا يخرج عنها، يتفاعل معها الإنسان جامعا بين أقصى الجهد، وأكمل التفويض، متوكلا على الله في كل حال، ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾ (آل عمران: ١٥٩)، فيسخرها الله لقضاء حوائجه، فإذا ما عجز الإنسان بجهده عن تحريك الأسباب، لم يبق له إلا توكله على الله، سخَّر اللهُ له من الأسباب ما ليس بمكنته تسخيره (كما سخر الريح في الخندق)، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، إن أعطى فبفضله، وإن منع فبحكمته، فلا فرح يُطرِيه إن جاءته النتائج كما أراد، إذ إن قلبه في طمأنينةٍ لا تزلزلها خيبةٌ، ولا حزن يُحطمه إن حالت دونها المقادير، لأنه يعلم أن **ربَّه هو الوكيل الكافي**، ويعلم أن سنده ومعينه في السماء لا في الأرض، وأن اختيار الله له خيرٌ من اختياره لنفسه. يستشعر قرب الله في كل شأن، فيسمع نداء ربّه في آياته: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، فيرى فيها وعدًا لا يتخلّف، وكفايةً لا تنفد.

يعيش المتوكل بين جناحين:

- **جناح الإيمان بأن الله هو الفاعل الحقيقيّ**؛ فكلّ حركةٍ في الكون أثرٌ لإرادته.
- **وجناح الرضا والتسليم**؛ فلا ينازع ربَّه في قَدَرِه، ولا يقترح عليه تدبيره.

علاقته بربّه علاقة **يقينٍ واعتمادٍ ومحبةٍ وثقةٍ مطلقة**؛ إن دعا استحيا أن يعترض، وإن تأخر المطلوب ازداد إيمانًا بأن لله في تأخيره حكمة. قد فرغ قلبه من الاتكال على الخلق، فلا يرجوهم ولا يخافهم، بل يرى أن ما أتاه من خير فمن الله، وأن ما منعه الله عنه فلأنه أرحم به من نفسه. قال ابن القيم رحمه الله في *مدارج السالكين*: "التوكل منزلة عظيمة تجمع حقيقة الإيمان، فإن المتوكل إذا شهد ربَّه في تدبيره، وفني عن الالتفات إلى غيره، صارت حركاته وسكناته بالله ولله ومع الله، فصار العبد في مقامٍ لا يرى معه إلا الله."

فالمتوكل إذن **عبدُ شهودٍ لا عبدُ غفلة، عبدُ ثقةٍ لا عبدُ حيلة، عبدُ عبوديةٍ لا عبدُ اضطرار**؛ يسير في دربه كالسائر على ماءٍ من نور، تتكفّله القدرة الإلهية من حيث لا يحتسب، وتقيّده الإرادة الربانية بقدرٍ فيه كلّ الخير وإن لم يدركه البصر.

## التوكل بين الإيمان والفعل، الركائز العقدية العشرة لعقيدة التوكل:

يقوم التوكل على **أعمدةٍ عقديةٍ عشرة**، هي بمثابة الجذور التي منها تفرّعت شجرة الإيمان الثابتة:

**التوكل لغةً**: هو الاعتماد والتفويض. يقول ابن منظور: "وكل فلان أمره إلى فلان: أي أسنده إليه واعتمد فيه عليه". وقد عرفه الإمام أحمد بن حنبل فيما نقله عنه ابن القيم في مدارج السالكين: **"التوكل: قطع الاستشراف بالإياس من الخلق."** أي أن يعتمد العبد على الله وحده، وييأس من استجلاب النفع أو دفع الضر من المخلوقين، فلا يلتفت بقلبه إلى غير مولاه. وعرفه ابن رجب الحنبلي: "حقيقة التوكل: صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، مع الثقة به، وحسن الظن به، وتسليم الأمر إليه." وعرفه ابن القيم: **"التوكل هو اعتماد القلب على الله وحده، مع بذل الجهد في الأسباب المشروعة، بحيث لا يرى العبد نفسه إلا آلةً، ولا يرى الفاعل إلا الله."** ويقول أيضًا: **"التوكل نصف الدين، والنصف الآخر الإنابة؛ فالدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة."**

**أولا**: ترسم العقيدة الإسلامية صورة المؤمن الحق، متفاعلا مع الحياة تفاعلا إيجابيا، فاهما لنواميسها، متفاعلا مع تلك النواميس وفق مبدأ الأخذ بالأسباب، والسعي الجاد في جنبات الأرض ليعمرها، المؤمن بأن الله تعالى قدر كل شيء تقديرا، وفق قوانين صارمة، فالتوكل هنا في مجال مَن أخذَ بالأسباب وتوكل على الله في تحقيق نتائج سعيه، وتحققت غايته فتحركت الأسباب بقدرة الله تعالى ونال غايته. والتوكل لا يعني ترك السعي، بل هو روحٌ تُحيي العمل. قال النبي ﷺ: «*لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا*» (الترمذي). فالتوكل الحق هو أن تغدو، لا أن تقعد. وينبغي التنبيه هنا أن التوكل ليس بديلا عن الأخذ بالأسباب، ولا يأتي دوره "بعد الأخذ بالأسباب"، وأن التوكل على الله يلازم العبد في كل أحواله، قبل العمل وأثناءه وبعده، فالتوكل مُلابس للقيام بالعمل ولا يأتي بعده كإطار "مكمّل"، قال تعالى: ﴿**فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾ (آل عمران: ١٥٩).

**ثانيا**: ومجال آخر سعى فيه المؤمن سعيه، وأخذ بالأسباب، لكن ولأن ناصية النتائج في الأنظمة المجتمعية ليست تجري دائما وفق السببية العقلية، إذا وجد السبب وجد المسبب، أو إذا تحقق الشرط السببي حصلت نتيجته على الفور، بل في أحيان كثيرة قد لا يفضي الأخذ بالأسباب إلى تحقق النتائج، ومثال ذلك دعوة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب، أخذ بأفضل أسباب الدعوة والترغيب والإقناع، لكن النتيجة لم تكن هداية عمه، ففي مثل هذه الحالات يأتي مفهوم التوكل على الله بأن يحقق ما قصر عنه النظام السببي، فيهدي اللهُ من يشاء، ويشرح صدره للإسلام، فإما أن يتفضل الله على ذلك المؤمن بتحقيق غاياته لا بفضل فعله السببي، بل بإجراء أسباب أخرى ليس في مكنة العبد إجراؤها، أو أن تكون لله حكمة أخرى.

**ثالثا**: ومجال لم يستطع الإنسان فيه أن يحقق غاياته بتفاعله المحض مع نظام الأسباب والمسببات فكم من إنسان يمتلك أعلى الشهادات وأفضل الخبرات إلا إنه قد لا يوفق في الحصول على العمل! والتوكل تفويض الأمر لله قبل وخلال وبعد بذل الجهد، مع استنفاد الجهد، اترك الأمر لمولاك الذي لا يُعجزه شيء، دون قلق، ﴿فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦]. هذا التفويض يورث طمأنينة القلب وثباته عند الشدائد.

**رابعا**: ومجال لم يستطع الإنسان فيه أن يقوم بالأسباب اللازمة للعمل كلها، وفي أحيان أخرى قد لا تحقق الأسباب المادية وحدها انتصار الحق على الباطل، إذ إن قوة الباطل اليوم مشرئبة، عاتية، ولكنها ليست بشيء أمام وعد الله بنصر دينه واستخلاف المستضعفين من أوليائه، فعوضت عقيدة التوكل على الله ذلك النقص في قوة المؤمنين بقوة من الله تحقق فعلا أن يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، فلا بد من بعد إضافي آخر إذن لا يتعلق بنظام الأسباب والمسببات مباشرة، وهذا البعد يتمثل في عقيدة التوكل على الله.

**خامسا**: ومجال اختار الله فيه للعبد فلم يحقق للعبد ما تمناه، أو أخَّرَ تحققه لعلم الله وحكمته. من توكّل عليه علم أنه أرحم به من نفسه، وأن ما قضاه له خيرٌ مما اختار لنفسه، فالتوكل مبني على العلم بأن الله عليم بما يصلح العبد، قادر على تحقيقه، حكيم في اختياره له، والثقة هنا ليست عاطفية، بل معرفية، نابعة من معرفة صفات الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. والتوكل رضا بالقضاء الذي قضاه الله بعد السعي، مهما كانت النتيجة، والرضا بما قدره الله تعالى ثمرة التوكل، فمن رضي بعد الاجتهاد ذاق طعم

الإيمان. قال ﷺ: « احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز،فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلتُ كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل » (مسلم). فالتوكل الحقيقي لا ينهار عند الفشل الظاهري، لأنه يعلم أن الخير فيما اختاره الله.

فهذه خمسة أنواع للتوكل على الله، مما له علاقة بنظام السببية، وبالأخذ بالأسباب.

أما التوكل كإطار عقدي فيما لا علاقة له بنظام السببية،

**أولا**: وفي شق آخر من عقيدة التوكل تتجاوز مجرد التفاعل المادي مع الأسباب والمسببات، عبر الإتيان العقدي بأبعاد طبيعتها إيمانية محضة، تبجل الله تعالى بأنه أهل لأن يعتمد عليه، وأهل لأن يكون الظن فيه حسنا دائما، فيتوقع المسلمُ الجميلَ من الله تعالى، لتمام حكمته ورحمته، »أنا عند ظنِّ عبدي بي« (حديث)، فيمنع ذلك المسلمَ من اليأس عند تعثر النتائج أو تأخر الفرج.

ثانيا: وتتوكل على الله تعالى موقنة يقينا جازما بأن الله **وحده الخالق** المدبّر لكل شيء: نفعًا وضرًّا، رزقًا ونصرًا، حياةً وموتًا. ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة ٥١)، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. المعنى: **موضوع التوكل هنا هو الله** لا السبب؛ اعتماد القلب على المالك المتصرّف في الكون على الحقيقة بذاته، فلا يقع شيء إلا بإرادته، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فكيف يُتَوَكَّلُ على غيره؟. الأسباب أدوات، لا تستقل بالنتائج، ولا تخلقها، بل تنفع بإذن الله تعالى وحده. حين أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار قال *«حسبي الله ونعم الوكيل» (البخاري)*، فانقلبت النار بردًا وسلامًا. فلا تأليه للأسباب، ولا يُنظر إليها نظرة سلبية قدرية غيبية، بل ينظر إليها نظرة إيجابية مصحوبة بالاعتماد على الله تعالى في تحقيق نتائجها. ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم... وعلى ربهم يتوكلون**﴾ (الأنفال: ٢). فدل ذلك على أن من لا يتوكل على الله -بالمعنى الصحيح- فقد نقص إيمانه وتوحيده، أو وقع في شرك خفي بتعلّق قلبه بغير الله.

ثالثا: والاعتقاد أن **لا كاشف للضر ولا جالب للنفع إلا الله**، وأن الأسباب لا تفعل بذاتها، فالتوكل هنا إفراد الله تعالى بالنفع والضر على الحقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ (يونس ١٠٧)، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (فاطر ٢)، وهذا التوكل يقطع التعلق القلبي بالمخلوقين. وفي هذا التوكل قد يفوق العطاء الرباني حجم الجهد، فيزيد فوق العطاء بركة وقبولا، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق ٣)، وهذا العطاء لا يخضع لمعادلة المبادلة "على قدر السبب أو البذل يكون الأثر أو العطاء" تفضلا من الله ومنة.

رابعا: يتأسس التوكل أيضا على يقين الكفاية، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق ٣). المعنى: الله **يكفي** عبده المتوكل ولو انقطعت الأسباب أو خذلت. وعلى يقين المعية الخاصة لله مع أهل التوكل، نصرا، وحفظا، وتسديدا، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، وقوله ﷺ في الغار: «لا تحزن إن الله معنا»، فالتوكل هنا ركن إيماني مستقل عن تقدير قوة الوسائل، وعلى التفويض (إلقاء العاقبة إلى الله بعد النيّة والقصد)، فيسلم المؤمن مجمل أمره وعواقبه لله ابتداء وانتهاء، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ (غافر ٤٤). والتفويض مقام إيماني سابق ولاحق للأفعال، لا تقنية إنجاز سببية للأفعال! وعلى الرضا بحكم الله وقضائه، بلا سخط ولا اعتراض قلبي،

...»وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنّي فعلتُ... ولكن قل قدر الله وما شاء فعل» (مسلم). فلا علاقة لهذا الركن القلبي بكثرة الوسائل ولا قلتها، بقوة الأسباب ولا بضعفها،والتوكل يقين بأن الرزق والنصر والتوفيق من الله، فكلّ حركة رزقٍ أو فتحٍ في تاريخ الإسلام كانت ثمرة توكلٍ صادق. فلا يقوم النصر في ساحات الجهاد والدعوة، إلا بالإيمان الحق بأن الله هو الناصر، كما كان الإيمان بأن الله هو الرازق. ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأنفال: ٩].

خامسا: والتوكل قطع التعلق القلبي بالمخلوقين، فيتحرر القلب من عبودية البشر والظروف،﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ويستغني المؤمن المتوكل بالله عن الخلق، فلا يخشى أحدا إلا الله، ولا يرجو أحدا إلا الله، ولا يعقد ناصية أمله إلا بالله، ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾، و«من تعلّق شيئًا وُكِل إليه»، وهذا تحريرٌ عبوديّ خالص لا "إدارة مخاطر" سببية. والتوكل هنا إخلاص خالص صرف في الاعتماد على الله تعالى عبادة لله، كحال الاستعانة والدعاء، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فالتوكل ماهيته **تعبُّدية** لا "أداة نفسية" لرفع المعنويات، والدعاء ترجمان التوكل، فيه طلب العون مباشرة من الله استقلالا، »اللهم رحمتك أرجو... ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»، وهذا باب غير سببيّ؛ إنه **وِجْهة اعتماد** لا وسيلة حسّية. لذلك كانت الأمة التي تربت على التوكل لا تهتزّ أمام قوى الأرض. والمتوكل لا ينفصل عن الله، فهو دائم الذكر، دائم الدعاء، يرى في الاستغفار زاده اليومي. والتوكل ليس حالة عقلية فقط، بل **سلوك قلبي متصل بالله بالذكر والدعاء، والدعاء هو الترجمة العملية للتوكل، إذ لا يدعو إلا من أيقن بالعجز عن الاستقلال**، قال ﷺ في الكرب: *«اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين». (الترمذي).*

إذن، فالتوكل في الإسلام يكون في شِقَّين:

١. شِقّ **السببية**: الأخذ بالأسباب وتفويض النتائج، والرضا، والتوكل ليس بديلا عن الأخذ بالأسباب، بل هما أمران مختلفان ضروريان في الفكر الإسلامي.
٢. شِقّ **غير سببي**: حين **لا تُفضي الأسباب** لنتائجها (هداية عمّ النبي ﷺ، تفوّق الباطل ظاهريًّا...)؛ هنا **يتجلى التوكل** كاعتماد على الله **لتحقيق ما تعجز عنه المنظومة السببية**: هداية، قَبول، نصر، بركة، سكينة... وفوق ذلك اعتقادا غير متعلق بالسببية البتة لأن الله تعالى أهل لأن نتوكل عليه، وهو النافع والضار والمعطي والمانع على الحقيقة، فيجب التوكل عليه لذلك بصرف النظر عن الأسباب ومسبباتها، وهذا هو مجال الركائز العشرة أعلاه.

والتوكل موازنة بين الغيب والشهادة، بين التخطيط الواقعي وبين الإيمان بالغيب، فالإيمان بالغيب لا يعني إهمال الواقع، كما إن الواقعية لا تعني نسيان الغيب، فالمؤمن يخطط، ويقدّر، ويسلم أمره لله في كل حين، واثقًا أن مشيئته وراء كل تدبير. وهكذا فعل النبي ﷺ في الهجرة، إذ أخذ بكل سبب مادي: الدليل، والطريق، والغار، ولبس درعين في القتال، واستعمل الحراسة، كل هذا مع كمال الاعتماد على الله، فالتوكل في الإسلام أعظم **طاقة روحية تولِّد الفعل والإقدام.**

والتوكل هو اجتماع أربعة عناصر: أولها: معرفة بالله وصفاته، فالتوكل عليه حق له لأنه أهل للاعتماد عليه، ولأنه الفاعل على الحقيقة، وثانيها سعيٌ بالأسباب المشروعة، وثالثها: وتسليم ورضا بالقضاء والنتائج، ورابعها: مدد وقوة من الله تسخر أسبابا ليس في مكنة الإنسان تسخيرها، لتحقق الغايات.

وفي الوقت ذاته، فإن **التوكل ليس "تقنية إدارة أسباب"**؛ بل **عقيدة اعتماد** على ربٍّ نافعٍ ضارٍّ، كافٍ، قريبٍ، يسمع ويمدّ، ويوهب السكينة والقبول والنصر والرزق والهداية **من عنده**، متى صدق القلب في تفويضه وحسن ظنه وقطع تعلّقه بغيره، سواء سارت الأسباب على قانونها أو تعطّلت.

ليس في الإسلام خُلُقٌ أعمق أثرًا في النفس وأقوى في بناء الشخصية من **التوكل على الله**. إنه ليس لفظًا يُتلى، ولا شعارًا يُردَّد، بل **عقيدةٌ كبرى** تستمد وجودها من التوحيد ذاته، وتغذّي روح المؤمن بطاقةٍ من اليقين والثبات، حتى يصير القلب ساكنًا مطمئنًّا في وجه العواصف، عامرًا بالثقة حين تضطرب الأسباب. في لغة القرآن، التوكل هو **الاعتماد الكامل على الله**، أن تهيّئ الأسباب، ثم تسلّم النتائج لصاحب القدر الذي لا يخطئ التدبير، وفوق ذلك أن تعتمد على الله لأنه أهل لذلك: قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ومن المهم التمييز بين **التوكل كعقيدة وكعمل قلبي** من جهة، وبين **آثار التوكل وثماره العملية** من جهة أخرى. **فالتوكل** في حقيقته هو حالة إيمانية راسخة في قلب المؤمن، يدفعه إليها علمه بعظمة الله وكمال صفاته ويقينه بوعده وقدره. أما **أثر التوكل** فهو ما ينتج عن هذه الحالة القلبية من طمأنينة وسكينة في النفس، وقوة في مواجهة الحياة، وكفاية إلهية تتحقق للمتوكل في شؤونه.

## التوكل... سرّ القوة الحضارية

عقيدة التوكل لم تكن حالة قلبية فحسب، بل **قوة حضارية صنعت التاريخ**. منها انطلقت أمة فقيرة في عُدّتها، عظيمة في يقينها، فغيّرت مجرى العالم. حين وقف النبي ﷺ في الغار مطاردًا، كانت كلمته لأبي بكر قمّة التوكل: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ [التوبة: ٤٠]. كانت تلك الكلمة ميزان التاريخ بين خوفٍ ويقين، بين بشرٍ في الغار وجنودٍ في السماء. ولأنهم آمنوا أن القوة الحقيقية ليست في العدد ولا العتاد، بل في سند السماء، انتصروا حين خاف غيرهم، وثبتوا حين اضطربت الأرض. التوكل جعل المسلم لا ينهار أمام الشدائد، لأنه لا يقيس النصر بعدد ولا قوة، بل بقدر الله الذي لا يُغلب. ولذا، حين ضعفت عقيدة التوكل في النفوس، ضعفت معها **روح العمل والنهضة**، وعمّ الخوف واليأس، لأن القلوب انقطعت عن مصدر قوتها.

## التوكل لا التواكل

كثيرون خلطوا بين التوكل والتواكل، فكانوا سببًا في تعطيل الأمة. التوكل حركةٌ في قلب عامل، والتواكل سكون في قلبٍ عاجز. التوكل يُثمر عملاً، والتواكل يُنتج كسلاً. التوكل عبادةٌ يقينية تُثمر الفعل، والتواكل حيلة نفسٍ تتذرّع بالقضاء لستر العجز. قال عمر بن الخطاب ؓ لمن ترك العمل بحجة التوكل: *"إن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة"*. وفي هذا وعيٌ عميق بأن التوكل لا يكون إلا بعد السعي، كما لا تكون الثقة إلا بعد البذل.

## ثمرات التوكل في النفس والمجتمع

من ثمرات التوكل وآثاره الكفاية الإلهية والمعية الخاصة، حيث يكفي الله عبده المتوكل ما أهمّه ويؤيده بنصره وتوفيقه. قال تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾ (الطلاق: ٣)، أي كافيه في أموره، والطمأنينة والسكينة القلبية، إذ إن المتوكل على الله يملأ قلبه الرضا والأمان؛ لأنه أسلم أمره لمن لا تضيع عنده الودائع ولا يخيب من توكل عليه. وهذا الشعور بالسكينة يُعد من نعَم الدنيا العظيمة، وهو ثمرة وثيقته بربه. قال تعالى: ﴿**أليس الله بكافٍ عبده**﴾ (الزمر: ٣٦) استفهام تقريري يسكب السكينة في قلب كل من أيقن أن الله كافيه، ومن ثمرات التوكل القوة **المعنوية والشجاعة في الحق:** فمن أيقن أن الأمر كله بيد الله هانت عليه الشدائد، ولم يعد يخشى المخلوقين أو الظروف، بل يواجه المواقف بثبات مستمد من ثقته بالله. وقد قال بعض السلف: "من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله". فالتوكل يمنح صاحبه **قوة داخلية** تدفعه لاقتحام الصعاب وإنجاز الأعمال العظيمة، معتقدًا أن **مدد الله معه**. وهذا ما حصل مع الصحابة الكرام حين واجهوا أمم الأرض بقوة إيمانهم وتوكلهم، ففتحوا القلوب والبلدان وهم قلة ضعيفة في نظر المادّة لكنهم أقوياء بالله تعالى، ومن ثمرات التوكل تحقق **النتائج المباركة والنجاح بتيسير الله:** كثيرًا ما ترى المتوكل على الله يسعى في أمر فيفتح الله له أبواب التوفيق والمدد الخفي، على نحو يتجاوز حساباته المادية. فيطرح الله البركة في جهوده القليلة فتثمر نتائج عظيمة.

## التوكل في الفكر الإسلامي

في الفكر الإسلامي، التوكل مقامٌ من مقامات **الإحسان**. قال الغزالي: *"التوكل ثمرة التوحيد"*. وقال ابن القيم: *"التوكل نصف الدين، والنصف الآخر الإنابة"*. وقال ابن تيمية: *"التوكل أصل في كل عمل ديني، لأنه يجمع العلم بالله والعمل له."* فهو حالة روحية وفكرية في آنٍ واحد، تُوحّد الشعور الإنساني بالله وتربطه بالفعل الواقعي في الأرض.

بهذا الإيمان بنى المسلمون حضارتهم، وبه يستعيدونها. فالأمم لا تنهض بقوة المال والسلاح، بل **بقوة الإيمان والعمل الموقن**. ومن جعل الله وكيله، فقد كفاه الله أمره، كما وعد سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

## ربط الأسباب بالمسببات ربطاً مادياً أحياناً، وربطا غير مادي في أخرى:

سبق وأن بينا أن الله تعالى قد جعل للمؤمنين سنناً إلهية خاصة بهم، نلمح فيها ملمحين رئيسين:

أولهما: تمكن الحق من الانتصار على الباطل إن بذل أصحاب الحق أقصى ما يستطيعون من الإعداد، ولكن إعداد أعدائهم يتفوق على إعدادهم، فيتداركون الفرق بالاستعانة بالله، وبالطاعة والصبر والثبات، أي بالأخذ بأسباب النصر في المعركة، الواردة في السنن الإلهية، ففي **السنن الالهية**، تكون العاقبة انتصار الحق على الباطل، وإقامة العدل في الدنيا، وما إلى ذلك! فتكون نتيجة التدافع بين الناس هي غلبة الحق لا غلبة القوي! ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٢٤٩ البقرة]. فهذا الملمح الأول يخصص أسبابا معينة للوقوع في مظنة تحقيق السنن الإلهية، تزيد على الأسباب التي تبنى عليها السنن المجتمعية التاريخية، أو تخصص بعضها دون بعض، لتهذب العمل بقيمها الإسلامية الراقية.

فمثلا: تجري سنن تغيير الدول والمجتمعات وفقاً لنواميس وقوانين معينة واضحة، تتضمن التأثير في الرأي العام وقيادة الكيان المجتمعي لتبني أفكار ومقاييس وقناعات معينة يراد لها أن تصل إلى الحكم وأن تستبدل القوانين والأفكار والمقاييس والقناعات الحاكمة بها، ويسار فيه إلى امتلاك القوة القادرة على إحداث هذا التغيير، لكن الإسلام يرفض أن تكون الأعمال المادية جزءاً من هذه العملية التغييرية لتغيير دار الكفر إلى دار إسلام، حين تنعدم دار الإسلام من الأرض تماما، وتطبقُ أنظمة الكفر على الحياة فتكون عُرَفاً مجتمعية، لكنها تعمل على نزع القوة من الكيان التنفيذي الحاكم لتجنب العملية التغييرية أن تكون دموية قدر المستطاع،

ففي حين أن السنن المجتمعية التي تسير العملية التغييرية سيراً مطردا لا يحابي أحدا، تفرض قوانين معينة تحكم العملية التغييرية، إلا أننا نلاحظ أن السنن الإلهية قد هذبت تلك القوانين وحددت المقبول منها وغير المقبول، تم تأطيرها بإطار قيمي إسلامي يحكم العملية التغييرية لتفضي لغاياتها، لكنها في المجمل تتوافق مع السنن التاريخية المجتمعية.

أما الملح الثاني للسنن الإلهية، **فهو ملمح أنه يربط الأسباب بالمسببات ربطاً مادياً حين يحتاج ذلك، وأحياناً لا يربط الأسباب بالمسببات ربطاً مادياً** تظهر فيه كيف تؤثر القوة أو الطاقة القادرة على التأثير في المُسَبّبِ لإحداث التغيير في حالته، بل قد لا تجد علاقة سببية مباشرة البتة بين طرفي المعادلة السببية، "قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣]، قال تعالى على لسان رسوله نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

الآيات المذكورة أعلاه من سورة الطلاق وسورة نوح تفيد أن كثيراً من النتائج تنتج من أسباب لا يستطيع الإنسان رؤية الرابط فيها بين السبب والنتيجة. فهي ليست من نوع الأسباب المادية التي تُنتج عادة مثل هذه النتائج المادية. فالرابط بين هذه الأسباب ونتائجها رابط غيبي، أعلمنا اللهُ به. ولذلك فإن الذي لا يؤمن بالله وآياته لا يؤمن بهذا النوع من الأسباب لهذه النتائج. إذ كيف يتصوّر الملحد أنَّ تقوى الله تحلُّ المشاكل وتفرّج الكروب وتجلب الرزق؟! وكيف يصدّق الملحد أن الاستغفار ينزل المطر، ويأتي بالأموال والأولاد والبساتين؟ وهو لا يرى علاقة مادية بين الاستغفار وبين هذه الأشياء.

أما المؤمن الذي يوقن أن الله هو خالق كل شيء ومسيّر كل شيء، فإنه يعلم يقيناً أنْ لا حركة ولا سكون إلا بأمر الله، ويعلم أن الله حين يعطي لا يحتاج إلى أسباب مادية. والطفل الصغير حين يصرخ تسرع إليه أمه لترى ما حاجته. فالصرخة من حيث هي لا تنقذ الطفل، بل عطف أمه هو الذي يساعده. ولذلك فالطفل يتكل على عطف أمه ومساعدتها. والإنسان المؤمن العاقل يتكل على رحمة ربه وعونه وتوفيقه. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

والآيتان المذكورتان أعلاه من سورة الملك وسورة الأنفال تفيدان أن الإنسان مأمور من الله أن يربط النتائج المادية بأسبابها المادية أيضاً، وليس أن يكتفي بربط النتائج بأسبابها الغيبية فقط. فالآية تقول: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ فالمؤمن رغم معرفته أن الله هو مقسّم الأرزاق، يرى أن مقسّم الأرزاق يأمره أن يسعى لكسب الرزق، وأن التوكل على الله ليس معناه إهمال الأسباب المادية، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بطاناً» [رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة] فأثبت له رواحاً وغُدُوّاً لطلب الرزق، وفي حين أن الرزق بيد الله، وأن السعي حالة من الحالات التي يتنزل فيها الرزق، إلا أن الأخذ بأسباب السعي يندرج تحت السببية التي أقام الله الوجود عليها، فالتاجر مثلا يحسن عرض بضاعته، ويقوم بالدعاية المطلوبة لها، ويحسن تسعيرها وما إلى ذلك من أسباب لازمة لتحقق إحسان السعي للوقوع في مظنة الرزق.

والآية الأخرى تقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ والمسلم يعرف أن النصر في المعركة وفي غيرها من الله، وفي هذه الآية كان موضوعها النصر في المعركة ولذلك كان العمل المطلوب هو الإعداد، بينما في غير المعركة الأسباب ليست تؤسس على إعداد القوة، بل بأعمال أخرى جلها فكري، فإن نصر الحجة والبيان غير نصر السيف والسنان، وغلبة القهر والظفر على العدو، غير غلبة هدم الأفكار وقذفها بالحق فيدمغها فإذا هي زاهقة. ومع ذلك فإن الله الذي تكفّل للمؤمنين بالنصر أمرهم أن يُعِدّوا كل ما يستطيعون من قوّة. ولم يَقْبل الله من المسلمين أن يكتفوا بالتقوى والتوكل على الله ويهملوا الأسباب المادية. فكان الرسول ﷺ يجهّز الجيش، وكان يأمر بالتدريب كالرماية والسباحة وركوب الخيل. وكان يناور في الحرب، ويسمح بالكذب على العدو، ويحرض المؤمنين على القتال، ويحفر الخندق، ويأمر من يتجسس على العدو، ويعقد الصلح مع عدو ليتفرغ لعدو كما فعل في صلح الحديبية مع قريش ليستفرد بخيبر.

وحين نقول بأن النصر في المعركة سببه الإعداد، فإنه يشمل الأعمال التي تلزم لإزالة الخطر المحدق بالمجتمعات والدول، إما عبر الصراع الداخلي بين كيانات مختلفة الجنس أو الدوافع، أو بين كيانات مختلفة الدوافع لكنها من جنس واحد، وإما يكون ذلك باستعمال القوة الذاتية للدفاع، من خلال العمل الجماعي المنظم الذي يمد الأفراد باسباب تمكنهم من التغلب على قصور قدراتهم الذاتية الفردية عن مواجهة الأخطار، فيتحصل باجتماعهم من القوة ما يلزم للدفع، أو يستعينوا بغيرهم ليسد ذلك العجز والقصور، فيكون الانتصار بالموالاة والعون، وهذا كله يخص انتصار الحروب والنزاعات، والدفاع والهجوم، ويشمل الأعمال المادية التي تلزم لمنع البلدان من الاحتلال. فالنصر هو الظهور والغلبة، والنصرة هي الموالاة والإعانة بقوة من الغير. وفي حال المسلمين، فإن خطاب الشارع وجههم إلى طلب العون والنصرة والتأييد من الله تعالى، فهو الولي وهو النصير الذي يمدهم بقوة لازمة لتحقيق الغلبة والانتصار، وبالتالي فلا يلجأون لتحالفات ولا لموالاة أطراف غير إسلامية يخضعون معها لشروطها. وحتى حين يتحصل لدى المسلمين قوة ذاتية كافية للغلبة والانتصار، فإن عليهم أن يستعينوا بالله تعالى، وأن يستنصروه، وأن لا يتكلوا على قواهم الذاتية وحدها.[١٣٨]

---

[١٣٨] بتصرف، عن مقالة بعنوان: نظرة في تعريف ومعنى النصر ومعنى نصرة الله للمسلمين، للأستاذ يوسف الساريسي.

ولذلك فالأسباب في نظر المسلم نوعان: الأول هو تقوى الله، ورعايته وتدبيره والتزام أمره. والثاني هو الأسباب المادية التي من شأنها عادة أن تنتج النتيجة المطلوبة. ولا يجوز للمسلم أن يكتفي بأحد هذين السببين متى كان يستطيعهما"[١٣٩].

لذلك نجد أن نصر الله للمسلمين في المعركة هو من النوع الأول من السنن الإلهية، النوع الذي سببه الإعداد قدر الاستطاعة، والصبر والثبات والطاعة (كما جلتها آيات سورة البقرة التي تناولت قصة طالوت وجالوت)، وأما نصر الله تعالى للإسلام وللدعوة، فهو من النوع الثاني من السنن الإلهية، بيد الله، ليست له أسباب وإنما المطلوب من المسلم العامل للتغيير أن يقوم بالأفعال المأمور بها آخذاً بأسبابها، مثل حمل الدعوة والدعاية وطلب النصرة والكفاح السياسي وغيرها، فلكل من هذه الأعمال أسباب تفضي لنجاحها وإيصالها للغاية، سواء كانت الغاية حسن إيجاد هذه الأعمال في الواقع بشكل يوقع في مظنة تحقيق شرط الله لنصره من ينصره، أم كانت الغاية ثمرة هذه الأعمال، لكن هذه الأعمال ليست هي الأسباب التي يتنزل النصر مباشرة إن قام المسلمون بها، فرسول الله ﷺ كان قد قام بكل هذه الأعمال على أتم وجه في سني دعوته المكية كلها، ولم يتنزل النصر عليه إلا بعد السنة الثامنة للهجرة حين نزلت سورة النصر، فجاءه نصر الله والفتح، ورآى الناس يدخلون في دين الله أفواجا، وأَمِنَ المسلمون ولم يعد مطلوبا منهم أن يبيتوا وأسلحتهم على مقرب منهم خشية الغائلة!

كما أن كثيرا من الرسل والأنبياء قاموا بالأعمال السببية لنصرة دين الله، وتحكيم شريعته، ليقوم الناس بالقسط، ولم يكن النصر الذي نزل عليهم امتداداً للأفعال السببية، أي لم يكن تحقيقا للغاية في الواقع، بل نزل على صورة محق أقوامهم وإهلاكهم، وبعض الأنبياء امتد النصر بعد إهلاك عدوهم لنصر دعوتهم، كنوح عليه السلام بعد أن رست السفينة على الجبل، وكان قد آمن معه قليلون، ولكن لوطا عليه السلام مثلا، لم يؤمن له إلا أهل بيته ما خلا امرأته، وهؤلاء أنجاهم الله، وانتهت دعوته بإهلاك قومه.

وصحابة رسول الله ﷺ حين خالفوا عن طاعة الرسول ﷺ في غزوة أحد، ارتفعت عنهم سنة النصر الإلهية لتخلف بعضهم عن بعض أهم أسبابها، وخضعوا للسنة الإنسانية الثابتة في انتصار القوي على الضعيف، انتصار من يعد العدة أفضل، سواء العدة الحربية من عتاد وجند وسلاح، أو الخطة والحنكة، فكانت الغلبة لعدوهم! قال تعالى يصف ذلك الموقف: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران ١٤٠]، فسماهم بالناس، وعد ما حصل لهم في غمار ما يحصل للناس في مثل تلك المواقف! وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فخضعوا بذلك للسنن التي يخضع لها سائر الناس، لعدم استحقاقهم حصولهم على السنة الإلهية في ظل عدم طاعتهم للرسول ﷺ.

إذن، فقد أمر الشارع الإنسان بالأخذ بالأسباب المؤدية لتحقيق النتائج، ولكن الإنسان الآخذ بالأسباب يخفق أحياناً في بلوغ غاياته، فجلّى الإسلامُ للإنسان مفهوم التوكل على الله تعالى، وهو إطار عقدي جامع مانع، يتجاوز معضلة ضعف الإمكانيات اللازمة لتحقيق المراد، لوجود العوائق، أو لتجاوز معضلة أن السنن المجتمعية تقضي

[١٣٩] مقال في مجلة الوعي العدد ١٢٨ -السنة الحادية عشرة – رمضان ١٤١٨ – كانون الثاني ١٩٩٨م بين التوكل على الله وربط الأسباب بالمسبِّبات، بتصرف.

بانتصار القوي على الضعيف، فيربط عمله بالاتكال على الله ليدبر له من شأنه ما لا يستطيعه بأسبابه التي قدرها بمعطياته الإنسانية البشرية القاصرة، بأن يعلم أن الله تعالى عون له ونصير، وأن الله العلي القوي القدير وراءه، يسنده ويساعده على تحقيق معالي الأمور، فيندفع بعزيمة ترفعه لاقتعاد ذروة النسر بين الأمم موقِناً أن قوته البشرية المحدودة مسنودة بقوة غير محدودة، وأن خططه وغاياته أوسع من أن تحد بالاقتصار على الإنجازات العادية القاصرة، معتمداً على قوة الله وعلى أنه يسير جندياً لتحقيق الغايات العظيمة التي لأجلها خلق الله الخلق وأرسل الرسل!

## نماذج أعمال خارقة قام بها المؤمنون نتيجة التوكل على الله: معجزة حفر الخندق:

فيفوض أمره كله لله، بل يدفعه هذا التوكل للقيام بعظائم الأمور، واقتحام أشد الصعاب، واقتعاد ذروة المجد، والاندفاع في الحياة لتحقيق المعالي، الأمر الذي جعل الإسلام ينتشر من أقصى الشرق لأقصى الأرض في أقل من مائة سنة، فتجاوزت إنجازاتهم ما يستطيعه البشر بقواهم الذاتية، فحفروا خندقا شمال المدينة المنورة، ليربط بين طرفي حرة واقم وحرة الوبرة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، وكان طوله خمسة آلاف ذراع (أي حوالي ٢.٥ كيلومترا)، وحددته بعض المصادر ب (٢٧٢٥) متراً، وعرضه تسعة أذرع، (أي حوالي ٤.٥ مترا)، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة. (أي ما بين ٣.٥ إلى ٥ أمتار)، وجاء في كتاب: أطلس السيرة النبوية للدكتور شوقي أبو خليل: أن طول الخندق كان خمسة آلاف وخمسمائة وأربعة وأربعين متراً (٥٥٤٤) ومتوسط عرضه أربعة أمتار فاصلة اثنين وستين (٤.٦٢) ومتوسط عمقه ثلاثة أمتار فاصلة ثلاثة وعشرين (٣.٢٣).

وهذه الأبعاد تدل على أن حجم الأرض التي تم حفرها يبلغ حوالي ٨٣ ألف متر مكعب، أي ما يعادل حفر ملعب كرة قدم بعمق خمسة أمتار خلال أسبوعين فقط، وفي أرض صخرية تحتاج لآلات خاصة، إذ إن الطبيعة الجيولوجية للأرض شمال المدينة المنورة أنها بين حرة واقم شرقاً، وحرة الوبرة غرباً، وهما منطقتان بركانيتان، مكونتان من صخور بازلتية سوداء قاسية، (لذلك سُمّيَتا بالحرتين)،أما طبيعة الترب ففي الوسط بين الحرتين توجد أودية وترسبات رسوبية أقل صلابة، لكنها مختلطة بحجارة كبيرة، وأطراف الخندق قريبة من الصخور البركانية الصلبة، ما يعني أن الحفر لم يكن في أرض رملية سهلة، بل في ارض نصف صخرية صلبة تحتاج إلى معاول وأدوات حادة، بل إن الحفر صعب حتى بالآلات الحديثة.

أما المناخ، فقد كان العمل في شتاء بارد جدًا مع رياح قوية (كما ورد في الحديث)، مما يجعل الحفر أكثر صعوبة من الناحية البدنية.

لو أردنا القيام بالعمل اليوم بالأدوات الحديثة: فإن حفارة هيدروليكية (Excavator) متوسطة الحجم تستطيع حفر نحو ١,٠٠٠–١,٥٠٠ م$^3$ يوميًا في تربة صلبة/صخرية إذا عملت ٨ ساعات. بالإضافة إلى ذلك نحتاج إلى بلدوزر(Bulldozer) يساعد على دفع الأتربة وتجميعها بسرعة، فيزيد الكفاءة ويمنع توقف الحفارة. وإلى شاحنة قلّابة(Dump truck) تحمل عادة ١٠–١٥ م$^3$ في النقلة الواحدة. ومع ٢٠ نقلة يوميًا يمكن نقل ٢٠٠–٣٠٠ م$^3$ يوميًا، تكفي لموازاة عمل الحفارة. إذن الفريق (حفارة + بلدوزر + شاحنة) يمكنه إنجاز ١,٠٠٠–١,٥٠٠ م$^3$ في اليوم الواحد.

فما هي المدة الزمنية التي تحتاجها تلك الآلات الحديثة للحفر؟ الحجم المطلوب: ٩٠,٠٠٠ م$^3$. إذا كان الإنجاز اليومي ١,٢٠٠ م$^3$ (متوسط): فإن قسمة ٩٠٠٠٠ على ١٢٠٠ يعني الحاجة إلى ٧٥ يوما يومًا تقريبًا. لكن: بالعمل بنظام نوبتين (١٦ ساعة يوميًا) تتضاعف الإنتاجية: 2,400م$^3$ في اليوم نحتاج حوالي ٣٧ يومًا. وبمعدات أكبر (حفارة وبلدوزر أضخم + شاحنة أكبر) يمكن خفضها إلى ١٥–٢٠ يومًا.

إلا أن هذا الخندق الضخم بكل المعايير تم حفره في أسبوعين، بأدوات بدائية بسيطة، متضمنا أعمال الحفر وأعمال نقل التراب المحفور من الحفرة إلى أماكن بعيدة، وكان عدد المسلمين في المدينة ٣٠٠٠، منهم المريض والشيخ المسن، والعامل في الخدمة اللوجستية للمشروع، والقائم بالحفر فعلا، وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً وعلى كل واحد حفر أربعة أذرع، فتح الباري (٣/٣٩٧)، وكانت السِّمَة العامة للمشتغلين بالحفر أن عضهم الجوع والبرد القارس، فقد كان الجو باردًا، والريح شديدة والحالة المعيشية صعبة، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الذي يتوقعونه في كل لحظة، الأمر الذي يجعل العمل خارقاً يتجاوز أي إنجاز بشري بالقوى البشرية الذاتية. قال أبو طلحة: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوعَ فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين»!

إذن: فالعمل بكل المقاييس خارق، ومعجز، ومبهر ولا تستطيع الكلمات وصفه، يا ترى لو فكر المسلمون بتفكير مادي بحت! هل كانوا ليحفروا خمسة أمتار مكعبة!! إذن، الذي أعانهم على ذلك هو التوكل على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الذي يشكل مقتلا هائلا كبيرا للأمة اليوم في معركة نهوضها هو: تفكيرها المادي فقط، المنبت عن التفكير برب الأسباب ومسببها، برب العالمين وعونه، برب العالمين وتكفله بنصر دينه.

كلما قلت للمسلمين أقيموا دولة الإسلام قال قائل منهم: وهل تتركنا أمريكا، وهل لدينا إمكانيات؟ هل نحن قادرون؟ وكل ذلك آت من حسابات مادية دنيوية، لذلك من أوجب الواجبات على المسلمين اليوم أن يعتقدوا حقا عقيدة التوكل على الله، وسنثبت بعد قليل إن شاء الله أن رسول الله ﷺ استطاع بعد جهد جهيد أن يؤمّن أسبابا تكفي لنحو ٥% مما يحتاجه أخذ الأسباب على وجهها في غزوة العُسرة، غزوة تبوك، وأنه لم يكن بالإمكان بتاتا الأخذ بكامل الأسباب اللازمة للجيش للمسير والعودة والانتصار على الروم في تلك الغزوة، لذلك كان اعتماده ﷺ بعد أن أخذ بما يستطيع من الأسباب أن يعتمد ويتوكل على الله تعالى في أن يكفيه ال٩٥% الباقية!

عقيدة التوكل على الله لأن الله تعالى أهلٌ لأن نتوكل عليه، ويربط التوكل على الله بالأخذ بالأسباب أحيانا، ويفصل عنها أحيانا أخرى، وفي كل الأحوال لا يجوز جعل عقيدة التوكل على الله شكلية لا معنى لها على الحقيقة، بأن يقال: خذ بالأسباب ومن ثم توكل على الله! فكأننا نقول بأننا ماديون، لا نسير إلا إذا أخذنا بكامل الأسباب واعتمدنا على قدرتنا الذاتية، فأين إذن يقع التوكل على الله حينها؟

وحين نقول بأنهما قضيتان لكل منهما أدلته وموقعه، فلا يعني هذا أن نهمل الأخذ بالأسباب، بتاتا، بل نقوم بأعمالنا على أتم وأكمل وجه، ومن المستحيل أن نستطيع الأخذ بالأسباب بتمامها وكمالها في كثير من الأعمال المصيرية، لأنه من الأخذ بالأسباب أن نقوم بمكافحة المعطلات والمعوقات وهذه دائمة التجدد دائمة الخطر، فلئن

ربطنا التوكل على الله باكتمال الأخذ بالأسباب فلن نستطيع تجاوز النظام المادي، ولهذا فإننا نقوم بالأسباب ما استطعنا، وما وسعنا، ونفصل ذلك عن التوكل، فنقول بأننا نديم العمل على أفضل وأتم وجه، ونحن متوكلون.

ولا نربط بين تمام الأخذ بالأسباب وبين أن نتوكل على الله، بل يعني ذلك أن نُقْدِمَ على الأعمال الخارقة توكلا على الله، وأن لا نهاب، وأن نعتقد بأن الله ناصرنا، وناصر دينه!

إن هذه القضية المصيرية من أهم ما يجب أن يفهمه المسلمون وهم يسلكون طريق التغيير، وإن أهمالها والتفكير المادي البحت هو من أهم أسباب الوهن والإحجام عن الإقدام على خوارق الأمور وعظائمها!

## هزيمة امبراطورية الفرس والإمبراطورية البزنطية الشرقية في غضون سنوات:

وفي نحو عشرين سنة من تلك الواقعة التي حفر فيها المسلمون الخندق أنهى المسلمون كيان الامبراطورية الفارسية، وأقصوا الإمبراطورية الرومية عن الشرق وهزموها هزائم منكرة، وفي نحو سبعين سنة من تطبيق الإسلام: محي الفقر من الدنيا أيام عمر بن عبد العزيز!

إن الناس الذين دخلوا مع المسلمين في الصراع الدموي على مر العصور، لم يكونوا يدركون مدى ما للعقيدة الإسلامية، أي للفكر، من قوة وتأثير في القوة المادية، ولذلك كانوا يعتمدون على زيادة قوتهم المادية على قوة المسلمين ليهزموا المسلمين، ولكنهم بالرغم من هذه الزيادة في القوة كان المسلمون ينتصرون عليهم رغم ضعف المسلمين وقلة عددهم، ولم تنفع زيادة القوة المادية أصحابها في ميادين الحرب، وظل النصر حليفاً للمسلمين. هكذا كان حال المشركين مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وهكذا كان حال الروم والفرس مع الصحابة، يقف ثلاثة آلاف من المسلمين أمام عشرات الآلاف من الروم في مؤتة، وفي اليرموك كان تعداد المسلمين ٣٦ ألفا مقابل ٧٠ ألفا من الروم، بأسلحتهم ودروعهم وعتادهم الحربي الذي فاق كثيرا ما لدى المسلمين، وخبراتهم القتالية الدولية، وكان تعداد جيش الفتح الذي اجتاح فارس ١٨ ألفا من المسلمين، لم تصمد أمامهم راية، وانهارت مدائن الفرس واحدة تلو الأخرى، وفي القادسية كان المسلمون ٣٠ ألفا، والفرس حوالي ٧٠ ألفا، وانتصر المسلمون، وقضوا على الإمبراطورية الفارسية ما بين ١١ هـ، و٢٣هـ قضاءً تاماً، على الرغم من الخبرات العسكرية والعتاد والأعداد التي امتلكها الخصوم.

كيف استطاعت مكة والمدينة توفير الدعم الكافي خلال أيام الفتوحات مع أن إمكانيتهما تكاد لا تعتبر ذات قيمة بالمقارنة مع مدن الإمبراطورية الرومانية والفارسية آنذاك؟

هذه القضايا تقع في دائرة السنن الإلهية، وهي تختلف عن السنن المجتمعية، إذ الأخيرة لا تحابي أحدا، فالأقوى في المعركة سينتصر سواء قوة العسكر أو الخطة أو الآلات، سينتصر حتما، ولكن السنن الإلهية التي أمرت بالإعداد قدر الاستطاعة، وعلم الله أن ستكون ظروف لا يستطيع فيها المؤمنون الإعداد فوق قدرة أعدائهم، فلا يملكون الأسلحة النووية والصواريخ، فكان من رحمته أن جعل سننا إلهية تلغي مفعول السنن المجتمعية وتحقق الانتصار للمؤمنين، فبالطاعة، والصبر، واليقين بالنصر من الله مع الإعداد قدر الاستطاعة والتوكل على الله يحصل النصر مهما كانت قوة الكفار.

هذه القضايا تبين صحة عقيدة التوكل على الله، وأنها فوق الأسباب، وأنها تحقق للأمة انتصارات تجعلها سيدة الأمم في أقل وقت إن هي اعتصمت بأمر ربها، ولم تستنصر إلا به، ولم تتوكل إلا عليه، وإن هي أقامت دولتها وحكمت شريعة ربها، وأخلصت لله نياتها. وليس معنى أنها فوق الأسباب أنها لا تجري وفقا لسنن الوجود، وأنها معجزات، ولكن الله تعالى يسخر لها من العوامل ما يحققها وإن كانت سنن العادة لا تدل على تحقق نظائرها، أو يسخر الله من أسباب الوجود ما ليس بإمكان أحد غيره تسخيره، كتسخير الريح الشديدة نصرة للمؤمنين في الخندق، وإمدادهم بالملائكة في بدر، أو تعمية عيونهم فلا تبصرهم كما في الغار، أو أن يقذف في قلوب أعدائهم الرعب، أو أن يثبت أقدام المؤمنين، فلا أحد يستطيع أن يضع في الخطة السببية تسخير الريح مثلاً.

## غزوة العُسْرة: حين أخذ الرسول ﷺ بـ ٥% من الأسباب... وتوكل على الله، فتولّى الله تعالى الباقي: ٩٥% منها بالبَركة والنصر!

سأريك بالدليل القاطع كيف ظهرت البركة، وأثمر التوكل على الله لتقر عينا! فرصة سانحة لتقرأ كلاما بالغ الروعة، يدخل على نفسك السرور والحبور !

ملحمة العُسرة: السير الخارق إلى تبوك! شيء فوق الخيال والوصف!

حين نقرأ في السيرة النبوية عن غزوة تبوك، غزوة العُسْرة، نكاد لا نتصوّر كيف أمكن لجيش قوامه ما بين ثلاثين ألفا وسبعين ألفا -على اختلاف الروايات- أن يقطع نحو ٦٠٠ كيلومتر ذهابا ومثلها إيابا، في صحراء قاحلة، في أشد ما يكون الصيف حرًّا، بزاد قليل وموارد محدودة. لم تكن تلك الغزوة مجرد تحرك عسكري، بل كانت معجزة في الصبر والتنظيم والتوكل على الله، تتجاوز أي حساب مادي أو لوجستي يمكن أن يُقام اليوم.

وهذه الغزوة دليل قاطع على أن الأخذ بالأسباب لا يعني أبدا اكتمالها، إذ إنه في ظل مثل تلك الغزوة يستحيل أن يستطيع أحد أن يقوم ب"الأخذ بالأسباب" كاملة، بل لا بد فيها أن يعتمد ويتوكل على الله تعالى! وسنثبت أن الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه أخذ "ببعض الأسباب" يعني نحو ٥% مما هو مطلوب، وتوكل على الله، وانتصر!

للقيام بالحسابات المطلوبة نحتاج لشيء من التفكير المستنير، وقراءة ما بين السطور، ودراسة مقارنة بغزوات أخرى كم كان عند المسلمين من دواب استعملوها في الحروب:

جاء في المواهب اللدنية للقسطلاني متحدثا عن غزوة تبوك: وكان معه عليه الصلاة والسلام ثلاثون ألفًا: وعند أبي زرعة سبعون ألفًا، وفي رواية عنه أيضًا أربعون ألفاً، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس. انتهى. الأمر الذي يعني الحاجة لتأمين أربعمائة ألف ليتر من الماء يوميا للخيل وحدها، ناهيك عن الجيش، أي أنهم كانوا بحاجة لنهر جار!

جهز سيدنا عثمان ﷺ ٩٠٠ جمل بالطعام للجيش، وسنعتبر بشكل متحفظ ومبالغ فيه أن هناك ما مجموعه نحو ٣٠٠٠ جمل مخصصة لنقل المؤن والماء المحمول، وعندنا نحو ١٠ آلاف حصان، أي عشرة آلاف فارس، ولتقدير عدد الجمال مع افتراض وجود نحو ٢٠ ألفا من المشاة، يتناوبون على وسائط الركوب لتخفيف الجهد عبر ٦٠٠ كيلومتر في الحر الشديد، فإذا افترضنا وجود جمل لكل ثلاثة من المشاة، مع الاحتياط (أي مع وجود جمال إضافية تستعمل للذبح والأكل) هناك نحو ٦٦٠٠ جمل مع الجيش، إضافة إلى ٣٠٠٠ جمل للمؤونة، جاء في

البخاري: عن معاذ ﷺ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فكان الرجلان والثلاثة يشتركون في البعير، فكانت تنوبنا نوبة البعير فنعتقبه». والذي يدفعنا لقبول هذه الأرقام هو أنه في غزوة حنين وقع سبي ل ١٢ ألفا من الجمال، مما يدل على أن أعداد الجمال في البيئة القتالية كبير وممكن تعبويا في بيئة الجزيرة العربية في ذلك الوقت، لكن هذا الارتفاع في عدد الجمال سيرهق اللوجستيات أكثر للحاجة إلى ماء وعلف **وقيادة قافلة في طريق وعر وصعب**.

الماء اليومي: المقاتلون: ٤٠,٠٠٠ × ٥ لتر/يوم ≈ ٢٠٠,٠٠٠ لتر/يوم. والخيول: يحتاج الحصان يوميا لأربعين ليترا من الماء علاوة على الزاد، ١٠,٠٠٠ × ٤٠ لتر/يوم ≈ ٤٠٠,٠٠٠ لتر/يوم. والإبل (تقدير واقعي اختياري): تُسقى الإبل على فترات، لكن كمعدل يومي محافظ نأخذ ١٠ لتر/يوم: ٩٦٠٠ × ١٠ لتر/يوم ٩٦٠٠٠ لتر/يوم. لذلك حاجة الجيش يوميا نحو ٦٩٦ ألف لتر يوميا من الماء.

أما الطعام والعلف، فالمقاتلون يحتاجون نحو ١.٥ كلغ (حبوب، تمر...الخ) مما يعني حاجة الجيش لنحو ٦٠ طن يوميا من الغذاء أي ٣٠٠٠ طن من الغذاء في خمسين يوما. والخيول والجمال تحتاج لنحو ١٩٠ - ٢٢٥ طنا من العلف والغذاء يوميا. وبناء على مقدار حمولة الجمل مقارنة بحاجة الجيش: (يستطيع الجمل أن يحمل ١٥٠ كلغ من الطعام). أي أن ٣٠٠٠ جمل سيحملون ٤٥٠ طنا من الغذاء لمدة ٥٠ يوما.

سنجد بعد قليل إن شاء الله أن الطعام الذي جهزه الرسول ﷺ كان يكفي نحو ١٥% من حاجة الرجال للطعام في خمسين يوم (لا الحيوانات مثل الجمال والخيول)، وسنجد أن الماء يكفي فقط ١.٧% فقط من حاجة الجيش (رجالا وحيوانات) للماء من أصل ما يزيد كثيرا على ٣٤.٨ مليون لتر من الماء يحتاجها الجيش في خمسين يوم.

الخلاصة: الذي جهزه الرسول ﷺ لا يتجاوز المحمول ٥% من احتياج الحملة الكلي من الطعام والماء. وسنجد بعد قليل إن شاء الله أن الموارد التي على الطريق لا تكفي لا للماء ولا للطعام، إذن فالأخذ بالأسباب كان "رمزيا" بحدود الطاقة الممكنة، وكان الاتكال على الله يمثل ٩٥% من حاجات الجيش.

## المسافة والمسير:

ومن العجيب أن نرى أن المسلمين ساروا من المدينة إلى تبوك في أشد ما يكون الصيف حراً، استغرقت الغزوة على أقل تقدير خمسين يوما، إذ تتراوح المسافة من المدينة الى تبوك بين ٥٨٠ كم الى ٦٠٠ كم ومن المعتاد أن تقطع القوافل في مثل هذه الحالة من ٤٠-٥٠ كم كل يوم. لهذا من المحتمل أن تقطعها القافلة في ١٢ يوم (مرحلة) إذا كان السير متواصلاً، لكن من عادة القوافل الراحة ليوم أو يومين بعد كل ٣-٥ مراحل، ونعتقد أنهم أقاموا فترة يوم أو يومين في كل من: مرحلة "ذو خشب"، ووادي القرى، وفي الجو قرب قاع لالا، إضافة إلى الفترة التي لبثها في المنطقة يرسل السرايا ويحمل الدعوة.

لكن ما يجعل الأمر خارقًا هو أن هذا المسير لم يكن في طريق معبّد، بل سلك الجيش النبوي عبر درب معروف هو درب القوافل بين المدينة والشام، وساروا عبر أودية صخرية وحرات بركانية وجبال وعرة: وادي الحمض، ثم أسفل وادي الجزل، ثم عبر وادي القرى والعلا، ثم الحجر (مدائن صالح)، وبعد الحجر تركوا الدرب المعهود

للشام، والذي يمر بالمعظم، واعتسفوا **صعود حرة عويرض رغم صعوبتها وارتفاعها**، لكن ألجأهم لها أنهم بحاجة لمراعي منطقة الجو ومائه. نزلوا من عويرض الى وادي الشق، وعسكروا في منطقة الجو يوماً أو يومين كي ترتاح الإبل وتتغذى على المرعى الجيد والشرب سيكون من مماسك الماء في وادي الشق. بعدها تركوا الجو واتجهوا الى درب البكرة لأنه أخصر الدروب وأسهلها ولتوفر خزان ماء ضخم فيه، سلكوا عبر درب البكره قاطعين وادي الأخضر ثم الزرداب ثم وصلوا العقبة أو الثنية المشهورة (النقب)، ثم تركوا جبل برك يمينهم ووصلوا الى تبوك، إنها تضاريس قاسية، تُنهك قافلة صغيرة، فكيف بجيش بهذا الحجم؟ وقد قدر زيد العدد بثلاثين ألفا وهذا عدد كبير جدا لا تتحمله موارد الدرب. (خصوصا حاجات الخيل للماء كما أسلفنا) لهذا واجه الركب النبوي حالات عطش عديدة.[١٤٠] في شدة الحر، لذلك كان توكلهم على الله هو الدافع لإنجاز ضخم بكل المقاييس كهذا الذي أنجزوه!

## الموارد المائية على الدرب كانت قليلة:

وادي الحمض إلى وادي الجزل: فيه بعض السيول الموسمية، وآبار قليلة، وبعض الآبار في وادي القرى والعلا. (منطقة زراعية نسبيًا، فيها نخيل وآبار، تصلح لراحة قصيرة، لكن مواردها محدودة)، أما مدائن صالح (الحجر): منطقة صخرية، فماؤها قليل جدًا، بل ورد أن النبي ﷺ نهى عن شرب مائها إلا بقدر الحاجة. وأما حرة عويرض – منطقة الجو – وادي الشق: فآجام وبرك محدودة في وادي الشق والجو. (فيها مراعي جيدة وبعض المياه في الأحواض الصخرية (مماسك)، لكن لا ترقى إلى نهر أو بحيرة، بل هي برك طبيعية تتجمع فيها مياه المطر، لكن: لا مطر في شهر آب في تلك المنطقة!)، خزان طبيعي في درب البكرة. (بحيرة طبيعية صغيرة أو صهريج مائي قديم)، وهو مورد مهم لكن لا يكفي إلا أيامًا قليلة، وعين ضعيفة في تبوك، جاء في الحديث أن النبي ﷺ لما وصلها قال: «لا تَمسّوا ماءها حتى آتي»، فلما شربوا وجدوا العين تسيل قليلًا، فغرفوا منها حتى فاضت "البخاري، كتاب المغازي". وهذا من أبرز دلائل الكرامة؛ لأن العين لم تكن تكفي هذا العدد، ولكنها فاضت ببركة النبي ﷺ.

وقد عانى الجيش من العطش حتى قالوا: "ظننا أن رقابنا ستنقطع"، ونحروا بعض الإبل ليشربوا ما في كروشها من الماء. وفي حادثة شهيرة، لما وصلوا عين تبوك وجدوا ماءها يسير قليلًا، فأخذ النبي ﷺ بيده شيئًا من الماء وغسل وجهه ويديه فيه، فسالت العين وفاضت حتى شرب منها الجيش كلّه. هذه كرامة ظاهرة تُثبت أن الموارد الطبيعية لم تكن تكفي، وأن بركة الله هي التي أغاثت الجيش. وفي البخاري: عن معاذ ﷺ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فكان الرجلان والثلاثة يشتركون في البعير، فكانت تنوبنا نوبة البعير فنعتقبه، فكنا نعصر الكيزان حتى نشرب ما فيها من الماء، حتى إن أحدنا ليضع يده على حلقه من العطش.»، وفي ابن هشام: أن الجيش أصابهم عطش حتى ظنوا أن رقابهم ستنقطع. وفي الواقدي: كانوا ينحرون الإبل فيشربون ما في كروشها من الماء.

إذن: واضح جدا أن هناك مشكلة ماء شديدة، لا يستطيع الجيش تجهيز إبل كثيرة عليها حمولة ماء تكفي، ولم تكن موارد الطريق تكفي لحاجات الجيش التي تقارب ٦٩٦ ألف لتر ماء يوميا، وحتى الوديان والمماسك الطبيعية للماء كانت تعتمد على مياه الأمطار، ولكن الغزوة حدثت في شهر آب، وليس بشهر أمطار!

---

[١٤٠] تحقيق زمن و درب غزوة تبوك.

## أزمة الطعام

الحسابات المادية: المقاتلون: يحتاجون إلى نحو ١.٥ كغ طعام يوميًا = ٦٠ طن يوميًا. (دراسات الإمداد التاريخي للجيوش القديمة تقدّر الحصّة اليومية من الحبوب بنحو ١.٣–١.٧ كغ/يوم للرجل (حبوب تُطحن وتخبز)؛ هذا النطاق مستفاد من تحليل حصص الجنود في تلك العصور مع دراسات أبحاث لوجستية تاريخية تقرر أن هذا هو متوسط حاجة الجندي يوميا)، والخيول: تحتاج نحو ١٠ كغ علف جاف يوميًا = ١٠٠ طن يوميًا. (توصيات الطب البيطري الحديثة: ١.٥–٢.٥% من وزن الجسم مادةً جافة؛ لفرس ٥٠٠–٦٠٠ كغ نأخذ ١٠ كغ/DM يوم كقيمة وسطية أثناء المسير). والإبل: بعشرات الآلاف، تحتاج إلى نحو ٣٠–٤٠ طن يوميًا. (الجِمال أقل استهلاكًا نسبيًا، ونطاقها التقريبي ٢–١٠ كغ/DM يوم بحسب الجهد والماء؛ ويمكنها "الاغتذاء الرعوي" الموضعي وتقليل الحمل المحمول، لكن ذلك يفترض وجود مرعى فعلي كافٍ – وهو نادر على طول الدرب). المجموع: حوالي ٢٠٠ طن طعام يوميًا.

## الاستحالة العملية

لو حاول الجيش حمل مؤونة عشرة أيام فقط: يلزم ٦٠٠ طن طعام للرجال، و١,٠٠٠ طن علف للخيول = ١,٦٠٠ طن. إذا حمل الجمل الواحد ١٥٠ كغ، فسيحتاجون إلى أكثر من ١٠,٠٠٠ جمل لحمل مؤونة عشرة أيام فقط.

فكيف بخمسين يومًا؟ وكيف بطريق جبلي ضيق لا يتسع لقوافل بهذا العدد؟ وكيف بالحر الشديد الذي يضاعف استهلاك الماء والعلف؟ إن الحساب وحده يكشف أن الأخذ بالأسباب المادية الكاملة مستحيل.

هذه الأرقام بذاتها تُظهر أن "التجهيز المالي/العيني" – مهما بلغ – لا يمكن أن يحوِّل القافلة إلى قطار تموين يكفي جيشًا بهذا الحجم عبر ٥٠ يومًا في صيف قاحل، ما لم يُعوَّل على: الرعي الموضعي وشراء الطعام من وادي القرى والعلا، والرعي الوقتي للإبل في منطقة الجو، وتقليل حصص الاستهلاك اليومي (شُحّ شديد/تقاسم/طبخ ورق الشجر كما نُقل)، وكل هذا لا يكفي إلا شيئا يسيرا جدا من الحاجات الضخمة للجيش، إذن التعويل الأكبر والأهم والأكثر كان على التوكل على الله، وللتدليل على ذلك: المسار يضم نقاط ماء ومرعى متناثرة ومحدودة: وادي الحَمْض، الجَزْل، وادي القُرى/العُلا، الحِجر، حرة عويرِض، وادي الشِّق، الجَوّ، ثم درب البَكْرَة... هذه الموارد تصلح للتوقّف والتزود المؤقت، لا لضخّ ١٩٠–٢٤٥ طنًا من العلف والغذاء يوميًا على امتداد ٥٠ يومًا. ونصوص السيرة تُظهر المنع من استعمال بعض المياه (ماء الحِجر) ووقوع العطش الشديد المتكرر، وهو قرينة قويّة ضد دعوى "الوفرة الطبيعية المستمرة". كما أن حادثة عين تبوك نُقلت لضَعف المورد الطبيعي وظهور البركة على يد الرسول ﷺ. روى مسلم أن الناس أصابهم جوع شديد، فأذن لهم النبي ﷺ أن يجمعوا أزوادهم، فجعلوها في نِطَع، فدعا لها، فتزوّد منها الجيش كلّه حتى شبعوا. وهذه كرامة شبيهة ببركة تكثير الطعام في وقائع أخرى (كغزوة الخندق، ووليمة جابر). وفي بعض الروايات (عند مسلم وغيره) **أنهم اقتسموا التمرة الواحدة بين العشرة: يمصها الرجل ويشرب عليها الماء ثم يعطيها للآخر**. وهذا يُظهر كيف أن المحمول لم يكن كافيًا، **وأن التكثير**

**والبركة كانا سببًا في سدّ الحاجة**. إذن، **فأن تكفي التمرة الواحدة عشر رجال، فهذا يظهر كيف أن الله تعالى بارك في الأقوات وجعلها تكفي**،

منطق الطب والتغذية يقول: لو أن الرجل بقي أيّامًا على جزء من تمرة يوميًا، فهذا لا يكفي حتى ١٠٠ سعرة حرارية في اليوم، بينما يحتاج الجندي في صحراء قاحلة إلى ما لا يقل عن ٢٥٠٠–٣٠٠٠ سعرة يوميًا. والنقص بهذا الحجم يؤدي عادةً إلى انهيار سريع في القدرة البدنية والعقلية، وهبوط في ضغط الدم، دوار، وضعف العضلات، وفقدان التركيز، وقد يصل إلى الإغماء خلال أيام. لكن الجيش كان في حالة مسير متواصل، ومع حرارة الصيف، كان من المتوقع أن تظهر مضاعفات خطيرة على آلاف الجنود خلال أيام قليلة. **لكن شيئا من هذا لم يرو لنا ولو حدث لتم نقله كما نقلت حوادث شدة العطش**! وقد نقلت لنا المصادر حالات جوع شديد وربط الأحجار على البطون، وأنهم سعوا إلى ورق الشجر ليشربوه مع الماء (وهو لا يكفي لسد حاجة الغذاء)، ولم ينقل لنا في أي رواية أن الجيش انهار صحيا، وأن الجنود أخذوا يتساقطون جماعات من سوء التغذية، بل استمروا في المسير مئات الكيلومترات، بل وصلوا إلى تبوك على أتم استعداد للقاء العدو، وهذا دليل قاطع على أن الله تعالى جعل البركة في التمرة الواحدة لتكفي عشر رجال، تعطيهم من الطاقة ما يحفظ حياتهم وتعينهم على المسير، **إن عدم وقوع مضاعفات جماعية لسوء التغذية طوال خمسين يومًا لجيش من ٤٠ ألف رجل هو في حد ذاته معجزة صامتة، لا تقل عن معجزة عين تبوك**.

هذه البركة لم تُرَ في صورة انفجار خوارق ظاهرة، بل في صورة قدرة عجيبة على البقاء والصمود، وأن تكفي التمرة عشر رجال في يوم واحد، مع أن الأسباب المادية وحدها لا تفسّر ذلك.

### تجهيز جيش العُسرة:

ولم يكن النبي ﷺ غافلًا عن الأسباب، بل دعا الناس للتجهيز. فجاء عثمان بن عفان ﷺ بألف دينار، وجهّز ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم زاد حتى بلغ ما جهّزه تسعمائة بعير ومائة فرس مع النفقة. وتصدق الصحابة كلٌّ بقدر طاقته، حتى جاء بعضهم بقبضة تمر، وجاء آخرون وليس لهم ما يحملهم عليه.

كان هذا بذلًا عظيمًا، لكنه لم يكن كافيًا لوجستيًا لجيش بهذا الحجم. ولذلك سُمّيت الغزوة غزوة العُسرة. لقد أخذوا بالأسباب المتاحة، لكنهم لم يستطيعوا استيفاء جميع الحاجات، فكان لا بد من التوكل على الله.

### معاناة حقيقية

المرويات تحكي عن جوع شديد: كانوا يربطون الأحجار على بطونهم من شدة الجوع. وكان العشرة يتعاقبون على تمرة واحدة، يمصها الواحد ثم يشرب عليها ماء ويناولها الآخر. وكانوا يسحقون ورق الشجر ويشربونه مع الماء.

هذه ليست قصصًا رمزية، بل وقائع واقعية سجّلها التاريخ، لتُظهر أن الغزوة لم تكن رحلة ميسّرة، بل معركة بقاء.

لو قارنّا باليوم، فلو حاول جيشٌ حديث أن يكرّر هذا المسير: فسيحتاج إلى مئات الصهاريج لنقل الماء يوميًا. وإلى أسطول شاحنات يحمل أكثر من ٢٠٠ طن طعام وعلف يوميًا. وسيضطر لشق طرق في الحرات الجبلية

بالجرافات. وسيكلّف مئات الملايين من الدولارات في خمسين يومًا فقط. ومع ذلك ستبقى المخاطرة عالية جدًا، فالحرارة، والوعورة، ونقص الموارد، قد تعرّض الجيش إلى الانهيار. فكيف نجح الجيش النبوي في ذلك بلا هذه الإمكانيات؟

اليوم، لنقل جيش من ٣٠,٠٠٠ جندي + ١٠,٠٠٠ حصان عبر صحراء بطول ٦٠٠ كم، ستحتاج إلى: مئات الشاحنات الصهريجية (Tankers) لنقل المياه يوميًا. وإلى إمداد غذائي آلي (عشرات آلاف الأطنان من الطعام والعلف). وإلى طرق معبّدة أو جرافات لفتح الطريق عبر الحرات الجبلية، وإلى أنظمة تبريد وحفظ طعام، ومستشفيات ميدانية، وهيئة لوجستية كاملة. وحتى مع هذه الإمكانيات، ستكون العملية مكلفة جدًا، وتحتاج إلى تخطيط عسكري–لوجستي معقد للتخطيط للمسير في التضاريس المعقدة ولدراسة مواردها المحدودة وتنسيق ذلك مع حاجة الجيش والدواب، لذلك: ينبغي ألا نفكر تفكيرا ماديا بحتا، منبتا عن التفكير العقائدي الذي يربط التفكير المادي بالتوكل على الله والاستعانة به.

## أبعاد الإعجاز

عجز الأسباب: لا المؤن المحمولة ولا الموارد الطبيعية تكفي.

الإصرار والصبر: جوع، وعطش، وإرهاق، ومع ذلك مضوا صابرين.

التنظيم العسكري الفذ: تقسيم العمل، اختيار المسارات، التوقف عند الموارد بدقة.

الكرامة الإلهية: عين تبوك التي فاضت ببركة النبي ﷺ، وأن تكفي التمرة عشر رجال، برهان قاطع أن العون الإلهي حاضر.

الخاتمة: إن غزوة تبوك درس خالد في التاريخ: لم يكن السير العظيم إليها مجرد تحرك جيش، بل كان ملحمة إيمانية تجلّت فيها معاني الصبر، والبذل، والتضحية، والتوكل. أخذ المسلمون بما استطاعوا من الأسباب، لكن استحالة اكتمالها أظهرت أن الاعتماد على الله وحده هو سرّ النصر.

لقد شهدت الصحراء مسيرًا أعظم من قدرة البشر، ولو قيس بموازين اليوم لما استطاعت جيوش حديثة أن تنجزه إلا بوسائل لوجستية هائلة. إنها شهادة أن الله أيّد نبيه ﷺ وأصحابه بمدده، وجعل من تبوك علامة خالدة على أن التوكل على الله يفتح أبواب المستحيل.

**﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [التوبة ١١٧]. قال الطبري: **﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾**، يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدّة في سفره وغزوه. **﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** يقول: إن ربكم بالذين خالط قلوبَهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة رءوف بهم **﴿رَّحِيمٌ﴾**، أن يهلكهم، فينزع منهم الإيمان بعد ما قد أبلَوْا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء.

## عجائب فتح الأندلس بشرى من الرسول ﷺ

جرى حوار لطيفٌ بين الرسول ﷺ وبين خالته من الرضاعة أم حَرام بنت مِلْحان زوج عبادة بن الصامت: روى البخاري ﷺ: «كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُ على أُمِّ حَرامٍ بنْتِ مِلْحانَ، وكانَتْ تَحْتَ عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ، فَدَخَلَ عليها يَوْمًا فأطْعَمَتْهُ، وجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ، فَنامَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وهو يَضْحَكُ، قالَتْ: فَقُلتُ: ما يُضْحِكُكَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ناسٌ مِن أُمَّتي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً في سَبيلِ اللَّهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هذا البَحْرِ، مُلُوكًا علَى الأسِرَّةِ -أوْ: مِثْلَ المُلُوكِ علَى الأسِرَّةِ، شَكَّ إسْحاقُ- قالَتْ: فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، فَدَعا لها رَسولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ وضَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وهو يَضْحَكُ، فَقُلتُ: ما يُضْحِكُكَ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ناسٌ مِن أُمَّتي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزاةً في سَبيلِ اللَّهِ، كما قالَ في الأُولَى، قالَتْ: فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أنْ يَجْعَلَنِي منهمْ، قالَ: أنْتِ مِنَ الأوَّلِينَ. فَرَكِبَتِ البَحْرَ في زَمانِ مُعاوِيَةَ بنِ أبِي سُفْيانَ، فَصُرِعَتْ عن دابَّتِها حِينَ خَرَجَتْ مِنَ البَحْرِ، فَهَلَكَتْ». ويعتبر الإمام ابن حزم في رسالته القيّمة في فضل الأندلس، التي حفظها لنا المَقَّري كاملة فاتحي الأندلس هم ثانية الجماعتين اللتين أخبر عنهما رسول الله ﷺ في الحديث الشريف في فضل الجهاد في البحر، وهو تشريف لفاتحي الأندلس، فيقول: "ومثل هذا التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح وبيان لائح، لا يحتمل التوجيه، ولا يقبل الترجيح، فالجواب، وبالله التوفيق، أنه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، وأُمر بالبيان لما أوحي إليه، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سندُه بالعُدول عن العُدول بطائفتين من أمته يركبون ثَبَجَ هذا البحر غُزاة واحدة بعد واحدة، فسألته أم حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم، فأخبرها ﷺ وخبره الحق بأنها من الأولين، وهذا من أعلام نبوته ﷺ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه، وضح البرهان على رسالته بذلك، وكانت من الغُزاة إلى قُبرُسَ، وخرَّت عن بغلتها هناك فتوفيت، رحمها الله تعالى، فثبت يقينا أن الغزاة إلى قبرس هم الأولون الذين بشر بهم النبي ﷺ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه"[١٤١]، وحين نتأمل العجائب التي رافقت هذا الفتح العظيم، وركوب البحر وما فيه من أهوال، وما كان ينتظر المسلمين على طرفه الآخر من قوم أولي بأس شديد، أدركنا عظيم شرف ما صنعوا، واستئهالهم لشرف بشرى الرسول ﷺ بصنيعهم العظيم هذا!

كيف استطاع المسلمون عبور البحر إلى إسبانيا، وبأية أعداد، وبأية أدوات حربية، مع العلم أن الفَرَسَ والجَملَ لا يتحمل دوران البحر؟ ولو فرضنا أن الجيش استطاع عبور البحر؛ فكيف تمكن من الصمود والانتصار والتوغل في مجاهل تلك البلاد البعيدة والغريبة؟

"بين سبتة في المغرب، وجبل طارق في الأندلس مسافة ١٤ كم، وجرت مراسلات بين موسى بن نصير والخليفة في دمشق: الوليد بن عبد الملك، الذي أمر موسى بأن يجرب الأندلس بالسرايا أولا، وهكذا كان، وكانت أول سرية من خمسمائة، معهم مائة فارس على الخيل بقيادة طريف بن مالك، وهو بربري مسلم، لقبه: أبو زُرْعَة، وذهبوا في رمضان سنة ٩١ للهجرة، ونزلوا في الجزيرة في لسان أرضي داخل في المحيط الأطلسي يعرف الآن باسم طريفة، دخلوا بلادا كان يحكمها القوط منذ قرنين، وهم قوم أولو بأس في الحرب، ولم يكن انتصار المسلمين بسبب

---

[١٤١] نفح الطيب، عن: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة للدكتور عبد الرحمن الحجي. ص ٥١.

ضعف جيش القوط، أو الخيانات فيه كما يروج من لم يقرأ التاريخ، بل إن القوط أمة عسكرية لم تعرف الهزيمة طيلة قرنين من الزمن، إلا على يد المسلمين، وعادت السرية بأخبار البلاد لموسى، ومعلومات أعانت على وضع خطة للفتح، فجهز الجيش، فتجمع لديه سبعة آلاف، غالبيتهم الساحقة من البربر المسلمين، واختار لها القائد المسلم البربري طارق بن زياد، أمير الحامية العسكرية في مدينة طنجة المغربية، الذي كانت له صولات وجولات في الجهاد في السنغال، وكان عمره ٢٨ عاما، وهو من قبيلة نَفْزَة، من البربر البُتْر، والمسافة بين طنجة وجبل طارق ٢٢ كم، وكل العبور تم من مدينة سبتة، ولم تفتح سبتة، وحاكمها كان من القوط، واسمه يُلْيان، أمدَّ المسلمين بالمراكب للعبور، كل مركب يحمل ما يقارب الخمسين إلى المائة على أقصى تقدير، فإذا ما اصطحبوا معهم الجمال والخيل، فإن حمولة السفينة لن تزيد عن الخمسين في كل مرة، وعلى الأرجح أنه كان للمسلمين مراكبهم أيضا، لأن عدد الجيش كبير يتطلب مراكب كثيرة، إذ كانت لديهم دور لصناعة السفن منذ فجر الإسلام في شمال أفريقيا، وكانوا قد خاضوا معركة ذات الصواري في سنة ٣٣ هـ من تونس باستعمال أسطول إسلامي قوامه مائتي سفينة، وفتحوا صقلية في سنة ٤٦ هـ بأسطول من مائتي سفينة، والأمة التي يشغلها شأن الفتوحات ونشر الإسلام لا بد أنها أخذت عدتها بلوازم الفتح براً وبحراً، ويذكر ابن حيان أن طارقا تجهز "في سبعة آلاف من المسلمين جُلُّهم من البربر، **في أربع سفن**، وحط بجبل طارق المنسوب إليه يوم السبت في شعبان سنة اثنتين وتسعين، ولم تزل المراكب تعود [إلى سبتة وتجلب باقي الجند] حتى تَوافى جميع أصحابه عنده بالجبل"[١٤٢]، وآخر فوج كان فيه طارق بن زياد،

يقول المؤرخ الإسباني (اغناسيو اولا غي) في كتابه: (الثورة الإسلامية في الغرب). الصادر في برشلونة سنة ١٩٧٤ ما نصه: "للوصول إلى ايبيريا كان على العرب أن يجتازوا المضيق البحري الذي يفصل أفريقيا عن أوروبا؛ الجمل (سفينة الصحراء) الذي يسبب "دوار البحر" لمن يمتطيه دون خبرة، هو سفينة صحراوية وليست بحرية. كذلك البربر لم يكن لديهم سفن حربية. وحتى لو تزود العرب الزوارق، فقد كان عليهم أن يجدوا الربابنة المهرة. خصوصاً أن مضيق جبل طارق الذي يصل بين المتوسط الخالي من المد والجزر وبين الأطلنطي، يشكل ممراً لتيارات قوية تسير بالاتجاهين، وتخضه بصورة دائمة رياح عنيفة. إنه ممر خطر للغاية، ويعرف عنه أنه مقبرة البواخر".

"حسب رواية (أخبار مجموعة) أعار المدعو يُليان العرب [المسلمين] أربعة زوارق، لا يزيد الحد الأقصى لحمولة الزورق الواحد عن خمسين رجلاً إضافة إلى البحارة. يحتاج طارق، في هذه الحالة، لنقل جيشه إلى خمس وثلاثين رحلة. أي حوالي سبعين يوماً. لأن هذا النوع من الزوارق يحتاج، على الأقل، إلى يوم واحد ليقطع المسافة. وإذا حسبنا الأسابيع ذات الطقس السيئ والتي تتوقف فيها الرحلات، تصل هذه المدة إلى ثلاثة أشهر؛ لا يمكن أن يتم إبحاره كهذا إلا إذا تمكن النازلون على شواطئ إسبانيا من النجاة من مجزرة. ذلك حتى يتمكنوا من استقبال من سيلحق بهم".

دخل طارق بن زياد المضيق في ٥ رجب، وبينما هم في السفينة في المضيق، أخذته نومة ثم صحا من نومه وبشر من في السفينة أنه رأى رسول الله ﷺ، الذي بشره بالنصر وأوصاه بمن معه خيرا، وبمن سيفتح بلادهم خيرا، ولما وصل طارقُ جبلَ طارق في الجانب الأندلسي، في الموضع الوطيئ الذي كان قد عزم النزول فيه إلى البر، وجد القوط

---

[١٤٢] نفح الطيب ١٦١/٣ عن: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة للدكتور عبد الرحمن الحجي. ص ٥١.

بانتظاره بالسلاح، وعليهم تُدْمير، فابتكر طارق خطة جديدة على الفور، فلما مُنع أوهم العدو بأنه يرجع للمغرب، وبقي يبحر حتى حل الظلام، ثم كر راجعا من سبيل آخر في البحر إلى خلف الجبل"[١٤٣]، وهي منطقة تمثل منحدرا بالغ الانحدار والصعوبة، كأن الجبل مقصوص قصاً يرتفع عشرات الأمتار، ونزل إلى الموضع الوعر فوطِأه بالمجاذف وبراذع الدواب، ونزل منه إلى البر وهم لا يعلمون، وصعدوا الجبل والتحقوا بالأفواج التي سبقتهم، ليكتمل الجيش ٧٠٠٠،

وقبل المعركة الفاصلة، كان كل فوج يصل من المسلمين إلى الأندلس يستقبله أكبر قائد قوطي اسمه تُدْمير، الذي كان محافظا لإحدى المناطق والتي تسمى باسمه إلى اليوم، وقد انهزم تُدْمير أمام المسلمين في جميع المعارك دون استثناء، فتعجب، -وهو القائد العسكري الفذ- لما يحدث له، فكتب تُدمير بعد لقائه بأفواج المسلمين فوجاً إثر فوج رسالة إلى الملك القوطي لوذريق (رودريكو)، -الذي كان منشغلا بقمع بعض الثورات في الشمال-، قائلا: "أيها الملك، أدركني، فقد حلّ بأرضنا قومٌ لا ندري أهم من أهل الأرض أم من أهل السماء، وقد لقيتهم فلتنهض إليَّ بنفسك". فلما جاءه الخبر، ووقع عليه وقع الصاعقة، انبرى من توه لإعداد الجيش الضخم لمنازلة المسلمين.

وعلم طارق بالجموع التي جمعها القوط له، فكتب إلى موسى بن نصير يطلب المدد، فأرسل له خمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك، فأصبح عدد الجيش الإسلامي ١٢ ألفا، بينما كان عدد الجيش القوطي بتقدير أقل الروايات ١٠٠ ألف، يمدهم من خلفهم عشرات الآلاف حين الحاجة، وقد نازل الجيش الإسلامي هذا العدد الضخم في أرضهم، وبين ظهرانيهم مدنهم، وإمداداتهم الاستراتيجية، وروح القوط المعنوية عالية، كانوا متأكدين من النصر إلى درجة أنهم جهزوا الحبال التي سيوثقون بها المسلمين أسرى ويسوقونهم، جاءوا بتلك الحبال على عربات خاصة لكتاف أسرى المسلمين، وبدأت المعركة في يوم ٢٨ رمضان سنة ٩٢ للهجرة، سنة ٧١١ ميلادية، واستمرت المعركة تسعة أيام، إلى نحو السادس من شوال، فقاتل الفريقان قتالا شديدا، وصبرا صبرا عظيما، في معركة وادي لَكُهْ، أو وادي برباط، أو معركة شذونة، وكلها أسماء لنفس المعركة، بأسماء المواقع بالإسبانية، حتى أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، فلم ينج من القوط إلا من نجاه الفرار، ومنهم لوذريق، ملكهم الذي قتل في المعركة،

وقد تابع طارق بن زياد الجيش المنهزم وفتح عدة مدن في الطريق حتى وصل طليطلة عاصمتهم".[١٤٤]

## هل صبغُ لِحْيَةِ ابْنِ نُصَيرٍ البيضاءَ بلونٍ أحمرَ ثم أسودَ كانَ سببَ فتوحاتِ الأندلسِ؟

ويتابع المؤرخ الإسباني الجاد (اغناسيو اولا غي) في كتابه: (الثورة الإسلامية في الغرب) فيقول: "يقول كتاب (أخبار مجموعة) أن موسى بن نصير حين أراد أن يدفع أهل مدينة ماردة المسورة (بسور لم يَبْنِ إنسان مثله) إلى الاستسلام، قد صبغ لحيته البيضاء بلون أحمر بعد الاتصال بالمفاوضين. ثم جاء إلى الاجتماع الثاني بلحيته الحمراء، صرخ أحد المندوبين: (لابدّ أنه واحد من أكلة لحوم البشر وليس ذلك الشخص الذي رأيناه في المرة

---

[١٤٣] وقصة حرق السفن، وخطبته في الجيش أن البحر من خلفكم والعدو من أمامكم من الأساطير التي لا أساس لها من الصحة.

[١٤٤] تفاصيل معركة الفتح الإسلامي للأندلس - **الدكتورعبد الرحمن الحَجّي (رحمه الله)، بتصرف.**

الماضية). في الاجتماع الثالث صبغ لحيته بالأسود؛ ولدى عودة المفاوضين إلى المدينة قالوا لسكانها وهم في حالة ذهول؛ أنكم تقاتلون أناساً يتغيرون بمشيئتهم؛ وملكهم الذي كان منذ أسبوع شيخاً مسناً هو الآن رجل شاب. اذهبوا واستسلموا له. هذا مطلبه".

"كانت هذه المدينة من أهم مدن ايبيريا؛ كان يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة. (لابدّ أن العرب فقدوا عقولهم أمام عظمتها). وقد ظلت مركزاً حضارياً هاماً خصوصاً بعماراتها الأنيقة، ولم تكن مأهولة بسكان جهلة. ولم يكن من الممكن خداعهم بحيلة تغيير لون اللحية".

"وماذا عن المدن الحصينة مثل طليطلة أو رُندة، صمدت هذه الأخيرة نصف قرن في وجه أمراء قرطبة الأشد قوة من طارق وموسى مجتمعين. أن يأخذ العرب مدناً بالخدعة الحربية أو بفعل الخيانات المحلية أمر يمكن فهمه، ولكن أن يجتاحوا بسهولة بالغة مئات المدن. كان بعضها من أهم مدن العالم آنذاك، فأمر آخر!!"

ويستمر في طرح الأسئلة الكبيرة والعميقة؛ فيقول: "من المدهش أنه بعد فتح الإسكندرية بدأت المسافات تصبح شيئاً فشيئاً طويلة. وبدأ العرب يواجهون بلاداً ذات طبيعة جغرافية صعبة. وبالمقابل بدأ الوقت اللازم لاجتياح هذه المسافات يقصر شيئاً فشيئاً. ثلاث وخمسون سنة للسيطرة على تونس. عشر سنوات لكامل شمال أفريقيا. وثلاث سنوات لشبه الجزيرة الايبيرية، صحاري وأنهار وسلاسل جبلية تم اجتيازها بسهولة بالغة".

"في الواقع لا يمكن لحملة عسكرية أن تستمر إلى ما لا نهاية. لأن الحملة تفقد قوتها بقدر ما تتوغل وتتقدم. وعندما يتقدم الفاتح، وتفقد قواعده الأولى القدرة على تموينه، يجب عليه أن يؤسس قواعد بديلة؛ الأمر الذي كان يتطلب وقتاً في القرن السابع. لكن العرب [المسلمين] حسب التاريخ التقليدي أهملوا هذا المبدأ الاستراتيجي الأساسي في تلك المرحلة. فما أن يسيطروا على بلد حتى ينطلقوا لاجتياح بلد آخر. لقد وصلوا إلى تونس واتجهوا فوراً نحو المغرب؛ وما أن رأوا أمواج المحيط حتى أبحروا نحو أوروبا. ثلاث سنوات فيما بعد تسللوا عبر جبال التبيريني واجتاحوا مقاطعة اكيتانيا في فرنسا".

"لم يكن العرب على معرفة دقيقة بهذه الأهداف العسكرية، ولم يكن لديهم بعد خرائط ولا يعرفون حتى لماذا جاءوا وما سيفعلون في إيبيريا". انتهى.

لنأخذ اجتماعات موسى بن نصير المذكورة سابقاً. هل تخضيب لحية القائد بالحناء هو الذي فتح الحصن، وأدخل الناس في الدين أفواجاً، وجعلهم يدافعون عنه ويستشهدون في سبيله. ذلك أمر مرفوض حتماً. الذي جعل الناس تؤمن هو ما كان يدور في تلك الاجتماعات، من نقاش وحوار وجدال بين قوة أفكار الإسلام ووهن أفكار الكفر. وحتى إذا ما ثبت لأولئك المعذَّبين بنار الإقطاع وغموض التثليث، وبطش القوط أن التوحيد هو الحق، وأن الرجال الذين يحملون هذه الدعوة صادقون واعون مؤثرون قادرون على إنزال الهزائم النكراء بمثل تلك المجتمعات المتهاوية من الداخل، فتحوا لهم الحصون، وأقبلوا على الإسلام يلتزمون به ويدافعون عنه، لِما لمسوه وشاهدوه من عظمته وعدله.

"فقد كان القوط الذين حكموا الأندلس يظلمون أهل البلاد (الوندال والرومان والأخلاط الأخرى من البشر والأعراق التي كانت قدمت من غَالِية وبلاد الجرمان واللومبارد غزاة ثم استقروا فيها، ومن قبائل الوندال جاء اسم

الأندلس)، ثم جاء القوط قبائل متبربرة من أقصى الشمال، وغلبوا على البلاد واستأثروا بخيراتها، وبطشوا بكل من خالفهم، **فلما جاء المسلمون وجدوا قوماً لا يريدون شيئا أكثر ولا أهم من التخلص من ظلم القوط**"[١٤٥].

لذلك لم يحتجْ الجيش إلى مؤنة تصله من المدينة المنورة ليكمل المسير. فالذين دخلوا في الدين سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، فبذلوا النفس والمال. ولم يحتج الجيش إلى الخرائط، لأن الذين آمنوا من أهل البلاد حملوا الإسلام بأنفسهم، أو وجدوا في الإسلام عدلا كانوا ينتظرونه، وساعدوا جيشهم -الجيش الإسلامي- على التوغل. ولم يحتج الجيش إلى آبار ماء متنقلة أو تقنية متطورة، لأنه استخدم ذلك المتوفر بدافع تلك الطاقة الحيوية الهائلة التي زرعها الإسلام في قلوب الملتزمين به.

ولا شك أن الدعوة سبقت المعركة؛ فالرسول - ﷺ - أرسل الرسائل إلى الملوك والعظماء. فسار على سنته الخلفاء كابراً خلف كابر. وأمر الصحابة بوجوب دعوة الناس قبل قتالهم، والاكتفاء بالجزية إذا قبلوا سلطان الإسلام ورفضوا اعتناق الدين. فالتزم المسلمون بذلك جيلاً بعد جيل. الأمر الذي يؤكد أن الناس علمت بالإسلام وعظمته وعدله قبل وصول المجاهدين. فإذا ما وصل المجاهدون، وشاهدتهم الشعوب الضالة إسلاماً يتحرك فعلاً: إسلاما لا يعتدي، ولا يظلم، ولا يسرق، ولا يغتصب، إسلاما ينصر المظلوم ويعين الضعيف، ويحل العقدة الكبرى عند الإنسان، إسلاما يطبق قوانين الدولة الإسلامية على المسلمين وغيرهم سواء بسواء من دون تمييز، دخل الناس في دين الله أفواجا، أو بقوا على معتقداتهم آمنين من الإكراه على تركها، مطمئنين إلى العدل والإنصاف وحسن المعاملة.[١٤٦]

ولعلنا نأخذ من التاريخ العبرة، فشعوب الأرض اليوم تكتوي من ظلم الرأسمالية، ومن ضنك العيش، فلعلها تفتح أبواب مدنها وقلوبها للإسلام فتدخل فيه أفواجا حين تأتيهم جموع المسلمين فاتحة بالخير العظيم إن شاء الله تعالى.

## مفاهيم العقيدة محرك دافع للعمل وطاقة هائلة تفتح الآفاق

إذن، **فمفاهيم العقيدة كانت محركا دافعا للعمل، وطاقة هائلة تفتح الآفاق للقيام بأعمال عظيمة لم يكن الذين قاموا بها أنفسهم يتصورون إمكانية القيام بها بقواهم الذاتية يوما**، إلا بعد إيمانهم بهذا الدين، وبوعد الله ورسوله لهم بالنصر ولدينه بالتمكين، وإيمانهم بأنهم أصحاب رسالة، وأمة خيرية وشهادة تشهد على الأمم!

لم يكن المسلمون ينظرون حتى مجرد نظر في القضايا العقدية نظرة **أفكار جامدة**، ولا قضايا فكرية تنظيرية تغوص للبحث عن شوارد الأفهام، ولا تجلية غوامض الأبحاث، لأنهم بسليقتهم الفكرية اللغوية فهموا أن المراد من مباحث الاعتقاد أن تكون محركا للعمل، قارنوها بمخزونهم الثقافي الجاهلي، وكانت أدلتها في غاية البساطة،

---

[١٤٥] الدكتور وليد سيف، صقر قريش، حوار بين بدر وبين أحد المولَّدين.

[١٤٦] أنظر التفاصيل في مقال في مجلة الوعي، العدد ٨٣، السنة السابعة شوال ١٤١٤هـ، اذار ١٩٩٤م: الفتح الإسلامي يذهل المستشرقين، بتصرف شديد.

يدرك أي عربي ذي سليقة لغوية بسيطة أن هذا القرآن ليس بكلام بشر، ويدرك أن هذه المعاني السامقة التي جاءت بها الرسالة هي مما أعلاه مثمر، وأسفله مغدق، وفرعه جنان، ولما "جاء الوليدُ بن المغيرة النبيَّ ﷺ وقال له: اقرأ علي، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فقال له أعد، فأعاد، فقال الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وما يقول هذا بشر".[١٤٧]

وحين ربطَ القرآنُ الإنسانَ بحقيقة الكون الكبرى، وجود الله تعالى، ربطه بالله ربا مالكا متصرفا مدبرا حكيما رحيما لطيفا، بمعاني إجمالية، سيّروا حيواتهم بناء عليها، فعلموا أن معناها إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وتصرفوا بناء على ذلك المعنى، ولجأوا إلى الله في الشدائد، لقضاء حوائجهم!

فهموا المعاني بسليقتهم اللغوية الفكرية، فهماً يقيم العلاقة بين ما في هذه المعاني اللغوية من طاقة تأثيرية هائلة، وبين الواقع والعمل المفروض عليهم لحمل الإسلام والدعوة إليه حملا تأثيريا يستغل طاقات الإسلام التأثيرية الفكرية الهائلة التي تقلب الواقع وتفتح القلوب والعقول للاستسلام لله تعالى والتدين بدينه!

انطلق موسى بن نصير، وهو في السبعينات من عمره، من المدينة إلى الشام إلى شمال أفريقيا إلى الأندلس إلى فرنسا يريد أن يفتح القسطنطينية من الجهة الأوروبية بعد استعصائها على الفتح من المشرق، ما الذي جعله يعقد العزم على أن يعبر صحاري، ومجاهل وبحارا وجبالا وبلادا لا يملك خريطة لها، ليقوم بهذا العمل الجبار؟ توكلٌ على الله، وإيمان بوعده رسوله ﷺ بفتح القسطنطينية، ومحاولة الفوز بأن يكون الأمير الذي مدحه الرسول ﷺ، هذه الدوافع جعلته يقوم بأعمال جبارة، لقد تحرك موسى بن نصير إيمانا بوعد رسول الله، ومحاولة منه لأن يكون أداة إنفاذه، ونيل شرف أن يكون موضع مدح رسول الله ﷺ، ونحن: وعدنا الله وعدا حسنا، أن يستخلفنا في الأرض، وأن يمكن لنا دينه الذي ارتضى، وأن يبدلنا بعد خوفنا أمنا، وأن يظهر بنا الإسلام على الدين كله، وأن يدمغ الباطل بالحق، وأن لا يبقى بيت مدر ولا وبر ولا حجر إلا ودخله الإسلام بعز عزيز أو بذل ذليل، وأيضا وعدنا: عيشة راغدة وأن يسقينا ماء غدقا، ووعدنا جنات عرضها السموات والأرض، أفلا يدفعنا ذلك كله إلى أن نصل الليل بالنهار بالعمل، وأن نتوكل على الله ونندفع للقيام بخوارق الأمور؟

## مفهوم الصبر في الاسلام

إن لمفهوم الصبر كجزء من مفاهيم الأعماق في عقلية السواد الأعظم من أبناء الأمة الاسلامية معنى سلبيا، يتمثل في خليط من الاستسلام إلى الواقع السيء، والعجز، والتواكل، والقدرية الغيبية، والقعود عن التغيير،

[١٤٧] وقصة ذلك القول من الوليد أنه لما قرأ عليه رسول الله القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال الوليد: قد علمت قريش أني أكثرها مالا، قال أبو جهل: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له، قال الوليد: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجز ولا قصيد مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال فدعني أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأْثُره عن غيره. انتهى. بمعنى: ينقله عن غيره.

ولسـان حـال فئـات عظيمـة مـن المسـلمين أنـه طالمـا أننـا لا نملـك تغيير الواقـع، فلـيس علينـا إلا الصـبر، بمعنى الاستسلام، وكأن الواقع وتغييره واقع في دائرة القضاء والقدر، كطول الانسان ولون عينيه، وموعد موته.

يقـول الحـق سـبحانه وتعـالى في أول آيـة تناولـت موضـوع الصـبر في القـرآن نـزولا: ﴿ولربـك فاصبر﴾ [٧ المدثر]، وهـذه السـورة التي بها طلـب مـن النبي عليـه الصـلاة والسـلام أن ينـذر بقولـه تعـالى: ﴿قـم فأنـذر﴾، ولا بـد لمن ينـذر قـومه، مُخْرِجاً إياهم من عبادة الطاغوت إلى عبادة الله الواحد القهار أن يُؤْذَى في دعوته ولا بد لـه أن يصبر على حمل الدعوة وما في حملها من شدائد.

قال في لسان العرب: وأَصل الصَّبْر الحَبْس، وكل من حَبَس شيئاً فقد صَبَرَه؛ ومنه الحديث: نهى عن المَصْبُورة ونَهَى عن صَبْرِ ذِي الرُّوح؛ والمَصبُورة التي نهى عنها؛ هي المَحْبُوسَة على المَوْت.

قال ابن عاشـور في تفسير سـورة العصر في التحرير والتنوير: وحقيقة الصبر أنه: منع المرء نفسـه من تحصيل ما يشتهيه أو من محاولة تحصيله (إن كان صعبَ الحصول فيترك محاولة تحصيله لخوْفِ ضر ينْشأ عن تناوله كخوف غضب الله أو عقاب ولاة الأمور) أو لرغبة في حصول نفع منه (كالصبر على مشقة الجهاد والحج رغبة في الثواب والصبر على الأعمال الشاقة رغبة في تحصيل مال أو سمعة أو نحو ذلك).

ومـن الصـبر: الصـبر على مـا يلاقيـه المسـلم إذا أمَرَ بـالمعروف مـن امتعـاض بعـض المـأمورين بـه أو مِـن أذاهـم بالقول كمن يقول لآمره: هَلاّ نظرت في أمر نفسك، أو نحو ذلك. انتهى

فالصبر إذن حبس النفس عن الشهوات، وبذا يلزم المسلم نفسه بالبعد عن كل ما حرم الله، أي إن الصبر يقود المسلم ليلتزم الحكم الشرعي، بل ليلتزم تحري القيام بما أمر به على أفضل صورة باذلا أقصى وسعه في حسن القيام بالأعمال، ومتحرياً أن ينآى بُعدا عن كل ما يقرب من المعاصي، إذا دعته عيناه للنظر إلى ما حرم الله تذكر أن الله قد أعانه عليهما بطبقين فيطبق، وإن نازعه لسانه في قول ما حرم الله، يتذكر أن الله قد أعانه عليه بطبقين فيطبق، ويصبر نفسه عن المحرم، وعن أي فعل يقود إلى الحرام، فيكون ملتزما بالحكم الشرعي.

والصبر أيضا حبس النفس في طاعة الخالق سبحانه، فبعض التكاليف تحتاج لجلد لتحمل مشقاتها، كالجهاد والحج، والخشوع في الصلاة، وحمل الدعوة الاسلامية بمقتضيات هذا الحمل من قول كلمة الحق عند كل ذي سلطان جائر، فتنازع المسلمَ نفسُه كي يركن إلى دَعَةِ العيش ويترك واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم، فيحبس نفسه في ركن الله المتين، متذكرا الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن ابن عباس ﷺ قال: «كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

ففي كل الأحوال اقترن الصبر بحبس النفس في علياء عبوديتها لله، فلا تفعل شيئاً نهاها رب العزة عنه، وتفعل مـا أُمرت بأقصى طاقـة تسـتطيعها، روى البخـاري ﷺ عـن الأعـرج عـن أبي هريـرة عـن النبي ﷺ قـال «دعـوني مـا

تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

ومن أمثلة الصبر التي يتضح فيها هذا المفهوم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾[35 الأحقاف]، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [28 الكهف].

ففي حمل الدعوة ينبغي الصبر اقتداء بأولي العزم من الرسل، الذين دعوا قومهم ليلا ونهارا، سرا وجهارا، وأوذوا فما لانت لهم قناة، حتى بلغ بهم الحال في شدة البأساء والضراء التي أصابتهم إلى أن يتضرعوا إلى الله سائلين النصر، ولكن دون أن تفت عضدهم شدة، أو تصرفهم عن الحق قيد أنملة كل مغريات الدنيا، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾[214 البقرة]، وقد اقترن الصبر بالثقة بوعد الله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [77 غافر]، ولبلوغ هذه المرتبة العالية، ينبغي على حامل الدعوة أن يتزود بالتقوى والصبر على الطاعات: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ [65 مريم]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [132 طه]، كذلك من شأن المؤمنين الصبر في ساحات الجهاد، يدفعون أعداء الله عن دار الاسلام، ويحملون الدعوة إلى سبيل الله في كل حدب وصوب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [110 النحل]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [200 آل عمران]، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [٢٥١ البقرة]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (65) الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[66 الأنفال]،

والصبر أخيرا يتمثل في بلوغ المرء بإيمانه قمة عالية، برضاه بقضاء الله، وعلمه أن فقد عزيز يعني أن الحق سبحانه أعطى وهو من أخذ، فيحبس نفسه عن أن تجزع لقضاء الله، ويسلم أمره لمدبر الكون، مدركا أن الله يقضي في كل أمر بحكمة، فلا يقابل علمه أن أمرا ما تم بحكمة الله بجزع، ويعلم أن الله يبتلي المسلم في حياته بأمراض وبلايا وخطوب، فيحبس نفسه في ثوب الشكر متذكرا أن الله جعل الدنيا دار مفر والآخرة دار مقر، وأن الله يجزي على الصبر أعظم الثواب.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [44 ص]، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ [156 البقرة].

وهكذا فالصبر كمفهوم متعلق بالأعمال يتمثل في حمل النفس على القيام بالطاعات بأقصى ما تطيق، وبحبس النفس عن المعاصي بأبعد ما تستطيع البعد، فيكون الصبر بذا حمل النفس على التزام الحكم الشرعي بأحسن ما يكون الالتزام. ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (96)مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [97 النحل]،

وأما الصبر كمفهوم متعلق بالاعتقاد، فيكون بتسليم مقاليد تصريف الأمور في الكون إلى الخالق، فيما يقع في دائرة القضاء والقدر، فلا تغير صروف الدهر من حسن صلة المسلم بربه، فلا يجزع، ولا تغيره الابتلاءات والمحن، بل تشحذ نفسه بعزيمة ليمضي في الدنيا عالما أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فيبقى المسلم بصبره شامة بين الخلائق يرقى دوما في معالي العلا. ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [31 محمد]. ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [17 لقمان]. والحمد لله رب العالمين

## الموت والرزق والنصر: الفاعل فيها واحد وهو الله تعالى: أولا: انتهاء الأجل السبب الوحيد للموت:

"إن سبب الحياة في الكائنات الحية عموما هو وجود الروح، فبدون الروح لا وجود للحياة، قال تعالى في حق آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر ٢٩]، فالحياة في الجسم المادي وجدت في صورة خلايا بالغة التعقيد، حولت "الجماد" إلى كائن حي نابض بالحياة بكل مظاهرها وخصائصها، وجعلت خلايا الإنسان نابضة بالمشاعر والأحاسيس والعاطفة والحزن والفرح ثم بالعقل والتفكير! هي سر رباني أودعه الله فيها، وهذا السر له سبب وهو وجود الروح، فالروح هي سبب الحياة.

ونقصد بالسبب هنا كل شيء يحمل الطاقة السببية الدافعة للعمل (الطاقة الحيوية في الكائنات)، والتي بوجودها انبثقت خصائص الحياة من الحاجات العضوية (والتي لها مظاهر معروفة كالنمو والتنفس)، والغرائز (كغريزة حب البقاء والنوع)، ثم الطاقة الفكرية في الإنسان، وأيضا الطاقة السببية مصدرها الآخر طاقة الجسد ويأتي بعضها من التنفس وبعضها من الطعام، وهكذا.

فهناك سبب للحياة وهو وجود الروح وهناك سبب لحركة الجسم وهو الطاقة الغذائية، ولكن هناك شروط لازمة لبقاء الحياة في جسم الكائن الحي وهي إشباع الحاجات العضوية كالشرب والأكل والنوم والإخراج والتنفس والتبريد والتدفئة، وإذا لم تشبع حاجات الأعضاء فإنها تؤدي حتماً إلى الموت، لأنها شروط للحياة، فهي ليست أسبابا لها بل هي عوامل لازمة لبقاء الحياة.

والفرق بين السبب والشروط، هو أن الشرط يترتب على عدمه وجود العدم، ولا يترتب على وجوده الوجود، في حين أن السبب هو ما يلزم من وجوده الوجود ويلزم من عدمه العدم. والشروط هي عوامل وظروف وحالات للأشياء وما حولها لكنها غير فاعلة فلا تحوي طاقة سببية، وهذا هو الفرق الجوهري بين السبب والشروط. وتعتبر الحالة التي تكتنف الأحياء بأنها شرط يحدث عنده الشيء ولا تكون سببا فيه.

وأيضا فإن من شروط بقاء الحياة في الجسم هو سلامة الأجزاء وترابطها مع بعضها، بمعنى اتصال أعضاء الكائن الحي مع بعضها، فاذا أتلفت الأعضاء الرئيسية الحيوية في جسم الحي فإن الحياة فيه تنتفي حتما، ولكن لا يلزم من بقاء هذه الأعضاء سليمة وجود الحياة، لأن الذي تعطل في هذه الحالة هو سبب الحياة وليس شروطها، بمعنى أن خروج الروح يلزم منه عدم الحياة ووجودها يلزم منه بقاء الحياة، أما الشروط للحياة فإنها قد تكون موجودة ولا يترتب عليها بقاء الحياة، ولكن يلزم من عدمها عدم الحياة. فإذا حبس إنسان وترك دون شراب فإنه سيموت حتماً بعد أيام، وإذا منع عنه التنفس فإنه سيموت حتما بعد دقائق، وهذا ليس لأن سبب الحياة هو الذي تعطل، بل لأن شروط الحياة في هذا الكائن الحي قد عدمت فعدمت معها الحياة.

فإذا لم نفرق بين سبب الحياة وبين شروطها وقعنا في الخلل، وجعلنا شروط الحياة أسبابا لها، وجعلنا من يخنق إنسانا أو يقطع رأسه وكأنه هو الذي يملك سبب الحياة وسبب الموت وهذا خطأ كبير، فالوحيد الذي يملك سبب الحياة وهو الروح هو الله تعالى، وهو الوحيد الذي تقبض هذه الروح بأمره، والإنسان لا يملك سبب الحياة وإنما قد يتحكم في شروطها، فمن يضرب عنق شخص بالسيف أو يضربه على رأسه بأداة حادة قاتلة، فهو عمليا قام بتخريب جسم الكائن الحي أي قتله، وبالتالي أفقده الشروط اللازمة لبقاء الروح في الجسد، لأن الجسد لم يعد صالحا لاستقبال الحياة. ومن جوّع نفسه أو شرب السم أو خنق نفسه بحبل، فهذا العمل هو هدم لبنيان الله وهو قام بتخريبه، فهذا الجسد ليس ملك الشخص حتى يتحكم فيه بالإتلاف والتخريب، ولذلك لا يجوز له التبرع بأعضائه الحيوية حياً أو ميتاً.

والأمثلة المذكورة من قطع الرقبة، إلى إطلاق الرصاص على القلب، إلى فرم لحم الكائن الحي، كل ذلك هو تخريب وإتلاف للجسم الحي بحيث يصبح غير صالح للحياة واحتواء الروح. وهذا بالضبط هو المعنى الذي ذكره القرآن في قصة سيدنا إبراهيم عليه سلام الله مع النمرود. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ٢٥٨]، فسيدنا ابراهيم عليه سلام الله استشهد بأن الله هو الذي يهب الحياة ويخلق جسم الانسان، وهو الذي يقبض الروح فهو الذي يحيي ويميت وحده، وهذا اختص الله به نفسه. وأما النمرود فقد رد عليه بأنه هو أيضا يحيي ويميت، من خلال فعل يده باطلاق سراح شخص محكوم بالإعدام، وتنفيذ الإعدام في شخص آخر، فكأنه أصبح يملك الموت والحياة بيديه، فالنمرود فهم الأمور على غير وجهها الصحيح كما يفعل بعض الناس، فابراهيم عليه السلام ذكر أن الحياة أي الخلق والروح هو دليل على وجود الله وقدرته، والنمرود قلب الأمر على وجه آخر بأنه هو يستطيع التحكم في إبقاء الحياة في شخص وفي إعدام آخر أي بإتلاف أعضائه. فاعتبر إتلاف الأعضاء بالقتل بأنه كملكية

الحياة والموت، ولأجل ذلك انصرف سيدنا إبراهيم عن نقاشه لأن النمرود حاول ايجاد ثغرة في الدليل لينفذ منها، فحور المعنى الصحيح الذي قصده سيدنا ابراهيم إلى معنى ناقص أي جعل سبب الحياة وخلق الجسم وشبّهه بإتلاف الأعضاء أو إبقائها سليمة وشتان بين الأمرين، لذلك جاءه ابراهيم بدليل آخر وهو حركة الشمس من المشرق إلى المغرب فبهت الذي كفر[١٤٨]".

**قبل أن نتناول سبب الموت، لا بد من دراسة سبب الحياة:**

تُقرِّر العقيدة أنَّ **أوّل حياةٍ** إنما كانت **بالخلق من العدم**؛ إفاضةً إلهيةً للوجود والكائنات. أمّا في الإنسان، فتبدأ **الحياةُ المنظومية** (Organismal Life) **لحظةَ الإخصاب** بتكوُّن **الزّيجوت**؛ إذ ينشأ **كائنٌ إنسانيٌّ واحدٌ مستقلٌّ بيولوجيًّا** بتركيبٍ جينيٍّ مميّز، وإنْ ظلَّ **معتمدًا بيئيًّا** على أمِّه في التغذية والأكسجة. وداخل هذه الحياة المنظومية يجري **النشاطُ الخلويّ** (Cellular Viability): الأيضُ والنموُّ والانقسامُ والاستجابةُ للمحفِّزات؛ وهي خصائصُ كانت قائمةً أصلًا في **الحيوانِ المنويّ والبويضة**[١٤٩] قبل الإخصاب. ينمو الجنين على الترتيب الذي نص عليه القرآن الكريم: نطفة، فعلقة، فمضغة، ثمّ يتابع التخلُّقُ والتصويرُ طورًا بعد طورٍ. (الحج ٥، والمؤمنون ١٤)، وتشير المراجعُ الجنينية إلى محطّاتٍ وظيفيّة مهمّة: اليوم ٦–١٠ من الإخصاب: الانغراس في بطانة الرحم. اليوم ١٥–١٧: بدء الخطّ الأوّلي (Primitive streak) وبدايات التغمُّد الجنيني. اليوم ٢٢–٢٣: ظهورُ النشاط القلبي الأوّل المُسجَّل جنينيًّا. هذه وقائعُ تشريحية–وظيفية لا تُقاس بها مسائلُ الروح؛ إذ الروحُ غيبٌ توقيفيّ. أما[١٥٠] علامتا ٤٢ ليلة، و ١٢٠ يوما الواردة في الأحاديث الصحيحة، فعند ليلة ٤٢ من الإخصاب (وتكافئ بحساب التوليد[١٥١] بداية الأسبوع الثامن أو اليوم ٥٦): دلالة الحديث: في حديث مسلم عن حذيفة بن أسيد، يَذكر النبي ﷺ أنَّه بعد اثنتين وأربعين ليلة يُبعث المَلَكُ «فيُصوِّرها ويخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها[١٥٢]»؛ وهو نصٌّ يُسند بداية

---

[١٤٨] بحث للأستاذ يوسف الساريسي بعنوان: الموت بيد الله وحده.

[١٤٩] فالحياة موجودة في الحيوان المنوي للرجل وفي بييضة المرأة، قبل أن يحصل بينهما تلاقح، وعند حصول التلاقح بينهما يبدأ العمل المشترك منهما للسير في تكوين الإنسان المتميز، فيمشج كل منهما ما عنده من عناصر التخطيط النووي مع ما عند الاخر، وما فيهما من الخلق المخلقة التي خطها الله سبحانه وتعالى للإنسان المتميز الذي سيخلق من هذا التلاقح، ومن هذا الاختلاط تتكون النطفة الأمشاج، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ٢ الإنسان. ثم تقوم هذه النطفة بقدرة أودعها الله فيها بتقسيم نفسها تقسيما بعد تقسيم، وتبدأ الخلايا التي تكوّنُ الجنين سيرها في تطورها من نطفة إلى علقة إلى مضغة على الترتيب الذي ورد في القران الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [٥ الحج]،

[١٥٠] الاعجاز العلمي وبعض المواضيع التي لم تطرق من قبل الا نادرا. د. محمد علي البار.

[١٥١] تحويلُ الزمن: "أيامُ الإخصاب" تسبق "عمرَ الحمل بحساب التوليد (LMP)" بنحو ١٤ يومًا عادةً؛ لذا فـ٤٢ ليلة من الإخصاب ≈ ٥٦ يومًا توليديًّا (الأسبوع ٨)، و١٢٠ يومًا من الإخصاب ≈ ١٣٤ يومًا توليديًّا (بداية الأسبوع ٢٠).

[١٥٢] لدينا نصّان صحيحان: حديث ابن مسعود: «إنَّ أحدَكم يُجمع خلقُه في بطن أمِّه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسل الله إليه المَلَك فينفخ فيه الروح...». وحديث حذيفة بن أسيد: «إذا مرَّ بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها مَلَكًا فصوَّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها...». المطلوب: إزالة التعارض الظاهري مع ملاحظة أنّ معطيات التخلّق تُظهر ملامح إنسانية واضحة قرابة الأسبوع الثامن (≈ ٤٢ ليلة من الإخصاب). أي إن مراحل النطفة والمضغة والعلقة تكتمل عند ٤٢ ليلة، ويبدأ بعدها التصوير.

مرحلة التصوير والتعيين الحِسّي. أما المشهد الجنيني: تكون العضوَنة (Organogenesis) في ذروتها الأولى؛ تشكُّلاتُ النخاع الشوكي وجذع الدماغ قائمة، وتُرصد منعكساتٌ لا إراديّة بدئية. وهذه كلّها دلائل تمايُزٍ بنيويّ لا تثبت ولا تنفي "الإدراك الشعوري"؛ فالأخير مرتبطٌ لاحقًا بنُضج الدارات المهاديّة–القشرية. **الخلاصة**: علامة **٤٢ ليلة تؤذِنُ بـالانتقال من التخلُّق العامّ إلى بدايات "التصوير" الحِسّي**: سَمْع، بصر، جلد، لحم، عظم... مع بقاء الجنين قبل هذه النقطة **في نمط نموٍّ نباتيّ الطابع** يغلبُ عليه الاغتذاءُ والتكاثرُ الخلوي. أما عند ١٢٠ يوما من الإخصاب، وتكافؤ ١٣٤ يوما بحساب التوليد (بداية الأسبوع العشرين)، الحكم الشرعيّ: جمهورُ الفقهاء يربطون هذه العلامة بـنَفخ الروح عملًا بحديث ابن مسعود: «...ثم يُرسَل إليه المَلَكُ فينفخ فيه الروح، ويؤمَر بأربع كلمات...»[١٥٣]؛ وهو بابٌ تعبُّديٌّ له آثاره في أحكام الإجهاض والنَّسْمة ودياتها. والمشهد الجنينيّ: تكون المناطق المخّيّة العليا قد تخلَّقت على نحوٍ ظاهر، وتبدأ -بحسب طائفةٍ من الأبحاث- التشابكات المهاديّة/القشرية بالعمل قرابة الأسبوع العشرين، بينما يؤخِّرها آخرون إلى نحو الأسبوع ٢٥. كما تُرصَد استجابات هرمونية لمنبّهاتٍ مؤذية (nociception)، دون الجزم بأنّها خبرة ألمٍ شعورية مكتملة (وهي أعمقُ ارتباطًا بنضجٍ لاحق في الجهاز الحوفيّ ومسارات التقييم الوجداني). الخلاصة: علامة ١٢٠ يومًا تقابل نقلةً نوعيّة في قابليّة الجهاز العصبيّ بحيث يغلب

(أ) رواية «في ذلك»: كل المراحل تقع داخل الأربعين الأولى: ثبتت في بعض طرق الحديث زيادةٌ مفسِّرة: «ثم تكون في ذلك علقة مثل ذلك»؛ أي: تصير علقةً داخل تلك الأربعين، ثم تصير مضغةً داخل تلك الأربعين؛ وبه يزول توهّم أنّ كلّ طورٍ يحتاج أربعين مستقلّة. هذا توجيهٌ حرّره ابن حجر، مقرونًا بشرح كيفية التغيّر التدريجي من نطفة إلى علقة إلى مضغة في أثناء الأربعين الأولى لا بعدها، مع الإشارة إلى اختلاف الألفاظ بين الرواة.

(ب) التمييز بين "التصوير/الكتابة" عند ٤٢ ليلة و"نفخ الروح" عند ١٢٠ يومًا، انتهى النووي إلى أن ظاهر "التصوير عقب الأربعين الأولى" ليس مرادًا على إنشاء الخلق فورًا، بل المراد كتابة صفاته وتقديرها ثم يقع تنفيذها في وقتها؛ وأكّد أن نفخ الروح بعد تمام أربعة أشهر. بهذا يُحمَل حديثُ ٤٢ ليلة على مَحطّة التصوير/الكتابة، وحديث ابن مسعود على البنية الزمنية الإجمالية التي ينتهي عندها نفخ الروح بعد أربعة أشهر.

(ج) تعدّد الزيارة الملكيّة: من محاولات الجمع المعاصرة المعتبرة: أنّ المَلَك يزور الجنين مرتين؛ الأولى حوالى ٤٢ ليلة لتصويره وكتابة سمعه وبصره وسائر صفاته، والثانية عند ١٢٠ يومًا لنفخ الروح. هذا الجمع يرفع التعارض ويُبقي كلًّا من الدلالتين على مقتضاهما.

(د) مبدأ التدرّج والاشتباك المرحلي (لا التقطيع الحسابي): أشار ابن حجر إلى أنّ تحوّل النطفة إلى علقة ثم مضغة يجري شيئًا فشيئًا في الأربعين، وأنّ عبارات «ثم يكون...» تُحمل على التصَيُّر التدريجي لا على قفزات زمنية منفصلة؛ وهذا ينسجم مع الوصف الجنيني الحديث الذي يقرّ بتداخل الأطوار واشتباكها.

ثانيًا: الجمع اللغوي لعبارة «مِثل ذلك»: للّفظ «مثل ذلك» ثلاثةُ توجيهات معتبرة: مثل ذلك في الصفة: أي ينتقل إلى علقة على نحوٍ من الجمع والتهيئة، لا في المدة. ومثل ذلك في الجملة الزمنية لكن بقرينة «في ذلك» الدالّة على الظرفية داخل الأربعين نفسها (أقوى ما يزيل الإيهام). ومثل ذلك = على مقدار ما قدّر الله له من التدرّج، لا أنّ كلّ طورٍ أربعون مستقلّة، والقرينة الأقوى هنا هي ثبوت لفظ «في ذلك» في بعض الروايات؛ وهو صريح في إدخال العلقة والمضغة في الأربعين الأولى. الخلاصة: نُقِرّ بصحة حديثَي «أربعين يومًا...» و«بعد اثنتين وأربعين ليلة...»، وأن الظاهر منهما يُجمَع ولا يُعارض. تُحمَل رواية «في ذلك» في طرق حديث ابن مسعود على أنّ العلقة والمضغة تقعان داخل الأربعين الأولى تدرّجًا لا على أربعيناتٍ متعاقبة. ولفظ «مِثل ذلك» يُفسَّر بمشابهة الهيئة والانتقال في الجملة لا بمماثلة المدة الحسابية. وعليه فمراحل النطفة فالعلقة فالمضغة متداخلة في الأربعين الأولى، يجري فيها التغيّر شيئًا فشيئًا. أمّا حديث «اثنتان وأربعون ليلة» فيدل على بدء مقام "التصوير والكتابة" الأولى لسمع الجنين وبصره وجلده وعظامه. ثم يستمرّ التخلّق بعد ذلك على سنن التدرّج حتى يكتمل تقديره. وعند تمام أربعة أشهر يثبت "نفخ الروح" على ما دلّ عليه حديث ابن مسعود وعمل جمهور الفقهاء. وبذلك نُثبِت زيارتين ملكيتين: الأولى للتصوير والكتابة نحو الليلة الثانية والأربعين، والثانية لنفخ الروح عند المئة والعشرين يومًا. هذا الجمع يراعي صناعة اللغة والحديث، ويوافق اشتباك الأطوار جنينيًا، ويرفع توهّم التعارض بين النصوص.

[١٥٣] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

الإحساسُ/الاستجابة المُنظَّمة (الإرادية) بعد أن كان الطابعُ الغالبُ قبلها نباتيًّا/لا إراديًّا؛ مع التأكيد أنّ نَفخ الروح قضيّةٌ شرعيةٌ محضة لا تُختَبَر تجريبيًّا. ولذلك فلنا أن نقوم بالتفريق المحكم بين أنماط الحياة: حياةٌ خلوية: نشاطُ الخلايا (أيض، نمو، انقسام، استجابة) في الجاميتَين (الحيوان المنوي والبييضة) ثم في الجنين. ثم: حياةٌ منظومية: تكامُلُ وظائف الكائن الواحد منذ الزيجوت، وهو مستقلّ بيولوجيًّا وإنْ اعتمد بيئيًّا على الأم. ثم حياةٌ روحيّة: نَفخُ الروح مناطُه النصّ والفقه، وآثاره شرعيّةٌ لا مختبرية. وبهذا يظهر معنى قولنا: الجنين قبل النَّفخ حيٌّ بيولوجيًّا متنامٍ متمايِز، ولكن شخصيّتَه الروحيّة مؤقّتةٌ بوقتٍ تعبُّديٍ دلَّت عليه الأحاديثُ، مع تَوافُقٍ وصفيٍّ بين ٤٢ ليلة (بداياتُ التصوير الحِسّي) و١٢٠ يومًا (نقلةٌ كُبرى في قابلية الجهاز العصبيّ). مع ملاحظة أخرى وهي إنه بعد الأسبوع الثامن (٥٦ يوما توليديا، وتكافئ ٤٢ ليلة من الإخصاب) يبدأ بالتميز شيئا فشيئا عن أجنة الحيوانات الرئيسة كالقرود مثلا، ويكتمل هذا التميز بشكل فاصل بالضبط بعد ١٢٠ يوما من الإخصاب[١٥٤]، بهذا يظهر الفرق: ما قبل النفخ كانت الحياة في الجنين أشبه أن تكون **نباتية/لا إرادية**، يغلب عليه النموّ والاغتذاء، وما بعده **إحساسي–إرادي** من حيث القابلية العصبية، مع بقاء **حكم نفخ الروح** قضيّةً شرعيةً تعبديةً لا يُقاس عليها تجريبيًا".

ثم يخرج الوليد طفلا، ويعيش، وتنتهي حياة الإنسان بخروج الروح منه وبموته، والتعريفات الطبية والقانونية للموت: إمّا توقّف قلبي–تنفّسي لا رجعة فيه، أو موتٌ بالمعايير العصبية (Brain Death/BD/DNC): توقّف كامل ولا رجعة فيه لكل وظائف الدماغ بما فيها جذع الدماغ. هذه معايير حديثة موحّدة ( AAN/AAP/CNS/SCCM 2023).[١٥٥]

طبيًّا، تُثبَتُ الوفاة بأحد مسارين مستقلَّين ومتساويَيْن حجّيةً: **(1) توقّفٌ لا رجعة فيه للدورة الدموية والتنفس**، و**(٢) توقّفٌ لا رجعة فيه لجميع وظائف الدماغ بما فيها جذع الدماغ**. في المسار الأوّل (الدوْريّ–التنفّسي) يؤدّي انقطاع التروية الأكسجينية إلى سلسلة انهيار خلوية سريعة: هبوط الATP، فشل مضخّات الأغشية، إزالة الاستقطاب، إفراز الغلوتامات، اندفاع الكالسيوم، تولّد الجذور الحرّة، ثم نَخَر/استماتة عصبية تتفاقم خلال دقائق–ساعات؛ فإذا لم تُفلِح محاولات الإنعاش واستُثبتت **عدم الرجعة سريريًا** (غياب نبض وتنفس تلقائيَّيْن مع توقّف كهربائي/ميكانيكي قلبي ثابت)، تُعلَن الوفاة بهذا المعيار دون انتظار تَخَرُّب الدماغ لاحقًا. أمّا المسار الثاني (العصبيّ)، فينشأ عادةً من أذيّة دماغية كارثية تُسبِّب ارتفاع الضغط داخل القحف فوق ضغط الإرواء الدماغي وحدوث الفتق، فتضيع **جميع** وظائف المخّ وجذع المخّ (غياب اليقظة والمنعكسات الجذعية **مع اختبار توقّف التنفس**)، وقد يستمر القلب بالخفقان بدعم الأجهزة؛ وهنا تُعلَن الوفاة **ولو وُجد نبض**. هذان المعياران يفسّران طبّيًا أن وفاةَ مصابٍ بطلقٍ ناريٍّ في القلب تُشخَّص بالمسار الأوّل، بينما وفاةَ مصابٍ بنزفٍ دماغيٍّ هائل تُشخَّص بالمسار الثاني، وتُبنى عليهما ممارسات الزرع ( DCDمقابلDBD ). خلاصة الأمر: **ليس كلّ موتٍ "موتَ دماغٍ" بالمعنى التشخيصي**؛ بل يكفي تحقّقُ **أحد** المعيارين بصورةٍ لا رجعة فيها لإثبات الوفاة.

---

[١٥٤] عالم روسي: حديث نفخ الروح في اليوم ١٢٠ للحمل وعلم الأجنة

[155] The 2023 AAN/AAP/CNS/SCCM Pediatric and Adult Brain Death/Death by Neurologic Criteria Consensus Practice Guideline

طبّيًّا تُثبَتُ الوفاة بأحد مسارين مستقلّين: توقّفٌ لا رجعة فيه للدورة الدموية والتنفس، أو توقّفٌ لا رجعة فيه لجميع وظائف الدماغ بما فيها جذع الدماغ؛ غير أنّ الواقع السريريّ يُظهر أنّ كِلا المسارين قد يمران أحيانًا بحالاتٍ **قابلةٍ للعكس** قبل الوصول إلى اللارجعة، وأحيانًا أخرى يُغلق فيهما باب الرجعة سريعًا رغم كل تدخّل. فالدوران قد يتوقّف فجأةً برجفانٍ بطينيٍّ حادّ (كما في ضربة الصدر لدى الرياضيين) ثم **يعود** خلال دقائق بصدمةٍ كهربائية وإنعاشٍ فعّال؛ وقد تُستعاد الدورة بعد توقّفٍ مطوَّل عبر الإحياء المدعوم خارج جسد المريض (ECMO/ECPR)مع التبريد العلاجي، كما يحدث في الغرق المصحوب بانخفاضٍ شديد للحرارة حيث يُنقذ المريض بعد مدىٍ طويلة نسبيًّا؛ وقد ينقطع التنفّس كليًّا بتثبيطٍ دوائيّ (تسمّم أفيوني) ثم يُستأنف فورًا بمضادٍّ نوعيّ ودعمٍ تنفّسي. بل حتى الإصابات النافذة في القلب ليست حكمًا بالموت دائمًا؛ إذ تنجو بعض الحالات بالثَّوْرَقة الإسعافية أو الإصلاح الجراحي العاجل إذا سبقتها استجابةٌ منظّمة وسريعة. وعلى الضفّة الأخرى، هناك سيناريوهات يغلب فيها **اللارجوع الدوريّ** سريعًا—كتمزّق الأبهر أو نزفٍ نزعيٍّ لا يمكن ضبطه—فتثبت الوفاة بالمسار الدوريّ–التنفّسي. أمّا من جهة الدماغ، فقد تبدو على المريض علاماتُ انطفاءٍ عميق لوظائف جذع الدماغ (غيابُ المنعكسات والتنّفّس العفوي) ثم **تعود** تدريجيًّا بعد زوال مربكاتٍ قابلةٍ للعكس مثل التسمّم الدوائي المثبِّط للجهاز العصبي المركزي أو الهبوط الشديد للحرارة أو الشّلل العصبي السُّمّي؛ ولهذا لا يُحكَم بالموت العصبيّ إلا بعد استبعاد هذه العوامل وإثبات انعدام الوظائف بطريقةٍ منهجية. وفي مقابل ذلك، قد تُصيب الدماغَ أذيّةٌ كارثية تُحدث ارتفاعًا ساحقًا في الضغط داخل القِحف وفتقًا بنيويًّا يقطع التروية ويُعدم **جميع** وظائفه بلا رجعة، فتثبت الوفاة بالمسار العصبيّ ولو ظلّ القلب ينبض بدعم الأجهزة. هذه الأمثلة الحدّية تُبرز أن ما نصِفُه بالأسباب الطبيّة ليست إلا **أحوالًا** و**آليّاتٍ** يقع عندها الموت وقد يتخلّف أثرُها أحيانًا لِتدخّلٍ ناجح أو لوجود قابليةٍ للعكس؛ أمّا وقوع الموت نفسه -حين يقع قطعًا رغم العلاج، وامتناعه- حين يمتنع مع شدّة السبب الظاهر، فهو من ناحية شرعية: **انقضاءُ الأجل**، وعند الأطباء بلوغُ الحالة حدَّ **اللاّرجعة البيولوجيّة** التي ما بعدها لا تملك الوسائلُ الطبيّة تحويلها.

ولكن، ومع ذلك، فإنه بعد موته فإن بعض خلاياه وأنسجته وأعضاءه تبقى حية فترة من الزمن (مثل البصر، وبعض الخلايا والأعضاء التي من الممكن استعمالها في عملية زرع الأعضاء من ميت في حي، تختلف نوافذ الصلاحية باختلاف العضو (تقريبًا: قلب/رئتان ٤–٦ ساعات؛ كبد/بنكرياس/أمعاء ~١٢–١٨ ساعة؛ كِلية ٢٤–٣٦ ساعة)، وهو ما يتيح **زرع الأعضاء** من موتى. كما أمكن **استعادة نشاط الشبكية البصرية لساعات بعد الوفاة** في أبحاث ٢٠٢٢.))،

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَلَمَةَ وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ فَأَغْمَضَهُ ثُمَّ قَالَ إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ" رواه مسلم، «إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر، فإن البصر يتبع الروح...» رواه أحمد، أي إن البصر لمَّا يمت بعد، مع أن الروح قد خرجت،

فالحياة في الجنين وفي أعضاء الإنسان لا تتوقف بالكلية على وجود الروح، فتوجد -نوع من الحياة، في أحيان أشبه بالحياة النباتية، ويتباين في القابلية العصبية والحركات اللاإرادية، قبل وجود الروح وفي حالة وجودها،

وبعد فقدها عند الموت في بعض الخلايا، بدليل أن أعضاء الميت كالقلب والكلية والعين، يمكن أن تنقل بعد خروج روح الإنسان وموته إلى إنسان آخر قبل أن تفقد هذه الأعضاء الحياة، غير أنها لا يكون فيها روح، وتبقى حية مع الإنسان الآخر الذي نقلت إليه[١٥٦]. الشاهد من هذا السياق: أن الخلايا وما ينتج عنها من أعضاء كالقلب مثلا حين تخلقه في رحم الأم، يكون فيه خاصية القدرة على استقبال الحياة، وهذه الخاصية وحدها لا تكفي، تملك خلايا الجنين وأنسجته -ومنها بوادِر القلب- **خاصيةَ استقبال الحياة**؛ أي القابلية الحيوية لاستئناف الأيض والانقسام والتقلّص الكهربائي–الميكانيكي متى وُفِّرت شروط الوسط المناسبة. غير أنّ **الحياة الكاملة للكائن** لا تنشأ من هذه القابلية وحدها، بل من **تكامل منظومي** تقوم عليه ركائز متداخلة: أوّلها **سلامة البرنامج الوراثي والضبط اللاجيني** بعد الإخصاب؛ فالشذوذات الصبغية أو اضطراب التعبير الجيني المبكّر يجهض المسار. وثانيها **انغراسٌ ناجح** وإعادة تشكيل الشرايين الحلزونية في بطانة الرحم بما يضمن **دورة قلبيّة–مشيمية فاعلة** وتدرّج الأكسجة (إذ يبدأ الجنين ببيئة منخفضة الأكسجين حمايةً من الجذور الحرّة ثم تزداد التروية لاحقًا). وثالثها **الدعم الهرموني** ( hCGثم بروجسترون وإستروجين) للمحافظة على السطح الساقط الرحمي وكبح التقلّصات. ورابعها **التسامح المناعي الأمومي** (HLA-G، Tregs، وخلايا رحمية متخصّصة) لئلّا يُعامَل الجنين معاملة طُعم أجنبي. وخامسها **سلامة شبكات الإشارات المُنظِّمة للتمايز** (Wnt/BMP/Hedgehog/FGF/Notch) التي ترسم المحاور وتنسّق العضوَنة. وسادسها **اكتمال البنية الوعائية الدقيقة** ووصلات الحبل السرّي بما يضمن تبادل الغازات والموادّ والتخلّص من الفضلات. فإذا اختلّت دعامةٌ محورية؛ كقصور المشيمة، أو اضطرابات تخثّر، أو عدوى أو سُمّية، أو مرض أمومي غير مضبوط، **تتوقّف حياة بعض الأجنّة** رغم بقاء القابلية الحيوية في خلايا متفرّقة؛ أمّا حين تُستوفى هذه الشروط وتتجاوز العيوب القاتلة، **تستمرّ الحياة المنظومية** ويتحوّل "الاستعداد" الخلوي إلى **وظيفةٍ متكاملة** لكائنٍ نامٍ.

إذن: فوجود هذه الخاصية في القلب وحدها لم يكن سببا في وجود الحياة، كما أن النار وحدها بدون الأوكسجين والمادة القابلة للاشتعال والنسب المعينة بين ذلك كله فيها خاصية الإحراق لكن الإحراق لا يتم إلا باكتمال العناصر كلها وانتفاء الموانع، فإذا ما تلف العضو: أي القلب مثلا، تزول منه خاصية القدرة على استقبال الحياة، وسنذكر ثلاثة أمثلة تزول معها **خاصية استقبال الحياة** في قلب الجنين: **عيب بنيوي: جسيم غير قابل للحياة** (كنقص تنسّج البطين الأيسر الشديد أو رتق الصمام الأبهري) يمنع تشكّل مضخّة فعّالة أصلًا فتسقط القابلية الحيوية. ثانيا: **إقفار/نقص أكسجة مطوّل** بسبب قصور مشيمي شديد أو التفاف/انضغاط الحبل السرّي يفضي إلى نخر عضلة القلب ووذمة مائيّة جنينيّة، فتتعطّل الخلايا نهائيًا وتزول القابلية. ثالثا: **اضطراب كهربائي قاتل خلقي** (كالحصار الأذيني-البطيني الكامل بوساطة أضداد الأم أو اعتلال القنوات مثل Long-QT) يسبّب بطئًا شديدًا/تسرّعات بطينيّة مزمنة تنتهي بفشل انقباضي وتليّف يفقد معه النسيج القابلية الحيوية. فهذه أمثلة على زوال خاصية استقبال الحياة من القلب، وهناك غيرها الكثير، وبالتالي فإن زوال الخاصية ليس هو السبب في زوال الحياة، بل إن "زوالُ خاصيةِ استقبالِ الحياة" من القلب ليس سببًا قائمًا

[١٥٦] (الأستاذ عبد القديم زلوم، جواب سؤال عن الحياة والروح، ١٩٨٦/٠٣/٢٥.) بتصرف شديد.

بذاته، بل هو **أثرٌ نهائيٌّ** لسلسلةِ عللٍ سابقةٍ تضافرت فأفضت إلى انعدام الحياة. فاختلالُ البرنامج الوراثي أو التخلّق البنيوي، مع قصورٍ مشيميٍّ مزمنٍ ونقصِ أكسجةٍ مطوَّل، أو اضطرابٍ كهربائيٍّ مستمرٍّ، أو سُمّيةٍ/عدوى تُحدث التهابًا ونخرًا، كلّها تُطلق آلياتٍ قريبة (إقفار، انهيارٌ استقلابي، تليّف، تمزّقُ الشبكات الكهرو–ميكانيكية) تنتهي **بتعطيل الخلايا** وفقد النسيج للقابلية الحيوية. عندئذٍ يغيب "الاستعداد" لأن القلب نفسَه قد تبدّل ماديًا ووظيفيًا، فيكون زوالُ الخاصية **نتيجةً مفسَّرةً بأسبابها**، ومجموعُ تلك الأسباب (أي العوامل) -لا مجرّد فقد الخاصية- هو الذي يُتمّ انطفاء الحياة.

وعلاوة على ذلك[157] فإن الله خلق للأشياء خاصيات، فإذا عُدمت الخاصية زال أثرها، ولا توجد الخاصية إلا بوجود العين، تلك التي هي من خواصها، فمثلاً خلق الله في العين الرؤية، وخلق في الأذن السمع، وخلق في الأعصاب الحس، وخلق في النار الإحراق، وخلق في الليمون الحموضة، وهكذا. وهذه الخاصية للشيء نتيجة طبيعية لوجوده، فهي بمثابة صفة من صفاته، فمثلاً الماء من صفاته الطبيعية الميوعة، ومن خاصياته الإرواء، والموتور من صفاته الطبيعية الحركة، ومن خاصياته الحرارة، والقلب من صفاته الطبيعية النبض ومن خاصياته الحياة. فكان الإرواء والحرارة والحياة صفة من صفات الشيء الطبيعية مع كونها خاصية من خواصه، **فلا يكون وجود الخاصية في الشيء هو سبب العمل الذي هو أثر لها**، (فالنار فيها خاصية الإحراق، لكن العمل: الذي هو الإحراق يحتاج إلى أوكسجين ومادة قابلة للاحتراق ونسب معينة، فلم يكف كون الإحراق من خواص النار أن يحدث العمل الذي هو الإحراق) **فلا يكون حينئذ انعدام الخاصية سبباً لانعدام العمل الذي هو أثر لها**. وذلك أنه ليس وجود خاصية الإحراق في النار كافياً لإيجاد الإحراق، فلا يصلح أن يكون سبباً للإحراق، وإذا كان وجود خاصية الإحراق في النار ليس سبباً لإيجاد الإحراق، فيكون حينئذ انعدام خاصية الإحراق من النار ليس سبباً لعدم الإحراق، بل السبب هو تفاعل الأكسجين مع النار مع المادة القابلة للاحتراق بنسب معينة تسمح بوجود هذا التفاعل، فكمية قليلة من الأكسجين مع نار وجذع شجرة ضخم لا ينتج نارا، بخلاف ورقة ونار وكمية كافية من الأكسجين، مع انتفاء وجود الموانع (مطفئات النار) فإذا وجدت النار كانت سببا في الإحراق للشيء القابل للاحتراق! إذن: فإن عُدمت خاصية الإحراق في النار، أي أن تكون كمية الشعلة قليلة لا تناسب جذع شجرة ضخم، فخاصية الإحراق هنا انتفت لأنه لا فعالية لها، وهذا لم يكن هو السبب في عدم الإحراق، بل السبب هو انتفاء وجود المكونات الثلاثة للعملية: الشعلة (أي النار) والمادة القابلة للاحتراق والأوكسجين، وأن يكون ذلك بنسب كافية ويتعرض لزمن كاف، فمجموع هذا كله هو السبب في الإحراق، من هنا كان سلب الخاصية ليس سببا في عدم العمل، الذي هو أثر للخاصية.

إذن: ليس وجود خاصية الحياة في القلب (أي قابلية القلب، والخلايا لاستقبال الحياة) كافياً لإيجاد الحياة، وبالتالي فلا يصلح أن يكون (وجود الخاصية) سبباً للحياة. وإذا كان وجود خاصية الحياة ليس سبباً لإيجاد الحياة (للحاجة إلى الروح، وإلى العوامل السابق ذكرها)، فيكون حينئذ انعدام خاصية الحياة من القلب (كما بينا) ليس سبباً لانعدام الحياة. وعلى ذلك لا يقال بأن ذهاب الشيء سبب لذهاب خاصياته، بل الذي يكون سبباً لذهاب

---

[157] الشخصية الإسلامية الجزء الأول لتقي الدين النبهاني، فصل: انتهاء الأجل السبب الوحيد للموت، وهذا الفصل يشرح ذلك الفصل.

خاصية الشيء هو أمر خارج عن الشيء نفسه، (كالعوامل السابق ذكرها مثلا) يُذهب خاصيته ويبقي الشيء ذاته دون خاصيته، أو يذهب الشيء نفسه فيُذهبُ معه خاصيته (تلف القلب مثلا)، فيكون الشيء الذي أذهب الخاصية، أو أذهب الشيء وأذهب معه خاصيته هو سبب ذهاب الخاصية وليس الشيء نفسه سبباً لذهاب خاصيته، وهذه العوامل هي مظنة الأسباب، أزالت الخاصية من العضو، أو احتاج العضو لاجتماع عوامل كثيرة انضمت إلى وجود قابلية استقبال الحياة لتوجد الحياة أو لتستمر، فاحتاج زوال خاصية استقبال الحياة لزوال عوامل كثيرة لا فقط تلف العضو، فوجود الرأس مثلا على الجسم، لا يقال بأن إزالة الرأس عن الرقبة سبب الموت، ووقف القلب سبب الموت، بل مظنة السبب هو الذي أزال الخاصية من الرقبة بإزالتها، ومن القلب بوقفه، وليس هو قطع الرقبة ووقف القلب، فأما وقف القلب، ففي أحيان كثيرة يمكن أن يرجع للحياة بالإنعاش، فيكون حالة، وكذلك إزالة الرقبة، فإنه قد جرِّبت محاولات وصل الرأس بالجسم على الحيوانات في ثلاث محطاتٍ بارزة: في ١٩٠٨ وصل كارِل وغَثري رأسَ كلبٍ بجسمِ كلبٍ آخر مع ترويةٍ وعائيةٍ مباشرة، لكنّ "الحياة" استمرّت **ساعات قليلة** قبل تدهور الحالة وإعدام الحيوان، ما أبرز قيدَ نقص التروية والرفض المناعي المبكر، وفي **الخمسينيات** أجرى دِيميخوف عمليات "كلبٍ ذي رأسين"؛ كانت الرؤوس المزروعة قادرةً على الحركة والبلع ورصد المحفّزات، إلا أنّ البقاء كان غالبًا **أيامًا معدودة** مع حالةٍ وُثّقت امتدادها إلى **قرابة ٢٩ يومًا** قبل أن يقضي الرفضُ المناعي واضطراباتُ التروية على التجربة. ثم في ١٩٧٠-١٩٧١أجرى روبرت وايت "مقايضة قحف–جسم" في قرَدة؛ احتُفظ بالوعي والوظائف القحفية (تتبّعٌ بصريّ وبلع)، لكن مع **قطع النخاع** والاعتماد على التهوية والدعم الوعائي لم تتجاوز الحياة عادةً ٦-٣٦ **ساعة** في تقاريرِه الأصلية، مع تقاريرٍ لاحقة تشير إلى **بقاءٍ حتى ٩ أيام** قبل فشلٍ مناعيّ، في المقابل، مكّنت بروتوكولات ترويةٍ أحدث في **فئران** عام ٢٠١٥ من إطالة البقاء إلى **أشهر** (حتى ٦ أشهر) مع بقاء **الفصل النخاعي** وعدم استعادة الاتصال الوظيفي؛ أمّا بشريًّا فلم يُنجَز **أي زرع رأسٍ حيّ** حتى الآن.

وعلى ذلك لا يكون سبب الموت الحقيقي هو إتلاف العضو أي قطع الرقبة ووقف القلب، لأنه يستحيل أن يحصل أي إتلاف للعضو إلا بمؤثر خارجي ولأن الحياة خاصية من خواصه - أي العضو - فذهابها لا يكون منه وإنما بمؤثر خارجي أزالها - أي الخاصية - أو أزاله وأزالها معه. وكذلك لا يكون سبب الموت هو المؤثر الخارجي لأنه ثبت عقلاً وواقعاً أنه قد يحصل المؤثر الخارجي ولا يحصل الموت، وقد يحصل الموت دون أن يحصل هذا المؤثر الخارجي. والسبب لا بد أن ينتج المسبب حتماً، فلم يبقَ إلا أن سبب الموت الحقيقي الذي يُنتج المسبب حتماً وهو الموت، هو غير هذه الأشياء، وهو انقضاء الأجل.

إذن: الموت واحدٌ وسببه واحدٌ أيضاً وهو انتهاء الأجل، والمميت هو الله تعالى وحده، **والمباشر لإيجاد الموت هو الله سبحانه وتعالى**. وذلك أن الشيء **<u>حتى يصح أن يكون سبباً لا بد أن ينتج المـُسَبَّب حتماً، وأن لا يتخلف ولا مرة عن إنتاج المسبب. وأن المـُسَبَّب لا يمكن أن ينتج إلا عن سببه وحده (أو أسبابه إن كانت له عدة أسباب)</u>**.

وهذا بخلاف الحالة[158] فإنها ظرف خاص بملابسات خاصة يحصل فيها الشيء عادة، ولكنه قد يتخلف ولا

---

[158] فمثلاً، الحياة سبب للحركة في الحيوان، فإذا وجدت الحياة فيه، وجدت الحركة منه، وإذا عُدمت الحياة فيه عُدمت الحركة منه. ومثلاً، الطاقة سبب لتحرك الموتور، فإذا وجدت الطاقة تحرك الموتور، وإذا لم توجد الطاقة لا توجد الحركة. وهذا بخلاف المطر بالنسبة لإنبات الزرع، فإنه حالة من

يحصل. والحالة لا ترقى لمستوى السبب لأنها قد تتخلف أحيانا فلا ينتج عنها المُسبَّب، أي أنها لا تحوي الطاقة السببية الفاعلية الكافية لإنتاج المُسبَّب فاحتاجت لغيرها لينتجه.

والمؤثر الخارجي قد يكون له تأثير في تفعيل الطاقة السببية وقد لا ينجح في حالات معينة، فقد يطلق شخصٌ الرصاص على شخصٍ ليقتله، فيموت، بانقضاء أجله، وقد يسعفه الأطباء فلا يموت، فيكون إطلاق الرصاص ودور الذي حاول القتل مظنة للسبب، وبتخلف هذا عن إحداث الموت ولو مرة ينفي عنه أن يكون السبب للموت، وكذلك لو قام شخص بقطع رقبة شخص، فقد يستطيع الأطباء إعادة وصلها فلا يموت في الحال، إذ لما يحن أجله بعد، أو قد يستطيعون وضع الرأس والجسد على أجهزة الإنعاش زمنا ريثما يجرون عملية قد ينتج عنها بقاء المريض حيا زمنا آخر، وقد يموت شخصٌ زمنا موتا سريريا ثم يشاء الله أن يحييه، فيموت ثانية بالأجل المقدر له، وهذا كله يدل على أن السبب الحقيقي للموت هو انقضاء الأجل، وما دونه ليس إلا حالات!

وقد فهم النمرود أن الإحياء والإماتة يكونان بقتل أسير أو العفو عنه، **ولكن الفاعل على الحقيقة هو الله تعالى**، يحيي ويميت، لم يسند فعل الإماتة والإحياء لغيره، كما لم يسند فعل الرزق لغيره. فالموت يحصل حتماً بالأجل ولا يتخلف مطلقاً فكان الأجل سبباً للموت، والذي يميت هو الله سبحانه وتعالى، **فهو الذي يباشر فعل الإماتة، وإسناد الفعل له على الحقيقة.**

## أما الرزق:

وكذلك الذي يرزق هو الله تعالى وحده، يرزق من يشاء، وأنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدر له، ففيها كلها نسبة الرزق إلى الله، وفيها أن **لا رازق غيره**، مما يدل على أنه هو الذي يرزق، **وهو إسناد حقيقي، والمراد منه فعل الرزق**، **وليس خلقه**، أي ليس هو إسناد باعتبار الخلق، ولكن باعتبار المباشَرة، لأن الأصل في الإسناد الحقيقة، ولا ينصرف إلى المجاز إلا بقرينة، ولا قرينة تصرف الإسناد عن معناه الحقيقي، **فتكون نسبة الرزق والإماتة والنصر إلى الله نسبة حقيقية**، والرزق كذلك فعل أي لا بد له من فاعل، أي من يباشره، والإنسان لا يباشر الفعل بنفسه، والذي يباشر إعطاء الرزق هو الله تعالى، والمشاهد المحسوس يري بأن هناك تحكما في الرزق يكمن وراء الحالات والأبواب التي يحصل فيها الرزق بسعي الإنسان أو بغير سعي منه، وهذا التحكُّم كيفاً وكمّاً يجب أن يسند إلى فاعل متحكم فيه، وقد دلت الأيات القطعية على أن الفاعل الرزاق هو الله تعالى، ولذلك يجب أن نؤمن إيماناً جازماً بأن الله هو الرزاق وهو مقسم هذا الرزق بين العباد وأن سعي الإنسان ليس هو سبب الرزق، لأن السعي ليس هو من يولد الثروة والمال ولا هو الذي يوجدهما أو يصنعهما، بل لا بد من خالق للثروة ومقسم لها، ولأن الرزق قد يأتي من غير سعي،

---

الحالات التي ينبت بها الزرع وليس سبباً. وذلك أن المطر ينبت الزرع، ولكن قد ينزل المطر ولا ينبت الزرع، وقد ينبت الزرع من رطوبة الأرض وحدها كالزرع الصيفي ينبت بدون نزول المطر. وكذلك مرض الطاعون وضرب الرصاص وغير ذلك قد توجد ولا يحصل الموت، وقد يحصل الموت من غير أن يوجد أي شيء من هذه الأشياء التي يحصل فيها الموت عادة. وهو يدل دلالة واضحة على أن هذه الأشياء التي حصل منها الموت ليست أسباباً له. إذ لو كانت أسباباً له لما تخلف ولما حصل بغيرها، أي لما حصل بغير سبب محسوس. فمجرد تخلفها ولو مرة واحدة، ومجرد حصول الموت بدونها ولو مرة واحدة، يدل قطعاً على أنها ليست أسباباً للموت، بل حالات يحصل فيها الموت، وسبب الموت الحقيقي الذي يُنتج المسبب هو غيرها وليست هي.

وعلاوة على هذه فإنه لم يرد نسبة الرزق إلى الإنسان بأنه هو الذي يرزق نفسه، لا في آية، ولا في حديث، بل جاءت نسبة الرزق في كل النصوص إلى الله تعالى، الذي أمر بالسعي في مناكبها وأمر بالعمل، طريقة للحصول على الرزق! فالسعي والعمل ليست أسبابا للرزق، بل طريقة له، وحيث إن السبب ينتج عنه المسبب، فإننا نجد سعياً قد لا ينتج عنه رزق، وعمَلاً قد لا ينتج عنه رزق، ورزقاً قد يأتي من غير سعي ولا عمل كالميراث وغيره، والتاجر الذي يسعى للربح فيخسر، فكان هذا دليلاً على أن السعي والعمل والميراث ليست أسباباً للرزق، بل حالاتٍ يأتي بها الرزق وقد يتخلف!

فالحالات التي أنتج فيها السعي الرزق، والحالات التي لم ينتج السعي فيها الرزق، والحالات التي يأتي فيها الرزق من غير سعي، يشاهد فيها كلها من تتبع واستقراء جميع أنواعها أن هناك وراء هذه الحالات من يتحكم في الرزق غير هذه الحالات، لأن الحالات ليست أسباباً. **فيكون من يتحكم في الرزق هو الذي يعطي الرزق، وهو الذي يمنعه.**

## خلاصة فكرية لموضوع أن الرزق بيد الله تعالى:

الحمد لله الرازق الكريم، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين. أما بعد؛ فإن قضية الرزق من أعظم القضايا العقدية التي تمسّ حقيقة التوحيد والتوكل. وقد جاء القرآن الكريم قارنًا فيها بين الخلق والإحياء والإماتة، دالًا على أن الرزق فعلٌ إلهيّ محض لا يملك العبد إيجاده. والإنسان إنما هو مرزوق، ساعٍ بالأسباب التي جعلها الله حالاتٍ ومظانّ، لا عللاً موجبة.

**أولًا:** الله هو الرازق على الحقيقة

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [الروم: ٤٠]، فجمع بين الخلق والرزق والموت والحياة، ونفى الشركاء في جميعها، فدلالة الاقتران هنا واضحة: الرزق شأنه شأن الخلق والإحياء والإماتة، فعلٌ إلهيٌّ يختص به الله، ولا يمكن أن يدّعي أحدٌ - كائنًا من كان - أنه يخلق من العدم أو يحيي الموتى أو يرزق الخلق. وقال تعالى: ﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ [فاطر: ٣]. فجمع بين الخالقية والرازقية في سياق الاستفهام الإنكاري، وكأنه يقول: كما لا خالق لكم سوى الله، فلا رازق لكم سواه. وقال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فالضمان الكوني شامل لكل كائن حي. وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٢] إعلانٌ أن أرزاق العباد مقدّرة مكتوبة في علم الله عنده في السماء، لا يملكها ولا يعلمها أحد سواه. وفي سورة الواقعة أقام سبحانه البراهين العملية: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ**﴾ ]الواقعة: ٦٣-٦٤[، ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ**﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩]، هذه الآيات تقرع ذهن الإنسان لينظر في بذور يحرثها: هل هو الذي يخلق في البذرة قوة الإنبات وقابلية الحياة والنمو، ويجعلها زرعًا حيًا، أم أن الله هو الذي أنبت وقدّر خصائص النمو؟ وإذا تأمل في الماء العذب الذي ينزل من السماء فيحيي الأرض: أهو بقدرته أنزله من السحاب، من الذي جعل الماء سببًا للإنبات وحاملاً لمقومات الحياة؟ أم الله الذي يسوقه رزقًا للعباد؟ فأثبت أن الإنسان لا يخلق الإنبات ولا المطر ولا النار،

إنما يباشر الوسائل فيما خلقه الله، والرزق فعل الله على الحقيقة. فالعبد لا ينبت زرعًا ولا ينزل ماءً، بل يستفيد مما أودع الله في المخلوقات من خصائص، بدليل أنه لو شاء لأيبس البذرة وجعلها حطامًا بعد حرثها ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا**﴾ [الواقعة: ٦٥]، ولو شاء لجعل الماء **ملحًا أجاجًا** غير صالح للشرب والري ﴿**لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا**﴾ [الواقعة: ٧٠]. فالله *قادر على نقض خاصية النفع في الماء* بعد أن صار ماءً، وقادر على سلب خاصية الإنبات من البذرة حتى لا تنبت رغم حرثكم وريّكم. هذه التذكرة القرآنية جاءت *لتصحح الاعتقاد* وتلفت النظر إلى قدرة الله المتفردة: *إنه وحده خالق الأسباب ومودعها ما فيها من خصائص*، فهو الفاعل الحقيقي الذي **أنبت الحدائق ذات البهجة بالماء** كما في قوله تعالى: ﴿**أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ**﴾ [النمل: ٦٠] بعد أن قال: ﴿**فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ**﴾ [النمل: ٦٠]. ففي هذه الآية أكد أنه أنبت بالماء البساتين، ثم نفى استطاعتنا أن ننبت شجرها، ثم وبّخ من يسوّي المخلوق بالعادل عن الإله الحق. وقد نبّه المفسرون إلى لطيفٍ في قوله ﴿**فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ**﴾: حيث أسند فعل الإنبات إلى نفسه بصيغة الجمع للتعظيم، لئلا يُتوهَّم أن المنبت هو الماء أو فعلُ الإنسان بالسقي والحرث. فجاء الالتفات إلى ضمير المتكلم لتعيين الفاعل الحقيقي – وهو الله – ونفي نسبة الإنبات إلى غيره، مع الاعتراف بدور الإنسان في الحرث والسقي كعمل مشروع مطلوب دون أن يكون هو الموجد للنبات.

**ثانيًا:** التسبب والمباشرة والحالة

التسبُّب (السببية): يُقصد به القيام بفعل أو إيجاد أمر يكون مؤثرًا حتميًا في حصول نتيجة معينة. أي أن تكون هناك علاقة سببية حقيقية بين الفعل والنتيجة بحيث لو وُجد السبب وجب وجود المُسبَّب ولازم حدوثه.

المباشرة: يُقصد بها مباشرة الفعل نفسه أو الخوض فيه بشكل مباشر لتحقيق أمر ما. أي أن يقوم الإنسان بعمل محدد يؤدي عادةً إلى نتيجة معينة. فالمباشرة تركّز على فعل الإنسان الاختياري بغض النظر عن حتمية النتيجة. فمثلًا: الحراثة، السقي، التجارة، الصناعة؛ هذه كلها مباشرة أعمالٍ ظاهرها الكسب. الشخص المباشر للعمل هو من يقوم به فعليًا باختياره وسعيه.

الحالة: ويُقصد بها الظرف أو السياق الذي يحصل فيه الشيء عادةً. الحالة ليست علة فاعلة بحد ذاتها، بل هي مجموعة ملابسات أو شروط يجتمع فيها السبب مع المسبِّب. قد تهيّئ الحالة لحدوث الأمر وتجعله ممكنًا أو راجحًا، لكنها لا تضمن تحقق النتيجة دائمًا. يمكن القول إن "الحالة" هي موقف أو وضع إذا توافرت فيه جملة من العناصر، يُتوقع حصول شيء معين، لكنه قد يتخلّف.

العمل البشري ليس سببًا خالقًا للرزق، بل هو "حالة" يتنزل عندها رزق الله. فالمباشرة واجبة: الزراعة، والتجارة، والصناعة... لكنها لا تضمن النتيجة دائمًا. كم من زارع لم يحصد، وتاجر خسر، ومكتسب ضاع ماله! لو كان العمل سببًا حتميًا لما تخلف الرزق قط. إذن العلاقة بين السعي والرزق ليست علاقة العلة بالمعلول، بل علاقة الشرط بالمشروط: يسعى العبد ليكون في مظنة الرزق، والله هو الذي يسبّب ويقدّر. قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، فنسب المشي إلى العبد والرزق إلى نفسه، فجمع بين الواجبين: الأخذ بالأسباب مع إرجاع النعمة إلى الله. الإنسان فاعلٌ مباشر، والله تعالى الفاعل المُسبِّب. ما دور كل منهما بالتحديد؟

دور الإنسان أنه يباشر الأسباب الدنيوية ويأتي بالخطوات المطلوبة ويتهيأ لاستقبال فضل الله. أما الله ﷻ فهو الذي يُسبّب الأسباب ويجري نتيجتها. ويمكن صياغة ذلك بعبارة أخرى: الإنسان مباشِرٌ، والله مسبِّب. وفي التنزيل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، فقد نسب الكسب إلى *فضل الله* رغم أن المنتشرين هم العباد الساعون. وفي الحديث الصحيح: «*ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده*»، فهذا حضٌ على العمل اليدوي وطلب الرزق. وأيضًا: «*لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرّةٍ سويّ*»، أي قوي مكتسب. أخرجه **أبو داود** (1634)، و**الترمذي** (652)، و**النسائي** (5/95)، و**ابن ماجه** (1841)، من حديث **عبيد الله بن عدي بن الخيار** ﷺ. هذه النصوص تدل على وجوب المباشرة وذمّ البطالة والتواكل، لكنها في الوقت نفسه **لا تنسب الرزق إلا لله**، إذ حتى الكسب باليد سمّاه "من فضل الله" في الآية. والمطلوب من العبد إذن: أن يباشر العمل ويُحسنه ليقع في *مظِنة* نزول الرزق عليه، ثم يوكل الأمر إلى الكريم الواسع، فإن جاء الرزق حمد الله، وإن تأخر لم ييأس بل راجع حساباته واستمر متوكلًا.

**ثالثًا:** مباشرة الله للرزق

فعل الله في الرزق يظهر في ثلاث مراحل:

الخلق: خلق عناصر الكون ومصادر الرزق، من الماء والزرع والمعادن والأنفس. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] أي هيأ المادة والعناصر لتقوم بها الحياة. وهذه آية تستحق الوقوف طويلا أمامها، فالأقوات التي هي قوام الأرزاق، والماء الذي يسقي البذور، وكل المواد التي على الأرض والتي هي قوام الحياة، كلها نشأت في فترة طويلة جدا في قلب نجوم ضخمة جدا قادرة على إنتاج العناصر الثقيلة من الكربون حتى الحديد، وكلها عناصر ضرورية للحياة، ضرورية لتشكل الكواكب الصخرية والغازية، ومن هذه العناصر تتكون الأرض ونواتها وقشرتها وتربتها، ومنها يتكون الغذاء، وكان انفجار المستعرات الأعظمية لازما لتتشبع أطراف مجرة درب التبانة بتلك العناصر الضرورية لقيام الحياة على الأرض، ولا تقتصر ضرورة هذه العناصر على نشوء الحياة، بل على تكوين الإنسان نفسه، وتكوين الأقوات اللازمة لمعيشة الكائنات الحية على الأرض، تذكر هذه النقطة جيدا حين تقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾، إذ إن خلق الأرض في يومين، بينما تقدير الأقوات في أربعة أيام، مفهومه أوسع من مفهوم إنبات الزرع والنباتات، والحيوانات التي يغتذي عليها الإنسان أو التي تغتذي بعضها على بعض، إنما يتعدى الأمر لأكبر من ذلك إلى التأمل في تشكل المادة والعناصر التي احتاجت لأفران كونية ضخمة هائلة لتنتج العناصر التي تتشكل منها الحيوانات والنباتات وعاشت تلك النجوم ملايين السنين قبل أن تنفجر في الفضاء البينجمي وتتشكل منها سحابات ضخمة كانت نواة لكواكب ونجوم ومجموعات، منها المجموعة الشمسية! فهذه استغرقت يومين قبل خلق المجموعة الشمسية، ويومين منذ خلق الأرض والمجموعة الشمسية إلى وقتنا الحاضر! تأمّل .رعاك الله .عِظَم هذه الحقيقة التي يغفل عنها كثير من الناس: أن لقمة الخبز التي تصل إلى فمك، وحبة القمح التي تنبت في أرضك، وجرعة الماء التي تروي بها ظمأك، كلها امتدادٌ لمسارٍ كونيّ مهيبٍ استغرق أزمانًا سحيقة. لقد كان لا بد أن تتكوَّن في رحاب السماء نجوم عملاقة، تتوهج في أفرانها عناصر الحياة، من الكربون إلى الحديد، عناصر لا غنى عنها لتشكُّل الكواكب الصخرية والغازية، ولتكوين

القشـرة الأرضيـة والتربـة التي نـزرع فيهـا، بـل لتشـكيل أجسـادنا وأقواتنـا ذاتهـا. ثـم انفجـرت تلـك النجـوم في صـورة مستعرات عظمى، فبعثرت في مجرات الله ذراتٍ وأقواتٍ قُدِّر أن تلتئم لتصنع أرضًا ومحيطًا وغلافًا ونباتًا وحيوانًا، وإنسانًا يقتات بما قدَّره له ربه. حينها، يزداد معنى قوله تعالى: ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ**﴾ جلالًا وعظمةً، إذ يتجاوز مفهوم القوت حدود الزرع والثمار، إلى معنى أعظم: تقدير الكون ذاته بما فيه من عناصر ومواد وأسباب تُهيِّئ استمرار الحياة، على مدى ملايين السنين، حتى تصل إليك اليوم كسرة خبز ورشفة ماء. فتأمل، من ذا الذي رزق، ومن ذا الذي قدَّر؟ فالطعام الذي نأكله من نبات أو حيوان هو من خلق الله ابتداءً. والماء الذي نشربه أنزله الله من السماء. والهواء الذي نتنفسه أوجده الله بنسبه الدقيقة. والذهب والفضة وسائر المعادن في الأرض تكوّنت بقدرته عبر العصور الجيولوجية. إذن **أصل الرزق مادّةً ومعنى هو مخلوق لله**، *لم يصنع الإنسان ذرة منه من عدم*. قال تعالى: ﴿**خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ [البقرة: ٢٩]، فكل ما ينتفع به البشر في الأرض هو من خلقه تعالى مسخر لهم. وليس الخلق وحده، بل الله الذي **قدّر خصائص كل شيء** وهيّأها لتكون صالحة للانتفاع. فهو الذي جعل الماء عذبًا لري النبات، وجعل النبات غذاءً للحيوان، والحيوان غذاءً للإنسان، وجعل المعادن قابلة للتشكيل والصناعة... إلى آخر هذه الشبكة المحكمة من الخصائص التي لولاها لما قامت معايش الخلق. فالإنسان في تحصيل رزقه يعتمد على **نواميس كونية خلقها الله** وسخّرها بقدرته. ولو شاء الله لسلب بعض هذه الخصائص فانعدم النفع. وتأمل قوله تعالى: ﴿**أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَ أَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ**﴾ [النمل: ٦٠] ثم يقول: ﴿**أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ**﴾ استفهامًا إنكاريًا. ففي هذه الآية نسبة الإنبات إلى الله مع *ذكر الماء كسبب*، ثم التنبيه أن البشر لا يستطيعون إنبات شجر الحدائق لأنهم لم يخلقوا ماءها ولا بذورها. هذا يبين أن *فعل الله في الرزق يبدأ من خلق مقوماته* ثم *تسخيرها لبعضها*. وقد قال عز وجل: ﴿**وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ**﴾ [الرحمن: ١٠-١٢] تعديدًا لأنواع الرزق المخلوقة للناس.

التقسيم: فالغنى والفقر قدر إلهي يجري لحكمة. فما من شخص إلا وله **نصيب مقسوم من الرزق** سيبلغه لا محالة. يقول تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [الزخرف: ٣٢]، أي إن تفاوت أرزاق العباد من فقير وغني هو عن قسمة إلهية وفق ابتلاءات مقدَّرة، وليس مرده فقط إلى الاجتهاد أو الحظوظ الدنيوية الظاهرة. ويقول سبحانه: ﴿**وَٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ**﴾ [الرعد: ٢٦]، فهو الذي يوسّع على قوم ويضيّق على آخرين، لحكمة الابتلاء بالشكر والصبر. فلا اعتبار هنا لكون الإنسان "يستحق" أكثر بذكائه أو أقل بضعفه، بل الأمر مردّه إلى حكمة ربانية وتقدير سبق في علم الله. *فالغنى والفقر إذن قدران* جاريان على العباد، وقد جعل الله كليهما فتنة؛ الغنى فتنة ليشكر ويتواضع ويصل الرحم وينفق، والفقر فتنة ليصبر ولا يحسد ولا ييأس من روح الله. إن *التقسيم الإلهي للأرزاق* مرتبط أيضًا بما كسبته أيدي الناس من جهة، وبسنة الابتلاء العامة من جهة أخرى. فقد يكتب الله السعة لرجل *مكافأة وعطاء* على تقواه وبرّه، وقد يبتلي متقيا بالفقر لرفع درجاته ولحكمة يعلمها. وقد يرزق عاصيًا رزقًا واسعًا استدراجًا له ليطغى ويدخل النار، وقد يضيق على آخر رحمةً به ليراجع نفسه ويعود إلى مولاه. وكثيرًا ما نشاهد أقدار الله في تقسيم المال تتجاوز منطقنا البشري: إذ نرى عاملًا مجتهدًا

بالكاد يقتات، وآخر أقل جهدًا لكنه ميسور، ونرى تقيًّا عفيفًا يبتلى بالفاقة، وفاجرًا مترفًا بالثراء. كل ذلك لأن الآجال والأرزاق *محجوبة في علم الغيب*، لا يدرك حكمتها البشر، لكنها ليست خبط عشواء – تعالى الله عن ذلك – وإنما تجري وفق سنن دقيقة وإرادة نافذة. ولعل من السنن الملحوظة: أن *من سعى مشكورًا نال كفافه غالبًا*، ومن تكاسل عن السعي قد يناله رزق يسير لا يكاد يكفيه وفي الغالب يكون عالة على غيره. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ**﴾ [النجم: ٣٩]؛ أي لن يملك حقًّا إلا ما سعى فيه. أما ما يأتيه دون سعي فليس *ملكًا* له من كسبه، وإن كان رزقًا ساقه الله له.

وهنا نفرق بين **الملكية والرزق**، فالملكية تعني حيازة المال بطرق مشروعة تجعل له حق التصرف فيه. أما الرزق فهو أعم، إذ كل ما وصل إلى الإنسان وانتفع به فهو رزق من الله سواء كان حلالًا أم حرامًا، ملكه أم لم يملكه. فمثلًا: المال الذي يكسبه العامل بأجرة عمله هو *رزقٌ وملكية* (لأنه ناله بحق)، والمال الذي يغتصبه السارق هو *رزق* من حيث إنه وصل إليه وقضى به حاجته، لكنه ليس *ملكية شرعية* له. وهذا يبيّن أن الله قد يقسم رزقًا لشخص من طريق حرام ابتلاءً، فيصله رزقه لكنه يأثم لأنه لم يتملكّه بطريق مشروع. وقد قال النبي ﷺ: «*إن روح القدس نفث في روعي: إن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنّ أحدَكم استبطاءُ الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته.*» ففيه تأكيد أن الرزق مقسوم لن يفوت العبد، وتحذير من استعجاله بطريق محرم، لأن ذلك لن يزيد في حظ العبد شيئًا سوى الإثم.

الإعطاء والإيصال: يوصِل الرزق لعباده بطرق مألوفة عبر الأسباب أو بطرق استثنائية كرزق مريم عليها السلام: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]. وفي كل حال، لا يملك أحد أن يمنع رزقًا كتبه الله أو يجلب ما لم يُقدَّر له. فالله **يسوق الأرزاق إلى أصحابها** كما يسوق الأجل إلى من حان حينه. وهذا التسخير والإيصال يتم غالبًا ضمن النظام السببي الدنيوي الذي ارتضاه الله. يقول تعالى: ﴿**قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣]، فلكل رزق مقدار وموعد ومجرى يصل به. ومن هنا نفهم قول النبي ﷺ: «*إن أحدكم يجمع خلقه... ويُكتب رزقه وأجله*» الحديث، فرزق كل إنسان محدد في اللوح المحفوظ وسيأتيه في حينه. والله لطيف بعباده **يرتب أسبابًا لإيصال أرزاقهم** حتى دون أن يشعروا، فهو الرؤوف الرحيم. فمن طرق الإيصال أن يخلق المنفعة عند الحاجة. كما خلق في ثدي الأم لبنًا عند ولادة طفلها رزقًا له. وكما جعل الطفل يجذب شغف أبويه فيحنوا عليه ويرعياه – وهذا رزق الحنان والرعاية. ومن طرق الإيصال أن يزرع الله في قلب الغني حب الصدقة فينفق، فيصل رزق الفقير إليه بيد المتصدق. ومنها أن **يفتح للمرء باب عمل** يرتزق منه، فيرزقه الله البركة في هذا العمل فيدرّ عليه ما يكفيه وزيادة. ومنها ما نعدّه "مصادفة" عجيبة: كرجل وجد كنزًا أو مالًا في طريقه - هذا رزق من الله جاء بطريقة غير معتادة. بل حتى ما نسميه *ميراثًا* هو في الحقيقة رزق كتبه الله للوارث بغير كدٍّ منه سوى قرابته للميت. قال تعالى: ﴿**وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**﴾ [النساء: ٥] حين أمر الأولياء بأن ينفقوا على اليتامى من أموالهم، فسمي ذلك *رزقًا لليتامى* رغم أن الذي يعطيهم ظاهريًا هو أولياؤهم؛ لأن يَد وليّهم في الحقيقة يدٌ تنفيذية لقدر الله وعطائه. فالأصل إذن أن الله تعالى *يرزق عباده عبر تسخير الأسباب الجارية*: يرسل الريح المثقلة بالسحاب فتحمل المطر، وينزل الماء فيروي الزرع، وينمو الزرع فيأكل الناس ويطعمون أنعامهم ...*وفي كل ذلك يد القدرة هي التي تدبر*

*وتوجه*. لكن الله **ليس مُلزَمًا بالأسباب** ولا مقهورًا عليها، بل *يخضع كل شيء لإرادته*. فهو قادر على أن يبدل السبب أو يعكس النتيجة، إلا أنه جعل النظام الجاري دلالةً على حكمته ووحدانيته. يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [يس: ٨٢]، فما عليه إلا إصدار الأمر التكويني فينفذ الحال. لكنه أراد أن يجعل لكل شيء قدرًا ونظامًا مستقرًا. ولهذا لا *يخرق الله نظام الأسباب إلا نادرًا لمصلحة راجحة كمعجزة لنبي أو كرامة لمريم عليها السلام*، لأن خرق السنن كثيرًا يُفقدها حكمتها ويعطلها. فالطالب مثلًا لو رأى نجاحه يأتيه بلا دراسة ولا سبب دائمًا، فلن يثق بأن الجدّ مفيد ولن يجد دافعًا للإعداد. وكذلك لو كُفي الناس أرزاقهم دائمًا دون أي سعي، لتعطلت طاقة العمل والابتلاء فيهم. من أجل ذلك جرت *سنة الله أن الرزق يُنال بالأسباب الدنيوية في الأعم الأغلب*، حتى مع كون الله قادرًا أن يرزق بلا سبب. فهو رزق الناس بالمنّ والسلوى من السماء مرة لبني إسرائيل، لكنه لم يجعل المنّ ينزل كل صباح على كل البشر! بل أمرهم بالزراعة والصيد ليأخذوا أرزاقهم بأنفسهم.

**رابعًا: هل الرزق من باب القضاء (القهري) أم يدخل في أفعال العبد؟ - التفريق بين القهري والكسبي:**

الرزق من حيث قدره الكلي داخل في القضاء القهري الذي لا اختيار للعبد فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]. أما من حيث طريقته ومصدره وإنفاقه فهو من أفعال العبد الاختيارية يُحاسب عليها: هل طلبه من حلال أم من حرام؟ هل شكر أو بطر؟ فالرزق يجمع بين بعد قهري (مقداره وزمانه) وبعد كسبي (طريقة تحصيله وإنفاقه). إن الرزق من حيث **وصوله للإنسان وقدره الإجمالي** يدخل في باب القضاء الذي **يقع على العبد بلا اختيار منه**. فكمية الرزق التي سيحصل عليها المرء في حياته، غناه أو فقره، سعة عيشه أو ضيقه، أن يصله رزق بلا سعي، هذا كله *مقدور* من الله مقضي، لا يتوقف على إرادة العبد تغييرُه (إلا بالدعاء والتقوى كأسباب شرعية لتحصيل ما خفي على الإنسان من قدر كان ليجري على سنة معينة في الأحوال العادية ثم جرى على سنة أخرى بعلم الله وحكمته بالدعاء والتقوى وصلة الأرحام، فمثلا: في الوضع الطبيعي كان شخص ما ليصاب بالسرطان، ولو أصابه لعاش بضعة شهور، ولانقضى أجله ورزقه، لكنه بصلته للأرحام جعله الله يكتشف المرض في مرحلة مبكرة فيتعالج منه، وكل ذلك بعلم الله وقدره، حيث علم أنه سيكون وَصُولاً للرَّحم فكتب له أجله، وكتب له أن يكتشف مرضه، وكتب له منه الشفاء، فهذه صورة ظاهرها أنه في الظروف الاعتيادية كان ليصاب بالسرطان وليموت في أجل معين، لكنه بتدارك الله له شفي منه وعاش ردحا آخر حتى بلغ أجله، وأصاب من الرزق ما قدر الله له باقي عمره). ولذلك جاء في الحديث: «*إن الله خلق الخلق وقسّم بينهم معايشهم*»، فالتقسيم جاهز، ولكلٍ دور وسياق سيأتيه فيه رزقه. وقال ﷺ: «*إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله*»، أي إن الرزق يسير حثيثًا نحو صاحبه كما يسير أجله ليلاقيه، وكلاهما لا مفر منه.

لكن الرزق من حيث **السعي إليه وطريقة تحصيله و إنفاقه واستثماره** يدخل في باب *أفعال العباد الاختيارية*. فالعبد هو الذي يختار أن يكسب من حلال أو حرام، أن ينفق في خير أو شر، أن يكون غنيًا شاكرًا أو فقيرًا صابرًا. وهذه اختيارات و**كسب يترتب عليه الجزاء**. إذ *ليس السؤال يوم القيامة كم جمعت من المال، بل من أين اكتسبته وفيما أنفقته*. فالكسب مشروع ومجازى، والرزق مقسوم ومبتلى به. وهنا *لا بد من الإشارة*: ليس معنى أن الرزق قهري أن يجلس الإنسان مستسلمًا ويقول "ما دام رزقي سيأتيني قهرًا فلمَ أسعى؟"! هذا فهم خاطئ

ينافي الشرع والعقل. لأننا ذكرنا أن للسعي *جانبًا كسبيًا* يحاسب عليه العبد. فلو ترك السعي ارتكب إثم التواكل وتضييع من يعول، وعرّض نفسه للذل بسؤال الناس. صحيح أن رزقك لا بد أن يصلك، لكنك لا تعلم مقداره ولا موعده ولا تملك أن تجعله مباركا، وبالتالي فإن القعود عن الأخذ بالأسباب قد ينتج عنه كفاف وضيق، وهذا القعود لم يُنقص من الرزق المعلوم أصلا لله تعالى، المجهول للإنسان، لكن الإنسان بقعوده أغلق على نفسه بابا كان قد أُمر بطرقه وبفتحه، وهذا من القدرية الغيبية التي تتصور أقداراً مجهولةً لها بصورة معينة وتستسلم لها، كأن تقول أنه قد كُتب علي الشقاء، فيقعد عن العمل، مع أن القدر يعلمنا الإيجابية في التفكير، فربما كان احتباس بابٍ كان يأتي منه الرزق دافعا لفتح باب آخر يأتي منه رزق أكثر، ولأن الرزق مجهول للإنسان، فعليه السعي. وهذا يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٣]. فهو بالغ أمره في إيصال الرزق، ولكن قد يجعله في حق المتوكل *كافيًا كافيًا مباركًا*، وفي حق المتواكل *كفافًا مؤلمًا* أو عالةً على صدقات الآخرين أو مشقة بالغة. إذًا العمل جزء من *كيفية ورود القضاء*. ولعل هذا يفسر قولهم "الرزق يطلب العبد" أي إن كان مقدرًا له كذا سيأتيه، لكن *شكل المجيء وكيفيته تتوقف على حال العبد وسعيه*. كذلك *الرزق من حيث كونه مالًا حلالًا أو حرامًا* يتعلق بكسب العبد وخياراته، لكنه **من حيث كونه وصل إليه فهو قضاء الله**. ويتجلى التوازن بين هذين الجانبين في قول النبي ﷺ: «*اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغًا لي فيما تحب*»، ففيه الاعتراف بأن الله قد *يزوي* (يمنع) عن العبد بعض ما يشتهي من رزق، وذلك قضاء خارج عن إرادته، لكنه في الوقت نفسه مسؤول أن يستثمر ما رزقه الله بالفعل في طاعة الله (وهذا عمله واختياره). وقد بيّن النبي ﷺ خطًا دقيقًا في هذه المسألة حين سأله الصحابة: «*يا رسول الله، أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقيها (يعني الطب والعلاج) أترد من قدر الله؟* فقال: *هي من قدر الله*»، أي كونكم تفعلون الأسباب المفيدة هو أيضًا قدر يجريه الله على أيديكم. فلا ينبغي أن ننظر للقدر نظرة سلبية جبرية.

وينبغي أن نشير إلى نقطة مهمة هنا وهي التفريق بين *الغيب المطلق والقدر الجاري*. فرزق كل إنسان غيبٌ عندنا لكنه معلوم عند الله. فكون الرزق من القضاء لا يعني أن الإنسان يستطيع أن يخمن نصيبه ثم يجلس! هذا محال لأن *علمك أنت قاصر*. قدّر الله لك رزقًا لن يأتيك إلا بالعمل؛ فإن جلست ظانًا أنه قضاء سوف يأتي، ربما فاتك لأنك عصيت أمر الله بالسعي. فالله قدر أسبابًا مع المسببات. لذا لا يصح أبدًا أن يحتج أحد بالقدر في ترك السعي أو فعل المعصية. وليس ذلك تناقضًا، بل جهل من يُعمل العقل فيما لا سبيل له إليه.

## التفريق بين القضاء وبين الرزق (وكذلك بالضبط: النصر):

بقي أن نفرق بين القضاء وبين الرزق، فالقضاء لا دخل للعبد بجلبه ولا بدفعه، فهو الفعل الذي يقع على العبد جبرا عنه، في الدائرة التي تسيطر عليه ولا يسيطر عليها، وبالتالي فهو غير مسؤول عنه، ويجري وفق نظام الوجود مباشرة (القوانين التي تجعل الكون صالحا للحياة) أو يجري وفق نظام الوجود بصورة غير مباشرة، قد يتعلق فيها بفعل الإنسان الاختياري لكن بدون قصد، كمن يطلق رصاصة في الهواء فتصيب شخصا آخر بغير قصد، فلا مجال لدفعها، أو أن يقوم شخص بقيادة سيارة بسرعة كبيرة غير مقدر لظروف الشارع والسيارة

فيصاب بحادث، فهو مسؤول جزئيا عن عدم أخذه بالأسباب، ولكنه لم يكن قاصدا أن يصاب بحادث، فالحادث وقع "قضاء"، ولكن الإنسان مسئول عن أفعاله الناتجة عن التفاعل مع خواص الأشياء، وفي هذه الحالة هناك ثواب وعقاب، لكن في باقي حالات القضاء لا ثواب ولا عقاب.

1. **طبيعة الفعل**

- **القضاء:** أفعال تقع على الإنسان قهرًا ودون اختياره، مثل ولادته، وموته، وشكله، وسقوط حادث عليه لم يتسبب فيه. هذه الأفعال لا كسب له فيها، فلا ثواب ولا عقاب.
- **الرزق:** فعل رباني مباشر (إيجادًا وتقسيمًا وإيصالًا)، لكنه يتداخل مع كسب العبد من جهة *الطريقة والمصدر والإنفاق*. فالرزق نفسه مقدر، لكن العبد يُحاسَب على كيفية تعامله معه (من أين أخذه؟ كيف أنفقه؟).

2. **موقع الإنسان**

- **في القضاء:** الإنسان **مسلوب الإرادة** في الفعل محل البحث (مثل موته أو إصابته بمرض وراثي)، فلا يملك دفعه.
- **في الرزق:** الإنسان **مأموربالسعي** في مظانّ الرزق: ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾. فالسعي اختياري، والثواب والعقاب يتعلّقان به، لكن وصول الرزق وقدره قهريان.

3. **علاقة الثواب والعقاب**

- **القضاء:** لا ثواب ولا عقاب، لأنه خارج عن التكليف. غايته التسليم والإيمان به: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾.
- **الرزق:** فيه مجال للمحاسبة؛ قد يُثاب العبد على طلبه من الحلال وصبره على الضيق، ويعاقب إن طلبه من الحرام أو بطر به.

4. **السننية والسببية**

- **القضاء:** يجري وفق نظام الوجود العام (قوانين الكون، خواص الأشياء) أو يقع فجأةً دون أن يكون للإنسان مدخل فيه.
- **الرزق:** مرتبط بالسنن والخواص أيضًا (الزرع ينبت بالماء والشمس)، لكن الله هو الذي يخلق الإنبات ويرزق، والإنسان يتفاعل مع هذه السنن بالزراعة أو التجارة. فهو مجال اختبار للتعامل مع الأسباب وفق الشرع.

5. **وحدة الفاعل الحقيقي**

- **القضاء:** الفاعل الوحيد هو الله، والإنسان منفعِل صرف.
- **الرزق:** الفاعل على الحقيقة هو الله، لكن الإنسان مسؤول من حيث الكسب والسعي. فالله يخلق الرزق ويقسمه، والعبد يتعرض له بعمله.

**الخلاصة:**

القضاء: أفعال قهرية تقع على الإنسان بلا اختيار ولا حساب.

الرزق: وإن كان مقدرًا بيد الله وحده، إلا أن طريق تحصيله وإنفاقه يقع في دائرة التكليف والاختيار، لذلك جمع بين كونه **قضاءً محضًا من جهة القدروالكم، واختبارًا تكليفيًا من جهة الكسب والكيفية.**

**ولعلنا نقول: وكذلك النصر مثل الرزق بالضبط!** وكما أن الرزق في السماء، لا تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فإن النصر كذلك بيد الله تعهد بإنزاله، فمن نصر الله نصره الله، في الدنيا أو في الآخرة، أو نصر دينه، أو أهلك عدوه، فواجب عليه أن يقوم بمباشرة الأعمال، وسيحاسب على التقصير فيها أو على عدم القيام بها، ولكن النصر بيد الله، هو الفاعل له على الحقيقة، أي المباشر لتسخير الأسباب الدنيوية التي ينصر بها عباده متى شاء.

**خامسًا:** سر اقتران الرزق بالإحياء والإماتة

جاءت الآيات تربط الرزق بالخلق والموت والبعث لتؤكد أن الرزق ليس شأنًا دنيويًا ماديًا فحسب، بل فعل رباني عظيم في زمرة الأفعال التي لا يشارك الله فيها أحد. فهو الذي خلق الحياة ويحييها ويميتها ويبعثها، وهو الذي يرزقها ويبقيها. فكما لا يُتصور شريك لله في الخلق أو الإحياء، لا يُتصور شريك له في الرزق. وهذا الربط يثبت أن الرزق آية من آيات ربوبيته، ودليل على وجوب توحيده والتوكل عليه. إن هذا الاقتران يُبرز **شمول معنى الربوبية.** فالربوبية ليس خلقًا فحسب، بل خلقٌ ورزقٌ وتدبيرٌ وإماتةٌ وإحياءٌ. وبتعبير جامع: *الربوبية هي الملك التام والتصرف المطلق في الكون.* قال تعالى: ﴿**تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ**﴾ [الملك: ١] وكل ما بعده شرح لهذا الملك من رزق وإماتة ونشر الخ.. فإذا تيقن العبد بهذا، حقق التوحيد و**قطع الأسباب القلبية عن غير الله**، فلا يخاف أحدًا على رزقه، ولا يرجو سواه في حياته ومماته، ولا يطلب شفاعة الأصنام أو وساطتها لنزول المطر أو رفع بلاء.

**خلاصة**

الرازق هو الله وحده، والإنسان مرزوق مباشر للأسباب. العمل حالة واجبة لا علة موجبة، والرزق مقدر مقسوم بيد الله. به يبتلي عباده غنى وفقرًا، ويجريه عبر الأسباب أو من غير سبب، ويقرنه بالخلق والحياة والموت والبعث، ليبقى توحيد الربوبية حاضرًا في القلوب. فمن أيقن بهذا استراح قلبه، وأحسن سعيه، ولم يذلّ لمخلوق، بل وثق أن رزقه عند الله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]

وقد رأينا في بحث "انتهاء الأجل هو السبب الوحيد للموت" تفريقا بين مباشرة فعل الإماتة والتي لا دخل للإنسان بمباشرتها، ولم ترد أي قرينة تدل على أن مباشرة الموت من غير الله، فهو يتوفى الأنفس، وهو يرسل ملائكته لقبض الأرواح، بخلاف الهدى والضلال، فإن من يباشر الفعل ليس الله سبحانه فيكون قد أجبر الناس على الهداية أو الضلال، فإذا عاقبهم على أمر لا خيار لهم فيه فيكون في ذلك ظلم لهم تعالى الله عنه علوا كبيرا، فالقرائن الواردة في القرآن تصرف مباشرة الفعل في الهداية والضلال عن الله تعالى إلى الإنسان، فيهتدي الإنسان باستعمال عقله استعمالا صحيحا، فتكون هداية الله هداية توفيق أو خلق للهداية في نفس الإنسان، أي إيجاد قابلية الهداية، كما أن الهداية والضلال تكون وفق مشيئة الله وإرادته، وهذا موضوع آخر، أما في موضوع النصر، فإن الله تعالى هو الذي يباشر فعل إنزاله، **وإسناد الفعل له على الحقيقة، والمراد منه فعل النصر، وليس خلقه**، لأن الأصل في الإسناد الحقيقة، ولا ينصرف إلى المجاز إلا بقرينة، ولا قرينة تصرف الإسناد عن معناه

الحقيقي، **فتكون نسبة النصر إلى الله نسبة حقيقية**، ونفت الآيات نفيا مطلقا قاطعا أن ينسب لغيره ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ **وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ** ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران ١٢٦]، ﴿إِن **يَنصُرْكُمُ** ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران ١٦٠] ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك ٢٠]، أو يهيئ لهم من ينصرهم من عباده (الأنصار مثلا) ففي سورة الأنبياء: ﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوْءٍ فأغرقناهم أجمعين﴾ ٧٦-٧٧

وفي سورة الأعراف ١٥٧: ﴿...فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾، فنصرهم للدعوة تسخير لهم لإجراء السنة الإلهية على أيديهم، وليسوا هم من يملك مباشرة فعل النصر إذ أنه بنص القرآن محصور بيد الله تعالى وحده.

"ولأجل أن يطمئن الإنسان فلا يقلق من نقص الموارد والثروات، فقد تكفل له الرب سبحانه بتوفير ما يلزمه للمعاش، فعناية الله بالمخلوقات اقتضت تسخير كل ما في الأرض للبشر ليعمروها وليكونوا خلفاء فيها، وتهيئة ما فيها من ثروات لتكون صالحة لحياتهم قال تعالى: ﴿وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين﴾، فجعل الله سبحانه في ثروات الأرض الصلاحية لأشباع حاجات الإنسان حيث قدر الله خواصا وصفات معينة، تجعلها قابلة للاشباع والانتفاع منها، وما على الإنسان إلا السعي لأخذ ما يلزمه من هذه الثروات الربانية المعدة لمنفعته وأن يشبع بها جوعاته.

وجميع مصادر الثروة الظاهرة والباطنة في الأرض هي عطاء رباني أورثها الله تعالى لبني آدم، قال تعالى: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾، فالمال هو مال الله وحده والبشر مستخلفون فيه، قال تعالى: ﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾، وجعل الله هذه الثروات قريبة يسهل الحصول عليها بشيء بسيط من السعي والتعب، كالتقاط الثمار من الشجر أو صيد السمك من البحر أو صيد الحيوانات البرية، وكذلك خلق الله تعالى الأنعام وسخرها للإنسان لينتفع منها قال تعالى: ﴿والأنعام خلقها لكم﴾ وقال: ﴿ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾.

وهذا العطاء الرباني للمخلوقات جميعا -بما فيها الإنسان- هو الرزق، فالرازق للإنسان وللمخلوقات هو الله تعالى، ومعنى كونه رازقا هو عطاؤه الكريم لجميع البشر لما يلزمهم لاشباع جوعة الأكل والشرب وتملك المال، قال تعالى: ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربط محظورا﴾ وهذا يدلنا على المعنى الواقعي للرزق. ويدلنا على معنى أن الله تعالى هو السبب الفاعل للرزق، فهو يعطي عطاء بلا مقابل ولا ثمن، وهو مقسم الرزق بين عباده كما يشاء، وهذا التقسيم للأرزاق بالإنعام أو بالتقدير (ضيق الرزق) كما وكيفا هو ابتلاء وامتحان رباني للعباد[١٥٩]".

---

[١٥٩] الأستاذ يوسف الساريسي، بحث بعنوان: الرزق بيد الله، بتصرف.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٤٠ الروم]، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال ١٠]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران ١٢٦]، ﴿أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إنِ الكافرون إلا في غرور﴾ [٢٠ الملك]، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران ١٦٠].

## المنظومة السببية للرزق[١٦٠]:

وحتى يدرك الإنسان أن الفاعل الحقيقي للرزق هو الله تعالى، فإن عليه إدراك عمل المنظومة السببية للرزق، ونقصد بذلك أن الله تعالى جعل بني البشر يعيشون ضمن مجتمعات ويتعاونون فيما بينهم لإشباع حاجاتهم المختلفة وإعمار الأرض، ويحصلون كمجموعات على الرزق الرباني. ولكن تعاون البشر في الحصول على هذه الثروات والنعم لا يعني أنهم هم من صنعوا هذه الثروات والمنافع، بل هم اكتسبوا هذه الثروات التي هي رزق وعطاء رباني، فهم لا يقدرون على ايجاد الثروة والانتفاع بها إلا بتمكين الله لهم في الأرض وتسخير ما فيها لمنافعهم.

ويقتضي واقع العمران البشري أن يعتمد بعض الناس على بعض لاكتساب الأرزاق، ويكون الاعتماد فيما بينهم على شكل سلاسل مترابطة، وكل إنسان يشكل حلقة من حلقات هذه السلاسل الرزقية، ومن خلال العلاقات والتعاون فيما بينهم تصل الأرزاق إليهم جميعا، فواقع التعاون المجتمعي أن الأعمال تقسم بين الأفراد كل حسب قدراته وإمكانياته، فيتخصص مجموعة من الأفراد في أعمال معينة يقومون بها للحصول على المال فينتفعون بها وينفعون المجتمع ككل.

وتقسيم العمل التخصصي يتعدد حسب ما يلزم للمجتمع من أمور، فهناك الزراعة التي هي طريقة الحصول على الأقوات والطعام، وهناك الصناعة التي هي طريقة تنمية الثروات وتحويلها لتكون نافعة باستخدام الأدوات، وهناك التجارة التي هي طريقة إيصال وامتلاك أفراد المجتمع لهذه الثروات، وهناك الإجارة وهي طريقة لإضافة الجهود بالعمل البدني والذهني للانتفاع بالثروات وتنميتها، وبهذه الطريقة توزع هذه الثروات بين أفراد المجتمع.

وعليه فالتخصص وتقسيم العمل بين الناس لا يعني أن بعض البشر يرزقون البعض الآخر، بل الرزاق هو الله وهم فقط يباشرون الانتفاع بهذه الأرزاق بتعاونهم مع بعضهم، ولذلك لا يجب أن يظن الأجير حين يأخذ مالا ممن استأجره أن المؤجر هو الذي رزقه، بل يجب أن يدرك أنه واحد من حلقات السلسلة الرزقية التي توزع هذه الأرزاق بين العباد، يقول الله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى فارزقوهم منه﴾ أي ادفعوا لهم من هذا الرزق الذي أصابكم. فيجب الايمان بأن الله هو الرزاق، ويجب القيام بالعمل المطلوب في أي باب من الأبواب للحصول على رزق الله، فهناك الرزق وهناك طريقة معينة للحصول على هذا الرزق.

---

[١٦٠] الأستاذ يوسف الساريسي، بحث بعنوان: الرزق بيد الله

## السعي ليس سببا في ايجاد الرزق و إنما هو سبب لأخذ الرزق من أبو ابه:

إن الله تعالى قد طلب من الإنسان السعي من أحد أبواب الرزق الحلال التي يوجد فيها مدخل للسعي كالزراعة والصناعة والتجارة والعمل... الخ، ووعد الله الساعين المبتغين لفضل الله بسعة الرزق، ولكنه لم يعد غير الساعين بالرزق إلا تكرما منه وفضلا. قال تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾. وقال في سورة الملك: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾.

والله تعالى قد حدد للإنسان طريقة للحصول على الرزق من مظانه، ويكون ذلك من خلال طلب الرزق من أحد الأبواب التي هناك مدخل للسعي فيها، فإذا سعى الإنسان للحصول على الرزق فإنه -بغلبة الظن- سيحصل على هذا الرزق من أحد أبواب السعي أو بأكثر من باب، كما وعده الله تعالى، وإذا لم يسعَ الإنسان فقد يرزقه الله تعالى من أبواب أخرى غير أبواب السعي، ولكنه يكون -في الغالب- رزقا ضيقا ويقع خارج دائرة الكسب الاختياري إلى دائرة القضاء والقدر، ويحاسب المكلف شرعا على اختياره وتقصيره بعدم السعي إن كان قادرا، ثم تواكل على حصوله على الرزق من الأبواب لا مدخل للسعي فيها.

ولكن يجب ملاحظة أن جميع أبواب الرزق، لا تولدالثروات التي ينتفع بها، فالثروات موجودة في الأرض بخلق الله تعالى فهو مالك كل الثروات وهو مالك هذا الأموال حقيقة، وهو الذي أذن لنا بتملك هذا المال والثروة والانتفاع بهما، وفرق ساشع بين إيجاد الرزق أي توليد الثروة وبين الحصول عليها وأخذها حيازة أو الانتفاع بها، فالسعي الذي يقوم به الإنسان ليس هو الذي يولد الرزق، لأن الرزاق حقيقة هو الله تعالى خالق الثروات وخالق المال ومقسمه بين عباده. فالشخص الذي يملك المال ليس هو مالكه الحقيقي لأنه ليس هو الذي أوجده، بل هو سعى إليه فحصل عليه وحازه بعطاء من الله، وهذا يدل بشكل قاطع على أن الرزق أو العطاء هو من الله تعالى حصرا، والإنسان إنما يسعى للحصول عليه أي أخذه بعمله وجهده.

ورد في نشرة بعنوان: (الرزق بيد الله وحده والعبد إنما يسعى للحالات التي يحصل فيها الرزق) ما يلي: "الناس يخلطون بين الملكية وبين الرزق ويخلطون بين الحالة التي يأتي فيها الرزق وبين السبب الموصل حتما إلى الرزق، والحقيقة هنالك فرق بين الملكية والرزق فالملكية هي حيازة الشيء بكيفية من الكيفيات التي أجاز الشرع حيازة المال بها، فيعتبر إذا حيز بحسبها ماله، وإذا لم يحز بحسبها فلا يعتبر ماله، أما الرزق فهو كل ما وصل إلى الإنسان سواء وصله بحسب الكيفية التي أجازها الشرع أو وصله لا بحسبها فهو رزقه.... ولهذا يجب على المسلمين أن يسعوا في طلب الرزق بجد واهتمام في كل حالة يمكن أن يكون من شأنها أن يحصل فيها الرزق، ولكن يجب أن يظلوا معتقدين أن الرزق بيد الله وحده وأن الله هو الرازق"

يقول في كتاب الفكر الاسلامي: ""الرزق غير الملكية، لأن الرزق هو العطاء وأما الملكية فهي حيازة الشيء بكيفية من الكيفيات التي أجاز الشرع حيازة المال بها.... فالمال الذي يأخذه العامل أجرة عمله رزق والمال الذي يأخذه المقامر من غيره في لعب القمار رزق، لأنه مال أعطاه الله لكل منهما حين باشر حالة مكن الحالات التي يحصل فيها الرزق"

وهكذا يظنُّ كلُّ واحدٍ يباشرُ عملًا يكتسبُ منه مالًا أنَّه هو الذي رزقَ نفسَه، وإنما جاء هذا الظنُّ للناس من كونهم لم يُدركوا حقيقةَ الحالات التي يأتيهم فيها الرزقُ، فظنوها أسبابًا، والحالُ أنَّ هذه الحالاتِ التي يأتي منها الرزقُ إنما هي أوضاعٌ حصلَ فيها الرزقُ، وليست أسبابًا نتج عنها. ولو كانت أسبابًا لما تخلّفت مطلقًا، مع أنَّ المشاهدَ حِسًّا أنها تتخلّف، فقد تحصل هذه الحالاتُ ولا يأتي الرزق. وهذا ما يجعلنا نجزم بأنَّ ما نشاهده من وسائلَ وأساليبَ يأتي فيها الرزقُ إنما هي حالاتٌ يحصل أن يأتي الرزقُ فيها، فهم الذين يباشرون جميعَ الحالاتِ التي يأتي فيها الرزقُ باختيارهم.

فالإسلام بيّن أسباب التملك لا أسباب الرزق وحصر الملكية بهذه الأسباب، فليس لأحد أن يملك الرزق إلا بسبب شرعي لأنه هو الرزق الحلال وما عداه فهو رزق حرام، وإن كان الرزق كله -حلالا وحراما- من الله سبحانه وتعالى."

## الرزق ليس بمُسَبَّبٍ ينتج عن سبب، وليس العمل علّة له

لاحظنا أن العبد يتفاعل مع الخصائص التي في الأشياء، أي القدر، مما هو مسخر له، ولاحظنا أن العبد مطالب بالأخذ بالأسباب، وقد خوطب بأوامر ونواه متعلقة بأمور قد يقع في مثلها قضاء، فقيادة السيارة بسرعة ٢٠٠ كم، في أحوال جوية سيئة وبإطارات سيئة تزيد احتمال وقوع الحادث، أي القضاء، وقد لا يقع مع كل هذه الظروف السيئة، وقد يقود السيارة بسرعة ٥٠ في ظروف ممتازة ويتسرب زيت الفرامل أو تنقلب السيارة، لذلك هناك مسئولية وواجبات على الفاعل الإنسان، وهناك أمور بيد الفاعل: الله سبحانه وتعالى، والقضاء بفعل الله تعالى وحده، فقد يترتب وقوع القضاء على أفعال جرت من العبد يتحمل مسئوليتها، ويتحمل جرم عدم الأخذ بالأسباب فيها، ومع ذلك وقع القضاء جبرا على العبد، ولا يستطيع دفعه بعد وقوعه.

وهذا كله لا يجعل منه هو الفاعل في القضاء، فلو اتخذ كل الإجراءات وقضى الله تعالى بأمر فلا راد لقضائه، وبالتالي فالفاعل هو الله تعالى في القضاء،

ومن صور تغير القضاء ظاهريا، ما ورد في الحديث «لا يرد القضاء إلا الدعاء[١٦١]، ولا يزيد في العمر إلا البر» رواه الترمذي، وصورته أن سيدنا يونس عليه السلام دعا ربه وهو في بطن الحوت فاستجاب الله له ونجاه وأمد في عمره، مع أن الوضع الطبيعي أن من يدخل بطن الحوت لا ينجو، ومن صوره الأخرى أن الإنسان الواصل لرحمه[١٦٢] البار قد يجنبه الله تعالى موتا كان ليأتيه بسبب مرض في القلب، فيكتشف المرض مبكرا بلطف الله،

---

[١٦١] أثبتت الدراسات الطبية أن الدعاء والصلاة والتأمل يمكن أن يكون لهما تأثير كبير على الصحة النفسية والجسدية. إذ تساهم ممارسة التأمل والصلاة والصلة بالله في تخفيض مستويات التوتر، والتي يمكن أن تؤدي بدورها إلى تحسين وظائف الجهاز المناعي وتقليل احتمالية الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية. هناك دراسة منشورة في مجلة "Psychosomatic Medicine" توضح أن الأنشطة الدينية، بما في ذلك الدعاء، ترتبط بتحسين معدلات الشفاء وتقليل معدلات الإصابة بالأمراض المزمنة.

[١٦٢] تشير الأبحاث إلى أن العلاقات الاجتماعية القوية والدعم العاطفي، مثل البر وصلة الرحم، يمكن أن تؤثر بشكل إيجابي على صحة القلب. أظهرت دراسة نُشرت في مجلة "American Journal of Epidemiology" أن الأشخاص الذين يتمتعون بشبكات دعم اجتماعي قوية، بما في ذلك العلاقات الأسرية، لديهم معدلات أقل للإصابة بأمراض القلب التّاجيّة، ولديهم فرص أكبر للشفاء بعد الأزمات القلبية. هذا يشير إلى أن الله تعالى قد يلطف بالإنسان بفضل بره بصلة الرحم ويؤخر عنه قضاءً محتوماً بمرض القلب عبر الكشف المبكر أو الوقاية.

ويعالجه فيستمر قلبه في العمل إلى أجله المكتوب، ولولا أنه اكتشف المرض مبكرا لكان في العادة أن يتفاقم وضع القلب فيموت بجلطة مثلا في وقت مبكر، فهنا لطف الله تعالى به لبره بأن وفقه لأسباب تطيل قدرة قلبه على العمل، فكان زيادة في العمر لكنها لم تغير قضاء الله تعالى الأصلي في اللوح المحفوظ أنه سيعيش كذا وكذا، إذ إن القضاء قد يجري أحيانا وفقا للسنن التي وضعها الله في الكون، فمن سنن العادة أن من أغلقت شرايين قلبه يبدأ بالشعور بألم في الصدر (الذبحة الصدرية). فإذا ما تفاقم الأمر وتكونت جلطة دموية، يمكن أن يتوقف تدفق الدم إلى القلب، مما يسبب نوبة قلبية. بدون علاج، قد يؤدي هذا إلى قصور في القلب وعدم انتظام ضربات القلب، ومن ثم الموت القلبي المفاجئ إذا لم يتم التدخل السريع، فهذه سنن العادة التي قد يقع القضاء وفقا لها، لكن اكتشاف انسداد الشرايين قبل تفاقمه، والذي يمكن أن يكون بسبب البر أو بسبب الدعاء قد يفضي إلى العلاج ومنح القلب فرصة للعمل أطول، فيطول العمر ممتدا من القضاء الأول (لو لم يكتشف) إلى القضاء الأصلي المكتوب في اللوح المحفوظ والذي عنده يحصل انتهاء الأجل.

مضت السنن المجتمعية على قواعد معينة في تسيير الحياة، بعضها صارم، وبعضها غير صارم، ولنأخذ مثال رجل مهني من أصحاب الكفاءات، يكسب رزقه من المهنة التي يتقنها، ولنفترض أن هذه المهنة تتطلب أن يمتلك المؤهلات التالية: شهادة جامعية في الهندسة، شهادات في إدارة الأعمال والمشاريع، خبرة عشر سنوات، رخصة قيادة سيارة، مهارات معينة وهكذا، فإنه بالنظر في السنن التي تجري عليها الأمور في الحياة، ينبغي على من يكسب رزقه من وظيفة أن يأخذ بالأسباب المجتمعية هذه فيحصل على الشهادات والخبرات المطلوبة، وأن يتقن عمله، ويداوم في أوقات مخصوصة،

فهذا من السنن المجتمعية الغالبة، وبالتالي فإن الجريان وفق هذه السنن يعتبر أخذا بالأسباب، فالسبب ارتبط بمسببه من حيث طبيعة وخلق الشيء أو من حيث إن الأمور طبيعيا تحدث بهذه الحال، أي إن السبب الذي هو من ضرورات العادة هنا، يدخل في معظمه تحت نظام الوجود الذي خلقه الله، أي من السنن.

والتاجر مثلا عليه أن يحسن عرض بضاعته، وتسعيرها، والدعاية لها، وهذا من أسباب إحسان العمل (أي السعي) وإتقانه، فهذا السعي للوقوع في مظنة حصول الرزق، أو مباشرة للحالات التي يأتي فيها الرزق، لكن الله تعالى ترك أمر الرزق اختصاصا له، لم يتركه بيدك ولا لك، **فسعيك إذن: ليس سببا للرزق، وإنما هو حالة قد يحصل من خلالها الرزق وقد لا يحصل، إذن: فالأخذ بالأسباب في موضوع الرزق: هو أن نأخذ بأسباب السعي، ونوجده في الواقع على أفضل صورة ممكنة، وأما السعي نفسه فليس بسبب للرزق وإنما هو حالة من حالاته.**

وهذا بالتالي نظام سببي يجب الأخذ به في المعيشة ليقال بأننا أخذنا بالأسباب والمسببات، ولم نتواكل، ويقع المرء حينها في مظنة نزول الرزق عليه، ﴿فإذا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة ١٠] ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك ١٥]، وروى البخاري في صحيحه عن المقدام بن معد يكرب الكندي عن النبي ﷺ قال: «ما أَكَلَ أَحَدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا من أن يأكلَ من عملِ يدِه، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ عليهِ السلامُ كان يأكلُ من عملِ يدِه» وقال النبي ﷺ «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي

مرة سوي» أخرجه الإمام أحمد وأصحاب السنن، وذو المرة هو ذو القوة على الكسب، والسوي هو صحيح البدن تام الخلقة، وفي المسند والسنن أن النبي ﷺ أتاه رجلان في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة فسألاه منها فرفع فيهما رأسه فرآهما جَلْدين (أي يقويان على العمل) فقال «إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب».

ومع هذا فبالنسبة للرزق تجد أن هذا النظام ليس من باب السببية التي ينتج عنها نزول الرزق، فقد يعمل المرء ويتقن عمله، ولديه كل المؤهلات، ومع ذلك لا يحصل على الأجر، لأن سبب الرزق الحقيقي غير معروف لنا، فالرزق بيد الله تعالى، فالله تعالى خلق نواميس في المجتمعات ينبغي القيام بها على وجهها للوقوع في مظنة تحصيل الرزق، لذلك فالأخذ بالأسباب المجتمعية هذه والنواميس التي خلق الله تعالى المجتمعات عليها، ليس هو هو المُسبب للرزق، ولكن في الوقت نفسه ندرك أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة[١٦٣]، فالسعي لطلب الرزق قد يصل لدرجة الفرض على من احتاج، والقيام به وفق أسبابه قد يأخذ حكمه بالنسبة للمحتاج للعمل في بعض الحالات، **فعلاقة الرزق بالعمل (السعي) ليست علاقة سببية، ولكن علاقة الإنسان بالعمل (السعي) والأخذ بالأسباب جري على السنة المجتمعية، وعليه أن يبذل وسعه في الأخذ بأسبابه.**

وأضاف لهذه السنن المجتمعية سننا إلهية فقال عز من قائل سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12)﴾ [نوح]، وقال الله تعالى عن هود- عليه السلام: ﴿وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [٥٢ هود]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق ٢-٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٩٦ الأعراف]، ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ ٣٩]، وغيرها من السنن الإلهية، وعن أنس - ﷺ - قال: قال رسول الله ﷺ:«مَن أحبَّ أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أثره، فليَصِل رحِمه»؛ متفق عليه، وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً» أخرجه الترمذي وابن ماجه.

### النصر ليس بمُسَبَّبٍ ينتج عن سبب، وليس العمل علّة له:

كما في موضوع الرزق، وجدنا في موضوع النصر أن الله سبحانه وتعالى قد خص ذاته العلية بتحقيق الغايات والنتائج، ولم يرتب حصولها على تحقيق الأسباب المجتمعية، فأفعاله غير منفعلة بأفعال البشر، سبحانه وتعالى.

ولو كانت أفعال الإنسان قادرة على إيجاد تلك الغايات على الحقيقة، لما كان من معنى لتخصيص الذات العلية بمباشرة تلك الأفعال على الحقيقة، لكن الله تعالى نسب إلى نفسه مباشرة القيام بالأفعال على الحقيقة:

---

[١٦٣] "روي أن عمر بن الخطاب ﷺ، رأى بعد الصلاة قوما قابعين في المسجد بدعوى التوكل على الله فعلاهم بدرته وقال لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، **إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض**، أما سمعتم قول الله - تعالى -: ﴿فإذا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة ١٠]"

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٥٥ النور]، هو الذي يستخلفهم، وهو الذي يمكن لهم دينه، وهو الذي يبدلهم، وليس فعلهم وقيامهم بالأسباب هو الذي ينتج عنه ذلك، فهم ليسوا الفاعل على الحقيقة، لكنه هو سبحانه وتعالى بوصفه إلها ناصرا!

وتماماً كما أن السعي يتطلب الأخذ بأسبابه كي يوجَد في الواقع بصورة قد تحققه، وهو أحد الحالات التي يتنزل بها الرزق، (الحالات الأخرى مثل الميراث مثلا) ولكن السعي نفسه ليس إلا حالة من الحالات التي يتنزل بها الرزق أو لا يتنزل، فعلاقة السعي بالرزق ليست علاقة سببية، ولا بد أن يتنزل الرزق بأي صورة يشاء الله تعالى، فكذلك الأمر بالنسبة للنصر، فقد **خوطبنا بأعمال يجب علينا القيام بها، والأخذ بأسبابها، ولكن هذه الأسباب تتعلق بالعمل نفسه، والقيام به بأفضل صورة، لإيجاده في الو اقع، على نحو يوقع في مظنة تحقيق شرط نصر الله، ولا تتعلق السببية بالنصر، إذ إن علاقتها بالنصر ليست علاقة سببية**، وقد سبق وضربنا مثلا بنبي الله نوح عليه السلام، إذ إن صورة النصر التي نزلت عليه ليست امتدادا للفعل السببي الذي قضى زهاء ألف سنة يقوم به، أي إن عمل الدعوة لهداية الناس، وعمل تبليغهم الشرع بغية تحكيمه في الحياة -كما هو واجب كل الرسل- ليقوم الناس بالقسط، هذه الأفعال السببية لم تكن صورة النصر امتدادا لها، ولا إيجادا لها في الواقع، بل نزل النصر بإغراق قومه بالطوفان، فلم يذر على الأرض من الكافرين ديارا، وعليه، فأخذه عليه سلام الله بأحسن الأسباب، حتى صار من أولي العزم من الرسل، لم يكن سببا في نزول النصر بصورة يكون امتدادا له، وتحقيقا لثمرته في الواقع، وإن كان تحقق أيضا بصورة أن أورث الله تعالى من آمن مع نوح الأرض وحكموا فيها شرعه، فانتصر دينه في نهاية المطاف، إلا إن أنبياء آخرين مثل لوط عليه سلام الله تعالى أنزل الله تعالى النصر عليه بأن أهلك قومه وخرج من ديارهم وانتهت قصته عند ذلك، فلم ينتج عن فعله السببي نتيجة أن يكون النصر امتدادا لذلك الفعل السببي.

والنصر له صور مختلفة كما سيأتي منها صورة ما حصل لسيدنا محمد ﷺ من نصر دعوته وتمكينه واستخلافه وهذا النصر وقع امتدادا للفعل السببي، فهو حالة من الحالات، وأما في حالة سيدنا نوح عليه السلام، أو سيدنا لوط عليه السلام، فقد نزل النصر بصورة من صوره الأخرى وهي الانتقام وإهلاك قومه، لذلك ففعله السببي بالدعوة ليس إلا حالة من الحالات التي يتنزل النصر بها، مما يدل على أن علاقة الأفعال بالنصر ليست علاقة سببية، بينما القيام بتلك الأعمال على وجهها يجب أن يتم وفقا للسببية، أي الأخذ بالأسباب التي توجدها في الواقع بأفضل صورة توقع في مظنة تنزل النصر بصورتها، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا۝﴾ [نوح ٥-٩]، وهو بهذا بلغ غاية الأخذ بالأسباب، ولله تعالى أن ينزل النصر بالصورة التي يشاء، ولا بد أن يتنزل النصر من الله تعالى لأنه وعد به، لكنه ينزله بالصورة التي يشاء.

فلو قلنا: العمل هو البلاغ المبين، والأخذ بالأسباب تتضمن حسن التبليغ، وإقامة الحجة بالبراهين، يتفاعل فيها حامل الدعوة مع من يخاطبهم (ممتلكا الحجة والإقناع، والمعلومات، والعرض السليم السلس للقضية، الذي يثير اهتمام المبلَّغ، وباختيار الأفكار الصحيحة، ذات العلاقة، في الظرف الزماني والمكاني الصحيح، والمثابرة ليلاً ونهاراً، سراً وعلانيةً،... الخ) وباستعمال الوسائل (كأن يستعمل وسائل التواصل، أو التسجيل المرئي المشوق) والأساليب المناسبة على أتم وجه، (بأسلوب ممتع بعيد عن التعقيد)، فهذه كلها مما يمكن وصفها بأنها من أسباب إحسان التبليغ والشروط والعوامل اللازمة لإنجاحه،

ولو قلنا: الغاية من العمل أو نتيجته المرجوة هي إستجابة الطرف المدعو للدعوة واتباعه لها، نجد أن الأخذ بالأسباب ضرورة لنجاح الدعوة، ويحاسب عليها صاحبها بدليل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [١٢٥ النحل][١٦٤]، ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [١٥ الشورى]، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر ٢]، ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر١-٣]، فترتيب الخسارة على عدم التواصي بالحق أي الدعوة له دليل على أن الدعوة والتواصي بالحق والصبر على تبعاتها ومشاقها والتواصي على ذلك الصبر فروض، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران ١٠٤]، وترتيب الفلاح على القيام بالدعوة إلى الخير دليل على أنه فرض، ومع ذلك فقد لا تحصل النتيجة المرجوة من العمل وهي استجابة الطرف المدعو، فلا تتغير قناعات المخاطَب!

ومع ذلك، فلا بديل لحامل الدعوة من أن يأخذ بأسباب العمل، والقيام به على وجهه، كجزء من النظام السببي لإحداث التغيير (إقامة الدولة)، وأنه إن لم يتحر العامل على التغيير أن ينشئ النظام الغائي السببي السليم المتحري لسنن الله المجتمعية التي تفعل الطاقة اللازمة لإحداث التغيير، فإنه يكون مقصرا في القيام بالأعمال التي من شأنها أن تحدث التغيير، وسيحاسب على ذلك. فالتغيير يخضع لسنن مجتمعية وكذلك لسنن إلهية واضحة،

**وللعملية التغييرية سنن، وأسباب وشروط، ومعوقات يجب التركيز على الأهم منها، بالتقريب والاختزال، والتزام الرئيسي الضروري منها، الذي يشكل عمود الطريقة،** إذ إن العوامل المؤثرة والمتغيرات كثيرة جداً، ومتغيرة دائماً (ديناميكية)، بحيث يصبح من الصعب حصرها جميعاً بأصولها وفروعها، **والأخذ بأسباب فروعها جميعاً، فيجتهد الحزب ويقدر، ويسدد ويقارب، ويتوكل على الله تعالى فيما لا يستطيعه من أسباب بقدراته البشرية، بعد أن يستفرغ وسعه،** ولا يمكن أن يُتَصوّر أن التغيير يتم بتحول الحزب وأعضائه إلى ملائكة لا يخطئون، ولا أن تكون العملية التغييرية نفقاً لا نهاية له، كلما أخذت بأسباب أفعال جزئية من الفروع والأساليب

[١٦٤] يقول الإمام ابن كثير يقول تعالى آمرًا رسوله محمدًا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

طلب منه الوصول للكمال المطلق في كل ما يتعلق بشروطها والتغلب على معوقاتها حتى يحصل التغيير، إذ إن كثيراً من المعوقات والأساليب ديناميكية حركية متغيرة متقلبة، فتحتاج إلى خطط متفاعلة معها، الأمر الذي قد يطيل أمد العمل أو قد يرهق كثيرا، **فلا بد من التركيز على أهم الأساليب التي يمكن أن تثمر، وأهم المؤثرات والعوامل الرئيسة، وأن تدرس خطورة كل المتغيرات وتعالج بحسب حجمها وضررها أو نفعها بما يناسب**، ومثال ذلك دوام التغير في تقنيات التواصل الاجتماعي، فما أن تتقن تقنية حتى تجد غيرها قد أخذ محلها، والأخذ بأسبابها كلها ودوام ملاحقتها صعب للغاية، في ظل محدودية الإمكانيات، ولكنها أساليب تقع في إطار حمل الدعوة، والصراع الفكري، والكفاح السياسي، **وأهم ما في هذه الأعمال هو الأفكار التي تقيمه في الوجود، وهي موجودة على أفضل وجه، فلا تقصير في أسبابها**، أما تغير الوسائل الدائم، فهو عقبة تحتاج للتغلب عليها، لكن ليس لقتلها بحثاً وشروطا لإتقانها.

صحيح أن من طبيعة السنن المجتمعية أنها مطردة ثابتة وأنها لا تحابي أحداً، لذلك هي سنن، لكن هذه السنن المجتمعية قد تصطدم بعوائق تمنع طاقتها السببية من إنتاج الفعالية السببية، كأن يُعرضُ المبلِّغُ متبعاً أهواءه لا عقله كما ينبغي أساسا، ولو أعمل عقله لما تخلف العمل عن تحقيق غايته، (لذلك فهي سنن، تنتج الغاية حين تتحقق الشروط وتتعاون مع الأسباب، ولا تتخلف، وكذلك حين تكون قادرة على التغلب على العوائق، وكذلك أن تمتلك الزمن الكافي لتفعيل الطاقة السببية القادرة على إحداث التغيير)، أو كأن تخشى الفئة القوية القادرة في المجتمع أن تستجيب للبلاغ وتفعل قدرتها على التغيير، وغير ذلك من العوائق، حينذاك، لا بد من تدخل السنن الإلهية التي تتجاوز عدم قدرة من أخذ بالأسباب أن يبلغ بها مبتغاه، فتقوم بإزالة العوائق مثلا أو تسخيرها، أو تسخير غيرها (كأن تقوم الدعوة في مكان وييسر الله تعالى الاستجابة في مكان آخر، كحال مكة والمدينة)، أو تقوم بتقصير الزمن اللازم للفعالية السببية، أو تغير الشروط المحيطة، والسنن الإلهية هي العامل الحاسم، وهذه السنن الإلهية تتنزل وفقا لشروط بينها الله سبحانه منها أن ينصر المسلمون اللّهَ كي ينصرهم، وأن يأخذوا بأسباب العمل حسب طاقتهم، ولكن هذه السنن الإلهية ليست منفعلة بالسببية المجتمعية أو بالسنن المجتمعية، بل هي مستقلة عنها، فهي لا تتنزل فور استكمال أسباب السنن المجتمعية من جهة، ومن جهة ثانية، فقد سبق وأوضحنا الفرق بين السنن المجتمعية وبين السنن الكونية، فالأخيرة تحصل فور وجود السبب بلا تأخير، فمن ارتفع عن سطح الأرض بغير آلة وقع فورا جراء الجاذبية، أما السنن المجتمعية فثمة فسحة من الوقت بين وجود أسبابها، وتحقق نتائجها، وضربنا أمثلة كثيرة على ذلك مثل قوم لوط ومخالفتهم لسنة الحفاظ على غريزة النوع، ولبثهم بضع سنين قبل أن تتنزل عليهم العقوبة، ومثل ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [٧٦- ٧٧ الإسراء]، فهو تهديد للكفار بأنهم إن أخرجوا نبيهم لن يلبثوا خلافه إلا قليلا، وكان لبثهم بعده إلى يوم فتح مكة، أي إنه استغرق سنوات، فثمة فسحة في الوقت بين الوقوع في تحقيق الأسباب المستوجبة للسنن، وبين وقوع نتائجها، فالحتمية لا مناص عنها، ولكنها قد تستغرق زمناً، ولا يُعرف كم مقدار هذا الوقت خصوصا في القضايا التي اختص الله تعالى

نفسه بها مثل الرزق والنصر، ولا الصورة التي ستتحقق فيها تلك السنن، لذلك نقول بأن النصر من الله تعالى ينزله متى شاء، ولا ينزله فور تحقيق السنن المجتمعية والأخذ بالأسباب المجتمعية اللازمة للعملية التغييرية.

ولكن الغاية التي تحصل بإحسان العمل هي مرضاة الله والقيام بأمره وفق ما أمر، واتباع السنة شبرا بشبر، وهذه الغاية يتعلق الأخذ بالأسباب بها، فبقدر الإحسان في العمل يحصل الأجر الأعظم، وتحصل مرضاة الله تعالى، ويقوم المسلم بما عليه من واجبات شرعية على وجهها، ويبرئ ذمته، فهذا كله هو المسبَّب عن العمل، وهو أمر غاية في الأهمية.

أي إننا مخاطبون بإحسان العمل في حمل الدعوة، والأخذ بالأسباب التي توصل البلاغ بأفضل صورة مؤثرة، وأما نتيجة الدعوة من تجاوب الطرف الثاني فلسنا الفاعلين فيه، فالطرف المقابل لديه دماغ يفكر به، ولديه إرادة حرة، ومكلف بإعمال العقل كي يصل إلى الحق ويتبع الهدى، وطريقة وصوله للحق هو التفكير، لكنه قد لا يتقبل الدعوة ولا تتغير قناعاته، لاتباعه لأهوائه مثلا، أو لجحود عنده أو لعناد، فلا يجوز تغيير طريقة الدعوة هذه لأن الطرف المقابل يعاند، فنستبدل الإجبار مثلا بالإقناع العقلي وإقامة الحجة، ولا يصح القول في مثل هذه الحالة بأن العيب فينا، أو في أفكارنا أو أساليبنا، ولكن يمكن أن نعضد حمل الدعوة بأساليب مساندة، تزيل العوائق، ومع ذلك فقد يركب المخاطَبُ رأسه، ويحكم أهواءه تماما، كما حصل من كفار مكة حين دعاهم رسول الله ﷺ، فلا أحد يجرؤ أن يدعي أن ثمة قصور ووجوب إعادة نظر من قبل الرسول الكريم ﷺ، بل هو أخذ تام بأسباب إحسان العمل من قبل حامل الدعوة، ولكن نتيجة العمل وهي إحداث التغيير، اعترضتها أهواء نفوس مريضة، لم تستعمل عقولها، ولو استعملتها حقاً لخضعت للحق، ونحن نعلم أن الإنسان يباشر فعل الهداية بنفسه ولا جبر عليه فيه من الله، لذلك فالفعل السببي سليم، ويجب أن يدخل فيه دراسة المعوقات وطريقة إزالتها، لتحقيق الفعالية السببية، وقد لا تزول لعناد الطرف الثاني وجحوده واستكباره، وليس أخذنا بالأسباب هو الذي يجلب الهدى، مع أن فعلنا السببي مصمم للوقوع في مظنته فمثلا: من الدعوة: البلاغ المبين، وإقامة الحجة، نجد أن الرسول الكريم ﷺ دعا، وبلغ بلاغا مبينا، وأقام الحجة القاطعة على أبي طالب وعلى أبي لهب وعلى الوليد بن المغيرة وغيرهم، ولم يستجيبوا، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [٥٦ القصص]، ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [٣٧ النحل]، والذي يحرص لا شك أنه يأخذ بالأسباب على وجهها، ومع ذلك فإنه مخاطب بالقيام بالعمل على وجهه، ومحاسب على القيام به، لكنه غير محاسب على نتيجته التي قد تتحقق وقد لا تتحقق، يحاسبهم على القيام بالتكليف لا على النتائج المرجوة من القيام بالتكليف، ولن يحاسب اللهُ رسوله ﷺ على عدم استجابة أبي جهل وأبي لهب له حين دعاهما فأحسن العمل وأتقنه، ولم يكن فعله ﷺ السببي -الذي قام به متوافقا مع الهدف الظاهر من إرسال الرسل ودعوة الناس للهدى، رجاء هدايتهم- لم يكن متفقا مع النتيجة في هذه الحالة، أي لم تحصل الغاية مع أنه قام بالأخذ بأسباب إحسان الدعوة، والإتيان بالأدلة والخطاب بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ومع ذلك اتفقت النتيجة مع الفعل أحيانا حين استجاب أبو بكر وعمر والمسلمون، ولم تتفق في أحيان أخرى، حين جحد الكافرون، مما يدل على أن العلاقة ليست علاقة سببية.

فالرسول ﷺ لم يستطع أن يغير أفكار المجتمع المكي مع قيامه بالعمل على وجهه، ولم يستطع هدايتهم مع أنه أخذ بأسباب حمل الدعوة على وجهها، فربطُ العمل بنتيجته (الحكم عليه بالصحة والخطأ بالربط بنتيجته) خطأ كبير!

مع أن الجدية تقتضي أن يسعى المؤمن لإيجاد النتيجة قدر المستطاع، وأن ينظر في إحسان إتيانه بالأسباب المفضية لها، لكن عليه أن يدرس: أي الأعمال لا يملك هو نتيجتها، مثل الهداية، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة ٢٧٢]، ومثل النصر: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران ١٢٦]، فإذا ما قام بالعمل على وجهه فما عليه إلا انتظار النتيجة، أو انتظار الأجر من الله، ولا ينحرف عن العمل إذا لم تتحقق نتيجته بصورة يتصورها الذي يقوم بالعمل، فيقول: لم تقم الدولة، فعلي أن أغير طريقتي! (وهذا موضوع مختلف عن دوام المحاسبة واتهام النفس بالتقصير، هذا الموضوع تحديدا أن تقوم بالأعمال السببية على وجهها، ثم حين لا تحصل النتيجة المرجوة، تستبدل الأعمال السببية بغيرها)، فنحن مأمورون بالعمل اقتداء بفعل الرسول ﷺ على وجهه، وأن نأخذ بأسباب ذلك العمل نفسه، وإقحام النصر في العمل يتم بأن نضع النصر أو النتيجة بعلاقة سببية مع العمل نفسه، هنا الخطر، فالأخذ بأسباب العمل تدرس في ضوء ما هو العمل الذي أمرك به، فإن قمت بهذه الأسباب، فقد أوجدت العمل في الواقع، أي قمت بحمل الدعوة، قمت بالكفاح السياسي، بالصراع الفكري، هذه الأعمال لها أسبابها التي توجدها في الواقع، لذلك، يخلط من لا يفرق بين الأخذ بأسباب الأعمال التي كلفنا بها، وبين نتائجها، فالأخذ بأسباب الأعمال والقيام بها على وجهها، ليس بالضرورة سببية لنتائجها.

ويلاحظ هنا أن التكليف -وهو حمل الدعوة-، له أسباب توجده في الواقع، نعلم منها أن من قام به استفرغ وسعه أو لم يستفرغه، كأن يكون مقصراً، هل استعمل الوسائل والأساليب استعمالا موفقا مستغلا إياها بما يخدم دعوته؟ هل اختار الفكر الصحيح ذا العلاقة في ظرف زماني ومكاني سليم، بعيد عن التعقيد، فأحسن التبليغ، وحاول إزالة المعوقات عند الطرف المقابل والإجابة على تساؤلاته بشكل مقنع؟ فهذه كلها مما يمكن وصفها بأنها من أسباب إحسان التبليغ والشروط والعوامل اللازمة لإنجاحه، ولكنها مع ذلك، قد لا تحدث النتيجة فلا تتغير قناعات المخاطَب!

وبالمثل، فقد كلفك الشارع بأعمال من شأنها أن توجد الدولة في الواقع، كالتثقيف، والصراع الفكري، والكفاح السياسي، ومحاسبة الحكام، وضرب العلاقات بين الأمة وبين حكام الضرار، وضرب علاقات الأمة القائمة على غير الإسلام، والكشف، وتبني مصالح الأمة، وكشف مخططات الاستعمار، وطلب النصرة، فلكل عمل من هذه الأعمال أسبابه التي تجعله قائماً في الواقع، فالصراع الفكري لا يوجد في الواقع إلا إذا قمت بدراسة الأفكار المغلوطة أو المضللة وبنقضها، وبطرح البديل عنها في المجتمع، وبخوض غمرات الصراع بوسائل ترجح قدرتها على إنجاح الصراع، والغاية منه ضرب الأفكار المضللة، وتبني الأفكار الصحيحة مكانها، فهذا هو القيام بأسباب هذا العمل، لكن نتيجته ليست من ضمن التكليف، شأنها شأن الهداية، وقد خاضه الرسول ﷺ في مكة،

ولم يؤت ثمرته إلا في المدينة! فالقيام بهذه الأعمال على وجهها واتخاذ أسباب نجاحها وإيجادها هي في الواقع (لا نتحدث عن إيجاد نتائجها)، يجب أن يتم كي نقع في مظنة نصرة الله التي هي شرط كي ينصرنا الله.

فالنصر بيد الله، وليس بمسبب عن الأعمال التي قام بها على وجهها، لأن الله تعالى، ترك أمر النصر بيده، ولم يعطك مفاتحه، فلا يحاسبك على تأخره أو تقدمه، فالأخذ بأسباب العمل تدرس في ضوء ما هو العمل الذي أمرك به، فإن قمت بهذه الأسباب، فقد أوجدت العمل في الواقع، أي قمت بحمل الدعوة، قمت بالكفاح السياسي، بالصراع الفكري، هذه الأعمال لها أسبابها التي توجدها في الواقع، لذلك، يخلط من لا يفرق بين الأخذ بأسباب الأعمال التي كلفنا بها، وبين نتائجها، إذ إن نتائجها ليست مما وضع الله مفاتحه بيد أحد غيره، فالنصر حصرا من عند الله. فالأخذ بأسباب الأعمال والقيام بها على وجهها، ليس بالضرورة سببية لنتائجها، وبدراسة القرآن، وجدناها شروطا لا أسبابا، فإن الله تعالى قال واصفاً شديد الابتلاء والتضحيات التي قدمها حملةُ الدعوة، ومن بلغ به الحال في عمله أن مسته البأساء والضراء، وأن يزلزل وهو ثابت على الحق، فلا يمكن أن يكون عمله إلا على الوجه المرضيّ عنه، ومع ذلك، فلم يكن هذا كله سبباً في نزول النصر، بل كان عليهم سؤال الله أن ينزل نصره، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ لِيُعلمنا الله مدى شدة المحنة التي واجهت حَمَلَةَ الدعوة، ولا نقدر أن نصف هذه المحنة التي جعلت الصحابة والرسول ﷺ يقولون ﴿مَتَى نَصْرُ اللّهِ﴾، ولكن عندما ثبت الصحابة على إيمانهم وعلى عهدهم مع الله، جاء الجواب من الله ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ فإن نصر الله يتنزل على أناس استحقوا النصر. الذين يثبتون على السراء والضراء الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يَحْنون رؤوسَهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنةُ ذُروتها، فهم يتطلعون إلى نصر الله فحسب لا إلى أي حل غيره، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام ٣٤]، فهذه سنة الله لا مبدل لها، أن تثبت على الحق وتصبر وتنتظر حتى يأتي نصر الله، هل لاحظت ﴿حتى﴾؟ لم يملكوا أن ينزلوا النصر مع أخذهم بأسباب عملهم الذي كلفوا به، لم يكن نزول النصر كإشعال النار في الهشيم، بمجرد أن توجد شروطه الأربعة، وتزول العوائق، تشتعل النار ذاتيا استجابة للسنة الكونية التي قدرها الله في النار، بل الله خص نفسه بالنصر، وبالتمكين، وبالسلطان يؤتيه من يشاء، فهو مالك الملك.

"ولدينا دليل على أنه لا يشترط تحقق النصر فوراً على تحقيق شروطه، بل يمكن أن يتراخى النصر عن شروطه، مع وجود وتحقق انتفاء موانعه، ولكنه سيتحقق لا محالة، إذ إن الله تعالى قال ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ فالقريب هو ما تأكد استحقاقه ولما يقع بعد، وكذلك في قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَ هُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف

١١٠]، فوقع النصر بعد الاستيئاس، والاستيئاس لا يقع إلا بعد تحقق الأسباب، وانتظار النتيجة، بل وطول انتظار النتيجة."[١٦٥]

فربط الأسباب بالمسببات هو تهيئة ما يلزم لإيجاد شيء، كإشعال النار يستلزم الأخذ بأسباب تشعل النار، أمر بالإعداد ما استطعتم من قوة في القتال، فأسبابه أن تنظر في القوة المحققة للرهبة وفقا للاستطاعة، فإن فعلتها أخذت بالأسباب المطلوبة منك، لكنه لم يأمرك بتحقيق الانتصار في المعركة فيحاسبك على الهزيمة!

وبالمثل نتيجة الدعوة بحصول النصر، فالأسباب التي نتخذها في الدعوة واجبة علينا، وليست هي الأسباب التي تفعل الطاقة السببية في النصر فتجلبه، إذ إن الفاعل فيه هو الله، ولا ندري سببه الذي ينزله، ولكننا مطالبون بالعمل ومطالبون بالأخذ بأسباب العمل نفسه، مطالبون بإبراء الذمة بإحسان العمل، ومؤاخذون على التقصير في إحسان العمل.

لذلك فالفاعل في إنتاج المُسَبَّبِ إن كان الله تعالى، مثل الإماتة، والإحياء، والرزق، والنصر فإن تفعيل الطاقة السببية من قبل الإنسان ضروري للوقوع في مَظنة السببية في إحسان العمل، وفي بلوغ غايته من القيام بالواجبات وإرضاء الله تعالى وإبراء الذمة، وليس هو السبب في قضاء الله بوقوع النصر، ويوقع الله تعالى النصر متى شاء وعلى الصورة التي يشاء، فقد يوقعه بصورة تكون امتدادا للفعل السببي، كأن ينصر الدعوة والنبي معا، فيستخلف النبي والمسلمين ويمكن للدين، ويؤمّنَ المسلمين، وقد يوقعه -سبحانه وتعالى- بصورة لا تكون امتدادا للفعل السببي، أي عمل الأنبياء على تحكيم شرائعهم وكتبهم، وقيام الناس بالقسط، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [٢٥ الحديد]، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة ٢١٣]، فلا تكون صورة النصر تحكيم الكتب والشرائع ليقوم الناس بالقسط، بل تكون بصورة إهلاك عدوهم الذي رفض كل الرفض أن يؤمن ويتبع الرسل ويقيم ميزان العدل والقسط، مما يدل على أن قيام الأنبياء بالفعل السببي وهو الدعوة وغايتها: تحكيم الكتب، وإقامة ميزان العدل، لم ينتج عنه المسبب (وهو غايته)، بل نتج عنه نصر من الله بإهلاك عدوهم، ونصر الأنبياء والذين آمنوا وعد من الله، يحققه كيف شاء سبحانه وتعالى.

فقد تلقح النطفة البويضة ولا يأذن الله تعالى بتكوّن الجنين، وقد يصاب الشخص برصاصات كثيرة في صدره ولا يموت، وقد تنتصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة، رغم مخالفة هذا للسنن التاريخية، وموافقته للسنن الإلهية وقد يقوم الرسول بكل ما طلب منه في الدعوة والثبات عليها ويأتيه النصر بعد حين، لا لتأخره في القيام بأسبابها، ولكن لأن الفاعل هو الله، فالرسول مطالب بأفعال ومطالب بالأخذ بأسبابها، وإحسان العمل، ولكن الفاعلية التي تنتج المسبب ليست هي نتاج الأسباب التي يقوم بها الرسول، والنتائج المترتبة على فعل الرسول والذين آمنوا معه هي مرضاة الله والقيام بما أمروا به على وجهه، وأبسط مثال للتدليل على ذلك دعوة نوح عليه السلام، فلا يقال بأنه لم يأخذ بالأسباب، ولا بأن أخذه بالأسباب لم يفضِ لنتيجة، بل بلغ مرتبة أولي العزم من

---

[١٦٥] من بحث بعنوان: مفهوم النصر، أعده بعض الشباب، بتصرف.

الرسل، وأرضى ربه سبحانه وتعالى، فحققت أعماله السببية مسبباتها، واستجلبت له نصر الله بمحق عدوه وإغراقهم.

لذلك كان النصر جراء تحقيق الشرط، لا جراء القيام بالأسباب، مع أن القيام بالأسباب واجب، والقيام بالمشروط واجب، وقد نسب الله الفاعلية في النصر لنفسه، ولم يربطها بأسباب معينة، والسبب فيها لا يمكن إدراكه بالعقل، **فالنصر إذن مثل القضاء بيد الله تعالى ينزله متى شاء، على من شاء**، في المكان الذي يشاء، ومن كرمه تعالى أن جعله حقا على ذاته العلية، يؤيد به الأنبياء والمرسلين والمؤمنين في الدنيا والآخرة.

على أنه يوجد فرق بين القضاء وبين النصر، فالنصر نتيجة مرتبطة، مشروطة بأعمال معينة، مطلوبة، منصوص عليها، مأمور بها، نحاسب على التقصير في القيام بها، وليس القضاء من هذا الباب.

والله أعلم.

## النصر والتمكين والاستخلاف متى؟

لو وضعنا المسألة في إطار الصراع، والتدافع بين الحق والباطل، والذي يفضي إلى نتيجة انتصار الحق على الباطل، ووراثة أهل الحق للأرض واستخلافهم فيها، فإننا نجد الترتيب التالي للأحداث: عمل وصراع (قذف بالحق على الباطل)، فاندماغ، فانتصار للحق، فاستخلاف ووراثة وتمكين فأمن، فنزول نصر الله تعالى، فإن لنا أن نجعل النصر مترافقا للمراحل السابقة له، فنصر تم بتحقيق الاستخلاف، ونصر تم بتحقق التمكين، ونصر بتأمين المسلمين، وأخيرا: نصر الله تعالى الذي يتضمن تحقق كل ذلك، فالنصر المرحلي الذي يقع على أجزاء من العمل وأثناءه يكون توطئة لنصر الله، بل إن الثبات على الحق مع شدة صولة الباطل هو نصر بحد ذاته، فلا يستطيع الباطل قهر الحق ورجاله، ولا إرغامهم على باطله، فهذا الثبات انتصار، لذلك ينبغي تجلية مفهوم النصر وصوره، ومعانيه، وفهم طبيعة الصراع بين الحق والباطل، أين وصلنا فيه في عملية القذف بالحق على الباطل، وتهيئة الدين ليتحقق تمكينه، بعملية التصفية والتنقية والبلورة، وبعملية الصراع الفكري بين الحق والباطل لدمغ الباطل وقهره، وإحلال الحق مكانه، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء ١٨].

## أولا: أيات حصرت النصر بيد الله:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال ١٠]، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران ١٢٦]، ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران ١٦٠] ﴿أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور﴾ [٢٠ الملك]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [١٠٧ البقرة]،

### ثانيا: آيات تبين أنه حق على الله أن ينصر من ينصره، وأن ينصر المؤمنين:

﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم ٤٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧ محمد]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات ١٧١-١٧٣][١٦٦]

### ثالثا: آيات تبين بعض سنن النصر وشروطه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد ٧]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ **مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا** حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢١٤]، ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَ هُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف ١١٠]، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ **فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام ٣٤][١٦٧]،

### وقت النصر: النصر قد يكون دنيوياً وقد يكون أخروياً:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ ينصَرَهُ الله **في الدنيا والآخرة** فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إلى السماء، ثمَّ لْيَقْطَعْ، فَلْيَنْظُرْ هل يُذْهِبَنَّ كيدُهُ ما يَغيظُ﴾ [الحج ١٥]، ويكون النصر في الدنيا بإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، ويكون في الآخرة بإعلاء الدرجة والمنزلة في الجنة، ويكون بمعاقبة أعدائه والانتقام منهم، **أو بصورة لا نعلمها، يعلمها الله**، ومثال ذلك أن الله تعالى يرزق الشهيد بعد استشهاده، ولا نعلم كيفية ذلك، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا، بل أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران ١٦٩]، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ [غافر ٥١].

إن الله جلّت قدرته قد ينصر أنبياءه ورسله في حياتهم كحال معظم الأنبياء والرسل، وقد ينصرهم بعد وفاتهم كما حصل مع عيسى عليه السلام، فقد انتصرت شريعته بعد أن رفعه الله إليه، وكذلك الحال مع حملة الدعوة، فربما نصرهم الله مباشرة، وربما نصرهم بتسخير آخرين لنصرتهم، وربما نصرهم في حياتهم، وربما نصر دعوتهم بعد موت الرواد منهم، وهكذا، ولا يصح القول أو الادعاء باقتصار نزول النصر على حملة الدعوة بواحدة بالذات من هذه الأحوال، ونفي ما سواها، لايصح هذا القول وهذا الادعاء ولا يجوز، لأن تخصيص نصر حملة الدعوة بأي منها تخصيص دون مخصّص، وهو تشريع عقلي وليس تشريعاً شرعياً، فليحذر حامل الدعوة من مخالفة هذا الحكم الشرعي، والأخذ بالهوى في اختيار حالة معينة دون غيرها واستبعاد ما سواها، وليعلم أن

---

[١٦٦] وجاء في تفسير الزمخشري في تفسير هذه الآية، والمراد الوعد بعلوهم على عدوهم في ملاحم القتال في الدنيا وكذلك علوهم عليهم في الآخرة. تفسير الزمخشري ٤/٦٧.

[١٦٧] وجاء في تفسير ابن كثير (لا مبدل لكلمات الله) أي التي كتبها في الدنيا والآخرة بالنصر لعباده المؤمنين

النصر من عند الله ينزله على المؤمنين إن هم نصروه بالطاعة والالتزام والتقيد بعيداً عن اتباع الهوى والتشريعات العقلية.[١٦٨]

وقال الإمام السدّي "لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلونهم فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك في الدنيا، ثم قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها"[١٦٩].. ومعنى ذلك أن الغلبة للمؤمنين وإن قوتلوا وعُذبوا.

## معاني النصر:

هذه المعاني كما قررها علماء اللغة مثل: أبو هلال العسكري (كتاب: الفروق اللغوية)، الراغب الأصفهاني (مفردات القرآن)، الرازي، وغيرهم.

الأول: النصر بمعنى: المنع، قال تعالى: ﴿ولا يُؤْخذُ منها عَدْلٌ ولا هُمْ يُنْصَرونَ﴾ [البقرة ٤٨]،

ويعني: ولا هُم يمنعون من العذاب، ويقابل ذلك إثبات النصرة للمؤمنين، وهي النجاة من العذاب.

الثاني: النصر بمعنى: العون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد ٧]. فنصرة العبد لله هو نصرته لعباده والقيام بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب (مناهيه)، ويترتب على هذا الجهد من العبد نصر الله وهو عونه لعبده، وكذلك قوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج ٤٠]. وذهب أبو هلال العسكري إلى أنَّ هناك فرقاً بين النصرة والإعانة: وذلك "أَنَّ النصرة لا تكون إلا على المنازع المغالب والخصم المناوئ المشاغب، والإعانة تكون على ذلك وعلى غيره، يقول: أَعانه على من غالبه، ونازعه، ونصر عليه، وأعانه على فقره: إذا أعطاه ما يعينه، وأعانه على الأحمال، ولا يقال: نصره على ذلك، فالإعانة عامة والنصرة خاصة".

الوجه الثالث: النصر بمعنى: الظفر، [والظهور، والغلبة]، وذلك قوله: ﴿وما النَّصرُ إلاّ منْ عِندِ اللهِ﴾ [آل عمران ١٢٦]، [الأنفال ١٠]، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف ١٩٢]، أي لا يستطيعون تحقيق الغلبة والظفر لا بقواهم الذاتية لغلبة العدو، ولا نصرة غيرهم وإعانته بقوة للتغلب على عدوهما، وقد خص القرآن النصر بأنه من عند الله لكي يكون توكلهم على الله لا على الملائكة الذين وعدهم الله بإمدادهم بها.

والوجه الرابع: النصر بمعنى: الانتقام، وذلك قوله: ﴿ولو شاء الله لانتصر منهم﴾ [محمد ٤]، "﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ هذا القول هو عن النصر العام للدعوة بإهلاك الأقوام الكافرين وتدميرهم كأقوام سيدنا نوح ولوط وصالح، ولكن هذا لا ينطبق على دعوة سيدنا محمد ﷺ ولا على دعوتنا، لأن دعوة محمد كانت لإقامة دولة وكذلك نحن، فالنصر يكون بظهور الدعوة وإقامة الدولة، وليس بإهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين، فقد ورد في نهاية الآية قول الله: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، فهذا الجزء

---

[١٦٨] (حامل الدعوة واجبات وصفات لأبي إياس محمود عويضة)

[١٦٩] ابن كثير-٨٣/٤/٨٤

يوضح معنى ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، أي يبين معنى نصر الله للرسل بأن ينجي الله المؤمنين ويهلك الظالمين، فالفاء في ﴿فَنُجِّيَ﴾ هي للتفريع وتوضيح معنى النصر. ولكن ليس هذا هو النصر الذي نطلبه نحن في دعوتنا بإهلاك وتدمير قومنا. ولذلك فهذه الآية لا علاقة لها بنصرة الدعوة لإقامة الدولة، علاوة على أن إهلاك الظالمين جميعا نسخه الله ببعثة سيدنا محمد ﷺ، فلا إهلاك عام للأقوام المكذبين في زمن النبي عليه السلام ولا الأزمان التي بعده"[١٧٠].

ولأن القرآن الكريم استعمل النصر بكل هذه المعاني، فإن هذا يعني أنه لا يوجد للنصر معنى شرعي خاص، وليس له معنى عرفي أيضا، وإنما يستعمل بمعانيه اللغوية.

## وجوه حصول النصر:

باستعراض قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن نجد أن نصر الله لهم له ثلاثة أوجه: إما نصر النبي نفسه على قومه ومعارضيه ومعانديه، وإما نصر الدعوة أو الفكرة التي حملها النبي والرسول، وإما نصر النبي ونصر الدعوة معاً.

فنبي الله نوح، ونبي الله هود، ونبي الله صالح، ونبي الله شعيب، ونبي الله لوط قد نصرهم الله على أقوامهم بأن أهلك أقوامهم ودمّرهم بأصناف شتى من العذاب والتدمير، وهذا النصر هو الوجه الأول، أي هو نصر النبي نفسه على قومه. ونبي الله يونس ونبي الله موسى قد نصر الله فكرتهما ودعوتهما، فآمن قوم يونس، وآمن بنو إسرائيل، وهذا النصر هو الوجه الثاني. ونبي الله محمد ﷺ قد نصره الله على أعدائه من قرشيين ويهود وسائر العرب في الجزيرة ومن حولهم، ونصر الله فكرته ودعوته ودينه فآمن العرب وغير العرب بدين الإسلام، وهذا النصر هو الوجه الثالث. فالله سبحانه إما أن ينصر نبيه، وإما أن ينصر شريعة نبيه، وإما أن ينصر النبي وشريعته معاً، وهذه مسألة واضحة لا تحتاج إلى إيراد الآيات الكثيرة الدالة عليها.[١٧١]

وإما أن ينصر الله النبي وحملة الدعوة بنفسه أي يباشر النصر بنفسه سبحانه وتعالى، أو يهيئ لهم من ينصرهم من عباده (الأنصار مثلا): ففي سورة [الأنبياء ٧٦-٧٧] ﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ۝ ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين﴾.

وفي سورة [الأعراف ١٥٧]: ﴿...فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾، فنصرهم للدعوة تسخير لهم لإجراء السنة الإلهية على أيديهم، وليسوا هم من يملك مباشرة فعل النصر إذ إنه بنص القرآن محصور بيد الله تعالى وحده.

## هل يملك المؤمنون أسباب النصر أم شروطه؟

هل يستطيع المسلمون إنزال النصر متى شاءوا وكيف شاءوا بأن يأتوا بأسباب هذا النصر، أم إن الأمر غير ذلك، فلا يملك المسلمون تقدير وقت نزوله، ولا كيفية هذا النزول مهما فعلوا ومهما حاولوا، وإنما يملكون

---

[١٧٠] عن مقالة بعنوان: نظرة في تعريف ومعنى النصر ومعنى نصرة الله للمسلمين، للأستاذ يوسف الساريسي.

[١٧١] (حامل الدعوة، واجبات وصفات لأبي إياس محمود عويضة)

فحسب تحقيق الشروط الواجبة واللازمة عليهم حتى يكرمهم بنصره في الوقت والكيفية اللذين يقدرهما هو سبحانه؟

إن المدقق في آيات الله المتعلقة بالنصر يستنبط منها أن النصر كالرزق وكالقضاء، وأن النصر كأمر الرزق بيد الله وحده، وأن قضاء الله ونصره بيد الله وليس بيد الناس، حتى ولو كانوا أنبياء ورسلاً، فكما أن الرزق قضاء، وكما أن الأعمار قضاء، وكما أن نزول الغيث قضاء، فكذلك نزول النصر "نوع من القضاء"، والقضاء بيد الله وحده وليس بيد أحد من خلقه، فكما أن الإنسان لا يملك تحديد رزقه وقتاً وكمية، ولا يملك تقدير عمره طولاً وقصراً، ولا يملك إنزال الغيث وقتاً وكمية، فكذلك النصر لا يملك أحد إنزاله توقيتاً ومقداراً، وإنما كل ذلك قضاء، وحيث إن النصر قضاء كسائر ما قضى ويقضي الله **فإن أحداً لا يملك أسبابه التي تنتجه فلا يتخلف**، ولو كان النصر في مقدور أحد صنعه بالإتيان بأسبابه التي تنتجه فلا يتخلف، لصنعه الأنبياء والرسل، ولأنزلوه فور حاجتهم إليه، وما دام الأنبياء والرسل لا يملكون أسباب النصر فإن من سواهم من المؤمنين لا يملكونه قطعاً، قال تعالى في سورة [القمر ١٠]: ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصِر﴾، فلو كان النصر في مقدور نبي الله نوح يأتي به متى شاء لما قال ما قال، وقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾

فلو كان النصر في مقدور رسول الله الكريم ﷺ وفي مقدور صحابته لما قالوا ما قالوا، وقال ﷻ في سورة يوسف: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلو كان صنع النصر مقدوراً عليه من قبل الرسل لما يئسوا ولما ظنوا أنهم كُذِبوا دون أن يتمكنوا من فعل أي شيء، إذ "المستيئس" المكذَّب لا يصنع نصراً، ولهذا جاء القول. جاءهم نصرنا. فمن ادّعى أنه يملك أسباب النصر فليأتنا بالبينة الشرعية، أو البينة الكونية على ادعائه. إن قوله تعالى في سورة محمد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ليس دليلاً على دعوى تملك الأسباب، ثم إن الرسول الكريم ﷺ لو كان يملك أسباب إنزال النصر لأنزله في معركة أحد لشدة حاجته إليه، ولأنزله في معركة الخندق عندما ضُيّق عليه الحصار فزُلزل المؤمنون وظنّوا بالله الظنون، يقول تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ۝ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾، ولولا أن الله سبحانه قد أرسل على الأحزاب الريح وقذف في قلوبهم الرعب ففروا لا يلوون على شيء لما ملك المسلمون من أمرهم شيئاً، فالحق الذي لا مراء فيه، والصواب الذي لا ينبغي العدول عنه هو أن النصر قضاء، وأنه بيد الله وحده تماماً كالرزق والأعمار ونزول الغيث. وقضاء الله بالنصر للمؤمنين لا يقضيه الله كيفما اتفق، وحاشا لله أن يكون كذلك، وإنما اشترط رب العزة على المؤمنين كي ينزل نصره عليهم أن ينصروه بمعنى أن يلتزموا أحكام دينه ويطيعوه في كل ما أمر، فإن حقق المسلمون هذا الشرط الذي شرطه الله عليهم أنزل نصره عليهم، وإلا خذلهم الله وحجب نصره عنهم، إلا أن يشاء ويتلطف بهم، ولم يعد في مقدورهم نوال النصر لا

بأنفسهم ولا بنصرة آخرين لهم، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وإذن فإن المسلمين حتى ينزل الله نصره عليهم يجب عليهم أن يحققوا الشرط اللازم لنزول هذا النصر، فإن تحقق الشرط تحقق وعد الله بالنصر، وعلى هذا يجب حمل قوله تعالى في سورة محمد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ فإن الله سبحانه حتى ينصرنا قد اشترط علينا أن ننصره، فإن نصرناه نصرنا، وإن لم ننصره فالأمر له سبحانه إن شاء خذلنا وحجب نصره عنا، وإن شاء نصرنا، وذلك أن حرف ﴿إِنْ﴾ حرف شرط كما هو معلوم لغة، فقوله: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ معناه يشترط عليكم أن تنصروا الله، هذا هو معنى الآية، لكن كما سيأتي فإن مفهوم المخالفة فيها يعطل، وهذا ما سنبينه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

## دراسة الشرط في قوله تعالى ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾

قبل قراءة هذا الفصل الهام، يجب التذكير بأننا قد **أصَّلنا للمفاهيم التي اتكأ عليها** بدقة متناهية **في فصلين هما: السبب اللغوي والسبب الأصولي والسبب الشرعي والسبب العقلي وأسباب العادة، وفصل: الشرط اللغوي، والشرط الشرعي، والشرط العقلي، والشرط العادي**، فينبغي مراجعتهما للضرورة، وقد وجدنا بالبحث الدقيق فيهما:

**أولا:** أن السبب العقلي يجب أن ينتج المُسَبَّبَ ضرورةً، وحتماً، وفورَ وجودِ السَّبب، فإذا تراخى زمن وجود المُسَبَّبِ عن زمن وجود السبب، فالعلاقة ليست سببية عقلية.

**ثانيا:** ووجدنا كذلك أنَّ المُسَبَّبَ في السبب العقلي لا ينتج إلا عن سببه فقط، فإذا ما أمكن إنتاج المُسَبَّبِ عن أكثر من سببٍ، لم تكن العلاقة سببيةً عقليةً، بل كانت **شرطا لغوياً** **ينزل منزل السبب**، ويختلف عنه بإمكان أن ينتج المُسَبَّبُ فوراً، أو أن يتراخى عن زمن وجود السبب،

**ثالثا**: كما أنه إذا كان بالإمكان إنتاج المُسَبَّبِ من دون السَّبب نفسه، فإن العلاقة شرطية إذا كان الارتباط الشرطي فيها سببياً، ولكن مفهوم المخالفة فيها يمكن تعطيله، أو إذا كانت العلاقة شرطية لكن الارتباط فيها غير سببي، ففي هذه الحالات تكون العلاقة شرطية ولا تكون سببا عقليا.

**رابعا**: ووجدنا أنه إذا لزم من عدم الشرط عدم المشروط، ولزم من وجود الشرط وجود المشروط، لذات الشرط، فإن الشرط هنا شرط لغوي، وليس بالشرط الاصطلاحي، فلا هو بالشرط الشرعي، ولا بالشرط العقلي، ولا بشرط العادة، لأن الشرط الاصطلاحي يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته،

**خامسا**: كذلك فإنه إذا أمكن أن يعمل الشرط في حال العدم، وفي حال الوجود فهو شرط لغوي وليس بالاصطلاحي، كأن يعطي الرجل طليقته نفقة وهي ليست من أولات الحمل، مع أن الآية فرضت النفقة على أولات الحمل، فوجد المشروط مع انعدام الشرط في هذه الحالة، فهو شرط لغوي أمكن تعطيل مفهوم المخالفة فيه، ولم يتوقف وقوع المشروط على وقوع الشرط فيه.

**سادسا:** كذلك، فإننا بتتبع الحوادث التاريخية، نجد أنه ليس من شرط نزول نصر الله تعالى على المؤمنين أن يكونوا معصومين عن الخطأ حتى يستوجبوا استحقاق النصر، فلما حجب الله تعالى عن رسوله وعن المؤمنين

النصر في أحد، مع أن الذين خالفوا عن أمر رسول الله ﷺ قلة معدودة، مقابل جيشه الذي ثبت وصابر وأطاع، فإن هذا يدل على أن العلاقة شرطية وليست سببية عقلية، فمتى ما شاء الله نصر، ومتى ما شاء أخر النصر عن المؤمنين، ونقيض ذلك الفهم: إخلاف الوعد بالنصر، لكن الله تعالى قال، وقوله حق: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فالنصر استحقاق أوجبه الله على نفسه، فلا يمكن أن تفهم آية ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ بمعنى السببية العقلية فيتخلف الوعد متى ما وجدت أسبابه -حاش لله-.

**سابعا:** كذلك بدراسة دعوات الرسل والأنبياء، والذين وعد الله بنصرتهم، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ [غافر ٥١]، نجد أن الفعل السببي (وهو الدعوة والصراع بين الحق والباطل) لم ينتج عنه دائما انتصار الدعوة وتمكينها، أي لم يكن النصر على صورة امتداد للفعل السببي، بأن يؤمن الأقوام بالحق، وينزلوا على حكم الشرائع والكتب التي جاء بها الأنبياء والرسل، مع أن الرسل والأنبياء قد بذلوا غاية الوسع طوال حيواتهم، أي أخذوا بأكمل الأسباب وأتمها، بل نزل النصر أحياناً بصورة إهلاك العدو، مما يدل على أنه ليس سبباً عقلياً، بل نتج المسبب (وهو النصر) نتاج أسباب متعددة، فإهلاك قوم نوح وهود وصالح على سبيل المثال كان المشروط، وهو النصر على صورة إهلاك الأقوام، وليس نتاج فعل الدعوة السببي، وسيدنا محمد ﷺ نصره الله نصراً كان امتدادا للأفعال السببية وعلى صورتها، فتعددت صور النصر، وكل صورة نتجت عن مُسَبَّبٍ مختلف، مما يدل على أن النصر هنا من باب الشرط اللغوي، ولذلك فالقول الحق هو أن النصر في هذه الحالة ليس نتاج السبب العقلي، أي لا يوجد له سبب عقلي، ولكن الشرط اللغوي فيه ينزل منزلة السبب.

وبدراسة الشرط في قوله تعالى ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ وجدنا[١٧٢] أنها من الشرط اللغوي، حيث إن التعليق فيها جاء بصيغة ﴿إِنْ﴾ وهي من أدوات الشرط، والتي وردت في أصول الفقه في مخصصات العموم؛ كقوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾، فقد يكون الزوج كريماً فينفق عليها إذ يطلقها وإن لم تكن ذات حمل، فليس للشرط هنا مفهوم مخالفة، فالربط هنا لغوي لفظي بمشروطه، على طريقة واضع اللغة في الفهم والمعنى، فيدل هذا التركيب على أنّ ما دخلت عليه أداة الشرط هو الشرط، والمعلَّق عليه هو الجزاء،

ومثال ذلك ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ فقد ينصر الله المؤمنين لأمر آخر، لا لأنهم نصروه، بل انتصارا لدينه مثلا، فهنا شرط لغوي جاء التعليق فيه بصيغة ﴿إِنْ﴾ وهي من أدوات الشرط، وللشرط هنا مفهوم مخالفة، لكنه يُعَطَّلُ لأنه لا يوجد مفهوم شرعي ينص على (إن لم تنصروا الله فلن ينصركم) لا يوجد وعيد كهذا في القرآن، إنما هناك وعد: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، إن هنا شرطية، ولها مفهوم مخالفة، ولكن كون هذه الآية متعلقة بالإيمان ومتعلقة بفعل الله سبحانه وتعالى على الحقيقة، أي أن يُنزل اللهُ النصرَ فإن مفهوم المخالفة يعطل هنا، لأنه لا يجوز أن ينفعل الله جل وعلا بالأعمال السببية، (تذكَّر أن المسبب ينتج ضرورة وحتما وفورا حين تحقق وجود السبب العقلي وتعاونه مع الشروط وانتفاء الموانع، ولكن هنا الطرف الذي يقوم بالنتيجة أي النصر، هو الله سبحانه وتعالى على الحقيقة، ولا يجوز في حقه سبحانه وتعالى أن يكون منفعلا بالأسباب، مضطرا للقيام بالنتائج، فهذا يتنافى مع الألوهية، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لذلك فالسبب هنا ليس سبباً عقلياً قطعاً وقولاً

---

[١٧٢] الشرط لغةً وإصطلاحاً، والفرق بين الشرط والسبب، مشروع التخرج للأستاذ عبد الحميد الشرباتي في أصول الفقه.

واحداً) ولأن السبب هنا (أي الشرط اللغوي الذي نزل منزل السبب) ليس سبباً مباشراً للنصر ينزل النصر تلقائيا حين وجوده، بل هو سبب في تحصيل مَظِنَّةِ النصر من الله، وبذلك نكون قد أعملنا الشرط من حيث المنطوق، أي إذا نصر المسلمونَ اللهَ، فاللهُ ناصرُهم قطعاً وحتماً تحقيقاً لوعده لهم، لكن كيف ينصر ومتى ينصر هذا متعلق بالله عز وجل، يفعله متى شاء.

أما بالنسبة لتعطيل مفهوم المخالفة، فإن مفهوم المخالفة في الشرط اللغوي يختلف عن السَّبب، إذ إنه من الصحيح أن الشرط اللغوي يعمل عمل السبب الاصطلاحي من حيث الوجود ومن حيث العدم، لكن الفرق بينهما يأتي من حيث العدم، ففي السبب العقلي لا ينتج المُسبَّب إلا عن سببه، وأما في الشرط اللغوي الذي ينزل منزلة السبب فإن المُسبَّب قد ينتج عن سبب آخر، وقد عطَّلنا مفهوم المخالفة في هذه الآية لأن مفهوم المخالفة يقتضي أننا لو لم ننصر الله سبحانه فإنه لن ينصرنا نهائياً، وإن لم نمتلك الطاقة السَّبَبِيَّة الكافية ونعطل كل المعوقات، ونتعاون مع كل الشروط فإن النصر لن يأتينا نهائياً، وعمل سببي كهذا بالغ الصعوبة، بالغ المشقة، وقد يصعب أو يستحيل تحقيقه في الواقع، لذلك من رحمة الله تعالى أن مفهوم المخالفة هنا يُعطَّل، لأنه لا يوجد نص شرعي يقول لن ينصركم الله إن لم تنصروه، فقد ينصر الله سبحانه المسلمين لأمر آخر، وأيضا: المُسَبَّب لا ينتج إلا عن سببه فقط في السببيةالعقلية، لكن هنا أمكن وجود عدة أسباب أنتجت نفس المُسَبَّب، مثلا: الزاني المحصن، والمرتد عن دينه، والقاتل عقوبتهم جميعا نفسها القتل، فالقتل مُسَبَّبٌ عن هذه الأسباب المختلفة، وفقا للشروط الشرعية، فهو ليس بسبب عقلي، لذلك من الخطأ معاملة الأسباب في الشرع كأسباب عقلية فقط، بل لقد استعمل الشرع أنواع الشروط كلها وأنواع الأسباب كلها، ولم يقتصر على العقلية فقط.

والربط هنا لغوي لفظي بمشروطه، على طريقة واضع اللغة في الفهم والمعنى، فيدل هذا التركيب على أنّ ما دخلت عليه أداة الشرط هو الشرط، والمعلَّق عليه هو الجزاء، فإذا ما حصل الشرط ونَصَرَ المؤمنونَ ربَّهُم سبحانه، فإنه حتماً سيقوم بنصرتهم متى شاء، وبالكيفية التي شاء (لأنها ليست سببية عقلية تنتج فور تحقق سببها)، وحيث إنه يوجد لها مفهوم مخالفة، (قلنا بوجوب تعطيله) فيمكن أيضا أن ينصر الله المؤمنين لأمر آخر من تدبيره وشأنه جل وعلا، فقد عمل عمل السبب الاصطلاحي في حال وجوده، أي في حال تحقيق الشرط من قبل المؤمنين، لكن من حيث العدم قد يوجد النصر (المُسَبَّب) بدون وجود شرطه وهو: أن ينصرَ المؤمنونَ ربَّهم، في حالة أخرى من الحالات، ومثال ذلك كما في قول الأب لابنه "إن تنجح تنل جائزة" فإنه سيكون كاذباً إن لم يعطه الجائزة حين وجود النجاح، ولكن ليس بالضرورة أن يعطيها فور تحقق النجاح، وقد لا ينجح الابن، ولكن الأب يعطيه جائزة لتشجيعه مثلا أو لرفع معنوياته، وهذا من الفروقات بين السبب العقلي وبين الشرط اللغوي، حيث لا ينتج المُسَبَّب في السبب العقلي إلا عن سببه، بينما هنا قد ينتج المُسَبَّب عن سبب آخر خارج العلاقة السببية المدروسة.

وكتطبيق على ذلك وجدنا أن الله تعالى نصر نوحا عليه السلام بإهلاك قومه، ولم ينصره بهدايتهم وخضوعهم لشريعته امتدادا للفعل السببي الذي قضى نوح قرابة الألف عام وهو يقوم به على وجهه.

إذن: فعمل المسلمين والتزامهم بالأحكام الشرعية ليس هو سببا للنصر، وإنما سببٌ (أي شرط لغوي نزل منزلة السبب) لمظنة نزول النصر، فالتزامهم طاعة الله وأحكامه وشريعته، مظنة سبب في أن يرحمهم الله تعالى فينزل عليهم نصره، فالله تعالى ألزم ذاته العلية أنه وعد المؤمنين بنزول نصره إن نصروا دينه، متى ما شاء وكيفما شاء، فالنصر لا يتحقق تلقائيا، بل حتى يأذن الله بنزول نصره عليهم، وهذا واضح في الآيات وفي مجريات نزول نصر الله على المؤمنين، فقد وعد الله تعالى وعداً حقاً: ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ**﴾ [النور ٥٥]، وقد آمن الرسول ﷺ وصحابته وعملوا العمل الصالح في مكة آخذين بالأسباب لإحداث التغيير ثلاث عشرة سنة، فأذن الله تعالى بنزول النصر بالاستخلاف، ثم لبثوا في المدينة -ملتزمين إيمانهم وعمل الصالحات- ينامون وسلاحهم قريب منهم خشية هجوم مفاجئ، حتى أنزل الله عليهم الآمن بدلا من خوفهم، وكان تمام نصر الله حين أنزل الله تعالى سورة النصر بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا وتمكَّنَ الدِّينُ وتمكَّنَ الاستخلافُ وتمكَّنَ الأمنُ تماماً نحو السنة التاسعة للهجرة، فإيمانهم، وحملهم الدعوة، وعملهم الصالحات هو سببٌ، ولكنه ليس سبباً مباشراً في تحقيق النصر فوراً، ولكنه سببٌ في دخولهم في مَظِنَّةِ نزول النصر عليهم من الله تعالى على الرغم من ضعفهم وقلة حيلتهم.

ونحن نقتفي أثره ﷺ في دعوته، ولدينا وعد حق من الله تعالى بالاستخلاف والتمكين والأمن، ووعد بأن دينه سيظهر على الدين كله، ولدينا جملة من الأدلة التي تبين أن سنة إهلاك الظالمين كانت فيمن سبق، مما يدل دلالة قاطعة على أن نتيجة دعوتنا النهائية ستكون تحقيق قيام الدولة إن شاء الله تعالى.

أما من حيث المفهوم، فإن تعليق نزول نصر الله تعالى بالسببية العقلية مفهومٌ ظني، ولا يجوز شرعا نسبة شيء لله سبحانه اعتقاداً عن طريق الظن، فالفاعل على الحقيقة في المنطوق هو الله سبحانه وتعالى، ألزم ذاته العلية بأن ينصرنا إن نحن نصرناه، وفي حال عدم نصرتنا له فقد ينصرنا وقد لا ينصرنا، الأمر لله سبحانه وتعالى، فالله تعالى قد يجبر تقصير المسلمين وعدم استحقاقهم التام للنصر بسبب بعض المخالفات والمعاصي والنواقص عندهم، من أجل أمرٍ آخر كتبه على نفسه وهو حفظ كتابه وحفظ أمته وإهلاك الكفرة والمجرمين بتسليط المسلمين عليهم بسبب طغيانهم وظلمهم، وليس استحقاقاً تاماً للمسلمين بأفعالهم بنصرتهم لله حق نصرته، أو نصرة لدينه، أو استجابة لدعاء، أو نصرة بالضعفاء والنساء، رحمة بهم، أو لغير ذلك. "[١٧٣]

قال تعالى ﴿لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ **وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾، وهذه الآية بعد هزيمة المسلمين في أحد، فمن تفضله على المؤمنين أن صرف المؤمنين عن الكفار، حفاظا على المؤمنين، وابتلاء لهم، وتنزيلا لعفوه عليهم، وختم الآية، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

من هنا: فإنزال الشرط الاصطلاحي (أي الشرط المتعلق بخطاب الوضع، أو السببية العقلية) على هذه الآية الكريمة هو استعمال خاطئ، مخالف قد يدخل في متاهات عقدية، فالشرط هنا لغوي، يعمل في الأحكام الشرعية

---

[١٧٣] عن مقالة بعنوان: نظرة في تعريف ومعنى النصر ومعنى نصرة الله للمسلمين، للأستاذ يوسف الساريسي

في حال وجوده وفي حال عدمه، لذلك له مفهوم مخالفة في الأحكام الشرعية، لكن مفهوم المخالفة هنا يعطل، ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ الحكم: هو وجوب الإنفاق في حال كونهن أولات حمل (يعمل الحكم في حال الوجود) وقد يعمل في حالة العدم أيضا، فيتم الإنفاق عليهن حتى وإن لم يكن أولات حمل كرماً من الرجل مثلا، فالعلاقة السببية هنا ليست سببية عقلية، فالمُسبَّب (وهو الإنفاق) قد ينتج عن سبب آخر، وهو كرم الزوج عند الطلاق، وهو ليس بواجب عليه أن ينفق عليها وهي طليقته، وهذا فرق بين السبب العقلي وبين الشرط اللغوي هنا وإن نزل منزل السبب.

فإذا تقرر أننا نستعمل هنا السببية بهذا المعنى، لا بمعنى السببية العقلية، فإن لنا أن نقول "إن نصرة الله في الآية: مجاز من الطاعة لله والتزام أمره، من باب تسمية السبب باسم المسبب، فهو مجاز مرسل علاقته المُسبَّبِيَّة، أطلق المُسَبَّب (الذي هو نصر الله للإنسان) على السَّبَب (الذي هو طاعة الإنسان لله وامتثال أمره)، [والسبب هنا لغوي بلاغي- أي شرط لغوي نزل منزلة السبب] . أطلق المسبب وأراد السبب فهو مجاز مرسل علاقته المسببية"[١٧٤].

وكما قلنا فإن نصرتنا لله سبحانه تعني تقيدنا بأوامره ونواهيه أي تقيدنا بالإسلام عقيدة وأحكاماً، والعمل بما يرضي الله، وقيامنا بنصرة الله، والتزامنا بطاعته والاجتهاد في الطاعة، فإن نحن نفذنا أوامره كلها تحقيقا للشروط رجاء ومظنة أن يتنزل نصر الله علينا وعلى الأمة نصرنا الله متى شاء، فزنا بالالتزام بأمره، ولا يجوز لنا التقصير في تنفيذ شيء منها. "ولا يكفي حملة الدعوة أن يخلصوا العمل لله ويتقيدوا بالأوامر والنواهي الشرعية دون أن يقوموا بشكل صحيح بحمل الدعوة كما حملها رسول الله ﷺ، فالعبادة -على أهميتها وضرورتها- لا تكفي، وكذلك الإخلاص لله لا يكفي، واجتناب المحرمات لا يكفي، بل لا بد معها وفوقها من توفر حسن العمل، واتباع الطرق والوسائل والأساليب المؤدية إلى بلوغ الغاية، لأن كل ذلك من الشروط الواجب توفّرها إن نحن رجونا الله سبحانه أن يكرمنا بنصره، سواء في إقامة الخلافة أو في خوض المعارك، وليعلم حملة الدعوة أن اعتبار النصر قضاء وأن له شروطاً لنزوله، **وليس هو مسبباً عن سبب أو أسباب** يجعلهم أكثر نشاطاً وأعلى همة، وأشد تمسكاً بالواجبات وتركاً للمحظورات، لأننا عندما ندرك أن نصر الله ليس بأيدينا، وإنما هو بيد الله وحده يعطيه لمن يحقق الشروط كل الشروط، فإن ذلك يجعلنا شديدي الخشية من التقصير المفضي إلى حجب النصر، سواء كان التقصير في العبادات والطاعات، أو كان في اتباع الطرق والوسائل والأساليب الصحيحة المفضية إلى بلوغ الغاية، فكل ذلك تقصير، وكل ذلك يحول دون تحقيق الشروط التي يجب توفرها قبل نزول النصر"[١٧٥].

إن الله وعد أن ينصر من ينصره، ولكنه لم يحدد فترة زمنية لتحقيق نصره، ولم يحدد نوعية نصره. فهذا رسول الله نوح عليه السلام لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يستجيبوا له. ولا أحد يتهم نوحاً بأنه كان مقصّراً في تحقيق شروط النصر. وأما نوع النصر الذي حققه الله له بعد هذه المدة فكان بإهلاك

---

[١٧٤] بتصرف عن بحث: النصر سببه الإعداد للأستاذ بلال فتحي سليم، وقد خالفنا في تصرفنا هذا فكرة البحث الأساس في كتاب الأستاذ بلال.

[١٧٥] (حامل الدعوة واجبات وصفات، لأبي إياس محمود عويضة) بتصرف.

قومه بالطوفان. إذاً لا يجوز لنا أن نتهم العاملين في الدعوة الإسلامية لمجرّد إبطاء النصر عنهم، بل نتهمهم إذا رأيناهم يخالفون شرع الله أو يقصرون في أداء ما أوجبه الله عليهم.

### من كرم الله تعالى على الأمة أن النصر غير مرتبط بأسباب

لو ارتبط النصر بأسباب، لربما لم يكن بإمكان المؤمنين الإتيان بها على الوجه الذي يفعل الطاقة السببية وينتج المسبب! فمن كرم الله تعالى أن رضي أن يجعل النصر مشروطا بأن ينصره المؤمنون، وأنه حق عليه، على الرغم من قصورهم، وضعف قدراتهم، وبشريتهم، وذلك من تمام الفضل والنعمة والرحمة بهم!

ومع ذلك، فهم مطالبون بالأخذ التام بالأسباب التي تجعل قيامهم بالعمل على الوجه المبرئ للذمة، وكما قلنا: فرق بين العمل الذي أمرهم الله بالقيام به والأخذ بأسبابه على وجهها، وفرق بين نتيجته والتي هي بيد الله تعالى غير مربوطة بعين الأسباب!

### رأي حزب التحرير في الإعداد هل هو سبب للنصر؟ وهل للنصر سبب؟

ورد في كراسة إزالة الأتربة ما نصه: "والجواب عن السؤال الأول هو أن السعي حالة من الحالات التي يأتي فيها الرزق، فقد يحصل فيها الرزق، وقد لا يحصل، فهي ظروف وأوضاع قد يحصل فيها الرزق، لا أنه يحصل حتماً، فهي أوضاع من شأنها أن ينال من يقوم بها رزقًا، وليست هي موصلة للرزق حتماً، فقد تحصل الحالة ولا يحصل الرزق، وقد يحصل الرزق من غير حصول حالة من الحالات التي يحصل فيها الرزق. فهي كالجيش في أخذ الحكم، حالة من الحالات التي يحصل فيها الحكم، ولكن قد يقوم الجيش بالإيصال إلى الحكم ولا يحصل الحكم، وقد يحصل الحكم بغير الجيش، وكاستعانة الضعيف بالقوي، حالة من الحالات التي يحصل فيها للضعيف قضاءُ حاجته، ولكن قد يستعين بالقوي ولا تقضِ حاجته، وقد تُقضى حاجته من غير استعانةٍ بقوي. وكتفوق قوة جيشٍ على جيشٍ في الحرب، حالة من الحالات التي يحصل فيها النصر، ولكن قد يحصل التفوق، ولا يحصل النصر. بل قد يحصل النصر لمن هو أقل قوة، (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) (البقرة: ٢٤٩)، وهكذا سائر الحالات، وهي أوضاع وظروف، يسعى لتوفّرها لتحقيق أمر، ولكنها إذا لم تكن أسباباً، فإنها قد تحصل، ولا يتحقق الأمر من غير حصولها، فهذه الحالات ليست هي سبب الشيء، فلا تكون هي التي جاءت بالشيء، وفعلته".

ثم جاء جواب سؤال للتوفيق بين هذا الرأي الذي في الكتاب المتبَنّى، وبين جواب سؤال بين فيه أن الإعداد سبب من أسباب النصر، فقال مجيباً: "إن آيات النصر صريحة بأن النصر من الله، وإن الناصر هو الله، فالله تعالى يقول: "إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد"، ويقول: "ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز"، ويقول مخاطباً الرسول ﷺ: "وينصركم الله نَصْراً عزيزاً"؛ فهذه الآيات وغيرها كثير تدل دلالةً صريحة على أن الله هو الذي ينصر وأن النصر إنما يأتي من الله. وكما أن الأدلة صريحة بأن النصر من الله فإن الأدلة صريحة في طلب الإعداد للقتال، فالله تعالى يقول: "وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومِن رباطِ الخيل تُرْهَبونَ به عدوَّ الله وعدوَّكم"؛ فهو أمرٌ بإعدادٍ للرُّعب، ومن باب أولى هو أمرٌ بالإعداد للقتال، كالأمر بالوضوء

أمرٌ بإحضار الماء، لأن الأمر بالشيء أمرٌ بالوسيلة التي يوجد فيها، وأيضاً فإن الرسول ﷺ قاتل الأعداء وكان يُعدُّ المحاربين ويعدُّ آتِ الحرب، وما خاض معركةً إلا وأعدَّ لها.

ومن هذا يتبين أن الإعداد للقتال واجب بصريح الأدلة، ويتبين أن النصر على الأعداء إنما يأتي من الله: "وما النصر إلا من عند الله". والسؤال الذي يرد الآن هو: هل الإعداد سبب من أسباب النصر أم حالة من حالات النصر؟

أي: هل الإعداد وتهيئة وسائل النصر هو كالرزق حالة من حالات النصر أم هو كالبيع سبب من أسباب الملك وكغروب الشمس سبب لوجوب المغرب؟ والجواب على ذلك هو أن هناك فرقاً بين مجرد الإعداد وبين أن يكون الإعداد إعداداً كافياً، وأن هناك فرقاً بين النصر من حيث هو نصر وبين النصر في معركةٍ معينة.

أما النصر من حيث هو فلا شك أنه من الله؛ فقد يحصل من القتال، وقد يحصل من غير قتال كما حصل في وقعة الأحزاب،

وكذلك الإعداد الكافي أو غير الكافي فإنه ولا شك ليس سبباً من أسباب النصر؛

فقد ينصر الله المسلمِينَ والإعداد للقتال عندهم غير كافٍ كما حصل مع الرسول ﷺ في بدر، وقد لا يحصل النصر للمسلمين مع توفّر الإعداد الكافي لديهم كما حصل في أوّل غزوةِ حنين.

ومن ذلك يظهر أن النصر من حيث هو نصر إنما يأتي من الله، وأن كفاية الإعداد وعدم كفايتها ليست سبباً من أسباب النصر، وهذا صريح في فعل الرسول ﷺ في حروبه وغزواته، وهو دليل شرعي على هذا الحكم.

إلا أن محل البحث ليس النصر من حيث هو نصر، وليس كفاية الإعداد وعدم كفايتها، وإنما محل البحث هو النصر؛ أي أن البحث ليس الإعداد وإنما النصر. فمحل البحث هو: هل يحصل النصر بالفعل دون حصول سببه وهو الإعداد أم لا يحصل إلا بالاعداد؟ هذا هو محل البحث.

والذي يظهر من تتبّع أعمال الرسول الأعظم ﷺ ومن دراسة واقع المعارك التي خاضها يتبين أن الرسول ﷺ كان يتوسّل لحصول النصر بالإعداد: "وما روي عنه قط أنه توسل للنصر ولا في معركةٍ من المعارك دون إعداد"، ويتبين من واقع كل معركةٍ من المعارك التي خاضها وانتصر فيها أنه لولا ذلك الإعداد لما حصل النصر.

فبدر: لو لم يهيِئ المعركة ويحشد قواه ويتفق بالدعاء لما حصل النصر، وفي الأحزاب: لو لم يحفر الخندق ويحشد القوى ويقوم بالتفرقة بين الأعداء لما حصل النصر، وهكذا جميع المعارك التي خاضها الرسول ﷺ، لو لم يقم بالإعداد واكتفى بالدعاء أو انتظر النصر من الله وهو مستسلم لما حصل له النصر.

فعمل الرسول ﷺ من كونه لم يطلب النصر إلا بالأخذ بالأسباب، وواقع معاركه التي خاضها من كونه لو لم يحصل الإعداد لما كان النصر فيها، هذان الأمران يدلان بوضوح على أن النصر إنما أتى من الإعداد؛ ولو لم يوجد الإعداد لما وجد النصر. وهذا كله يدل على أن النصر سببه الإعداد، وأنه حتى يحصل النصر لا بد من الإعداد. وعلى ذلك فإن النصر في المعركة الواحدة - حتى يحصل - لا بد له من الإعداد؛ فحصول النصر سببه الإعداد، فيكون حصول النصر في المعركة الواحدة سببه الذي حصل منه هو الإعداد.

وعلى ذلك فإن الإعداد من حيث هو إعداد حتى يحصل النصر به لا بد من وجوده، وبدون وجوده لا يأتي منه النصر، فيكون حصول النصر بالفعل سببه الإعداد؛ فكان من قبيل ربط الأسباب بالمسبَّبات.

وعلى ذلك فإن طلب المسلمين حصول النصر بالفعل دون أن يقوموا بالإعداد له مخالف للشرع ومخالف لقاعدة الأخذ بالأسباب، ومخالف لما كان عليه الرسول ﷺ. فحصول النصر بالفعل في المعركة الواحدة أو في الحرب مع العدو لا يمكن أن يأتي إلا بالإعداد، فالنصر سببه الإعداد، وحصوله بالفعل لا يتأتى بدون إعداد، فحتى يحصل النصر لطالب النصر لا بد من الإعداد، وحصوله بالفعل لا يتأتى بدون إعداد، فحتى يحصل النصر لطالب النصر لا بدّ من الإعداد، وبدون الإعداد لا يحصل النصر. ومن هنا كان الأخذ بالإعداد أخذًا بأسباب النصر، لأن النصر في الحرب وفي المعركة الواحدة - حتى يطلب حصوله - لا بد من الإعداد لهذه الحرب أو لهذه المعركة.

صحيح أن المسلمين قد يعدّون للمعركة ثم ينهزم العدو من جراء شقاقٍ ونزاع حصل في صفوفه، وقد ينهزم من جراء ثورة داخلية حصلت في بلاده، وقد ينهزم من جراء انقلاب عسكري حصل في حكم بلاده؛ أي قد ينهزم لأسبابٍ أخرى غير الإعداد الذي أعدّه المسلمون، ولكنه حتى ينهزم من جراء حرب المسلمين له لا بدّ من وجود الإعداد لذلك. فالنصر حتى ينال حين يُطلب لا بد له من الإعداد، وإن كان قد يأتي من غير الإعداد الذي أُعدّ، وإن كان قد لا يأتي من الإعداد إعداداً كافياً؛ فليس الإعداد الكافي هو سبب النصر، ولكن حصول النصر في الحرب سببه وجود العدو من قبل المحاربين. ومن هنا لا بدّ أن يُلاحظ أن ما جاء في الكراسة لم يأتِ كمثالٍ على الإعداد بل جاء كمثالٍ على كفاية الإعداد وعدم كفايتها، فقال: "وكتفوق قوة جيشٍ على جيشٍ في الحرب حالة من الحالات التي يحصل النصر لمن هو أقل قوة: كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله"؛ فهو مثالٌ على كفاية الإعداد وعدم كفايتها، وليس مثالاً على الإعداد أو عدم الإعداد. فهو إذن ليس من هذا الباب ولا يتصل به، بل هو متعلقٌ بالقِلّة والكثرة أي بكفاية الإعداد وعدم كفايتها وليس مجرد الإعداد، كما أنه يجب أن يُلاحظ أن الموضوع ليس متعلقاً بالنصر من حيث هو نصر، ولا متعلقاً بالإعداد للحرب والمعركة الواحدة بأنه سببٌ للنصر، وأنه حتماً يأتي منه النصر، بل الموضوع متعلق بالنصر نفسه في حرب المسلمين للعدو؛ هذا النصر في الحرب لا يأتي بدون إعداد، وسببه هو الإعداد. فأذن لحصول النصر في الحرب لا بدّ من تهيئة سببه وهو الإعداد".

الأمر التالي يجب التنبه له: أي نوعٍ من السببية يعني جواب السؤال؟

نحن نعلم يقينا أن السبب يختلف عن الحالة، ورد في الشخصية الجزء الأول في باب: انتهاء الأجل هو السبب الوحيد للموت: "وذلك أن الشيء حتى يصح أن يكون سبباً لا بد أن ينتج المسبَّب حتماً. وأن المسبَّب لا يمكن أن ينتج إلاّ عن سببه وحده. وهذا بخلاف الحالة، فإنها ظرف خاص بملابسات خاصة يحصل فيها الشيء عادة، ولكنه قد يتخلف ولا يحصل." انتهى، وبالتالي فإن قوله في الكراسة: "فليس الإعداد الكافي هو سبب النصر" فإنه ينفي حتما أن ترتبط السببية بكفاية الإعداد، فهو نفي قاطع لأن تكون السببية هنا سببية عقلية، لأن السببية العقلية تقتضي أن الإعداد الكافي يجب أن يحقق النصر لو كان للنصر سبب عقلي، فهذه نقطة مهمة، يعضدها أن السبب لا بد أن ينتج حتما عن مسببه، فقد حصل النصر بإعداد غير كاف كما في بدر، ومنع النصر مع

الإعداد الكافي كما في أول حنين، ولم يتحقق النصر في مؤتة مع وجود الإعداد، ولا في أحد مع وجود الإعداد، فهذا كله يبين أن الإعداد ليس بسببية عقلية يتوجب فيها حصول النصر، وإنما هي فرض يجب القيام به، ولا يحصل النصر إن لم يوجد، إذن، فقد يوجد الإعداد ولا يحصل النصر، ولكن لا يمكن أن ينزل النصر إن لم يوجد الإعداد، فهذا هو وجه سببيتها، وهذا النوع من السببية هو أسباب العادة لا السببية العقلية.

ثم إننا نعلم يقيناً أن السببية العقلية لا تقوم نتيجتها إلا باكتمال الأسباب وانتفاء الموانع وتعاون الشروط؛ هذه هي السببية التي هي قانون رباني لا يتخلف. جاء في نشرة حول الغيبيات والقدرية الغيبية ما يلي: "صحيح أن الله هو الفاعل لما يريد، الخالق لكل شيء، ولكن الله جعل لهذا الكون نواميس يسير عليها، وجعل للأشياء قوانين تتشكّل بحسبها، وتتحول أو تبقى وفق هذه القوانين، وهو وإن كان قادراً على خرق هذه النواميس وتلك القوانين، ولكنه لا يخرقها إلا لنبي، ولا ينقضها إلا لرسول. فالإيمان بأن الله قادر على نصر المؤمنين على الكافرين، لا يعني أنه سينصر المؤمنين وهم لا يأخذون بأسباب النصر؛ لأن النصر بدون الأخذ بأسبابه مستحيل، وقدرة الله لا تتعلّق بالمستحيل. فكون الله قادرًا على الشيء لا يعني أن الفرد أو الجماعة أو الأمة قادرة عليه. قدرة الله صفة خاصة به، وقدرة العبد خاصة به، ولا علاقة لها بقدرة الله. فالخلط بين قدرة الله والإيمان بها، وقدرة العبد وقيامه بما أمره الله، هو الذي يحمل على القعود، وهو الذي يُخدِّر الأمم والشعوب.

إن الله تعالى يقول: "ولينصرنّ الله من ينصره"؛ أي يقسم بأنه ينصر من ينصره؛ وهذا نص قطعي الثبوت قطعي الدلالة. فالإيمان به فرض، وإنكاره كفر، ما في ذلك شك. ولكن خلط هذا الإيمان بالعمل يقعد من ينصر الله عن العمل لأنه سينصره حتماً. فمن ينصر الله قد أمره الله بالعمل مع أنه أعلمه بأنه سينصره، ولكنه في نفس الوقت أمره بالعمل. فاعتماده على وعد الله وعدم قيامه بالعمل هو عصيانٌ لله وليس نصرةً له. فقعوده عن العمل ينفي عنه أنه ينصر الله. ولذلك فإن عدم النصر لمن يدّعي أنه ينصر الله ولا يعمل، لا يعني أن الله قد أخلف وعده، بل يعني أن الرجل بعدم قيامه بما أمر الله به من اتخاذ أسباب النصر قد عصى الله، فخرج عن كونه «ينصر الله». لأن نصر الله هو القيام بأوامره واجتناب نواهيه، ولذلك فلن ينصره الله ما دام لم ينصر الله بالقيام بما أمره به من الأعمال.

فالخلط بين الإيمان بما أمر بالإيمان به وبين القيام بما أمره الله به من الأعمال يؤدي إلى الحرمان مما وعده الله به جراء القعود وعدم العمل". انتهى.

إذن، يقرّرُ جواب السؤال هنا حقيقة أن الله جعل لهذا الكون نواميس يسير عليها، وجعل للأشياء قوانين تتشكّل بحسبها، وتتحول أو تبقى وفق هذه القوانين. وأنه من الواجب على المؤمن أن يتفاعل مع هذه القوانين ويسير بحسبها لأنها لا تُخرَق إلا من باب المعجزة للنبي. لكننا نعلم يقيناً أن القوانين الكونية هذه لا يتم تفعيلها إلا باكتمال الأخذ بأسبابها؛ فمثلاً: لإشعال النار نحتاج لشعلةٍ ولمادّةٍ قابلةٍ للاشتعال ولأكسجين، ولنسبةٍ بينها صحيحة، ولانتفاء الموانع مثل أن لا يكون هناك مطرٌ شديد أو ريحٌ قوية. إذا حصل هذا كله، تحققت السببية العقلية، أي أصبح التفاعل سببياً عقلياً، فحصلت النتيجةُ فوراً وبلا تأخير، وحصول النتيجة حتمي وفوري؛ فهذه سببية عقلية. وهكذا يتم التفاعل مع قوانين الكون التي خلق الله الكون بناءً عليها.

لذلك، فحين يقول الحزب بأن الإعداد سببٌ للنصر، ولكن ليس الإعداد الكافي إنما مجرد الإعداد (وبالضرورة قدر الاستطاعة)، وذلك من أجل القيام بما أمر الله به من فرض، وعدم معصية الله تعالى، ولأن الرسول ﷺ لم يدخل معركةٍ إلا وقد أخذ بالأسباب التي يستطيعها، فإن هذا يعني أن الحزب لا يقصد: السببية العقلية بتاتاً، لأن مفهوم السببية العقلية واضح للحزب، وهو ليس مفهومًا اخترعه الحزب وإنما هو مفهوم كوني عالمي يستعمله الفيزيائيون والفلاسفة والمتكلمون وغيرهم، وله حدود ومفهوم واضح.

وإنما يعني الحزب أن الأسباب أنواع: منها السبب العقلي، ومنها أسباب العادة، ومنها السبب اللغوي، ومنها السبب الأصولي، ومنها السبب الشرعي. فبالضرورة نستثني منها السبب العقلي لأنه مجرد أن نقول بأن الإعداد قد يكون غير كافٍ، وليس المهم أن تحصل الكفاية في الإعداد، بل فوق ذلك أن نقرر أن الرسول ﷺ لم يدخل معركة إلا وأعد لها وأخذ بالأسباب التي يستطيعها، ثم نقرر أن النصر تخلف عنه في أحد وفي أول حنين، فإن هذا ينطبق على السبب اللغوي، أو أسباب العادة، ولا ينطبق على السبب العقلي؛ فأسباب العادة والسبب اللغوي لا يشترط فيها اكتمال عناصر معينة، وانتفاء موانع معينة، وتعاون شروط معينة، بل السبب اللغوي: اسم لما يتوصل به إلى المقصود، والسبب العادي معناه: الطرائق التي تجري في الكون والإنسان والحياة، وتكتشف هذه الأسباب أو يمكن تسميتها بالسنن (السنن الإنسانية أو المجتمعية) عبر عملية استنباط أو استقراء لسنن معينة تسير في المجتمعات. يتم التركيز فيها على أهم الأسباب والشروط التي يكون تأثيرها أكثر من غيرها في حصول النتيجة، ولِكون هذه السنن الإنسانية تتم في مجتمعات فيها أناسٌ يتميزون بحرية الإرادة، فإن العلاقة بينها وبين نتيجتها، وإن كانت حتمية لأنها لو لم تكن حتمية لما كانت سنناً، ولما وصفها الله تعالى بأنك لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، ولكن هذه الحتمية لا تحصل فور تحقق الأسباب أو اكتمال أهمها، بل تتأخّر إلى أن يشاء الله إنزالها. وهذان هما الفرق بين الأسباب العقلية (التي لا بد فيها قطعاً من اكتمال كل أسبابها وتعاون كل شروطها وانتفاء كل موانعها) وبالتالي تحصل نتيجتها فوراً وبلا تخلف، بينما أسباب العادة يكفي فيها أهم الأسباب المؤثرة التي تُدرس بالاستقراء، وقد تتأخر نتيجتها عن الحصول إلى حين لوجود الإرادة الحرة من جهة، ولأن الله وضع بيده تفعيل النصر والرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر على الحقيقة، فلم يكن تفعيلها نتاج وجود الأسباب، فهي ليست منفعلة بالأسباب لأن فعل الله تعالى لا ينفعل بأفعال الإنسان.

وبالتالي حين نقول إن المطلوب أو السببية ليست جراء "اكتمال الإعداد"، فإن موضوع النصر خرج من دائرة ضرورة اكتمال الأسباب وقتلها بحثاً وتحقيقاً إلى دائرة القيام بالعمل على أفضل وجه مستطاع. وأن هذا لا يجعل ترتب حصول النصر على الوصول بالأسباب إلى دائرة أفضل وجه مستطاع حصولاً فورياً كاشتعال النار حين اكتمال الأسباب وانتفاء الموانع وتعاون الشروط. وهذا يعني أن السببية هنا: أسباب العادة لا السببية العقلية.

وللتأكيد على ذلك ورد في كراسة إعادة النظر الفقرة القطعية التالية: "ومع ذلك فإننا نؤمن إيماناً لا يتعرض له ارتياب أنَّنا لو حققنا جميع أسباب النصر وشروطه فإنه لا يتم لنا النصر إلا بإرادة الله سبحانه؛ لأن النصر من عنده وحده، قال تعالى: 'وما النصر إلا من عند الله'، وأنه سبحانه متى أراد النصر هيأ له أسبابه من حيث يدري الإنسان ومن حيث لا يدري، ولا يخطر له على بال. ولهذا فإن جميع البذل الذي بذله رسول الله ﷺ في مكة لم

يغير واقع مكة، ولم يقضِ على تجمّدها أمام دعوة الإسلام. ولكن لما أراد الله إعزاز دينه ونصرة نبيه يسر لـه النفر الستة من الخزرج فآمنوا فكانوا فاتحة الخير، وساق اللهُ أسيدَ بنَ حُضيرٍ وسعدَ بنَ معاذٍ إلى البستان مغضبين ليطردا مصعبَ بنَ عميرٍ وأسعدَ بنَ زرارة، فآمنا وصدقوا، فكان غضبهما وقيامهما لطرد مصعب وأسعد سبَباً لإيمانهما، وبإيمانهما آمنت جمهرة أهل المدينة، فوجدت القاعدة الجماهيرية الصلدة التي أقام عليها رسول الله ﷺ دولة الإسلام، ومع هذا الإيمان فإنه لا بد من الاستمرار في القيام بالأعمال التي تؤدي إلى النصر ومن توفير جميع أسباب النصر وشروطه." انتهى.

فكما هو واضح: لو حققنا جميع أسباب النصر وشروطه فإنه لا يتم لنا النصر إلا بإرادة الله، فهي ليست سببية عقلية، وإنما هي من أسباب العادة التي تقتضي أن تُحقق جميع الأسباب والشروط المستنبطة من سنن العادة لحصول النصر، ومع ذلك قد يتراخى نزول النصر إلى أن يأذن الله تعالى. فكون الكلام يوضّح بلا ريب أن حصول النصر غير مرتبط بتحقيق كافة أسبابه وكافة شروطه، وإنما يتراخى عن ذلك، فهذه أوصاف أسباب العادة لا الأسباب العقلية. وبالتالي نخرج من دائرة: قتل الأسباب بحثاً واستقصاءً وتفعيلاً إلى اختيار أَصْلَحها بالعمل وتلك التي تلزم لتحقّقه على أفضل وجه مستطاع، للوقوع في مظنّة نزول النصر.

إذن فالكلام الفصل هنا هو: وجوب العمل وإحسان العمل والأخذ بأفضل أسباب العمل وتحريها على وجه يبرئ الذمة، فالأمر بالإعداد يعني وجوب العمل ووجوب بلوغ حد الاستطاعة، فهذا من جانب البشر، وهذا يمكن تسميته بأسباب العادة أو بالسنن المجتمعية، وأما تحقق النصر فلا يتم إلا بإرادة الله، وبشرط أن ننصر الله، بالقيام بالعمل، وبالأخذ بأفضل أسباب العادة التي توقعنا في مظنة استحقاق نزول النصر، وأن النصر لا ينزل إلا بإرادة الله، متى ما شاء، ولا ينفعل بالأسباب، لأن فعل الله تعالى لا يتحرك جبرا فور وجود أسباب معينة قام بها البشر، ففرق بين فعل الله تعالى، وبين فعل العبد، وفعل العبد لا يُنتج النصر، ولا يوقعه لأن النصر من اختصاص الله تعالى كالرزق والإحياء والإماتة والنفع والضر، الله فيها هو الفاعل على الحقيقة.

## لماذا يتأخر النصر؟

لا بد لنا أن نبين أن نصر الله لعباده المؤمنين قد يتأخر لأن الله يريد لهم النصر الأكبر والأعظم والأكمل والأدوم والأكثر تأثيراً في واقع الحياة، وفي عموم الناس بعد أن يتهيأ في المؤمنين القاعدة اللازمة لاستحقاقهم هذا النصر الأكبر واستقبالهم له، ويدل على ذلك أن نصر رسول الله ﷺ ومعه المؤمنون لم يحصل في يوم وليلة ولا في سنة واحدة وإنما تأخر **فلم يحصل إلا بعد مضي أكثر نبوته** ﷺ، فقد حصل هذا النصر بالغلبة والانتصار على قريش وفتح مكة وذلك في سنة ثمان للهجرة، أي قبل وفاته ﷺ بسنتين وقد دخل بسبب هذا النصر الناس في دين الله أفواجاً وأُنزل قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ۝ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ۝ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ النصر.

وكذلك قد يسبق نصرَ الله أذى من العدو شديد على المسلمين وهذا، من الابتلاء لكي يثبتوا على الحق، ولكي يتربوْا على الصبر كما أرادهم الله لا يخافون في الله لومة لائم، لذلك قال الله تعالى مبيناً لنا حال من سبقونا: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القومَ قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلمَ الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم

شهداء والله لا يحب الظالمين ۝ وليُمَحِّصَ الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران-١٤٠/١٤١]. فقد بين لنا الله تعالى في هاتين الآيتين أن المؤمنين الذين يصيبهم قرح أي جراحات بسبب القتال يجب ألّا يضعفَ ذلك همتهم في جهاد العدو لأنه كما أصابهم قرح فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك، وعدوهم لم يتأثروا لما أصابهم من القرح من محاربتكم مع كونهم مبطلين، فأنتم أيها المؤمنون أهل الحق أولى أن لا تضعفوا ولا تفتروا عن مجاهدة ومحاربة هؤلاء القوم الأعداء المبطلين. الرازي ١٤/٩.

"لذلك فإن النصر ليس بالشيء الهيّن، إنه محفوف بالمشاق والصعوبات **التي يعجز عن احتمالها إلا من اصطفاهم الله لقيادة البشرية.** فإن الله تعالى قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ هذا الخطاب كان للرسول ﷺ ولصحابته الكرام الذين أقاموا دولة الإسلام وحملوا رسالته رسالة عالمية إلى الناس كافة. وهكذا واجه حزب الرسول ﷺ المصاعب القاتلة وخاضوا تجربة عميقة جليلة. لذلك فإن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه ﴿مَتَى نَصْرُ اللّهِ﴾ ليُعلمنا الله مدى شدة المحنة التي واجهت حَمَلَةَ الدعوة، ولا نقدر أن نصف هذه المحنة التي جعلت الصحابة والرسول ﷺ يقولون ﴿مَتَى نَصْرُ اللّهِ﴾، ولكن عندما ثبت الصحابة على إيمانهم وعلى عهدهم مع الله جاء الجواب من الله ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ **فإن نصر الله لا يتنزل إلا على أناس استحقوا النصر. الذين يثبتون على السراء والضراء الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يَحْنون رؤوسَهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنةُ ذُروتها فهم يتطلعون إلى نصر الله فحسب لا إلى أي حل غيره**، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله. ويجب علينا أن نتصور النصر أمام أعيننا لقوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ۝ إنهم لهم المنصورون ۝ وإن جندنا لهم الغالبون﴾، لأن هذه حقيقة كل دعوة يُخلص فيها العاملون، ويتجرد لها الدعاة، ويصبح لديها قناعات بأنها منصورة مهما وُضعت في سبيلها العوائق وقامت في طريقها العراقيل، مهما رصد لها الأعداء من قوى الحديد والنار، وقوى الدعاية والافتراء، وقوى السجن والقتل. وما هي إلا معارك تختلف نتائجها ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرُسُله والذي لن يُخلَف، ولو قامت كل قوى الأرض لهزيمتنا فالوعد لنا بالغلبة والنصر والتمكين. وهذا الوعد سُنّة الله الكونية. سُنّة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة حين ينزل عليها الماء، ولكنها مرهونة بتقدير الله يحققها حين يشاء وعلى من يشاء من الذين يستحقون النصر"[١٧٦].

## الاستخلاف:

والاستخلاف في الآية الخامسة والخمسين من سورة النور: ﴿وَعدَ اللهُ الذينَ آمنوا منكمْ وعملوا الصالحاتِ لَيَسْتَخْلِفنَّهُمْ في الأرض﴾، هو النيابة تشريفاً للمستخلف، ولهذا ذهب المفسرون إلى أنّ قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ يعني: ليورثنّهم الأرض فيجعلهم ملوكها وساستها، والقول عام يشمل استخلاف الجمهور ما تحقق فيهم الإيمان

---

[١٧٦] أسامة أبو سراج – الوعي، العدد ١٢١- السنة الحادية عشرة – صفر ١٤١٨ – حزيران ١٩٩٧م

والعمل الصالح، المفسر بقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾. ﴿وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الّذينَ كانوا يُسْتَضْعَفونَ مَشارِقَ الأرْضِ وَمَغارِبِها الّتي بارَكْنا فيها وَتَمّتْ كَلمَةُ رَبّكَ الحُسْنى على بني إسْرائيلَ بما صَبَروا ودَمّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وما كانوا يَعْرِشونَ﴾

في نزول قوم ديار قوم بعدهم بما صبروا، وجاءت هذه الآية مقابلة لقول موسى: ﴿قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلفَكُمْ في الأرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعمَلون﴾، وإذا كان الله سبحانه قد جعل المستضعفين يرثون الأرض فقد منّ عليهم بأَنْ جعلهم أئمّة في قوله: ﴿وَنُريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الّذين اسْتُضْعفوا في الأرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين﴾[177].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور ٥٥].

**كما نجد في الآية وعدا بالاستخلاف، نجد وعدا بالتمكين والأمن بعد الخوف**، ونزلت هذه الآية في المدينة بعد قيام الدولة بكثير، قال القرطبي رحمه الله، وقال أبو العالية: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحي إليه خائفا هو وأصحابه، يدعون إلى الله سرا وجهرا، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح. فقال رجل: يا رسول الله، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال: ﷺ: لا تلبثون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة. ونزلت هذه الآية، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا. قال النحاس: فكان في هذه الآية دلالة على نبوة رسول الله ﷺ؛ لأن الله جل وعز أنجز ذلك الوعد. انتهى.

## النصر التام هو: نصر الله! فمتى نزل نصر الله على الرسول ﷺ

فالنصر التام نزل قبيل وفاة الرسول ﷺ إذ نزلت سورة النصر، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر ١-٣]، هذا هو النصر الذي تم السؤال عنه في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [٢١٤ البقرة]، والذي بشر به النبي الأكرم ﷺ كما روى البخاري «عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: " أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟ فَقَالَ: قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، **وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلَّا**

[177] ألفاظ النصر والتمكين في القرآن الكريم – دراسة دلالية – د. عبدالوهاب محمد علي العدواني وعماد عبد يحيى

**اللَّهَ**[١٧٨]، **وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»، فكان تمام الأمر بنصر الله، وانتشار الأمن، وسلطان الدولة الإسلامية حتى سار الراكب من صنعاء إلى حضر موت كما وصف الحديث!

والاستخلاف وقع قبل ذلك، والأمن حصل بعد الخندق، وكما نعلم فقد مات واستشهد قبل حصول الاستخلاف والتمكين والأمن خلق كثير من صحابة الرسول ﷺ ممن عمل في مكة واستحق أن يدخل في موعود الله بالنصر والاستخلاف، فيتبين أن الاستخلاف المذكور في الآية لا يدل أن كل من عمل وآمن يستخلف في الدنيا، وإنما هي جرت مجرى العموم وأريد به الخصوص، وأن الغاية انتصار الدين وتمكينه، واستخلاف من يستخلفهم الله بفضله وبمن سبقهم في العمل والإيمان وتهيئة الأمة لهذا النصر المبين، ومنهم من ينصره الله في الآخرة، ومنهم من ينصره الله بنصر الدين وله أجر ما قدم وعمل!

قال ابن عاشور: **وقد كان المسلمون و اثقين بالأمن، ولكن الله قدم على وَعْدهم بالأمن أن وَعَدهم بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والشريعة فيهم تنبيهاً لهم بأن سنة الله أنه لا تأمن أمة بأس غيرها حتى تكون قوية مكينة مهيمنة على أصقاعها. ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين وتبديل الخوف أمناً إيماء إلى التهيُّؤ لتحصيل أسبابه مع ضمان التوفيق لهم والنجاح إن هم أخذوا في ذلك**.

## التمكين:

وتمكين الدين في الآية الخامسة والخمسين من سورة النور استعارة من هذا المعنى. قال الطبري في قوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾: ليوطئَّنَّ.

وفسر الزمخشري: بالتثبيت، وقال الرازي: هو أن يؤيدهم بالنصر والإعزاز، وقال عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي: هو التثبيت والتعضيد، ودلالة التمكين على التوطئة والتثبيت دلالة تضمنية، ودلالته على التأييد دلالة التزامية. والملاحظ أنَّ التمكين متضمن الآلة والمكان الذي يتمكن فيه. وتمكين الله الدين للمؤمنين فيه دلالة على إعطاء ما يصح به الفعل كائناً ما كان من الآلات والعدد والقوى، كما أنّ التمكين فيه دلالة على عدم امتلاك ما حازه المرء، لأنَّ التمكين من الدين يكون على وفق ما أراد الله – سبحانه – من تنفيذ شريعته، لا على وفق ما يريده، الممكَّن له في الأرض.

فالتمكين إذن للدين، والاستخلاف للمؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

---

[١٧٨] في حديث عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ فَقَالَ يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ قُلْتُ لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا قَالَ: **فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ**، قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى، قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ! وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّاجَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ. قَالَ عَدِيٌّ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، **قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ**، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»

## إقامةُ الدولةِ الإسلاميةِ ليست مشروعًا بشريًّا بحتًا، بل سُنَّةٌ ربانيةٌ لنُصرةِ دينه، ووعدٌ إلهيٌّ قاطع.

**تمهيد:**

إقامةُ الدولةِ الإسلاميةِ ليست عملاً سياسيًّا عابرًا، ولا مجرّدَ مشروعٍ بشريٍّ محدود، بل هي سُنَّةٌ ربانيةٌ ماضية، ووعدٌ إلهيٌّ قاطع، وقضاءٌ نافذٌ لنُصرة دينِهِ وإعلاءِ كلمتِهِ، وكلامٌ فصلٌ في صراعِ الحقِّ مع الباطلِ، ليس بالهزْل. ومن هنا فإنَّ الإيمان بكونها وعدًا من الله هو أصلٌ في العقيدة، لا يحتمل الشكَّ ولا التردد؛ إذ إنَّ التشكيكَ في موعودِ الله أو الترددَ في صدقه إنما هو زعزعةٌ لجذرِ الإيمانِ نفسه، وهو أخطرُ ما يُبتلى به حملةُ الدعوةِ أو المسلمون إذ يترددون في حمل الدعوة لإقامة الدولة متذرعين بانتفاشة الباطل وصولته؛ إذ يقطع ذلك التشكيكُ صلتَهم بالوعدِ الحقِ، ويجعلُهم أسرى لموازينِ الأرضِ الماديَّة وحدَها، في وقتٍ أُمروا أن يجعلوا الله هو حسبَهم وكافيَهم وناصرَهم.

إن من أخطر ما يبتلى به العاملون لإقامة الدين أن يتسلل إلى قلوبهم شكٌّ في وعد الله أو ترددٌ في نصوصه، فإن هذا الانحراف العقدي أخطر على الدعوة من جيوش الأعداء. ولو تدبّروا القرآن لعلموا أن الله قد جعل سنّته ماضية في نصرة رسله وأوليائه: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر: ٥١]. فالمؤمن الصادق يعلم أن تأخّر النصر لا يعني غيابه، وإنما هو امتحان لليقين وميزان لثبات الصف. ومن فقد يقينه بوعود الله فقد انهار من داخله قبل أن يهزمه عدوه من خارجه، بل ويمكن القول بكل ثقة أنه لا يصح القول بأن النصر قد تأخر، لأن النصر بيد الله ينزله متى ما شاء، والتقدم والتأخر في موازين البشر إنما هي رجع للآمال والأهواء، لكن في ميزان الله فإنه ينزله في وقته فلا يتقدم ساعة ولا يتأخر!

إنَّ التدبرَ الاستقصائيَّ لآياتِ القرآن الكريم يكشف بوضوحٍ أن قيامَ الدولةِ، ونشوءَها، وثباتَها، واستقرارَها لا تُدرَك بجهدِ البشرِ وحدَه مهما عظُم، ولا تُحصَّل بموازينِ القوى وحدَها مهما رجحت، وإنَّما هي مرتبطةٌ ارتباطًا محكمًا بقوانينَ إلهيةٍ لا تتبدلُ ولا تتحول، وبسُننِ الله التي نسبها سبحانه وتعالى إلى ذاتِه العليّة وحدَه، دون شريكٍ، مرتبطةٌ بوعدٍ ربانيٍّ قاطع، وبقضاءٍ ربانيٍّ نافذ، يملأ النفوسَ ثقةً راسخةً بصدقِ موعودِ الله، وأثرِه في مواجهةِ التحديات، وطمأنينةً لا متناهيةً إلى ربحِ البيعِ الذي بايعوا اللهَ تعالى عليه. وقد استقرأنا الآيات فوجدناها ترسم لنا تسعةَ عناصرَ كبرى هي أعمدةُ قيامِ الدولةِ واستمرارِها: النصرُ، والسُّلطانُ النصيرُ، والاستخلافُ، والتمكينُ، والأمنُ بعد الخوفِ، والتأليفُ بين القلوب، والتثبيتُ والسكينةُ، والإظهارُ والعلو، وانتصار الحق على الباطل. **وكلُّ عنصرٍ من هذه العناصر قد نسبه الله إلى نفسه مباشرةً**، فدلَّ ذلك على أن تحقيقَها في واقعِ الحياةِ ليس ثمرةَ تدبيرٍ بشريٍّ محض، بل هو **عطاءٌ ربانيٌّ وتدخُّلٌ إلهيٌّ يفيض على المؤمنين متى استوفَوا شروطَ النصر، وقاموا بما أُمروا به على أكمل وجه مستطاع**. وكما تلاحظ، فإن كل هذه العناصر التسعة كلها هي التي بها تقوم الدولة، وتستمر وتستقر، فكأن الرسالة تقول صراحة بأن قيامكم بالأعمال التكليفية التي من شأنها إقامة الدولة هو ما يطلب منكم، وأما ما بعده، أي نتائج هذه الأعمال، وما يجعل ثمرتها واقعا ملموسا، وما يحققه في الوجود فبتدبير الله وحده!

لقد جاءت غزوة أُحد لتعلّم الأمة درسًا خالدًا: أن النصر ليس آليًا ولا ملازمًا لمجرّد رفع الراية، بل هو وعد مشروط، يرفعه الله متى شاء ويؤخّره متى شاء، ليُمحّص الصفوف ويطهّر القلوب. فمع أن المسلمين كانوا يوم أُحد أكثر عددًا وأوفر عدّة من بدر، إلا أن الهزيمة لحقت بهم -أول الأمر- حين غلبت على بعضهم بادرة الطمع في الغنيمة، فانصرف بعضهم عن مواقعهم، فكان ذلك شاهدًا قرآنيًا حيًا على أن النصر لا يُنال بكثرة ولا يُحجب بقلّة، وإنما هو فعل رباني محض: ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ [آل عمران: ١٢٦] ثم منَّ الله تعالى عليه بالانتصار في اليوم التالي يوم حمراء الأسد على عدوهم.

ولذلك فإنَّ حملةَ الدعوةِ، وهم ينظرون إلى موازينِ القوى في معركةِ الحق والباطل، وفي ظلّ محدوديةِ القوةِ الماديةِ عند أصحابِ الحق في الغالب، وفي ظلّ سُنَنِ الله تعالى التي أقامها لتحكمَ تدافعَ الحقِّ والباطلِ وتضمن غلبةِ الحق، يجب أن يستقرَّ في قلوبهم اليقينُ بأنَّ اللهَ تعالى من ورائهم، بقدرته القاهرة، ونصرِهِ الموعود، ووعدِه الحقّ الذي لا يتخلف؛ فلا يضطربون عند اشتداد الكُرب، ولا تهتزُّ ثقتُهم حين يرون الباطلَ متكاثرَ السلاح، ولا يتزلزلون إذا بدا أنَّ الكفّة تميلُ إلى أعداءِ الدين. فإنما المطلوبُ منهم أن يبلُغوا جهدَهم ويؤدّوا تكليفَهم، ويأخذوا بشروط نصر دين الله غاية مقدرتهم، ويتوكّلوا على اللهِ حقَّ التوكّل، صادقين مخلصين، واثقين أنَّ النتيجةَ بيد من قال: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، "وهذه الآية واضحة الدلالة في تأكيد أن النصر بيد الله وحده، وأنه سبحانه إن تركهم لأنفسهم وقوتهم فلا سبيل لهم إلى النصر مطلقاً"[١٧٩].

وهذا هو سرُّ الصلةِ الوثيقةِ بين الإيمانِ العميق بالله وحُسنِ التوكّل عليه وبين نجاحِ الدعوةِ في إقامةِ دولتِها؛ فالتوكّلُ ليس كلمةً تلوكها الألسن، ولا دعوى يرفعها الناسُ في المحافل، بل هو يقينٌ يملأ القلب، ويقظةٌ واعيةٌ تجعل العبدَ بعد قيامه بالأعمال التكليفية التي من شأنها أن تقيم الدولة، يُلقي بالنتائج إلى الله وحدَه. أمَّا إذا تسرَّب الشكُّ في وعد الله، أو تردّدَ حَمَلَتُه في يقينِهم بأنَّ النصرَ والتمكينَ من عنده وحده، أو ظنوا أن النصر بأيديهم، فإنَّ ذلك يؤدّي إلى أخطرِ عاقبة: اهتزازِ الثقةِ في القرآن نفسه، وتزلزلِ الإيمانِ بصدقِ الله، وإذن، لا يبقى من اعتقاد أن النصر بيد الله إلا رسم المصحف دون تصديق عملي واقعي حقيقي! وهذه كلها أبوابٌ لو فُتحت لأهلكت القلوبَ، وأضعفت الصفوفَ، وأسقطت الأمةَ قبل أن يُسقطها عدوُّها.

إن نصوص القرآن رتبت نزول النصر على حصول نصر المؤمنين للهِ ترتيبا شرطيا، ويتم ذلك بالتلبس بالأحكام الشرعية المتعلقة بإقامة الدين وظهوره، كحمل الدعوة في الأمة، وخوض غمرات الصراع الفكري مع الباطل المنتفش في الأذهان، والكفاح السياسي مع الطغم الحاكمة، وقطع الحبل السري الذي يربطهم بالمجتمع، وطلب النصرة، وكشف مخططات الكفار والوقوف في وجهها، والنهي عن المنكر، ويترتب النصر في ساح الوغى أيضا بالتعلق بالآخرة، والزهد في الدنيا، إذ إن هَلَكَتهم بالقعود عن الجهاد، والانشغال بأمر الدنيا عن الآخرة، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٤٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد ٧]، "فأما الآية الأولى فجاءت بصيغة القسم الموجبة للتوكيد، وليُذهب ريب المُخاطبين أكذ الحق

---

[١٧٩] العبرة والحكمة في غزوة أحد.

سبحانه على قوته، وعزته بأداتين من أدوات التوكيد "إنَّ" و "اللام"، ليطمئن قبل المؤمن بنصر الله، فهو سبحانه قوي ممتنع، لا يُرام ولا يُنازعُ ولا يُغلب، وأما في الآية الثانية فشرطية وتحقق فعل الشرط يوجب تحقق جوابه قطعا"[١٨٠]

إنَّ النصوصَ القرآنية لم تطرحِ النصرَ والاستخلافَ والتمكينَ والأمنَ والتأليفَ والسكينةَ على أنَّها معطياتٌ سياسيةٌ أو مخرجاتٌ اجتماعيةٌ بشرية، بل هي أركانٌ عقديةٌ وركائزُ يقينيةٌ يُدرك بها المؤمنون أنَّ اللهَ هو الحافظُ لدينه، والمعزُّ لجنده، والمتمّمُ لنوره، ونَسَبتْها كلَّها إلى الله مباشرةً، فهو سبحانه "المباشِر للقيام بتلك الأفعال" على الحقيقة لا المجاز، ليوقنَ المؤمنون أنَّ دولتَهم إنما تقومُ برعايةِ الله، وتُحفَظ بعنايته، وتستقرَّ بنصره، وتستمرَّ بتمكينه. فمن دون هذا اليقينِ الراسخ لا يستقيم عمل، ولا يثبت جهد، ولا تنعقد إرادة. ومن هنا كانت دراسةُ هذه الآياتِ وإدراكُ مقاصدِها العقدية ضرورةً كبرى في مسار الأمة، فهي التي تُضيء طريقَ العملِ الجاد، وتبني الثقةَ الراسخة، وتغرسُ في النفوسِ الطمأنينةَ إلى وعدِ الله الحق، في مواجهةِ التحدياتِ العاتيةِ والفتنِ المدلهمة، وفي ظلِّ الصراعِ الأزليّ بين الحقِ والباطل.

الأمرُ الذي استدعى دراسةَ علاقةِ الجانبِ البشريّ (أفعالِ المسلمين التي أُمروا بالقيام بها لإقامة الدولة) بالجانبِ الربانيّ الحكيم.

### العنصر الأول: السلطان النصير: أي ولاية قوية وسلطة نافذة من عند الله.

**والأثر على الدولة:** الشرعية العليا للحكم، القدرة على فرض الشريعة وتنفيذ الأحكام.

والأثر **على الاستقرار:** يمنع تسلط القوى الداخلية والخارجية، ويمنح الدولة منعة ذاتية.

الآيات: ﴿وَقُل رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]. ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء ٧٥].

**التحليل:** إن معنى السلطان: من له ولاية التحكم والسيطرة في الدولة، فإن الحكم والملك والسلطان بمعنى واحد، وهو السلطة التي تنفذ الأحكام، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يسأله سلطاناً ناصرا، لأن الدولة لا تقوم إلا بامتلاكها لسلطان نصير، فالسلطان النصير ليس صناعة بشرية صرفة. وحيث إن السلطة في الغالب تُكتسب بالتمكين الشعبي وبالقوة العسكرية، لكن نص الآية واضح: "من لدنك"، أي أن السلطان الذي يحقق النصرة للدين ويثبت الدولة ويمنعها من الانهيار هو عطاء رباني، وسنجد في الآيات اللاحقة أن من عناصر ذلك السلطان وحدة الصف بتأليف القلوب، وتثبيتها، مما يمنح التمكين الشعبي للسلطة ولدعمها، وهذا أيضا من عطاء الله وحده كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله. وقد ينجح المؤمنون في بناء نظام سياسي أو تحالف عسكري، لكنه يبقى هشًا أمام التحديات الداخلية والمؤامرات الخارجية، من تربص الأعداء ومن محاولات الدولة العميقة إفشاله. فيأتي تدخل الله سبحانه وتعالى بمنح السلطان النصير الذي يحمي الدولة، فيجعلها قادرة على مواجهة القوى

---

[١٨٠] عقيدة "النصر بيد الله".

الكبرى دون أن تذوب فيها أو تنهار، تجعل لها قوة وسلطة مستمدة من عون الله مباشرة، لإقامة الحق والدفاع عنه.

### العنصر الثاني: الاستخلاف، ووراثة الأرض بعد الاستضعاف:

**العنصر:** نقل المستضعفين إلى موقع السيادة، والاستخلاف في الأرض. **الأثر على نشوء الدولة:** فتح المجال التاريخي لقيامها رغم سطوة القوى الباطلة، ورغم ضعف المستخلَفين وقلة حيلتهم، فيَمُنُّ اللهُ عليهم بالاستخلافِ والتمكينِ وأن يورثهم الأرض! إذن: فلا يجوز أن نربط بين حيازة المسلمين لقوة قاهرة، وبين أن يقال: الآن يمكن أن تقيموا دولتكم! **الأثر على الاستقرار:** تجديد الثقة بأن الله هو الضامن لدوام هذه الوراثة، واستحقاق المستضعفين لهذا الاستخلاف بأنهم عاملين مخلصين متبعين يصبرون على الابتلاءات والمحن.

**الآيات:** ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف ١٢٩]، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل ٦٢]، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا... وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥-٦].

**التحليل:** قصور البشر: المستضعفون عادة يُستأصلون أو يذوبون في الأقوياء. تدخل الله: يقلب المعادلة، فيورثهم الأرض، ويجعل المستضعفين أئمة، ثم الأهم من ذلك أن الذي يستخلف هو الله، والذي ينصر هو الله، والذي يمكن هو الله، فلا بد من شحذ الهمم بالاعتقاد بذلك والتوكل على الله حق التوكل والشكر والثناء له أنه لم يكل المؤمنين إلى ضعفهم، وقوة عدوهم، وإنما كان هو حسبهم ووليهم وناصرهم.

### العنصر الثالث: التمكين والاستخلاف:

**العنصر:** الوعد بالاستخلاف والتمكين لمن آمن وعمل صالحاً. **الأثر على نشوء الدولة:** انتقال الأمة من الاستضعاف إلى السيادة، والدين الذي ارتضاه الله تعالى للمؤمنين من تلاعب الخائنين المتآمرين الذين يغيرون فيه وفي المناهج، وفي خطب الخطباء، إلى سدة التمكين بوصفه: الدين الذي ارتضاه الله تعالى للمؤمنين. **الأثر على الاستقرار:** تثبيت الحكم بالشريعة ودوام بقاء السلطان، وتنقية الدين من شوائب العصور الهابطة التي أفقدته صفاءه ونقاءه وبلورته في الفهم.

**الآيات:** ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، [النور: ٥٥]، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦] ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج ٤١].

**التحليل:** التمكين وعدٌ إلهي مشروط بالإيمان والعمل الصالح، أي بالأعمال المتعلقة بالاستخلاف وتمكين الدين مما سبق الإشارة إليها حين ذكرنا الأعمال المشروطة لتحقيق نصر الله بإقامة دولة الإسلام، وأما قصور البشر: فقد يسقطون ضحايا التوازنات الدولية أو يغرقون في الحصار. وأما تدخل الله: فيفتح لهم الأرض ويثبت لهم دينهم رغم المؤامرات، ويفتح عليهم بركات من السماء والأرض. فتمكين الدين: سيادته وتطبيقه، والأمن بعد الخوف: معطوفان على الاستخلاف في الأرض، من باب عطف الخاص على العام، لأن الاستخلاف في الأرض ومنه الحكم بالإسلام، لمن آمن وعمل صالحا، من مستلزماته وجود الأمان وتمكين الدين أي تطبيقه وظهوره وسيادته، وهما الأمران اللازمان للدار لتكون دار إسلام."[١٨١] والملاحظ أيضا في آية الاستخلاف أن الوعد من الله، والتمكين من الله، والاستخلاف من الله، والذي يبدلهم من بعد خوفهم أمنا هو الله وحده.

## العنصر الرابع: الأمن بعد الخوف:

**العنصر:** وعد إلهي أن يبدل الخوف أمناً. **الأثر على المجتمع:** شعور الرعية بالطمأنينة والثقة في الدولة. **الأثر على الدولة:** تثبيت أركان الحكم، وتمكين الشريعة في واقع مستقر بأمان ذاتي.

**الآيات:** ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]. ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

**التحليل:** الأمن عنصر حيوي لبقاء الدولة؛ من دونه تذوب المجتمعات. وأما قصور البشر: فلا يستطيعون التحكم في كل عوامل الفوضى والمؤامرات الخارجية. وأما تدخل الله: فيجعل الأمن نعمة مستقرة بعد الخوف، فيطمئن الناس ويستمر الولاء للدولة. وما كان للأمن أن يتحقق للأمة وهي مثقلة بالضعف الداخلي، أو محاصرة بأعدائها، لولا أن الله يتولى رعايتها. فإن النصر ليس مجرد دحرٍ للعدو، بل هو سكينة يسكبها الله في قلوب المؤمنين، وثبات يغرسه في أقدامهم، ورعب يقذفه في قلوب خصومهم. قال تعالى: ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنةً منه وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ [الأنفال: ١١]. فهي معادلة لا يملك البشر التحكم فيها: الطمأنينة للمؤمنين، والرعب للخصوم؛ وكلاهما فعل رباني لا تدركه الحِيَل البشرية مهما بلغت.

## العنصر الخامس: التأليف بين قلوب المؤمنين:

**العنصر:** وحدة الصف بتأليف الله، لا بالجهود البشرية فقط. **الأثر على المجتمع:** إزالة الخصومات الداخلية، جعل الأمة جسداً واحداً. **الأثر على الدولة:** توفير سند شعبي متماسك يحمي الحكم ويذود عنه.

**الآيات:** ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]. ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران ١٠٣]، ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ

---

[١٨١]: محمد حسين عبد الله: الطريقة الشرعية لاستئناف الحياة الإسلامية ص ١٠-١١.

قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، [الأنفال: ٦٢-٦٣].

**التحليل:** المجتمع المنقسم هشّ، والدولة القائمة على الشقاق سريعة الانهيار. وأما قصور البشر: فكل الجهود البشرية للوحدة قد تنهار عند أول فتنة، وما لم تقم الوحدة على أساس الإيمان فإنها هشة. وأما تدخل الله: فالله وحده يؤلف بين القلوب فيجعل الأمة حصنًا واحدًا للدولة.

## العنصر السادس: النصر الإلهي:

**العنصر:** النصر بيد الله، لا يتحقق بالعدة وحدها، ولا تستطيع الأعمال المتعلقة بالتغيير إحداث النصر، مهما تفانت وأحسنت، إذ إن النصر ليس بيد أحد إلا الله. **الأثر على نشوء الدولة:** قيام الكيان السياسي الإسلامي رغم ضعف موارده في البدايات، ورغم صعوبة التحديات. **الأثر على الاستقرار:** ردع الأعداء وإفشال محاولاتهم لاجتثاث الدولة الوليدة، واختيار الله تعالى لنقطة ارتكاز الدولة الإسلامية ولمن ينصرها من أهل النصرة.

**الآيات:** ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٤٠] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة ٢٥٠-٢٥١].

**التحليل:**

النصر الإلهي يأتي ليُظهر أن الغلبة ليست بكثرة العدد ولا قوة السلاح.، وأما قصور البشر: ففي معركة بدر كان المسلمون قلة وعتادهم ضعيف، ومع ذلك تحقق النصر. وأما أثر النصر: فيرسّخ ثقة الأمة بدولتها، ويردع أعداءها، ويُثبت أن قيامها ليس مشروعًا بشريًا صِرفًا بل وعد إلهي.

ونلاحظ ملاحظة هامة، وهي أن النصر يأتي بعد ابتلاءات شديدة، وصبر تلازمه كلمة "حتى"، فإن الله تعالى قال واصفاً شديد الابتلاء والتضحيات التي قدمها حملةُ الدعوة، ومن بلغ به الحال في عمله أن مسته البأساء والضراء، وأن يزلزل وهو ثابت على الحق، فلا يمكن أن يكون عمله إلا على الوجه المرضيّ عنه، ومع ذلك، فلم يكن هذا كله سبباً في نزول النصر، بل كان عليهم سؤال الله أن ينزل نصره، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢١٤]، لِيُعلمنا الله مدى شدة المحنة التي واجهت حَمَلَةَ الدعوة، ولا نقدر أن نصف هذه المحنة التي جعلت الصحابة والرسول ﷺ يقولون ﴿مَتَى نَصْرُ اللّهِ﴾، ولكن عندما ثبت الصحابة على إيمانهم وعلى عهدهم مع الله، جاء الجواب من الله ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ فإن نصر الله لا يتنزل إلا على أناس استحقوا النصر. الذين يثبتون في السراء والضراء الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يَحْنون رؤوسَهم للعاصفة.

الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله، ﴿والله يؤيدُ بنصره مَنْ يشاءُ﴾. وحتى حين تبلغ المحنةُ ذُروتها، فهم يتطلعون إلى نصر الله فحسب لا إلى أي حل غيره، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله. إن التمكين والاستخلاف ليسا مجرد تطلعٍ سياسي أو نتيجة طبيعية لتراكم الأسباب المادية، بل هما وعد رباني نافذ، لا يمنحه الله إلا بعد أن يُربّي الأمة ويُصفّي صفوفها. فكما امتحن المؤمنين في أُحد وزلزلهم ليُميّز الصادق من المنافق، والثابت من المتزلزل، كذلك يمرّ جيل التغيير دائمًا بمحنةٍ تمحّصه، لتقوم الدولة على قلوب مؤمنةٍ صافيةٍ قد صهرتها الابتلاءات، فيستحقون حينها أن يُحقّ الله فيهم وعده بالاستخلاف والتمكين.

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام ٣٤]، فهذه سنة الله لا مبدل لها، أن تثبت على الحق وتصبر **وتنتظر حتى** يأتي نصر الله، هل لاحظت ﴿حتى﴾؟ لم يملكوا أن ينزلوا النصر مع أخذهم بأسباب عملهم الذي كلفوا به، لم يكن نزول النصر كإشعال النار في الهشيم، بمجرد أن توجد شروطه الأربعة، وتزول العوائق، تشتعل النار ذاتيا استجابة للسنة الكونية التي قدرها الله في النار، بل الله خص نفسه بالنصر، وبالتمكين، وبالسلطان يؤتيه من يشاء، فهو مالك الملك. وكذلك في قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَ هُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف ١١٠]، فوقع النصر بعد الاستيئاس، والاستيئاس لا يقع إلا بعد تحقق الأسباب، وانتظار النتيجة، بل وطول انتظار النتيجة.".

## العنصر السابع: الإظهار والعلو

**العنصر**: إظهار دين الحق على الدين كله. **الأثر على الدولة:** جعلها مرجعية حضارية بين الأمم، وبالغة القوة لدرجة أنها ستحقق ما لم تستطعه أي دولة أخرى أو امبراطورية أخرى في التاريخ، بأن يظهر دينها ويعلو على الأديان والمبادئ والنظم كلها، والظهور بقوة الحجة وبقوة الحكم والسلطان، ولو كره المشركون، رغم أنفهم، إذن، فهذه بشارة بأن دولة الخلافة الراشدة الثانية ستظهر على أمم الأرض كلها، عنْ **تَمِيمٍ الدَّارِيِّ** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدينَ، بعزّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليلٍ؛ عزًّا يُعزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكفرَ**»، أخرجه الإمام أحمد في *المسند* (4/103)، والطبراني في *المعجم الكبير* (8/152)، والبيهقي في *السنن الكبرى*. وعَنْ **ثَوْبَانَ** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ**». **متفق على صحته**، وأخرجه مسلم في *صحيحه* (2889)، وعَنْ **المِقْدَام بن مَعْدِي كَرِب** ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يَبقى على ظَهر الأرض بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله كلمةَ الإسلام، بعِزّ عزيزٍ أو بذلّ ذليلٍ**». أخرجه أحمد (١٣٠/٤)، والطبراني في *المعجم الكبير* (20/108).، وعَنْ **عائشة** ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب الليلُ والنهارُ حتى تُعبد اللات والعزى**»، **قالت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ [التوبة:٣٣] أن ذلك تامًّا. قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبةً فتقبض من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان،**

**فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم».** أخرجه مسلم(2907) . وحيث إن هذا لم يحدث بعد في تاريخ الأمة الإسلامية، وحيث إن الرسول ﷺ بشر بأن هذا كائن، فإنها بشارة بأن دولة الخلافة الراشدة الثانية على منهاج النبوة ستبلغ قوتها بإذن الله وقوته وحوله أن يظهر الإسلام على الدين كله، ويدخل كل بيت عزيزا، لا مجرد أن يُتحدث عنه! إذ إنه سيرافق ذلك أن يَجعلَ اللهُ كلمةَ الذين كفروا السفلى! **الأثر على الاستقرار:** استمرار الدافع التوسعي للدولة لحمل الرسالة، مما يمنعها من الذبول أو الانغلاق.

**الآيات:** ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح ٢٨]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف ٨- ٩] ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة ٣٢]، ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]،

**التحليل:** قصور البشر: في ظل التعقيدات الدولية المعاصرة (تحالفات، نفوذ اقتصادي، قوى عظمى)، يصعب تصور غلبة الدين بجهود ذاتية فقط. تدخل الله: هو الذي يحقق الغلبة، فيجعل الدولة الإسلامية مرجعية بين الأمم، ويثبتها على رسالتها العالمية. وتعريف دار الإسلام في الفقه: دَارُ الْإِسْلَامِ هِيَ: "كُلُّ بُقْعَةٍ تَكُونُ فِيهَا أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ ظَاهِرَةً. يعني قدرة السلطان على جعل أحكام الإسلام ظاهرة في المجتمع، ومعنى ظاهرة: أي أن أحكام الإسلام هي **العليا** في المجتمع، أي أنها هي الأعراف في المجتمع، وما خالفها تكون في نظر المجتمع منكرات، وقد قال رب العزة سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، [التوبة ٣٣]، قلنا بأن شرط دار الإسلام هو ظهور الدين في المجتمع، ونجد هنا أن من يظهر الدين على الدين كله هو الله تعالى، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف ١٣٧]، فنقلهم الله تعالى من حال الاستضعاف إلى حال التمكين يرثون مشارق الأرض ومغاربها.

## العنصر الثامن: التثبيت والسكينة:

**العنصر:** إنزال السكينة وتثبيت الأقدام عند الملمات. **الأثر على الأفراد:** صمود القادة والأمة في وجه الصدمات. **الأثر على الدولة:** منع الانهيار الداخلي أثناء الأزمات المصيرية.

**الآيات:** ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠]. ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)﴾ [الأنفال: ٩-١٠]، ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا

وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]. ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران ١٣]، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأنفال: ٢٦]،

**التحليل:** قصور البشر: عند الفتن الكبرى أو الأزمات قد تنهار الإرادات. تدخل الله: السكينة قوة روحية إلهية تحفظ القلوب من الانهيار وتثبتها، والأقدام فلا تفر. أيضا مَنَّ الله عليهم بعد أن كانوا قلة، وبعد الاستضعاف في الأرض والخوف من أن يتخطفهم الناس بالإيواء والتأييد بالنصر من عنده سبحانه وتعالى، فاستعداد المؤمنين لقتال الكافرين، نصرة للدين، واستعدادهم للصمود والصبر يترتب عليه أن يثبت الله أقدامهم وأن يعينهم في حربهم وأن يلقي في قلوب عدوهم الرعب منهم.

## العنصر التاسع: قذف الحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق:

العنصر: في صراع الأفكار ليس للباطل صولة، ولا يمتلك الباطل قيما، ولا قوة فكرية تقف إزاء الحق، فإذا ما قذف الله بالحق على الباطل، اصطدم به فدمغه بصفته باطلا، فإذا هو زاهق، ولأجل ذلك لا بد أن يكون الحق نقياً مبلوراً منبثقاً عن الوحي ومعتصماً بأصله الرباني! بهذا فإن الحق سينتصر بقوته الذاتية ويدمغ الباطل، فيظهر الباطل في صورته الحقيقية المقززة للنفوس، وذلك لأن النفوس تشمئز من الباطل لصفته، وللفساد الظاهر فيه، وليس ثمة سبيل لقبوله إلا أن يُجهل واقعه عند من لا يتحقق، أو أن يكون دافع القبول الأهواء وفساد الذوق، أو أن يختلط على أهل الإخلاص والعامة بالحق فيلتبس عليهم، إذ يكفي أن يدمغ بأن يظهر بوصفه باطلا كي تشمئز منه النفوس وتنفر منه الطبائع، ولذلك كان النهي عن لبس الحق بالباطل حتى لا يختلط الباطلُ على أحدٍ فيقبله، وهو مدخل لأغلب أنواع الضلال الذي أدخل في الإسلام، فشر ذلك اللبس عظيم إذن!

ويوضح المنهج الإسلامي أن الحق لا ينتصر بالباطل، فيختلط على الناس، إذ عادة ما تبدأ الاستعانة بالباطل أنملةً فشبراً فذراعاً فباعاً، بل لا بد أن ينماز الحق عن الباطل بصفته القوية المتجسدة فيه بوصفه الحق، بقيمه التي يريد بها هزيمة الباطل، فلا يكتفي بالاستغناء المطلق عن الباطل، بل يعلن حربه الشاملة عليه حتى يخلعه من جذوره!

وإذ يتصف الحق بصفته أنه الحق، فإنه لا يقترب ولا يتقرب من الباطل قيد أنملة، "إذ إنه ليس بين الحق والباطل إلا الباطل، ولا ينزل الحق قدر إصبع نحو الباطل إلا خرج عن صفته"[١٨٢]! هكذا علمنا رسول الله ﷺ حين رَفَضَ رَفْضاً مُطْلقاً كلَّ شكلٍ من أشكال الالتقاء مع الباطل في أول الطريق أو منتصفه أو آخره، وحين رفض الحلول الوسط، حتى في أحلك حالات الضعف والحاجة،

---

[١٨٢] اقتباس هذه الجملة من الدكتور وليد سيف، في حوار بين أمية بن خلف وبلال بن رباح ﷺ يراوده على أن يقول كلمة لا يخرج بها عن دينه ولا يدخل في دين أمية، تصلح لأن تفسر تفسيرا يظن معه أن بلالا أعطى ويكف عنه أمية العذاب مقابل ذلك، فرفض بلال ذلك لأنه لا مكان بين الحق والباطل إلا الباطل.

فالحق أبلج، واضح ساطع، محجة بيضاء ناصعة لا رماد فيها ولا سواد، وعلى الرغم من أن الحق قوة هائلة بما يمثله من قيمةٍ، فإنه يطلب من أهله أن ينتزعوا أنفسهم من حظوظ أنفسهم، فيتحملوا المشاق والأذى، ويصبروا، ويصابروا، ويرابطوا، مؤمنين بوعد الحق بالنصر للحق، مستسلمين استسلاماً تاماً كاملاً لله ومنهجه، فهذا الاستسلام التام من مقتضيات الإيمان، وفي هذا الصراع الفكري بين الحق والباطل، فإن الله تعالى هو الذي يقذف بالحق على الباطل، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء ١٨]. وذلك لأن الله تعالى هو الذي أقام المنهج القويم الذي استمد منه الحق كل هذه الصفات الهائلة الحسنة، فكان كافيا لأن يدمغ به الباطل، بأن يرجع المسلمون للحق صفاءه ونقاءه وبلورته، ليكون على الصورة التي جعل الله فيها كل صفات القوة والقدرة على الانتصار على الباطل وإظهار مساوئه، فإذا ما تم ذلك انزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا، وكما ترى فإن الذي يقذف بالحق على الباطل هنا أيضا هو الله تبارك وتعالى.

## خاتمة

إقامة الدولة الإسلامية ليست مشروعًا بشريًا بحتًا، بل وعد رباني.

على المؤمنين القيام بالواجب الشرعي والسنن العملية، لكن تمام النصر بيد الله.

هذه العناصر الثمانية هي **المقومات العقدية الضامنة** لبقاء الدولة واستمرارها.

النتيجة: اليقين المطلق بوعد الله هو زاد الأمة في مسيرتها، وهو الكفيل بتجاوز محدودية القوة المادية.

وهكذا فإن قيام الدولة الإسلامية ليس حدثًا سياسيًّا كسائر الأحداث، وإنما هو نقطة التقاء بين فعل البشر ووفاء الوعد الإلهي، بين السعي الأرضي والمدد السماوي. وقد دلّت التجارب أن البشر مهما أعدّوا من عُدّة فلن تغني عنهم إن غاب التأييد الرباني، وأن الأمة مهما طال استضعافها فلن يؤخر الله تعالى عنها نصره متى بلغت حدّ الاستحقاق. فإذا استيقنت القلوب، وثبتت على البلاء، وأدّت ما عليها، تجلّت سنّة الله الماضية: أن يعزّ دينه ويُعلي كلمته ويورّث المستضعفين الأرض مشارقها ومغاربها.

## الفرق بين العمل والقضاء والقدر، والتوكل والتواكل، والكَيْسِ والعُقوبات!

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » [أخرجه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجة]، ومفهوم هذا أنه لا يصح للمسلم أن يستسلم، أو أن يقول: ليس بيدي شيء، ولا يفعل شيئاً، ويخاف من كل شيء، «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ»، فلا بد من الأخذ بالأسباب[١٨٣]. قال القاري في مرقاة المفاتيح: «إن الله تعالى يلوم على العجز »: أي على التقصير والتهاون في الأمور « ولكن عليك بالكيس»، بفتح فسكون؛ أي بالاحتياط والحزم في الأسباب، وحاصله أنه تعالى لا يرضى بالتقصير، ولكن يحمد على التيقظ والحزم، فلا تكن عاجزا وتقول: حسبي الله، بل كن كيسا متيقظا حازما[١٨٤]

---

[١٨٣] أحاديث رمضان ١٤٢٥ هـ - ومضات ولقطات إيمانية - الدرس (٣٧-٦٤): الأخذ بالأسباب الدكتور محمد راتب النابلسي.

[١٨٤] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" كتاب الإمارة والقضاء" باب الأقضية والشهادات، علي بن سلطان محمد القاري،

فالله سبحانه الذي قدّر كل شيء لكل زمان ولكل مكان صغيراً كان أو كبيراً، ﴿لا يعْزُبُ عنه مثقال ذَرّة في السموات ولا في الأرض﴾ [سورة سبأ ٣]، واللوح المحفوظ ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ [سورة الكهف ٤٩]. إذن، ليس في الكون أو في الطبيعة شيء عشوائي، وليس هناك شيء يحصل صدفة، بل كل شيء منظّم ومرتّب ومقدّر ومقضيّ من لَدُن حكيم عليم.

وهذا يفسّر لنا كيف يستجيب الله دعاء الصالحين الذين يدعون به الآن، فالله يعلم منذ الأزل أن عبده فلاناً سيدعو في وقت ما بدعاءٍ ما، فإذا قَبِل دُعاءَهُ فإنه يرتب الأمور ويقدرها بحيث ينجز له طلبه. أي تكون استجابة الدعاء جزءاً من القضاء. وكذلك توفيق الله لعباده الصالحين، فإن الله سبحانه يعلم منذ الأزل أن هذه الفئة من عباده تستحق توفيقه فيرتب الأمور ويقدرها منذ الأزل بحيث يكون التوفيق حليفهم دون حاجة إلى خرق سنن الكون أو تخلف خصائص الأشياء. ومثل ذلك يحصل لمن يريد الله أن يبتليهم أو يعاقبهم، فهو يعلم سبحانه منذ الأزل أن هذه الفئة من الناس تستحق عقوبة ما في الدنيا، وأن تلك الفئة سيبلوها الله بشيء من الابتلاء في الدنيا، فهو سبحانه يقدّر الأمور ويقضيها منذ الأزل بحيث يتم كل ذلك في مواقيته ومقاديره وناسه ضمن سنن الكون وخصائص الأشياء[185].

إذن، فقد تبين لنا أن الأخذ بالأسباب أمر واجب، فلا يصح ترك العمل بحجة أن الأمر مقضيٌّ من الله ولا دافع لقضائه! ففي مثل هذا التصور مخالفة صريحة للأمر بالعمل والأخذ بأسبابه، أي بالكَيس، ويحصل جنبا إلى جنب مع التوكل على الله تعالى، فالقضاء والقدر يقعان في الدائرة التي تسيطر على الإنسان ولا يملك دفعهما، والإنسان غير محاسب على الأفعال التي تقع جبرا عليه في هذه الدائرة -أي دائرة القضاء والقدر- أما الأفعال التي كُلِّف بها، فهو محاسب على القيام بها والأخذ بالأسباب التي يتطلبها نوع العمل، فإن كان العمل واجبا، كان الأخذ بالأسباب المفضية إليه واجبا، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والدائرة هذه التي كلف بها الناس ليست من القضاء والقدر في شيء، ويحاسب الإنسان على التقصير فيها.

---

[185] هل مصائب الدنيا هي عقوبات على الذنوب؟ مجلة الوعي العدد ١٥٠

## تطبيق قانون السنن والسببية على تغيير الدولة

### سائل من الباكستان:

سألني سائل من الباكستان في حمأة موسم الانتخابات، كيف أقنع الناخب الذي اعتاد على الاختيار بين الأحزاب العلمانية، حزب الرابطة الإسلامية (نواز شريف)، حزب الشعب (بوتو، عاصف زرداري، شهباز شريف)، حركة تحريك الإنصاف (عمران خان)، وبين الجماعة الإسلامية (حزب إسلامي) (أنشأها المودودي رحمه الله)، فهذه الأحزاب الرئيسة، تناوب منذ العام ١٩٥١ على الحكومات أعضاء من أحزاب: الرابطة (غالب الوقت)، وحزب الشعب بعض الوقت، ومرة واحدة حزب عوامي الوطني، وبعض المستقلين، لكن الغالبية الساحقة كانت من الرابطة، ومن ثم حزب الشعب، وهي أحزاب معروفة بعلمانيتها الشديدة، ويضن بصوته أن يذهب للجماعة الإسلامية.

فأجبته: إذا سألت الناس في الشارع، ما هي أهم المشاكل التي يعيشونها؟ وماذا يريدون من هذه الأحزاب أن تفعل حيال هذه المشاكل؟ فحددنا المشاكل التالية: الفقر، والفساد على كل مستوى، وانعدام العدالة، والانحلال الإداري، والتعليم، والطائفية و"التطرف" كما يشاع له في وسائل الإعلام، وانعدام حركة التطور والتقدم، ووجود عدم الثقة بالنظام كله، بالمؤسسات الحكومية أو بالأحزاب السياسية.

ففي أذهان الناس هذه المشاكل الرئيسية التي يعيشونها، جراء تطبيق النظام عليهم من الأحزاب نفسها، التي تتناوب على الحكم وتحكم بنفس النظام، ويستفحل خطر كل هذه المشاكل مرة بعد مرة، ويقوم الناخب بالتوجه لصناديق الاقتراع مرة بعد مرة! فإذا كانت الأحزاب قد أفرزت هذا الواقع السيء، ولم تنجح -مع كل ما تطرح من برامج- بالنهوض بالمجتمع أو بإيجاد حل لتلك المشاكل، فإن العيب إذن في النظام، وإن المشاركة في مثل هذه الحياة السياسية عبثية، ولذلك لا بد أن يكون هذا الواقع الفاسد دافعا للتفكير بالتغيير، فالغاية هي التغيير، والدوافع هذه التي أسلفنا، وبالتالي فلا شك أن السؤال سيطرح: ما هو شكل النظام البديل؟ وكيف ننتقل من الواقع هذا إلى ذاك، وهل نركز الحل على كل تلك المشاكل، أم أنها إفرازات للنظام وبحل النظام تنحل كل تلك المشاكل تلقائيا؟ وهذا ليس بخاص بباكستان، بل في أي واقع في أي دولة أخرى!

وحتى نفهم الموضوع بدقة، فلنأخذ مثلا كيف نصمم النظام السببي اللازم لعملنا في العملية التغييرية، يتألف النظام السببي هذا من أعمال معينة متعلقة بتغيير المجتمعات وأنظمة الدول تغييرا جذريا انقلابيا شاملا، فنتقصد الأعمال التي من شأنها أن تحدث التغيير في المجتمع بصورة قادرة على تفعيل الفعالية السببية للنظام السببي لإحداث التغيير، أو بدقة أكثر: للوقوع في مظنة القدرة على إحداث التغيير لأن التغيير والنصر والتمكين والاستخلاف كلها بيد الله تعالى، لكنه رتب نزولها على شروط وأعمال كلفنا بها:

**تَصْمِيْمُ الأَنْظِمَةِ السَّبَبِيَّةِ لعَمَلِ الأحْزَابِ، فَالأَسْبَابُ تَدْفَعُ الأعْمَالَ منَ الخَلْفِ والغَايَاتُ تَجُرُّ الأَعْمَالَ مِنَ الأَمَامِ، والغائية هي محرك تصميم النظام السببي:**

يشربُ الإنسانُ عند العطشِ، فالعملُ هو: شُربُ الماءِ، والدَّافعُ له هو العَطَشُ، والغايةُ من الشُّرْبِ هي الإرْتِوَاءُ، ويكونُ تَرتيبُ الدَّافع والغاية والعمل في الواقع كما يلي:

١- الدافع، ٢- العمل، ٣- تحقيق الغاية!

إلا أن هذا الحكم سطحيٌّ ويمثل نظرةً سطحية للواقع، لكن بالتعمق فيه نجد أن الإنسان يضع لنفسه أهدافا (غايات) وهو يسعى لتحقيقها من خلال بحثه عن العمل الذي يحقق الغاية ثم يقوم بمباشرة العمل.

وعليه فالترتيب الذي ينبغي أن يصار إليه عند القيام بأيِّ عملٍ – وسنضرب العمل لتغيير المجتمع وأنظمة الدولة من قبل الحزب العامل لإحداث هذا التغيير، مثالا - من أجلِ غايةٍ ما كما يلي:

١- الدافع، (وهو هنا الدافع لتغيير الواقع الفاسد، وعيش المسلمين عيشة غير إسلامية، وخضوعهم لأنظمة الجاهلية والطاغوت).

٢- الغاية المُتَصَوَّرَةُ في الذهن، (إقامة النظام الإسلامي، الذي تسوده أفكار الإسلام الصحيحة، تُستأنَفُ فيه الحياة الإسلامية، وتكون أعراف ومنكرات المجتمع والدولة أعراف الإسلام ومنكراته).

٣- التفكير بالعمل الذي يحقق الغاية وبالتالي يشبع الدافع، وهذا التفكير يقتضي أنواعا ثلاثة من الأفكار:

أ- التفكير بجملة الأفكار والمبادئ التي تضمن تحقق الغاية في الواقع، إذ إن تغيير الواقع يتطلب الصراع بين الأفكار التي أدت لفساد الواقع مع الأفكار التي يراد إحلالها محلها لتغيير الواقع بها، فيقوم القائمون على العمل ببلورة مجموعة من الأفكار اللازمة لهذا الصراع، وتصفيتها من الشوائب، وتنقيتها من الغريب الدخيل، لضمان قدرتها على تحقيق الغاية، ولا بد من وضع تصور دقيق للتطبيق العملي للأفكار التي يحملها الحزب حين وصوله للحكم، فيقوم الحزب بوضع مخطط تفصيلي لأنظمة الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع والقضاء وأمثالها ليبين للناس شكل النظام الذي يدعوهم إليه.

ب- التفكير في الطريقة اللازمة لإيجاد الغاية في الواقع (أي التفكير في الخطوات العملية التي تلزم لتفاعل الحزب مع المجتمع والدولة، بدراسة مقومات المجتمع والدولة، ووضع الخطة التفصيلية للتعامل مع تلك المقومات، أخذا بالسنن والنواميس التاريخية، والأحكام الشرعية العملية اللازمة للعملية التغييرية، والتفكير في العقبات التي تقف في طريقه، وكيفية أخذه لقيادة الأمة لإيصال الأفكار التي قام عليها لتقود المجتمع والدولة)، ولا بد للحزب من التفكير بالشروط اللازمة للعملية التغييرية وكيفية التفاعل معها (تصميم النظام السببي للطريقة وتفعيله).

ت- التفكير بالربط بين الفكرة اللازمة لتغيير الواقع مع الطريقة اللازمة لتغيير الواقع (إذ إن أهمية وجود وبلورة وتنقية الأفكار بدرجة أهمية وجود وبلورة الطريقة التي ستوصل هذه الأفكار للغاية وبدرجة أهمية تجانس الفكرة مع الطريقة).

٤- التفكير بالوسائل والأساليب اللازمة لتفعيل الطريقة، وبالتالي التفكير بالأسباب التي لا بد منها لاستغلال هذه الأساليب وكيفية التفاعل معها، وما يتضمن ذلك لوجود المعلول، (المعلول بالنسبة للأساليب والوسائل هو أعمال الطريقة)، والتفكير بالشروط اللازمة وكيفية التفاعل معها (تصميم النظام السببي للأساليب والوسائل وتفعيله).

٥- العمل (أعمال الطريقة، مثل التثقيف، الصراع الفكري، الكفاح السياسي، طلب النصرة...الخ).

٦- المراجعة والدراسة والبحث، فلا بد للحزب أن ينقب دوماً في أفكاره لتنقيتها من كل شائبة قد تلحق بها، ويصغي لكل رأي فيما تبناه ويصيخ سمعه لكل ما يحصل في المجتمع مما يتعلق بالأفكار والأحكام حتى يظل ما تبناه في الذروة التي لا يطالها أحد من الصحة والصدق والقوة ودقة الانطباق.

٧- تحقيق الغاية في الواقع.

٨- بناء ذلك كله على الإيمان لضمانات غاية في الأهمية:

وأن يكون ذلك كله مبنياً على الإيمان حتى يبقى الإنسان سائراً في الجو الإيماني سيراً دائمياً. ولا يجوز مطلقاً أن يفصل العمل عن الفكر أو عن الغاية المعينة أو عن الإيمان، فإن في هذا الفصل -مهما قل- خطراً على العمل نفسه، وعلى نتائجه، وعلى استمراره.

من هنا نقول بأن الغاية تعين نوع العمل، وأن الفكر يسبق العمل، إذن لا بد من الفكر الخاص بهذا الحزب الموصل له لبلوغ غايته!! أي لا بد من التبنّي!!

إن أي تجاوز لأي نقطة تفصيلية من هذه النقاط سيفضي إلى ارتكاسات في العمل، وإخفاق في تحقيق الغاية، **وتفريغ للطاقات والجهود في غيرما نتيجة**، ومن ثم إلى مراجعات وتراجعات وانتكاسات وإضافة عقد جديدة للواقع بدلا من حل العقد الكثيرة التي تكتنفه من جميع جوانبه! لذلك كان لزاما على كل من يتصدى للعمل المنظم الجماعي للتفاعل مع الواقع أن يتبنى ما يلزمه من أفكار وأن يتبنى طريقة لتغيير الواقع، فالتبني إذن **واجب من واجبات القيام بالعمل على وجهه**، ومن غير التبني لا يمكن أن تسمى أي حركة أو جماعة أو تكتل بالحزب، ومن الحتمي أن تكون أفعالها دائما ردّات أفعال ارتجالية.

وإن الحزب السياسي الذي لا يضع برنامجاً واضحاً أمام الأمة يبين كيف سيصل إلى التغيير وكيف سيحقق برنامجه الذي يطرحه للأمة للتغيير بشكل واضح دقيق فإنه **يضيع وقت الأمة الثمين**، ويلهو بشبابها ويفرغ شحناتهم، **وهو وبال على الأمة**، وعائق من عوائق النهضة، **ولا يزيد عمله عن أن يكون نوعا من العبث قيد أنملة**.

فالغايات شكلت لدى العاملين على التغيير **"باعثا"** لتسخير الأسباب **بشكل ذكي**، لإنتاج الأعمال، وهذا التسخير نسميه **"الغائية"**، لأنه محكوم بها (بالغاية)، ومنضبط بمحدداتها بالذات دون غيرها، فهي الباعث على

وجوده بالصورة تلك، فالغائية إذن يمكن فهمها أنها: **دراسة ما يلزم كل عقبة من أعمال للتغلب عليها، وتسخير كل سبب قادر على إنتاج المسبب، ودراسة كيفية تنفيذ المخطط لإنتاج الغاية**، فالغائية هي: **التدبير اللازم لتحقيق المخطط**، أي أن الغائية عبارة عن المحرك الدؤوب الذي يلزم في كل خطوة من خطوات العمل للانطلاق من الأخذ بالأسباب اللازمة لتحقيق الغايات أي المقاصد، والتغلب على العوائق والموانع، والتفاعل مع الشروط اللازمة.

## التطبيق العملي

فما هو الدافعُ وما هي الغايةُ المتصورةُ في الذهنِ من وراء عملية تغيير المجتمع وإقامة الدولة على أنقاض دولة أخرى؟ وما هي الأمور التي بتحققها يتحقق بلوغ الغاية؟ وما هي الأسباب التي لا بد من توفرها لحصول هذا العمل بشكل حتمي؟ سواء الأسباب اللازمة للطريقة (النقطة الثالثة) أو للوسائل والأساليب (النقطة الرابعة)؟

الجواب:

١) الدافع للتغيير هو تغيير دار الكفر إلى دار إسلام، وتمكين الدين، وتطبيق الشريعة، وإنهاض الأمة لتحمل رسالتها للأمم، وتقتعد مكانتها التي ارتضاها الله لها.

٢) والغاية المُتَصَوَّرَةُ في الذِّهْنِ استئناف الحياة الإسلامية، فهذه الغايات الكبرى، وينتج عن وجودها تحقق غايات أخرى كثيرة جانبية مثل محو الفقر، واستئصال الجريمة، ورفاهية العيش، وتحسين التعليم، والقضاء على الفساد والرشوة... الخ، تلك التي نشأت عن النظام الحالي المراد تغييره، فهي نتائج للواقع المراد تغييره فالانشغال بتغييرها يفاقمها لأنها انشغال عن السبب الأساس الذي نتجت عنه (كحال مريض سرطان جاء لطبيب لديه أعراض من الحمى ووجع البطن وغيرها، فإن انشغل الطبيب بالأعراض عن المرض الأساس تفاقم المرض الأساس، فلا يعطيه من علاجها إلا ما يلزم لتخفيض الحرارة مثلا أي للحفاظ على الحياة، بل إن الإكثار من أنواع الأدوية التي تخص كل عرض من الأعراض سيفضي لتعارض الأدوية وملء الجسم بالكيماويات، ولربما تتعارض مع علاج المرض الأساس، فالتركيز يكون على المرض الأساس).

٣) وأما نوع العمل الذي يحقق الغاية، فهو إقامة الدولة الإسلامية التي بوجودها: سيتمكن الدين، وبدون وجودها لن يتمكن الدين، وبوجودها: تتحول الدار إلى دار إسلام، وتوضع أحكام الإسلام موضع التطبيق، وينهض المسلمون ويرتقوا، وتقتعد الأمة الإسلامية المكانة اللائقة بها، وتتمكن من حمل رسالتها بين الأمم. (ومن نافلة القول أن الفقر والجهل والبطالة والعنوسة وسائر أدواء المجتمع تحل بتطبيق النظام الإسلامي تطبيقا صحيحا، وقد تستغرق وقتا ما بين قيام الدولة وتفعليها للبرامج التي تحل هذه المشاكل وبين حلها)، ولإقامة الدولة طريقة وأعمال سببية لا تقام دولة على أنقاض دولة إلا بالأخذ بها، منها إقامة الحزب، وتثقيفه، وتفاعله مع المجتمع، وصراع أفكار المجتمع، وما استفضنا به من أعمال الطريقة، وهذه الأعمال هي أنظمة سببية، ينبغي الأخذ بها، فمثلا: الصراع الفكري نظام يقتضي هدم الأفكار المخالفة، مثلا الديمقراطية، وبالتالي تدرس الأفكار وتضع اليد على مواطن ضعفها وتعارضها مع

الفكر الإسلامي، وتبلور الأفكار حولها، وتبلور البديل الإسلامي، رؤيةً وتصوراً وطرحاً، وتقذف باطلَ الديمقراطية بحق الإسلام فيدمغه فإذا هو زاهق، والصراع هذا يتم في المجتمع، للباطل رؤوسه وإعلامه وأهله، فيدور صراع بينهم وبين الدعوة، فيضعون العوائق في طريق وصولها للناس، والدعوة تسعى لإيجاد رأي عام حول تلك الأفكار، فكيف تتحول الأفكار لرأي عام؟ هذا له تقنياته التي درسناها في فصل بناء الرأي العام، وهكذا، فالمسألة إذن نظام سببي يبغي هدم فكر وإحلال فكر آخر مكانه في مجتمع حركي (ديناميكي) حيوي يتفاعل، فيه لاعبون كثر.

أما الأسباب التي ينبغي التفكير بها والتي بوجودها يتم تفعيل نظام السببية للطريقة وأعمالها، وبغيابها لن يفضي العمل إلى تحقيق الغاية المتصورة في الذهن، فهي كما قال الإمام تقي الدين النبهاني في جواب سؤال: "**و إقامة دولة أي دولة، في جماعة أي جماعة، لها قوانين ونواميس**، وهي أن تتقبل تلك الجماعة أو الفئة الأقوى فيها للمفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقوم عليها تلك الدولة، وما لم تتقبل تلك المفاهيم والمقاييس لا يمكن أن تقوم فيها الدولة، ولو تسلط عليها متسلطون، وتولى السلطة فيها أقوياء. فالأصل في إقامة الدولة هو تقبل الجماعة أو الفئة الأقوى لتلك المفاهيم والمقاييس والقناعات، فالخطوة الأولى هي المفاهيم والمقاييس والقناعات. هذه هي نواميس الجماعات، وهذه هي **قوانين الحكم والسلطان**. فهذه القوانين مشاهدة منظورة، فمحاولة تجاهلها، وأخذالسلطة بالقوة والقهر، لا يمكن أن يوجد الدولة، وإن كان يمكن أن يوجد المتسلطين إلى حين"[١٨٦]،

وذلك لأن إقامة الدولة تعني إقامة وأخذ السلطان وهذا لا يتحقق إلا بأمرين:[١٨٧]

**أحدهما**: **رعاية المصالح، أي مصالح الناس عامة، (نظام الحكم، و أنظمة الدولة)** بأحكام معينة.

**وثانيهما**: **القوة التي تحمي الرعية، وتنفذ الأحكام**، أي الأمان.

**أما رعاية مصالح الناس عامة (نظام الحكم، و أنظمة الدولة)** بأحكام معينة. فقد ثبت بما لا يدعُ مجالاً للشك **أن السلطة هي التصرف في مصالح الناس**، ومصالح الناس تتحدد قطعاً **حسب وجهة نظرهم في الحياة**، فما يرونه من أعمال وأشياء مصلحة لهم يعتبرونه مصلحة، وما لا يرونه مصلحة يرفضون أن يعتبرونه مصلحة، **فالمصلحة إنما تكون من حيث النظرة إليها لا من حيث و اقعها فقط**، فالموت في سبيل الله (الاستشهاد) يراه المسلم أنه مصلحة **مع أنه موت [أي الموت ليس مصلحة في ذاته]**، والربا عند المسلم لا يراه مصلحة مع أنه كسب مال [كسب المال هو مصلحة في ذاته]، **فوجهة النظر في الحياة حددت طبيعة الشيء بأنه مصلحة أو مفسدة**، فالكذب مفسدة ولكنه في الحرب مصلحة، مع أن واقعه أنه كذب **لم يختلف في الحالتين**، وإنما اختلفت النظرة إليه بحسب وجهة النظر في الحياة، **فالمصالح هي قطعاً حسب وجهة النظر في الحياة**، فمن يريد أن يأخذ السلطة إنما يعني أنه **يريد التصرف في مصالح الناس**، فلا بد أن **يأخذ هو وجهة نظر الناس** وحينئذ يتصرف في مصالحهم حسب

---

[١٨٦] جواب سؤال عن الغيبيات والأسباب والمسببات ١٩٧٤ تقي الدين النبهاني.

[١٨٧] مقدمة الدستور، أو الأسباب الموجبة له، أحكام عامة.

وجهة نظرهم، **وإما أن يعطيهم وجهة نظره في الحياة فيقنعهم بها ثم يتصرف في مصالحهم**، أو أن يجبرهم على رؤيته كما في أنظمة الإستبداد، (والتي لا تدوم لإخلالها بهذا الشرط) وفي الحالتين الأولى والثانية **إنما جعل النظرة إلى الحياة أساساً في أخذ التصرف في مصالح الناس، أي أساساً في أخذ السلطة**، بناء على رضا الطرفين، وفي الحالة الثالثة اختلفت فقط بفرض وجهة النظر لدى الحاكم على الناس فرضا، وبقيت هي الزاوية التي من خلالها تؤخذ السلطة، وعليه **فإن النظرة إلى الحياة هي الأساس في أخذ السلطة**، لذلك كان لزاما العمل على تغيير النظرة إلى الحياة إن خالفت تلك النظرةُ الإسلامَ، **و إقناع الناس باتخاذ العقيدة الإسلامية أساسا في نظرتهم إلى الحياة وإلى مصالحهم**، فحيثما كان الشرع فثم المصلحة، **وأن يتحول الرأي العام في المجتمع لاتخاذ هذه النظرة أساسا للحكم**، فتقوم بناء على ذلك: مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات من هذه العقيدة، وتحمل إلى المجتمع أو إلى الفئة الأقوى فيه والتي تمتلك القدرة على إحداث التغيير فيه، فيؤخذ الحكم ممن لا يقيمونه على أساس هذه النظرة، من هنا فاستئناف الحياة الإسلامية يقتضي أن تتحول النظرة إلى المصالح والأفعال والشؤون إلى زاوية الإسلام فتتخذ هي الزاوية التي يحكم بها على المصالح وترعى الشؤون على أساسها، **لذلك كان عمل الحزب المركزي تغيير المفاهيم والقناعات والمقاييس التي لدى المجتمع لإقامة الدولة على أساس مفاهيم ومقاييس وقناعات إسلامية، يقيم السلطان على أساسها وتحل محل ما يخالف الإسلام في الو اقع.**[188] **فهذا العمل يجري وفقا للسنن الإلهية: التي بينت طريقة عمل الرسول ﷺ والتي استنبطناها منها، ويستجلب النصر من الله بحسن اتباع منهج نبيه ﷺ، ويجري وفقا للسنن المجتمعية، فيحقق إقامة الدولة بالضرورة، وحتما، بإذن الله تعالى حين يشاء الله تعالى.**

ويراعي هذا العمل: الشروط اللازمة لإنجاحه من خلال البحث في مقومات الدولة، وكيفية التعامل مع كل مقوم من هذه المقومات بشكل يفضي إلى إحداث التغيير واستمراره!

وأما أخذ الحكم بالقوة، فإنه ليس من السنن، وذلك لأن من يريد أخذ الحكم بالقوة، عليه أن يستعين بقوة أقوى مادياً وفكرياً من قوة الشعب كالاستعانة بنفوذ الدول الكبرى، وبذلك قد يستطيع أن يتغلب على الشعب ويأخذ السلطة، ولكن مثل هذه الدولة تقوم كالجمر من تحت الرماد، لا يلبث أن يشعل النار ولو بعد حين، ولذلك لا يجعل عمل من يأخذ الحكم بالقوة دليلاً على جعل القوة أساساً لأخذ السلطة، فلا بد من جعل نظرة الأمة في الحياة أمراً أساسياً والاستعانة بقوة الأمة الذاتية مادياً وفكرياً.

٤) وأما الوسائل والأساليب، أي التفكير بالوسائل والأساليب اللازمة لتفعيل الطريقة، وبالتالي التفكير بالأسباب التي لا بد منها لاستغلال هذه الأساليب وكيفية التفاعل معها، وما يتضمن ذلك لوجود المعلول، (المعلول بالنسبة للأساليب والوسائل هو **أعمال الطريقة**)، والتفكير بالشروط اللازمة وكيفية التفاعل معها (تصميم النظام السببي للأساليب والوسائل وتفعيله) فإن من أعمال الطريقة مثلا: حمل

[188] أنظر مجموعة النشرات التكتلية، ص ١٣٧ بتصرف.

الدعوة، ولهذا الحمل وسائل، مثل المذياع والصحيفة ووسائل التواصل الاجتماعي، وأساليب: مثل الخطبة والمقالة والنقاش، ولكن التعامل مع هذه الوسائل والأساليب يقتضي الوقوف على سننها ونواميسها، فمثلا: قد تكتب أفضل مقالة، ولكن لا يقرؤها إلا ثلة قليلة، لماذا؟ لأنك حين كتبتها في مواقع التواصل الاجتماعي مثلا لم تأخذ ببعض السنن والنواميس أو الأنظمة التي صممت تلك المواقع على أساسها، فكان الجمهور قليلا، فقد يكون من التقنيات مثلا أن تكتب في صحف يومية مقالات هامة حتى تكون وجها إعلاميا معروفا، وأن تتقصد مواقع لها روادها من المثقفين فتربط هؤلاء وأولئك بصفحاتك على مواقع التواصل الاجتماعي، وأن يستعمل لمقالته الكلمات الدلالية التي يكثر البحث عنها في محركات البحث، وأن يطرق الموضوعات التي تهم الناس وتجيب على تساؤلاتهم، وأن يختار للموضوع عنوانا جذابا، وأن يتقصد مواقع ازدحام الناس فيطرق تلك المناطق بهمة، كأن يجيب على شبهة ألقاها متفيقه فيصرعه بالحجة والبرهان، وأن يختار لمقالته أوقات الذروة من تواجد القراء على الشبكة في تلك الأوقات ويعيد النشر والتذكير ويستعمل المجموعات ذات الأعداد الكبيرة من الأعضاء، وقد يكون من التقنيات المهمة إجراء نقاشات حول الأفكار يكون فيها طرفان، فالناس تتابع مثل هذا بشكل أكبر، وقد يكون من التقنيات الحملات الدعائية، فتنشر أخبارا عن مقالتك تلك على وسائل متعددة تربط بمقالتك تلك، أو يتقصد فريق من المتابعين الترويج لمقالتك تلك، أو تدفع مقابل الدعاية لها، بالإضافة إلى المضمون، وحجمه، وطريقة طرحه، وهكذا، فهذه الأساليب والوسائل تحتاج لفهم أسرارها وتقنياتها وتفعيلها لتخدم العمل الأساس من أعمال الطريقة وهو حمل الدعوة!

٥) وأما القيام بالعمل، فإنه من المعلوم أنه عندما تتوالى المصائب على الأمة، وتتتابع عليها الأحداث الجسام، والخطوب العظام، ويسود فيها الظلم، ويوسد الأمر إلى غير أهله، يبدأ الناس بالتذمر، ثم ينتقل هذا إلى إحساس بالظلم، يدفع إلى الحركة لدفع الظلم، وإبعاد الفساد، ورفع شأن المجتمع والأمة، والنهوض بها إلى المستوى الذي يليق بها، ومن البديهي أن يُلجأ من أجل بلوغ ذلك إلى التكتل، والعمل الجماعي، **لإيجاد القوة القادرة على إحداث التغيير**، في الخطوب التي تتعدى قدرات الفرد كفرد، بمعزل عن جماعة، أي لإيجاد الطاقة السببية القادرة على تفعيل الأسباب لإنتاج مسبباتها،

ولا شك أن اجتماع هؤلاء القوم من أجل تحقيق ذلك الأمر الذي نهضوا من أجله، سيجمعهم على هدف أو أهداف، أو أفكار يلتفون حولها تتضمن أهدافهم وخطة سيرهم لبلوغ مرامهم، وبدون هذه الأفكار وبدون رسم طريقة لبلوغ الغاية، وبدون تصور للغاية قابل للتطبيق، لن يثمر العمل وستفشل الحركة فشلا ذريعا طال الوقت أم قصر. لذلك فالعمل المطلوب لإحداث هذا التغيير هو العمل الحزبي، والذي سيتطلب وجود حزب، عليه أمير مطاع، ولديه ثقافة متبناة تضع النقاط على الحروف، وترسم مخططا للعملية التغييرية وفق قوانين السببية، ثم يعمل هذا الحزب في المجتمع بشكل صحيح فينتج عن عمله هذا تفعيل العلاقة السببية، فيتقصد المجتمع ليغيره بمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات، ويتقصد مقومات الدولة، ويصمم مخطط التغيير الهندسي تصميما ذكيا، ويفعل العلاقات والأنظمة

السببية فيصلح العمل بحسن اتباع الأنظمة السببية والقيام به على وجهه فيقع في مظنة تنزيل النصر وهو حدوث التغيير وإقامة الدولة!

٦) ثم تقوم الدولة!

## سنة قيام الدول في التاريخ جرت على هذا نفسه!

استقرأنا في هذا البحث السنة التي أقام بها المصطفى ﷺ دولة الإسلام في المدينة، فوجدناها على نفس هذه السنة، واستغرقت العملية التغييرية ١٣ سنة، وفيها تفصيلات خاصة لأعمال يجوز القيام بها وغيرها مما هو ممنوع،

وباستقراء نشوء الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية نجد إقامة العباسيين للحزب السياسي الفاعل الذي نشط في خراسان والكوفة، وأقام الرأي العام حول فكرة الرايات السود، والإمام، وأحقية بيت النبوة بالخلافة، وطعن في الدولة الأموية ورعايتها لشئون الناس، وأخذ بأسباب القوة في خراسان حتى استتبت له فبدأ بالثورة منها وأقام الدولة في الكوفة!

وبالمثل فقد استعان عبد الرحمن الداخل بقوة اليمنيين في المجتمع الأندلسي لأخذ الحكم بعد أن كان يجد قوة معنوية متمثلة بالولاء لأجداده الأمويين في الدولة، فالناس رأت أن له في أعناقها بيعة! واستغل حاجة المجتمع لقائد قوي يخلصه من كثرة الخصومات والحروب والانشغال عن الثغور وإضعاف الدولة!

ودولة المرابطين في المغرب نشأت بالطريقة ذاتها، فقد جاء الفقيه عبد الله بن ياسين إلى جنوب موريتانيا حيث قبلية جُدَالة، بدعوة من يحيى بن إبراهيم الجُدالي، لمحاربة البدع والفسق في مجتمعه، ثم لما صار ما صار من مناهضة لرأيه وثار عليه أصحاب المصالح، بل وثار عليه الشعب أيضًا، فالكل يريد أن يعيش في شهواته وملذاته ودون قيد أو شرط، وأصحاب المصالح هم أكبر مستفيد مما يحدث، فبدأ الناس يجادلونه ويصدّونه عما يفعل، ولم يستطع يحي بن إبراهيم الجُدالي زعيم القبيلة أن يحميه، فالغالبية من قبيلة لمتونة، وقد ولوه الإمارة عليهم مع أنه من جدالة، وذلك لأن الشعب كان لا يعرف الفضيلة، وفي ذات الوقت كان رافضًا للتغيير، ولو أصر يحى بن إبراهيم الجُدالي على موقفه هذا لخلعه الشعب ولخلعته القبيلة، ثم ارتحل بن ياسين عنهم تحت الضغط الشديد والتهديد بالقتل إلى شمال السنغال، وصنع خيمة بسيطة له وجلس فيها وحده مع يحيى بن إبراهيم، ثم بعث برسالة إلى أهل جُدالة في موريتانيا، تلك التي أخرجه أهلُها منها يخبرهم فيها بمكانه، فمن يريد أن يتعلم العلم فليأتني في هذا المكان، وتوافدت عليه جموع طلبة العلم، ممن استقر الرأي العام في قلبه ولم يستطع إظهاره قبل هذا، فشكل بهم حزبا، فثقفهم وعلمهم، مع كثرة الخيام وازدياد العدد إلى الخمسين فالمائة فالمائتين، أصبح من الصعب على الشيخ توصيل علمه إلى الجميع، فقسمهم إلى مجموعات صغيرة، وجعل على كل منها واحدًا من النابغين، وهو نفس منهج رسول الله ﷺ بداية من دار الأرقم بن أبي الأرقم، وحين كان يجلس ﷺ مع صحابته في مكة يعلمهم الإسلام، حتى بلغ العدد في سنة ٤٤٠ هـ= ١٠٤٨ م، بعد أربعة أعوام فقط من بداية دعوته ونزوحه إلى شمال السنغال إلى ألف نفس مسلمة، وفي قبائل صنهاجة المفرّقة والمشتتة توزّع هؤلاء الألف الذين كانوا كما ينبغي أن يكون الرجال، فأخذوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يعلمون الناس الخير ويعرفونهم أمور دينهم،

فبدأت جماعتهم تزداد شيئًا فشيئًا، وبدأ الرقم يتخطى حاجز الألف إلى ثلاثمائة وألف، فكان التفاعل مع المجتمع لإيجاد الرأي العام فيهم، ولإيجاد منظومة الأفكار التي يراد لها أن تكون أعرافا في المجتمع، وفي سنة ٤٤٥ هـ= ١٠٥٣ م يحدث ما هو متوقع وليس بغريب عن سنن الله سبحانه وتعالى فكما عهدنا أن من سنن الله سبحانه وتعالى أن يتقدم المسلمون ببطء في سلّم الارتفاع والعلو، ثم يفتح الله عليهم بشيء لم يكونوا يتوقعونه، أيضا في هذه البلاد تحدث انفراجة كبيرة، ويقتنع بفكرة الشيخ عبد الله بن ياسين وجماعته من شباب قبيلة جُدالة يقتنع يحيى بن عمر اللمتوني (ت ٤٤٧ هـ= ١٠٥٥ م) زعيم ثاني أكبر قبيلتين من قبائل صنهاجة وهي قبيلة لمتونة - القبيلة الأولى هي جُدالة كما ذكرنا -.

فدخل في جماعة المرابطين، وعلى الفور وكما فعل الصحابي الجليل سعد بن معاذ ﷺ حين دخل الإسلام وذهب إلى قومه وكان سيدًا عليهم وقال لهم: إن كلام رجالكم ونسائكم وأطفالكم عليّ حرام، حتى تشهدوا أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، قام يحيى بن عمر اللمتوني وفعل الأمر نفسه، وذهب إلى قومه وأتى بهم ودخلوا مع الشيخ عبد الله بن ياسين في جماعته، وأصبح الثلاثمائة وألفا: سبعةَ آلافٍ في يوم وليلة، حملة دعوة كما ينبغي أن يكون الإسلام.

وفي مثال لحسن الختام وبعد قليل من دخول قبيلة لَمْتُونة في جماعة المرابطين يموت زعيمهم الذي دلّهم على طريق الهداية الشيخ يحيى بن عمر اللمتوني (٤٤٧ هـ= ١٠٥٥ م)، ثم يتولى من بعده زعامة القبيلة الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني (٤٨٠ هـ= ١٠٨٧ م).

دخل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني بحماسة شديدة مع الشيخ عبد الله بن ياسين، وبدأ أمرهم يقوى وأعدادهم تزداد، وبدأ المرابطون يصلون إلى أماكن أوسع حول المنطقة التي كانوا فيها في شمال السنغال، فبدءوا يتوسعون حتى وصلت حدودهم من شمال السنغال إلى جنوب موريتانيا، وأدخلوا معهم جُدالة، فأصبحت جُدالة ولَمْتُونة وهما القبيلتان الموجودتان في شمال السنغال وجنوب موريتانيا جماعة واحدةً تمثّل جماعة المرابطين[١٨٩]، ثم انصرف أبو بكر اللمتوني ينشر الدعوة في شمال أفريقيا وبلاد السودان، وخلف وراءه يوسف بن تاشفين، والذي مكن للدولة في المغرب الأقصى جميعه، وهكذا بدأت دولة المرابطين آخذة بعين السنة المجتمعية في تكوين الدول، ومرت بأطوار التغيير والتثقيف والتفاعل مع المجتمع والنصرة من أهل القوة الذين فتحوا أبواب المجتمع أمامهم، ثم انتشرت الدولة بالدعوة والجهاد، وهكذا نشأت هذه الدولة العظيمة!

ومن ثم فإنه باستقراء نشوء الدولة الفرنسية بعد إسقاط النظام الملكي، نجد أن ما يسمى عصر النهضة رافقه قيام حركة فكرية روجت للأفكار التنويرية القائمة على مبادئ معينة نشرت بين الناس مثل الحرية والإخاء والمساواة، وحقوق الإنسان والليبرالية والعلمانية بديلا للمسيحية، وجرى تبني هذه الأفكار وقامت الثورة الفرنسية بناء عليها، واستغلت مطالب الطبقات الوسطى والفقيرة في المجتمع لحشدها، وإحقاق بعض الحقوق لطبقة العمال، ونجحت في هدم كيان وإقامة آخر محله! فمحور العملية التغييرية كان إحلال نظام قائم على مفاهيم معينة علمانية محل مفاهيم قديمة، وحشد الرأي العام حولها، والاستقواء بالطبقات المسحوقة في

---

[١٨٩] بتصرف عن موقع الدكتور راغب السرجاني: قصة الإسلام.

المجتمع لبلوغ القوة اللازمة لفرض التغيير، واستمرت العملية التغييرية حوالي عشر سنوات من الثورة. على أن الثورة قامت صدى لأفكار المفكرين "التنويريين" كما يسمونهم، ولم يقف وراءها حزب سياسي واحد، إلا أن انتشار الأفكار في العامة كان جراء الحاجة للتغيير، والحقيقة أن الحزب السياسي والمفكر أو العالم صنوان إذا ما كانت الأفكار والطريقة التي توصل الأفكار للحكم واضحة، وما مثال عز الدين بن عبد السلام رحمه الله وقيادته لحزب غير مسمى قوامه طلابه ومريدوه من غالبية الرعية في مصر، فما أن خرج محتجا على الحاكم حتى خرجت الجموع وراءه مما اضطر الحاكم للنزول على رغبته خشية من الرأي العام، وما مثال يزيد بن هارون ووقوفه بحزم أخاف المأمون من إظهار القول بخلق القرآن حتى مات يزيد رحمه الله تعالى، فالعالم والمفكر قد يكونا قائدين لحزب سياسي ليس له اسم، ولكن له وجود وثقل وحركة في المجتمع، بخلاف العالم والمفكر الذي يودع أفكاره بطون الكتب ولا يطرح فيها آلية إيجادها في الواقع فلا يكون لها من أثر في الواقع ولا في الأمة!

وها هي الأحزاب السياسية الرئيسية في العالم حين تريد الوصول لسدة الحكم وأخذه، فإنها تطرح برامجها الفكرية ووجهة نظرها على المجتمع، فيجري اختيارها بما تحوزه وتؤثر فيه من الرأي العام الذي تراوده على طريقة رعاية مصالحه وفق أنظمة معينة يتقبلها.

## مقارنة بين طريقة حزب التحرير في التغيير وبين الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية والروسية والصينية في الخطوط العريضة للعملية التغييرية،

الغرض من هذه المقارنة هو وضع اليد على السنن المجتمعية في عملية التغيير والتي لا يمكن إحداث التغيير إلا من خلالها: عمليات تغيير أنظمة الحكم التي جرت في التاريخ تشمل عدة أمثلة بارزة، مثل الثورة الفرنسية، والثورة الأمريكية، وغيرها. هنا مقارنة بين الخطوات الرئيسية التي اعتمدت عليها تلك الثورات وبعض هذه الأمثلة:

**الثورة الفرنسية:**

**تغيير الرأي العام**: تمثلت هذه الخطوة في تأثير الفلاحين والطبقات السفلى من المجتمع الفرنسي، والذين كانوا ضد النظام القديم ويرغبون في التغيير نحو الديمقراطية.

**حشد القوى المؤثرة**: تمثلت هذه الخطوة في تأثير الفكر الفلسفي والإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي دعمت التغيير، بما في ذلك دعم الطبقات النبيلة المناهضة للنظام القديم.

**تحصيل القوة اللازمة**: تم استخدام عمليات إشراك القوة والصراع العسكري للتمكن من تحقيق التغيير، حيث شهدت الثورة مراحل مختلفة من الصراع المسلح والسيطرة على السلطة.

**الصراع الفكري**: كانت الثورة الفرنسية تعبر عن صراع بين الأفكار الجديدة للحرية والمساواة والأفكار التقليدية التي كانت تدعم النظام الملكي والطبقية.

**الكفاح السياسي**: شمل ذلك قطع العلاقة بين الشعب والملكية وتحقيق التغيير الجذري في نظام الحكم بإسقاط النظام الملكي وإقامة الجمهورية.

**الاستراتيجيات اللازمة في الثورة الفرنسية:**

١. **الدعاية والإعلام**: استخدام الصحافة والمنشورات لنشر الأفكار الثورية.

٢. **التحالفات السياسية**: تشكيل تحالفات مع الطبقات المؤثرة.

٣. **العنف المسلح**: استخدام القوة العسكرية لتحقيق التغيير.

**الثورة الأمريكية:**

**تغيير الرأي العام**: تم تحقيق هذه الخطوة من خلال الحث على الاستقلال والحرية من الحكم البريطاني، وتأثير الكتابات الفلسفية مثل "المنشورات الفيدرالية".

**حشد القوى المؤثرة**: تمثل في دعم الطبقات المتوسطة والنبلاء المحليين لحركة الاستقلال والتأثير بواسطة قادة الثورة مثل جورج واشنطن وتوماس جيفرسون.

**تحصيل القوة اللازمة**: تم ذلك من خلال النضال المسلح والحرب الثورية التي قادت إلى الاستقلال وتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية كدولة مستقلة.

**الصراع الفكري**: كان الصراع بين أفكار الديمقراطية وحقوق الإنسان ضد الحكم الاستعماري والضغط الضريبي البريطاني.

**الكفاح السياسي**: تضمن قطع العلاقة مع بريطانيا، وإقرار إعلان الاستقلال كتأكيد على حق الشعب في تحديد مصيرهم السياسي.

**الاستراتيجيات اللازمة للتغيير في الثورة الأمريكية:**

١. **الدعاية والإعلام**: استخدام المنشورات والخطب لنشر الأفكار الثورية.

٢. **التحالفات السياسية**: تشكيل تحالفات مع القوى المؤثرة.

٣. **العنف المسلح**: استخدام القوة لتحقيق التغيير.

**الثورة الروسية البلشفية (١٩١٧):**

**تغيير الرأي العام**: شهدت الثورة الروسية انتشار أفكار الشيوعية والمساواة الاجتماعية بين الطبقات، ونشر الوعي بالظروف الاقتصادية الصعبة والظلم الاجتماعي.

**حشد القوى المؤثرة**: كان هناك دعم من الطبقات العمالية والفلاحية والجيوش المنشقة والفكر الثوري لتحقيق التغيير.

**تحصيل القوة اللازمة**: تم ذلك من خلال الثورة الشعبية والانتفاضة ضد النظام الملكي والاستبدادي.

**الصراع الفكري**: كان الصراع بين الفكر الشيوعي والنظام القديم الرأسمالي والتأثير الثقافي والديني.

**الكفاح السياسي**: شمل ذلك إسقاط النظام الملكي وإنشاء حكومة شيوعية جديدة بقيادة البولشفيك، وتحقيق تغييرات جذرية في النظام الاقتصادي والسياسي.

**الاستراتيجيات اللازمة في الثورة الشيوعية:**

١. **الدعاية والإعلام**: نشر الأفكار الشيوعية.

٢. **التحالفات السياسية**: تشكيل تحالفات مع الطبقات العمالية والفلاحية.

٣. **العنف المسلح**: استخدام القوة لتحقيق التغيير.

**الثورة الصينية (١٩٤٩):**

**تغيير الرأي العام**: تمثل في نشر الفكر الشيوعي والاحتجاج ضد النظام القديم والعرش الإمبراطوري والفساد.

**حشد القوى المؤثرة**: كان هناك دعم من الفلاحين والعمال والجيش الشعبي والفكر الثوري لتحقيق الثورة.

**تحصيل القوة اللازمة**: تم ذلك من خلال الحرب الأهلية والصراع الداخلي والسيطرة على البلاد بواسطة القوات الشيوعية.

**الصراع الفكري**: كان الصراع بين الفكر الشيوعي، والنظام القديم، والتأثير الثقافي، والديني.

**الكفاح السياسي**: شمل ذلك إنشاء جمهورية شعبية جديدة بقيادة الحزب الشيوعي، وتحقيق تغييرات جذرية في النظام الاقتصادي والسياسي والثقافي.

**الاستراتيجيات اللازمة في الثورة الصينية:**

١. **الدعاية والإعلام**: نشر الأفكار الشيوعية.

٢. **التحالفات السياسية**: تشكيل تحالفات مع الفلاحين والعمال.

٣. **العنف المسلح**: استخدام القوة لتحقيق التغيير.

**مقارنة وتحليل:**

تتشابه هذه الخطوات في كل من الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية والروسية والصينية في جوانب عديدة، مثل التركيز على تغيير الرأي العام، حشد القوى المؤثرة، واستخدام الصراع الفكري والسياسي لتحقيق الهدف النهائي، وهو تحقيق التغيير السياسي والاجتماعي. كل الثورات شهدت مراحل مختلفة من النضال والحرب لتحقيق الاستقلال وتغيير الأنظمة الحاكمة لكنها اشتركت في الخطوط العريضة واختلفت في قليل من التفاصيل.

تظهر هذه الأمثلة كيفية استخدام الخطوات الرئيسية لتغيير أنظمة الحكم في سياقات مختلفة من التاريخ، مع التركيز على التأثير الشعبي والاجتماعي والسياسي لتحقيق الهدف المطلوب. يبرز التحليل الأهمية الكبيرة **لتنظيم القوى المؤثرة وتحصيل القوة اللازمة والصراع الفكري والكفاح السياسي** كأدوات أساسية في تحقيق التغييرات الجذرية في الأنظمة السياسية والاجتماعية.

يوضح تحليل عمليات تغيير أنظمة الحكم في الثورات المذكورة (الفرنسية، الأمريكية، الروسية، الصينية) استراتيجيات مشتركة وأساليب متشابهة تستخدم لتحقيق التغيير الجذري في الأنظمة السياسية والاجتماعية. وبالاستقراء نخلص إلى تحديد النقاط الرئيسية التي تم استخدامها في هذه العمليات التغييرية:

**تغيير الرأي العام**: كانت جميع الثورات تعتمد على تحويل الرأي العام لصالح التغيير. تم هذا عبر نشر الوعي بالظلم والاستبداد الموجودين في الأنظمة الحاكمة، وبث الأفكار الجديدة للحرية والمساواة. في كل منها، وشكلت الصحافة والمنشورات الفكرية والخطب والمناظرات دعامات أساسية في تشكيل الرأي العام.

**حشد القوى المؤثرة**: كانت الثورات تعتمد على جمع الدعم من الطبقات الاجتماعية، والفئات المؤثرة في المجتمع. ففي الثورة الفرنسية، على سبيل المثال، تم دمج دعم الفلاحين والطبقات العاملة مع دعم النبلاء المتحمسين للإصلاحات الديمقراطية. أما في الثورة الأمريكية، فتحالفت الطبقة الوسطى مع النبلاء المحليين ضد الاستعمار البريطاني.

**تحصيل القوة اللازمة**: كان النضال المسلح جزءاً حاسماً في جميع الثورات، حيث تم استخدام القوة العسكرية والثورية لتحقيق الأهداف السياسية. من خلال الحروب الثورية والصراعات الداخلية، تمكنت هذه الحركات من قطع العلاقة بين الشعب والسلطات السابقة، وتحقيق السيطرة على المؤسسات الحكومية.

**الصراع الفكري**: كانت الثورات مرحلة من الصراع بين الأفكار القديمة والجديدة، حيث تم التأكيد على القيم الثورية مثل الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، مقابل النظم القديمة التي كانت تدعم الطبقات الخصوصية والاستبداد.

**الكفاح السياسي**: شملت هذه الخطوة إنشاء هياكل حكومية جديدة بمشاركة واسعة من الشعب، والتمرد على المؤسسات السياسية السابقة والإطاحة بها، وإعلان استقلال وتحقيق تغييرات دستورية لضمان تحقيق الأهداف الثورية. في كل من الثورات، تم تشكيل حكومات جديدة تمثل إرادة الشعب وتعكس القيم الثورية التي

حققتها الحركات الثورية، أي إن العملية التغييرية قد اعتمدت على أن تجعل المفاهيم والمقاييس والقناعات التي أوجدتها في المجتمع وحشدت الجموع لتؤمن بها أساساً لنظام الحكم الجديد.

تلخيصاً، تظهر هذه الثورات كيفية استخدام خطوات مشابهة ومتشابكة لإحداث التغيير الجذري في الأنظمة السياسية والاجتماعية. يعود النجاح في كل منها إلى القدرة على **تنظيم القوى المؤثرة**، وتحقيق القوة اللازمة، والصراع الفكري والسياسي لتحقيق الهدف المطلوب من الثورة.

## لإجراء مقارنة بين طريقة حزب التحرير في التغيير والثورات التاريخية المذكورة،

نلخص النقاط الرئيسية التي تم استخدامها في كل منها ونقارنها بالممارسات التي ينتهجها حزب التحرير:

**تغيير الرأي العام:**

**الثورات التاريخية**: استخدمت الثورات الفرنسية والأمريكية والروسية والصينية وسائل مختلفة لتأثير الرأي العام، مثل الصحافة، والمنشورات الفلسفية، والخطب العامة لنشر الأفكار الثورية والدعم للتغيير.

**حزب التحرير:**

يسعى الحزب إلى تغيير الرأي العام من خلال تغيير المفاهيم والمقاييس والقناعات لدى المجتمع عن طريق العمل الدعوي المكثف، واستغلال الأحداث للتأثير في الرأي العام، عن طريق إظهار فساد إدارة الحكومات والأنظمة لمصالح الناس، وفساد الأفكار التي تدار بها هذه المصالح، ويستخدم التوعية والتثقيف بفكره ورؤيته للتغيير السياسي والاجتماعي، من خلال الخطب، والدعوة، والنشاطات الاجتماعية والفكرية لنشر الوعي بالحاجة للتغيير نحو نظام حكم يتمتع بتطبيق الشريعة الإسلامية، أي يتمتع بالشرعية وبالعدالة والفعالية والقدرة على إحداث التغيير في حياة المجتمع.

**حشد القوى المؤثرة:**

**الثورات التاريخية**: اعتمدت على تحالفات مع الطبقات الاجتماعية المؤثرة مثل النبلاء، والعمال، والطبقات الوسطى لتحقيق الهدف الثوري.

**حزب التحرير**: يعتمد على جمع الدعم من الشرائح المختلفة في المجتمع، بما في ذلك المؤثرين في المجتمعات (بخطابهم بالاضطلاع بدورهم)، بالعمال والفلاحين والتجار والشباب والطلاب، الذين يشكلون غالبية أعضائه أو المؤيدين له، من خلال التواصل المباشر وبرامج التثقيف والدعوة، ويعتمد على أفكار واضحة يسهل الإجماع عليها بين الناس لتأييدها والسعي لإحلالها في أنظمة الحكم مثل تطبيق الشريعة الإسلامية، والوحدة الإسلامية، مع ملاحظة أن الثورات التاريخية اعتمدت على الخروج من الفقر والاضطهاد والطبقية أساسا لحشد الحشود، بينما يركز حزب التحرير على تطبيق الشريعة. ومع ملاحظة أن الأنظمة التي يناهضها حزب التحرير تتمتع بدعم لا متناه من الغرب الذي يحاول إحباط العملية التغييرية.

**تحصيل القوة اللازمة للعملية التغييرية:**

**الثورات التاريخية**: استخدمت القوة العسكرية والصراعات المسلحة لقطع العلاقة بالسلطات الحاكمة السابقة وتحقيق السيطرة.

**حزب التحرير:**

يعتمد الحزب على إيجاد أهل القوة والمنعة في المجتمع ليكونوا حماةً للتغيير، ويرى ضرورة جمع الدعم الشعبي لتأكيد شرعية التغيير. ويسعى إلى تحقيق القوة من خلال طلب النصرة من أهل القوة والمنعة، ومن أهل الحل والعقد في المجتمعات، ومن خلال مخاطبة الشعب لتحصيل الدعم الشعبي الواسع، وتعزيز الوحدة بين الأمة الإسلامية بالعمل في كافة أقطارها، وبالتنظيم الداخلي عبر التبني الذي يمنحه قدرة على وحدة الفكر ووضوح الغاية، بغية تحقيق النتائج السياسية بطرق تعتمد على قوة الفكر، لا على الخطاب العاطفي.

**الصراع الفكري:**

**الثورات التاريخية**: شهدت صراعاً بين الأفكار الجديدة للحرية والمساواة ضد الأنظمة القديمة المتمسكة بالاستبداد والطبقية.

**حزب التحرير:**

يعتمد الحزب على الصراع الفكري من خلال تصحيح المفاهيم والقيم والمقاييس الموجودة في المجتمع، وتحدي الأفكار الخاطئة والمستوردة التغريبية، بهدف إيجاد وعي فكري وسياسي عام. وينشر رؤيته وأفكاره بشأن تطبيق الشريعة وإحقاق الحقوق، والتغيير على الفاسدين، وإنهاض الأمة كجزء من استراتيجية لتغيير الرؤى القائمة لإحداث التغيير الانقلابي الشامل.

**الكفاح السياسي:**

**الثورات التاريخية**: شملت إنشاء هياكل حكومية جديدة تمثل الشعب وتعكس القيم الجديدة التي حققتها الثورات.

**حزب التحرير**: يسعى إلى تحقيق التغيير من خلال فصم عرى الدعم الشعبي للحكومات القائمة، وإحداث شرخ في العلاقات بين المجتمع وبين الدولة القائمة حتى يسهل إسقاطها، وبين الدولة القائمة وبين الدول الغربية التي تدعم وجودها، وتعرية فساد المفسدين في الوسط السياسي وسوء إدارتهم لمصالح الناس.

**أهم الاستر اتيجيات اللازمة لإحداث التغيير وقلب أنظمة الحكم عند حزب التحرير:**

1. **التثقيف**: نشر الأفكار الصحيحة والقيم الإسلامية.
2. **التفاعل مع المجتمع**: كسب الدعم الشعبي وتشكيل الرأي العام.

٣. **استلام الحكم**: إقامة دولة الخلافة من خلال نصرة أهل القوة والمنعة، دون اللجوء إلى العنف.

باختصار، على الرغم من الفروق التاريخية والثقافية بين حزب التحرير والثورات التاريخية، يمكن رؤية تشابه في استراتيجيات التغيير التي تعتمدها هذه الحركات، بما في ذلك تأثير الرأي العام، وجمع الدعم الشعبي، واستخدام الصراعات الفكرية والسياسية لتحقيق الأهداف السياسية والاجتماعية. لأن هذه الأدوات والاستراتيجيات هي من صميم السنن المجتمعية اللازمة للعملية التغييرية، تختلف في شيء من التفاصيل، وتتفق على خطوط عريضة مهمة لازمة لإسقاط الدول وإحداث التغيير.

### تعقيد الأنظمة الغائية السببية المجتمعية

كذلك، نرى أن الإنسان يعيش كنظام داخل عالم من الأنظمة ولا يمكن فهم هذا الإنسان إلا بفهم النظام ذاته، وفهم الفكر السببي للأنظمة، إن لوجود النظام نفسه وظيفة أو هدفا يسعى لتحقيقه، ولنأخذ مثلا من هذه الأنظمة: كي نفهم ما هو النظام؟

إن أي نظام معين وإن كان لا بد أن يتكون من أجزاء، ولكن لا يجب أن ينظر إلى هذه الأجزاء كمكونات مستقلة عن بعضها كمن ينظر إلى كومة من الحصى، بل يجب النظر إلى النظام بأجزائه وإلى ما يجمع هذه الأجزاء معا، وهو وجود مجموعة أو –لنقل- شبكة من الروابط بين هذه الأجزاء ويجب أن ننظر إلى أشكال الربط فيما بينها والى ترتبها في نسق معين وفق برمجة محددة.

فمثلا: مصيدة الفئران، في أبسط تصميم لها تتألف من قضيب تثبيت، ومطرقة تضرب الفأر حين اصطياده، وقطعة جبن وُضِعَتْ فخا للفأر، ونابض (زمبرك)، ومنصة خشبية، ومثبتات تثبت كل هذه الأجزاء بعضها مع بعض. لا شك أن مثل هذا يمثل <u>نظاما</u> مبنيا من مجموعة من الأركان أو العناصر، **كل واحد منها يؤدي غرضا يؤازروظيفةَ ركنٍ آخرَيؤدي غرضاً آخرَ، وكل عنصرفيها يوضع في مكان مخصوص من النظام الكلي، وبعض العناصرتحتاج لتعيير معين يفي بالغرض، مثل النابض مثلا، وفي المجموع كل عناصرهذا النظام تؤدي غرضا معينا دقيقا، بحيث لو أزلت أي ركن منها أو أي عضو، أولولم تقم بتعييرما يحتاج لتعييرمنها بدقة كافية، لفسد النظام العام، ولم تؤد الغرض الذي لأجله وضعت! وكل ركن أوعضو منها إذا وجد وحده لم يؤد الغرض أو الغاية أو الهدف**، لا بد أن تجتمع كل العناصر معا في نفس الوقت وفي تصميم ذكي يضع وظيفةً وارتباطاً لكل واحد منها مع الآخر بشكل منظم دقيق، وفي موضع دقيق ضمن النظام الكلي، هذا هو **التصميم الذكي الغائي**، وهذا النظام قادر على إحداث الوظيفة أو الغاية المرجوة منه في ظروف معينة، وإذا لم يتم تصميمه بشكل صحيح فقد لا ينتج الغاية.

إن التخطيط ورسم الأهداف وتوقع النتائج عند التعامل مع نظام معين هي أمور جيدة، ولكنها معقدة كذلك، وبدون النظر إلى الظواهر وفهم جوهر أحداثها من خلال الفكر السببي للأنظمة لا يمكن إعداد العدة لمواجهة الأحداث المستقبلية **و اكتساب القدرة على التأثير فيها**. إن السبب -في كثير من الأحداث- هو نمط لنظام معين وليس فعلا معزولا يؤدي إلى حدوث نتيجة تسمى ظاهرة. إن المشكلة الأساسية عند التعامل مع المشكلات والسعي إلى حلها قد تكمن في طريقة التفكير للشخص الذي يحاول القيام بهذا الحل، إن حل المشكلات لا تتعلق بالنوايا

الحسنة للأفراد ولا تتعلق بوفرة المعلومات لديهم، لأنها قد تصبح مصدرا لتشويش فكرهم إذا لم يكن هنالك عقل راشد يدلهم على ما هو مفيد منها، وعلى طريقة معالجتها وتفعيلها. وقد تكون التفسيرات الواضحة أحيانا وكذا رأي الأغلبية هي عين الخطأ. كذلك فإن القيام بتحميل المسؤولية عند حصول خلل ما لمجموع الأفراد أو لبعضهم (كبش الفداء) هو تصرف غير سديد من زاوية فكر النظام السببي، بل الذي يتحمل هذه المسؤولية هو البنية **الغائية** التي يقوم عليها النظام نفسه.

إن استخدام التفكير المنطقي في حل المشكلات والذي يُعنى بفهم الأحداث والظواهر من خلال تحليل وتفكيك الأجزاء ثم تجميعها، لا ينجح كأسلوب للفهم وللحكم على الوقائع لدى تطبيقه على الأنظمة السببية، ذلك أن تصرفات الناس وحركة الأحداث لا تحكمها في كثير من الأحيان قواعد المنطق. **ولذلك يجب تناول مجموعة العوامل ذات التأثير المتبادل**، وليس التركيز على السلاسل السببية البسيطة المحصورة بزمان ومكان محدد كما هو أسلوب المنطق. فالعقل البشري بقدراته الذاتية يقف شبه عاجز عندما يتعامل مع نسيج نظامي، ففي الأنظمة قد يكون هناك فترة زمنية بين السبب والنتيجة فيجب الربط الصحيح بين السبب والنتيجة من خلال التعلم من التجارب واستنباط القوانين والسنن التي تسير الأحداث. واستخدام التفكير المنطقي يمكن أن يضلل كما أن الحلول الواضحة التي يقدمها قد تزيد الطين بلة.

إن النظام الكلي يعمل بطريقة لا يمكن فهمها وتوقع نتائجها من خلال تفكيك وتحليل الأجزاء، لأن للنظام صفات ومميزات منبثقة من عمله النظامي، وهذه لا يمكن إدراكها وفهمها من أجزائها المفككة، بل بالإحساس بالنظام وملاحظته أثناء فعاليته السببية وعمله ككل. فللنظام صفات منبثقة عن عمله الكلي لا تتصف بها الأجزاء المكونة له كلا على حدة، ولأجزائه وظائف معينة تتكامل مع النظام الكلي لتؤدي غايات معينة، وأحيانا لا يمكن معرفة سمات النظام الكامل بتفكيك وتحليل أجزائه، لأن هذا النظام في هذه الحالة يفقد سماته الكلية إذا ما تم تفكيكه إلى أجزاء، وإن كان من المهم دراسة وظيفة كل عنصر فيه وارتباطه بالنظام ككل، لكن يبقى فهم النظام ككل وفقا لطريقة ملاحظة ومعرفة الصفات المنبثقة عن عمله ككل، عبر تشغيل النظام وملاحظته، ومعرفة وظيفة كل عنصر فيه نسبة إلى النظام ككل. وأبسط مثال على ذلك أنظمة الجسم كالجهاز السمعي والبصري، إذ إن جميع أجزاء النظام (الجسم البشري) وأنظمته الفرعية (السمع والبصر) تتعاون معا للقيام بعمل جماعي موحد، لكل منها دور محوري في إنجاز تلك الغاية، تتقاسم الأعمال، فهناك توجيه واضح لعمل كل جزء من النظام باتجاه معين، وبمقدار وكيفية محددة، وفقا لنظام مخصوص، وقد يكون بالإمكان -نظريا- أن تتصرف تلك الأجزاء بطرق مختلفة، أو أن تنتظم بطرق مختلفة، كأن توجد الطبلة في مقدمة الأذن بدلا من موقعها، أو أن تتصل المطرقة بشحمة الأذن بدلا من السندان، وهكذا، ولكن اختيار تصرفها بطريقة محددة، واتصالها بطريقة محددة، على مستوى الأجزاء (الأنظمة الفرعية) أو على مستوى النظام الكلي (الجسم)، تلاءَمَ بشكل يصلح لإنتاج الغاية، فهو نظام غائي بامتياز، فارتباط الكل بأجزائه في عالم الحياة، لا يقتصر على التكامل الكمي بينهما، بل يشمل أيضا ما ينتج عن ذلك من سيطرة الكل على أجزائه، وقيام الأجزاء بالتفاعلات المخصوصة بحيث تفضي لحصول التكامل، وبحيث يكون الترابط بين الأجزاء المشكلة للأنظمة المختلفة شرطا لعمل النظام

الكلي الكياني، ومثال هذا الكائن الحي نفسه كالإنسان والبقرة والبعوضة بما فيها كلها من أنظمة كلية وصفات كيانية وتحكم مركزي في الأنظمة، ما يجعلها أنظمة ذكية غائية قادرة على القيام بوظائف معينة، وهذا التصميم الحكيم الغائي يثبت أنها مخلوقة لخالق.

قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر".

والحال حين النظر إلى العلاقات المجتمعية والأنظمة التي تحكمها يصبح أعقد، فمثلا عملية التغيير التي يراد منها هدم كيان وإيجاد كيان محله، أو إصلاح كيان ينفرط عقده، تحتاج لدراسة مستنيرة لفهم الطريقة التي يعمل بها هذا الكيان (القوانين والسنن التي تحكم قيام الدولة بشكل عام)، والعوامل المؤثرة فيها، قال الإمام تقي الدين النبهاني في جواب سؤال: "**و إقامة دولة أي دولة، في جماعة أي جماعة، لها قو انين ونواميس**، وهي أن تتقبل تلك الجماعة أو الفئة الأقوى فيها للمفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقوم عليها تلك الدولة، وما لم تتقبل تلك المفاهيم والمقاييس لا يمكن أن تقوم فيها الدولة، ولو تسلط عليها متسلطون، وتولى السلطة فيها أقوياء. فالأصل في إقامة الدولة هو تقبل الجماعة أو الفئة الأقوى لتلك المفاهيم والمقاييس والقناعات، فالخطوة الأولى هي المفاهيم والمقاييس والقناعات. هذه هي نواميس الجماعات، وهذه هي **قو انين الحكم والسلطان**. فهذه القوانين مشاهدة منظورة، فمحاولة تجاهلها، وأخذالسلطة بالقوة والقهر، لا يمكن أن يوجد الدولة، وإن كان يمكن أن يوجد المتسلطين إلى حين"[190]،

ويقول الإمام النبهاني رحمه الله: "فإزالة الدولة المستعمرة عن البلاد التي تستعمرها، **لها قو انين ونواميس**، وهي أن تكون لدى من يعملون لإزالتها، القوة المادية التي تتغلب على قواها المادية، [أي على القوى المادية للمستعمر] والقوة الفكرية التي تمكنها من إدراك الأحابيل، وإدراك معنى القوة المادية[191]. [أي استغلال القوى الفكرية لفهم مواطن القوة المادية الكامنة في الأمة واستغلالها] فما لم توجد القوة الفكرية والقوة المادية لا يمكن إزالة الدولة المستعمرة؛ وانتفاضات الامم، مهما عظمت لا يمكن أن تزيل الاستعمار، ولو كان عدو الله! [فالسنن لا تحابي أحدا] لذلك لا بد من معرفة **قو انين ونواميس الله في التسلط والاستعمار**"![192]

إذن فمن أجل تحسين فهمنا للظواهر والأحداث، لا بد من القيام بتشكيل نماذج وأنماط معينة لهذه الظواهر وفق التفاعلات بين العناصر المكونة لها، ويتم ذلك من خلال فهم الروابط بين الأحداث والظواهر، ونكون أقدر على التصرف حيال الحوادث حين نفهم كيف تحدث، وحين نكون عاجزين عن رؤية العلاقة بين هذه

---

[190] جواب سؤال عن الغيبيات والأسباب والمسببات ١٩٧٤ تقي الدين النبهاني.

[191] هناك قوة مادية هائلة كامنة في الأمة الإسلامية بيناها في كتاب: هل حدد الرسول ﷺ طريقة لإقامة الدولة، في باب بعنوان: العنصر الثاني: الأمة الإسلامية، العنصر البشري، الثروات، البعد الجغرافي، الموقع الاستراتيجي، الترابط الحضاري، وبعنوان العنصر الثالث: هو القوة المادية المتمثلة بالجيوش.، وكذلك من القوة المادية: الثروات الاستراتيجية التي يمكن من خلالها الضغط وإخضاع الأمم الأخرى، فليس المقصود إذن فقط تكنولوجيا الحرب والأسلحة، فمن القوة الفكرية إدراك واستعمال مكامن القوة المادية المختلفة في الأمة، والأهم: العمل المنظم المفضي إلى استثمار هذه القوى الكامنة وتسخيرها لقضايا الأمة بدلا من الاستعجال إلى ردات الأفعال قبل التهيؤ الكامل للمواجهة بما تقتضيه من تحضير.

[192] جواب سؤال عن الغيبيات والأسباب والمسببات ١٩٧٤ تقي الدين النبهاني. بتصرف يسير ما بين الأقواس شرحا.

الأشياء نضع اللوم على الظروف. ويستطيع العقل البشري أن يتعامل ويفهم الأنظمة السببية باستخدام الرياضيات المتطورة ونظرية "الدارات" وقد نجح في التنبؤ وتحقيق نتائج بدقة عالية في المجالات الفيزيائية، أما في مجال الأنظمة الحية فإن تنبؤات العقل ما زالت متواضعة الدقة.

### شبكة العلاقات داخل الأنظمة:

ولنحاول الآن فهم بنية النظام ذاته، إن أهم ما في النظام هو التأثير المشترك بين أجزائه من خلال شبكة العلاقات، وليس المهم عدد أو حجم الأجزاء ذاتها، وهذه العلاقات -أي النظام- يمكن أن تكون بسيطة أو معقدة. والمقصود بالعلاقات البسيطة تلك التي يكون عدد أجزائها قليلا والروابط بينها قليلة، أما العلاقات المعقدة فهي على نوعين: الأول هو التعقيد في التفاصيل لوجود أجزاء كثيرة العدد، والنوع الثاني هو التعقيد الحيوي المتغير (الديناميكي) لوجود روابط كثيرة بين الأجزاء. والحكم على التعقيد لا يجوز النظر إليه في ضوء عدد الأجزاء وإنما يجب أن ينظر إليه من زاوية عدد الطرق المحتملة للروابط بين هذه الأجزاء.

إن أهمية دراسة بنية النظام السببي وشبكة العلاقات فيه، تكمن في أن هذه العلاقات بين أجزاء النظام المختلفة تحدد طريقة العمل السببي للنظام وبالتالي سلوكه، ذلك أن أجزاء هذا النظام يعتمد بعضها على البعض الآخر أي تتفاعل فيما بينها، وهذا التفاعل هو سر قوتها الذي يجعل فيها القدرة على التأثير على النظام ككل. وكلما ازدادت الروابط بين الأجزاء لتكوين شبكة يكون مجال التأثير أكبر.

إن الأنظمة المعقدة والتي تكون الروابط بين أجزائها على شكل روابط شبكية تكون عادة مستقرة جدا. ففي حالة حصول تغير ما في بعض أجزاء هذا النظام يزداد عدد الروابط المتأثرة بهذا التغير مما يزيد بالتالي التعقيد التفاعلي الحيوي المتغير للنظام. فإذا أريد التأثير على جزء من هذا النظام لتغييره فإن الروابط بين هذا الجزء والأجزاء الأخرى المرتبطة به تقاوم هذا التغيير، لأن هذا التغيير معناه تغييرها هي أيضا وهذا ضد ميلها البديهي والطبيعي للثبات والاستقرار. **فالنظام بطبيعته يقاوم التغيير**، وسر مقاومته للتغيير في أي جزء من هذا النظام راجع إلى شبكة الروابط ونسيج العلاقات مع الأجزاء الأخرى المرتبطة بهذا الجزء.

**فالثبات والاستقرار هو صفة من الصفات المنبثقة عن الأنظمة** كحال باقي جميع أشياء هذا الكون، وبالتالي تقاوم هذه الأنظمة التغير في أحوالها، فقد يضعف عضو من جسم الإنسان نتيجة المرض ولكن الجسم يظل بشكل عام على ما يرام، ولولا هذه الصفة لأصبحت الصحة متذبذبة وتتأثر بأقل شيء من الأذى. والتغير الحاصل في الأنظمة يحدث عادة بشكل سريع وجذري، ذلك أن وجود مقاومة التغيير في أي نظام له حدود مرونة معينة فإذا تراكمت الضغوط لإحداث تغيير في نظام معين ووصل ذلك إلى حد المرونة الفاصل فإن أقل سبب مؤثر يتسبب في انهيار النظام كليا كمثل القشة التي تقصم ظهر البعير. فالسد المائي إذا زاد ضغط الماء خلفه إلى درجة أكبر بقليل من حد المرونة أدى إلى تصدعات تبدو صغيرة في جسم السد ثم لا يلبث أن ينهار فجأة وبشكل سريع ومدمر.

ومع أن الثبات والاستقرار هو صفة منبثقة عن الأنظمة، إلا أنه مرتهن بقوى معينة تحافظ على اجتماع أجزاء النظام في مواضعها ومع قدرتها على تأدية وظائفها، وإلا فإن النظام سيميل إلى الفوضى كما أسلفنا، ومتى ما خرج

إليها فإنه لن يعود إلى الاستقرار والتنظيم إلا جبرا عنه وفقا لقوانين وأنظمة سببية معينة قادرة على فعل ذلك، كما أنه من الممكن دراسة هذه الأنظمة بغية تغيير تركيبتها وإعادة تنظيمها، كحال الأفعال التي يراد منها تغيير شكل الدولة مثلا وأنظمتها.

إن محاولة التأثير لتغيير نظام ما يحتاج لمجموعة من الأسباب والشروط اللازمة التي لا بد من توافرها، لكن التأثير في أحد أجزاء النظام يمكن أن يتم بشكل فعال إذا تم فك العقدة أو العقد التي تربط هذا الجزء مع غيره وهذا يسمى "التأثير الفعّال". وبالتالي يمكن التأثير لإحداث تغيير معين في نظام ما بسهولة إذا عرفنا الروابط الصحيحة وتم التأثير بمحاولة قطعها أو إضعافها في الوقت المناسب أي عند توافر الشروط المناسبة لذلك، بحيث ينتج جهد من التأثير الصغير نتائج رائعة في التغيير، وهذا هو التأثير الفعّال. وإذا كان الجزء الذي تم التأثير عليه لتغييره ذو أهمية كبيرة من السيطرة كانت نتائج التغيير ذات نطاق واسع.

ويكون التأثير في أي جزء من النظام مؤثرا في باقي الأجزاء على شكل انتشار موجات الماء عند إلقاء حجر في بركة مياه راكدة، فالتغيير ينتقل إلى النظام ككل ويحدث آثارا جانبية معينة فيه، وإذا كانت الآثار الجانبية مطلوبة فقد يتم الحصول عليها بالقيام بتغيير في جزء آخر من خلال تطبيق التأثير الفعّال. فإيمان الناس بنظام معين مثلا، هو أساس بقاء هذا النظام وإذا أردنا تغيير هذا النظام وجب التأثير فيه من هذه الزاوية التي تنتج التأثير الفعّال.

## لا بد لتفعيل الطاقة السببية، من كيان فاعل، وكيان منفعل

ولإدراك واقع السنن لا بد من التذكير بطريقة عمل الأنظمة السببية الحية، والأنظمة السببية إما أن تكون فاعلة بوجود إرادة، أو أن تكون منفعلة بغياب الإرادة الكيانية وبالتالي تحدث النتائج بدون عقلٍ واعٍ مخطط سلفا للأمور، فالحزب والشخص، والعلماء هي كيانات فاعلة لها إرادة أما الدولة والمجتمع والأمة فهي في الغالب كيانات منفعلة تتأثر بغيرها. ونستطيع تلخيص طريقة عمل الأنظمة السببية الحية الفاعلة بالإرادة بالقول إن بنية الأنظمة تميل عادة إلى الاستقرار وتقاوم التغيير. ولكل نظام هدف يسعى لتحقيقه كالحفاظ على بقاء النظام مثلا أو إشباع حاجاته، ولأجل الوصول الهدف الذي يسعى إليه هذا النظام فهناك حاجة إلى طاقة سببية دافعة، فالحزب يصمم النظام السببي ويفعله فيتفاعل مع الكيان المجتمعي وكيان الدولة فيحدث التغيير.

"والحزب بوصفه كياناً يصبح يتصارع مع كيان الدولة ومع كيان الأمة ليصرعهما معاً، لأن فيه خاصية الفاعلية لا خاصية الانفعالية. بعكس كيان الدولة أو كيان الأمة فإن في كل منهما خاصية الانفعالية لا خاصية الفاعلية، وعلى قدر تمسك الحزب بكيانه الفكري تطول أو تقصر فترة صراعه، إذ إن تمسكه الفكري ككيان يقصر فترة صراعه، وتساهله فيه يطيل مدة هذه الفترة.

وما لم يتحول الحزب عن مفاهيمه ومقاييسه وقناعاته فإنه ولا شك سيصرع الكيانين: كيان الأمة وكيان الدولة معاً. إذ سيصرع كيان الفئة القوية في الناس، ويصبح وإياها كياناً واحداً يأخذ فيه كيانه البارز ضمن كيان الأمة مركز القيادة، وبهذا الكيان الجديد يصرع كيان الدولة. وبالكيانين الفكري والتنفيذي يستولي على باقي الفئات، ويصهرها كلها في كيان واحد هو كيان الأمة.

والصراع الذي يحصل مع كونه صراعاً فكرياً فهو صراع مفاهيم ومقاييس وقناعات، وليس صراع أفكار مجردة، ولذلك يتناول العلاقات العامة، والمصالح العامة، لأنه يريد أن يحطم الصفة الكيانية الفاسدة للأمة، **بتحطيم المفاهيم والمقاييس والقناعات التي يتكون عليها الكيان، لا تحطيم الأمة، ولا أي فرد منها، إذ إنه يسعى لأخذ الأمة، ورفع شأنها، واستبدال كيانها الحالي بإعطائها كياناً أفضل منه**، يصبح كيانها المتميز بالرفعة والسمو.

ويريد أن يحطم الصفة الكيانية للدولة بتحطيم المفاهيم والمقاييس والقناعات التي يتكون عليها، **لا تحطيم السلطان. إذ إنه يسعى لأخذه** واستبدال كيانه الحالي بإعطائه كياناً جديداً على أساس المفاهيم والمقاييس والقناعات الجديدة.

ولهذا فصراع الحزب ككيان فكري يكون للكيانين التنفيذي والمجتمعي. فالعمل مسلط على الكيانين لا على غيرهما، وتسليطه إنما يكون بتسليط كيان على كيان.

وبما أن كيان الدولة هو الذي يملك السلطان، وهو الذي يتولى إدارة كيان الأمة، فإن مظهر الصراع يكون واضحاً أنه لكيان الدولة فحسب، وإن كان هو في حقيقته مسلطاً على الكيانين.

وعلى ذلك فلا بد أن يدخل الحزب المجتمع بوصفه كياناً فكرياً، تبرز فيه الصفة الكيانية وحدها بشكل واضح، لأن الصفة الكيانية هي التي يجب أن تعمل وحدها، ولا يجوز فيها أي إشراك بأية صفة أخرى. إذ هو كيان يصارع كيانين، وأي حالة يحصل فيها أي عمل حزبي على غير الصفة الكيانية، أو بإشراك صفة أخرى معها، فإن هذا العمل لا يقتصر على الإخفاق، بل يضعف الحزب في الصراع، ويضعف الصفة الكيانية.

وكيان الحزب لا يعني جهازه، بل هو أشمل من ذلك. نعم إن الأعمال الحزبية تصدر عن أجهزة الحزب، وإن المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تقوم عليها هذه الأجهزة جزء من كيان الحزب، ولكنها ليست كيانه. بل **كيانه هو هذه المجموعة من المفاهيم والمقاييس والقناعات المتجسدة في مجموعة من الناس** بوصفهم ناساً لا بصفتهم الفردية."[١٩٣]

## مقومات الدولة:

ثمة مواجهة شديدة بين الأمة الإسلامية وبين الغرب، ولا شك أن هذه المواجهة تخضع لقانون السببية، فأما السببية الكونية، فتقضي بانتصار القوي على الضعيف، وصاحب السلاح الفتاك حين يستعمله بهمجية على النائم في البيت، أو الذي لا يمتلك رد هذا السلاح!

ولكن السببية الإلهية لها حكم آخر، وسنن أخرى، فلا بد للأمة من أن تعي على قوانين السببية الإلهية وتسلك سبيلها لينصرها الله على عدوها مهما بلغت قوته، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [١٦٠ آل عمران]، وقد قيل لعمر المختار المجاهد

[١٩٣] دخول المجتمع لحزب التحرير

الليبي رحمه الله تعالى: إيطاليا تمتلك طائرات لا نملكها، فقال: هل تحلق تحت العرش أم فوق العرش؟ قالوا: بل تحته، قال: معنا من فوقه، فكيف يخيفنا من تحته؟

ومع أن الغرب يتمادى في المواجهة ويسعر أوارها، وينفخ في نارها، ويسرف في القتل والتدمير والمكائد، فإن هذا يستدعي الجدية في التعامل وتدارك الأمة قبل أن نرى ألف عراق وألف شام وألف يمن تتكرر، والغرب يدفع الأمة لهذه المواجهة قبل أن تستكمل الأمة امتلاك ناصية القوة لديها، لذلك فلا مناص من أن تأخذ الأمة بالأسباب الإلهية لتنجو، إذ إنه من غير المتصور أن تمتلك الأمة ناصية القوة العسكرية امتلاكا يتفوق على الغرب قبل إقامة الدولة الإسلامية!

فالأمة إذا لم تحمل المواجهة على محمل الجد وتعد لها العدة الصحيحة فإنها ستفشل بسبب أن هناك سنن كونية، وسنن إلهية تحكم التدافع بين الأمم. ومن طبيعة السنن أنها تسير في العلاقة السببية، وتستدعي الأخذ بأسباب معينة للوصول لنتائج حتمية تترتب على الأسباب!

وسأضرب مثلا بسيطا، في مريض ذهب للطبيب فأعطاه الطبيب وصفة عليه أن يأخذها بدقة، مثلا أن يأخذ حبة دواء معين مرة كل ست ساعات، مع كوب من الماء يحوي مزيجا يساعد الدواء على العمل بنسب معينة بين الماء وبين المزيج. إن أي تلاعب في طريقة أخذ الدواء، أو في نسب المزيج ربما تفضي لآثار عكسية، وربما لتحسن مؤقت ولكن قد لا تؤتي الثمار المرجوة، فيطول الألم أو يستفحل!

وكما فرض الله تعالى الصلاة، وبين لنا المصطفى ﷺ طريقة إقامتها، فإذا لم نتبع تلك الطريقة لا نقيم الصلاة، فإن أي تلاعب في سنة طريقة التغيير التي فرضها رب العالمين سبحانه من خلال المنهج الذي سار عليه المصطفى ﷺ في تغيير دار الكفر في مكة والمدينة إلى دار إسلام، فإن هذا التلاعب سيفضي إلى نتائج كارثية.

## توافق طريقة الرسول ﷺ في التغيير مع السنن المجتمعية:

غني عن القول بأن منهجية الرسول ﷺ في التغيير علاوة على توافقها مع السنن الإلهية في التغيير (أي استنباط الأحكام الشرعية بعملية اجتهادية صحيحة للسير على بينة، ثم التزام الحكم الشرعي والثبات عليه، والنجاح في الصبر على الابتلاءات الشديدة، وحسن الثقة بموعود الله، والقذف بالحق على الباطل ليدمغه)

مما يفضي إلى تنزل نصر الله، فإنها أيضا تتوافق مع السنن الكونية في التغيير، أي أنها تتعامل مع واقع المجتمع والدولة والإنسان تعاملا يأخذ بعين الاعتبار العناصر المكونة للمجتمع، وللدولة، ومقومات الإنسان، وتحدد ما يجوز وما لا يجوز القيام به من أعمال،

ويلج إلى عملية التغيير هذه عبر استغلال كل عنصر من هذه العناصر والمقومات بالشكل الذي يفضي إلى إحداث التغيير، فيتقصد مواطن القوة المادية والمعنوية، ويستثمرها، ويتقصد أسس النظام الفاسد فيهدمه، ويضع البديل موضعه، وكل هذا كما سبق وبيناه بالتفصيل في فصول كتابنا: هل حدد الرسول ﷺ طريقة لإقامة الدولة الإسلامية: (التثقيف المركز والجماعي، والصراع الفكري، والكفاح السياسي، والكشف، وتبني مصالح الأمة، وصناعة الرأي العام، وصهر الأمة مع عقيدتها، وأخذ قيادتها، وكشف مخططات العدو، وطلب

النصرة من قادة الكيان المجتمعي، وطلب النصرة من قادة الكيان التنفيذي، وإعداد الأنظمة والدستور... الخ، بكل التفاصيل التي بيناها سابقا).

لذلك فحين قفزت الثورات العربية عن سنة التغيير هذه، ولم تأخذها بعين الاعتبار نتجت الحروب الأهلية، وسادت الفوضى.

وحين قفزت حركة النهضة في تونس مثلا إلى سدة الحكم تفاجأت بأنها لم تعد للأمر عدته، وأنها غير قادرة على نقل المجتمع والدولة النقلة الصحيحة نحو التغيير المرجو، فنكصت على عقبيها، ومشت في عرى النظام القديم وأضحت جزءا منه بدلا من تغييره.

وهكذا، فإن سر النجاح في إحداث التغيير المرجو هو حسن التعامل مع السنن الكونية والسنن الإلهية في عملية التغيير والتي بينها الكتاب والسنة النبوية المشرفة، والتي بدورنا في حزب التحرير قمنا باستنباطها والتعامل معها كما بيناه في هذا الكتاب وفصلناه.

لذلك فلا بد للأمة أن تأخذ عملية التغيير والمواجهة مع الكفار مأخذ الجد فتستوفي الإعداد والأسباب حقها، وإن أي حركة أو حزب لا يضع له برنامجا يتضمن بيانا لكيفية فهم وتطبيق السنن التاريخية والإلهية في التغيير فإنه سيفضي إلى الفوضى أو إلى الفشل في تحقيق أي من غاياته، وستكون جهوده عبثية، مهما كان لها من آثار جانبية يظهر للناس أنها حسنة، فإنها في الواقع تصرف عن الغاية الكبرى، أو تعمل بلا بصيرة في كيفية بلوغها، فهي حين لا تأخذ بنظام السببية، فإنها ستفشل حتما، وإذ تفشل، فإنها أضاعت جهودا عظيمة للأمة وشبابها، وأدخلتهم في أعمال مفتوحة النهايات تنتقل من اليسار إلى اليمين بلا فهم، فتهدر طاقات عظيمة كان بالإمكان انخراطها في العمل الصحيح واستغلالها لإقامة الغاية بالشكل الحتمي المفضي إليها!

لذلك كان لزاما أن نستعرض أولا:

## ما هي مواطن القوة في الأمة والتي ينبغي معرفتها، ثم معرفة كيفية استثمارها لتنتصر بها الأمة في هذه المواجهة المصيرية مع الغرب والشرق اللذين يرفضان نهضة الأمة وقيام دولتها؟

لنستعرض هذه الأمور:

## عناصر القوة لدى الأمة الإسلامية

### العنصر الأول: طبيعة العقيدة الإسلامية:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الملك ٢٢].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ[١٩٤] لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النحل ٧٦].

تَنزّلَتْ آياتُ القرآنِ بأجمل وأبلغ ما تكون طرائقُ التَّعبير من الوضوح والقوة والارتفاع، نابضةً بالحياةِ، مفعمةً بالصُّوَرِ التي تَصُبُّ مفاهيمَ التَّصوُّرِ الإسلاميّ العَقَديّ الكلّيّ الشَّامِلِ المتوازن الإيجابي الواقعي الرّبّانيّ - من حيث مصدره، الرّبّانيّ - من حيث الغاية والوجهة والمقصد، القائم على التوحيد والوحي، في قَالبٍ فِكريّ شاملٍ صحيحٍ غائيٍّ مُتوازنٍ، يجيب عن التساؤلات الكبرى، فيُفسِّر الوُجودَ بمُقوّماتِه العُظمى: الكون والإنسان والحياة؛ تفسيراً كُلّيّاً، يُشكِّلُ لدى الإنسانِ مفاهيمَه عن الحَياةِ، أي يُشكِّلُ وجهةَ نظرٍ له في الحياةِ، ويصوغُ له مفاهيمَهُ المُحَدِّدَة لعلاقاتِ الإنسانِ بالحقائقِ الكونيَّةِ الكُبرى[١٩٥]، وعلاقاتها هي بالإنسان، وطبيعة الارتباطات مع هذه الحقائق، وما يتعلق بها من مفاهيم؛ من ألوهية، وعبودية، ووظيفة في الحياة، ومسؤوليات وحقوق، وحساب وعقاب، وابتلاءات ومحن، وتوكّل على الله، وتفاعل مع السنن والأسباب، على وجهٍ صحيحٍ، راقٍ، سليمٍ، ويدرك دور الإنسان في الوجود، وغاية وجوده، وعلاقته بالخالق، وبالتالي يتحدد له منهج حياته، والنظام الذي يحقق هذا المنهج، مما يجعل المسلم مطمئنا إلى سلامة تصوره، وأنه يمشي سَوِيّاً على صراط مستقيم! بخلاف من يمشي مُكِبّاً على وجهه، أينما وجهته لا يأتِ بخير!

تتجلى هذه العقيدة، في جملة المفاهيم العقدية التي نقلت الإنسان من ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية، في إشْرابِها القُلوبَ عَظَمَةَ اللهِ، وتنزيهه وتقديسه وتعاليه، قال ابن القيم رحمه الله تعالى "معرفة الله سبحانه نوعان: الأول: معرفة إقرار وهي التي اشترك فيها الناس؛ البر والفاجر، والمطيع والعاصي. والثاني: معرفة توجب

---

[١٩٤] قال الأزهري: بين الأبكم والأخرس فرقٌ في كَلامِ العربِ؛ فالأخرس: الذي خلق ولا نطق له، والأبكم: الذي للسانه نطق، وهو لا يعقل الجواب، ولا يحسن وجه الكلام. وقال ابن عاشور: "والأبكم: الموصوف بالبَكم بفتح الباء والكاف وهو الخَرَس في أصل الخلقة من وقت الولادة بحيث لا يفهم ولا يُفهم. وزيد في وصفه أنه زَمِنٌ لا يقدر على شيء،... وهو العجز عن الإدراك، وعن العمل، وتعذّر الفائدة منه في سائر أحواله". أي اجتمعت فيه كل هذه الصفات.

[١٩٥] الله، والربوبية، والألوهية، والملك والسلطان، والحاكمية، وصلة الخلق، والتنظيم، والتدبير.

الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه". ومن تَعَلُّقِ القلوب بالله تعالى أن تأنس به، وتستشعر وجوده في كل لحظة، وأن تتشوق إلى لقائه ومناجاته، والإقبال عليه، والاشتغال بحمده وشكره، والاطمئنان بذكره، وأن يلهج اللسان في كل آنٍ بذكره، ويستوحش المرء مما لا يُذكَرُ به، وأن تحب ما يحب، وتبغض ما يكره، وثمرة ذلك أن تتبع هديه وتطيع رسوله، وتطبق شريعته، وتصوغ الحياة بامتثال أوامره ونواهيه، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران ٣١]، وتعيش لدينه، وتصبر وتصابر على حمل دعوته، بما يترتب على ذلك من تكاليف ومشقة، وأن تتقرب إليه بما افترض وبالنوافل، حتى يبلغ المرء منزلة أن يحبك اللهُ وأنت الفقير إليه وهو الغني عنك! فأنت عنده بقدر ما هو عندك.

وإفراده -سبحانه وتعالى- بالعبادة والتذلل إليه، والخضوع لهيبته، والانقياد لأمره، فيُطاعَ فلا يُعْصَى، وبالاستسلام لقضائه وتدبيره، في خفضه من يشاء ورفعه، وإعزازه من يشاء وإذلاله، وبالاستكانة أمام كبريائه، فتخشع القلوب له، وتستقيم الجوارح على أمره، فيُقْبِل العباد عليه بِحُبٍّ يكون لهم طبْعاً لا تَكَلُّفاً، والله تعالى أرحم الراحمين، البَرُّ اللطيف، الرزاق الكريم، أسبغ على العباد نعمه ظاهرة وباطنة، وما بالخلق من نعمة فمنه وحده لا شريك له، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل ٥٣]، فتتجلى عبودية العباد لربهم ومولاهم بانبعاث الرجاء والأمل في كل أرجاء نفوسهم، طمعاً في فضله ورغبة في تفضله، ﴿ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا **وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف ٥٦]، وبإحسان الظن بربهم. فهو الكافي، وهو الرزاق، وهو المحيي، وهو المميت، وهو الرب، كاشف الضر، بيده الخير، فيفوض العبد أمره كله إلى ربه، راضياً بقضائه، واثقاً بحكمته، يطمع في أن يتولاه ربُّهُ.

وتوضح هذه الآيات للإنسان غايته من الوجود، وتبيِّنُ للإنسان موقعه ومسؤولياته ودوره في الحياة، رابطةً ذلك بما قبل الحياة الدنيا، وما بعدها، بصورة تضمن التأثير في العلاقات المجتمعية المنبثقة عن ذلك التصور أو المبنية عليه، "انبثاقاً ذاتياً، غير مفتعل"[١٩٦]، انبثاقاً يُنتج منهجَ سلوكٍ ونظام حياة، أي يتجسد في طريقة للعيش، ويتجلى في اتخاذه قيادةً فِكريةً يخوضُ الإنسان بناءً عليه غَمَراتِ الحياةِ مُقْدِماً أو مُحْجِماً، وفقاً لما تُقررهُ لهُ من صواب وخطأ، من خيرٍ وشرٍ، أو حقٍ وباطلٍ، ومسؤوليات وواجبات، يمشي سويا على صراط مستقيم، فالطاعة والتقرب والتقوى والمراقبة سياجٌ يقرب المؤمن من ربه، ويباعده عن المعاصي، فهو يعلم أنَّ ربَّهُ سميعٌ بصيرٌ عليمٌ خبيرٌ بذات الصدور، فلا يكتفي العبد بالامتثال بالقول والفعل، بل في خطرات النفس، وفي أعماق النوايا والسرائر، يزن كل ذلك بميزان الشرع، فلا يبقي في أعماق نفسه ولا في ظاهر أمره ما يستحيي منه من الله، أو ما يخالف فيه عن أمره!

والإحسان يرقى به في معالي الارتقاء نحو أعلى الدرجات في صقل شخصيته، وإدراك معنى إنسانيته.

---

[١٩٦] أنظر: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الشهيد سيد قطب رحمه الله، كَلِمَة في المنهج، وانظر: مقومات التصور الإسلامي لسيد قطب.

ثم إن المؤمن بالعقيدة الإسلامية يلمس صدق انطباق الأفكار العقدية على الواقع، تجلت صحة ذلك بإقامة الأدلة القطعية التي أفضت لإقناع العقل قناعة تامة ملؤها اليقين، وبانسجامها واتفاقها السهل غير المتكلف مع الفطرة البشرية السليمة، فتقرر ما فيه من نزعات وأشواق روحية، ثم من خلال التقائها مع طبيعة الإنسان وتقريرها ما في تكوينه الطبيعي الغريزي من العجز، وضرورة التجائه إلى ربه، يفزع إليه في الملمات والخطوب، ثم إنها لم تقدم للعقل أي تصور يعارض العقل ويناقض الحس، بل كانت عقيدة عقلية مبنية على العقل، وفي الوقت الذي طالبت الخصوم بالإتيان بالأدلة التي تثبت عقائدهم، ودحضتها بالأدلة، فإنها قدمت الأدلة والبراهين القاطعة التي تثبت صحتها، فأعطت الإنسان فرصته الاستثنائية لينسجم مع الحقائق الكونية الكبرى فهما وارتباطا.

وأنها عقيدة سياسية تعالج كل مشاكل الحياة بحلولٍ شرعها الله سبحانه **عن طريق الوحي**، قرآنا وسنةً، وتسوس الناس وترعى شؤونهم بالنظام المنبثق عنها، أو المبني عليها، بالتكاليف من أوامر ونواه، للأحكام المتعلقة بالعلاقات مع الله تعالى، ومع النفس ومع الغير، بنظام معجز يعالج كل مشاكل الحياة والإنسان علاجا يتسم بالتوازن والواقعية، والدقة والتكامل بحيث يوجد أنظمة المجتمع والحياة بصورة تفضي إلى الطمأنينة والسعادة، وحتى يحقق الشارع ذلك، فإنه قد اتكأ على ربط التشريعات **برضا الله تعالى**، فهي أوامره ونواهيه، وعلى **مفهوم جَعلِ الحلال والحرام مقياساً للأفعال**، وأحاطها **بسياج المحاسبة في الدنيا والآخرة**، إلى جانب تعزيز ذلك بالربط **بمفاهيم مثل التقوى والإحسان**، وإلى جانب ذلك عزز الشارع الحكيم من إقبال الفرد والجماعة والدولة على التطبيق والتنفيذ والخضوع للأحكام باستناده إلى **مفهوم المسؤوليات**، التي بنيت على أساس الالتزام، والقيام على حسن التطبيق، والتكليف، والمحاسبة، وعلى الاستطاعة، وعبر مظهر التيسير ورفع الحرج، وعلى **مفهوم الولاية بين المؤمنين والمؤمنات**، وما يترتب عليها من حقوق، وإحقاق لتحقيق التكافل والتكامل والتوازن في المجتمع، وعلى **مفهوم الحقوق**، حقوق الله (ويسمى: الحق العام)، وحقوق العباد[١٩٧]، والحق المشترك: وهو ما اجتمع فيه الحقان، عبر توازن بين الحقوق الفردية والمصلحة العامة، والحق العام، الأمر الذي أفضى إلى إيمانهم بعدالة النظرة إليهم، وإنصافهم؛ فلا محاباة، ولا ضياع للحقوق، ولا تسلط للقوي على الضعيف، **ومن واجبات (دور)** (مثلا دور المرأة كأم، وزوج، وربة بيت، ودورها في الحياة العامة)، **والتزامات**، (المسؤولية عن التعويض عن الفعل الضار، والوقف، والنفقة)، وضوابط لحل المشاكل (المخاصمات)، **وأمانات**، فاختيار الحاكم أمانة، وتأدية الأمانات إلى أهلها فيه إحقاق للحقوق، وفض الخصومات، **وإحقاق للعدل، ورفع للظلم، والأمن والأمان، ومن خصائص رعوية للشريعة فهي ليست**

---

[١٩٧] حقوق العباد هي تلك الحقوق التي تتعلق بالأفراد وليس للنظام العام فيها دخل، إلا بتنظيم حلها وإحقاق الحقوق المرفوعة للقضاء فيها. ويقصد بحق العبد الحقوق المتعلقة بدينه، ونفسه (دمه وعرضه وكرامته)، وعقله، ونسله، وماله، بحماية المصلحة الشخصية الخاصة بالفرد دون المجموع، سواء أكان الحق عاماً كالحفاظ على الصحة والأولاد والأموال (حرمة مال الغير)، وتحقيق الأمن، وقمع الجريمة، ورد العدوان، والتمتع بالمرافق العامة للدولة؛ أم كان الحق خاصاً، كرعاية حق المالك في ملكه، وحق البائع في تملك الثمن والمشتري في تملك المبيع، وحق الشخص في بدل ماله المتلف، ورد المال المغصوب، والدية، وحق الزوجة في النفقة على زوجها، وحق الأم في حضانة طفلها، والأب في الولاية على أولاده، وحق الإنسان في مزاولة العمل وحق الشفعة. وحق التملك، وحق الانتفاع، وحق الاختصاص، وحق التعلق لاستيفاء حق (الرهن). (الفقه الإسلامي وأدلته: الزحيلي. بتصرف شديد).

**للجباية**، وتعمل على الرعاية الصحية والتعليم، ونشر الدعوة والحفاظ على المبادئ التي قامت عليها الدولةُ، مع فلسفته الاقتصادية الاجتماعية، بكل أسسها ومقوماتها الهادفة لبناء المجتمع وفق نظامٍ ضامنٍ لكفالةِ الحاجاتِ الأساسيةِ.

ثم إنها قامت على أساس مفاهيم عقدية دافعة لفهم الحياة والتفاعل الإيجابي معها، فلم تكتف بمجموع المفاهيم العقدية السابقة المتعلقة بالإيمان من حيث صدق مطابقته للواقع في قضايا الوجود، مثل الإيمان بوجود الله، وبأن القرآن كلامه، وبأن الناس سيبعثون للحساب والعقاب، وبالجنة والنار، وبرسالة الرسل، أي إن التصديق بهذه القضايا تصديق بواقع موجود تثبته الأدلة والبراهين، وتطمئن القلوب إلى حقيقته، إذ إنه ثمة نوع آخر من المفاهيم العقدية علاقتها بقضايا تتمثل في فهم الحياة بما فيها من ابتلاءات ومحن، وعطايا وتقدير وسنن فاعلة، وتفاعل مع الأحداث، وظيفتها صياغة الشخصية الإسلامية وفقاً لمفاهيم عقدية تدفعها للتعامل الإيجابي مع الحياة، ولفهم صروف الدهر، ودور الإنسان في ما يقع منه أو عليه من أفعال وصروف، ووظيفتها: تسيير الإنسان في الحياة وفقاً لمفاهيم عقدية تكون سياجاً محيطاً بالأفعال والسلوك الذي يقوم به التزاماً بالشريعة.

وهذه القضايا العقدية تنقسم أيضاً إلى قسمين: قسم يبين أن صروف الدهر وتقدير القدر، بيد الله وحده، فهو مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه عمن يشاء، وهو يحيي ويميت، ويرزق ويعز ويذل، ومن هذه القضايا: القضاء والقدر، والرزق والنصر والإماتة والإحياء، والبعث والنشور، وما شابه.

وقسم يتعلق بالإنسان وتفاعله مع تلك القضايا، كمفهوم التوكل على الله، ومفهوم أن الرزق بيد الله تعالى، كيف تدفعه هذه القضايا العقدية للتصرف في الحياة، فهو إذ يعلم أن الحياة والموت بيد الله، فإنه يقوم بواجباته دون خشية أن يموت قبل انتهاء أجله، وحين يعلم أن المساجد لله، فهو وحده المستحق للعبودية والخشية منه، فإنه لا يخشى أحداً إلا الله، وحين يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإذا سأل لا يسأل أحداً إلا الله، وإذا استعان، لم يستعن بأحد إلا بالله، وأن الأقلام رفعت وأن الصحف جفت، فإنه لا يهاب أحداً من البشر، فيقول بالحق لا يخاف لومة لائم، ويسعى لمقام سيد الشهداء بأن يقول كلمة الحق أمام ذي سلطان جائر، وحين يستيقن يقيناً لا شك فيه أن الرزق بيد الله تعالى وحده، فإنه ينظر إلى العبيد من الملوك والسلاطين وأرباب المال نظرة الحر الذي يعلم أن أيّاً منهم لا يملك أن يحجب عنه تمرة قدرها الله له، ولا أن يعطيه تمرة لم يقدرها الله له، وأن الرزق بيد الله.

لذلك فهي عقيدة حية، تربط الدنيا بالآخرة، فيستصغر معها المرء التضحية بالغالي والنفيس حتى بالروح استجابة لما تتطلبه تبعات هذه العقيدة وتكاليفها.

ومفاهيم الإسلام تجعل المسلم لا يخاف الموت لأنه يعرف أن للموت أجلاً، لا يتقدم ولا يتأخر. ومفاهيم الإسلام تجعل المسلم لا يخاف على الرزق لأنه يعرف أنه مقسوم. ومفاهيم الإسلام تجعل المسلم لا يجزع لفقد عزيز أو مال أو نزول أية مصيبة لأنه يؤمن بالقدر ويؤمن أن الله يبتلي المؤمنين ليكفّر عنهم خطاياهم ويزيد في حسناتهم. ومفاهيم الإسلام لا تجعل المسلم يبطر إذ كثرت عليه النعم، بل هو يشكر المنعم ويؤدي

حقه، ما أروع الصورة التي رسمها لنا رسول الله ﷺ: «**عجبتُ للمؤمن كل أمره خير، إن أصابته سَرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرّاءُ صبر فكان خيراً له. فكل أمر المؤمن خير**".

من هنا، فإن أمة تمتلك مثل هذه العقيدة لا يمكن أن تهزم!

خصوصاً وأن أعداءها قوام عقيدتهم: النفعية، والمصالح الآنية، وتركز المال بيد القلة، ولا يعيرون التصور عن الوجود إلا أقل القليل، فلا يمكنهم إذن مواجهة العقيدة بعقيدة مناهضة، ولا التصور بتصور يبطله أو يتفوق عليه، لذلك فمعركة العقيدة محسومة لصالح الأمة الإسلامية، فلا الحملات التبشيرية، ولا الحملات الصليبية، ولا حملات التغريب الحديثة التي تبغي تشويه الإسلام، ولا الغزو الفكري الحديث، ولا الغزو الإعلامي الذي يركز على إثارة الغرائز ومحاولة تشويه الإسلام، كل ذلك لم يغن عن الغرب شيئا في ثني الأمة عن تحقيق تبعات هذه العقيدة الحية.

نعم لذلك كله أضرار جانبية، ولكنها على المدى الطويل لا تثني الأمة عن اعتقاد عقيدتها، والقيام بما تتطلبه تلك العقيدة، فأثره ولا شك إلى زوال.

فالعنصر الأهم في معركتنا مع أعداء الإسلام هو هذا التصور عن الكون والإنسان والحياة، والذي أثبت على مدار التاريخ أن الأمة إذ تعرضت لحملات إثر حملات، من صليبية، إلى مغولية إلى تسلط أسر على الأمة، مثل البويهيين، والعبيديين، وغيرهم، لم يثمر إلا أن تصحو الأمة من كبوتها في كل مرة فتعود لتقتعد مقعد الريادة، بل وربما تجد أن من يهاجمها يعتقد عقيدتها ويعود مسلما كما حصل لبعض التتار.

## طريقة الرسول ﷺ في صناعة جيل قادر على القيام بدور فاعل وعلى تغيير العالم بأسره:

أولا: شخصية الرسول ﷺ، القيادية المؤثرة الملهمة: وقوام تلك الشخصية:

أ- امتلاكها الرؤية الواضحة لما يريد تحقيقه، «والله ليُتمنَّ هذا الأمرَ»، «أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلّا قَلِيلًا حَتّى يُورِثَكُمْ اللّهُ أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ»، «أُعطيتُ مفاتيح الشام، واللهِ إني لَأبصرُ قصورَها الحُمْرَ إن شاء اللهُ» والتركيز على تحقيقها من خلال شحذ النفوس تجاه استشرافها، ومحدداتها وعلاماتها التي تجليها «حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمِه، ولكنكم تستعجلون» ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾. فهو يركز على تحقيق الأهداف بنهج واضح عملي قادر على التغلب على العقبات، ويصاحب ذلك الإصرار والمثابرة، والهمة العالية، مهما ادلهمت الخطوب واشتدت الأحوال (الحصار والمقاطعة في شعب أبي طالب، تجمع الأحزاب لغزو المدينة).

ب- دوام التواصل مع الصحابة، وتسيير شؤونهم وفقا لهذه الرؤية الواضحة، بأفكار جلية مقنعة، ورعاية شؤونهم بها، والاستماع لآرائهم، والاطلاع على أحوالهم واحتياجاتهم، فيلمسون فيما يرشدهم إليه الفهم العميق والفكر المستنير، والهدي المنطبق على الواقع، ويرون منه القرب منهم والقدوة التي تعينهم على الضغوط والمواقف الشخصية التي يتعرضون لها، فيلهمهم مهما ادلهمت الخطوب، ويصقل ذواتهم ويشذبها مما علق بها من معوقات، ويقدر أقدارهم، ويرفع من عزائمهم،

ويغلف هذا كله بشخصيته المتواضعة، الرحيمة، الحريصة، مما ينشأ عنه محبة متبادلة، وهذا يبني جيلا قويا مؤمنا بالتغيير، ومؤمنا بالرسالة مستعدا للتضحية في سبيلها.

ت- اتخاذها القرارات الصعبة، الصائبة، الحاسمة التي لا تردد فيها، في مواجهة التحديات، والثبات عليها، فهو من يتقدم الركب، فيكون في أشد درجات القرب المكاني من حمى وطيس المعركة، ويكون الأسوة الحسنة في الثبات حين يفر من يفر، وفي التصديق بموعود الله حتى يكون الأسوة الحسنة، ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا﴾.

ث- تجسد الإسلام في شخصيته، وتميزه بالنزاهة والصدق والأمانة، لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، يدرك حجم رسالته، وما تتطلب من جهد ومثابرة ومع ذلك يرتقي لمستوى المهمة «لا نوم بعد اليوم يا خديجة».

تجسَّد الإسلام في شخص الرسول الكريم ﷺ، صفوة خلق الله تعالى، انتخبه رب العالمين واصطفاه من بين جميع الخلائق ليحمل شرف تبليغ هذه الرسالة العظيمة الثقيلة للناس كافةً، بما في حملها وتبليغها من جهد وعناء، "مضى عهد النوم يا خديجة"، وبدأ عهد المشقة والتعب، والجهاد والصبر والمصابرة والمرابطة، وكانت معجزة القرآن الكريم علامة للخلق تدلهم على سيد ولد آدم، ليَقْدُروهُ حق قدره، صاحب لواء الحمد، والمقام المحمود، والحوض المورود، والشرف الرفيع، كان قرآناً يمشي، يتجافى جنبه عن المضاجع، وتتورم قدماه الشريفتان من طول القيام في الصلاة، إداء لحق شكر ربه، كان الأسوة الحسنة، والخلق العظيم، عالي الهمة يطلب معالي الأمور: «إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ مَعاليَ الأُمورِ، وأَشرافَها، ويَكرَهُ سَفْسافَها»[١٩٨]، وإذا أعطى أعطى عطاء من لا يخشى الفقر، أجود الناس بالخير، حليمٌ، فعن أنس . ﷺ . قال: «كنت أمشي مع رسول الله . ﷺ . وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي . ﷺ . قد أثّرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»[١٩٩]. أرحم الناس بالناس، «الرّاحِمونَ يَرْحَمُهُمْ الرّحمن، ارْحَمُوا أَهْلَ الأرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السّماءِ، والرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمن، مَنْ وَصَلَها وَصَلَتْهُ، وَمَنْ قَطعها بَتَّته»[٢٠٠]، وأرفق الناس بالناس، «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»[٢٠١]، يعز عليه عنت المسلمين، ويحرص عليهم أشد الحرص، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ١٢٨]، "أثبت الناس يوم الزحف، لا يعرف تولياً، ولا توانياً، ولا فراراً، بل يقف كالنهر الهادر أمام مدلهمات الأمور، رابط الجأش، قوي الشكيمة، فكان الصحابة يتقون بظهره عند اشتداد المعارك، فتجده أسبقهم وأنجدهم حين تحل الحتوف والمهالك، وإذا لقي

---

[١٩٨] رواه الطبراني بسند صحيح

[١٩٩] رواه البخاري

[٢٠٠] رواه أحمد والترمذي

[٢٠١] رواه مسلم

ﷺ كتيبة للعدو كان أول من يضرب بالسيوف، وقد بقي ثابتاً وحده معه قلة من أصحابه يوم حنين، وأُحد، بعد فرار من فر من جيش المسلمين، روى مسلم عن البراء بن عازب ﷺ قال: «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني رسول الله ﷺ»، وعن علي ﷺ أيضاً قال: «لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس، ما كان – أو: لم يكن – أحد أقرب إلى المشركين منه»[٢٠٢]، "[٢٠٣].

وحين حفر المسلمون الخندق لم يكن يشترك معهم بمعوله وفأسه فقط، فيضرب به ما شق عليهم من أرض صخرية، بل وبتبشيرهم بالفتوحات، وبتحميس الهمم وبث الروح العالية في النفوس، عن البراءِ بنِ عازبٍ الأنصاريّ قال: «لما أمرنا رسول الله ﷺ بحفرِ الخندقِ، عَرض لنا في بعضِ الخندقِ صخرةٌ عظيمةٌ شديدةٌ لا تأخذ فيها المَعاوِلُ، فشكوا ذلك إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فلما رآها أخذ المِعول، وقال، بسم اللهِ، وضرب ضربةً فكسّر ثُلُثَها وقال: اللهُ أكبرُ، أُعطيتُ مفاتيح الشامِ، واللهِ إني لَأبصرُ قصورَها الحُمْرَ إن شاء اللهُ، ثم ضرب الثانيةَ فقطع ثُلثًا آخرَ فقال: الله أكبرُ، أُعطِيتُ مفاتيحَ فارسٍ، واللهِ إني لَأُبصِرُ قصرَ المدائنَ الأبيضَ، ثم ضرب الثالثةَ فقال بسم اللهِ، فقطع بقيَّةَ الحَجَرِ فقال: الله أكبرُ، أُعطيتُ مفاتيحَ اليمنِ، واللهِ إني لَأُبصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني الساعةَ». وقال ابن حجر في كتابه (الإصابة) حين عرف بالصحابي الجلندى ملك عمان: "أن رسول الله . ﷺ .بعث إليه عمرو بن العاص يدعوه إلى الإسلام، قال الجلندى: لقد دَلَّني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر، ويغلب فلا يهجر (لا يتلفظ بقبيح)، وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد، وأشهد أنه نبي".

ورسول الله ﷺ وهو صاحب الحوض المورود، واللواء المعقود، والمقام المحمود، الذي بلغ في معراجه الشريف مكانة لم يبلغها أحد غيره قط، فأمره الله تعالى، وأوحى إليه ما أوحى، وبلغ سدرة المنتهى، عند جنة المأوى، وخاطبه الملأ الأعلى، ثم رجع إلى بيته يخصف نعله ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته في عمل أهله، ويجلس بين ظهري أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، ويكره أن يقوم الناس له، قال أنس . ﷺ: "ما كان شخص أحب إليهم رؤيةً من رسول الله . ﷺ .وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك". لا يمل من كثرة تدافع ذوي الحاجات، والسائلين فيقضي حوائجهم، ويُعلِّم الجاهلَ ويرشد التائه، ولا يرد أحداً.

لا شك أن تمثل الرسالة في شخص حامل الدعوة بكل ما فيها من قوة وحق، ودوافع تلتقي مع نوازع الإنسان ليرتقي في معارج العلى، إلى أقصى آفاق الكمال، ممزوجة بشخصٍ حريص على المؤمنين، يعز عليه عنتهم، ويرعى مصالحهم وشؤونهم، وهو بهم رؤوف رحيم، تحقق من الأتباع الامتثال والتأسي مع المحبة.

ولم يكن التأسي بهذه الشمائل المحمدية خاصاً بجيل الصحابة ومن عاصره، بل هي ماثلة أمام كل متأسٍّ بها إلى يوم الدين، تكفيه فيها شهادة رب العالمين له بأن ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾.

**ثانياً**: المفاصلة مع الجاهلية مفاصلة تامة، والتميز التام بين الحق والباطل، فإذا اقترب الحق من الباطل قدر إصبع فقد صفته التي تجعله حقاً، وفقد قوته الذاتية التي يستطيع بها قهر الباطل والتغلب عليه.

---

[٢٠٢] أخرجه أحمد في مسنده

[٢٠٣] شَجَاعَةُ النَّبي ﷺ وَرَبَاطَةُ جَأْشِه، د. محمد بن علي اليولو الجزولي. الرابطة المحمدية للعلماء.

وعطله عن بلوغ غاياته من تحرير البشر من عبادة البشر، فيكرسها، مخالفا شروط الحق من الكفر بالطاغوت أولا، مكرسا للإيمان بالطاغوت بدلا من الكفر به! فكيف يمكن أن يلتقي الحق بالباطل ومن غايات الحق ومنهجه: نوال رضوان الله، والجزاء على الأعمال بالجنة، وحصر الأخذ والاتباع بالوحي.

لذا كان من أخص مقتضيات المنهج الإسلامي فرض عزلة شعورية كاملة مع الجاهلية ونظمها، خاصة مع أعلى مراحلها المتمثل بالطاغوت، إذ الموقف منه موقف كفر خالص، وانخلاع تام من قيمها وأعرافها ونمط حياتها وعقائدها يسبق الإيمان بالله، عزلة عن الصِّلات بالمجتمع الجاهلي وقيمه وعُرَفِهِ (أعرافه)، واتصال وثيق بالقيم الإسلامية، وتجرّد وانخلاع كامل عن تصورات الجاهلية والباطل والطاغوت، وولاء تام للحق وقضيته، يتخلله تمحيصٌ يُنقي الحق وأصحابه عن الباطل، يميز به الخبيث من الطيب!

يوضح المنهج الإسلامي أن الحق لا ينتصر بالباطل، فيختلط على الناس، إذ عادة ما تبدأ الاستعانة بالباطل أنملةً فشبراً فذراعاً فباعاً، بل لا بد أن ينماز الحق عن الباطل بصفته القوية المتجسدة فيه بوصفه الحق، بقيمه التي يريد بها هزيمة الباطل، فلا يكتفي بالاستغناء المطلق عن الباطل، بل يعلن حربه الشاملة عليه حتى يخلعه من جذوره!

لذا نجد أن موقف الحق من الباطل صارم، إذ بدأ الإسلام وسط ركام هائل من نتاج الحضارات الأخرى؛ الفرس وشعرهم، واليونان وأساطيرهم وماورائياتهم وآلهتهم، وأنظمتهم المجتمعية والسياسية، واللاهوتيون وفلسفتهم، والهنود وتصوفهم وآلهتهم، وكانت مراكز تلك التصورات والفلسفات في عمق الجزيرة وأطرافها حيث نشأ الإسلام[٢٠٤]، فلم تكن بعيدة عنه، لكنه لم يأخذ من هذا كله ولا مثقال ذرة أو أدنى من ذلك أو أكثر، لا تصورات عقدية، ولا أنظمة حياة!

ومثال ذلك أن الرسول ﷺ لم يقبل نصرة بني شيبان المشروطة بنصرته على العرب دون الفرس، على الرغم من أن المسلمين وقتها كانوا بأمس الحاجة للنصرة، وهم في غاية الضعف ويتعرضون لأشد درجات الابتلاء والمقاطعة، وقال مجيبا بني شيبان: «مَا أَسَأْتُمْ فِي الرّدّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصّدْقِ دِينَ اللهِ **لَنْ يَنْصُرَهُ إلّا** مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ».

ومن جهة ثانية، كان لعيش المسلمين في كنف الجاهلية قبل الإسلام دور هام في إدراكهم عظمة هذا الدين، والبون الشاسع، والفرق الواسع بين هدى الإسلام وضلال الجاهلية، يكرهون العودة إلى ذلك الضلال كما يكره أحدهم أن يُقْذَفَ فِي النَّارِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ

---

[٢٠٤] انتقلت الأفكار اليونانية إلى المشرق العربي قبل الإسلام، بل في المائة الأولى لميلاد نبي الله المسيح عليه الصلاة والسلام، وكانت مراكزها الثقافية في الاسكندرية، وحصل التأثير المتبادل هناك بين المسيحية وعلوم اللاهوت، والفلسفات الشرقية، والفلسفة اليونانية، ومن مراكزها أيضا الرُّها ونَصيبين وجُنْدَيْسابور وحران جنوب الرُّها، ومن هذه المراكز انتشرت تلك الأفكار وأثرت في الثقافة السريانية، ثم اختلطت الثقافة المسيحية بالوثنية (أنظر: فجر الإسلام، أحمد أمين ص ١٥٠-١٥٥)، لذلك كانت البيئة المحيطة بالجزيرة العربية مثقلة بفلسفة يونانية مصرية فارسية لاهوتية وثنية (أنظر كتابنا: نظرية المعرفة ومناهج التفكير والاستدلال باب: مناهج التفكير بين اليونان والمسلمين).

اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يَكْرَهَ الْعَبْدُ أَنْ يَرْجِعَ عَنِ الإِسْلاَمِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ، وَأَنْ يُحِبَّ الْعَبْدَ الْعَبْدَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ[٢٠٥].»

ثم من جهة ثالثة -تجلت إبان الفتوحات الإسلامية في عصر الصحابة-: من خلال صهر الشعوب والأعراق في بوتقة العقيدة الإسلامية والشريعة السمحة لتكون قوام أمة واحدة من دون الأمم، هي خير أمة أخرجت للناس، وانخلاعهم من عرى الجاهلية، وعصبياتها، وانتماءاتها، واندماجهم في معين الأمة عبر مدارس فقهية وفكرية تجسد هوية الأمة الحضارية.

**ثالثاً**: وحدة المصدر، فلا تستقي الأمة تصوراتها، ولا أفكارها، ولا منهج حياتها إلا من الوحي، فقد آمن الصحابة بصحة التصور الإسلامي، وبوجوب طاعته، وتوحيد الأخذ منه، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ، ﷺ: إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مَنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا أفَتَرى أَنْ نكتبها؟ فَقَالَ النَّبِيُّ، ﷺ: «أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ اليهودُ وَالنَّصَارَى؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا ما وسِعَه إلا أن يَتْبَعَني".[٢٠٦] "لأن شريعة النبي - ﷺ - لما نزلت كانت كافية عن كل شريعة، ولهذا قال الله عز وجل لما ذكر عن المشركين أنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت ٥٠-٥١] فهذه مُغْنِيَةٌ عن كل كتاب أو عن كل قانون أو عن كل رأي قد كفانا الله عز وجل بكتابه عن ذلك كله".

والأثر المباشر للتلقي من المصدر الواحد النقي أي من الوحي، هو أن تبقى الأفكار المتلقاة من عقائد وتشريعات **صافية نقية مبلورة**، لا تشوبها شائبة من حضارة أخرى، ولا من تصور آخر، فتلك ضمانة فاعليتها في التأثير وفي إحداث التغيير، **صافية** (أي أن تبقى الصلة بالمصدر عند التلقي صافية فيربط كل فكر أو حكم أو رأي بالدليل عليه من الكتاب والسنة أي يربطه بما جاء به الوحي، فذاك هو **الصفاء**)، **نقية** (أي إبعاد كل فكر أو حكم أو رأي ليس من الفكرة الإسلامية (ليس مما له دليل شرعي) عن الفكرة الإسلامية، فتزيل من الفكرة الإسلامية من قواعدها، وعقائدها، وأصولها، وأحكامها وآرائها ما علق بها من الشوائب وما ألحق بها من أفكار في العصر الهابط أو جراء الغزو الفكري والتبشيري، أو جراء قيام المدارس التوفيقية والعقلانية التي تلوي أعناق النصوص وتفسر الإسلام تفسيراً يتناسب مع الواقع بدلا من تغيير الواقع بأفكار الإسلام، فذاك هو **النقاء**)، و**مبلورة** (أي حسن تصور الفكرة الإسلامية في الأذهان، فيكون الفكر ناتجا عن إحساس وأن يتبلور هذا الفكر بحيث يرسم المخطط الهندسي للفكرة والطريقة في الذهن، فيدرك الإنسان المبدأ إدراكا صحيحا يؤدي إلى العمل، فيحدث الفكر فيه انقلاباً كاملاً، فيسير الفكر حينئذ متجسداً في تهيئة الأشخاص والمجتمعات، ويُسَيِّر الأجواء بهذا الفكر فيحدث الانقلاب المطلوب في الرأي العام، فذاك هو **التبلور**).

---

[٢٠٥] أخرجه أحمد ٣/١٧٤(١٢٨١٤) و\"مسلم\" ٧٦.

[٢٠٦] قَالَ أَبو عُبَيْدَةُ: مَعْنَاهُ أَمُتَحَيِّرونَ أَنْتُمْ فِي الإِسلام حَتَّى تَأْخُذُوهُ مِنَ الْيَهُودِ؟ وَقَالَ ابْنُ سِيدَهْ: يَعْنِي أَمُتَحَيِّرُونَ؟ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمُتَرَدِّدُونَ سَاقِطُونَ؟ رواه أحمد والبيهقي في كتاب شعب الإيمان، وهو حديث حسن

وهذا ينتج عنه صناعة "جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي الذي يتضمنه القرآن الكريم، فيستقي من النبع الزاكي الصافي وحده، ويمنع أن يختلط بأي نبع آخر، لا من فلسفة الإغريق، ولا من منطقهم، ولا من أساطير الفرس، ولا من تصوراتهم، ولا من إسرائيليات يهود ولاهوت النصارى، ولا من رواسب أي حضارة أخرى، فلا يتسلل شيء من ذلك إلى شخصيات المسلمين، ولا إلى علومهم، ولا إلى مقومات حضارتهم."[٢٠٧]

صقل الإيمان وتقويته في النفوس، وتزكيتها، بربطها الدائم بالقرآن والسنة، لتؤدي دورها الإيجابي في الحياة بفاعلية تامة، منخلعة من حظوظ ذواتها، تنظر بعينها إلى دورها في الدنيا، ومسؤوليتها التاريخية عن الأمم الأخرى بأنها أمة الشهادة، أمة القوامة على فكر البشرية وطريقتها في العيش، يقول رب العالمين وهو أصدق القائلين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ [١١٠ آل عمران]، رتبت هذه الآية الكريمة بشكل عجيب قوام خيرية الأمة منطلقة من أمرها بالمعروف، ونهيها عن المنكر، وإيمانها بالله، وخير الأمم أفضلها وأعلاها شأنا، أي أنها أكثر الأمم نهضة، إذ النهضة العلو، وأمة ناهضة: مرتفعة خيّرة، تسمو على الأمم الأخرى، ولكننا ندرك أن النهضة إنما تكون بأثر المفاهيم التي يحملها الإنسان، والتي يحملها المجتمع على السلوك والعلاقات التي يُبنى عليها، وبالتالي فقوام هذا السلوك الامتثال بالعُرَفِ (الأعراف) التي نتجت عن الايمان بالله، والانتهاء عن المنكرات التي نهى الله عنها، أي تطبيق نظام الإسلام على الفرد والمجتمع والدولة، وبذا يلتزم المسلم، وتلتزم الأمة الاسلامية بالطريقة، فترشد وتقتعد مكانتها السامقة اللائقة بها، وتتحقق فيها الخيرية التي أكرمها الله تعالى بها، فهذه الآية الكريمة تتحدث عن نهضة الأمة كاملة، فنهضتها تنطلق من استقامتها على أمر ربها بجعل العُرَفِ التي عرفها الشرع مسيرة لأعمالها، وبأن تنآى بعدا عن المنكرات التي أنكرها الشرع، لتستقيم بذا على الطريقة فترشد وتقتعد خير مكانة بين الأمم. لقد ربط الحق سبحانه في الآية الكريمة بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين الايمان بالله، فقدم عند الحديث عن الخيريةِ الأمرَ بالمعروفِ، لأن الخيرية والنهضة متعلقة بالسلوك أي بالأعمال، وهي من نتائج الايمان وهي مبنية على الايمان، وبالتالي فدقة الآية تفضي إلى أن نفهم منها أن الخيرية إنما تكون بجعل الأفكار العقدية هي المسيرة للسلوك، وبجعل العقيدة قيادة فكرية للأمة ومقياسا لأفعالها.

ويؤكد هذا الفهم ويؤيده قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ**﴾ [١٤٣ البقرة]، فدور الأمة أن تكون الشاهدة على الأمم، بإقامتها الحجة عليهم بإحسان فهم وتطبيق الإسلام في نفسها، وبحمله إلى الأمم وحمل الأمم على الخضوع لنظام الإسلام، لا الخضوع لعقيدته قصرا، وإنما قصر الأمم وحملها على الخضوع لنظام الإسلام، فهذا هو معنى قوامتها على فكر الأمم! والوسطية بمعناها الشرعي الصحيح هي العدالة، والخيرية، أي أن الأمة الاسلامية أمة الوسَط أي العدالة، أي الخيرية.

---

[٢٠٧] بتصرف يسير عن "معالم في الطريق" لسيد قطب رحمه الله، فصل: جيل قرآني فريد. ص ١٤

**رابعاً**: طريقة أخذ العقيدة، وإشرابها في النفوس، فالصحابة الكرام "يقرأون القرآن للعمل والتطبيق، لا بقصد الثقافة والاطلاع، ولا التذوق والاستمتاع، بل التلقي والتنفيذ، يعالج مشاكل حياتهم والنوازل العملية الواقعية، فيتلقون تصوره، وهديه، ويستلهمون منهجه، ويصححون تصوراتهم وأخطاءهم بناء على هديه، ويصوب مشاعرهم وسلوكهم، ويضبط علاقاتهم، في جو إيماني مرتبط بالله تعالى، يعيشون مع الملأ الأعلى، ويكيفون واقع حياتهم وفقا لذلك المنهج"[٢٠٨].

إذ لم تكن العقيدة الإسلامية يوماً فلسفةً جامدةً ولا فروضاً نظريةً تخاطب "الفكر البشري" وحده خطاباً بارداً مصبوباً في قالب المنطق الذهني"[٢٠٩]، -خصوصاً في أذهان الصحابة الكرام-، بل لقد زاوج الوحي بين الإيمان والعمل الصالح! فكان عقيدةً نابضةً بالحياةِ، لا فلسفة جافَّةً باردةً، كان مفاهيم حيوية تحرك النفوس، وتبعث في أرجائها السكينةَ والطمأنينةَ والتأثُّرَ والتأثِيْرَ، والتفكيرَ والتَّدبُّرَ، والانطلاقَ لحمل رسالته، والثقةَ المطلقةَ بالوصول للحقيقةِ المطلقةِ، والدافعة للقيام بخوارق الأعمال والأفعال!

**ولا بد لنا حتى ننهض، أن نعمل على بعث الحياة في العقيدة الإسلامية** عند المسلمين، "لأنه صحيح أن العقيدة الإسلامية موجودة عند الأمة، والأُمة أُمة مسلمة وليست كافرة، ولكن هذه العقيدة **فقدت علاقتها بأفكار الحياة و أنظمة التشريع**، فغاضت منها **الحيوية** وصارت عقيدة جامدة، بل عقيدة ميتة في نفوس المسلمين، ولم يعد لدى المسلمين ذلك الحافز الحاد الذي دفعهم لفتح الدنيا وحكم البشر ونشر الهدى وحمل لواء العدل والحق، بل إن هذه العقيدة عندهم فقدت ذكر الله والتطلع إليه والاستعانة به، واتجهت نحو النظرة إلى الخلق واستمداد العون من البشر وأخذ القوة من المال.

كذلك فقدت هذه العقيدة في نفوس المسلمين تصور يوم القيامة، وفقدت الخوف من وعيد الله وعذابه، وفقدت الشوق إلى الجنة والحنين إلى نعيم الآخرة، فقدت المثل الأعلى وهو نوال رضوان الله، وحصرت همها في كسب متاع الدنيا، فصار شوقها إلى منزل فخم وفراش وثير وسيارة فارهة، وصار حنينها إلى متع زائلة كالمال والجاه والسلطان، وصار مثلها الأعلى تحقيق رغباتها المادية وإرضاء من بيدهم تحقيق هذه الرغبات، ولذلك سكتت هذه الأمة على سيادة أنظمة الكفر على المسلمين وبقاء عملاء الكفر في سدة الحكم وضياع أراضي المسلمين ومقدساتهم.

هذه العقيدة الإسلامية حتى عند المتهجدين بالليل والصائمين تطوعاً بالنهار، والمتحرجين عن ارتكاب المعاصي والمحرمات لا تعني عندهم إلا هذه الأعمال، وينصرفون بعدها إلى الدنيا وحدها.

ولم يعد **التقيد بحكم الله** كما جاء من عند الله هو **المسيطر على الأمة** ولم يعد **لرفع كلمة الله وجعلها هي العليا في أعمالهم أي وجود**، ولا في تفكيرها أي نصيب.

لهذا كله كان لزاماً على حملة الدعوة الإسلامية ورجالات الدولة من العمل الدؤوب لبعث الحياة المتألقة في العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين باعتبار الأفكار والأحكام التي انبثقت عنها وحياً من الله، جاء بها جبريل

---

[٢٠٨] بتصرف يسير عن "معالم في الطريق" لسيد قطب رحمه الله، فصل: جيل قرآني فريد. ص ١٦.

[٢٠٩] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الشهيد سيد قطب رحمه الله، كَلِمَة في المنْهج.

عليه سلام الله علاجاً لأفعال العباد وإسعادهم، أي لا بد أن نجعل الأمة الإسلامية اليوم تتجه في حياتها على أساس العقيدة الإسلامية وتقيم الحكم والسلطان عليها، ثم تعالج المشاكل اليومية بالأحكام المنبثقة عن هذه العقيدة أي الأحكام الشرعية بوصفها فقط أوامر ونواه من الله، لا بأي وصف آخر، أي حتى تنطق قلوب هذه الأمة قبل ألسنتهم، بأن أفكار الإسلام وأحكامه هي أكبر مبرر لوجودنا جميعاً، وأن إخلاصنا لها يجب أن يرتفع على كل إخلاص، وأن ولاءنا لها يجب أن يرتفع على كل ولاء، فإذا نطقت قلوبهم بهذا ومثله وصار الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما، فإنه حينئذ تكون الفكرة التي تجمع الأمة كافة وتقوم عليها الدولة وتنبثق عنها القوانين والأحكام التي تضبطهم قد أوجدت الحياة النضرة في الأمة وحصلت عندها النهضة الصحيحة"[٢١٠].

## جواب مفاجئ من الرسول ﷺ على طلب من أنهكته جراح التعذيب!

الدرس العميق الذي يمكن استخلاصه من فترة تعذيب المؤمنين في مكة، هو أنه، حتى في ذروة الشدائد، اقترب صحابي شاب فقير من النبي ﷺ، وعلى ظهره آثار ندوب عميقة، مثل الأخاديد، جراء تعذيب قاسٍ بالحديد المحمّى، طالبًا التدخل الإلهي للنصر والعون. بعكس ما يمكن توقعه من رد فعل الرسول ﷺ بأن يرفع يديه إلى السماء داعيا الله تعالى تحقيق ما يطلبه خباب، وبانتصار الإسلام وظهوره وتحقيق الغاية التي من أجلها أرسل الرسول! رد النبي، ﷺ، بمنظور تاريخي مؤثر، بالغ التعبير، شديد الروعة؛ قال الإمام البخاري - رحمه الله -: عن خبَّابِ بن الأرتِّ قال: "شكَوْنا إلى رسول الله - ﷺ - وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو الله لنا، قال: «كان الرجلُ فيمن قبلكم يُحفَرُ له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيُوضَع على رأسِه، فيُشقُّ باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَط بأمشاطِ الحديد ما دون لحمِه من عَظْم أو عصَب، وما يصدُّه ذلك عن دينِه، والله ليُتمنَّ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمِه، ولكنكم تستعجلون».

أما أهم الدروس المستفادة من هذا الجواب التاريخي المسطر بماء الذهب، فهو أن الثقة المطلقة بقوة أفكار العقيدة الإسلامية، وقدرتها على إمداد المؤمنين بها بطاقة هائلة تجعلهم يتحملون أشد الأهوال دون أن يدور في مخيلة أحدهم أن يتنازل عنها، إنما لأنها الحق الذي لا باطل فيه، ولأنها انعقدت في قلوبهم، جراء تميزها بِرقِيّ تَصَوُّرِها عن الكون والإنسان والحياة، ولقد صبَّ الإسلامُ ذلك المنهجَ العقديَّ الشاملَ في قالبٍ "ذاتيّ مستقلٍ، وفق طبيعته الكلية، التي تخاطب الكينونة البشرية جملةً، بكل مقوماتها وطاقاتها، ولا تخاطب "الفكر البشري" وحده خطاباً بارداً مصبوباً في قالب المنطق الذهني"[٢١١]، فزاوج بين الإيمان والعمل الصالح! فكان عقيدةً نابضةً بالحياةِ، لا فلسفة جافَّةً باردةً، كان مفاهيمَ حيويةً تحركُ النفوسَ، وتبعثُ في أرْجَائِها السَّكِيْنَةَ والطُّمَأْنِيْنَةَ والتَّأَثُّرَ والتَّأْثِيْرَ، والتَّفْكِيرَ والتَّدبُّرَ، والانطلاقَ لحملِ رسالتِهِ، والثِّقَةَ المطْلَقَةَ بالوصولِ

[٢١٠] بتصرف عن نداء حار إلى المسلمين من حزب التحرير، الخرطوم ١٩٦٢.

[٢١١] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، الشهيد سيد قطب رحمه الله، كَلِمَة في المَنْهج.

للحقيقةِ المطلقةِ وامتلاكِها، والعمل بمقتضاها! وهذا يفسر لنا كيف استطاعت هذه النفوس التي صُقلت بهذا الفهم الراسخ والإيمان العميق للعقيدة الإسلامية أن تُدخل نصف الكرة الأرضية المعروفة في ذلك الزمان في سلطان الإسلام وعدله، دون أن تُكْرِهَ أحداً على تغيير معتقده، لكنها بسطت نمط العيش الراقي، والحضارة التي سمت بالإنسان، حيث يُشكِّلُ الإسلامُ هويةً ثقافيةً ومزاجاً نفسياً، وانتماءً حضارياً وتاريخياً صاغ المقومات الخاصة والعامة للشعوب والأعراق التي دانت به أو خضعت له، فصهرتها بعملية صهرية فريدة ليس لها نظير في التاريخ، في بوتقة العقيدة الإسلامية والشريعة السمحة لتكون قوام أمة واحدة من دون الأمم، هي خير أمة أخرجت للناس، بل ولقد أثرت الحضارة الإسلامية حتى في الأمم التي بارزتها العداء أحيانا! ولقد امتلك الإسلام القدرات الجبارة على تحريك المنتمين للأمة في معارك الوجود الفاصلة، وكان بمثابة خط الصمود الأول والدفاع المستميت عن كرامة الأمة وهويتها، وعن سلطان الأمة وسيادة أحكامه في معترك الحياة، -عقيدة تتحرك في الجوانح، ونظاماً سياسياً يشكل الدرع الواقية التي يقاتل من ورائها ويتقى بها، وشخصيات فذة، وقادة، وعلماء، ومدارس فقهية، ومراكز علمية-، فانتقل الإسلام بالأمة نقلة نوعية ليكون مسوغ وحدتها، ومصدر قوتها، وتميزها، وقوامتها على البشرية، وخيريتها، وليكون بُعدها النفسي والفكري المحرك لمجتمعها في ميدان صلاحها وفق أحكام شريعتها.

ولقد كان الإسلام منهجاً لصياغة حركات المجتمعات المتعاقبة وتدافعها عبر التاريخ مع غيرها من الأمم، ومقياساً لنهوضها وانحطاطها، ووازعاً لها للنهوض بعد كل كبوة، من خلال منظومة دقيقة للفهم، محكومة بنواميس وسنن كونية ربانية يكون اكتشافها وتدبرها وفهمها وتنزيلها على الواقع طريقاً من طرق العبادة والتقرب إلى الله، ودافعاً للعمل دوماً لاقتعاد مقعد السيادة والريادة والقوامة على البشرية، والقيام على الأمانة التي أنيطت بالأمة، ذلك النهج وتلك المقاييس رفضت رفضاً تاماً أي نوع من التهويم والعشوائية والارتجالية وأن تخضع حركة المجتمع لضرب من التجارب، بل عوضاً عن ذلك تسلحت الفكرة الإسلامية بالعلم وأدواته الدقيقة المنضبطة بالوحي، فقدم للعقل البشري فرصته الاستثنائية لكي يتحرك حرا في الفهم والابداع والاستنتاج، بعد أن قدمت له الفكرة الإسلامية منظومة متكاملة من القيم والشرائع والمقاييس التي يستنبط منها الأحكام اللازمة لعمارة الأرض وتحقيق قيمة الاستخلاف فيها.

ولقد تجلى الإسلام منبراً ومدرسةً معرفيةً، وتجلى هويةً حضاريةً للأمة على عظيم دورها وضخامة قيمتها، وإلى جانب ذلك كان حامل منظومة قيمية ومفاهيم للإنسانية ترتقي على حدود العرق واللون والطبقية، ليكون نظام حياة للإنسان الذي يخضع لأحكامه، مسلماً كان أم ذمياً، يقيم الإسلام في المجتمع ميزان الحق والعدل، على اعتبار أنه رحمة للعالمين. ويقيم على البشرية وما لديها من نظم وثقافةٍ الحجةَ بقيمه ورحمته وأنظمته.

والدرس الثمين الثاني من هذه القصة العظيمة -قصة خباب- هنا هو المسؤولية العميقة التي نتحملها في إنقاذ الإنسانية من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. نحن مقدر لنا أن نقضي على الظلم، ونقيم العدالة الحقيقية، ونحرر المظلومين، ونضمن توزيع الثروة بشكل عادل، بتطبيق شرع الله تعالى. إن الإسلام يجعل

المؤمن لا يرضى أن يعيش على هامش الحياة، بل يضطلع بدور المسؤولية عن الغير، بل عن الأمم الأخرى بحمل الرسالة والدعوة لينشر الخير ويهدي الناس للدين الحق،

إن هذه المهمة الضخمة تتطلب إيمانًا ثابتًا وصلابة. الأمر الذي سيفضي قطعا إلى الاصطدام العنيف مع الهياكل السلطوية القائمة، التي يتلاعب بها أولئك الذين يخدمون مصالحهم، ولا بد إذن أن نثبت جدارتنا بأننا حقيقون بالدعم الإلهي لإنجاز التغيير. لكي نكسب هذا، يجب أن نتبع خطى الأمم السابقة، ونظهر إيماننا الثابت، ونثبت جدارتنا في الحفاظ على هذه المهمة السامية. وبذلك، نغنم ثواب كل عمل يعمله أي مسلم يأتي من بعد إلى يوم القيامة، لا ينقص من ثوابهم شيئا، وأجر كل روح تجد الهداية وتؤدي الأعمال الصالحة تحت عدل الإسلام، وتنجو من العذاب. وهذا بدوره، يعزز من مرتبتنا في الجنة.

علاوة على ذلك، تبرز هذه القصة للمجتمعات أهمية الصلابة في أوقات الشدة. إن مثل هذه المحن تُطهر إيماننا، تقربنا من الله وتجعلنا جديرين بدعمه النهائي في هذا العالم والآخرة.

## ولتفعيل العقيدة الإسلامية في النفوس ولتفعيل الطاقة السببية في العقيدة نقول:

لا شك أن الخطأ الفادح الذي وقع فيه الكثير من المسلمين هذه الأيام، أنهم لم ينظروا لعقيدتهم على أساس أنها قاعدتهم الفكرية بما فيها من أفكار كلية عن الكون والانسان والحياة تعرفهم بالغاية من وجودهم في الحياة وتضبط سلوكهم فيها وفق مقياس الحلال والحرام، وفق دين مكتمل خال من النقص، يصلح الزمان والمكان به، وتحدد لهم طريقة معينة في العيش، وراحوا بدلا من ذلك يأخذون أفكاراً جزئية من عقائد أخرى، ليخلطوها بما لديهم من أفكار مما أنتج لديهم خليطا غير متجانس من الفكر، يتضارب أعلاه مع أسفله، الأمر الذي تسبب في حالة عظيمة من الشقاء والحيرة والتخبط والجهل، ومما جعل سلوكهم غير منضبط بما آمنوا به من عقيدة انضباطا كاملا، فتسبب بفساد كثير في معاملاتهم، بحيث أصبح الربا أمراً طبيعياً، وتحكم القوانين الغربية في حياتهم أمراً لا يستدعي لدى الكثيرين إجراء الحياة أو الموت، وتحكم الكافر المستعمر في رقابهم أمراً اعتادوه فلم يجرد غالبيتهم العظمى السيف لوقف خطره، وغير ذلك من الدواهي التي نعلم.

ولعل من أخطر نتائج هذا الخلط بين الاسلام وغيره، خاصة وأن الغرب الكافر هو الذي انتصر في معركته العسكرية الحالية ضد المسلمين، هو إقامة القوانين التي تنظم العلاقات بين المسلمين على غير أساس الاسلام، أي إن الدول التي يعيش المسلمون في كنفها ليست هي الكيان التنفيذي لمجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات المتميزة التي يحملها المسلمون المتميزون بعقيدتهم وأفكارهم عن الحياة، بل هي كيانات تنفيذية إما لأفكار الفئة المتغلبة في المجتمع أقامت القوانين بما يحقق لها نهب خيرات الأمة واستباحة بيضتها وإبقاءها خاضعة لنفوذ الغرب الكافر يقتل رجالها ويستضعف نساءها ويغير عقيدة أطفالها، بثمن بخس كراسي مهترئة،

أو كيانات تنفيذية لأفكار مستوردة بينها وبين الاسلام ما بين الأرض والثريا، مما يجعل المسلم في غربة دائمة في مكان عيشه، وفي صراع دائم بين ما يراه حقاً وما يُفرض عليه في علاقات المجتمع فرضاً بقوة

الشرطي، مما جعل علاقته مع هذا الكيان التنفيذي الذي من المفترض أن يحقق له السعادة بحراسة تنفيذ أفكاره عن الحياة، أقول: جعل علاقته بهذا الكيان علاقة العداء والكيد له، فالنظام يكيد للناس والناس تتمنى الخلاص من هذه الأنظمة المأجورة المارقة.

هذا هو مكمن الداء، وأما الدواء فهو بانبثاق مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات اللازمة لإقامة الدولة من هذه العقيدة، ثم بانصهار الأمة قاطبة مع أفكارها التي اعتنقتها عن الحياة، أفكارها التي شكلت لها عقيدتها الاسلامية الصرفة الخالصة من كل شائبة، تلك الأفكار الكلية التي تشكل لديها الأساس الذي تقيس عليه كل فكر، وتضبط به كل سلوك،

تنصهر الأمة مع هذه الأفكار انصهارا بحيث لا تتصرف أي تصرف إلا وفق مقياس الحلال والحرام، ولا تحمل أي فكر إلا بعد أن تتأكد من انبثاقه من هذه العقيدة.

لا شك أن حجر الزاوية في إعادة استئناف الحياة الاسلامية، أن تقوم الأمة الاسلامية بتحديد وجهة نظرها في الحياة، والتي ستحدد لها طريقتها في العيش، وذلك بدراسة العقيدة الاسلامية دراسة سياسية، بحيث تدرك أن هذه العقيدة عقيدة سياسية، تعالج كل مشاكل الحياة بحلول شرعها الله سبحانه عن طريق الوحي، وعقيدة روحية تربط الانسان بالحياة الآخرة وتجعل سعادته تتحقق بنوال رضوان الله سبحانه وتعالى، وبالتالي تكف الأمة عن أخذ حلول جزئية ترقيعية من الغير بحجة توافقها أو عدم مخالفتها للإسلام، فالإسلام ليس بحاجة لقطع غيار تؤخذ من غيره، ولا يمكن لأية فكرة أن تكون متوافقة مع الاسلام أو غير متعارضة معه إذا ما كانت منبثقة عن غيره لأن أساس أفكار الاسلام الأخذ من الوحي وإفراد الله سبحانه بحق التشريع ووضع الحلول لمشاكل الانسان في الحياة.

ومن ثم أن تقوم الأمة بفرض هذه الأفكار في واقعها من خلال الدولة التي تنفذ هذه الأفكار في واقع الحياة ليعيش المسلمون حياة اسلامية ترضي ساكن الأرض ويرضى عنها رب العالمين. ولا شك أن هذا كله يتم بالعمل الحزبي المنظم الذي يبين للأمة عقيدتها، وفساد العقائد والأفكار الأخرى، بالإضافة إلى جهود العلماء والدعاة، والكتب.

## دور العقيدة الإسلامية في تفجير الطاقة الحضارية

تشكل **العقيدة الإسلامية** القلب النابض لمشروع النهضة الإسلامي، فهي أعظم محفّز للطاقات الحضارية الكامنة في الأمة. ليست العقيدة الإسلامية مجرد جملة مبادئ نظرية جامدة أو شعائر معزولة؛ بل هي **منظومة حية فعّالة** إيجابية تبعث في نفوس المؤمنين طاقات روحية ونفسية هائلة. إن التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان يغرس الإيمان العميق المقرون بالعمل، ويوجّه طاقات الفرد والمجتمع نحو غاية سامية ورسالة خالدة. بهذا الإيمان تحولت قبائل العرب المتفرقة الضعيفة إلى أمة موحدة قوية غيّرت مجرى التاريخ، وانصهرت شعوب شتى في كتلة حضارية واحدة قادت العالم لقرون. لقد صنع الإسلام هذه **المعجزة التاريخية** عبر تفجير طاقة حضارية لا مثيل لها، والسّر يكمن في العقيدة التي تبث روحًا رسالية عالية وتغذي المؤمن بيقين راسخ بأن المستقبل لهذا الدين.

تمنح العقيدة الإسلامية معتنقيها **قوة معنوية استثنائية** تدفعهم لبذل المستحيل بثبات نفس وطمأنينة قلب. المؤمن الحقّ يوقن أنه على الحق المطلق وأن الله معه ما دام ينصر دينه، وأن ما عند الله خيرٌ وأبقى من هذه الحياة. هذه المفاهيم تولّد **طاقة نفسية هائلة** تجعل المسلم يتحمّل أعظم المشاق دون أن يلين أو يستسلم. وقد سجل التاريخ نماذج مدهشة لثبات المؤمنين الأوائل تحت التعذيب في مكة؛ كانوا يتعرضون للحديد المحمى تكوى به جلودهم، وللجلد المتواصل فوق الرمضاء، فلا يفتنون عن دينهم، واستمروا على ذلك حتى بشرهم النبي ﷺ بأن الله سيتم هذا الأمر ولكنهم يستعجلون. إن ثباتهم هذا ما كان لولا الإيمان العميق الذي يغمر قلوبهم. علّق بعض العلماء على هذا المشهد النبوي مؤكدًا أن أعظم ثمرة غرسها الرسول ﷺ في أصحابه هي **الثقة المطلقة بقوة أفكار العقيدة** وقدرتها على إمداد المؤمنين بطاقة تجعلهم يصمدون أمام أعتى المحن. فالصحابة لم يكونوا خارقين بطبيعتهم البشرية، لكن إيمانهم الراسخ المملوء بيقينيات القرآن جعلهم قادرين على ما لا يقدر عليه غيرهم. لقد استمدّوا الروح والمعنويات من العقيدة أكثر مما استمدوها من أي حوافز مادية، فلم يُقهَروا داخليًا رغم قلة عددهم وعتادهم، فكان مآلهم النصر والتأييد. هذه **القيمة المضافة** للعقيدة هي التي تحول الإنسان العادي إلى بطل ملهم قادر على خوض الصعاب، لأنه يستشعر معية الله ويستهين بالدنيا مقابل رضوان الله والدار الآخرة، فلا يرعبه طاغية ولا تكسره شدة. وهذا العنصر الإيماني هو سر تفوّق نوعي للمسلمين عبر تاريخهم الطويل.

وبناءً على ذلك، فإن الأمة التي تمتلك مثل هذه العقيدة الحية يستحيل هزيمتها في الصراع الحضاري مهما بلغت قوة أعدائها المادية. العقيدة الإسلامية تمتاز بأنها **تربط الدنيا بالآخرة** وتوازن بين المصلحة المادية والقيم الأخروية، مما يرفع دافعية المسلم للتضحية بكل غالٍ ونفيس - حتى بنفسه - استجابةً لتكاليف هذه العقيدة. في المقابل يقوم أعداء الإسلام على عقائد مادية نفعيّة، تقدّس المنافع العاجلة وترتكز على أهواء البشر ومصالح الأقليّة. من هنا فإنهم يفتقرون إلى الدافع الروحي والاستعداد للتضحية بالقدر الذي عند المسلمين، فضلاً عن عجزهم عن طرح بديل عقدي يُبطل حقائق الإسلام أو يُقنع المؤمنين بالتخلي عنه. لذلك يُقر حتى المفكرون الغربيون بأن المعركة **الفكرية - العقدية** محسومة لصالح الأمة الإسلامية، فلا التنصير، ولا الاستشراق، ولا الحملات الإعلامية الحديثة استطاعت اقتلاع إيمان المسلمين أو ثنيهم عن مقتضيات عقيدتهم الحية. نعم نجح أعداؤنا في **إلحاق أضرار جانبية** وبث شيء من الشبهات، لكن التجربة تثبت أنه كلما ضعفت الأمة ماديًا أو هُزمت عسكريًا فإنها سرعان ما تفيء إلى عقيدتها وتنهض من جديد متمسكة بدينها، حتى إن بعض الغزاة أنفسهم اعتنقوا الإسلام في نهاية المطاف (كما حدث للتتار المغول بعد غزوهم بغداد).

إن **التربية العقدية** السليمة تولّد قدرة جماعية جبارة هي أساس **الطاقة الحضارية** للأمة. فالعقيدة لا تصنع أبطالًا أفرادًا وحسب، بل تُنشئ أمة رسالية متماسكة تحمل مشروعًا جماعيًا. لقد أخرج الله المسلمين أمة واحدة ﴿*لتكونوا شهداء على الناس*﴾ (البقرة: ١٤٣)، ووصفهم بأنهم **خير أمة أخرجت للناس** تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر جماعة. فالإيمان جعل كل فرد يشعر بمسؤوليته عن الدين وبأنه جزء من جسد الأمة؛ فيعمل لنصرة الإسلام ضمن كيان جماعي لا منعزلًا بمفرده. وغرس الإسلام في نفوس أبنائه مبدأ الأخوّة الإيمانية فوق كل رابطة، فصهر القبائل والأعراق في بوتقة واحدة. صارت *وحدة العقيدة* تلغي حواجز النسب واللون، وقامت رابطة الدين

مقام رابطة الدم في نفوس المسلمين. بهذا التلاحم العقدي صار العربي والفارسي والحبشي والتركي والكردي والأمازيغي إخوانًا في الله، يقاتلون جنبًا إلى جنب كالبنيان المرصوص، مما أدهش أعداءهم حينذاك. وأورثت هذه الوحدة ولاءً يفوق كل ولاء؛ فالمسلم يهبّ لنصرة أخيه في أقصى الأرض بدافع رابطة الإيمان. وما الإقبال الذي شهدناه على الجهاد والتطوع دفاعًا عن المسلمين المضطهدين في شتى البقاع إلا ثمرة طبيعية لاستمرار أثر تلك الأخوّة العقدية. إذًا فالعقيدة الإسلامية هي **مفجّرة الطاقات الحضارية** للأمة: ترفع معنويات الفرد للجوزاء، وتلحم المجتمع ككتلة صلبة متراصة، وتدفعه بصورة جمعية لحمل رسالة تحرير وهداية للبشرية. ومع وجود هذه العقيدة، تُصبح الموارد المادية والقوى البشرية أدوات طيّعة بأيدي المؤمنين، يوجهونها بفاعلية لتحقيق أهداف عليا وليس لمصالح محدودة أو آنية.

## العنصر الثاني: الأمة الإسلامية، العنصر البشري، الثروات، البعد الجغرافي، الموقع الاستراتيجي، الترابط الحضاري:

إلى جانب أثر العقيدة التي تحمله الأمة، يلعب العنصر البشري دوراً محورياً أساسياً في مواجهة الأمة مع غيرها من الأمم، إذ تتميز الأمة الإسلامية بنسبة عالية من الشباب في تركيبتها السكانية، بما للشباب من قدرات إبداعية، في مختلف أصناف العلم والتقنية، والابتكار، والطاقة الحيوية للتنمية، وهمة التثقف بالثقافة الصحيحة وتشرّبها والعمل لها، والوفرة السكانية توفر قاعدة كبيرة من القوى العاملة، مما يسرع في النمو الاقتصادي حين قيام الدولة، ويعجّل في بلوغ الغايات الناتجة عن برامج معدّة خصيصاً لإنهاض الأمة اقتصادياً وتقنياً، حيث تستثمر الأمة في التعليم والتدريب في شتى المجالات المختلفة المطلوبة، من العلوم الشرعية إلى الفلاحة إلى الصناعة، إلى غيرها، فالصين حين استغلت الوفرة السكانية تحولت لمصنع للعالم، وحققت نمواً اقتصادياً سريعاً وتداركت الفجوة بينها وبين الدول الأخرى، واستغلت الهند الوفرة السكانية للتدريب في مجالات التقنية والمعلومات، فأفرزت وفرة من المهندسين والمبرمجين، وحين استثمرت حكومات سنغافورة وماليزيا في التعليم والصحة والتوظيف والسكن، حققت تنمية مستدامة، إذ استغلت التركيبة السكانية بشكل فعال، وحين توازن الدولة بين التنمية الحضرية والريفية، فإنها تحقق الاستثمار في المناطق الريفية، وينمو القطاع الزراعي وتقل الهجرة من الريف إلى المدينة، وغير ذلك من العوامل، التي تؤدي بالدولة حين قيامها إلى الاكتفاء الذاتي، والتنمية والازدهار.

وفي العصر الراهن، تجد وفرة من العلماء والاختصاصيين المسلمين في شتى مناحي الحياة، في شتى دول العالم، فعلى سبيل المثال لا الحصر، تتضمن الإسهامات المعاصرة للعلماء المسلمين في مجالات مثل تطوير تقنيات جديدة في الهندسة الطبية، والطب، واكتشافات في علم الجينوم، والتقدم في مجال الذكاء الاصطناعي وتقنيات المعلومات، بالإضافة إلى الأبحاث المتقدمة في مجالات الطاقة المتجددة والنانوتكنولوجي، وهم بحاجة لدولة مخلصة تستثمر في استغلال طاقاتهم المعرفية والاستفادة من الخبرات المتراكمة لديهم ليقودوا الثورة الصناعية العلمية التي ستكون من أولويات دولة الخلافة الراشدة الثانية على منهاج النبوة. لقد كانت الأمة الإسلامية دائما مصنعا للعلماء تصدر للبشرية العلم والحضارة والرقي والمدنية، وتنشر

الجامعات في الأندلس ومالطا وحواضر العالم الإسلامي، تهوي إليها أفئدة طلبة العلم من أصقاع العالم، حتى دار الزمان ونزعت الخلافة من العالم الإسلامي، فما لبثنا غير وقت يسير حتى رأينا هجرة العقول إلى الغرب بحثا عن لقمة العيش بعد أن منعتهم دويلات الرويبضات من التفكير والابداع والعيش الكريم.

تمتلك الجزيرة العربية أكبر الاحتياطيات المؤكدة من النفط والغاز الطبيعي في العالم، ف"السعودية" تمتلك حوالي ١٧% من الاحتياطيات العالمية المؤكدة من النفط، مما يجعلها الأكبر على مستوى العالم. بالإضافة إلى ذلك، تمثل دول الشرق الأوسط ما يقارب ٣٠% من إنتاج الغاز الطبيعي العالمي، وغني عن القول أن النفط والغاز من أهم مصادر الطاقة في العالم، وينتج العالم الإسلامي مجتمعا ما يقارب الثلاثين مليون برميل من النفط يوميا، وتقدر نسبة إنتاج دول الشرق الأوسط من العالم الإسلامي ما يقارب ٣٥% من الاستهلاك العالمي للنفط، وحوالي ٢٠% من الاستهلاك العالمي للغاز.

أما بالنسبة للمعادن، فعلى سبيل المثال تجد المغرب أكبر منتج للفوسفات في العالم، ويمتلك المغرب حوالي ٧٥% من احتياطيات العالم من الفوسفات، وإندونيسيا من كبرى الدول المنتجة للنيكل والنحاس، والنيكل معدن حيوي لصناعة البطاريات، خصوصا بطاريات السيارات الكهربائية، وتنتج السودان الذهب، وتنتج النيجر ونيجيريا وكازخستان اليورانيوم، ولديها احتياطات ضخمة منه، ولنأخذ مثالا موسعا عن ثروات أفغانستان الطبيعية، تمتلك أفغانستان كميات كبيرة من الليثيوم، والذي يُلقب بـ"ذهب القرن الـ٢١" بسبب دوره الحاسم في صناعة بطاريات السيارات الكهربائية والأجهزة الإلكترونية، وتقدر القيمة السوقية لما في أفغانستان منه تقريبا بـ٣ تريليونات دولار، وتقدر احتياطيات الحديد فيها بمليارات الأطنان، وهو أساسي لصناعة الصلب، ولديها مناجم للأحجار الكريمة مثل اللازورد والزمرد، ولديها واحدة من أكبر الودائع غير المستغلة من النحاس في العالم، مع تقديرات تشير إلى وجود مئات الملايين من الأطنان، وتمتلك أيضاً احتياطيات كبيرة من الذهب والفضة، والبوكسيت والفحم، أما المعادن النادرة بما في ذلك النيوبيوم، الكروميت، والتنتالوم، والتي لها تطبيقات حيوية في صناعات الإلكترونيات والفضاء والدفاع فلديها نصيب الأسد منها، وتقدر القيمة السوقية للموارد المعدنية في أفغانستان بتريليونات الدولارات، حيث يصعب تقدير قيمتها السوقية حين استخراجها، مما يجعلها واحدة من أكثر الدول غنى بالمعادن في العالم، ويشهد العالم طلبا متزايدا على هذه الموارد الطبيعية، حيث تعتبر المعادن النادرة والليثيوم والنحاس من الركائز الأساسية لتطوير تكنولوجيات مثل بطاريات السيارات الكهربائية، والأجهزة المحمولة، وتوربينات الرياح، والأجهزة الإلكترونية بأنواعها مما يجعلها محور اهتمام عالمي.

أما وفرة المياه الصالحة للشرب والزراعة، فتلعب تركيا ومصر والسودان دورا هاما في توفيره من خلال نهري دجلة والفرات، ونهر النيل، إضافة إلى امتلاك مصر والسودان وباكستان الأرض الخصبة القادرة على تأمين الاكتفاء الذاتي الزراعي، وتحقيق الأمن الغذائي.

وتتنوع المحاصيل التي يمتلكها وينتجها العالم الإسلامي، فمصر قادرة على إنتاج القمح بما يفيض عن حاجاتها لولا البرامج التي فرضها الأمريكان على مصر كي لا تخرج عن سيطرتهم، إضافة إلى القطن، أما تركيا

فهي واحدة من أكبر منتجي ومصدري المنتجات الزراعية في العالم الإسلامي، بما في ذلك الفواكه والخضروات والحبوب، وتتمتع تركيا بقدرة كبيرة على الاكتفاء الذاتي في معظم المحاصيل بفضل تنوعها الجغرافي والمناخي، وتنتج المغرب الحمضيات والزيتون، وتنتج إندونيسيا زيت النخيل، ولديها قطاع زراعي متنوع، وتشارف على تحقيق الاكتفاء الذاتي في الأرز، وتنتج باكستان القمح والقطن والأرز، ومحاصيل أخرى، وتنتج الجزائر التمور، خصوصا التمر الصحراوي المتميز، وتنتج الحبوب، وأما السودان فلديه أراض بالغة الخصوبة، وموارد مياه غنية، وهي قادرة على الاكتفاء الذاتي وكفاية غيرها من القمح والذرة، وتنتج بنغلادش الأرز، وتنتج نيجيريا الكسافا والذرة، فهذه أمثلة سريعة عن قدرات العالم الإسلامي على تحقيق الأمن الغذائي، والاكتفاء الذاتي. فما ينقص الأمة هو حكومة إسلامية تضع هذه الثروات لصالح الأمة لا نهبا لأعدائها!

يمتد العالم الإسلامي من شمال أفريقيا إلى جنوب شرق آسيا، ويحتل موقعا استراتيجيا مركزيا هاما في العالم، ومن ذلك مثلا الأهمية التجارية، الأمر الذي يؤثر في التجارة العالمية والسياسة الدولية، بل يضم أيضًا عدة مضائق حيوية تعد شرايين رئيسية للتجارة البحرية العالمية، فمضيق هرمز مثلا هو بوابة النفط العالمي، يعبر من خلاله حوالي ٢٠% من النفط المتداول عالميًا، مما يجعله نقطة استراتيجية لأمن الطاقة العالمي، وقناة السويس تمر منها حوالي ٨% من التجارة العالمية بأسرها، أما مضيق باب المندب فيعد حلقة وصل حيوية للسفن المتجهة من وإلى قناة السويس، ويؤثر بشكل مباشر على التجارة بين أوروبا وآسيا والشرق الأوسط، ومضيق ملقا الذي يقع بين جزيرة الملايو وجزيرة سومطرة بأندونيسيا، فيعتبر من أكثر الممرات البحرية ازدحامًا في العالم، حيث يعبر من خلاله قرابة ٢٥% من التجارة البحرية العالمية، بما في ذلك نقل النفط والسلع بين آسيا والشرق الأوسط وأوروبا.

تمنح السيطرة والنفوذ على هذه المضائق الحيوية للدولة الإسلامية قوة اقتصادية وسياسية هائلة، مما يجعلها لاعبا رئيسا في الجيوسياسة العالمية، وتؤثر سيطرة العالم الإسلامي على هذه المضائق على أنماط التجارة العالمية، ولذلك يدرك العالم الغربي أهميتها الحيوية الاستراتيجية.

ومن البعد الجغرافي نجد امتدادا شاسعا من أندونيسيا شرقا إلى المغرب غربا، فهذا الامتداد يجعل من المستحيل على أي قوة في العالم مهما بلغت أن توقف أو تفشل فكرة آن أوانها اعتنقتها جموع تمتد هذا الامتداد الفسيح، لذلك فهذا عنصر قوة رهيب.

ومن الموقع الاستراتيجي تجد الأمة تتحكم بمضائق وممرات التجارة العالمية، والتواصل بين الأمم في الأرض، وتتوسط العالم، مما يجعلها قادرة على التحكم في مصائر الأمم.

أضف إلى ذلك التنوعات الهائلة في المناطق الجغرافية في العالم الإسلامي من الصحاري الشاسع إلى الجبال العالية والسواحل الطويلة والمدن ذات الكثافة السكانية، والموقع الاستراتيجي، يجعلها قوة هائلة يصعب التفكير في اجتياحها من قبل الدول الغربية في حال توحدها في دولة إسلامية واحدة، مما يدفع العالم الغربي للبحث عن سبل التواصل معها والتفاهم معها بدلا من التفكير في خيار استراتيجي مستحيل يتمثل في مواجهتها.

ولقد بلغت تكلفة الحرب على العراق ثلاثة تريليونات دولار (حتى عام ٢٠١٧)، بحسب جوزيف ستيغلتز الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد، قال: "بات من الجلي الآن أن الغزو الأمريكي للعراق كان خطأ فادحا، فثمة نحو من ٤٠٠٠ جندي أمريكي قضوا نحبهم فيه، بالإضافة إلى ٥٨٠٠٠ آخرين سقطوا ما بين جريح أو متأذ أو مصاب بمرض خطير، ناهيك عن ٧٣٠٠ جندي جرحوا أو تأذوا أو أصيبوا بمرض خطير في أفغانستان، وقد عاد مائة ألف جندي أمريكي من الحرب وهم يعانون من اضطرابات خطيرة في صحتهم العقلية والنفسية، الشطر الأكبر منها ستتحول إلى بلوى مزمنة.[٢١٢]"، فهل ستجرؤ أمريكا على اجتياح العالم الإسلامي وقد ذاقت ويلات حربها في العراق وأفغانستان؟

أما الترابط الحضاري والعقائدي، فإن الأمة الاسلامية ترتبط بقيم وبتاريخ مشترك، وبلغة مشتركة، تجعل الانصهار بين هذه الشعوب أمرا سهلا، فيمكن بسهولة تقبل عودة وحدة الأمة، واحتكامها للقاسم المشترك وهو الشريعة الإسلامية، وإن الانتماء إلى هذه الأمة الإسلامية العريقة، وامتلاك هذه العقيدة الحيوية يجعلان مسألة توحد الأمة الإسلامية مسألة غاية في السهولة، وقد أظهرت الإحصائيات الكثيرة التي أجريت على العالم الإسلامي رغبة جامحة في التوحد وتطبيق الشريعة الإسلامية، تناولناها بالتفصيل في فصل: **كيف تحبطُ دولةُ الخلافةِ محاولات إجهاضها حين نشوئها.**

لقد جرت محاولات لتفتيت الأمة بغية إضعافها، فجرى ترسيم الحدود بعد تقسيم الدولة العثمانية، وجرى نشر الفكر الوطني (الأردن أولا، مصر للمصريين،... الخ) بحيث تتفتت الأمة، وتقدس أعلامها التي فصَّلها الغرب لها، وتقدّس الحدود التي تفصل بعضها عن بعضها، وفكرة القومية التي تقسم الأمة إلى عربي وفارسي وتركي وكردي... الخ، فيسهل إثارة النعرات بينها، والتقسيم الطائفي البغيض الذي يستثمر هذه الأيام: سنة، شيعة، زيدية، لكن عنصر قوة الأمة يكمن في أنها: **أمة واحدة من دون الأمم**.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾، متى؟ ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾، وأيضا ماذا؟ بالشهادة على الأمم أي بحمل رسالة الإسلام والقَوامة على البشرية. فمن طبيعة الأمة الإسلامية أنها أمة تتوسع وتضم الشعوب الأخرى لتصهرها في بوتقة الأمة الإسلامية وعقيدتها، فمن العنصر البشري أن الأمة الإسلامية تفوق المليار وسبعمائة مليون، وهذا تعداد رهيب وقوة لا يستهان بها إن لم يكن هذا العدد غثاء كغثاء السيل، وطريقة أن لا يكون غثاء هو أن يكون هو السيل، وحتى يكون هو السيل لا بد أن تتوحد الأمة في كيان مخلص!

وكما تعلم، فإن هذه الأمة تعتقد العقيدة ذاتها، تلك العقيدة الحية التي تكلمنا عنها في النقطة الأولى، مما يسهل على الأمة أن تنفض عن نفسها غبار التقسيم والفرقة، فكل ما تحتاجه هو الوعي على ضرورة الوحدة، وأن سبيل نهضتها هي باتباع منهج ربها، وطريقة حصول هذا هو حمل الدعوة للأمة من خلال الأحزاب السياسية التي تزرع هذه الأفكار في الأمة، ولذلك فقد أجرت بعض مراكز الأبحاث الغربية استفتاءات في دول مختلفة من العالم الإسلامي منها المغرب وباكستان ومصر وكانت الأسئلة تتمحور حول الوحدة الإسلامية، وتطبيق الشريعة،

---

[٢١٢] حرب الثلاثة تريليونات دولار، الكلفة الحقيقية لحرب العراق، جوزيف ستيغلتز، ص ١١

وكانت النتائج مبشرة بكل خير تتراوح النسب بين الستين بالمائة ومنتصف التسعين بالمائة، لذلك فالأمة تدرك وتتطلع إلى وحدتها. والأمة تدرك خيانة حكامها لها، وتتطلع إلى اليوم الذي ينهي فرقتها ويجمعها في كيان واحد!

طبعا نحن ندرك أن هذا الأمر معركة وجود بيننا وبين الغرب الذي يحاول جهده أن يمنع هذا الانعتاق، إلا إننا هنا نرصد عوامل القوة التي لدى الأمة التي ينبغي استثمارها، وتفعيلها بالطاقة السببية!

### وأما طريقة تفعيل القاعدة السببية في الأمة،

فهو بالعمل الحزبي المنظم الذي يدعو لوحدة الأمة جنبا إلى جنب مع تحكيم الشريعة، جنبا إلى جنب مع مقاومة الاستعمار، فلا يجوز أن تقعد الأمة عن هذه الأعمال الثلاثة في أي لحظة، فإذا ما حقق الحزب في الأمة وجود الرأي العام لصالح الوحدة، وحقق الحزب تفاعلا مع أهل القوة والمنعة في دولة من دول العالم الإسلامي أو أكثر فيها مقومات الدولة، ثم أقام الدولة، فإنه بعمله في الدول الأخرى سيكون قد أوجد القاعدة الكافية والبيئة الخصبة لحدوث الرأي العام لصالح التوحد، وأما الموقع الاستراتيجي والثروات الطبيعية، فتفعيلها يكون بامتلاك الأمة لناصيتها.

## كيف تحبطُ دولةُ الخلافةِ محاولات إجهاضها حين نشوئها؟

في أوائل الخمسينات لم يكن عامة المسلمين يصدقون أن بإمكانهم العودة إلى الخلافة الإسلامية أو إعادة إقامتها، ولم يكونوا يفهمون من عبارة (العودة إلى الإسلام) إلا العودة إلى العبادات والأخلاق.

كان طغيان الأفكار الاشتراكية والقومية والوطنية عارما، وكان يُشاع أن الإسلام رجعية، وما لبثت تلك الأفكار أن اندحرت وتخلص العالم الإسلامي من أوحالها،

وبفضل الله وتوفيقه وبفضل العاملين بوضوح وتصميم وُجدت في الأمة فكرة إقامة الدولة الإسلامية، ثم بشكل محدد أكثر (دولة الخلافة الإسلامية). وتقلبت الظروف وتحولت فكرة إعادة الخلافة إلى قناعة فأمل فعمل فحركة جارفة. وحين رفعت الجزائر شعار الدولة الإسلامية في انتخابات سنة ١٩٩١ التفّ الشعب الجزائري (الذي كانت فرنسا ظنت أنها حولته إلى ثقافتها حين حكمته ١٣٠ سنة) عن بكرة أبيه حول هذا الشعار، ومن ذلك موقف الأمة الإسلامية كلها من الثورة التي رفعت شعار التغيير على أساس الإسلام في إيران سنة ٧٩، وموقفها من الاستفتاء الذي أجري على الدستور في مصر سنة ٨٠، وموقفها من الانتخابات النيابية في كل من الأردن سنة ٨٩ والجزائر سنة ٩٠، وهكذا في كل مرة وما يكون للمسلمين أن ينتخبوا ويختاروا ما بين "إسلامي" وغيره، في نقابات أو جمعيات أو مؤسسات، أو غيرها إلا فاز "الإسلامي" بدون أدنى عناء، واشرأبت الأعناق نحو صحوة إسلامية، وصارت فرائص الكفار في الغرب ترتعد فَرَقاً من عودة الإسلام إلى حلبة الصراع الدولي، وصاروا يحاربون دُعاةَ الإسلام بأنهم متطرفون وإرهابيون وأصوليون.

وبلغ من شدة خوف الأنظمة من فكرة الخلافة، ودعوة الخلافة، وحزب التحرير أن أضحى "جرم" توزيع نشرة من نشرات حزب التحرير كفيلا بوضعك بالسجن لمدة ٣ سنوات في الأردن، وأكثر من ١٠ سنوات في

تركيا[٢١٣]، وأكثر من ٢٠ سنة في روسيا، ووضعك تحت التراب في أوزبكستان وقرغيزستان، وكفيلة بإعدامك في ملعب أحد جامعات ليبيا وأمام الطلاب وأهاليهم في زمن المقبور القذافي (هذا فقط توزيع نشرات، فما بالك بأعمال سياسية أُخرى يقوم بها الحزب؟!)[٢١٤]، وبلغ من هلع الأنظمة المارقة من هذا الحزب والدعوة التي يمثلها أن تغلق مدن كاملة بمداخلها ومخارجها لمنع تجمعٍ أو ندوةٍ أو محاضرةٍ يقوم بها الحزب، كما شاهدنا مثلا في ندوات إحياء ذكرى هدم الخلافة في الضفة الغربية، سنة بعد سنة!

في السابق كان أبناء المسلمين الذين يذهبون إلى بلاد الغرب يُفتَنون بحضارة الغرب وأنظمة الغرب، أما اليوم فإنهم صاروا يلمِسون خداع الغرب وفساد حضارته وعداوته للإسلام، وهذا جعلهم يتمسكون بإسلامهم وينشطون في العمل من أجل عودة الخلافة الإسلامية.

## استطلاعات الرأي العام في العالم الإسلامي وتطلع الغالبية الساحقة من الأمة لتطبيق الشريعة:

ثم تواترت وتوالت تصريحات القادة والسياسيين الغربيين، ومراكز الفكر الغربية، محذرين من قرب قيام الخلافة، وقاموا باستطلاعات للرأي العام في العالم الإسلامي[٢١٥]، وأرعبهم أن نسب المؤمنين بضرورة تطبيق الشريعة وتوحيد العالم الإسلامي بلغت أكثر من ثلاثة أرباع المسلمين!

ففي نتائج استطلاع آراء مجموعة من مواطني الدول الإسلامية الذي نفذته منظمة "غالوب" لاستطلاعات الرأي، [٢١٦]. ضمن مشروعها العالمي في استطلاع آراء العالم - ومنها آراء المسلمين - والمنشورة على موقع مركز "غالوب" لدراسات المسلمين في ٢٠٠٨/٧/٢٥

| الخصال موضع السؤال | نسبة الإيرانيين الموافقين أن الشريعة تحقق تلك الخصال | نسبة المصريين الموافقين أن الشريعة تحقق تلك الخصال | نسبة الأتراك الموافقين أن الشريعة تحقق تلك الخصال |
|---|---|---|---|
| تحقيق العدالة للمرأة | %٧٦ | %٩٧ | %٦٩ |
| تحد من سلطات الحاكم | ٤٦ | ٤٩ | ٢٣ |
| تحمي الأقليات | ٦٥ | ٨٥ | ٥١ |
| تحفظ حقوق الإنسان | ٧٦ | ٩٧ | ٦٢ |
| تخفض مستوى الجريمة | ٧٦ | ٩٤ | ٦٨ |
| تخفض من الفساد | ٧٧ | لم يشمل | ٧٠ |
| تجلب العدالة الاقتصادية | ٧٨ | ٩٤ | ٥٥ |

[٢١٣] في تركيا مثلا، على مدار عقد ونصف بلغت الأحكام بالسجن على شباب حزب التحرير ما مجموعه ١٦٢١ سنة من السجن (انظر: بيان صحفي العقوبات الثقيلة الصادرة بحق شباب حزب التحرير لن تزيدهم إلاّ إيمانا وتسليما! الجمعة، ٠٨ آذار/مارس ٢٠١٣م)

[٢١٤] محمود ممتاز

[٢١٥] (رويترز) - أظهر استطلاع موسع جديد أن أغلبية كبيرة في العالم الإسلامي تريد تعاليم الشريعة الإسلامية قانونا رسميا في بلادهم.
الإسلاميون والحكم... رؤية من منظور استطلاعات الرأي

[216] https://news.gallup.com/poll/109072/Many-Turks-Iranians-Egyptians-Link-Sharia-Justice.aspx

| تجلب قضاء عادلا | ٨٠ | ٩٦ | ٦٣ |
|---|---|---|---|
| تجلب ازدهارا علميا | ٥٩ | ٩٦ | ٥٢ |
| تسمح للناس أن يقولوا كلمتهم في حكومتهم | ٦١ | لم يشمل | ٥٣ |

٦٤% من المصريين المستطلع آراؤهم رأوا أن تكون الشريعة هي المصدر الوحيد للتشريع،
وفي استطلاع في ١٠ ديسمبر ٢٠٠٧[٢١٧]، شمل بلدانا مثل أندونيسيا، وباكستان وتركيا وإيران ومصر، وجدنا النتائج التالية:

| الخصال موضع السؤال | الأتراك | المصريون | الإيرانيون | إندونيسيا | باكستان |
|---|---|---|---|---|---|
| الشريعة مصدرا من مصادر التشريعات | ٢٨ | ٢٥ | ٦٢ | ٥١ | ٢٥ |
| الشريعة المصدر الوحيد للتشريع | ٨ | ٦٤ | ١٣ | ١٣ | ٥٢ |
| الشريعة ليست من مصادر التشريع | ٤١ | ٢ | ١٢ | ٨ | ٥ |

وفي استطلاع بتاريخ ٨/مارس/٢٠٠٨[٢١٨] نجد النتائج التالية: الغالبية العظمى من المستطلع آراؤهم رفضوا أخذ النموذج الديمقراطي الغربي، وإنما رأوا نموذجا "ديمقراطيا منبثقا من الإسلام"، لا من القيم الغربية، ثم حين تم الاستطلاع حول الشريعة كمصدر وحيد للتشريع، وجدت النسب التالية: ٥٤% من الرجال و٥٥% من النساء في الأردن، ٧٠% من الرجال و٦٢% من النساء في مصر، في إيران ١٢% من الرجال و١٤% من النساء، في أندونيسيا ١٤% من الرجال و١٤% من النساء.

من الواضح إذن، أن سؤالهم حول جعل الإسلام مصدرا من مصادر التشريع، إذا ما ضممنا إليه سؤالهم حول مصادر القيم الديمقراطية، ورفض غالبية المجيبين أن تكون من القيم الغربية، فإننا متأكدون أنهم أيضا يرفضون القوانين الفرنسية والرومانية والانجليزية مصادر للتشريع! فالذي يرفض القيم الغربية أساسا للديمقراطية ويصر على أن تكون القيم الإسلامية هي التي تصوغ شكلها، أشد رفضا للقوانين الفرنسية والانجليزية! خصوصا في ظل إيمان الغالبية الساحقة من المسلمين أن أنظمة الحكم التي تحكمهم بتلك القوانين الغربية المنشأ، بالغة السوء والفساد وعدم القدرة على تحقيق الحد الأدنى من حقوقهم، إذن، لنا أن نقول بأننا متأكدون تماما أن الغالبية الساحقة من المسلمين تريد الاحتكام إلى الشريعة وحدها، وتريد قيام دولة على أساسها!

عام ٢٠٠٦، أيد - مثلاً - ٩٣ % من الأردنيين أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً للتشريع، وفي مصر أيد ٩٠% من المصريين دور الشريعة بالتشريع، كما أيد ذلك ٨١ % من الباكستانيين، تتشابه هذه النتائج بين

[217] https://news.gallup.com/poll/103129/Turks-Odds-Over-Islamic-Law.aspx
[218] https://www.gallup.com/press/178982/muslims-democracy-theocracy.aspx

الدول الإسلامية المشمولة في العينة، مثل: بنغلاديش، والمغرب، وإندونيسيا، وإيران، وفي المجمل كان المعدل العام هو ٧٩% للذين يؤيدون أن يكون للشريعة دور في التشريع في الدول العشر التي استَطلَعت آراءها "غالوب" في ذاك العام.

ولم تختلف هذه النتائج عن استطلاعات الرأي ما بعد الثورات العربية، والتي نفذتها " بيو PEW[٢١٩] " في نفس فكرة استطلاعات "غالوب"، حيث سألت في ربيع ٢٠١١ عن مدى موافقة بعض الشعوب الإسلامية المشمولة بالعينة على العبارات: " القوانين يجب بشدة أن تتبع تعاليم القرآن "، أو " القوانين يجب أن تتبع قيم ومبادئ القرآن، ولكن بدون تشدد "، حيث أيدت الغالبية العظمى في أكثر البلدان بأن تتبع القوانين تعاليم القرآن سواء بشكل " متشددStrictly " أو بدون تشدد، فمثلاً: أيد ذلك ٩٨% من الباكستانيين، و ٩٥% من الأردنيين، و ٨٩ % من المصريين، و ٦٦ % من الفلسطينيين[٢٢٠]. ولدينا استطلاع من بيو للأبحاث حول فكرة أن يسيطر القرآن على قوانين الدولة بشكل صارم أو أن تستمد القوانين من قيم ومبادئ الإسلام أجرته بيو للأبحاث في ٢٠١١ وأرقامه كما في الجدول أدناه[٢٢١]:

**Many Believe Quran Should Hold Sway Over Laws**

| | *Laws should...* | | | |
|---|---|---|---|---|
| | Strictly follow the Quran | Follow the values and principles of Islam | Not be influenced by the Quran | DK |
| | % | % | % | % |
| Pakistan | 82 | 15 | 0 | 2 |
| Jordan | 72 | 26 | 1 | 1 |
| Egypt | 60 | 32 | 6 | 3 |
| Tunisia | 23 | 64 | 12 | 2 |
| Turkey | 17 | 44 | 27 | 13 |
| Lebanon | 17 | 35 | 42 | 7 |

PEW RESEARCH CENTER Q39.

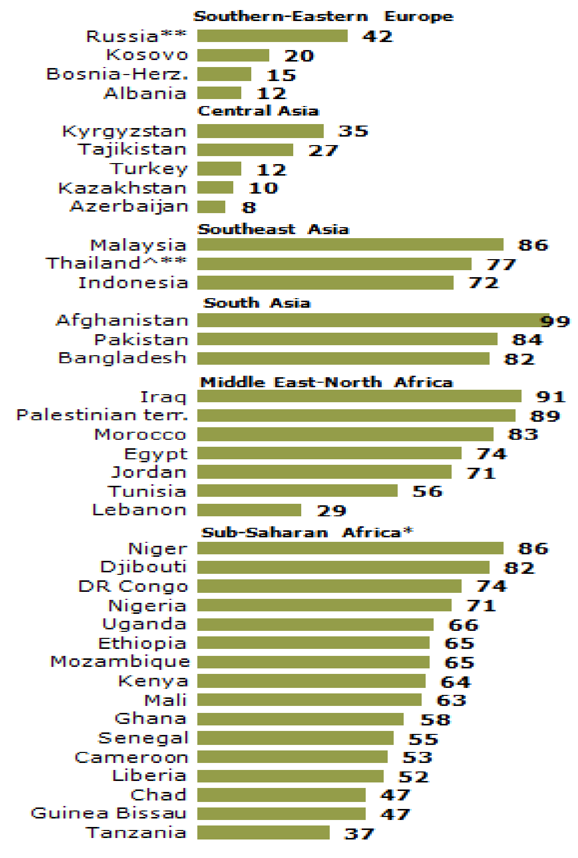
وفي استطلاع عالمي سأل فيه مركز بيو للأبحاث[٢٢٢] المسلمين في العالم حول رغبتهم في جعل الشريعة الإسلامية قانون الدولة، جاءت النتائج كما في الصورة أدناه:

219 http://www.pewglobal.org

٢٢٠ الاسلاميون والحكم... رؤية من منظور استطلاعات الرأي

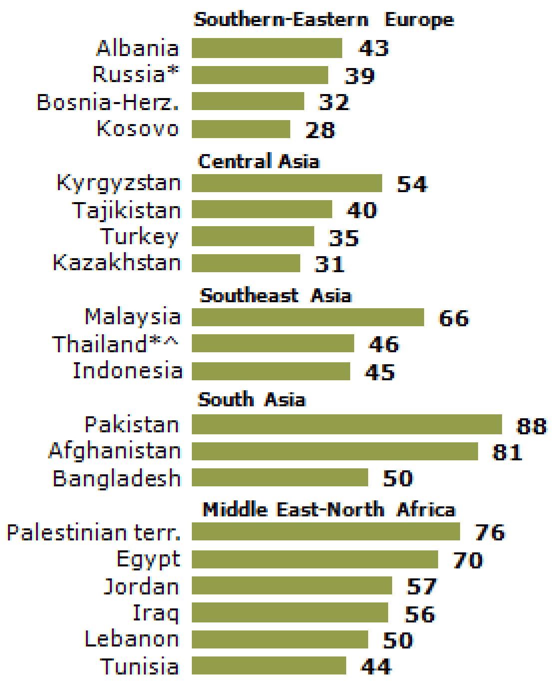
221 http://www.pewglobal.org/2012/07/10/chapter-3-role-of-islam-in-politics/

222 http://www.pewforum.org/2013/04/30/the-worlds-muslims-religion-politics-society-beliefs-about-sharia/




وهذه صورة لنتيجة استطلاع الرأي حول من يريد تطبيق الحدود وما فيها من عقوبات بدنية على الجرائم كالسرقة يعني قطع اليد[223]:

223 http://www.pewforum.org/2013/04/30/the-worlds-muslims-religion-politics-society-beliefs-about-sharia/




وفي سؤال هل من الجيد أم السيء أن تشريعات البلاد الحالية ليست من الشريعة الإسلامية[٢٢٤] فوجدنا اعتبار الناس أن ذلك الأمر سيء، وبنسب كبيرة أيضا: نذكر منها ٤٧% في روسيا، مقابل ١٠% يرون ذلك جيدا، ونجد مثلا ٤٧% يرونه سيئا في قيرغيزستان، مقابل ٢٧% يرونه حسنا. كانت النتائج التالية:

224 http://www.pewforum.org/2013/04/30/the-worlds-muslims-religion-politics-society-beliefs-about-sharia/

**Is It Good or Bad that Laws Do Not Follow Sharia Closely?**

*Among Muslims who say country's laws do not follow sharia, % who say this is ...*

| | Good | Bad | Neither/DK |
|---|---|---|---|
| **Southern-Eastern Europe** | | | |
| Russia | 10 | 47 | 42 |
| Bosnia-Herz. | 50 | 29 | 21 |
| Albania | 32 | 28 | 40 |
| Kosovo | 50 | 26 | 23 |
| **Central Asia** | | | |
| Kyrgyzstan | 26 | 47 | 27 |
| Tajikistan | 25 | 32 | 43 |
| Kazakhstan | 42 | 18 | 40 |
| Azerbaijan | 47 | 13 | 39 |
| **Southeast Asia** | | | |
| Malaysia | 11 | 65 | 23 |
| Indonesia | 22 | 65 | 13 |
| **South Asia** | | | |
| Pakistan | 5 | 91 | 4 |
| Afghanistan | 13 | 84 | 3 |
| Bangladesh | 10 | 83 | 7 |
| **Middle East-North Africa** | | | |
| Palestinian terr. | 5 | 83 | 12 |
| Morocco | 13 | 76 | 11 |
| Iraq | 9 | 71 | 20 |
| Jordan | 21 | 69 | 10 |
| Egypt | 25 | 67 | 8 |
| Tunisia | 25 | 54 | 21 |
| Lebanon | 41 | 38 | 21 |

PEW RESEARCH CENTER Q69.

وحين تفتت الاتحاد السوفياتي السابق، كان حزب التحرير يسابق الزمن ليملأ الفراغ الاستراتيجي الذي خلفه ذلك التفتت، ويتلقف هذه الجموع المسلمة التي خرجت من عقود من الاضطهاد المنهج ضدها من قبل تلك الدولة المجرمة، وهي تتحرق لإسلامها، فاشتد عود الدعوة، وانتشرت انتشار النار في الهشيم، وقابلتها حكومات أوزبكستان وطاجكستان وقيرغيزستان وغيرها بأشد أنواع البطش والإجرام، وامتلأت السجون بحملة الدعوة لإقامة الخلافة، وألجأ نشاط هذه الدعوة رئيس روسيا بوتين مرات ومرات ليحذر الغرب من الخلافة، وأنها في الحديقة الخلفية لروسيا!

وها أنت ترى نسب من يريدون تطبيق الشريعة وإقامة حدودها في روسيا بعد عقود من القمع وحظر أي أشكال التدين، وممارسة سياسات بالغة الشدة ضد المسلمين في روسيا منذ القيصر إيفان الرهيب إلى يومنا الحاضر! فيا له من دين عظيم يتغلغل في النفوس فلا يبلى مع طول الزمن، مهما ادلهمت الخطوب!

## ردة فعل الغرب العدائية للعالم الإسلامي تبين إدراكهم مدى قرب قيام الخلافة:

ومن ثم توالت أعمال الغرب العدوانية ضد العالم الإسلامي مخافة أن تقوم الدولة فتنتشر، فتتعرض مصالح الغرب للخطر الشديد[٢٢٥]، فالانقلاب الفكري الشعوري الذي يشهده العالم الإسلامي أحدث تأثيراً في الساحة الدولية. وقد ظهر هذا التأثير في ناحيتين:

١- إعلان الغرب الكافر على لسان قادته ومفكريه بأن الإسلام قد أصبح هو العدوّ رقم واحد، فالغرب الكافر ينظر للإسلام، كحضارة وكدولة تقوم على أساسه، مصدر خطر حقيقي عليه وعلى حضارته ونظام حياته.

٢- على ضوء إدراك الغرب الكافر لحقيقة الواقع الذي أصبحت عليه الأمة والمجتمع في العالم الإسلامي، قام برسم سياسته ووضع خططه وأساليبه لمواجهة هذا المد الإسلامي المتنامي على النحو التالي:

أ- الاحتلال العسكري لمنطقة الخليج والمياه المحيطة بالمنطقة. وإقامة القواعد المتقدمة في تلك المنطقة.

ب- وضع الخطط الأمنية التي تهدف إلى ما يلي:

١- تقوية وسائل السيطرة والتسلط الغربي على بلاد الإسلام.

٢- الحيلولة دون أي تحرك إسلامي في المنطقة.

٣- إضعاف المنطقة اقتصادياً وعسكرياً.

أ- التسريع في عقد معاهدات الاستسلام بين الدول العربية والكيان اليهودي في فلسطين[٢٢٦].

ب- الدخول في الفوضى الخلاقة، وإشعال الحروب، والفتن الطائفية، وتدمير المدن الكبرى في العالم الإسلامي وتدمير البنى التحتية لإضعاف قدرة العالم الإسلامي على النهوض في وجه الغرب الكافر.

ت- تمييع المجتمع من ناحية الإسلام ليسهل عليه إخراج الإسلام منه، ودور الإعلام والترفيه في ذلك.

ث- تمييع قضية المسلمين المصيرية عن طريق نماذج الحكم الإسلامي المشوه.

ج- السيطرة الكاملة على المنطقة ككل في جو من عدم الاستقرار السياسي.

ح- إعلان الحرب على الإسلام والمسلمين في كل مكان وبمختلف الوسائل والأساليب.

فهذه دلائل على أن الأمة الإسلامية قد قطعت المراحل الأولى في رحلة العودة إلى الخلافة بشكل جيّد، ولا شك أن طريق النهوض والانعتاق من التبعية سيمر بمراحل من المآسي والمخاضات العسيرة. فالأمة الآن بمختلف أحزابها وحركاتها الإسلامية، وبمختلف مذاهبها، وعلى مدى الساحة في البلاد الإسلامية وحيثُ وجدوا في بلاد العالم بأسره، كلهم في غاية التحرّق لرؤية راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ترفرف فوق ربوع العالم

---

[٢٢٥] من ذلك مثلا: تحت عنوان "أوروبا. الخلافات الجديدة" نشرت صحيفة (Valeurs Actuelles) الفرنسية مقالاً في ٩٠/١١/١٩ تحدثت فيه عن "مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا" ودوره في مواجهة الإسلام: ومما عبر عنه كانت المقال بكل صراحة "مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا هو رسم تمهيدي لوحدة أوروبية. أميركية من سان فرنسيسكو (San Francisco) إلى فلديفستك (Vladidvostok). آلة تتوافق مع القرن الحادي والعشرين لمواجهة تصاعد آسيا والإسلام".

[٢٢٦] اتجاه الرأي العام في العالم الاسلامي د. ماهر عبد الجواد، الوعي العدد ٩٣ كانون الثاني ١٩٩٤.

الإسلامية، بل فوق ربوع العالم. وقد وصل الحال في بعض هذه الحركات أنها قررت إقامة الخلافة والحكم بما أنزل الله ولو باستعمال السلاح ضد الحكام الذين يرفضون ذلك، كما وصل الحال بأمريكا أن تستبق قيام الخلافة بمحاولات استخباراتية بإقامتها عن طريق تنظيمات مخترقة، أو استغلال انعدام الوعي السياسي، والمشروع الفكري الناهض لدى تلك التنظيمات لتشويه صورة الخلافة في أذهان المسلمين!

## نجاح باهر في إيجاد الرأي العام المنبثق عن الوعي العام في العالم الإسلامي

**إن المدقق في و اقع الأمة والمجتمع في العالم الإسلامي اليوم، يدرك أن حملة الدعوة الإسلامية قد نجحوا بحمد الله تعالى وتوفيقه في إيجاد الرأي العام المنبثق عن وعي عام عند الأمة على الإسلام وفكرة الخلافة وتطبيق الشريعة، وتوحيد العالم الإسلامي في دولة واحدة[٢٢٧]. لا يستطيع أحد أن يماري في تلك الحقيقة، أي أن عملية الانقلاب الفكري والشعوري في المجتمع تحققت مما سيفضي إلى التمكن من تحقيق الانقلاب السياسي بشكل طبيعي وحتمي بإذن الله.**

**لذلك فإن الرأي العام المنبثق عن وعي عام يسير بخطى حثيثة نحو تبني الأمة الإسلامية كلها بوصفها أمة قضية الإسلام المصيرية. "إن الرأي العالم المنبثق عن وعي عام له مدلول لا بد من الوعي عليه، لأنها مسألة اختلط على الكثير من الناس أمرها، وتصوره البعض أنه عمل عام وليس رأياً عاماً، أي انضباط بالإسلام من قبل مجموع الناس، والحقيقة أن معنى هذا القول أن تلمس الأمة بمجموعها ضرورة الاحتكام إلى الإسلام ضرورة لا تدفعهم إليها عاطفة عاصفة أو رغبة آنية ملحة و إنما يدفعهم إدراكهم بأن حياتهم وولاءهم يجب أن يكون للإسلام وحده، وهو أمرٌ لا يعني بالضرورة أن يباشر الناس تطبيق الأحكام الشرعية على أنفسهم، و إنما معناه أن يوجد الولاء للإسلام لا لغيره، وهذا لا يظهر أثره ملموساً في الحياة العملية إلا في التطبيق"[٢٢٨]**

إذن المشكلة الآن ليست غرس فكرة الخلافة في الأمة فالفكرة قد غُرست ونَبتتْ واستغلظتْ. وليست المشكلة إنشاء حزب أو أحزاب إسلامية أو تقوية هذه الأحزاب، فالغرضُ الأساسي من هذه الأحزاب قد تحقق. المشكلة الآن هي: إذا أقامت الأمةُ الإسلامية الخلافة الإسلامية، **هل تسمح لها دول الغرب، وعلى رأسها**

---

[٢٢٧] الرأي المنبثق عن وعي لا يعني بالضرورة أن يدفع صاحبه إلى حمله أو حتى إلى التقيد به، ألا ترون بأن كثيراً من الواعين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف! لذلك لا يسأل هنا أنه ما دام الرأي العام المنبثق عن وعي عام قد تحقق وجوده فعلاً في الأمة والمجتمع فلماذا لا تتحرك الأمة لإسقاط أنظمة الكفر المفروضة عليها وإقامة دولة الخلافة على أنقاضها، ولماذا لا تتحرك الأمة وهي تشاهد حكامها يسارعون في عقد معاهدات الاستسلام والتنازل عن فلسطين لأعداء الله اليهود؟

نعم لا يُسأل عن ذلك لأن تلبس الأمة بالقيام بالأعمال التي تؤدي إلى حدوث الانقلاب السياسي في المجتمع إنما يكون عندما تتبنّى الأمة قضية الإسلام المصيرية قضية مصيرية لها. فموضوع «الرأي العام» غير موضوع «تبني قضية الإسلام المصيرية» وغير موضوع «انقياد الأمة لحَمَلَة الدعوة نحو تحقيق قضية الإسلام المصيرية» فالموضوع الأول يتعلق بالرأي والثاني يتعلق بالتلبس بالقيام بالعمل، كما أن أعمال حمل الدعوة التي تؤدي إلى إيجاد الرأي تختلف عن الأعمال التي تؤدي إلى احتضان هذه الرأي وإلى الانقياد لحملة هذا الرأي، اتجاه الرأي العام في العالم الإسلامي د. ماهر عبد الجواد، الوعي العدد ٩٣ كانون الثاني ١٩٩٤.

[٢٢٨] اتجاه الرأي العام في العالم الإسلامي د. ماهر عبد الجواد، الوعي العدد ٩٣ كانون الثاني ١٩٩٤.

أمريكا، بالاستمرار؟ وهل تملك دولة الخلافة الناشئة القدرة على حماية نفسها من كيد دول الكفر الاستعمارية؟ هذه هي المرحلة التي وصلتها الأمة الآن؛ استغلظ النبت الذي غرسته يد حزب التحرير بحمد الله تعالى، واستوى على سوقه، وأضحى مشروع الأمة وليس مشروع حزب واحد أو حركة واحدة من الأمة، فالأمة لديها الوعي العام عليه، ولديها الرغبة والأمل بقيامه، ولديها الإيمان بأن دينها، وشريعة ربها هي الضامن بحل مشكلاتها، أما التفاصيل لقيام ذلك المشروع، فلدى الحزب الوعي التام على تفاصيله.

هذا النجاح الباهر بفضل الله تعالى، تم على الرغم من ممارسة الأنظمة الحاكمة سياسة التعتيم الإعلامي التام على حزب التحرير، مما أدى إلى الحيلولة بينه وبين الوصول إلى شرائح واسعة من المجتمعات التي ينشط فيها، وفي ظلال حملات متواصلة تحاول تشويه فكرة الخلافة والانتقاص من قيمتها من قبل "مفكرين" و"مثقفين" و"محللين" والتي تأتي منسجمة تماما مع الحملة التي يقودها ساسة الغرب ومراكز الدراسات والبحوث الداعمة لها من أجل تشويه مفهوم الخلافة وجعل مسألة إحيائها أمرا محظورا."[229]

**وللإجابة عن السؤال الأول نقول:** الدول الاستعمارية في العالم وعلى رأسها أمريكا لا تسمح بقيام الخلافة الإسلامية، وإن قامت فستعمل جهدها لهدمها من جديد. هذه حقيقة لا يماري فيها إلا مغفّل.

**وللإجابة عن السؤال الثاني** نقول بالفم بالملآن وبكامل الثقة: نعم إن الأمة الإسلامية مع دولتها الناشئة تملك القدرة وتستطيع رد كيد الكفار الطامعين إلى نحورهم بعون الله وتوفيقه.

## الخطوط العريضة لمخطط إحباط محاولات الغرب إحباط قيام الدولة الإسلامية:

نطرح الآن خطوطاً عريضة لتبيان كيفية العمل، علماً أن عقول المشرفين على الخلافة (الخليفة وأعوانه) أكبر من عقل من يكتب هذه الأسطر، والواقع الدولي في حينه يكون أوضح من توقعاتنا له الآن، هذه الخطوط العريضة تتلخص فيما يلي:

١- خير أمة أخرجت للناس لا تستجدي حقها ولا تناله اختلاساً؛ خير أمة لا ترضى أن تكون في ذيل الأمم، مهيضة الجناح، مستباحة البيضة، وهي تحمل للبشرية خير رسالة تؤهلها للوقوف بكل قوة في وجه هيمنة الحضارة الغربية.

٢- إن الأفكار في أية أمة من الأمم هي أعظم ثروة تنالها الأمة في حياتها إن كانت أمة ناشئة، وأعظم هبة يتسلمها الجيل من سلفه إذا كانت الأمة عريقة في الفكر المستنير. أما الثروة المادية، والاكتشافات العلمية، والمخترعات الصناعية، وما شاكل ذلك فإن مكانها دون الأفكار بكثير، بل إنه يتوقف الوصول إليها على الأفكار، ويتوقف الاحتفاظ بها على الأفكار. فإذا دُمِّرَتْ ثروة الأمة المادية فسرعان ما يعاد تجديدها، ما دامت الأمة محتفظة بثروتها الفكرية. أما إذا تداعت الثروة الفكرية، وظلت الأمة محتفظة بثروتها المادية فسرعان ما تتضاءل هذه الثروة، وترتدّ الأمّة إلى حالة الفقر. كما أن معظم الحقائق العلمية التي اكتشفتها الأمة يمكن أن تهتدي إليها مرة أخرى إذا فقدتها دون أن تفقد طريقة تفكيرها. أما

---

[229] هل حان الوقت ليقول حزب التحرير كلمته!!؟ حسن الحسن، موقع الجزيرة. بتصرف.

إذا فقدت طريقة التفكير المنتجة فسرعان ما ترتد إلى الوراء وتفقد ما لديها من مكتشفات ومخترعات. ومن هنا كان لا بد من الحرص على الأفكار أولاً. وعلى أساس هذه الأفكار، وحسب طريقة التفكير المنْتِجَة تُكْسَب الثروة المادية، ويُسعى للوصول إلى المكتشفات العلمية والاختراعات الصناعية وما شاكلها.[٢٣٠]

لا شك أن الفكر أمضى قوة من السلاح، وأن الاتحاد السوفياتي في أوج قوته وامتلاكه أسلحة كافية لتدمير الأرض كلها سقط في سويعات بسقوط المنظومة الفكرية التي قام عليها بعد أن وهن إيمان الشعب بها، وأن الرسول ﷺ أقام الدولة الإسلامية في المدينة قبل أن ينقل إليها التكنولوجيا والأسلحة، أقامها بالفكر، وما هي إلا عشر سنوات حتى هاجمت أعظم امبراطوريتين في الأرض وقتها، فقضت على الإمبراطورية الفارسية في زهاء عشر سنوات، وهزمت الامبراطورية البيزنطية في الشام هزائم نكراء. من هنا، فإن العمود الأهم والركيزة الأقوى في بناء أي دولة هي أساسها الفكري، وهذا الأساس الفكري للدولة الإسلامية بما في الإسلام من قوة فكرية كفيل بضمان انتصارها!

٣- وقد فشل الغرب الكافر أيما فشل في أن يبدل دين الأمة، أو يهز ثقتها بدينها، أو أن يقدم لها البديل، فالأمة رفضت اختيار العلمانيين في مصر، وتنظر إليهم بأنهم مصدر الفساد في باكستان وبنغلادش، وكل الأنظمة العلمانية في المنطقة تستند لقوة العسكر أو العمالة، ولم تنجح أمريكا بتسويقهم إلا من خلال النموذج التركي الذي يحاول لبس عباءة الإسلام أو هكذا ينظر إليه من يؤيده من المسلمين ظنا منهم بأنه يتدرج لتطبيق الإسلام، ولكن العلمانية نفسها فشلت أيما فشل، ولا بد للدولة من أساس فكري، وحين فشل الغرب الكافر بتأسيس أساس فكري للدول في العالم الإسلامي، فإنه يكون وضع أهم المسامير في نعش مشروعه لتعطيل قيام الدولة الإسلامية القائمة على فكر راسخ لدى الأمة! "ومن المؤشرات التي تدل على ذلك أن عملية ترويج وتسويق تشريعات الكفر وأفكاره في بلاد المسلمين لا يُكتب لها النجاح إذا لم تصبغ بصبغة إسلامية، وإذا لم تُروّج لها عمائم إسلامية باعت دينها بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين"[٢٣١].

٤- ليس ثمة أقوى من فكرة آن أوانها[٢٣٢]: في مقال نشرته «مؤسسة مناهَضة الحرب» في ٢٠٠٦/٦/٢٣ بقلم باتريك بوشانان المستشار الكبير السابق للرؤساء نيكسون وفورد وريغان، بعنوان «فكرة آن أوانها» تتكلم عن أن عملية إحياء للإسلام تجري اليوم، وأن فكرة الحكم الإسلامي تتوطد عراها بين المسلمين بالرغم من مقاومة الغرب الشديدة... ويدعو أمريكا إلى انتهاج سياسة جديدة في تعاملها مع

---

[٢٣٠] مقدمة كتاب: النظام الاقتصادي في الإسلام لتقي الدين النبهاني.

[٢٣١] "فالديمقراطية مثلاً لا يُرَوَّجُ لها «الآن» في بلاد المسلمين على اعتبار أنها تعني: أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ولا أنها تعني أن المشرع هو الإنسان وليس الله تعالى. وإنما يُروَّج لها على اعتبار أنها تعني رفع الأحكام القمعية التي تفرضها أنظمة الحكم البوليسي التي تتحكم في رقاب المسلمين وعلى اعتبار أنها هي الشورى. وعلى ذلك فإن الدعاية لترويج وتسويق الديمقراطية في بلاد المسلمين إنما تكون للّفظ دون المعنى الحقيقي الذي تدل عليه. وبالتالي فإن قبول المسلمين للديمقراطية إن وجد فهو قبولٌ لِلّفظ المقترن بالمدلول الإسلامية ليس غير"

**اتجاه الرأي العام في العالم الإسلامي** د. ماهر عبد الجواد، الوعي العدد ٩٣ كانون الثاني ١٩٩٤.

[٢٣٢] إعرف عدوك: فكرة الحكم الاسلام تتوطد عراها بين المسلمين، مجلة الوعي العدد ٢٣٤-٢٣٥

المسلمين. ومما جاء في المقال: " لقد كان بيلوك متنبئاً، فبينما تبدو المسيحية وكأنها في حالة موت في أوروبا، فإن الإسلام ينهض ليزلزل القرن الواحد والعشرين، كما فعل قبل عدة قرون سابقة. فعلاً، عندما نشاهد القوات المسلحة الأميركية، وهي تحارب السنة الثائرة على السلطة والمجاهدين الشيعة والجهاديين في العراق، وطالبان الخارجة على القانون، وهم يبتهلون إلى الله، تعود إلى أذهاننا كلمات فيكتور هيغو: "إن قوة أي جيش لا تضاهي انبعاث فكرة آن أوانها"

إن الفكرة التي يعاديها كثير من المناوئين هي فكرة تفرض نفسها، فهم يعتقدون أن هنالك إلهاً واحداً هو (الله) وأن (محمداً) رسول الله، وأن الإسلام أو الخضوع للقرآن هو الطريق الوحيد إلى الجنة. وأن المجتمع الرباني يجب أن يحكم بواسطة الشريعة أي قانون الإسلام. وبعد اختبار طرق أخرى أدت إلى الفشل، فقد عادوا مجدداً إلى موطن الإسلام. إن جَلَدَ الإيمان الإسلامي مدهشٌ حقاً.

لقد بقي الإسلام على قيد الحياة، رغم مضي قرنين على الهزيمة والذل الذي أصاب الإمبراطورية العثمانية والقضاء على الخلافة في عهد أتاتورك. كما تحمَّل الإسلام حكم الغرب لعدة أجيال.

ثم يختم الكاتب مقالته بما يلي:

ما يتوجب على أمريكا أن تدركه، هو شيء غير اعتيادي بالنسبة لنا: من المغرب إلى باكستان، لن تنظر لنا الأغلبية بعد الآن على أننا أشخاص طيبون. إذا كان الحكم الإسلامي فكرة تتوطد عراها بين الجماهير المسلمة، **فكيف باستطاعة أقوى الجيوش على الأرض أن توقفها؟** ألسنا بحاجة إلى سياسة جديدة؟[٢٣٣]"

٥- ومن دلائل ذلك نجد أن جورج بوش الأب، وهو في أوج جنون العظمة الأمريكية، وحين كان يريد قتال العراق، قام صدام بملامسة الإسلام ملامسة خفيفة في بعض تصريحاته، إذ أشار إلى الأماكن المقدسة في السعودية وإلى أن أمريكا تسيطر الآن على هذه الأماكن وحض المسلمين والعرب على التحرك ضد أمريكا، فظهر الارتباك والرعب على بوش. وبرز ذلك في الخطاب الذي ألقاه بوش في ٩٠/٠٨/١٥ في وزارة الدفاع الأميركية. قال بوش: «إن العمل الأميركي في الخليج لا يتعلق بالدين أو بالطمع أو بالفروقات الثقافية كما يحاول العراق تصويره». وأضاف بوش: «عن صدام ادعى أنها جهاد العرب ضد الكفار... وهو من استعمل الغاز السام ضد الرجال والنساء والأطفال في بلده، وهو الذي غزا إيران في حرب كلّفت أرواح أكثر من نصف مليون مسلم» وأضاف: «صدام حول الغنى إلى الفقر بسبب الحرب التي شنّها على المسلمين الآخرين» وأضاف: «صدام يصوّرها صراعاً بين العرب والأميركيين، والحقيقة أن صدام هو الذي يهدد الآن الأمة العربية في حين أننا نسعى إلى مساعدة أصدقائنا العرب» وأضاف: «نحن لسنا وحدنا ضد صدام، بل تقف معنا الدول العربية والإسلامية المحيطة به".

إن هذه العبارات من بوش تدل على أنه يرتعد خوفاً من تحول المواجهة بين أمريكا والعراق إلى مواجه بين أمريكا والعرب ويخاف أكثر وأكثر من تحولها إلى مواجهة بين أمريكا والمسلمين. ولذلك كرر كلمة العرب

---

233 An Idea Whose Time Has Come? Patrick J. Buchanan

والمسلمين مرات كثيرة وحاول أن يصوّر أمريكا هي صديقة العرب وصديقة المسلمين وأن العراق هو عدو العرب وهو عدو المسلمين[٢٣٤].

٦- إن الناس الذين دخلوا مع المسلمين في الصراع الدموي على مر العصور، لم يكونوا يدركون مدى ما للعقيدة الإسلامية، أي للفكر، من قوة وتأثير في القوة المادية، ولذلك كانوا يعتمدون على زيادة قوتهم المادية على قوة المسلمين ليهزموا المسلمين، ولكنهم بالرغم من هذه الزيادة في القوة كان المسلمون ينتصرون عليهم رغم ضعف المسلمين وقلة عددهم، ولم تنفع زيادة القوة المادية أصحابها في ميادين الحرب، وظل النصر حليفاً للمسلمين. هكذا كان حال المشركين مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وهكذا كان حال الروم والفرس مع الصحابة، يقف ثلاثة آلاف من المسلمين أمام مائتي ألف من الروم في مؤتة، وفي اليرموك كان تعداد المسلمين ٣٦ ألفا مقابل ٢٤٠ ألفا من الروم، بأسلحتهم ودروعهم وعتادهم الحربي الذي فاق كثيرا ما لدى المسلمين، وكان تعداد جيش الفتح الذي اجتاح فارس ١٨ ألفا من المسلمين، لم تصمد أمامهم راية، وانهارت مدائن الفرس واحدة تلو الأخرى، وفي القادسية كان المسلمون ٣٠ ألفا، والفرس حوالي ٢٠٠ ألف، وانتصر المسلمون، وقضوا على الإمبراطورية الفارسية ما بين ١١ هـ، و٢٣هـ قضاء تاما. وما خسر المسلمون الحرب إلا مرتين اثنتين ليس غير، إحداهما في الحروب الصليبية قد خسروا الحرب وإن عادوا واستأنفوا الحرب وكسبوها، والثانية في القرن التاسع عشر الميلادي بطوله حتى انتهت بهزيمتهم نهائياً في الحرب العالمية الأولى.

٧- هناك حقيقة وهي أن الولايات المتحدة خاضت حروبا ضد العالم الإسلام استنزفتها، وأغرقتها في وحل الديون، لقد بلغت تكلفة الحرب على العراق ثلاثة تريليونات دولار، بحسب جوزيف ستيغلتز الحائز على جائزة نوبل للاقتصاد، قال: "بات من الجلي الآن أن الغزو الأمريكي للعراق كان خطأ فادحا، فثمة نحو من ٤٠٠٠ جندي أمريكي قضوا نحبهم فيه، بالإضافة إلى ٥٨٠٠٠ آخرين سقطوا ما بين جريح أو متأذ أو مصاب بمرض خطير، ناهيك عن ٧٣٠٠ جندي جرحوا أو تأذوا أو أصيبوا بمرض خطير في أفغانستان، وقد عاد مائة ألف جندي أمريكي من الحرب وهم يعانون من اضطرابات خطيرة في صحتهم العقلية والنفسية، الشطر الأكبر منها ستتحول إلى بلوى مزمنة.[٢٣٥] وأما الحرب على أفغانستان، فما زالت تكلف الخزينة الأمريكية حوالي ٤٥ مليار دولار سنويا، وبحسب البي بي سي: "وحسب تقديرات مركز الدراسات الاستراتيجية الذي يترأسه انطوني كوردسمان ان الكلفة المباشرة للحرب في افغانستان بما في ذلك المبلغ المخصص لها للعام المقبل قد بلغت ٨٤١ مليار دولار. بينما تقول تقديرات أخرى إن هذه الحرب التي دخلت عاما السادس عشر (٢٠١٧) قد تجاوزت تريليون دولار إذا أخذنا بعين الاعتبار كلفتها غير المباشرة، دون أن يلوح في الأفق ما يشير الى نهاية قريبة لهذه الحرب. فعلى سبيل المثال ترى نيتا كراوفورد، منسقة مشروع كلفة الحروب في جامعة براون الامريكية أن كلفة الحروب الامريكية في كل من العراق وافغانستان

---

[٢٣٤] **كلمة الوعي:** أمريكا ترتعب من الإسلام العدد ٤١

[٢٣٥] حرب الثلاثة تريليونات دولار، الكلفة الحقيقية لحرب العراق، جوزيف ستيغلتز، ص ١١

وباكستان منذ عام ٢٠٠١ قد قاربت ٥ تريليون دولار من بينها ٢ تريليون كلفة الحرب الافغانية بما في ذلك الكلفة المتوقعة مستقبلا"[٢٣٦].

٨- حين أرادت الولايات المتحدة خوض حربها ضد العراق قامت بتجنيد كم هائل من المرتزقة، بعد أن يئست من أن يتجاوب الشارع الأمريكي معها فيتطوع لخوض غمار تلك الحرب، فجندت أمريكا ٢٠٠ ألف مرتزق في حرب العراق[٢٣٧]، من خلال بضعة شركات استفادت من ذلك الوضع مثل شركات: Blackwater USA , DynCorp, Triple Canopy, Erinys and ArmorGroup.، وأمريكا لا تملك ضبطا ولا ربطا لجرائمهم، وسلوكهم، وفوق ذلك ولاءهم، خصوصا إذا عرفنا أن قسما كبيرا منهم ليسوا من الأمريكيين، بل من المهاجرين الذين وعدتهم الحكومة وقتها بتحسين أوضاع هجرتهم، وحين رجعوا من تلك الحرب تنكرت لهم، وواجهوا مشاكلهم الصحية والنفسية والمالية بأنفسهم،

هذا، وبحسب بعض التقديرات من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكان، فإن ٤٠% مما ينفق على الحروب الأمريكية تجنيه تلك الشركات الخاصة التي تجند المرتزقة، وهذه تكلفة ضخمة وعبء كبير على كاهل بلد بلغت ديونها أكثر من عشرين تريليون دولار!

إن أي حرب تخوضها الولايات المتحدة ضد العالم الإسلامي كفيلة بتقليص قدراتها العسكرية بما يزيد على ٢٠% على أقل تقدير، وهذا يقلص المسافة بينها وبين كل منافسيها في العالم من روسيا والصين، ويضع قدرتها على البقاء مهيمنة عليه على المحك، فهي ولا شك ستخرج خاسرة من الحرب على العالم الإسلامي مهما كانت تلك المحاولة. ولذلك فهي استعانت بإيران وروسيا وتركيا في حربها في الشام، فقامت روسيا بمساعدتها في حربها ضد فصائل وتنظيمات في الشام، وأحرقت الأخضر واليابس فيها، ولكن الوضع مختلف حين تواجه دولة!

٩- حين كانت الولايات المتحدة تحدث نفسها بضرب إيران إبان البرنامج النووي الإيراني، قام الصحفي المشهور سيمون هيرش[٢٣٨] بإعداد دراسة عن تلك الحرب، خلص فيها، بعد استشارة خبراء عسكريين واستراتيجيين، أنه لا يمكن حسم نتيجة أي حرب من الجو، ولا بد من المواجهة البرية، وقد استقرأ حروبا كثيرة، لم تحسم بالقصف الجوي مهما بلغت قوته، ومن ثم فإن إرسال الجنود برا في عمق العالم الإسلامي لن يكون مغامرة محسومة النتائج لأمريكا!

١٠-وحين دخلت الولايات المتحدة في حرب ضد العراق، قامت بتجييش ٢٣ دولة معها، واستغرق الإعداد ستة أشهر، ولم يكن لينجح لولا الدعم اللوجستي والانطلاق من قواعد في العالم الإسلامي مثل السعودية والكويت، وهذا كله بفضل عملاء العالم الغربي من حكام المسلمين، ولكن حين تقوم الخلافة إن شاء الله تعالى ستنهار تلك الأنظمة الكرتونية انهيار أحجار الدومينو، فهي أنظمة بالغة الهشاشة، ولا

---

[٢٣٦] الكلفة الفلكية للحرب الأمريكية في افغانستان بي بي سي ٢٢- آب – ٢٠١٧.

[237] The Mercenary Revolution: Flush with Profits from the Iraq War,

[238] The Iran Plans, Our Men in Iran?, Iran And the Bomb, Shifting Targets, the next act, last stand.

امتداد لها في العالم الإسلامي، ولذلك سيصعب على أمريكا أن تجد لها منطلقا سهلا تنطلق فيه لحرب مصيرية كتلك التي ستحاول من خلالها إجهاض الدولة الإسلامية.

١١-لقد أنفقت دويلات الضرار على التسليح مبالغ فلكية، وهناك دول تملك قوة هائلة حقيقية مثل تركيا، وباكستان، ومن طبيعة الجيوش هي أنها تتربى على الطاعة للأوامر، لذلك فإننا إذا استطعنا العمل على إزاحة طبقة العملاء في قيادات الجيوش، والعمل على الاستنصار بالطبقة المخلصة من الضباط المنتمين لهذه الأمة الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية، فإن أمر تغير الجيوش لصالح الأمة أسهل من تغير الناس العاديين، لأنهم بطبيعة الحال سيستجيبون للأوامر التي تأتيهم من الطبقة المخلصة، والدولة التي تمتلك مضادات للصواريخ وللطائرات، وضباطا متدربين أصحاب خبرات عسكرية، يصعب الانتصار عليها بقصفها من الجو، ويصعب احتلالها، وإن احتلال المدن الرئيسية في العالم الإسلامي كبغداد والقاهرة واسطنبول وإسلام أباد ليس برحلة سياحية سهلة! **ومرة أخرى لا تصح المقارنة بين ما جرى على الأنظمة المهترئة وبين الدولة الإسلامية المخلصة!**

١٢-تمتلك الأمة الإسلامية ثروات هائلة ليس بمقدور العالم التخلي عنها، من ذلك مثلا المخزون الهائل من الطاقة، وما بين قيام الخلافة ومحاولات القيام بحرب ضدها، تكون الخلافة قد قطعت تلك الإمدادات عن العالم كله، فتستفحل الأزمات الاقتصادية، وتتعطل الحياة في الغرب بحيث تتعرض حكوماته لضغوط شعبية هائلة، فتمد دولة الخلافة يدها لإقامة تحالفات استراتيجية مهمة مقابل تلك الطاقة، فتقسم المعسكر المناوئ قسمين وتجعل مهمة القسم المعادي بالغة الصعوبة. وتتعاقد مع علماء وشركات عابرة للقارات على إنشاء صناعات ومراكز أبحاث أو شراء معدات لازمة، وتبدأ رحلة التصنيع الثقيل ونقل التكنولوجيا.

١٣-تتحرق الشعوب الإسلامية للخلاص من حكامها وأنظمتها التي سامتها الويلات، وتتحرق للانعتاق من أوضاعها الكارثية التي وصلت إليها، وتتربص بتلك الأنظمة، وتتحرق شوقا للانقضاض عليها، وتنظر إلى التغيير بعين الترقب والأمل، وترى وحدتها مصدر قوتها، وحين تسقط تلك الأنظمة، فإنها لن تجد من يناضل عنها لإعادتها، وستجد الأمة تلتف لمنع الرجوع للوراء تابعة للغرب الكافر، ومع الأخذ بالاعتبار أن تلك الأنظمة بالغة الهشاشة والاهتراء، وسهلة السقوط، لذلك فإن انتشار الدولة الإسلامية وامتدادها حال قيامها سيعطيها مساحات واسعة، وبعدا استراتيجيا هائلا، فلا تكون وقتها مجرد عاصمة في بلد ما يمكن غزوها، بل تصبح دولة مترامية الأطراف، وحرب مثل هذه الدولة ليست نزهة سريعة، ولا حربا خاطفة. والمسلمون لا يتعاطفون الآن مع الأنظمة القائمة في بلادهم، لأنها فرضت عليهم دون إرادتهم، وهي تناقض عقيدتهم وشريعتهم. وهي بدل أن ترعى شؤونهم تأكلهم، وبدل أن تحافظ عليهم تظلمهم وتذلهم وتكمّ أفواههم. **فلا يصح أن نقيس موقف المسلمين من دولتهم الإسلامية على موقفهم من دول الكفر والظلم القائمة الآن**. وإذا كان الموقف ليكون وقتها هو هو بعد قيام الدولة، فلا تكون الدولة دولة

إسلامية ولو تسمّتْ بهذا الإسلام! وعندئذ ستكون دولة بوليسية تحتاج إلى حماية من شعبها وليس فقط من الدول الخارجية.

إن الدولة التي يحتضنها شعبها لا يمكن إسقاطها بمجرد إسقاط حاكمها، لأن كل فرد فيها يشعر بالمسؤولية ويدافع عنها من الموقف الذي هو فيه تحقيقاً لقول المصطفى ﷺ: «أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك» وذلك كالجند في المعركة إذا سقط حامل الراية فسرعان ما يخف غيره لرفعها كي تستمر مرفوعة. هذا الالتفاف من الأمة حول دولتها، وهذا الشعور بالمسؤولية تجاهها، وهذا التصميم الرائع الراسخ على الدفاع عنها الذي يصل إلى جعلها قضية مصيرية تحيا وتموت من أجلها: هذا هو الذي يجعل الدولة الإسلامية تستمر رغم أنف الخصوم.

الرئيس الأميركي السابق ريتشارد نيكسون في كتابه «أميركا والفرصة التاريخية» الصادر في سنة ١٩٩٢ يلفت نظر الغرب مؤكداً على هذه الحقيقة بقوله: «هناك عنصران مشتركان فقط في العالم الإسلامي: الدين الإسلامي، ومشاكل الاضطراب السياسي، والإسلام ليس ديناً فقط، بل هو أيضاً الأساس لحضارة كبرى، ونحن نتحدث عن العالم الإسلامية ككيان واحد ليس لأن هنالك مركزاً سياسياً يوجه سياسته، بل لأن الشعوب التي يتكون منها تتشارك في تيارات سياسية وثقافية مصدرها الحضارة الإسلامية. فالتحركات السياسية في مختلف بلاد العالم الإسلامي تجري وفقاً لإيقاع واحد بصرف النظر عن الفوارق بين هذه البلاد. هذه الوحدة في المعتقد وفي السياسة **تغذي تضامناً غير متين، ولكنه حقيقي**: عندما يقع حدث خطير في جزء من العالم الإسلامي يسمع له صدى أكيد في بقية الأجزاء".

١٤-هناك حقيقة تقول: (إن الشعوب لا تتحرك إلا إذا حُرِّكتْ)، وانطلاقاً من ذلك فإن القيّمين على الدولة الناشئة أن يتولوْا تحريك الأمة بأقوى وأسرع ما يمكن. قبل قيام الخلافة لا تكون وسائل الإعلام والتحريك بأيدي دعاة الخلافة ولذلك يكون تأثيرهم في هذا المجال محدوداً. أما حين تقوم الخلافة وتصبح هذه الوسائل بأيدي القيّمين عليها فإن الواجب يحتّم عليهم أن يستثمروا هذه الوسائل وكل الوسائل لتعبئة الأمة وشحن نفوسها. إذ لا نوم ولا راحة بعد اليوم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. الأمة الإسلامية مع دولتها الناشئة في سباق مع الزمن.

١٥-حين تتدخل أمريكا مع حلفائها وعملائها عسكرياً لهدم الخلافة لا يكون التصدي لها عن طريق الجيش النظامي وحده، بل لا بد أن تشترك الأمة مع الجيش النظامي في صد العدوان. فالجيش النظامي والأمة ستحاربهم بالحرب الشعبية وحرب العصابات.

وهذا التصوّر يوجب على القيّمين على دولة الخلافة أن يبادروا من اللحظة التي تقوم فيها الخلافة إلى:

أ- استدعاء جميع القادرين على حمل السلاح في الأمة لتدربهم على أساليب الحرب الشعبية وعلى أساليب حرب العصابات، وأن تخضعهم إلى دورات مكثّفة وسريعة تشحنهم خلالها بالإيمان وأفكار الصبر والتضحية والاستشهاد وعدم الفرار، كما تدربهم على مختلف الأساليب والأسلحة اللازمة للحرب الشعبية.

ب- توزيع الأسلحة على جميع من تم تدريبهم وأن تربط كل مجموعة بقائد منها من القادة الشعبيين.

ت- إخضاع الجيش النظامي كله إلى دورات فكرية . إيمانية . استشهادية قوية وسريعة بحيث تصبح نفسيته واستعداده على المستوى المطلوب من المجاهدين المؤمنين.

ث- دعوة أبناء الأمة الذين ليسوا تحت حكم الخلافة لأن يتطوعوا ويأتوا إليها لتقوم بتدريبهم وتأهيلهم للقيام بأعمال لنصرة الخلافة سواء داخل الخلافة أو في أماكن أخرى من العالم.

ج- هـ- تدريب مجموعات ذات أهلية مناسبة لتنشر فوراً في أنحاء العالم الإسلامي وفي أنحاء العالم للقيام بأعمال الضغط المناسبة لدعم الخلافة.

وفي هذا كله تكون الدولة في سباق حثيث مع الزمن قبل وقوع التدخل العسكري من الأعداء.

١٦-في هذه الأجواء تكون أنظار العالم مسلّطة على الخلافة وموقف العالم منها. وتكون مشاعر المسلمين في العالم مع خلافتهم وهم مستعدون للتضحية من أجل دعمها وهذا يوجب على دولة الخلافة أن تحسن استغلال هذه الموجة المشاعرية الإسلامية العارمة. وقد رأينا ردود الفعل العنيفة من قبل المسلمين حين كانت أزمة الرسومات الكاريكاتورية من الدنمارك وفرنسا، واشتعال نار الغضب في العالم الإسلامي، وهذا ولا شك يهدد المصالح الغربية في غير بقعة من العالم الإسلامي مما لا يحتمله الغرب.

١٧-لا يتصور وجود أشخاص أو حركات أو جماعات داخل الدولة الإسلامية تستطيع أن تكون حيادية في هذه المعركة الفاصلة بين الإسلام والكفر. حتى خارج الدولة الإسلامية يصعب تصوّر وجود علماء مسلمين يجهرون بتبعيتهم لأمريكا أو عملاء أمريكا والغرب كما حصل حين حرب الخليج، لذلك وحين ترى أمريكا وحلفاؤها وقوف الأمة الإسلامية وقفة رجل واحد ومستعدة للموت دفاعاً عن دينها ودولتها فإن أمريكا قد تعدل عن التدخل إلى الحصار الاقتصادي وما شاكله. وليس بالأمر السهل أن تنفذ الحصار في الوقت الذي تتحكم فيه الدولة الإسلامية بموارد طاقة هائلة يحتاجها العالم كله، وبذلك تكون الأمة قد حققت نصراً قبل خوض المعركة العسكرية. وإذا ركبت أمريكا رأسها، فإن الخلافة لا تَسْقط. وصمود الأمة سيغْلِب الدولَ المعتدية ويَغْلِبُ عملاءهم الذين يحاولون تنصيبهم. ولن تتعاون الأمة مع أي عميل ينصبه الكفّار حاكماً للمسلمين. حتى أن حرسه سيقدم على تصفيته. وإذا أرادت أمريكا أن تضع له حرساً من جنودها فإن الأمة ستصطاد العميل وحرسه كما تصطاد العصافير. وسيخرج الكفّار في النهاية مدحورين.

١٨-ولقد جرت سنة الله تعالى الإلهية بنصر من ينصره، وقد وعد الله تعالى، ووعده حق بنصر المؤمنين واستخلافهم والتمكين لدينه، ومن كان الله تعالى ناصره فلا غالب له!

**﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾**[٢٣٩]

[٢٣٩] أين وصلت الأمة في رحلة العودة إلى الخلافة؟ الوعي العدد ٧٥، بتصرف كبير.

## خطة تفعيل طاقات الأمة الإسلامية لدعم الدولة الإسلامية الناشئة

**مقدمة:** إن إقامة الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة واجب شرعي عظيم مرتبط بشرط **الاستطاعة (القدرة)**؛ فمع تحقق القدرة تزول الأعذار ويتعيّن واجب إعلان الدولة وتنفيذ أحكام الشرع. وقد أجمع الصحابة الكرام على تقديم إقامة السلطة الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ حتى قبل إتمام دفنه، مما يدل على عظم هذا الواجب حتى وصفوه بأنه **"أهم الواجبات"**. فلا قيام لمعظم أحكام الدين إلا بسلطان جامع يطبّقها، وبالتالي إذا وُجدت القدرة على إقامة دولة الإسلام فلا يسع المسلمين التخلّف عن ذلك. وفي واقعنا المعاصر برزت بوادر قيام دولة إسلامية ناشئة في بقعة من ديار المسلمين، مما يطرح تحديات مرحلة **ما بعد إعلان الدولة**: كيف نفعّل الطاقات الكامنة في الأمة لدعم هذه الدولة، حتى تتمكن من إعلان تطبيق الشريعة وتحقيق الاستقرار في وجه قوى وتحديات ومحاولات لإحباطها، هذا الفصل النظري يستعرض خطة مركزية لتحريك تلك الطاقات داخليًا وخارجيًا، مستندًا إلى الأدلة الشرعية والتحليل الواقعي السياسي والعسكري. كما يبيّن دور العقيدة الإسلامية في تفجير **الطاقة الحضارية** للأمة، وسبل تجاوز التهديدات الوجودية في المرحلة المفصلية الأولى التي تلي إعلان الدولة. وأخيرًا تُطرح خطة تنفيذية مركزة توضح كيفية توظيف هذه المرتكزات عمليًا، مع بيان قدرة الدولة على التوسع في محيطها الإسلامي **الهش سياسيًا** والمتعطش للتغيير الحقيقي.

### تفعيل الطاقات الشعبية الداخلية

تشكل **الطاقات الشعبية الداخلية** الركيزة الأولى لنهضة الدولة الإسلامية الناشئة واستقرارها. فالقاعدة الجماهيرية من أبناء البلد هي الحاضنة الطبيعية للمشروع الإسلامي ومصدر الشرعية والقوة الأساسية له. تؤكد الدراسات أن مجموع طاقات الشعب يفوق قوة أي دولة عميقة أو خصوم داخليين إذا أُحسن استثمار تلك الطاقات. مهما بلغ نفوذ القوى المضادة المتغلغلة في المجتمع، فإن الشعب يمتلك في مجموعه قدرات أكبر وأقوى – بشرية ومادية ومعنوية – لكن تفوّقها مرهون بمدى معرفتنا بهذه الطاقات وبقدرتنا على تفعيلها.

إن **الطاقة البشرية** هي عماد الطاقات الشعبية. وتتوزع هذه الطاقة على نوعين رئيسيين: أولهما **طاقات عامة الناس** من حيث كثرتهم العددية وانتشارهم في مختلف القطاعات، وما ينبثق عن ذلك من قوة التأثير عند التعبئة العامة (كخروج المظاهرات المليونية أو المشاركة الجماهيرية في جهود البناء والجهاد). وثانيهما **الطاقات الخاصة النوعية** التي لا فعالية لها إلا بقيادة الأكفّاء المميّزين من أهل الخبرة والاختصاص (كالقادة وأصحاب الكفاءات في التخطيط والإدارة والعلم والتكنولوجيا). فالجماهير توفر العدد والزخم، أما توجيه هذا الزخم واستثماره الأمثل فلا يتم إلا عبر العقول القيادية في الأمة. من هنا، يجب على قيادة الدولة الناشئة وحملة مشروع التغيير اكتشاف هذه العناصر الكفؤة ضمن الشعب وإشراكها في عملية البناء والدفاع؛ فوجود **الروّاد المبدعين** القادرين على رسم السياسات وحسن توظيف الموارد هو الذي يحوّل الثروة البشرية والمواد الخام إلى قوة منتجة. الموارد والثروات بحد ذاتها تبقى خاملة وقد تصبح غثاءً لا وزن له إن غابت الإدارة الحكيمة؛ وكذلك جمهور الناس قد

يشعرون بالعجز والضياع ما لم ينبري من بينهم قادة ربانيون يفعّلون قدراتهم الكامنة. فإذا نجح هؤلاء القادرون في تحريك طاقات الشعب وتوظيفها، فإن القوة البشرية حينئذ ستكون **أكبر بكثير** من إمكانات أي خصم داخلي.

ومن وسائل تفعيل الطاقات الشعبية داخليًا: إنشاء **تنظيم شعبي** واسع القاعدة يعبّئ الجماهير خلف مشروع الدولة. يوضح الباحثون أن الصراع ضد الدولة العميقة وأشباهها يرتكز على ركنين متلازمين: تعبئة طاقات الشعب، وتنظيم تلك الطاقات في كيان شعبي منضبط. فالتنظيم الشعبي ليس حزبًا سياسيًا ضيقًا، بل هو إطار عام يجمع مختلف شرائح المجتمع على هدف نصرة الدولة ومشروعها الإسلامي. إنه بمثابة **الجناح التنفيذي الشعبي** لاستراتيجية التغيير، يعمل بالتوازي مع القيادة الرسمية. يقوم هذا التنظيم بأعمال المواجهة الشعبية تحت إشراف قيادات مخلصة من عامة الناس نفسها، مما يضمن انخراط المجتمع ككل في الدفاع عن دولته الوليدة.

لتحقيق ذلك، لا بد من **التواصل المزدوج المستويات مع الشعب**: *على المستوى العام*، عبر حملات توعوية جماهيرية وخطاب عقدي وفكري يصل إلى عامة الناس بمختلف الوسائل (خطب، إعلام، منصات تواصل، تجمعات شعبية). هذا الاتصال الواسع يكسب تأييد الرأي العام ويشيع روح الولاء للدولة وقضيتها العادلة. *وعلى المستوى الخاص*، بالتواصل مع **أهل التأثير والنخب** ضمن المجتمع (العلماء والدعاة، زعماء القبائل والعشائر، القيادات العسكرية والأمنية المحلية، الوجهاء وأصحاب الكفاءات) لإقناعهم بالمشروع وحشد دعمهم. نجاح المستوى الأول يمهّد لنجاح الثاني عبر إيجاد رأي عام موحّد، بينما يساهم المستوى الثاني في تعزيز ذلك الرأي العام وصناعة قيادة مجتمعية واعية تقود صفوف الناس. وبهذا تُستنهض كل شرائح الشعب: الشباب، والرجال والنساء، والمهنيون والعمال، ضمن ورشة عمل جماعية لتحقيق التغيير المنشود. إن شعبًا يتحرك بكامل فئاته في مشروع النهضة، لهو أقوى سلاح لصد أي عدوان داخلي أو تمرد مضاد، وهو أيضًا قاعدة الصمود الاقتصادي والاجتماعي التي تحفظ الاستقرار بعد إعلان الدولة.

## تفعيل طاقات الأمة الإسلامية خارج الدولة

إلى جانب الطاقات المحلية، ينبغي للدولة الإسلامية الناشئة أن تستثمر **طاقات الأمة الإسلامية في الخارج**، أي قدرات الشعوب المسلمة في العالم الأوسع خارج حدودها القطرية. فالأمة الإسلامية بمجموعها تمتلك إمكانات هائلة مشتتة عبر الأقطار، وإذا أمكن تعبئتها وتوجيهها فستشكل عمقًا استراتيجيًا هائلًا للدولة الوليدة. وقد شهدنا عبر التاريخ المعاصر نماذج لتضامن المسلمين عبر الحدود: *وحدة العقيدة* دفعت آلاف المتطوعين للالتحاق بجبهات القتال نصرةً لإخوانهم (كما حدث في أفغانستان والبوسنة وسوريا وغيرها). هذه الظاهرة تؤكد أن الشعوب الإسلامية أينما وُجدت تشعر بوحدة المصير والاستعداد لبذل الدم والمال في القضايا التي يرونها قضايا الإسلام والأمة جمعاء.

من أهم صور تفعيل طاقات الأمة خارجيًا **توسيع نطاق الدعم والاشتباك الإيجابي عبر العالم الإسلامي**. فعلى الدولة الناشئة وحركتها الداعمة أن تنسج شبكات تواصل وتنظيم مع الحركات الإسلامية والشعوب في

الأقطار المجاورة، لتوسيع دائرة المواجهة مع أعداء مشروع النهضة. توصي الدراسات الاستراتيجية بأنه لا يجوز حصر جهود التغيير في قطرٍ واحد معزول، بل يجب **توسيع دوائر المواجهة في بلاد المسلمين** لتعظيم استثمار طاقات الأمة وتعويض أي اختلال في موازين القوى. والواقع أن الحرب على فكرة الخلافة وعودة دولة الإسلام ليست محلية أبدًا؛ بل هي مواجهة بأبعاد عالمية تتصدّرها قوى كبرى تستنفر كل إمكاناتها لمنع قيام أي كيان إسلامي حقيقي. هذه القوى تعتمد كثيرًا على **عزل المحاولات التغييرية** في نطاق ضيق ثم تحريك الأنظمة الإقليمية لخنقها. لذا فمواجهة هذا التحالف المعادي تتطلب **كسر العزلة** عن الدولة الناشئة وفتح جبهات موازية في محيطها الإسلامي تشغل أعداءها وتشتت تركيزهم. إن توسيع نطاق العمل الإسلامي الثوري إلى أقصى مدى ممكن يحقق عدة فوائد استراتيجية: فهو من جانب **يُربك خطط الأعداء** ويمنع تفرغهم لاستهداف بقعة واحدة، ومن جانب آخر **يجذب المزيد من طاقات الأمة** إلى ساحة المعركة مما يعالج خلل القوة مع الخصوم. يخلص أحد البحوث إلى أن اتساع رقعة المواجهة ليشمل معظم أقطار العالم الإسلامي من شأنه *تخفيف وطأة الهجوم على روّاد التغيير*، وتعزيز قدرتهم على الصمود بمؤازرة إخوانهم في الأقطار الأخرى. بدل أن تستفرد قوى الطغيان بكل محاولة تحرر منفصلة وتحيلها عبرة لغيرها، سيجد الطغاة أنفسهم أمام انتفاضات متزامنة مترابطة يستحيل كبحها كلها في وقت واحد.

على الصعيد العملي، يمكن للدولة الناشئة أن تستفيد من **موارد الأمة المادية والبشرية عبر الحدود** بوسائل شتى: فتح أبواب *الهجرة* إليها للعقول والكفاءات والأيدي العاملة المؤمنة بمشروع الخلافة (كما كانت الهجرة إلى دار الإسلام في العهد النبوي رافدًا أساسيًا لدولة المدينة المنورة). كذلك يمكن استقطاب **الدعم المالي** من الجاليات المسلمة ورجال الأعمال في الخارج لتمويل مشاريع الدولة وتقوية اقتصادها، مع استقطاب خبراتهم في مجالات التقانة والصناعة وغيرها، جنبا إلى جنب مع استثمارت ثروات الأمة من قبل الدولة، وتوظيف عوائدها في الصناعات والزراعة وسد الحاجات. أيضًا ينبغي تفعيل **الجبهة الإعلامية العالمية** لحشد التأييد الشعبي الإسلامي في كل بلد وضبط رواية الأحداث بحيث تُقدَّم الدولة الناشئة كأملٍ للأمة جميعًا، فهي تمثل وعد نبيهم بخلافة راشدة ثانية على منهاج النبوة، وتعمل على تحقيق وعد ربهم بالاستخلاف والتمكين والأمان، وبانتصار الإسلام على الدين كله ولو كره المشركون، فهذا الربط العقدي له تأثير عميق في نفوس أبناء الأمة. ولنا شاهد مهم: حتى الخصوم أدركوا فشلهم في صرف الشعوب الإسلامية عن دينها ومطلبها السياسي؛ فقد لاحظ **الباحثون الغربيون** أنه حيثما توفرت انتخابات نزيهة كانت الجماهير المسلمة تختار التيارات الإسلامية بأغلبية كاسحة. هذا يعني أن المزاج العام في بلادنا هو مع المشروع الإسلامي وضد أنظمة التبعية العلمانية. وعليه، إذا ظهر كيان يرفع راية الإسلام حقًا ويوفر نموذجًا ناجحًا، فسيكسب - بلا شك – دعما حقيقيا، وتعاطفًا واسعًا وربما ولاء أبناء الحركات الإسلامية والجماهير الإسلامية خارج حدوده. ويضاف إلى ذلك مسألة أن الدعوة انتشرت في أواسط آسيا وأندونيسيا وبنغلادش وباكستان وتلك البقاع وغيرها بصورة مؤثرة جدا، وتمتاز هذه الشعوب بعاطفتها الإسلامية الجياشة وبشجاعتها ونجدتها وإقبالها، وهذه عوامل مهمة جدا.

ومن **تكتيكات التوسع الخارجي الحكيم**: التنسيق عبر الحدود لتبادل الدعم اللوجستي وتيسير حركة المناصرين. فقد يستدعي الأمر إنشاء ممرات آمنة أو *مناطق إسناد خلفية* في دول مجاورة متعاطفة (أو ضعيفة السيطرة المركزية) تستخدم لإمداد الدولة الناشئة بالرجال والعتاد وتأمين ملاذ عند الضرورة. وكذلك العكس، بحيث تقدّم الدولة الناشئة الدعم لمنظمات التغيير في تلك الأقطار لتأزيم الأنظمة المعادية وإشعال جبهات جديدة تشاغلها. هذا التلاحم الكفاحي عبر الأقطار سيُشعر كل مسلم أن معركة إقامة الشريعة هي **قضية أمة واحدة** وليست شأنًا محليًا، مما يزيد الحماسة ويبعث روح الأمل بالنصر. وبه ستتحقق *وحدة الصف* عمليًا قبل تحقق الوحدة السياسية الرسمية، تمهيدًا لاندماج الأقطار المحررة لاحقًا في كيان خلافة شامل بإذن الله.

## تجاوز التهديدات الوجودية في المرحلة الأولى

مرحلة ما بعد إعلان قيام الدولة الإسلامية هي أخطر المراحل، إذ تواجه الدولة الناشئة **تهديدات وجودية** مباشرة من أعدائها الداخليين والخارجيين الذين يسعون وأدها في مهدها. ولذلك يحتاج المشروع الإسلامي إلى استراتيجية حصيفة لتجاوز هذه الأخطار وضمان الاستقرار الأولي. أول خطوة هي **الإدراك الو اقعي لحجم العداء المحيط**: فإقامة دولة إسلامية اليوم سيعتبره أعداء الإسلام تحديًا استراتيجيًا يستفز تحالفًا واسعًا من القوى الدولية والإقليمية. لقد بات معلومًا أن القوى الكبرى لن تسمح بسهولة بنشوء نموذج حكم إسلامي يُطبق الشريعة، وستسخر نفوذها العالمي وأذرعها في المنطقة لإجهاض أي محاولة في هذا الصدد. هذا يعني أن الدولة الوليدة قد تجد نفسها أمام حرب متعددة الجبهات: عدوان عسكري مباشر أو بالوكالة، حصار اقتصادي، تشويه إعلامي عالمي، وإثارة للقلاقل الداخلية عبر عملاء أو انشقاقات.

لمواجهة هذه التهديدات الوجودية، تتبع الدولة الناشئة منهج النبي ﷺ في **الحذر والإعداد وأخذ الأسباب** مع التوكّل على الله. فقد ربّى النبي ﷺ أصحابه على عدم الاستهانة بقوة العدو وعلى بذل كل مستطاع في الإعداد حتى ترجح كفة النصر. ومن هذا المنطلق، يجب التخطيط لمواجهة يكون فيها **احتمال النصر وتحقيق الهدف أرجح من الهزيمة**، اعتمادًا على تعبئة كل القوى المادية والمعنوية الممكنة. يشمل ذلك إعداد القوة العسكرية الكافية للدفاع – تنفيذًا لأمر الله ﴿*وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...*﴾ (الأنفال: ٦٠) – سواء قوة نظامية أو عبر **حروب غير تقليدية** (حروب عصابات وكمائن مستمرة تشتت العدو). فإذا كان ميزان القوى يميل لصالح الأعداء من حيث العتاد والتكنولوجيا، فإنه يمكن للمؤمنين معادلة الكفة بأساليب قتالية غير تقليدية تستنزف الخصم وتربك خططه. *تكتيكات حرب العصابات* مثلًا أثبتت نجاعتها تاريخيًا في تمكين الجماعات المقاومة الصغيرة من الصمود أمام جيوش كبرى. ويمكن الاستفادة من تجارب حركات تحرر ناجحة (كالمجاهدين في أفغانستان ضد السوفييت ثم الأمريكان، وكصناديد غزة العزة) حيث لعب العامل المعنوي والعقيدة القتالية دورًا حاسمًا في التغلب على الفجوة التسليحية.

كذلك من الضروري اتباع **استر اتيجية الدفاع المرن**: عدم التمركز في أماكن يسهل محاصرتها أو قصفها، بل تبني انتشار وتخفي مع الحفاظ على القدرة على ضربات مؤلمة عند الحاجة. وينبغي نقل المعركة كلما أمكن إلى عمق

العدو لإشغاله في حماية نفسه بدل التفرغ للهجوم. ولعل **توسيع جبهات المواجهة إقليميًا** –كما أسلفنا – يمثل جزءًا من الحل الأمني أيضًا، فحين تواجه القوى المعادية اضطرابات وثورات في عدة بلدان، ستقل مواردها المخصصة لخنق الدولة الناشئة وحدها. *تفتيت جهد العدو* على جبهات متعددة يحمي المنطلق الجديد من التركيز التام لقوى العدو عليه.

أما داخليًا، فالتحدي هو **تحصين الجبهة الداخلية** ضد الاختراق والإشاعات والحرب النفسية. يجب على قيادة الدولة أن تُحسن التعامل مع **التنوع الداخلي** (قبائل، عشائر، تيارات فكرية مختلفة) بشكل يجذب الجميع نحو المشروع بدل أن يُستغل تنوعهم لزرع الفتن. السياسة الحكيمة تقضي *باستيعاب المخالفين* ممن لا يشكلون خطرًا مباشرًا، عبر الحوار وضمان الحقوق الأساسية تحت مظلة الشريعة، مقابل عزل الخونة والعملاء الذين يرتبطون بالأعداء. وينبغي إظهار العدل الإسلامي واقعًا ملموسًا منذ البداية، لأن عدالة الحكم ونزاهته أفضل *درع شرعي* ضد الدعايات المغرضة التي يطلقها الأعداء لتأليب الشعب. **تطبيق الحدود و إقامة الشرع** يجب أن يقترن ببيان حكمته ورحمته، حتى يدرك الناس أنهم انتقلوا إلى نظام أرحم وأعدل مما عرفوه في ظل الأنظمة السابقة الظالمة. كذلك من المهم عزل **بقايا الدولة العميقة** ومراكز القوى القديمة بحذر؛ تفكيك أجهزة القمع السابقة واجتثاث قياداتها المفسدة ضرورة لمنع أي طابور خامس من تهديد الأمن الداخلي. لكن هذا التفكيك يجب أن يجري بشكل مدروس، مع الحرص على **كسب ولاء الكوادر الوسطى** إن أمكن (كاستيعاب الجنود أو الموظفين البسطاء الذين كانوا مغلوبين على أمرهم ضمن تلك الأجهزة). بإيجاز، على الدولة الجديدة أن تكون يقظة أمنيًا دون أن تتحول إلى حالة شك مطلق في الناس. التوازن مطلوب بين *الحسم مع المتآمرين والاحتضان لجمهور الأمة* الذي فيه بعض من تأثر بدعاية الخصوم.

ولا يُغفل هنا **دور الحرب الإعلامية والمعنوية**. فعلى الرغم من ضعف إمكانات الدولة الناشئة في المجال الإعلامي مقارنة بآلة الدعاية الدولية، إلا أن بوسعها **استخدام منابر التواصل الحديثة** لنقل روايتها وكسب التضامن الشعبي الخارجي. لقد نجحت حركات إسلامية عديدة، وحركات جهادية مثل كتائب القسام في حشد التعاطف عالميًا بقوة الكلمة والصورة التي تفضح جرائم المعتدين وتنقل معاناة المستضعفين. *كشف جرائم الأعداء* وفضح وحشيتهم أمام الرأي العام العالمي والإسلامي يحرجهم سياسيًا ويخفف الضغط العسكري على الكيان الوليد. وفي الوقت نفسه، بث الرسائل الإيمانية المطمئنة للأنصار بأن نصر الله قريب يعزز الصمود الداخلي. إن تذكير المؤمنين بسنن الابتلاء والنصر، وبحتمية تمكين هذا الدين – كما وعد الله سبحانه – يخفف من حالة الهلع عند أول صدمة عسكرية أو حصار اقتصادي. *زرع الأمل والثقة بالله* عنصر حاسم لتجاوز المرحلة الحرجة الأولى، إذ به يستمد المجاهدون القوة للاستمرار حتى مع تأخر النصر الظاهر. قال تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ (محمد:٧)، فاليقين بهذا الوعد يمنح ثباتًا عجيبًا على خط المواجهة.

## خطة تنفيذية مركزة

فيما يلي خطة تنفيذية موجزة توضح كيفية توظيف المرتكزات المذكورة عمليًا لمواجهة التحديات وتحقيق التمكين بإذن الله:

١. **ترسيخ البنية الداخلية واستيعاب الشعب:** ينبغي بدءًا **توطيد أركان الحكم الداخلي** بتشكيل مؤسسات إدارة فعّالة وخدمة المواطنين بالعدل والكفاءة. إقامة العدل وإنصاف الناس تحت راية الشريعة سيكسب الدولة الناشئة شرعية راسخة في قلوب الشعب. كذلك يجب **بناء جسور الثقة مع مختلف المكونات** (عشائر، قبائل، حركات إسلامية أخرى) عبر مجالس شورى محلية ولقاءات منتظمة مع القيادات المجتمعية. الهدف هو خلق جبهة داخلية موحّدة ترى في الدولة مشروعها الديني الجامع، الذي يحقق للرعية كلها مسلمين وذميين حقوقهم وإنصافهم، ورفاههم، مما يقطع الطريق على محاولات الأعداء لإحداث شرخ داخلي.

٢. **تعبئة الطاقات الشعبية وتنظيمها:** بعد كسب ثقة الجمهور، يتم **إطلاق مشاريع تعبئة جماهيرية** تشمل حملات تثقيف سياسي وشرعي لرفع الوعي بأهداف الدولة ومنهجها، جنبًا إلى جنب مع برامج عملية لتجنيد المتطوعين في مجالات متنوعة (الشرطة المحلية، فرق الإغاثة، لجان الأحياء...). من المفيد هنا إنشاء هيكلية **لتنظيم شعبي** واسع الانتشار، يقوم عليها *نقباء* من أهل كل منطقة، يُنسقون الجهود الشعبية ويديرون الموارد البشرية في خدمة الأمن والإنتاج والخدمات العامة. هكذا يشعر كل فرد أن له دورًا في مشروع الدولة، من الجندي على الجبهة إلى المزارع في حقله والطبيب في عيادته. هذا التنظيم الشعبي سيوفر أيضًا شبكة إنذار مبكر ضد أي تسلل أو اضطراب داخلي، إذ سيكون **الوعي الجمعي** مرتفعًا والتعاون تامًا بين الناس والأجهزة الشرعية.

٣. **استنفار دعم الأمة الإسلامية خارجيًا:** تتبنى الدولة الناشئة سياسة خارجية إعلامية ودعوية تهدف إلى **كسب تأييد الشعوب المسلمة** أينما كانت. عبر البيانات الرسمية والمنابر الإعلامية توجه نداءات للأمة توضح عدالة قضية الدولة الإسلامية ومعاناتها تحت الحصار، وتستنهض همة المسلمين لنصرتها بالمال والنفس والكلمة. يمكن تشكيل لجان خاصة لمد جسور مع **الجاليات المسلمة** في الدول الغنية لحشد التبرعات والإسناد المالي، والتقني، وكذلك للتأثير على الرأي العام المحلي هناك للضغط على حكوماتهم بعدم التدخل المعادي. وعلى الصعيد الإقليمي، تنسق الدولة مع أي جماعات إسلامية تنشط ضد الحكومات الطاغية في بلدانها لتبادل المنفعة: دعم لوجستي وإعلامي مقابل فتح جبهات موازية تشتت العدو المشترك. هذه التحركات الخارجية تعطي الدولة الناشئة عمقًا استراتيجيًا وتظهر للعالم أن هذه الدولة ليست معزولة بل لها امتداد شعبي عبر العالم الإسلامي.

٤. **تعزيز القدرات الدفاعية والأمنية:** تبني الدولة **منظومة دفاع شاملة** متعددة الطبقات. في الخطوط الأمامية، يتم إعداد القوات المسلحة النظامية وشبه النظامية وتسليحها بما تيسر من أسلحة لائقة (اغتنامية أو مصنّعة محليًا) مع تدريبها على تكتيكات حروب العصابات والهجمات المباغتة التي

تناسب إمكاناتها. وفي الخط الخلفي، تُنشأ فرق أمن داخلي واستخبارات ثورية لرصد أي اختراق أو مؤامرة في مهدها. يتم كذلك تحصين الحدود والمنافذ عبر تعاون التنظيمات الإسلامية المجاورة لخلق **عمق دفاعي متبادل** –بحيث تصعّب الحركة عبر الحدود على جواسيس الأعداء وتسهلها على مناصري الإسلام. لا بد أيضًا من توفير خطط طوارئ للإمداد (بالمواد الغذائية والوقود والذخائر) عبر طرق تهريب آمنة إذا فُرض حصار. على المدى الأبعد، تسعى الدولة بحكمة للحصول على **عناصر قوة نوعية** ترهب المعتدين – كقدرات صاروخية أو دفاع جوي فعال – لتشكل عامل ردع يمنع العدو من التفكير في هجوم شامل ﴿*ترهبون به عدو الله وعدوكم*﴾ الأنفال: ٦٠). هذه الأمور تُكتسب تدريجيًا بالصبر والتخطيط ولا مانع من الاستفادة من الخصومات الدولية (مثال: استثمار أي دعم سري من قوى كبرى منافسة لعدونا المباشر، دون الارتهان لأحد).

٥. **التوسّع المرحلي المدروس في المحيط الإسلامي:** بعد تثبيت الداخل وتأمين الحد الأدنى من القدرات الدفاعية، توضع خطط **للتوسع في المناطق المجاورة** مستفيدةً من هشاشة الوضع السياسي الإقليمي. كثير من دول الجوار تعاني فراغًا سياسيا وأمنيًا، وشعوبها ناقمة على أنظمتها. على الدولة الإسلامية أن ترقب هذه الفرص: أي انهيار لنظام ظالم أو قيام انتفاضة شعبية في بلد مسلم مجاور يفتح بابًا للتدخل الإيجابي. يمكن التدخل عبر **الدعم اللوجستي والإعلامي** للقوى الإسلامية هناك كي تتمكن من السيطرة وطلب الانضمام لاحقًا للدولة (على غرار ما حصل تاريخيًا حين كانت الإمارات الإسلامية تنضم تحت لواء خلافة واحدة سلمًا أو حربًا). لكن ينبغي الحذر من *الاستعجال*؛ فلا يُنصح بالتوسع العسكري المباشر إلا إذا توفرت شروط النجاح (كحاضنة شعبية مرحبة ودعم كافٍ وخطوط إمداد مؤمنة). وخلاف ذلك، يركز الجهد على *بناء خلايا التنظيم الشعبي* في تلك الأقطار انتظارًا للانقضاض على النظام القائم. الأهم أن تدرك الدولة وحزبها أن عملهم ذو طبيعة **عابرة للحدود** منذ اليوم الأول، وأن الأمة كلٌّ لا يتجزأ. بذلك لن يظل التغيير الإسلامي محصورًا في زاوية ضيقة يُحاصر فيها حتى الموت، بل سيتحول إلى **تيار إقليمي جارف** يصعب إيقافه.

٦. **تحصين الجبهة العقدية والفكرية:** توازيًا مع الخطوات الميدانية، تواظب الدولة على **رفع الوعي العقدي والسياسي** لدى جماهيرها وجماهير الأمة قاطبة. يتم ذلك عبر المناهج التعليمية، وخطب القادة والعلماء، ووسائل الإعلام الحرة النزيهة التي توصل رسالة الإسلام الجوهرية. الهدف هو بناء **مناعة فكرية** ضد حملات التشويه والحرب النفسية التي يشنها الأعداء. عندما يعلم الناس **لماذا** نقيم هذه الدولة – امتثالا لأمر الله، ولتطبيق شريعته، ولتحقيق العدل الرباني وإنقاذ البشرية من طغيان البشر – وعندما يفهمون أحكام الشريعة فهمًا صحيحًا، فسوف يبذلون مهجهم دفاعًا عن هذا المشروع الرباني. العقيدة الصحيحة تكفل بقاء الحماس وإدامة التضحيات، وتجعل كل فرد رقيبًا على نفسه لا يتسلل إليه شك أو فتور. وهذا التحصين الفكري يساهم مباشرةً في الاستقرار؛ فالمجتمع المؤمن الواع الذي يدرك قيمة مشروعه لن يسمح لأعدائه بزعزعة ثقته أو شق صفه.

## قابلية الدولة للتوسع في محيطها الإسلامي

إن البيئة الإقليمية المحيطة بالدولة الإسلامية الناشئة – في معظمها – **مهيأة للتوسع الإسلامي** برغم ما قد يظهر من قوالب القوة الظاهرية للأنظمة الحاكمة. فهذه الأنظمة في جلّها **هشة الشرعية**، تقوم على القهر والاستبداد ودعم القوى الأجنبية، تعيش حالة متقدمة من الفساد والإفساد، والترهل الاقتصادي، وشظف العيش، بينما شعوبها المسلمة تزداد وعيًا ورفضًا لحالة التبعية والظلم. يشير الباحثون إلى أن الرأي العام في بلاد المسلمين بات شبه مجمع على رفض أنظمة الكفر الجاثمة وعلى تطلّب البديل الإسلامي. الصحوة الإسلامية التي انتشرت خلال العقود الأخيرة أيقظت في الأمّة أشواقًا جامحة إلى حكم الشريعة والعدالة، وجعلت الشعوب **متعطشة للتغيير** حتى لو خاضت المخاطر. هذا الوضع يشكّل فرصة تاريخية للدولة الإسلامية كي تتوسّع **بدعوة الشعوب لسلطان الإسلام ولدولته**؛ وتعمل أيضا على تحفيز عوامل الثورة فيها على واقعها، فمتى رأت الشعوب نموذجًا ناجحًا مجسدًا في أرض الواقع، سعت للانضمام إليه طوعًا. وقد رأينا كيف أن سقوط أنظمة طاغية خلال موجة الربيع العربي ملأ الجماهير أملًا بإقامة دولة العدل الإسلامية، إلا إن غياب الكيان القائد حال دون تحقيق ذلك الأمل آنذاك. أما اليوم، فبقيام هذا الكيان في أي بقعة، يمكن أن يتحول الأمل إلى فعل؛ إذ **ستتجه أنظار المسلمين إليه** ويزداد الضغط من داخل البلدان المجاورة لإحداث تغيير مماثل، ولأحباط محاولة حصاره وخنقه.

تتجلى **قابلية التوسع** في صور شتى: قد تكون عبر الاختراق السلمي – كأن ينهار نظام مجاور تحت ضغط ثورة شعبية فيسارع أهل ذلك البلد إلى مبايعة الدولة الإسلامية طلبًا للنصرة وتطبيق الشرع. أو عبر الفتح العسكري عندما تتهيأ الظروف، كتفكك جيش النظام الخصم أو استنجاد فئات من شعبه بالدولة الإسلامية لتخليصهم من الظلم (تمامًا كما حصل في بدايات الفتوحات الإسلامية حين رحّب كثير من أهالي الشام ومصر بالمسلمين كمحررين من ظلم الروم). وفي كل الأحوال، ينبغي مراعاة **سنن** التوسع الطبيعي باستعمال قوة الجذب والنفوذ الحضاري بثبات وفق **استراتيجية مدروسة** تحفظ تماسكها. لقد أكدت التجارب المعاصرة أن الاقتصار على **عمل منعزل في بقعة محدودة** يجعل أصحابه لقمة سائغة لتكالب الأعداء؛ بينما الانتشار الأوسع يكسب المشروع عمقًا ومنعة بتوسيع دائرة المتفاعلين والمؤيدين. كما أن **توحيد الجبهات** عبر الحدود يُنسي الأنظمة المستبدة قدرتها على التعاون ضد الإسلاميين، إذ تجد كلٌ منها نفسها منهمكة بمشكلاتها الداخلية الكثيرة. إن نجاح الدولة الإسلامية في توسيع رقعة سيطرتها عبر العالم الإسلامي يعني عمليًا **نقل المواجهة إلى مرحلة جديدة**: بدلاً من صراع دولة واحدة محاصَرة، يصبح الصراع بين الأمة كلها وبين القوى المعادية لها. وعندها يقترب الوعد الحق بنصر الأمة النهائي بإذن الله، تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿*وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ...*﴾ [النور:٥٥].

ولكي تستثمر الدولة الإسلامية هذه البيئة المواتية دون مخاطرة زائدة، فعليها اتباع سياسة **"التوحيد على بصيرة"**. أي توحيد صفوف المسلمين تحت رايتها لكن *ببصيرة* تراعي واقع كل قطر وظروفه. فتقديم الدعم لحركات

التغيير في بلد ما يختلف إن كانت تلك الحركات مهيكلة ومنضبطة وذات رؤية إسلامية واضحة، عنه في بلد آخر حيث الفوضى أو غلبة العصبيات الجاهلية. وكذلك درجة التدخل العسكري المباشر تختلف بين حالة وأخرى. البصيرة هنا تعني **دراسة دقيقة** لكل قطر: نقاط قوة وضعف النظام الحاكم، مدى رسوخ الولاءات القبلية أو الطائفية، درجة نقمة الشعب واستعداده، وجود منافسين على الساحة... إلخ. وبناء على تلك المعطيات تُرسم خارطة طريق للتوسع: أين يمكن التحرك سريعًا، وأين يجب التأجيل حتى إنضاج الظروف، وكيف ننضجها؟ وهكذا. المهم أن يبقى **هدف الوحدة الشاملة** حاضرًا كغاية نهائية، فلا يركن أهل الدولة إلى حدود سايكس-بيكو المصطنعة أو يرضوا بتوقف المدّ الإسلامي عند قطر معين. إنَّ الأمة الإسلامية بطبيعتها واحدة؛ قسّمها الاستعمار وعمّق انقسامها الحكام العملاء، لكن شريعة الإسلام وتطلعات الشعوب تهفو إلى إعادة اللحمة. وكلما التحمت أجزاء تحت راية الحق، ازداد الضغط تلقائيًا على بقية الأجزاء للحاق بها، لأن **شرعية الدولة الإسلامية الحقة** سترجح على شرعية الأنظمة القُطرية المهترئة في قلوب الناس. وهكذا تعمل **عدوى النموذج الناجح** عملها حتى تعمَّ فكرة الخلافة سائر الأرجاء، لتصبح قابلية التوسع واقعًا محققًا لا مجرد احتمال نظري.

**خاتمة:** في الختام، نؤكد أن **الانتقال من مرحلة العجز المانع إلى القدرة المسقِطة للعذر** في إقامة دولة الإسلام لا يتحقق تلقائيًا دون تخطيط ومحاولة واعية. الاستطاعة التي أنعم الله بها على هذه الأمة لإقامة دينه يجب أن تُفعّل بأقصى طاقتها كي نسقط كل عذر ونتحمل مسؤولية واجبنا التاريخي. بتفعيل الطاقات الشعبية الداخلية، واستنفار دعم الأمة في الخارج، وتسخير قوة العقيدة الروحية، والتخطيط لتجاوز المخاطر، يمكن للدولة الإسلامية الناشئة – بعون الله – أن تصمد وتستقر وتطبق الشريعة. ومع الوقت ستتحول هذه البذرة إلى شجرة وارفة توحّد ظلها بقية المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. وما ذلك على الله بعزيز، ﴿*وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ*...﴾ (الروم: ٤-٥). نسأل الله أن يعجل بتلك البشارة وأن يوفق العاملين المخلصين لتحقيقها إنه ولي ذلك والقادر عليه.

فلننطلق للعنصر الثالث:

## العنصر الثالث: هو القوة المادية المتمثلة بالجيوش،

لقد أنفقت دويلات الضرار على التسليح مبالغ فلكية، وهناك دول تملك قوة هائلة حقيقية مثل تركيا، وباكستان، ومن طبيعة الجيوش هي أنها تتربى على الطاعة للأوامر، لذلك فإننا إذا استطعنا العمل على إزاحة طبقة العملاء في قيادات الجيوش، والعمل على الاستنصار بالطبقة المخلصة من الضباط المنتمين لهذه الأمة الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية، فإن أمر تغير الجيوش لصالح الأمة أسهل من تغير الناس العاديين، لأنهم بطبيعة الحال سيستجيبون للأوامر التي تأتيهم من الطبقة المخلصة.

## ولتفعيل الطاقة السببية في عملية طلب النصرة:

هذه العملية تتم من خلال التواصل المستمر مع الجيوش، والبحث عن أولئك النفر المخلصين منهم، وهي عملية شاقة، إلا أنها من ضرورات التغيير،

إذ إن إهمالها يفضي إلى تسليط الجيوش على الشعوب إذا أرادت الشعوب الانعتاق، ومثال الجزائر ماثل للعيان، فحين قالت الأمة كلمتها وانتخبت جبهة الانقاذ في ١٩٩٢، بأغلبية ساحقة، سحق الجيش الجزائري التجربة كلها وأدخل البلاد في حرب أهلية كانت نتائجها رهيبة، عملية تغيير الجيوش هذه نسميها: طلب النصرة، وهي جزء لا يتجزأ من الأعمال اللازمة لحصول التغيير، لزوم الماء للعطشان.

أما عنصر القوة هذا المتمثل بالجيوش، فإنه إذا أخذنا الجيش لصف الأمة، وأقمنا عقيدته على عقيدة الجهاد والتضحية، فإنه قادر على إحداث النقلة ذاتها التي نقلتها الأمة الإسلامية أيام الصحابة للبشرية في غضون عقود قليلة لتنتشر دولة الإسلام على نصف الكرة الأرضية التي كانت معروفة وقتها.

وعليه، فهذا استعراض سريع لعملية تغيير الدولة، وفق قاعدة السببية، وإن أي تجاوز لهذه العملية التي اتفقت فيها السنن الإلهية التي عرفناها من استنباط العملة التغييرية التي قام بها سيد الخلق محمد ﷺ في مكة، اتفقت تلك السنن الإلهية، مع السنن الكونية التي تأخذ بعين الاعتبار: طبيعة الدولة، ومقوماتها، ومواطن القوة فيها، وعقائدها، وتتفق مع السنن الإنسانية التي تصمم أنظمة التغيير بما يفضي لإحداثه.

## لاستمرار الدولة بعد نشوئها لا بد من إقامتها على مؤسسات ونظام صحيح وعلاقات صحيحة مع الكيان المجتمعي

كما تقوم الدولة وفق سنن ثابتة لا بد من اتباعها، فإنها حتى تستمر لا بد أن تكون قامت بشكل صحيح، بمعنى أن ضمانة استمرارها وعدم سقوطها هو استنادها إلى قوة المفاهيم والمقاييس والقناعات التي زرعتها في الأمة زراعة صحيحة، وأقامت عليها السلطان قياما صحيحا، فهذا ضمانة لاستمرارها، ولتغلغلها في الناس ودعمهم لها بصفتها دولتهم،

وحتى لا يستأثر الحاكم بميزات الحكم ويخرج عن المفاهيم الإسلامية، فإن في الدولة مؤسسات ودستورا مستنبطا من الشريعة ينبغي أن يكون الدستور فوق الحاكم، فإن خرج عليه بما يستوجب خلعه، خلعته محكمة المظالم، فباستقرار مفاهيم الحكم بين القيادات السياسية والوسط السياسي، إلى وسائل الإعلام إلى قيادات الجيش، إلى جمهور الناس، حيث إن العملية التغييرية سارت بالتغيير الفكري وسط هؤلاء أنفسهم، فيتشكل وعي الأمة بكل فئاتها على الانقياد الفكري للإسلام، فيكون في هذا ضمانة استمرارية الدولة.

## هل سيناريو الحرب ضد الدولة الإسلامية حتمي؟ أم أنه خطأ استراتيجي فاحش؟

أظهرت الدراسات الاستراتيجية الحديثة، كما ورد في تحليلات مثل *Bombing to Win* لروبرت بايب، أن حملات القصف الجوية بمفردها لا تكسر إرادة الدولة المُستهدَفة بل تعزز مقاومتها وغالبًا ما تولد تضامنًا داخليًا ضد الضارب. وكذلك فإن قوام الرؤى التحليلية المتجددة تشير إلى أن القصف الجوي الاستراتيجي وحده لا يمثّل

ثورة في فن الحرب، كما أظهرت دراسات في الولايات المتحدة أنّ الاعتماد عليه لم يحقّق الانقلاب الميداني المنشود في خمس صراعات كبرى بعد الحرب العالمية الثانية Air University.

أما في سياق الردع النووي، فإن مبدأ **الدمار المتبادل المؤكّد (MAD)** يثبت أن استخدام السلاح النووي أولًا يؤدي إلى دمار شامل للطرفين، ما جعل هذا الخيار شبه مستحيل عمليًا، ومع تبلور نظرية **مفارقة الاستقرار-اللااستقرار**، فإن تواجد الترسانات النووية المتكافئة بين الدول يخفض احتمال الحرب الشاملة، ولقد كثر تداول الحديث عن "الحرب النووية المحدودة"، ولكن الاستراتيجيين يحذّرون من المبالغة في الاعتماد عليها؛ فإن لها مخاطر تسرّب إشعاعات إلى مناطق واسعة، وقد تؤدي إلى تصعيد لا يمكن السيطرة عليه، أو أن يكون ذريعة مستقبلية تعطيها الدولة التي استبقت بالضرب لباقي الدول النووية في العالم لتستعمله ضدها مستقبلا إذا تغيرت الظروف، وكمثال عملي، لم تتحرّك روسيا لضرب المدن الأوكرانية بالسلاح النووي، رغم امتلاكها القدرة المادية، ورغم احتمالية أن يدفع الخصم للاستسلام، إدراكًا منها بعواقب الانتقام الدولي، أما في حالة احتمال ضرب الدولة الإسلامية الناشئة، أو ضرب حاضرة من حواضر العالم الإسلامي فإن تبعاته الهائلة يترتب عليها أنه سيثير نقمة الأمة فتتعرض مصالح الدولة التي تقصف لخطر شديد، والموازنة العسكرية والاستراتيجية تقتضي أن لا تقدم على مثل هذه المقامرة، فليس الأمر نزوة، بل حساب استراتيجي عميق.

## أولًا – الولايات المتحدة وقدرتها على خوض حرب شاملة في الشرق الأوسط:

التجربة الأمريكية في العقدين الماضيين تقدم صورة شديدة الوضوح عن كلفة الحروب البرية الممتدة. فحربا العراق وأفغانستان، اللتان كان يفترض بهما أن تكونا حروبًا سريعة الحسم، تحوّلتا إلى أطول نزاعين خارجيين في تاريخ الولايات المتحدة. تقديرات مشروع "تكاليف الحرب"(Brown University) "تضع الكلفة الإجمالية لحروب ما بعد ١١ سبتمبر بنحو **8 تريليونات دولار** حتى ٢٠٢٣ (تشمل العراق وأفغانستان وفوائد الديون والرعاية للمحاربين)، (وفقCRS )؛ وهي أرقام تُعادل جزءًا ضخمًا من الناتج الأميركي وتُغذّي الدَّين العامَّ الأمريكي عبر الفوائد المستقبلية، فهو نزيف مالي مستمر.

**نزف الاستعداد القتالي :(Readiness)** أثناء الذروة، كانت التكاليف الشهرية للدفاع **نحو ١٢.١ مليار دولار** (2008)مع فاتورة "إعادة ضبط المعدات/Reset" للجيش تبلغ **16 مليارًا سنويًا** لسنوات حتى بعد الانسحاب، ما يعني استنزافًا مباشرًا للمخزونات والأطقم والمركبات وقدرة التدريب. شهادات قيادات الجيش في ٢٠٠٦–٢٠٠٨ وصفت الضغط بأنه "يتجاوز قدرة التوليد المستدامة للقوات"، مع آثار سلبية على جاهزية الألوية القتالية والقوة المتطوعة.

**القراءة العملية:** عند الذروة، شكّلت نفقات العمليات الطارئة (OCO) ما يوازي ١-٢% **من الناتج المحلي سنويًا** لبضع سنوات. هذا المستوى من الإنفاق يقترن عادةً بتراجعٍ قابلٍ للقياس في الجاهزية المعدّاتية والبشرية، وتأخيرات في التحديث، و"فجوات" لوجستية تمتد **لسنوات** بعد توقف القتال بسبب كلفة الإحلال وإعادة البناء. (بيانات/CRS وشهادات نائب رئيس الأركان تعضد هذا الاستنتاج) هذه الحروب لم تُضعف فقط الاقتصاد

الأمريكي، بل أرهقت القوات المسلحة نفسها؛ إذ سُجلت معدلات عالية من الإصابات النفسية والبدنية بين الجنود، وارتفعت معدلات الانتحار في صفوف العسكريين العائدين. اليوم، في نهايات ٢٠٢٥، وبعد انخراط واشنطن في دعم أوكرانيا بالسلاح والذخيرة في مواجهة روسيا، وتوريد كميات ضخمة من الذخائر الموجهة والصواريخ الاعتراضية للكيان الصهيوني في حرب غزة، تراجعت مخزونات الجيش الأمريكي إلى أدنى مستوياتها منذ نهاية الحرب الباردة. تقارير البنتاغون نفسها تشير إلى أن إعادة ملء هذه المخزونات - خاصة في منظومات مثل صواريخ *Javelin*و*Stinger* وذخائر المدفعية ١٥٥ ملم - ستحتاج ما بين ٣ إلى ٥ سنوات من الإنتاج المستمر قبل العودة لمستويات آمنة لأي حرب واسعة.

**لماذا ستكون حرب ثالثة اليوم أشدّ كلفة على الجاهزية؟**

**١) مخزونات الذخائر وسلاسل التوريد: عنق زجاجة حقيقي**

- الولايات المتحدة زوّدت أوكرانيا **أكثر من ٣ ملايين قذيفة ١٥٥ ملم**، وتسابق الزمن لرفع الإنتاج إلى **100 ألف قذيفة/شهر** ...لكن الواقع حتى صيف ٢٠٢٥ يُظهر تباطؤًا عند **40ألف/شهر** وتأجيل بلوغ ١٠٠ ألف إلى **ربيع ٢٠٢٦**، مع اختناقات في المتفجرات (TNT) وسعات التعبئة والتجميع. أي حرب جديدة ستصطدم بهذه السقوف فورًا.

- تحليلات صناعية تُظهر أن تعويض ذخائر "ذكية" بعينها (مثل **Excalibur 155mm**) قد يستغرق ٤-٧ **سنوات** بحسب معدلات الإنتاج السابقة/المعزّزة- وهذا قبل فتح جبهة كبرى جديدة.

- وزارة الجيش فتحت خطوطًا جديدة (Mesquite-TX) وتضخ مليارات، لكن **الطفرة الصناعية** ما تزال رهينة عقود طويلة الأمد، وسلاسل توريد عالمية هشّة؛ بمعنى أن القدرة على "توليد الذخيرة" لن تلحق بسرعة وتيرة الاستهلاك في حرب كبيرة متعددة الجبهات.

**٢) الاستهلاك العملياتي والتكاليف اللاحقة**

- تجارب العراق/أفغانستان أظهرت أن كلفة "إعادة الضبط" للجيش وحده بلغت **16مليارًا سنويًا** لعدة سنوات بعد القتال. في بيئة اليوم- بعد أوكرانيا وغزة- ستكون فاتورة "الإحلال + التوسع" أعلى بسبب تضخم الأسعار، قيود الطاقة الإنتاجية، والحاجة لتجديد أنظمة باهظة (باتريوتPAC-3 /، ذخائر دقيقة، إلخ).

**تقدير أثَر "حرب ثالثة كبيرة" على القدرة الأميركية (سيناريو تحليلي محافظ)**

**الافتراض:** حملة مستمرة لـ ١٢–١٨ شهرًا تشمل طلعات جوية كثيفة، حماية قواعد/أساطيل، استهلاك نيراني بري–بحري–جوي، وحاجة لتعزيز مسارح أخرى (شرق أوروبا، المحيطين)، والأهم: الحاجة للإبقاء على قوة قادرة لمواجهة أي أخطار عالمية غير متوقعة مع جاهزية تامة للقتال:

- **على مخزونات الذخائر:** بالنظر إلى معدلات الإطلاق الحديثة في أوكرانيا ومعوقات الإنتاج الأميركية، فإن حربًا ثالثة ستفرض **عجزًا دوريًا** بين الاستهلاك والإنتاج في عتاد رئيس (١٥٥ ملم، دفاع جوي صاروخي، ذخائر دقيقة)، ما يهبط بالجاهزية المخزونية الأميركية الفعلية في بعض الأصناف الحساسة إلى **نطاق عجز مزدوج الرقم (١٥-٣٠%)** خلال الأشهر الأولى إذا لم تُفرض قيود صارمة على معدلات الرمي/الطلعات أو يُحوَّل جزء أكبر من إنتاج الحلفاء للسدّ. (النطاق مبني على فجوة ٤٠ k إنتاج/شهر مقابل احتياجات عملياتية قد تتجاوز ذلك بكثير، وعلى تقديرات CSIS/CRS لأزمنة الإحلال).

- **على الاستعداد القتالي للوحدات:** استنزاف الذخيرة والمعدات + دورات انتشار أسرع يعني هبوطًا ملموسًا في "جاهزية القتال الكامل" لبعض الألوية وأنظمة الدعم، مع تراكم "أعمال الصيانة المؤجلة Backlogs" تمامًا كما حدث سابقًا (والذي استتبع **سنوات** من الصيانة والإحلال بعد العراق/أفغانستان). تقدير حذر: **هبوط من خانة العشرات في مؤشرات الجاهزية** لبعض تشكيلات المناوبة الأولى خلال السنة الأولى، يعود تدريجيًا بعد التمويل والتصنيع-لكن ليس قبل ٣-٥ **سنوات** من نهاية العمليات.

- **على الاقتصاد/المالية العامة:** عند المقارنة التاريخية، بلغ إنفاق OCO في ذروته مستوى يعادل ١-٢% من **الناتج سنويًا** لعدة سنوات. حرب ثالثة على هذا النطاق - وفوق التزامات أوكرانيا/غزّة/تايوان- مرشحة لإضافة **تريليون إلى تريليوني دولار** خلال ٣–٥ سنوات (تكاليف مباشرة + إعادة الإحلال + فوائد الاقتراض)، ما يرفع عبء الفوائد ويزاحم التحديث طويل الأمد. (هذا الإسقاط يُعاير بتجارب العراق/أفغانستان وكلفة الفوائد التي وثّقها مشروع "تكاليف الحرب").

**الخلاصة العملية**

- **نعم**، تاريخ العراق/أفغانستان يُثبت أن الحروب البرّية الممتدة تُنهِك الجاهزية وتفرض **سنوات** من إعادة البناء، واليوم القيود الصناعية على الذخائر (١٥٥ ملم تحديدًا) تجعل أي حرب ثالثة تُترجم سريعًا إلى **فجوة قدرات ملموسة** قبل أن تَلحق المصانعُ بالإيقاع. **الأثر المتوقع** على القدرة القتالية ليس رقمًا واحدًا بسيطًا، لكنه في المدى القريب يعني **عجزًا ملحوظًا في ذخائر رئيسة** وهبوطًا في جاهزية بعض التشكيلات بنسبة ذات شأن، ومع كلفة مالية تُقاس بالتريليونات، وكل ذلك بينما تحاول واشنطن إبقاء رصيد ردع كافٍ أمام روسيا والصين! إن قرار خوض الحرب ولا شك خطير استراتيجيا على أمريكا!

تُظهر الخبرات الأمريكية في العراق وأفغانستان، التي كلّفت الخزانة ما يزيد على ثمانية تريليونات دولار وأرهقت البنية العسكرية لعقدين، أن أي انخراط جديد في حربٍ كبرى وطويلة الأمد في العالم الإسلامي سيكون استنزافًا مركبًا: اقتصاديًا، عبر تعميق العجز ورفع كلفة الاقتراض؛ ولوجستيًا، عبر الضغط على مخزونات الذخائر والصواريخ الدقيقة التي تعاني أصلًا نقصًا حادًا بعد دعم أوكرانيا والكيان الصهيوني؛ وصناعيًا، عبر كشف محدودية القاعدة الإنتاجية الدفاعية التي تحتاج لسنوات لتعويض النقص. هذه الاعتبارات، التي وثّقتها تقارير مراكز بحث كـ CSIS وRAND ودوائر حكومية أمريكية، تجعل خيار الحرب البرية الممتدة اليوم مقامرة

إستراتيجية تُقَلِّص هامش المناورة أمام منافسي واشنطن الكبار وتُضعف الردع في آسيا وأوروبا. ومع تحوّل عقيدة الدفاع القومية من مبدأ "خوض حربين متزامنتين" إلى التركيز على منافسة الصين وروسيا، يصبح القرار السياسي أكثر تعقيدًا: إذ سيجد صانع القرار نفسه أمام رأي عام مُنهك من الحروب الخارجية، وكونغرس متردد في تمويل مغامرة جديدة، ومؤسسة عسكرية تُحذّر من المخاطر على الجاهزية العالمية إذا ما تمّ استنزاف القوة في ساحة الشرق الأوسط.

من الناحية السياسية، المزاج الداخلي الأمريكي بعد أفغانستان والعراق لم يعد متقبلًا لفكرة "حرب كبرى" خارجية، خاصة في ظل اقتصاد يواجه تحديات التضخم، والدين العام الذي تجاوز ٣٤ تريليون دولار، وحاجة الإدارة إلى توجيه الموارد لإعادة بناء البنية التحتية الداخلية ومواجهة التنافس مع الصين في المحيطين الهندي والهادئ. هذا يعني أن أي إدارة تفكر في شن حرب شاملة في الشرق الأوسط ستواجه عقبتين: نقص الاستعداد العسكري واللوجستي، وغياب الغطاء الشعبي والكونغرس لمثل هذا الخيار. وبناءً على هذا، يصبح أي تدخل أمريكي محتمل أقرب إلى الضربات المحدودة أو العمل عبر الوكلاء، لا الانخراط البري المباشر الذي أثبتت التجربة أنه استنزاف استراتيجي باهظ الثمن، ومثل هذه الخيارات لا تستطيع الإجهاض على دولة إذا ما قامت الدولة الإسلامية باستعمال ما لديها من مواطن قوة سنشير إليها لاحقا إن شاء الله كرد على ذلك.

قائمة بأهم مراجع البحث حول **أثر حربٍ ثالثة كبرى في الشرق الأوسط على قدرة الجيش الأمريكي**، وهي تجمع بين المصادر الأكاديمية، وتقارير مراكز الدراسات، والإحصاءات الحكومية:

**١. دراسات أكاديمية ومشروعات بحثية كبرى**

- **Brown University – Costs of War Project,** *Watson Institute for International & Public Affairs*

تقديرات شاملة لتكاليف الحروب بعد ١١ سبتمبر (العراق، أفغانستان، باكستان، سوريا)، بما في ذلك النفقات المباشرة، الرعاية للمحاربين القدامى، وفوائد الديون المستقبلية. https://watson.brown.edu/costsofwar

- **Congressional Research Service (CRS)** – *The Cost of Iraq, Afghanistan, and Other Global War on Terror Operations Since 9/11*

تقارير دورية تشرح النفقات السنوية، أثرها على الموازنة، وجداول OCO (Overseas Contingency Operations) .

**٢. مراكز الدراسات الإستراتيجية**

- **CSIS (Center for Strategic and International Studies)**

تقارير عن أثر استنزاف الذخائر في أوكرانيا وغزّة على القدرة الأمريكية، خاصة في ذخائر ١٥٥ ملم والأنظمة الدقيقة. https://www.csis.org

- **IISS (International Institute for Strategic Studies) – The Military Balance**

بيانات سنوية عن حجم القوات، المخزونات، وتقديرات الجاهزية العسكرية للدول الكبرى. https://www.iiss.org

- **RAND Corporation** – *Sustaining Army Readiness* & *Rebuilding Military Readiness after Major Conflicts*

تحليلات لوجستية ومالية حول كيفية تراجع الجاهزية أثناء الحروب الممتدة وسبل التعافي. https://www.rand.org

**٣) وثائق حكومية وشهادات أمام الكونغرس**

- **U.S. Department of Defense – Budget Justification Books**

أقسام OCO/Global War on Terrorism، بما في ذلك تكاليف العمليات وكلفة إعادة الإحلال(Reset) . https://comptroller.defense.gov

- **Testimony of U.S. Army Vice Chief of Staff (2006–2008)**

أمام لجان القوات المسلحة في الكونغرس، حول أثر العراق وأفغانستان على الجاهزية ومخزونات الجيش.

٤) **تقارير صحفية تحليلية موثوقة**

- **Defense News ،Breaking Defense و ،War on the Rocks**

مقالات تحليلية عن الطاقة الإنتاجية الأميركية، برامج زيادة إنتاج الذخائر، وتأثير دعم أوكرانيا على المخزون الإستراتيجي.

- **Reuters / Associated Press Special Reports**

تحقيقات حول خطوط إنتاج الذخائر في أميركا والجدول الزمني للوصول إلى أهداف الإنتاج(155mm, HIMARS, PAC-3) .

٥) **إحصاءات تاريخية ومقاربات اقتصادية**

- **U.S. Bureau of Economic Analysis (BEA) & Congressional Budget Office (CBO)**

بيانات الناتج المحلي، نسب الإنفاق العسكري إلى الناتج، وأثر ذلك على الدين العام.

## ثانيًا – قدرة الكيان الصهيوني على خوض حرب شاملة ضد سوريا:

منذ اندلاع معركة السابع من أكتوبر، انخرط الكيان الصهيوني في أطول وأعنف مواجهة عسكرية منذ ١٩٤٨، ما أدخل جيشه في حالة استنزاف شامل على المستويات البشرية والمادية والمعنوية. العملية البرية في غزة كلفت الجيش آلاف القتلى وعشرات آلاف الجرحى، مع فقدان أعداد غير مسبوقة من المدرعات، بما في ذلك دبابات *Merkava IV* المتطورة. أما سلاح الجو، فقد نفذ معدلًا قياسيًا من الطلعات الجوية واستهلك جزءًا كبيرًا من العمر الافتراضي لأسطوله، خاصة مقاتلات *F-16* و*F-35*، وهو ما يتطلب صيانة وإصلاحات مكلفة وزمنًا طويلًا لإعادة الجاهزية الكاملة.

إلى جانب الخسائر العسكرية المباشرة، أحدثت الحرب اختلالًا في سوق العمل والاقتصاد، إذ تعطلت قطاعات مثل التكنولوجيا الفائقة والسياحة، وتراجعت الاستثمارات الأجنبية بشكل حاد، وارتفع العجز في الموازنة إلى مستويات تهدد الاستقرار الاقتصادي. داخليًا، كشفت الحرب عمق الانقسام السياسي والمجتمعي، وأعادت إلى السطح أزمات ثقة بين القيادة العسكرية والسياسية، خاصة بعد إخفاقات السابع من أكتوبر الاستخبارية والعملياتية.

في حال الدخول في حرب شاملة مع سوريا، فإن الكيان سيواجه خطر فتح جبهات متعددة في الشمال والجنوب، مع عدم قدرته على حسم الحرب في غزة، وإظهار أي صورة للنصر فيها، إضافة إلى تهديدات من العمق عبر الصواريخ الدقيقة والطائرات المسيرة. هذا النوع من الحروب يتطلب قدرة على التعبئة السريعة وطاقة اقتصادية لدعم العمليات الممتدة، وهما عنصران يعاني الكيان من تراجع واضح فيهما حاليًا. والأهم، أن طول أمد الحرب قد يسرّع من الانهيار الداخلي بفعل الضغط الشعبي والخسائر المستمرة، وهو سيناريو تحذر منه مراكز الأبحاث في الكيان الصهيوني نفسه، باعتباره تهديدًا وجوديًا وليس مجرد تحدٍ أمني.

في التقديرات العسكرية المعاصرة، لا يُنظر إلى احتمالات المواجهة على أنها قرارات فورية، بل كعوامل مؤثرة في صياغة العقيدة الدفاعية والهجومية لأي طرف. وفي الحالة الراهنة، يُدرك صانع القرار الصهيوني أن القيادة السورية الحالية تميل إلى تجنب المواجهة المباشرة، وتسعى إلى تحسين موقعها وصورتها في الساحة الدولية، وهو ما يخفف من احتمالات اندلاع حرب واسعة في المدى القريب، لذلك فإنه يقوم بالقصف الجوي والتوغل البري آمنا من العقوبة. غير أن أي تحول في المشهد السياسي - كقيام دولة إسلامية تعتبر المواجهة خياراً شرعياً - سيغيّر معادلات الردع، ويفرض على المؤسسة الأمنية الصهيونية إدخال سيناريوهات أكثر تعقيداً في حساباتها الاستراتيجية.

على سبيل المثال، تقارير **IISS Military Balance** وإن لم تقدّم أرقاماً ميدانية دقيقة، تشير إلى أن سوريا ما زال لديها مئات الدبابات القابلة للزجّ (من طرازات T-72 و T-62و T-55بتحديثات متفاوتة)، ورغم محدودية تكافئها مع دبابات "ميركافا" الإسرائيلية الحديثة، فإن خسائر الكيان الكبيرة في حرب غزة - بما في ذلك تدمير مئات الآليات واضطراره لإعادة تشغيل دبابات أخرجت من الخدمة منذ ٢٠١٤ - إضافة إلى تعاقده مع ألمانيا لتزويده بمحركات لـ١٥٠ دبابة ميركافا-٤، تكشف عن قدرة برية تحتاج إلى إعادة البناء ولا تتحمل استنزافاً طويل المدى.

كذلك، فإن التطوير الذي طرأ على ترسانة المسيّرات السورية منذ ٢٠١٨، بدعم إيراني وروسي، يعكس تحوّلاً في موازين الردع. تقديرات بعض مراكز الدراسات الغربية تضع هذه الترسانة اليوم في نطاق مئات المسيّرات بمختلف الفئات، من بينها عشرات الانتحارية بعيدة المدى القادرة نظرياً على بلوغ عمق الأراضي المحتلة، والباقي للاستطلاع والهجمات القريبة. حتى لو كان هذا المخزون محدوداً، فهو كفيل بفرض تحديات معقدة على منظومات الدفاع الجوي والراداري الإسرائيلية التي أنهكتها حرب العامين.

أما على صعيد القوى البشرية، فإن وجود قوة مقاتلة تُقدَّر بنحو مليون عنصر مدرّب ومعبأ عقائدياً – اكتسبت خبرات ميدانية طويلة من الحرب السورية – يفتح المجال لسيناريوهات برية تُدرَج حتماً في التقديرات الإسرائيلية. من هذه السيناريوهات: هجمات متعددة المحاور عبر الجولان ومزارع شبعا أو نقاط تماس سورية–لبنانية، مدعومة بإشباع نيراني وصاروخي، وضربات مسيّرات لتعطيل الرصد المبكر، أو عمليات محدودة تستفيد من ظروف مناخية تقلل فاعلية الاستطلاع الجوي. عوامل النجاح هنا لا تتوقف على العدة والعدد فحسب، بل على عنصر المفاجأة، والخداع العملياتي، والقدرة على تشتيت الجهد الإسرائيلي بين جبهات متعددة، مع قيادة مرنة قادرة على إدارة عمليات واسعة في بيئة قتالية معقدة.

في المحصلة، تمثل هذه السيناريوهات إطاراً تقديرياً يفرض نفسه على أي تخطيط عسكري صهيوني إذا تغيّر السياق السياسي السوري، خاصة في ظل الإرهاق البشري واللوجستي الذي يعيشه جيش الكيان الصهيوني بعد حرب غزة، وحساسيته الشديدة تجاه فتح جبهات برية واسعة في الشمال.

غير أنّ ما سبق إنما هو في إطار موازين القوى المادية المحسوبة بالأرقام والجداول، أمّا ما ستكشفه هذه الدراسة الاستثنائية فهو عرضٌ معمّقٌ لقدراتٍ استراتيجيةٍ هائلة تملكها الدولة الإسلامية، قدراتٍ كفيلة بأن

تجعل الأعداء يعيدون حساباتهم ألف مرة، ويضاعفون رهبتهم من الإقدام على حرب معها أضعافاً مضاعفة، إذ يرون أمامهم مزيجاً من الركائز الصلبة التي تستند قوة الدولة الإسلامية إليها، ما يحوّل فكرة المواجهة إلى مغامرة محفوفة بالمخاطر المصيرية.

وبناء على ما سبق، فإنه لَيَتَجلّى لكل ذي بصيرة أن الحكم الشرعي بوجود الاستطاعة – الذي تُبنى عليه أعظم القرارات، من إعلان الدولة الإسلامية إلى إقامة شرع الله – لا يُستمد من حسابٍ عاجلٍ لموازين القوة المادية وحدها، ولا من نظرة الفرد المعزول إلى ذاته، قارنا قدرات الدولة واستطاعتها بنظرته تلك، بل من رؤية استراتيجية واسعة، تحيط بعناصر القوة الحاضرة، وتستكشف سبل تعظيمها بتحريك الأمة واستنهاض جماهيرها، وتعبئة طاقاتها الكامنة، وإحكام إدارة مواردها، مع تقدير احتمالات الصدام ومآلاته. فالأمة حين توحِّد صفوفها وتبسط سلطانها، وتستثمر ما حباها الله من مكامن منعة وقدرات رادعة، وتستعين بربها، وتحسن التوكل عليه، تصبح قادرة على فرض معادلة الردع، وكسر إرادة المعتدين، وتثبيت أركان الدولة على أساسٍ من القوة والعزة والتمكين.

## ثالثا: الحرب المتوقعة ليست نزهة تستغرق ساعات للحسم!

هذا، وقد استمرت الثورة السورية في حسم الصراع على الأرض في مواجهة إيران وحلفائها منذ ٢٠١١ حتى الثلاثين من سبتمبر ٢٠١٥، وقد غير التدخل الروسي ميزان القوى جوًّا، لكنه **لم يُنتِج حسمًا سريعًا**؛ بل دخلت البلاد في **حرب استنزافٍ طويلةٍ متعدّدة الجبهات** احتاجت إلى سنوات من القصف المكثّف، والاقتحامات الأرضية بقيادة قوات النظام وميليشياتٍ إيرانية وعراقية و"حزب الله"، وإسنادٍ استخباري ولوجستي واسع - من دون قدرةٍ على إنهاء الثورة/المعارضة بضربةٍ خاطفة، **طبيعة الصراع المركّبة** (جبهات متعدّدة، بيئة حضرية كثيفة، تداخل جهات دولية وإقليمية) جعلت **الكلفة الزمنية والبشرية والمادية مرتفعة**، وأبقت جيوبًا واسعة من المعارضة قائمةً لسنوات اعتمادًا على قدراتٍ محلية وشبكات إمدادٍ محدودة، رغم الحملات المتكرّرة. تقارير ICG وCFR توثّق طول أمد الصراع وتعقيده واستمراره كحربٍ دولية بالوكالة.crisisgroup.org  Council on Foreign Relations

رغم **الغطاء الجوي الروسي الكثيف (آلاف الطلعات)**، ظلت عمليات الحسم تتطلّب **حصارًا طويلًا و اتفاقات إخلاء قسرية ومعارك كرٍّ وفرٍّ** (حلب ٢٠١٦، الغوطة ودرعا ٢٠١٨، ثم إدلب). تُظهر دراسات RAND وCNA كثافة الطلعات واتساع الاعتماد على الذخائر غير الموجّهة، ما زاد الحاجة إلى تكرار الضربات على مدى أشهر، بل سنوات.rand.orgcna.org

**كثافة جوية روسية... بلا حسمٍ سريع:**

- **طلعات جوية بالألوف**: يقدّر تقرير CNA أنّ القوة الروسية نفّذت حوالَي **6,500 طلعة خلال ٦٠ يومًا** فقط (٢٤ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥–٢٢ شباط/فبراير ٢٠١٦)، بمتوسط **107 طلعات/يوم**، مع

استمرار معدلاتٍ مرتفعة لاحقًا (مثل **70 طلعة/يوم** على حلب في آب/أغسطس ٢٠١٦)، ما يوضح **طول أمد العمليات** اللازمة لإخضاع جهةٍ حضرية واحدة.cna.orgrand.org

- **حجم القوة**: تقديرات عسكرية تُظهر أن الانتشار الروسي بقي غالبًا في حدود **٣٠-٥٠ طائرة مقاتلة و١٦-٤٠ مروحية**؛ وهو يكفي لتغيير ميزان القوة موضعيًا، **لكن ليس لحسمٍ آنيّ على مستوى البلاد**، ما يفسّر اعتماد موسكو على حملاتٍ متعاقبة وحصارٍ واتفاقات إخلاء.armyupress.army.mil

**بنية أرضية مُسنَدة بإيران وميليشياتٍ عابرة للحدود... ومع ذلك طال القتال**

- **قوات إيرانية وميليشيات أجنبية**: قدّرت CSIS وجود **نحو ٢٥٠٠ عنصر إيراني** على الأرض (حرس ثوري وقوات نظامية)، وتنظيم ٨٠٠٠-١٢٠٠٠ مقاتل شيعي أجنبي (أفغان، عراقيون، وغيرهم) عبر فيلق القدس وشبكات الإسناد. كما لعب "حزب الله" دور قوة اقتحامٍ رئيسية. **هذا الحجم النوعي** لم ينتج حسمًا خاطفًا، بل **حملاتٍ مطوّلة**.CSIS

- **ميليشيات عراقية حليفة لإيران** (مثل "حركة النجباء") قاتلت في سوريا ضمن "محور المقاومة"، ما يعكس **تدويل المسرح** ويؤكد أن إسقاط مناطق المعارضة تطلب **تراكم قواتٍ عبر-حدودية**.
dni.govwashingtoninstitute.org

- **خسائر الحلفاء**: وثّق SOHR مقتل ١١٣٩ -١٧٣٦ من مقاتلي "حزب الله" حتى ٢٠٢٣ - أرقام تعكس **شدّة وطول** القتال رغم الغطاء الجوي الروسي. كما أشارت تقارير صحفية إلى **سقوط قادة إيرانيين** بارزين.Wikipedia The New Yorker

**استنزافٌ متبادل وخسائر رمزية لروسيا تُظهر عناد الساحة**

- أُسقِطت طائرة **Su-24** روسية على يد تركيا (نوفمبر ٢٠١٥)، و**Su-25** فوق إدلب (فبراير ٢٠١٨)، كما أُسقِطت طائرة الاستطلاع **Il-20** بنيران دفاعٍ سوري (سبتمبر ٢٠١٨)، حوادث **غير حاسمة عسكريًا** لكنها تُظهر **خطر البيئة العملياتية واستعصاء الحسم السريع**.TIME The Aviationist

**أثرٌ إنساني هائل دون إنهاء الصراع فورًا**

- **نزوحٌ واسع النطاق**: أكثر من **14 مليون سوري** اضطروا للنزوح منذ ٢٠١١، مع بقاء **+7.4 مليون نازح داخلي** حتى ٢٠٢٥ - دلالة على **طول الحرب وتعدد موجات العمليات** بدل "حربٍ خاطفة".
unrefugees.org

**دلالات عملياتية لصالح حجّة "لا حرب خاطفة ضد دولةٍ ناشئةٍ ذات ثقل شعبي".**

١. **القوة الجوية وحدها لا تحسم بسرعة** في بيئةٍ حضرية كثيفة ومجزّأة الجبهات؛ فحتى مع آلاف الطلعات الروسية، **تطلّب كل جيبٍ معارض أشهرًا/سنواتٍ من الحصاروالاقتحام** - ما يعني أن **قصفًا جويًا محدودًا لن يُسقط كيانًا راسخًا**.cna.orgrand.org

٢. **الحسم استلزم حضورًا بريًا كثيفًا** من ميليشياتٍ منظّمة بإسنادٍ إيراني، ومع ذلك ظلّت **جيوبٌ واسعة صامدة** (ثم مناطق بالشمال تحت حمايةٍ تركية لاحقًا)، ما يثبت أن **التعبئة الشعبية والخبرة القتالية المتراكمة** تجعل الإخضاع السريع **مستبعدًا**.CSIScrisisgroup.org

٣. **طول أمد الاستنزاف رفع الكُلفة على المتدخّلين** (خسائر بشرية رمزية لروسيا، قتلى كبار لإيران/حزب الله) دون أن يترجم ذلك إلى **نصرٍ خاطفٍ حاسم**، بل إلى **مراحل متتابعة** من التقدم والاتفاقات والانتكاسات.Wikipedia The Aviationist

٤. **المحصلة الاستراتيجية**: إذا كان منع ثورةٍ مُسلّحة من تثبيت وجودها احتاج إلى **تحالفٍ جوّي/بري متعدد الدول والميليشيات عبرسنوات**، فإن **حربًا خاطفة ضد دولةٍ ناشئة ذات التفافٍ مجتمعي وخبرةٍ قتالية** ستكون **أصعب وأطول كلفةً**، ولن تُحسَم بقصفٍ محدود أو إنزالٍ سريع، فإذا ما وضعنا بالاعتبار الفرق الشاسع الهائل بين ثورة قوامها تنظيمات مسلحة، وبين دولة لها جيش، وتدعمها التنظيمات المسلحة نفسها، فإن هذا يجعل مغامرة الحرب ضدها أصعب وأصعب، وهذا الوقت كفيل بأن يمنح الدولة الإسلامية الناشئة القدرة على التمدد والانتشار وتفعيل الخطط اللازمة لإفشال مخططات إفشالها.

**الخلاصة للحجّة المقارنة:** المشهد السوري يُبرهن عمليًا أن **التدخل الخارجي الكبيرلا يُنتِج "نزهة حرب"**؛ فحتى مع **قوة جوية روسية مستمرة**، و**قوات اقتحامٍ برية** من إيران وميليشياتٍ عراقية و"حزب الله"، ومع **مظلة استخبارية دولية**، استغرق إخضاع الجيوب المعارضة **سنواتٍ من الاستنزاف**، ولم يتحقق **حسمٌ سريع**. عليه، **أي حربٍ خاطفة ضد دولةٍ ناشئة تحظى بتماسكٍ اجتماعي وخبرةٍ قتالية** مرشحة - وفق التجربة السورية - لأن تتحوّل إلى **نزاعٍ طويلٍ عالي الكلفة وغيرمضمون النتائج**، لا إلى **قصفٍ محدود** يطيح بالمشروع خلال أيام، فلا أمريكا بوضعها الحالي، وإنهاكها في حربي أفغانستان والعراق، واستنزافها في حربي غزة وأكرانيا، ولا روسيا، خصوصا بعد إنهاكها في حرب أكرانيا، ولا الكيان الصهيوني، خصوصا بعد إنهاكه في حرب غزة بقادر على أن يخوض غمرات مثل هذه الحرب كما أثبتنا سابقا بالتحليل الدقيق وبالأرقام.

أهم المراجع المعتمدة في هذا الملخص: تقارير RAND و CNAعن الحملة الجوية الروسية؛ تحليلات International Crisis Group و CFRعن طبيعة الصراع الممتد؛ تقديرات CSIS حول حجم القوات الإيرانية والميليشيات الأجنبية؛ توثيق SOHR/SNHR للضحايا؛ وبيانات أممية حول النزوح والكارثة الإنسانية. rand.org unrefugees.org snhr.org CSIS Council on Foreign Relations crisisgroup.org cna.org

## أمثلة تطبيقية على السنن الإلهية والسنن التاريخية:

أما السنن الإلهية، فعلى سبيل المثال:

### ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾

سنة النصر في المعركة (ساحة القتال) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧ محمد]، فلها أسباب ينبغي القيام بها لاستحقاق تنزل النصر، فإن كان الاستنصار في شأن الحرب والقتال، فالأسباب تقتضي أنه حين يتوجب الجهاد يجب القتال والأخذ بعدته وأسبابه، ثم بعد الأخذ بالأسباب نستنصر الله تعالى، وندعوه، وقد رأينا أن سنة الله تعالى في النصر للمؤمنين لا تقتضي كثرة العدد والعدة، فقد أرسل الرسول ﷺ جيشا لمؤتة لا يعد شيئا أمام جيش العدو عدة وعددا، ورسول الله ﷺ خير من يأخذ بالأسباب ويعلمها على حقيقتها! ولكن الإعداد الحقيقي كان بمزج القوة المادية (حتى وإن قلت) بالعقيدة وما فيها من طاقات فكرية قادرة على سحق القوة المادية عند العدو، والإعداد المادي والمالي، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ والأخذ بأسباب أخرى ستأتي بعد قليل بإذن الله، وقد تكررت هذه السنة كثيرا في بدر ولقاء طالوت وجالوت، وغيرها، وبالثبات والصبر، وحسن اتباع رأي القيادة، والثقة بوعد الله، والتقوى، ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ فهذه بعض دعائم وأسس سنة النصر في المعارك والتي لا بد منها لتحقق النصر (لاحظ في قصة طالوت أن الله تعالى ذكر أنه أوتي بسطة في العلم، وقد تجلت تلك في مواطن: أولا: اختبار الطاعة، ورفضه اصطحاب من شرب مخالفا عن أمره، فالعبرة ليست بالكم، ثم الثقة بالله والاستنصار به تجلت في ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً **بِإِذْنِ اللّهِ** وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم **بِإِذْنِ اللّهِ**﴾ والصبر والثبات تجلى في ﴿**وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا **أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ والثبات في قوله تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ٧ محمد. ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ فهذه دعائم تستجلب السنة الإلهية بنصر المؤمنين!

قال الأستاذ بلال فتحي سليم في كتابه: النصر سببه الإعداد: "ورد في النشرة المؤرخة بتاريخ ١٩٧٠/١/١٠م بذلك في قوله: (فحصول النصر بالفعل لا يمكن أن يتأتى إلا من الإعداد، **فيكون حصول النصر سببه الإعداد**، فكان من قبيل ربط الأسباب بالمسببات، وعلى ذلك فإن طلب المسلمين حصول النصر بالفعل دون أن يقوموا بالإعداد له مخالف للشرع **ومخالف لقاعدة الأخذ بالأسباب**، ومخالف لما كان عليه الرسول.عليه السلام ...)"[٢٤٠].

فهو قد صرح بأن النصر لا يحصل بالفعل إلا من الإعداد، وصرح بأن طلب المسلمين حصول النصر بالفعل دون الإعداد له مخالف للشرع ومخالف لقاعدة الأخذ بالأسباب ومخالف لما كان عليه الرسول ﷺ. وقوله: (مخالف لقاعدة الأخذ بالأسباب) نص صريح على قصده الأسباب العقلية [والصواب الشرط اللغوي الذي ينزل

[٢٤٠] ص٩٧ ملف النشرات الفكرية

منزلة السبب، وليس السبب العقلي]، وقوله: (مخالف لما كان عليه الرسول) يؤكد قوله في موضوع آخر من النشرات الفكرية: (وما روي عنه قط أنه توسل [توصل] للنصر ولا في معركة من المعارك دون إعداد...) ص ٩٦.

دلت النصوص الشرعية القطعية على أن النصر من عند الله، وأنه هو الناصر للمؤمنين وغيرهم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ آل عمران والأنفال؛ والمشاهد المحسوس أن الإعداد سبب للنصر [والصواب: شرط للنصر]، ولا داعي للتمثيل بحروب ومعارك، لأن هذا هو الأغلب الأعم، ولكن ما بال النصر يحجب عمن أعدّ .وأظن هذا مختصاً بالمؤمنين دون غيرهم .؟!

والجواب عن ذلك الآيات التي اشترطت على المؤمنين شروطاً أخرى زائدة عن كونهم أعدّوا، قال تعالى: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾.... ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب...﴾ [الصف ١١-١٣]، فاشترطت الآية: أ .الإيمان بالله ب .الإيمان بالرسول جـ .الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.

ولما كان فريقان كافران يقتتلان وينتصر أحدهما دون وجود أي من هذه الشروط دل ذلك على أن النصر الذي يعطيه الله للمؤمنين لا بد له من شروط وهي المذكورة أعلاه وغيرها كما سيظهر في آيات أخرى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمنصور في الآيتين من اتصف بصفة الإيمان، وكذلك الرسل، واشترط الصبر أيضاً في قوله تعالى: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾.

واشترط سبحانه وتعالى نصرة الله أي نصرة المؤمنين لله حتى ينصرهم ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، ومدح الله المؤمنين بأنهم ينصرون الله ورسوله في آية أخرى، واشترط سبحانه وتعالى التوكل، وهو مفهوم من غزوة حنين ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ [التوبة/٢٥]، فالإعجاب بالكثرة ينافي التوكل. فالنصر في أول غزوة حنين حجب عن المسلمين لأنهم أعجبوا بكثرتهم، والكثرة ليست دائماً سبب النصر وهذا سيبحث في بحث الإعداد إن شاء الله.

أما غير المؤمنين فلم يشترط عليهم سبحانه وتعالى هذه الشروط حتى ينصرهم، **<u>وبقيت السنة الكونية في حقهم</u>** كما هي: أن الأكثر إعداد هو الأحق بالنصر (هي الإعداد)، وهذا هو الواقع المحسوس، أما نصر المؤمنين فإن الشرع زاد إلى الإعداد (الذي هو سبب) شروطاً اشترط وجودها حتى يوجد النصر لهم، وهي: الإيمان بالله ورسوله، والتوكل على الله، ونصرتهم لله والجهاد والصبر... والذي يوضح ذلك أكثر هو أن نصر المؤمنين يختلف عن نصر غيرهم من جهة أن إعدادهم في الغالب أقل من إعداد الكفار ومع ذلك ينتصر المؤمنون، مما يدل على أن نصر المؤمنين يختلف عن نصر الكفار، ولعله من هذا القبيل زيدت الشروط عليهم[٢٤١].

وأما إن كان النصر على صعيد إقامة الدولة وتمكين الدين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ فبالتزام الحكم الشرعي، واجتياز اختبار الابتلاءات والمحن، والصبر على حمل الدعوة،

---

[٢٤١] النصر سببه الإعداد لبلال فتحي سليم، والكلام بين الأقواس [] لمؤلف هذا الكتاب.

واقتران الإيمان بالعمل، والعمل في الجو الإيماني، فاعتماد المسلم على وعد الله وعدم قيامه بالعمل، هو عصيان لله وليس نصرا له.

قال حزب التحرير في نشرة له: "أما الجانب العقائدي، فإننا نؤمن يقيناً أن الله ناصرنا وهذا الإيمان جزء لا يتجزأ من عقيدتنا، لقوله تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ وقوله: ﴿**وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ إلا أن الجانب العقائدي ليس سوى دافع ذاتي ومعين لا ينضب لشحذ الهمم، وتقوية النفوس، فيندفع الشاب في العمل وهو موقن أن الله ناصره ومؤيده، **يعمل ضمن قوانين ويربط الأسباب بالمسببات**، غير متواكل على هذا الإيمان لأنه كما آمنا به تعالى **وجب أن نؤمن بأن له قوانين تسير الحياة. فتسير تبعاً لقوانينه، ووفقاً لما أمرنا به**.

يا شباب الحزب إن ما نعانيه أمران:

- تقوية الفكرة في نفوسكم والعمل على إيجادها في الأمة، بل وبناء الأمة على أساسها.

- تقوية الحزب.

أما الدولة فهي آتية لا محالة، طال الطريق أم قصر. **وهي ليست بهمتكم، ولا عملكم المباشر. وإن كان عملكم يسهل إيجادها**. أما عملكم المباشر فهو مقتصر على إيجاد الفكرة في الأمة وتقوية الحزب"[٢٤٢]

وسنة التدافع والقذف بالحق دائما على الباطل ليدمغه فإذا هو زاهق، فليس بين الحق والباطل إلا الصراع، وغير المسلمين صراعهم مادي بحت وسلطانهم سلطان مادي في حين أن صراع الإسلام معهم صراع فكري أداته المادة وسلطانه سلطان قائم على الفكر وهذا هو السبب في أن المسلمين كانوا دائما يكسبون الحروب ولو خسروا العديد من المعارك، وبالاستنصار بالله تعالى بعد نصره، والأخذ بالأسباب التي بينتها السنن الإلهية للتغيير من خلال سرد عمل الأنبياء في مجتمعاتهم في القرآن الكريم، ودراسة تلك السنن، وأما السنن التاريخية، فلأنه حين إقامة أي دولة، سواء الإسلامية أو غيرها فإنه لا بد أيضا من مراعاة سنن ونواميس تغيير الدول بتغيير المفاهيم والمقاييس والقناعات لدى مجموع الناس أولا، ثم أخذ أهل القوة بجانب فكرة التغيير،

### مثال: حمل الدعوة والأعمال الجزئية المتفرعة عنه الخاضعة للسنن التاريخية:

المثال الأول: لا شك أن العمل الأساس للحزب هو حمل الدعوة، فهذا حكم شرعي، وجزء لا يتجزأ من الطريقة، وباتباعه نكون قد اقتفينا أثر المصطفى ﷺ، وقد تختلف التفاصيل في نوعية الأفكار بين زمان وزمان، فبدلا من قيامه ﷺ بصراع فكري مع عبادة الأصنام، نقوم اليوم بصراع فكري مع العلمانية، ولكن ليس هنا المشكلة، فالعمل هو هو، سواء كان دعوة لترك الأصنام أم دعوة لترك عبادة البقر، فالعبرة أنه حمل دعوة، لكن الأعمال الجزئية التي نقصد هي الأعمال اللازمة لتحقيق حمل الدعوة بشكل صحيح،

" إن الدعوة هي فعل إمالة وترغيب. فأن تدعو إنساناً إلى الإسلام معناه أنك تميله إلى ما تدعوه إليه وترغبه فيه"[٢٤٣]. وعملية حمل الدعوة فيها طرفان: حامل الدعوة، والمحمول إليه، المبلِّغ الذي يحمل فكرةً مضبوطة

---

[٢٤٢] نشرة غير مؤرخة في مجموعة النشرات التكتلية

[٢٤٣] الدعوة إلى الإسلام، أحمد المحمود

ومبلورة في ذهنه يريد أن يوصلها باستعمال تعابير معينة إلى طرف ثان هو المبلَّغ إليه، ولا شك أنه يحمل أفكارا معينة، وله مستوى فكري يسمح له بهضم الأفكار ونقاشها.

وحمل الدعوة تبليغ الأفكار للأمة، بل هو إحسان التبليغ لا مجرد التبليغ، أي فهم العقليات الموجودة في المجتمع ومخاطبة كل عقلية باستعمال أو **ابتداع الأساليب والوسائل التي تناسبها** حتى تتحقق الغاية من التفاعل أي إقناع المبلَّغِ ومن ثم أن تُسلم الأمة قيادتها للكتلة[٢٤٤]

فأول فكرة نريد طرحها كجزئية من جزئيات حمل الدعوة هي الفرق بين الأفكا ر والمعلومات، لأن الأفكار تؤثر وتوصل للقناعات بينما المعلومات كثيرا ما لا تصلح للوصول لتغيير القناعات، هذه سنة!

ولنضرب المثال التالي: أحد الشباب يريد أن يبين أن حكم الإسلام عادلٌ، فقام بإعداد موضوع عن عدل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وجاء بقصص من تاريخ الخلفاء... هل تتصور أن هذا الشاب أوصل فكرته؟ الجواب: لا. إن المستمع بإمكانه أن يستدل من التاريخ بأحداث لخلفاء توضح أن الظلم والجور كان موجوداً (والأمثلة على ذلك قد عجَّت بها كتب المستشرقين)، فيهدم بذلك كل ما بناه الشاب.

إن خطأ الشاب نتج عن كونه كان يعطي معلوماتٍ عن عدل حكم الإسلام، ولم يبلغ فكرة "حكم الإسلام عادل" لأنه إن أراد ذلك حقاً فإنه ينبغي له أن يضع مقياساً لعدالة الحكم ثم يرى هل ينطبق هذا المقياس على حكم الإسلام أم لا؟

وعليه فالشاب إن لم يبلور فكرته في ذهنه، فإنه لن يستطيع تبليغها كما هي فكرةً للمبلَّغ إليه، ولكنه سيردد معلومات[٢٤٥].

فلا بد من ربط المعلومات بالواقع المحسوس أو المحسوس أثره، وإصدار الحكم عليه بناء على عقلية، لذلك فحين تضع المقياس الصحيح لعدالة الحكم فإنك والمبلَّغ إليه ستجريان الحكم بناء على عقلية تحاكم وتربط، فتؤتي العملية التبليغية أكلها، لذلك فإن هذا كله من قبيل الأخذ بالأسباب في العملية التبليغية لإنجاح حمل الدعوة، فحمل الدعوة ليس مجرد عمل آلي نقوم فيه بتجميع المعلومات وسردها!

وهناك أمور تتعلق بالمبلِّغ حامل الدعوة، وبالمبَلَّغ إليه، ننصح بمراجعتها في كتاب: (مدخل لبحث موضوع التبليغ) وهو متوفر بالبحث في الشبكة العنكبوتية.

### المثال الثالث: مسألة الدعاية والإعلان لا بد فيه من الأخذ بأسبابه من مظانها:

لحمل الدعوة أيضا علاقة وطيدة بالدعاية والترويج للأفكار، أي **تسويق الأفكار**، وهناك فن كامل حول التسويق ينبغي أن نغرف منه ونتقن آلياته ووسائله حتى نروج لبضاعتنا الفكرية على أفضل وجه!

والدعاية تهدف لإيصال منتج أو فكرة بشكل دعائي، بشكل مؤثر يدفع الناس لاتخاذ موقف، مثل شراء سلعة أو إعادة نشر فيديو أثر فيهم يوصل فكرة قوية، وما شابه. (هدفها نشر فكرة وإبرازها وتسليط الضوء عليها،

---

[٢٤٤] مدخل لبحث موضوع التبليغ، أبو علي.

[٢٤٥] مدخل لبحث موضوع التبليغ، أبو علي

ودعم حمْلةٍ بالأفكار والأساليب الإعلامية اللافتة للنظر من أجل الترويج لنشاط أو عمل أو إصدار للحزب...إلخ) فالهدف من الدعاية: نشر أفكار معينة، بغية بناء رأي عام حولها، والهدف من الإعلان: الترويج للنشاطات، الإعلان عن مؤتمر، أو عن نشاط، أو الترويج ودعوة للحضور، وما شابه، فكما ترى من جزئيات حمل الدعوة والتفاعل مع المجتمع نرى الدعاية والإعلان! وهما **فنّان عالميان** لهما أسبابهما وتقنياتهما التي **ينبغي الأخذ بها للنجاح** في إيصال حمل الدعوة وإحسان التبليغ!

فيقتضي العمل إذن التنفيذ من خلال **فريق للتخطيط الاستراتيجي**، ومهمته وضع الخطط للأفكار التي يراد الدعاية لها، أو الإعلان عنها، ووضع التصورات للأفكار حتى يكون العمل الإعلامي بناء على تخطيط استراتيجي لا بناء على ارتجال، **ومن خلال فريق للإبداع والتصميم**، لتصميم المواد التي يراد نشرها بأعلى تقنية، **وفريق للتعامل مع وسائل الاتصال الاجتماعي** Social Media دراسة وفهما، له مسئولية وضع استراتيجيات التعامل مع مواقع التواصل الاجتماعي، ووضع طرق التواصل بين تلك المواقع وبين الحزب، وإعداد مقاييس تقيس النجاح والفشل ومعدلات التواصل، ودراسة الأفكار الجديدة في الترويج والنشر، ودراسة المواقع التي ينبغي تقصدها للحدث، فأحداث سوريا على سبيل المثال تستدعي معرفة بالمواقع التي يتقصدها أهلها، وهكذا، ومن ثم **فريق النشر**: Placement Product مسئوليته نشر المواد التي يصممها فريق الإبداع، و**فريق التواصل مع الإعلام** والمواقع الإعلامية، والإعلاميين، والخطباء... الخ ومتابعة الاتصال الحي، وهكذا نأخذ بأسباب صناعة المادة وترويجها وإيصالها بحرفية!

هذا، وينبغي القول بأن الحزب يقوم بأعمال الدعاية والإعلان السابق ذكرها على قدم وساق، ويكفي متابعة مواقعه الرسمية والإعلامية لإدراك حجم الجهود التي تبذل لتوصيل الدعوة.

## تقنيات الدعاية والإعلام، سبعة أمثلة:

وهناك تقنيات للدعاية والإعلام ينبغي الإلمام بها، مثالها:

أولا: **تقنية الحقائق والأرقام**، إذ تؤدي مسألة الحقائق والأرقام دورا مهما في أساس المادة الدعائية، فمثلا: حين تنشر تقريرا يقول إن أمريكا تطلب ميزانية ٥٠٠ مليار دولار من هيئاتها التشريعية لمحاربة تنظيم داعش، وداعش عبارة عن ٢٠ ألف مقاتل، مما يعني تخصيص ٢٥ مليون دولار لكل داعشي، وحين تقول أمريكا على لسان وزير الخارجية السعودي بأنها تتوقع حربا تمتد عشر سنوات، فإن هذا كله يعني أنها غير جادة في حرب داعش جديتها في حرب طويلة على الإسلام السياسي وعلى المنطقة مخافة خروجها من يدها!

ومن الحقائق التي قد نتطرق لها مثلا: (حقائق عن الخلافة، الخلفاء، تطبيق الشريعة، أسباب وجوب تطبيق الشريعة،...) فهذه حقائق ينبغي صياغتها والترويج لها بشكل مثمر، مثلا: لو جئنا لنقدم إعلاما عن الخلافة فقد نقدم كتيب الخلافة، ولكن حين نقوم بالدعاية لفكرة أن الخلافة حقيقة شرعية، نقدم مادة مصورة مثل "ملصق" عليه قال القرطبي: "هذه الآية أصلٌ في نَصْب إمامٍ وخليفة يُسْمَع له ويطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. **ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة** إلا ما رُوي عن الأصَمّ حيث كان عن الشريعة أصَمَّ، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه".

ثم نسأل: هل تختار أن تكون عن الشريعة أصما فتخرج عن إجماع الأمة والأئمة؟

أو مثلا: نختار في "ملصق" عن حرمة الاستعانة بالكفار، فنأتي بآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ **كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً** وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ونأتي بحقائق عن العنكبوت: الذكر يقدم للأنثى فريسة حين يقربها كي لا تقتله، والأنثى تبقي على صغارها فترة قصيرة فإن طالت قتلتهم، فأي بيت هذا الذي تفترس فيه الأم زوجها وأولادها؟ هذا مَثَلُ من يستعين بأمريكا بدلا من أن يستعين بالله، فإن أمريكا لن تتصرف إلا كأنثى العنكبوت: ستفترسه ولن تلتقي معه في مصالح مشتركة، فهل تختار أن تتخذ الله وليا أم أن تتخذ أمريكا معينا، أنثى عنكبوت؟

ثانيا: **تقنية الدعاية المضادة للأفكار** بشكل مركز وبقالب دعائي، في ضمن قسم المفاهيم والأفكار، (ربط فكرة الخلافة بفكرة تطبيق الشريعة، فإن أغلب الناس لا تتصور تعارضا مع فكرة تطبيق الشريعة، لكنهم لا يفهمون أن الخلافة هي هي تطبيق الشريعة، فإن كسرت هذا الحاجز انضموا لك) ومثلا: أمريكا تروج للديمقراطية على أنها صناديق اقتراع، ثم حين ثار الجيش على مرسي في مصر، نُبرز قول الرئيس الأمريكي أوباما وقول أحد ساسة أمريكا الكبار بأن الديمقراطية ليست فقط صناديق اقتراع، نأتي بفيديو فيه القول ونقيضه، ثم نأتي بصورة المالكي، وصورة كرزاي وهكذا، ونقول: هذا وصل عبر صناديق اقتراع، وهذا... ثم نسأل هل غيرت الديمقراطية واقع المسلمين أم زادتهم تبعية لأمريكا؟ وهكذا ننسف فكرة الديمقراطية وفكرة أنها صناديق اقتراع، أو نقول: إن مثل أمريكا كمثل من عبد صنما من التمر ثم لما جاع أكله!

ثالثا: **تقنية الأسباب والمسببات** (أسباب تأخر الأمة، أثر هذا التأخر على واقع الأمة،...الخ)، هذه الحقائق تربط بواقع الأمة لتفهم الربط بين المشكلة وبين الحل فتنقاد للحل!

رابعا: **تقنية اعرف عدوك** (الرأسمالية على السفود، العلمانية، الليبرالية...) فإن كثيرا من الأفكار إن بلورت سهل هدمها في نفوس الناس، ولكن معرفتهم بحقائقها الدقيقة ضعيف لذا لا يتصورون خطرها!

خامسا: **تقنية إبراز مشاكل ومصائب الأمة** الناتجة عن غياب الإسلام، مثل فقراء الأمة وأطفالها (من لهم، مآسي العالم الإسلامي، وكيف يكون الحل العملي من خلال الإسلام)

سادسا: **تقنية الاستعانة بأقوال عن الخلافة**، أقوال عن اللغة العربية، أقوال عن الحضارة... الخ، فالناس عادة تصغي لأقوال الفلاسفة، والمفكرين، والإعلاميين، والعلماء، وأمثالهم.

سابعا: **تقنية كيف تقدم الخلافة الحلول لمشاكل الناس بشكل عملي**.

فهذه سبعة أمثلة على تقنيات الترويج والدعاية أخذناها من مواقع عالمية تعنى بتقنيات الدعاية وأسقطناها على واقع العمل الذي نقوم به!

## من تقنيات إيجاد الرأي العام: الدندنة، أمثلة عليها:

من تقنيات إيجاد الرأي العام تقنية الاستفتاءات، وهي تقنية مهمة، ولكننا سنعرض تقنية أخرى وهي تقنية الدندنة أو "الوكزات"، لنستعرضها:

الفكرة العامة هي الوصول لل "وكزات" التي تستطيع إحداث التغيير في مسألة معينة يراد الدعاية لها.

مثلا:

## محمد علي كلاي وجورج فورمان في زائير

في العام ١٩٧١ خسر الملاكم محمد علي لقب بطل العالم للوزن الثقيل في الملاكمة لصالح جو فريزر، في لقاء سماه الكثيرون: لقاء القرن، استمر خمس عشرة جولة، وفي العام ١٩٧٣ التقى محمد علي بملاكم اسمه كين نورتون، فقام كين بكسر حنك محمد علي في الجولة الثانية عشرة، ثم التقى جورج فورمان بجو فريزر -الرجل الذي انتزع اللقب من محمد علي- قام آلة الملاكمة المتحركة الضخمة جورج فورمان بطرح جو فريزر ست مرات قبل أن يوقفه الحكم عن استمرار اللقاء خشية على حياة جو فريزر، كان هذا في الجولة الثانية، ثم التقى جورج فورمان بالرجل الذي كسر حنك محمد علي، وقام جورج بطرحه أرضا ثلاث مرات قبل أن يتدخل الحكم لوقف المباراة في الجولة الثانية أيضا!

وحين تم الإعلان عن اللقاء التاريخي بين محمد علي وجورج فورمان في زائير بأفريقيا، وقف العالم كله على ساق واحدة يترقب المصير الذي ينتظر محمد علي، توقع الغالبية أن يُمنى محمد علي بهزيمة ساحقة، لكن الحال في غرفة غيار الملابس التي ينزل فيها محمد علي كان على حال آخر، كان الوجوم يسود الغرفة، فالطاقم المرافق له كان يخشى على حياة محمد علي نفسه!

لا شك أن خصمه ذو بأس شديد! في الجولة الأولى، تبادل عليّ وجورج اللكمات، لكن لم يمض وقت طويل في الجولة الأولى، حتى مضى فورمان بتسديد اللكمات القاسية في كل موضع من جسم علي، بتلك الضربات الموجعة، فما كان من عليّ إلا أن دافع عن نفسه باتقاء تلك اللكمات، وبعد ثلاث دقائق دقت ساعة انتهاء الجولة الأولى!

عاد عليّ لزاويته، لكنه لم يجلس، بل لقد أخذ ينظر إلى خصمه نظرات مسدّدة، لقد كان موضع الضربات القوية التي سحقت فريزر ونورتون من قَبلُ في جسد علي شديد الألم، لكنه أخذ يرمق خصمه، لقد غير تقنيات القتال التي بدأ بها، وأعد خطة!

مع بداية الجولة الثانية، اتكأ محمد علي على الحبال، وترك خصمه يسدد له الضربات، وتركه يفعل ذلك جولة إثر جولة، لكن الناس لاحظوا أن محمد علي يفعل شيئا آخر إلى جانب تلقي تلك الضربات من تلك اليد الأسطورة! كان علي يهمس في أذن خصمه! كان يقاتل خصمه بالهمس بدلا من رد الضربات بمثلها،

لقد كان يسأله سؤالا واحدا طوال الجولات كلها: لماذا تسدد ضرباتك بيدك اليمنى فقط؟ لا شك أنك ضعيف اليد اليسرى! هل هذا هو كل ما تستطيعه؟ ظننتك تستطيع الضرب بشكل أقوى!

بعد جولات من الهمس، وبلا شعور، قام فورمان بتغيير يده التي يضرب بها، وبدأ يضرب علياً بيده اليسرى! وأخذه الإعياء من كثرة جهوده لتسديد ضربات أقوى.

لقد كان الشق الأيسر من جسم عليّ قد بدأ بالخدران نتيجة الضربات الشديدة من يمنى فورمان القوية، فاستغل عليّ الوقت الذي أخذ فيه فورمان يضرب باليسار شقه الأيمن ليسترد عافية جزئه الأيسر، وكان فورمان يشعر بالتعب من شدة ما ضرب عليا، وفي الجولة الثامنة، استغل محمد عليّ فرصة سانحة فقذف بالأسطورة جورج فورمان إلى الأرض، لم يهزم محمد علي خصمه بضرباته، بل هزمه بعقله، لقد هزمه بتقنية الهمس!

تلك الهمسات أقنعت فورمان بأن يغير تقنيته، فهذا التغيير الصغير أعاد للبطل محمد علي لقبه الذي كان قد خسره!

ثم بدأ العالم يستعمل تقنية الهمس والدندنة ليغير وجهات النظر، ويستغل قدرة الهمس على إحداث التغيير!

هذه التقنية نسميها: الوكزات، فقد استطاع محمد علي أن يضع يده على الوكزة التي من خلالها يستطيع تدمير خصمه،

فالوكزة التي استعملها عليّ هي تكرار **الهمس بنفس الفكرة**، أو كما قال عليه صلاة الله وسلامه: «ندندن حول لا إله إلا الله»، فكثرة الدندنة حول الفكرة تزرعها في الأذهان.

**إذن فتقنية الدعاية عبر الدندنة توصل للتأثير على السلوك ودفع الإنسان للقيام بعمل ما أو حمل فكرة ما.**

لذلك تجد الارتباط الوثيق بين فكرة الخلافة وبين حزب التحرير، فالحزب من كثرة ما دندن حول الفكرة، استطاع بحمد الله تعالى أن يجعلها رأيا عاما في الأمة، قامت بعض دراسات استقراء الرأي العام من مؤسسات عالية المهنية بقياسه بـ٧٩% من مشرق الأمة لمغربها، واستطاع أن يعيد للكلمة بريقها في أذهان الأمة، والفضل لله تعالى وللمخلصين من حملة الدعوة إلى تطبيق الشريعة أيضا!

وعلى الشباب أن ينتبهوا لأهمية الدندنة في صناعة الرأي العام وفي الدعاية للأفكار!

**المثال الثاني**: الحكومة البريطانية طلبت من الناس القيام بعزل "العِلّيَّة" في منازلهم لتوفير الطاقة، فهي مصدر تسريب حراري وتسبب للناس برودة في بيوتهم وبالتالي يتطلب منهم تدفئة البيوت باستهلاك طاقة أكبر، فترتفع فاتورة الطاقة لديهم شهريا، وقدمت بريطانيا الأسباب والأرقام والحقائق للناس ولم يبادر إلا قلة قليلة لعزل العليات حراريا،

درست بريطانيا السبب في تعنت الناس؟ فوجدت أن الحائل بينهم وبين قبول الفكرة هو مسألة أنهم لا يريدون تنظيف هذه العليات، فقامت بالتعاقد مع شركة لتوفير خدمة تنظيف العليات وعزلها، فكان الإقبال كبيرا،

إذن فقد وجدت بريطانيا: الوكزة التي دفعت الناس لاعتناق فكرة والعمل بمقتضاها، **رغم أن هذه الفكرة كانت بحد ذاتها تمتلك أسباب نجاحها**، لكن المعوقات منعت من التلبس بالعمل بها،

**بالمثل علينا في الحزب أن نقوم بدراسة الأسباب التي تحول بين بعض الناس وبين استقبال فكرة الخلافة مثلا، ومن ثم تصميم الدعاية بشكل يركز على حل هذه الإشكاليات تركيزنا على الفكرة نفسها،**

**المثال الثالث**: "سوبرماركت" يريد زيادة مبيعات قسم الخضروات، قام بوضع رسالة على عربة المشتريات يطلب فيها من الزبائن التلطف بترتيب العربة بحيث توضع الخضروات على جهة وباقي المشتريات على جهة ثانية، فحين يرى المستهلك أنه لا يركز في مشترياته على الخضروات لقلتها في العربة، فإنه سيستدعي مفاهيم الأعماق عن الصحة وفوائد الخضروات، وسيقوم بشراء الكثير منها، الفكرة نجحت فزادت مشتريات الناس من الخضروات،

فكانت الوكزة الناجحة لدفع الناس لسلوك معين هي فصل المشتريات على جهتين، مما يجعل المشتري يبصر بعينه قلة الخضروات التي يشتريها!

بالمثل نستطيع الاستفادة دعائيا من هذه الفكرة، فمثلا نقول: كل يوم تبيع الأمة الإسلامية ثلاثين مليون برميل من النفط بسعر كان ينبغي أن يكون مائة دولار للبرميل، مما يعني ثلاثة مليارات دولار يوميا، فلو كانت هذه المليارات الثلاث بيد مخلصة فإنها تستطيع إنشاء مصنع ضخم يوظف عشرة آلاف عامل كل يوم، ويستطيع أن يطعم ستين مليون شخص كل يوم، ويستطيع أن يبني ثلاثمائة ألف بيت يوميا ويهبها للناس،... الخ، ولكن بدلا من أن تستفيد الأمة من خيراتها، فإن حكامها يضعون هذه الأموال في يد أمريكا لتقيم اقتصادها، وهناك كذا تريليون دولار من أموال الخليج في الاقتصاد الأمريكي... الخ، ثم نقول: إلى متى تصمت الأمة على تبديد سفهائها لأموالها؟ إلى متى ينعم العدو بأموالنا وفي الأمة كذا مليون فقير... الخ ألم يئن الأوان لتعمل الأمة لوضع الأمانة بيد مخلصة؟

أفكار كثيرة يستطيع حملة الدعوة إبداعها لتصل رسائل مهمة للأمة حول قضايا مختلفة.

**المثال الرابع:**

تقوم الأحزاب السياسية بالدعاية الانتخابية، وقد جربت تلك الأحزاب فكرة أن تعمل على الفئة من المجتمع التي يسمونها: تلك التي لم تحسم قرارها، هل تصوت لهذا الحزب أو لذلك؟

ثم إنهم عدلوا عن بذل الجهود مع هذه الفئة وركزوا على تحريك قواعدهم الانتخابية، فالحزب يعلم مثلا أن هناك مليون ناخب عادة يصوت لهم في مدينة كذا، فأرادوا تحريك هؤلاء المليون وقسموهم لأربع أقسام كل قسم ٢٥% من المليون،

ورأوا دراسة أربع وسائل لإيصال الرسالة التي تحض الناخب على التصويت لهم، فكانت الوسيلة الأولى توكيل فريق يتصل بالهاتف بأرقام هواتف الناس لحضهم على الخروج للانتخاب وحضهم على التصويت للحزب، والوسيلة الثانية تمثلت في إرسال بطاقة بريدية لعنوان الشخص عليها رسالة سريعة قوية تقول له: نشكرك على التصويت لنا في الانتخابات الماضية، ونأمل أن نرسل لك رسالة مماثلة بعد أربع سنوات لشكرك على التصويت لنا في هذه الانتخابات، والوسيلة الثالثة: الطرق على أبواب الناس من خلال متطوعين للحملات الانتخابية والحديث مع الناس، والوسيلة الرابعة: لم يتصل بهم الحزب.

كل قسم من هؤلاء عبارة عن ٢٥% من القاعدة الانتخابية لهذا الحزب.

بعد دراسة المصوتين رأوا أن وسيلة الاتصال بالهاتف لم تأت بنتيجة ذات بال، وأن البطاقة البريدية والاتصال المباشر الحي أتيا بنتائج باهرة.

وفي منطقة ثانية استعملوا وسيلة إرسال رسالة عار عليك! فقد أحصوا أولئك الذين لم يصوتوا في الانتخابات الماضية، وأرسلوا لهم بأن جارك قام بالتصويت أو نسبة كذا في حيك قامت بالتصويت فاخجل من نفسك بأن لا تشارك في الحياة السياسية، هذه الرسالة زادت نسبة التصويت ٢٠ بالمائة.

الشاهد من هذا المثال، هو أن هناك وسائل في تغيير الرأي العام قد تفرغ فيها جهود كثيرة ولا تفضي لنتيجة، وهناك وسائل أخرى تأتي بالنتيجة، لذلك حملات مثل حملة ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾ تمثلت في مخاطبة الناس

مباشرة في أسواقهم وبيوتهم حملة ممتازة لتغيير الرأي العام، ومسألة إرسال رسائل للصحفيين على سبيل المثال بشكل دوري فيها تحليلات أو فيها رأي، أو فيها دعم لجرأة الصحفي في الكشف عن حقيقة، كل هذا يقرب هذا الصحفي منا أو يؤثر في أفكاره فتجد صدى أفكارنا في كلامه، **وهكذا يجب أن نبحث عن الوكزة التي توصل لإحداث التغيير**، وأن **نمتلك وسيلة لقياس النجاح والفشل**، فمثلا عندنا لنقل مائة موقع لحزب التحرير على الشبكة، لا بد من دراسة تفاعل الناس مع هذه المواقع، وكيفية الدعاية لها، حتى يغشاها الناس، فلا تكون كجهد من اتصلوا بالناس بالهاتف ولم يحصل أي تغيير في قناعات الناس، لا بد من البحث عن وسيلة الدعاية للمواقع ليغشاها الناس.

**المثال الخامس**: في الهند في فترة الركود الاقتصادي ركدت حركة استئجار غرف الفنادق الفخمة، وكسد سوقها، فقام أحد تلك الفنادق بالدعاية لنفسه بأن ساعات استقبال الزبائن للغرف ليس الثالثة عصرا، بل من الحادية عشرة صباحا، ويمكنك الخروج من الغرفة ليس في الحادية عشرة من اليوم التالي، بل من الثانية عصرا، ودعاية بأنه سيستقبلك في المطار ويوصلك للفندق بسيارة فاخرة مجانا... الخ فهذه الوكزة زادت حركة الزبائن بشكل كبير،

الشاهد من هذه التقنية أننا حين نروج لفكرة الخلافة مثلا، فأحيانا نحتاج لذكر أدلتها ومشروعيتها، وأحيانا أخرى قد لا نعمد إلى ذكر أدلتها، ومشروعيتها في مقدمة الحملة الدعائية، بل نركز على قدرتها على حل مشاكل الناس، ولكن حتى لا يختلط على الناس أن الخلافة تطلب لحل مشاكلهم بمعزل عن فرضيتها، نخلط في نهاية الحملة بين هذا وهذا، فنقول: إذن فالخلافة هي التي ستقضي على مشكلة الفقر، كيف لا وهي فرض رب العالمين وعلينا أن نقيم الفرض لأنه سيعزنا في الدنيا والأخرة ولأن! ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى﴾

**المثال السادس**: في كاليفورنيا كانوا يريدون توجيه رسالة لمستهلكي الطاقة حتى يخففوا استهلاكهم، فأرسلوا لهم فاتورة تحوي أرقام استهلاكهم مقارنة بالمتوسط، ليرى الناس أن استهلاكهم للطاقة عالٍ فيحدوا منه، ولكن النتيجة أن الذين يستهلكون أكثر من المعدل خفضوا استهلاكهم، والذين يستهلكون أقل من المعدل زادوا استهلاكهم، فغيرت الحكومة استراتيجيتها، بأن أرسلت الأرقام ومعها صورة وجه تعبيري فمن كان استهلاكه أكثر من المعدل كان الوجه عابسا والآخر ضاحكا وقد نجحت الوكزة.

الشاهد من هذه التقنية، أن نخاطب الناس على قدر عقولها، **وننتقي من الرسائل ما يؤدي النتيجة**، فمثلا يمكن أن نقرن بين كلمة خلافة وبين كلمة تطبيق شرع الله، حتى يزول من ذهن من يستهين بفكرة الخلافة ويظنها مسألة فرعية في الدين هذه الغشاوة، ويفهم أن تطبيق شرع الله أمر مهم ومحوري.

**المثال الأخير**: **الاستهزاء بالمبادئ الأخرى**: قامت شركة "أبل" بمجموعة دعايات تأتي برجلين أحدهما شاب رشيق القوام، يمثل كمبيوتر "الأبل" والآخر ممتلئ، يمثل كمبيوتر "البي سي" العادي، أي الكمبيوتر الذي أساسه "الوندوز"، وفي كل دعاية من الدعايات ال٦٦ يكز الشاب الرشيق خصمه بوكزة تظهر عيبا في المنتج الذي يمثله، ارتفع سهم "الأبل" نتيجة لذلك ١٤٠ بالمائة وبالكاد تحرك سهم "الميكروسوفت"،

الشاهد من هذا، أن الترويج لفظائع الرأسمالية بالأرقام، واستعمالها لأسلحة الدمار الشامل مثلا، أو تركز الثروات بيد قلتها... الخ والقيام بمجموعة متتالية من الدعايات المضادة للعلمانية أو الرأسمالية عبر حلقات كل منها دقيقتين، يوصل لنتيجة إن شاء الله.

كذلك هنا يمكن الوصول لبعض التقنيات الأخرى.

## التحولات الفكرية في العالم الإسلامي وتأثيرها على الاستراتيجيات الأمريكية:

شهدت العقود الأخيرة تحوُّلاً جوهرياً في التوجهات الفكرية والرأي العام داخل العالم الإسلامي، حيث بدأت الأمة الإسلامية تدريجيًا بالابتعاد عن الأفكار التي كانت سائدة في الماضي مثل الناصرية، والبعثية، والقومية، والوطنية، والاشتراكية. بدلاً من ذلك، تزايدت الدعوات لتطبيق الشريعة الإسلامية وتحقيق وحدة الأمة. هذا التحول الفكري لفت أنظار الولايات المتحدة الأمريكية، ودفعها لإعادة النظر في استراتيجياتها لمواجهة الإسلام السياسي. إذن: لنا أن نستشهد على أثر دعوة حزب التحرير في الأمة، ونجاحها في تحويل الرأي العام، وغرس فكرة تطبيق الشريعة الإسلامية في وسط ركام أفكار كثيرة كانت سائدة ومتمكنة جداً كالقومية مثلا، لدرجة أن تحول الولايات المتحدة استراتيجيتها تجاه العالم الإسلامي، حيث تطورت المواجهة بين أمريكا والإسلام بصورة متسارعة جداً أفضت إلى توثيق صموئيل هنتنغتون لاحقاً للآتي: "خلال الفترة بين ١٩٨٠-١٩٩٥ نفذت الولايات المتحدة ١٧ عملية عسكرية في الشرق الأوسط، طبقاً لوزارة الدفاع الأمريكية، وكانت جميعها تستهدف المسلمين، وهو رقم لم يسجله التاريخ العسكري للولايات المتحدة ضد أي شعب من أي حضارة أخرى."! لاحظ أن هذه الهجمة الشرسة سبقت انتهاء الحرب الباردة، كي لا يُظن أن سبب التحول في الاستراتيجية الأمريكية هو فقط أنها تبحث عن عدو بعد سقوط الاتحاد السوفياتي.

لم تكن العبارات مثل "الاستراتيجية الأمريكية لضرب الإسلام" أو "الحرب العالمية على الإرهاب" شائعة أو تحظى بالصدارة لدى الإعلاميين والمراقبين السياسيين الأمريكان فترة الحرب الباردة، وكان العمل الدائب على تفكيك الاتحاد السوفييتي وإسقاط الاشتراكية. ولكن هذا لا يعني أن محاربة الإسلام لم تكن من اهتمامات أمريكا قبل ذلك؛ بل كانت محاربة الإسلام ضمن أهم أهدافها، كما كان الحال لدى الدول الأوروبية وروسيا. إلا إن محاربة الإسلام لم تكن استراتيجية ذات أولوية لأمريكا بسبب تراجع الفكر الإسلامي وتبني المسلمين للأفكار الغربية، ومفرزاتها السابق ذكرها.

هذا التبني لأفكار لا تتعلق بالإسلام السياسي، جعل الأمريكان والغربيين يطمئنون إلى عدم وجود أفكار في العالم الإسلامي عن الإسلام كنظام حياة ودولة، ولا كنظام يقيم علاقات المجتمع وفق الشريعة الإسلامية، بل كان

الرأي العام الكاسح يرى أن الغرب هو النموذج الذي يجب الاحتذاء به، فكانت الدول الغربية المهيمنة على بلاد المسلمين مطمئنة إلى انتصارها العسكري والمادي، وإلى نجاح غزوها الفكري والثقافي. كانت تلك الدول تعتقد بأن الإسلام في أفول ولا يشكل تهديدًا حقيقيًا. لذلك كانت الاستراتيجيات العامة للدول الكبرى تتمحور حول الصراع الحضاري والفكري بين الرأسمالية والاشتراكية، والهيمنة السياسية والصراع على المصالح والنفوذ. لم يكن للإسلام أو الأمة الإسلامية وجود سياسي مؤثر على هذه القضايا، مما جعل الدول الكبرى لا ترى حاجة لوضع استراتيجية محددة لمواجهته، لكن التحولات في الفكر الإسلامي بدأت توجه أبصار الأمة الإسلامية إلى تطبيق الشريعة، وبدأ الإسلام السياسي بالسطوع مستغلا قدرات العقيدة الإسلامية على التأثير في النفوس، وتوزعت الصحوة الإسلامية مشارب مختلفة في تفاعلها مع المجتمعات، من مشرب الإخوان المسلمين القائم على التربية الروحية والعناية بالأخلاق وحفظ القرآن، وتعزيز الروح الجماعية، والأعمال الخيرية، والخدمات الاجتماعية كالمستشفيات والمدارس، والمشاركة في الحياة السياسية من خلال البرلمانات والتحالف مع القوى السياسية والأحزاب، وإنشاء مشاريع اقتصادية كالبنوك الإسلامية التي تتعامل تحت مظلة البنوك المركزية والنظام الاقتصادي الرأسمالي العام في البلاد، ومن الملاحظ أن تلميحات الحركة إلى مسألة تطبيق الشريعة الإسلامية من خلال إقامة الدولة الإسلامية كانت على شاكلة أفكار متناثرة هنا أو هناك، لم توضع لها الخطط العملية التي تكفل انتقالها إلى تيار يعمل على التغيير، منذ لحظة التأسيس على يد الإمام حسن البنّا ظلّت غاية الإخوان المسلمين المعلنة إقامة "حكومة إسلامية" تطبّق الشريعة وتنتهي إلى "الخلافة الجامعة"، فالإسلام عندهم "نظام شامل" لا يستثني السياسة والحكم. لكن مسارهم التاريخي يكشف أنّ هذا الشعار لم يجاوز حدود الخطاب النظري، ولم يتم طرح أي إطار تطبيقي عملي تفصيلي لتطبيق الشريعة في دولة. في مصر، من خطاب سيد قطب الذي جعل الحاكمية لله وفصَل المجتمع إلى إيمان وجاهلية، إلى موقف المرشد الهضيبي في *دعاة لا قضاة* الذي رفض التكفير وأكد أن دور الإخوان "دعوة لا قضاء"، رسخت الجماعة على النهج التدريجي الإصلاحي. وفي عهد السادات كان الإنجاز تعديلًا دستوريًا رمزياً لا قوانين تفصيلية، ثم مع مبارك صار الشعار "الإسلام هو الحل" يُترجم إلى دولة "مدنية بمرجعية إسلامية" بلا برامج بديلة للاقتصاد أو القضاء. أما تجربة الحكم (٢٠١١–٢٠١٣) فقد أوضحت الفجوة: لا إلغاء للفوائد البنكية، لا قيود على السياحة والشواطئ، لا تعديل للنظام القضائي، إنما تطمينات مستمرة للداخل والخارج بأن النظام المدني سيبقى على حاله، وأبقى الدستور ٢٠١٢ على النظام المدني، مكتفيا -كما درجت عليه دساتير البلاد الأخرى في العالم الإسلامي- على جعل مبادئ الشريعة "المصدر الرئيس للتشريع" دونما أي تجسيد عملي لهذا في التشريع والقوانين، ولا تغير النظام القضائي، ولا الاقتصادي، ولا غيره من أنظمة الحياة والمجتمع، مع تأجيل التفكير في تطبيق الشريعة لعقود طويلة قادمة.

وفي تونس تكرّر المشهد حين تخلّت النهضة عن مطلب "الشريعة" في الدستور لتجعل "مدنية الدولة" أصلًا فوق دستوري، ثم أعلنت رسميًا فصل الدعوي عن السياسي. أما في سوريا، فبعد أن رفع السباعي شعار "إقامة الدولة الإسلامية"، وناضل الإخوان ضد نظام الأسد ما بين ١٩٧٣-١٩٨٢ لأجل إقامة الدولة الإسلامية، وانتهت هذه الحقبة بمجزرة حماة المروعة، وانتهت الجماعة في منفاها وثورتها إلى "دولة مدنية ديمقراطية" والإسلام فيها

"إلهام حضاري" كما أعلن رياض الشقفة مراقب الجماعة العام في سوريا، ٢٠١٢. وفي الأردن، كان الإخوان أوفى للبراغماتية: شعارات عن "مرجعية الشريعة"، لكن في الواقع اندماج في النظام الملكي، برامج إصلاحية عامة، ودعوة لتعزيز المصارف الإسلامية مع بقاء النظام الربوي على حاله.

تتّضح الصورة: حيثما اقترب الإخوان وتياراتهم من الحكم، تراجع شعار "تطبيق الشريعة" إلى مجرّد هوية ثقافية أو إطار قيمي، وحلّ محله خطاب "الدولة المدنية بمرجعية إسلامية"؛ لا برامج تفصيلية، لا تقنين للأحكام، بل تسويات وتطمينات. هذه الفجوة بين المقصد النظري والممارسة العملية هي جوهر تجربة الإسلام السياسي الإخواني: من مشروع تغيير جذري إلى حركة إصلاحية محافظة ترضى بمدنية الدولة مع مسحة إسلامية عامة لا أكثر.

إلى مشرب آخر مشابه في باكستان، بدأه أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند (ثم في باكستان)، الذي دعا إلى إقامة دولة إسلامية تطبق الشريعة وتعتمد على نظام سياسي إسلامي، وكانت فكرة تطبيق الشريعة مختمرة لديه منذ كتابة كتابه "نظام الحياة في الإسلام" (١٩٤١)، إلا إن المودودي رحمه الله كان يدعو لتطبيق الشريعة من خلال البرلمان باستخدام الوسائل الديمقراطية، فشارك في العملية السياسية في الباكستان من خلال الانتخابات والبرلمان، وركزت الحركة من بعده على العمل السياسي والائتلافات السياسية مع قوى أخرى، ثم انحنت لعاصفة الحرب على الإرهاب، فخففت من استراتيجياتها لتصبح "معتدلة" -بحسب الموازين التي وضعتها أمريكا للحركات- متكيفة مع الوضع الدولي والمحلي، والنشاطات الخيرية والاجتماعية، وانقسمت فكريا، واتجهت نحو التعليم والتربية، وضمر تأثيرها في المجتمع نتيجة لهذا التوجه الذي يعمل من خلال النظام القائم.

إلا إن فكر الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى كان واضحا تجاه قضية تطبيق الشريعة وإقامة الدولة، والمفاصلة مع الجاهلية وأنظمتها، ومن كتاباته في معالم في الطريق: "إن إقامة النظام الإسلامي وتطبيق الشريعة الإسلامية هو واجب كل مسلم. الشريعة هي التي يجب أن تحكم في كل جوانب الحياة، وهي الحل لكل مشاكل الأمة"، لكن قيادات الإخوان المعاصرة واللاحقة له مثل الهضيبي وعمر التلمساني وغيرهم حافظوا على زخم العمل الاجتماعي الخيري التربوي للحركة، خصوصا بعد تجربة مريرة في سجون عبد الناصر، وتجربة متكررة من الملاحقات والصدام والأخذ والرد مع الأنظمة المتعاقبة، حسب الظروف السياسية والضغوط الأمنية، حتى إذا ما آن أوان استلام الجماعة للحكم في مصر وفي تونس بعد الربيع العربي، تبين أنها لم تكن قد أعدت للأمر عدته، وانتهجت النهج العلماني وحافظت على النظام العلماني القائم في تلك البلاد تحت مسمى: الدولة المدنية "بمرجعية" إسلامية، لم تتمثل في واقع الحكم والسياسة والتشريعات التي تحكم أنظمة الحكم بأي صورة.

وأما مشرب حزب التحرير فقد أشعل جذوة ربط تطبيق الشريعة الإسلامية بدولة الخلافة، وجعلها قضية المسلمين المصيرية، وأصر على التغيير الجذري الانقلابي الشامل لإيصال الإسلام إلى التطبيق الشامل في حياة المسلمين ليستأنف المسلمون الحياة الإسلامية عبر إقامة دولة الخلافة الراشدة الثانية على منهاج النبوة، وقدم الحزب للأمة مشروعه وطريقته في التغيير، وقدم للأمة مشروع أنظمة الحياة والمجتمع التي يطمح لإقامتها.

هذا التغير منذ ستينيات إلى سبعينيات القرن الماضي، أبرز مشروع الإسلام السياسي، والصحوة الإسلامية، وبدأت فكرة الخلافة والدولة الإسلامية، وسيادة الشرع، وتطبيق الإسلام في الأنظمة والعلاقات العامة والدولية تنتشر في الأمة.

ولما كان اعتماد حزب التحرير منصبا على التغيير الفكري السياسي، دون الأعمال المادية، فإن تيارا آخر من الأمة نهض متعجلا الطريق، ناهجا النهج المادي العسكري الجهادي، مثل تنظيمات الجهاد، والتكفير والهجرة في مصر، ومثل السلفية الجهادية وتنظيم القاعدة، وكلها كانت تطمح لإقامة الدولة الإسلامية جنبا إلى جنب مع الصدام المسلح مع الغرب، لكن هذه الحركات سرعان ما نفد مخزونها نتيجة هشاشة بنيانها الحزبي، وسهولة اختراقها، أو نتيجة الصدام المباشر مع الأنظمة كالنظام المصري الأمر الذي أضعفها فأوصلها لمرحلة المراجعات والتراجعات والضمور.

وقد أدى هذا التحول الفكري في العالم الإسلامي إلى انزعاج الدول الكبرى، والتي بدأت تروج لفكرة "الإرهاب" وربطته بالإسلام، وبالأخص بالأفكار السياسية الإسلامية.

بدأت تتبلور فكرة إحياء الفكر السياسي الإسلامي وعودة الأمة الإسلامية كأمة موحدة لدى كثير من الحركات الإسلامية ومفكريها. هذا التوجه الجديد حظي بتأييد متزايد من الجمهور الإسلامي، مما أدى إلى رد فعل قوي من الدول الكبرى المهيمنة على بلاد المسلمين، والتي شعرت بالحاجة إلى وضع استراتيجيات جديدة لمواجهة هذا التوجه.

**شواهد وتصريحات من صناع القرار ومراكز الفكر الأمريكي**

في هذا السياق، قامت مراكز الفكر الأمريكية وصناع القرار بوضع استراتيجيات لمواجهة صعود الإسلام السياسي. فيما يلي بعض الأمثلة والتصريحات التي تعكس هذا التوجه:

١. **هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأمريكي الأسبق**[٢٤٦]: صرح قائلاً: "إن أخطر ما نواجهه اليوم ليس الإرهاب بحد ذاته، وإنما الفكر الإسلامي السياسي الذي يهدد بتغيير خريطة العالم السياسية".

٢. **تقرير مركز راند للأبحاث (٢٠٠٤): "الإسلام المدني الديمقراطي"**: "اقترح هذا التقرير مجموعة من الاستراتيجيات لدعم المسلمين المعتدلين ومواجهة الحركات الإسلامية المتشددة. وجاء في التقرير: "هناك حاجة ملحة لدعم الحركات التي تتبنى القيم الديمقراطية والعلمانية في العالم الإسلامي بهدف تقويض الفكر السياسي الإسلامي الذي يسعى إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وتوحيد الأمة".

٣. **دراسة لمعهد بروكينغز (٢٠١٠): "الاستراتيجية الأمريكية تجاه الإسلام السياسي"**: "ركزت هذه الدراسة على ضرورة مواجهة الحركات الإسلامية التي تسعى لتطبيق الشريعة الإسلامية. جاء في الدراسة: "إن تعزيز العلاقات مع الدول الإسلامية المعتدلة ودعم الحكومات التي تتبنى سياسات علمانية هو المفتاح لمنع انتشار الأيديولوجيات الإسلامية السياسية المتطرفة".

---

[٢٤٦] **هنري كيسنجر**، تصريح في مؤتمر الأمن القومي، واشنطن، ٢٠٠٢.

٤. **كتاب "العقيدة والسياسة: الإسلام السياسي ومستقبل العالم" (٢٠٠٥) - فريد زكريا**: قال الكاتب: "الإسلام السياسي يمثل تحديًا جديًا للنظام العالمي الحالي. علينا أن نفهمه جيدًا وأن نضع استراتيجيات طويلة الأمد لمواجهته".

٥. **مقالة في مجلة فورين أفيرز (٢٠٠٢) - صموئيل هنتنجتون**: كتب هنتنجتون: "إن صعود الإسلام السياسي يعيد تشكيل العلاقات الدولية. يجب على الغرب أن يكون مستعدًا لمواجهة هذا التحدي الجديد بكل حزم".

**الاستنتاج**

إن التحولات الفكرية في العالم الإسلامي والتوجه نحو تطبيق الشريعة الإسلامية ووحدة الأمة أخذ يحل محل الأفكار التي كانت منتشرة مثل الناصرية والبعثية والقومية والوطنية والاشتراكية، مما جعل أمريكا تضع استراتيجيات جديدة لمواجهة الإسلام السياسي. هذه الاستراتيجيات لم تكن مجرد ردود فعل عابرة، بل كانت جزءًا من خطة شاملة تهدف إلى تقويض الفكر السياسي الإسلامي ومنع ظهور دولة إسلامية قوية ومؤثرة على الساحة الدولية.

## أهم استراتيجيات الإدارات الأمريكية المتعاقبة لمحاربة الإسلام السياسي ومحاولة تأخير قيام الدولة الإسلامية[٢٤٧]:

منذ انهيار الاتحاد السوفياتي في أواخر القرن العشرين، وجدت الولايات المتحدة نفسها في مواجهة نوع جديد من التحدي: الإسلام السياسي. مع صعود الحركات الإسلامية التي تسعى لإقامة دولة إسلامية، أصبح من الضروري وضع استراتيجيات لمواجهتها ومنعها من الوصول إلى السلطة. منذ عهد الرئيس جورج بوش الابن وحتى اليوم، اعتمدت الولايات المتحدة عدة استراتيجيات، بناءً على توصيات مراكز الفكر[٢٤٨] (Think Tanks)،

---

[٢٤٧] بعض المراجع الأخرى:

1. Countering the Call: The U.S., Hizb-ut-Tahrir, and Religious Extremism in Central Asia
2. Hizb ut-Tahrir | SpringerLink
3. A global effort to counter extremism through education | Brookings
4. How we are protecting children and young people from dangerous ideologies including right-wing extremism – The Education Hub

[٢٤٨] **مراكز الفكر** أو **Think Tanks** هي مؤسسات بحثية تقدم المشورة والأبحاث المستقلة حول السياسات العامة، والمسائل الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. وتلعب هذه المؤسسات دورًا محوريًا في صياغة السياسات في الولايات المتحدة من خلال تقديم تحليلات مفصلة وتوصيات لصناع القرار. تتعاون مراكز الفكر مع الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدني لتطوير سياسات مبنية على الأدلة والأبحاث الميدانية. أهم خمسة مراكز فكر هي: **مؤسسة راند** (RAND Corporation) (تأسست ١٩٤٨) وتعتبر من بين الأكثر تأثيرًا في صنع السياسات الأمريكية. **معهد بروكينغز** (Brookings Institution): تأسس ١٩١٦، ويقدم أبحاثًا في مجالات الاقتصاد والحكم والسياسة الخارجية. ويعرف بمعاييره البحثية العالية، وتأثيره الكبير على السياسات الحكومية، **مجلس العلاقات الخارجية** (Council on Foreign Relations - CFR): تأسس ١٩٢١ ويختص بالشؤون الدولية والسياسة الخارجية. وينشر دورية "Foreign Affairs"، ويعتبر مصدرًا رئيساً للمعلومات والتحليلات حول العلاقات الدولية. **معهد كاتو** (Cato Institute) **ومؤسسة التراث** (The Heritage Foundation).

لتقويض الإسلام السياسي، ولمحاولة منع أو تأخير قيام الدولة الإسلامية، وسننقل خلاصة هذه التوصيات كما جاءت من مراكز الفكر:

**أولا: الحرب على الإرهاب: بداية الحملة الشاملة:**

غيرت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وجه العالم، وأطلقت الولايات المتحدة عقبها شرارة "الحرب على الإرهاب"، وكان تعريف الإرهاب غامضاً، فضفاضاً، إلا إن المسلمين دون غيرهم كانوا من يوصفون به، واستهدفت أمريكا جميع الجماعات التي كانت تصنفها بالأصولية أو بالإرهابية بالحرب على أساس شيطنتها واعتبارها تهديداً مباشراً للأمن العالمي، وبدأت بغزو أفغانستان (٢٠٠١) للإطاحة بنظام طالبان الذي كان يؤوي تنظيم القاعدة (Bridge Initiative)، تلتها حرب العراق في ٢٠٠٣ بحجة وجود أسلحة دمار شامل ودعم الإرهاب، الذريعة التي ثبت كذبها بشكل قاطع (SpringerLink) وتشير الأبحاث إلى أن هذه الاستراتيجية كانت جزءًا من رؤية أوسع للنيوكونسيرفاتيفية (للمحافظين الجدد)، التي رأت أن الولايات المتحدة يجب أن تتبنى دور القيادة العالمية ومكافحة الأعداء في كل مكان (SpringerLink) (Bridge Initiative).

**ثانياً: دعم الأنظمة المستقرة: التحالفات القديمة:**

عززت الولايات المتحدة من دعمها للأنظمة المستقرة، وخصوصا السعودية ومصر، وباكستان وأوزبكستان وغيرها، حيث قدمت لها المزيد من الدعم العسكري والاقتصادي مقابل العمل المشترك لضمان استقرار تلك الأنظمة، والتعاون في "مكافحة الإرهاب" ومحاربة الإسلام السياسي تحت مسمى: الأصولية، وكذلك ضمان استقرار أسواق النفط العالمية (SpringerLink) واستطاعت الولايات المتحدة خلق حلفاء أقوياء قادرين على مواجهة الجماعات الإسلامية "المتطرفة" محلياً، مستخدمين وسائل القمع والبطش والسجون والاستخبارات، والإعلام لمنع صعود الإسلام السياسي.

**وكأمثلة على الدعم الذي قدمته الولايات المتحدة للأنظمة المحلية في مواجهة حزب التحرير، بحسب مراكز الفكر الأمريكية:**

١. **دعم حكومات آسيا الوسطى:**

- دعمت الولايات المتحدة الحكومات المحلية في دول آسيا الوسطى، مثل أوزبكستان، في جهودها لمواجهة حزب التحرير. شمل الدعم توفير التدريب والمساعدة المادية للأجهزة الأمنية لمكافحة انتشار أفكار الحزب في هذه المناطق. وأوصت الدراسات بضرورة التعاون الدولي وتبادل الخبرات بين الدول لمكافحة الأيديولوجيات المتطرفة بشكل فعّال، ويشمل ذلك تقديم الدعم التقني والمادي للدول التي تواجه تحديات مشابهة، مثل الدول في آسيا الوسطى التي تكافح نفوذ حزب التحرير (START) (Brookings).
- وفي دراسة بعنوان **"Countering the Call: The U.S., Hizb-ut-Tahrir, and Religious Extremism in Central Asia"**، تناولت مؤسسة بروكينغز خطورة حزب التحرير في آسيا الوسطى. وأشارت الدراسة إلى أن الحزب يشكل تهديدًا أيديولوجيًا رغم رفضه للعنف،

وأوصت بتعزيز التعاون مع الحكومات المحلية لمكافحة تأثيره من خلال التعليم والتوعية المجتمعية. وأكدت الدراسة على ضرورة فهم العوامل التي تجعل الحزب يجذب الشباب المسلم وتطوير استراتيجيات لمواجهة هذا التأثير(**Brookings**) .

- وفي دراسة مقدمة لمؤسسة نيكسون رأت زينو باران[٢٤٩] معدة الدراسة أن لدى حزب التحرير استراتيجية عالمية، حيث يمتلك حزب التحرير استراتيجية عالمية تركز على إقامة الخلافة الإسلامية، ويعمل على نشر أفكاره في جميع أنحاء العالم الإسلامي وفي الغرب أيضًا. ويستخدم الحزب وسائل الإعلام الحديثة والإنترنت لنشر أفكاره بسرعة وفعالية (**Homepage**)، وترى أن حزب التحرير يستهدف النخب الشبابية وبشكل خاص الطلاب الجامعيين والنخبة الأكاديمية من خلال الندوات وورش العمل التي تروج لأفكاره. ويتم توزيع الكتب والنشرات بشكل مجاني لجذب الشباب وتثقيفهم حول أفكار الحزب (**Homepage**) (**AFPC Almanac**)

٢. **التعاون الأمني مع الدول الأوروبية:**

- عززت الولايات المتحدة التعاون الاستخباراتي مع الدول الأوروبية التي تواجه تحديات مماثلة في انتشار حزب التحرير بين الجاليات المسلمة. ساعد هذا التعاون في تبادل المعلومات وتنسيق الجهود لمواجهة التهديد الأيديولوجي (**SpringerLink**)
- في ألمانيا، بعد حظر أنشطة حزب التحرير في عام ٢٠٠٣، تم التعاون مع الأجهزة الأمنية الأمريكية لمراقبة الأنشطة المالية للحزب وتعقب تحويلات الأموال التي يمكن أن تستخدم لتمويل النشاطات "المتطرفة". هذا التعاون ساعد -بحسب التقارير الغربية- في تجفيف منابع التمويل التي كانت تستخدمها خلايا الحزب في أوروبا(**HRWF**) (**Human Rights Without Frontiers**)

.

- في عام ٢٠٠٤، تعاونت الولايات المتحدة مع المملكة المتحدة لتبادل المعلومات حول الأفراد المشتبه بانتمائهم لحزب التحرير والذين كانوا يروجون لأفكار الحزب في الجامعات والمجتمعات الإسلامية في لندن. هذا التعاون ساعد في كشف العديد من الأفراد الذين كانوا يخططون لنشر "الفكر المتطرف" داخل المملكة المتحدة(**Brookings**) .
- في عام ٢٠١٠، نظمت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (**CIA**) بالتعاون مع أجهزة الأمن البريطانية والألمانية ورشة عمل حول "مكافحة الفكر المتطرف وتجنيد الشباب" في لندن. شارك في الورشة عدد كبير من الضباط والمحللين من مختلف الدول الأوروبية، وتم تبادل الخبرات حول كيفية التعامل مع التهديدات الأيديولوجية التي يشكلها حزب التحرير (**Combating Terrorism Center at West Point**).

---

[٢٤٩] الدراسة عنوانها: "Hizb ut-Tahrir: Islam's Political Insurgency" أي حزب التحرير: التمرد السياسي للإسلام.

- **دراسة مركز بروكينغز: "مواجهة الدعوة: الولايات المتحدة، حزب التحرير، والتطرف الديني في آسيا الوسطى"**

**تفاصيل الدراسة:** تناولت هذه الدراسة كيف استجابت الولايات المتحدة والدول الأوروبية للتحديات التي يفرضها حزب التحرير في آسيا الوسطى. استعرضت الأنشطة الدعوية والسياسية للحزب وأوصت بتعزيز التعاون الاستخباراتي والأمني لمواجهة التهديدات المتزايدة. المصدر: Brookings، Brookings،

- تقرير مركز مكافحة الإرهاب في ويست بوينت: "التحول العنيف في خطاب حزب التحرير"

تفاصيل الدراسة: سلّط التقرير الضوء على "التحولات في خطاب حزب التحرير نحو العنف"، خاصة في فروعه في بنغلاديش وأفغانستان. أشار التقرير إلى كيفية استخدام الحزب **للخطاب العنيف** وكيفية مواجهة هذا التوجه. المصدر: Combating Terrorism Center at West Point، جدير بالذكر أن الخطاب العنيف المعني هنا هو مخاطبة الجيوش للقيام بدورها في تحرير بيت المقدس من الاحتلال الصهيوني.

- **دراسة مجلس العلاقات الخارجية: "تحليل التهديدات الأيديولوجية لحزب التحرير"**

تفاصيل الدراسة: ركزت على تحليل الأيديولوجية التي يتبناها حزب التحرير وكيفية استخدامها لتجنيد الأفراد. تناولت الدراسة أيضًا استراتيجيات المواجهة الممكنة للتصدي لنشر هذه الأفكار. **المصدر:** Council on Foreign Relations

- **تقرير مركز راند: "الإسلام السياسي وحزب التحرير: التحديات والفرص":**

**تفاصيل الدراسة:** تناول هذا التقرير التحديات التي يشكلها الإسلام السياسي عموماً وحزب التحرير خصوصاً، مع التركيز على الأنشطة في أوروبا وآسيا. وأوصى التقرير بتعزيز التعاون الدولي لتبادل المعلومات ومواجهة هذه التهديدات. المصدر. RAND Corporation

٣. **استراتيجيات الولايات المتحدة تجاه حزب التحرير: باكستان مثالًا:**

منذ عقود، وضعت الولايات المتحدة حزب التحرير ضمن استراتيجياتها لمحاربة الإسلام السياسي، خاصةً في باكستان، حيث تم تنفيذ العديد من الإجراءات لمنع انتشار أفكاره ونشاطاته. تشمل هذه الاستراتيجيات عدة محاور:

- **التعاون الأمني والمادي مع الحكومة الباكستانية**

قدمت الولايات المتحدة دعماً مادياً وتقنياً وأمنياً للحكومة الباكستانية لتحسين قدراتها في مواجهة الجماعات المتطرفة. شمل هذا الدعم توفير التدريب والمعدات للقوات الأمنية لتتبع واعتقال أعضاء حزب التحرير وتعطيل شبكاته.

**التنسيق الاستخباراتي:** عززت الولايات المتحدة التعاون الاستخباراتي مع باكستان لمراقبة أنشطة حزب التحرير ومشاركة المعلومات الحيوية حول تحركاته وخططه (SpringerLink) (Brookings).

- **الجهود الإعلامية والدعاية المضادة:** استخدمت الولايات المتحدة وسائل الإعلام لنشر دعاية مضادة تهدف إلى تشويه صورة حزب التحرير وإظهار مخاطره على الأمن والاستقرار. تم تسليط الضوء على أيديولوجيته "المتطرفة" وكيف يمكن أن تؤدي إلى "زعزعة استقرار البلاد"!

**التثقيف المجتمعي:** تم تنظيم حملات توعية في المجتمعات المحلية لتحذير الناس من مخاطر الانضمام إلى حزب التحرير، وتوضيح "تأثيره السلبي على المجتمع والأمن الوطني" (Cambridge Information Systems) (Brookings).

**تغيير المناهج التعليمية:** عملت الولايات المتحدة مع الحكومة الباكستانية على تغيير المناهج التعليمية "لتعزيز قيم التسامح والتعايش" ونشر تفسير "أكثر اعتدالاً" للإسلام يتماشى مع القيم الديمقراطية والغربية. تم تضمين برامج تعليمية تركيز على "التفكير النقدي" ومكافحة "الأيديولوجيات المتطرفة" (Cambridge Information Systems) (SpringerLink).

**تقييد الأنشطة والتمويل: تجميد الأصول:** عملت الولايات المتحدة مع باكستان على تجميد الأصول المالية لحزب التحرير ومنع تمويله من الوصول إلى أعضائه. شمل ذلك مراقبة الحسابات المصرفية وتحركات الأموال لتعطيل قدراته على التمويل الذاتي.

**حظر الأنشطة:** تم فرض حظر على الأنشطة العامة لحزب التحرير ومنع عقد اجتماعاته وتنظيم فعالياته. شمل ذلك اعتقال قادته وأعضائه الناشطين لمنعهم من نشر أفكارهم وجذب المزيد من الأتباع. **(SpringerLink) (Brookings).**

**اختطاف نفيد بوت الناطق الرسمي لحزب التحرير في ولاية باكستان:** اختطف في ١١ مايو ٢٠١٢ من قبل الأجهزة الأمنية الباكستانية أمام أطفاله وجيرانه. ومنذ اختطافه، لم يُسمح له بأي تواصل مع عائلته، وظل في زنازين سرية للنظام الباكستاني. وينظم حزب التحرير مظاهرات متكررة للمطالبة بالإفراج عنه، حيث يُبرز الحزبُ المعاييرَ المزدوجةَ للنظام الباكستاني في التعامل مع النشطاء السياسيين الإسلاميين، مقارنة بالمدونين الليبراليين، الذين يتم الإفراج عنهم بسرعة نسبية بعد اعتقالهم.

الجدير بالملاحظة، أن اعتقاله تم بعد اعتقال البريجادير علي خان بفترة قصيرة، حيث كانت هذه المحاولة الثالثة لاختراق الجيش الباكستاني، وفي محاولة من الأمريكان والباكستانيين للحصول على معلومات حول حجم اختراقات الجيش ألقوا القبض على نفيد بوت، مما يدل على أن حجم الاختراقات كبير، حيث تشير مجموعة من التقارير إلى عدم قدرة كلا الطرفين: الولايات المتحدة والباكستان لمعرفة الحجم الحقيقي لتجنيد الضباط والقيادات العليا في الجيش الباكستاني من قبل حزب التحرير. وهذا ما تقوله تقارير مراكز الفكر والدراسات الاستراتيجية حول الموضوع:

تـم القـبض على البريجـادير علي خـان في باكسـتان في ٦ مـايو ٢٠١١ بتهمـة ارتباطـه بجماعـة حـزب التحرير المحظورة. كان خـان يخدم في المقر العـام للجيش الباكسـتاني في روالبنـدي عند اعتقالـه، وأعلن الجيش الباكسـتاني عـن الاعتقـال في ٢١ يونيـو ٢٠١١، مشيراً إلى وجـود أدلـة قويـة ضـده. تمت محاكمتـه عسكريًا وحُكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات في أغسطس ٢٠١٢ بتهمة التمرد والارتباط بجماعة متطرفة(Express Tribune ، Wikipedia).

يُذكر أن اعتقال علي خان كان جزءاً من محاولات متكررة لحزب التحرير لاختراق الجيش الباكستاني. كانت **هذه المحاولة الثالثة المعروفة**، حيث سبق وأن تم تجنيد ١٣ ضابطًا من القوات الخاصة في عام ٢٠٠٣، وتم اعتقالهم ومحاكمتهم عسكرياً. وفي عام ٢٠٠٩، تم اعتقال العقيد شاهيد بشير بتهم مشابهة (Dawn، Jamestown).

هـذه الاعتقـالات تعكـس قلقًا كبيرًا لـدى الولايـات المتحـدة وباكسـتان بشـأن حجـم الاختراقـات داخـل الجيش الباكسـتاني. أشـارت العديد من التقارير إلى صعوبة تحديد مدى تأثير حزب التحرير داخل الجيش بشـكل دقيـق، ممـا يعكـس التحـدي الـذي تواجهـه كل مـن الولايـات المتحـدة وباكسـتان في مواجهـة هـذا التنظيم(Combating Terrorism Center) .

اعتقال نفيد بوت، المتحدث باسم حزب التحرير في باكستان، جاء أيضاً بعد فترة قصيرة من اعتقال علي خان، في محاولة للحصول على معلومات حول مدى اختراق الحزب للجيش. هذه الأحداث تدل على أن الاختراقات كانت أعمق وأوسع مما كان متوقعًا(Wikipedia).

**تقديرات الولايات المتحدة لنفوذ و انتشار حزب التحرير في باكستان:**

تعتبر تقـديرات الولايـات المتحـدة لنفـوذ وانتشـار حـزب التحريـر في باكسـتان شـديدة الأهميـة بالنسـبة للولايات المتحدة في سياق الاستراتيجيات الأمريكية لمكافحة الإسلام السياسي. انتهاج حزب التحرير النهج السري والخاص في تكتيله لأعضائه، ومزج ذلك بالنهج الجهري واستعمال وسائل التواصل في نشر أفكاره في باكسـتان وغيرهـا في سـعية لإعـادة إقامـة الخلافـة الإسـلامية، يشـكّلُ تحـديًا خاصًـا للحكومات المحلية والدولية.

**تقديرات الانتشار والنفوذ: نموذج خفي للتجنيد:**

- يعتمـد حـزب التحريـر على التجنيـد الخفـي بـين صـفوف النخبـة مـن الضـباط العسـكريين والبيروقـراطيين والمهنيين، بمـا في ذلـك الأطبـاء والمهندسـين والمـدراء في الشـركات متعـددة الجنسـيات. هـذا النهج السري يجعل من الصعب تحديد الحجم الحقيقي لتأثيره في باكستان (Homepage ).
- تقـول زينـو بـاران في دراسـة قـدمتها لمؤسسـة نيكسـون: يعتمـد حـزب التحريـر على نهـج سـري في عملياتـه، حيـث يعمـل على تجنيـد الضـباط العسـكريين، والأكـاديميين، والمحترفين الشـباب بطـرق غـير علنيـة. هـذا الـنهج السـري يجعـل مـن الصـعب تعقـب تحركـات الحـزب ومعرفـة أعضـائه الحقيقيـين (Counter Extremism Project) (Homepage).

- يسعى حزب التحرير بشكل خاص إلى تجنيد الضباط العسكريين الباكستانيين. وتشير التقارير إلى أن الحزب حاول اختراق الجيش الباكستاني ثلاث مرات على الأقل في العقد الماضي، وتم تجنيد ١٣ ضابطًا من القوات الخاصة (SSG) في عام ٢٠٠٣، ولكنهم تعرضوا للمحاكمة العسكرية لاحقًا. في ٢٠١١، تم كشف شبكة أخرى من الضباط المرتبطين بالحزب، ما يعكس تأثيره الكبير على القوات المسلحة (Homepage).
- **محاولات اختراق حزب التحرير للجيش الباكستاني:**
  - اتبع حزب التحرير، الذي يسعى لإعادة إقامة الخلافة الإسلامية، استراتيجية لتجنيد الضباط العسكريين الباكستانيين كجزء من خططه للإطاحة بالحكومة وتأسيس نظام إسلامي. لقد قامت السلطات الباكستانية بكشف وإحباط عدة محاولات للحزب لاختراق الجيش. وأبرز تلك المحاولات:
  - تجنيد الضباط في القوات الخاصة (SSG) عام ٢٠٠٣: كشفت السلطات الباكستانية في عام ٢٠٠٣ عن محاولة حزب التحرير لتجنيد ١٣ ضابطًا من القوات الخاصة (SSG)، وهي وحدة النخبة في الجيش الباكستاني. تم اكتشاف الشبكة بعد مراقبة "الأنشطة المشبوهة" وتمت محاكمة الضباط المتورطين وأدينوا بتهم "الخيانة والتآمر ضد الدولة" (Homepage).
  - محاولة تجنيد العقيد شاهيد بشير عام ٢٠٠٩: تم اعتقال العقيد شاهيد بشير، الذي كان يعمل مع حزب التحرير، في عام ٢٠٠٩، بعد اكتشاف محاولاته لتجنيد ضباط آخرين في الجيش. بشير كان على اتصال مع العديد من الضباط وتمكن من إقناع بعضهم بالانضمام إلى الحزب. تم محاكمته عسكرياً وأدين بتهم "الخيانة والتآمر" (Homepage).
  - تجنيد العميد علي خان عام ٢٠١١: تم اعتقال العميد علي خان في عام ٢٠١١، بعد تحقيقات كشفت عن علاقته بحزب التحرير ومحاولاته لتجنيد ضباط في الجيش. كان علي خان قد نجح في إنشاء خلية من الضباط المتعاطفين مع الحزب داخل الجيش. بعد اعتقاله، تم كشف الشبكة وتفكيكها، وأدين الضباط المتورطون وحُكم عليهم بالسجن (Homepage).
  - **دور القيادة العسكرية العليا:**
  - كانت استراتيجية حزب التحرير تستهدف القيادة العسكرية العليا بهدف تحقيق انقلاب عسكري "بدون دماء". إذ يعتقد الحزبُ أن الجيشَ، بوصفه مؤسسة قوية ومؤثرة في باكستان، يمكن أن يكون أداة لتحقيق أهدافه في إقامة الخلافة الإسلامية. لذا، تم التركيز على تجنيد الضباط الكبار والأكاديميين المتعلمين في الجامعات الباكستانية والغربية (Homepage) (Hudson Institute).
  - تقول زينو باران في دراسة مقدمة لمؤسسة نيكسون: **اختراق الجيش:** الحزب يسعى بشكل خاص إلى تجنيد الضباط العسكريين لتسهيل الانقلابات العسكرية كوسيلة لتحقيق

أهدافه. تجلى هذا بشكل واضح في محاولاته المتكررة لاختراق الجيش الباكستاني، والتي تم إحباطها عدة مرات (Homepage).

- **استخدام وسائل الإعلام والتكنولوجيا** عمد حزب التحرير إلى استخدام وسائل الإعلام والتكنولوجيا لنشر أفكاره بين الضباط والطلاب. تم توزيع الكتب والنشرات بشكل مجاني، وتم تنظيم ورش عمل وحلقات دراسية في الجامعات الحكومية والخاصة. كما استخدم الحزب وسائل التواصل الاجتماعي لتنظيم فعاليات ترويجية تستهدف الشباب الباكستاني **والضباط العسكريين** (Hudson Institute) (Homepage).
- تشير المحاولات المتكررة لاختراق حزب التحرير للجيش الباكستاني إلى استراتيجية طويلة الأمد تهدف إلى تحقيق انقلاب عسكري وإقامة نظام إسلامي. من خلال استهداف الضباط الكبار والطلاب، يسعى الحزب إلى تحقيق تأثير كبير في المؤسسة العسكرية الباكستانية. تمكنت السلطات الباكستانية من إحباط هذه المحاولات وتفكيك شبكات الحزب داخل الجيش بسبب الجهود الاستخباراتية والتعاون الأمني الدولي!

تُظهر هذه الاستراتيجيات كيف تعمل الولايات المتحدة على محاربة حزب التحرير في باكستان كجزء من جهد أوسع لمحاربة الإسلام السياسي. من خلال التعاون مع الحكومة الباكستانية، وتنفيذ تغييرات تعليمية، واستخدام وسائل الإعلام، وتسعى الولايات المتحدة إلى تقويض نفوذ الحزب وإضعاف قدراته على التأثير في المجتمع الباكستاني.

- نشرت مجلة مشروع تقرير الأمن الإنساني بتاريخ ١٩-٢-٢٠١٠ ملخص ورقة علمية أعدتها وحدة أبحاث الأمن الباكستاني التابعة لقسم دراسات السلام في جامعة برادفورد في بريطانيا بعنوان "تقييم خطر حزب التحرير"، ركّزت على تقييم خطر الحزب في باكستان. ومما جاء في الملخص:
- يشير الخبراء إلى أن حزب التحرير يمثل تهديداً جاداً لأمن النظام في باكستان، وأنه بالرغم من حظر حزب التحرير في باكستان الا إن الحزب ينشط بقوة في ذلك البلد. حيث يروج إلى التغيير السياسي والاجتماعي ويدعو لإقامة الدولة الإسلامية التي تحكم بالشريعة.
- ويتهم التقرير حزب التحرير بمدحه لأعمال العنف والتي تشمل خطف وتفجير الطائرات، كما وينتقد التقرير سياسة الانقلابات العسكرية التي يدعو لها الحزب في غالبية البلاد الإسلامية.
- ويضيف التقرير: "حزب التحرير يدّعي رسميا بأنه لا يستخدم العنف ويصف الاتهامات المثارة ضده بأنها لا تعدو أن تكون مزيجا من التلفيقات، والمواد المجمعة من مواقع متطرفة وخزانات التفكير لدى المحافظين الجدد في أمريكا، ومواد مجتزئة من نصوص الحزب، لتدعم

الدعاية ضد الإسلام. ويقول التقرير أن حزب التحرير يدّعي أنه يعمل بالعلن وليس له أهداف مخفية.

- وقد ركزت الورقة البحثية حول حزب التحرير على أهداف تتعلق بالمفاهيم والمعتقدات التي يحملها حزب التحرير، خصوصا أدبياته حول الخلافة، ونظرته العدائية تجاه الغرب خصوصا أمريكا، بالإضافة إلى انتقاده للحكومة والجيش الباكستاني.

قامت السلطات الباكستانية في السنوات الأخيرة بسلسلة من المداهمات والاعتقالات لأعضاء حزب التحرير الذين كانوا يشغلون مناصب رئيسية في الجامعات وقطاعات مختلفة. تم اعتقال نشطاء من الحزب بتهم توزيع الدعاية المناهضة للدولة والتآمر ضد النظام. هؤلاء النشطاء كانوا يعملون على تجنيد الشباب من الطبقات المتعلمة والراقية في المجتمع الباكستاني (Homepage).

حذر العديد من المحللين الباكستانيين من خطورة الحزب، مشيرين إلى طبيعته السرية وقدرته على استقطاب الشباب المثقف. أشار المحلل الأمني الباكستاني محمد أمير رانا إلى أن الحزب يمتلك أجندة مناهضة للدستور والديمقراطية، وقد يكون "مرتبطًا ببعض المؤامرات الإرهابية" بما في ذلك محاولة اغتيال الرئيس السابق برويز مشرف (MEMRI)، Jamestown، West Point's Combating Terrorism Center. جدير بالذكر أن نتائج التحقيق في محاولة اغتيال برويز مشرف في ٢٠٠٣ ألصقت التهمة بتنظيم القاعدة وحركة الجهاد الإسلامي وجماعة جيش محمد (Herald Dawn) وبالتالي فإن محاولة الزج باسم حزب التحرير فيها هي محاولات رخيصة لتبرير مناهضة نشاطات حزب التحرير وإعطاء المبررات لتشديدها.

يناقش التقرير "Pakistan's Hidden Threat from Within" للكاتب مايكل كوجلمن طريقة حزب التحرير في التأثير والتغلغل في المجتمع الباكستاني. حيث يعتمد الحزب على نشر أيديولوجيته من خلال وسائل التعليم والدعوة وتجنيد أفراد من النخب الأكاديمية والعسكرية. ويستهدف الحزب الفئات المتعلمة والشباب، ويعزز رؤيته لخلافة إسلامية عالمية. نتائج هذا التغلغل تظهر في زيادة النفوذ الأيديولوجي للحزب بين النخب وزيادة الاضطرابات الاجتماعية والسياسية، مما يشكل تهديداً طويل الأمد على استقرار باكستان[٢٥٠].

٤. **البحث والتحليل الأكاديمي:**

- قام باحثون من مراكز الفكر مثل مؤسسة بروكينغز بتحليل أيديولوجية حزب التحرير وتقديم توصيات للسياسات الأمريكية حول كيفية التعامل معه. وأوصت الأبحاث بفهم أعمق للأسباب التي تجعل الحزب يجذب الشباب المسلم، واستخدام هذا الفهم لتطوير استراتيجيات لمكافحة الدعاية المتطرفة (**START**) (**Brookings**).

---

[٢٥٠] Pakistan's Hidden Threat from Within وكذلك ترجمة المقال: في تقرير مطول،،، حزب التحرير في باكستان "التحام النخب من موقع استراتيجي مع القدرة والنفوذ من الجيش لإحداث التغيير"

5. **التوعية والتثقيف:**

- اقترحت بعض الدراسات الأكاديمية أن يتم التركيز على التوعية والتثقيف في المجتمعات المحلية لزيادة الفهم حول مخاطر الأيديولوجيات المتطرفة وكيفية مواجهتها بأساليب سلمية وفعالة. (**Brookings**).
- **المجتمعات المحلية في المملكة المتحدة:** وفقًا لدراسة منشورة على موقع **SpringerLink**، تم تطوير برامج تعليمية في المملكة المتحدة تستهدف المجتمعات المحلية "لتعزيز الوعي" حول مخاطر "الأيديولوجيات المتطرفة". وتركزت هذه البرامج على "توعية الشباب وأُسَرِهم" حول كيفية التعرف على "علامات التطرف المبكر" وكيفية التعامل معها بطرق سلمية وفعالة (**SpringerLink**).
- **برنامج Prevent في المملكة المتحدة:** يُعتبر برنامج **Prevent** أحد أبرز البرامج الحكومية في المملكة المتحدة الذي يهدف إلى "منع الأفراد من الانجذاب إلى الأيديولوجيات المتطرفة". ويتضمن البرنامج تدريب العاملين **في المدارس والمؤسسات التعليمية** على كيفية التعرف على "علامات التطرف" وتقديم الدعم المناسب لمن قد يكون عرضة للتأثر بتلك الأيديولوجيات (**Education Hub**).

وتعكس هذه الاستراتيجيات مدى تعقيد الجهود الأمريكية والغربية في مواجهة الإسلام السياسي وحزب التحرير. من خلال دعم الأنظمة المستقرة، والتعاون الدولي، و"التوعية" والتعليم، وتسعى الولايات المتحدة إلى تعزيز الاستقرار الإقليمي الضامن للحفاظ على مصالحها، وبقاء هيمنتها عبر مكافحة الأيديولوجيات التي تصنفها على أنها متطرفة بشكل فعال.

**ثالثا: التدخل غير المباشر: الدعم من الخلف:**

كجزء من استراتيجيتها لمواجهة الإسلام السياسي، اعتمدت الولايات المتحدة على دعم الحركات المعارضة بشكل غير مباشر. تمثلت هذه الاستراتيجية في تقديم الدعم المالي، والتدريب العسكري، والدعم الإعلامي لتقويض الجماعات الإسلامية من الداخل. على سبيل المثال:

- **دعم المعارضة السورية المعتدلة:** قدمت الولايات المتحدة دعماً للمعارضة السورية المعتدلة في مواجهة النظام السوري. تم توفير الدعم المالي والتدريب العسكري وتسليح القوات المحلية والجماعات المعارضة، بهدف تعزيز قوتها في مواجهة الجماعات المتطرفة (**SpringerLink**)
- **تقويض الجماعات الإسلامية من الداخل:** سعت الولايات المتحدة إلى اختراق وتوجيه الجماعات المعارضة للإسلام السياسي نحو نهج أكثر اعتدالاً. تمويل الأحزاب السياسية والمجموعات المدنية التي تعارض الإسلام السياسي، مثل الأحزاب العلمانية والوطنية والصوفية،

كان جزءاً من هذه الجهود. كما دعمت الولايات المتحدة المجموعات التي تقدم قراءة "حداثية" للإسلام أو تلك التي تسعى لتقويض مكانة السنة في التشريع الإسلامي.

- **أمثلة على الدعم المالي والإعلامي:** دعمت الولايات المتحدة القوى المعتدلة في سوريا والعراق لمواجهة الجماعات المتطرفة. تضمن هذا الدعم تقديم التمويل المالي، وتدريب وتسليح القوات المحلية، وتوفير الدعم الإعلامي لنشر رسائل إيجابية تعزز من قوة هذه الجماعات في مواجهة التطرف.

تظهر هذه الاستراتيجية مدى تعقيد الجهود الأمريكية في مواجهة الإسلام السياسي، من خلال دعم الحركات "المعتدلة" والمعارضة والعلمانية بشكل مباشر وغير مباشر. وتكمن الفكرة في تعزيز القوى التي يمكنها مواجهة "التطرف" من الداخل، بحجة تحقيق "توازن" يساعد في الحفاظ على "الاستقرار الإقليمي والدولي".

**رابعا: حرب الأفكار:**

**خلفية وأهداف حرب الأفكار:**

في تقرير صدر عن مؤسسة راند بعنوان: "بناء شبكات مسلمة معتدلة Building Moderate Muslim Networks"[٢٥١] كانت أول جملة في هذه الدراسة: "إن الحرب في معظم أنحاء العالم الإسلامي اليوم هي حرب أفكار".

تسترت الولايات المتحدة خلف مشاريع ومبادرات استراتيجية تكون واجهة لحرب الأفكار، منها "مبادرة الشرق الأوسط الكبير" والتي تهدف إلى نشر الديمقراطية، والإصلاحات السياسية، وحقوق الإنسان، وتعزيز سيادة القانون، والانتخابات الحرة، وتضمنت هذه المبادرة تقديم الدعم للمجتمع المدني، أو بالأحرى: تسخير منظمات وجمعيات المجتمع المدني مثل المنظمات النسوية لنشر الأفكار الغربية، كل هذا كان يُستخدم كوسيلة لتعزيز البدائل العلمانية للإسلام السياسي في المنطقة (**SpringerLink**)، وقدَّمت الولايات المتحدة دعماً إعلامياً كبيراً لوسائل الإعلام المحلية التي تعارض الإسلام السياسي وتروّج للأجندة الأمريكية.

**استراتيجية حرب الأفكار:**

حرب الأفكار هي استراتيجية تستخدمها الولايات المتحدة لمواجهة "الأيديولوجيات المتطرفة"، وتقديم بدائل "أكثر اعتدالًا وقبولًا". وتركز هذه الاستراتيجية على مواجهة "الدعاية المتطرفة"، وتعزيز القيم الديمقراطية والتسامح الديني من خلال وسائل الإعلام والتعليم والسياسات الثقافية. وسنستعرض بعض الدراسات حول هذا الموضوع:

**ترتكز حرب الأفكار على مواجهة الأيديولوجيات المتطرفة من خلال:**

١. **التثقيف والتوعية:** تقوم الولايات المتحدة، أو عملاؤها (كالنظام البعثي السوري) بإنشاء ودعم حركات متطرفة مثل تنظيم داعش لتقديم صورة سيئة عن تطبيق الشريعة الإسلامية، وتقديم نموذج سيء لمعاملة الأقليات، أو تقوم بدراسة أعمال حركات مثل التكفير والهجرة، (**Columbia**

[251] http://www.rand.org/content/dam/rand/pubs/monographs/2007/RAND_MG574.pdf

(Homepage) (International Affairs Online) أو الجهاد الإسلامي في مصر، (Columbia )
(Homepage) (International Affairs Online) أو بوكو حرام في نيجيريا (Oxford Academic)
ونظائرها، وتقوم بعناية بتصميم برامج تشيطن إيديولوجيات الإسلام السياسي برمته وتصنف ما تسميه "الحركات الأصولية" بالمتطرفة، وتدرب الشباب في برامج "التثقيف والتوعية" على أفكار تهدف لتعريفهم بما تقدمه لهم على أنه مخاطر ناتجة عنها، وتقدم لهم رؤى على أن مكافحة الإسلام السياسي من باب التفكير النقدي لهذه الأفكار.

٢. **الدعاية المضادة:** استخدام وسائل الإعلام لنشر رسائل مناهضة للتطرف. ومن الأمثلة البارزة:

تم إنشاء مركز الاتصالات الاستراتيجية لمكافحة الإرهاب (CSCC) من قبل وزارة الخارجية الأمريكية كجزء من الجهود المبذولة لمواجهة دعاية الجماعات الإرهابية. ويركز المركز على إنتاج محتوى إعلامي يعارض رسائل الجماعات المتطرفة ويعزز الروايات البديلة التي تشجع على السلام والتعايش. ويستخدم المركز وسائل التواصل الاجتماعي ومنصات الإعلام الرقمي للوصول إلى جمهور واسع ونشر رسائل مضادة بشكل فعال (Brookings).

**حملات التواصل الاجتماعي:** تعتبر وسائل التواصل الاجتماعي أداة رئيسية في جهود الولايات المتحدة، على سبيل المثال، أطلقت وزارة الخارجية حملات على منصات مثل تويتر وفيسبوك لمواجهة دعاية الجماعات الإرهابية (Brookings).

وأطلقت وزارة الخارجية الأمريكية برنامج "التواصل العالمي" الذي يهدف إلى مواجهة الدعاية المتطرفة من خلال شراكات مع منظمات المجتمع المدني ووسائل الإعلام المحلية. ويسعى البرنامج إلى تعزيز "الرسائل الإيجابية والمعتدلة" من خلال توفير الدعم المالي والفني لوسائل الإعلام والمنظمات التي تعمل على نشر قيم التسامح والديمقراطية (Brookings).

وتعتمد استراتيجية الولايات المتحدة على التعاون مع القادة الدينيين والمجتمعيين لتعزيز رسائل السلام والتعايش. حيث تم تدريب العديد من القادة المحليين والخطباء و"العلماء" على كيفية مواجهة الدعاية المتطرفة داخل مجتمعاتهم وتقديم بدائل إيجابية للشباب المعرضين لخطر التجنيد من قبل الجماعات الإرهابية (Brookings).

٣. **التعاون الدولي: التعاون مع الدول الأخرى لمشاركة الخبرات والموارد في مواجهة التطرف.**

أمثلة من دراسات وتصريحات ومراكز فكر:

- **مؤسسة راند:** أصدرت مؤسسة راند تقريرًا بعنوان "Building Moderate Muslim Networks" في عام ٢٠٠٧، حيث أوصت بتعزيز الشبكات الإسلامية المعتدلة لمواجهة التأثير المتزايد للجماعات المتطرفة. وأكدت الدراسة على أهمية دعم المؤسسات الإسلامية المعتدلة والإعلام المستقل لتعزيز قيم التسامح والديمقراطية(SpringerLink).

- **مؤسسة بروكينغز**: في ورقة بحثية بعنوان "The Role of Education in Countering Violent Extremism" ناقش باحثو بروكينغز أهمية التعليم في مكافحة التطرف. وأوصت الورقة بتضمين برامج تعليمية تركز على التفكير النقدي وقيم التسامح والتعايش السلمي في المناهج الدراسية في الدول التي تواجه تهديدات التطرف (Brookings)
- **مركز نيكسون**: في تحليل لدور الأيديولوجيا في مكافحة الإرهاب، أكد مركز نيكسون على أن حرب الأفكار يجب أن تكون جزءًا أساسيًا من الاستراتيجية الأمريكية. دعا المركز إلى تطوير برامج إعلامية وتعليمية تروج لحقوق الإنسان والديمقراطية كوسيلة لمواجهة الأيديولوجيات المتطرفة (SpringerLink)
- **اتهمت زينو باران حزب التحرير في دراسة قدمتها لمؤسسة نيكسون** بأنه جزء من "تقسيم عمل أنيق" حيث يتولى الحزب التحضير الأيديولوجي للمسلمين، بينما تتولى جماعات أخرى تنفيذ الهجمات الإرهابية، لتكملة جهود "الحركات المتطرفة" -بحسب زينو باران- في تحقيق الأهداف المشتركة (AFPC Almanac)

**خامسا: الحملات الإعلامية لشيطنة الإسلام السياسي:**

أطلقت الولايات المتحدة حملات إعلامية لتشويه صورة الجماعات الإسلامية المتشددة وإبراز مخاطرها على "الاستقرار العالمي". وترويج خطاب مضاد يستند إلى التسامح الديني وحقوق الإنسان. وفي نفس الوقت، ترويج الروايات التي تبرز التطرف كتهديد عالمي يجب مواجهته **(Bridge Initiative)** والدبلوماسية العامة: شملت الدبلوماسية العامة ونشر الأفكار الأمريكية من خلال البعثات الثقافية والتعليمية، والإعلام الموجه، والبرامج التي تهدف إلى تقوية العلاقات بين الولايات المتحدة والشعوب الإسلامية.

**مؤسسة راند**: قدمت مؤسسة راند توصيات حول كيفية استخدام التعليم كأداة لمكافحة التطرف. أكدت الدراسات الصادرة عن المؤسسة على أهمية إدماج برامج مكافحة التطرف في المناهج التعليمية وتدريب المعلمين على كيفية التعامل مع الأيديولوجيات المتطرفة في البيئات التعليمية **(Brookings)**

لم يقتصر استهداف الولايات المتحدة على الجماعات المسلحة فقط، بل امتد ليشمل الجماعات "الأصولية" غير المسلحة التي تعتبرها تهديدًا محتملاً للأمن والاستقرار العالميين. من بين هذه الجماعات، حزب التحرير الذي يسعى إلى إقامة خلافة إسلامية موحدة، رافضا استخدام العنف طريقة لبلوغ غايته **(Brookings)** **(SpringerLink)**. في هذا السياق، اعتمدت مراكز الفكر الأمريكية، مثل مؤسسة راند ومؤسسة التراث ومؤسسة نيكسون، استراتيجيات متعددة لمواجهة حزب التحرير باعتباره يشكل تهديدًا بسبب "أيديولوجيته المتطرفة" من منظور مراكز الفكر الأمريكي:

**وكأمثلة على شيطنة الحزب إعلامياً وسياسياً:**

**مؤسسة راند:** في تقرير لها، أشارت مؤسسة راند إلى أن الخطاب المتطرف لحزب التحرير يمكن أن يُستخدم كأداة لتعبئة المجتمعات ضد القيم الغربية، مما يجعله تهديدًا أيديولوجيًا طويل الأمد. وأوصت المؤسسة باستخدام الإعلام لنشر الوعي حول مخاطر أيديولوجيات حزب التحرير وتشويه صورته (SpringerLink)

وأشارت مؤسسة راند في تقريرها إلى أن حزب التحرير يستخدم خطابًا متطرفًا ودعاية قوية لتعزيز أفكاره. وأوصت المؤسسة باستخدام الإعلام والدعاية المضادة لتشويه صورة الحزب وكشف تناقضاته. كما أكدت على أهمية دعم المؤسسات الإسلامية المعتدلة والإعلام المستقل لتعزيز قيم التسامح والديمقراطية في مواجهة التطرف (START)

**مؤسسة التراث:** في تقرير بعنوان "Hizb ut-Tahrir: An Emerging Threat to U.S. Interests in Central Asia"، تناولت مؤسسة التراث خطورة حزب التحرير على المصالح الأمريكية في آسيا الوسطى. وأكدت الدراسة أن الحزب يشكل تهديدًا جديًا من خلال دعمه للجهاد والدعوة إلى إقامة خلافة إسلامية. وأوصت المؤسسة بضرورة مراقبة أنشطة الحزب وتعزيز التعاون مع الحكومات المحلية لمكافحته، مع التركيز على التوعية والتعليم كأدوات رئيسية لمواجهة تأثيره الأيديولوجي لمكافحة أيديولوجية حزب التحرير. (The Heritage Foundation)

**مؤسسة نيكسون:** ركزت على تحليل الخطاب السياسي لحزب التحرير وربطه بالجماعات المتطرفة الأخرى لتأكيد أن الفكر الأصولي قد يكون مقدمة للتطرف العنيف. ودعت المؤسسة إلى استراتيجيات إعلامية تهدف إلى كشف تناقضات الحزب وإظهار مخاطره على الأمن القومي (START).

**سادساً: التحالفات الإقليمية والدولية: جبهة موحدة:**

**التعاون الاستخباراتي:** تعزيز التعاون الاستخباراتي مع الدول الحليفة لتبادل المعلومات حول نشاطات الجماعات الإرهابية والتخطيط لعمليات مشتركة.

**التعاون الدولي:** تعزيز التعاون الدولي لتبادل الخبرات والموارد في مكافحة التطرف. يشمل ذلك دعم الحكومات المحلية في الدول التي تواجه تهديدات من حزب التحرير، وتقديم الدعم التقني والمادي للأجهزة الأمنية. (The Heritage Foundation)

**سابعا: دعم الحركات المعتدلة داخل الإسلام: الوسطية البديل المعتدل:**

**دعم الإصلاحات الدينية:** تم تشجيع ودعم الشخصيات الدينية والمؤسسات التي تروج لقراءة معتدلة ومنفتحة للإسلام. كان الهدف هو تقليل تأثير التيارات المتشددة، وتوفير بدائل "أكثر اعتدالاً" داخل العالم الإسلامي. (Bridge Initiative)

**برامج التعليم:** عبر تغيير ممنهج لمناهج التعليم في العالم الإسلامي، في السنوات الأخيرة، شهدت مناهج التعليم في العالم الإسلامي تغييرات كبيرة تحت تأثير ودعم مؤسسات أمريكية وشخصيات دولية، بهدف "مواجهة التطرف" وتحريف بعض مفاهيم الإسلام، فمثلا: أوصت **مؤسسة بروكينغز** بإصلاح سياسات التعليم الوطنية لمكافحة التطرف من خلال التركيز على التعليم الرسمي ووسائل الإعلام. واقترحت بروكينغز تطوير برامج تعليمية

تعزز التفكير النقدي والمهارات التي تُمكن الطلاب من مواجهة الدعاية المتطرفة بفعالية. كما دعت إلى اتفاقية تحت رعاية الأمم المتحدة تلتزم فيها الدول الأعضاء بتحديث مناهجها التعليمية لمكافحة التطرف بفعالية (Brookings).

**مؤتمر جامعة كامبريدج:** في مؤتمر نظمته جامعة كامبريدج، تم التركيز على إصلاح التعليم الإسلامي من خلال تقديم مناهج تعليمية تعكس قيم التعددية والتسامح. شارك في المؤتمر خبراء من مختلف أنحاء العالم وناقشوا ضرورة دمج قيم المواطنة العالمية في التعليم الإسلامي لتعزيز التفاهم بين الثقافات المختلفة (Cambridge Institute of Sustainability)، وتم إدخال مواد تعليمية جديدة تركز على حقوق الإنسان، والديمقراطية، والتفكير النقدي في العديد من الدول الإسلامية.

**تدريب المعلمين:** تم تنظيم برامج تدريبية للمعلمين لتعزيز قدراتهم على تدريس هذه المواد الجديدة بفعالية.

**إعادة صياغة النصوص الدينية:** في بعض الدول، تم إعادة صياغة النصوص الدينية المستخدمة في المدارس لتشمل تفسيرات "أكثر اعتدالاً" تتماشى مع القيم الحديثة للديمقراطية وحقوق الإنسان.

**دعم برامج تعليمية تهدف إلى** تعزيز التسامح الديني والتعايش السلمي والحوار المتكافئ بين مختلف الطوائف والأديان.

وفي مكافحتها لانتشار حزب التحرير في باكستان، عملت الولايات المتحدة مع الحكومة الباكستانية على تغيير المناهج التعليمية لتعزيز قيم التسامح والتعايش ونشر تفسير "أكثر اعتدالاً" للإسلام يتماشى مع القيم الديمقراطية. تم تضمين برامج تعليمية تركز على التفكير النقدي ومكافحة الأيديولوجيات المتطرفة (**Cambridge Information Systems**) (**SpringerLink**).

**ثامنا: إعادة التقييم والتكيف:**

إعادة تقييم السياسات وتعديلها بناءً على التغيرات في الساحة السياسية والإقليمية.

تستمر الولايات المتحدة في إعادة تقييم سياساتها وتعديلها بناءً على الظروف المتغيرة. على سبيل المثال، كان التعامل مع جماعة الإخوان المسلمين في مصر متغيراً في فترات مختلفة، بناءً على الموقف السياسي والمصالح الأمريكية في المنطقة (**SpringerLink**) سمحت هذه المرونة للولايات المتحدة بتكييف استراتيجياتها لمواجهة التحديات الجديدة بفعالية.

**الخلاصة:**

في ظل الهجمة المنظمة الشرسة التي تقودها الولايات المتحدة ضد الإسلام السياسي، تشكلت جبهة عالمية دولية تشمل التخطيط في مراكز الفكر وصناعة القرارات الاستراتيجية، وتنفيذها من خلال الأنظمة المتواطئة. وتعتمد هذه الاستراتيجية على عدة أدوات مثل الإعلام، والتعليم، والأجهزة الأمنية، والاستخباراتية. على سبيل المثال، قامت مراكز الفكر مثل مؤسسة بروكينغز ومؤسسة راند ومؤسسة التراث ومؤسسة نيكسون بتقديم توصيات لتعزيز البدائل العلمانية للإسلام السياسي من خلال إصلاح المناهج التعليمية ونشر قيم الديمقراطية والتسامح الديني (**Brookings**) (**Cambridge Institute of Sustainability**) (**SpringerLink**). بالإضافة إلى

ذلك، تم استخدام وسائل الإعلام لنشر دعاية مضادة تهدف إلى تشويه صورة الجماعات الإسلامية وتعزيز رسائل بديلة "إيجابية" (**Brookings**) (**Brookings**). هذه الجهود تهدف في مجملها إلى محاربة الإسلام السياسي، ومنه إضعاف حزب التحرير، وإضعاف الإسلام السياسي من خلال تحريف فهم الإسلام، وتشجيع تفسيرات "أكثر اعتدالاً" تتماشى مع القيم الغربية (**Brookings**) والغرب في هذا يحاول أن يبطئ من تحقيق الأهداف الرئيسية للإسلام السياسي المتمثلة في تطبيق الشريعة الإسلامية، واستئناف الحياة الإسلامية من خلال إقامة الدولة الإسلامية، وتوحيد المسلمين، وإنهاء نفوذ الغرب السياسي والاقتصادي والثقافي والعسكري من العالم الإسلامي، في ظل هذه الدراسة يتبين لنا أن حزب التحرير، والحركات الإسلامية المخلصة العاملة على التغيير تحفر في الصخر، وتواجه حرباً عالميةً تحاول منعها من بلوغ أهدافها، لكنها استفزت العالم الغربي ودول العالم الإسلامي لتقف على ساق واحدة وتشكل جبهة عالمية لمجابهة خطر الأفكار التي تسعى لإقامتها في الواقع، والتي تشكل تهديدا حقيقيا لمصالح الغرب في العالم الإسلامي، إذن، فعلى الرغم من أنها تحفر في الصخر، إلا إنها أوشكت أن تبلغ غاياتها على الرغم من هذه الحملة العالمية المسعورة التي تسعى لإحباط قطف ثمار عملها الجبار.

## كُتَّابٌ وسياسيون غربيوت يحذرون من قرب قيام الخلافة:

وسننقل مقتطفات من تلك الأقوال، كشهادات تبين أسباب الحملة العالمية المسعورة على حزب التحرير، وعلى فكرة الخلافة، ووحدة الأمة، وتحررها:

أعلن الرئيس الروسي بوتين في كانون أول سنة ٢٠٠٢م: "إن الإرهاب الدولي أعلن حرباً على روسيا بهدف اقتطاع أجزاء منها وتأسيس خلافة إسلامية" وكان بوتين يتحدث في حوار تلفزيوني مباشر أجاب خلاله عن ٥٠ سؤالاً اختيرت من بين مليوني اتصال هاتفي من سكان روسيا.

في مقالة له في مجلة نيوزويك بتاريخ ٨ نوفمبر ٢٠٠٤، تناول كيسنجر التحديات المتعلقة بالإسلام المتشدد والنظام العالمي الجديد بعد أحداث ١١ سبتمبر. وأشار إلى ضرورة التعاون الدولي لمواجهة هذه التهديدات التي تتجاوز حدود الدول التقليدية وتشكل تهديدًا عالميًا، وقال هنري كيسينجر في خطابٍ لهُ ألقاهُ في الهندِ بتاريخِ السادسِ مِنْ تشرينَ الثاني ٢٠٠٤م في مؤتمرِ هندوستان تايمز الثاني للقادةِ ما يلي: "إنَّ التهديداتِ ليستِ آتيةً مِنَ الإرهابِ، كذلِكَ الذي شهدناهُ ١١ أيلولْ/ سبتمبر، ولكنَّ التهديدَ آتٍ منَ الإسلام الأصوليِّ المتطرفِ الذي عملَ على تقويضِ الإسلامِ المعتدلِ المناقضِ لما يراهُ الأصوليونَ في مسألةِ الخلافة الإسلامية " وقالَ كيسينجر أيضاً: "إنَّ العدوَّ الرئيسيَّ هو الشريحةُ الأصوليةُ الناشطةُ في الإسلامِ التي تريدُ في آنٍ واحدٍ قلْبَ المجتمعاتِ الإسلاميةِ المعتدلةِ وكلِّ المجتمعاتِ الأخرى التي تَعتبرُهَا عائقاً أمامَ إقامةِ الخلافة "[٢٥٢].

وتحدثَ رئيسُ وزراءِ بريطانيا السابقُ توني بلير أمامَ المؤتمرِ العامِ لحزبِ العمالِ في ٢٠٠٥/٧/١٦م، فقالَ: "إننا نُجابِهُ حركةً تسعى إلى إزالةِ دولةِ إسرائيلَ، وإلى إخراجِ الغربِ منَ العالمِ الإسلاميِّ، وإلى إقامةِ دولةٍ إسلاميةٍ واحدةٍ تُحَكِّمُ الشريعةَ في العالمِ الإسلاميِّ عن طريقِ إقامةِ الخلافة لكلِّ الأمةِ الإسلاميةِ".

---

[٢٥٢] - مجلةُ النيوزويك في عددِهَا الثامنِ من نوفمبر ٢٠٠٤م. (Hindustan Times) (Henry A. Kissinger)

صرّحَ بوش في٦ /٢٠٠٥/١٠م، مشيراً إلى وجودِ استراتيجيةٍ لدى مسلمينَ تهدفُ إلى إنهاءِ النفوذِ الأميركيِّ والغربيِّ في الشرقِ الأوسطِ، فقالَ: "إنَّه عندَ سيطرتِهم على دولةٍ واحدةٍ سيستقطبُ هذا جموعَ المسلمينَ، ما يُمكنُهُم منَ الإطاحةِ بجميعِ الأنظمةِ في المنطقةِ، وإقامةِ إمبراطوريةٍ أصوليةٍ إسلاميةٍ منْ إسبانيا وحتى إندونيسيا".

وكتب المعلق الأميركي "كارل فيك" في صحيفة الواشنطن بوست، في ٢٠٠٦/١/١٤م، تقريراً مطولاً ذكر فيه أن "إعادة إحياء الخلافة الإسلامية"، الذي يهاجمه الرئيس الأميركي جورج بوش، يتردد في أوساط السواد الأعظم من المسلمين»، وذكر أن "المسلمين يعتبرون أنفسهم جزءاً من "الأمة" التي تشكل قلب الإسلام، كما ينظرون إلى الخليفة كشخص جدير بالاحترام". وأشار هذا المعلق إلى أن "حزب التحرير، الذي ينشط في عدد من البلدان عبر العالم، يصرح بأن هدفه هو إعادة الخلافة لسابق عهدها".

وفي كتابٍ صدرَ عام **2007**م بعنوان "سقوطُ وصعودُ الدولةِ الإسلاميةِ" لأستاذِ القانونِ بجامعةِ هارفارد المشهورة البروفيسور نوح فيلدمان "يؤكدُ أنَ الصعودَ الشعبيَ للشريعةِ الإسلاميةِ مرةً أخرى في العصرِ الحالي، رغمَ سقوطِها سابقاً، يمكنُ أن يؤديَ إلى خلافة إسلاميةٍ ناجحةٍ... فيلدمان يقولُ في كتابِه إن الإمبراطورياتِ وأساليبَ الحكم حينما تسقطُ فإنها تسقطُ بلا رجعةٍ مثلما حدثَ مع الشيوعيةِ والملكيةِ الحاكمةِ إلا في حالتين فقط حالياً: الأولى هي الديمقراطيةُ والتي كانت سائدةً في الإمبراطورياتِ الرومانيةِ، وفي "حالةِ الدولة الإسلاميةِ"..." ويرصد المؤلفُ ظاهرةً قويةً ومتناميةً من المغربِ إلى إندونيسيا وهي أن الشعوبَ الإسلاميةَ تطالبُ بعودةِ الشريعةِ وخصوصاً في دولٍ ذاتِ تعدادٍ سكاني كبيرٍ مثلَ مصرَ وباكستان؛ متسائلاً: "لماذا يطالب الناسُ الآن بعودةِ الشريعةِ وينجذبون إليها رغم أن أجدادَهم في العصرِ الحديثِ نبذوها ووصفوها بأنها أثرٌ من الماضي السحيق؟". ويقول إن "من ضمنِ الأسبابِ أن الحكامَ الحاليين فشلوا أمامَ الشعوبِ بما فيهم الغرب، وأن الشعوبَ الإسلاميةَ تفتقرُ إلى العدالةِ اليوم"؛ مضيفًا أنه لا توجد طبقةُ علماءٍ حقيقية أو طبقة قضاةٍ حقيقيين كما كان في السابق في الدولِ الإسلاميةِ حتى الآن.

قالَ الرئيسُ الفرنسيُّ ساركوزي ٢٠٠٧/٨/٢٤م: "لا داعي لاستعمالِ لغةِ الخشبِ لأنَّ هذهِ المواجهَةِ يرغبُ فيها "المتطرفون" الذينَ يحلُمُونَ بإقامةِ الخلافة من إندونيسيا إلى نيجيريا، رافضينَ أيَّ شكلٍ مِنْ أشكالِ الانفتاحِ وأيَّ شكلٍ مِنْ أشكالِ الحداثةِ والتنوعِ" بحسبِ زعمِهِ. وقالَ حينَهَا: "إنَّهُ لا يستهينُ بإمكانيةِ المواجهةِ بينَ الإسلامِ والغرب".

دعا رئيس الوزراء البريطاني الأسبق توني بلير إلى "حظر حزب التحرير بسبب ارتباط بعض أعضائه بالعنف والإرهاب". على الرغم من أن هذه الدعوة لم تكن بسبب دعوة الحزب لإقامة الخلافة بشكل مباشر، إلا أنها تعكس القلق الغربي من تطلعات الحزب للخ**لافة** (Washington Institute, 2020).

في عام ٢٠١٨، أعرب وزير الشؤون الداخلية الأسترالي بيتر داتون عن قلقه من نشاطات حزب التحرير في أستراليا، مشددًا على ضرورة مراقبة نشاطاته بشكل دقيق لمنع أي تأثير له على المجتمع الأسترالي. وأكد داتون أن التطلعات الخلافية للحزب تشكل تهديدًا لأمن واستقرار البلاد(START, 2020) .

أكدت كريستين أبيزايد، مديرة المركز الوطني لمكافحة الإرهاب في الولايات المتحدة، في شهادة أمام الكونغرس في ٢٠٢٢ "أن الولايات المتحدة تراقب عن كثب أي محاولات لإقامة خلافة إسلامية جديدة، مشددة على أن الجهود الأمريكية تستهدف منع أي تنظيمات متطرفة من تحقيق هذا الهدف".

## معضلة الشر: الحجة المركزية للإلحاد:

صرح مايكل روس (Michael Ruse) أحد أشهر فلاسفة العلوم في مناظرته مع اللاهوتي فزالا رانا (Fazale Rana) تحت عنوان "أصل الحياة: التطور أم التصميم؟" سنة ٢٠١٣ أنه لا يرفض الإيمان بوجود الله إلا لسبب واحد وهو مشكلة الشر، إنها الشبهة التي وصفها الشاعر الألماني الملحد جورج بوخنر (George Büchner) بأنها "صخرة الإلحاد". وفي مناظرته مع اللاهوتي ويليام كريغ (William Lane Craig) صرح الفيلسوف الأمريكي مايكل تولي (Tooley Michael) أن "الحجة المركزية للإلحاد هي حُجَّة الشر".[٢٥٣]

لماذا هناك ألم ومعاناة في العالم؟ هل يجب على الإله أن "يحب المخلوقات" وأن "يرحمها". كون الإله مطلق القدرة وكلي المحبة غير متسقة مع الشر الواضح والعيوب التي في العالم، من هو المسؤول عن الشر؟ ما هي طبيعة الشر؟ لماذا يسمح الإله بوجود الشر في ملكوته؟ مآل الشر؟ هل الألم والمعاناة شر؟

لعلي أختصر على كل مشكك أو متسائل عن وجود الشر في العالم، وأقطع عليه حجته في استخدام هذه المسألة للتشكيك في وجود الله، أو دوره، أو عدالته، أو للتنصل من مسؤولية الإنسان المباشرة عن الغالبية الساحقة مما نشاهد من حروب وأمراض وفقر وآلام، بحل واحد يقطع الحجة عليه: لقد احتج المؤمنون بأن الله تعالى قد وهب الإنسان الإرادة الحرة، وأن الإنسان أساء استخدامها، ولم يعجب هذا الجواب الكثيرين! وتساءلوا: هل هذا أفضل العوالم التي يستطيع الإله القدير خلقها؟

حسناً، ما رأيكم بعالم يخلو من الإرادة الحرة؟ يجبر فيه الإنسان على كل تصرف وفكر وسلوك، بل ويجبر فيه على مستوى النيات والأسرار الداخلية، فيسير كالريشة في مهب الريح، أو كالسن في الدولاب؟ أهذا عالم أفضل من العالم الذي أعطيت فيه الإرادة الحرة للإنسان فاختار أن يملأ العالم بالشر؟ ما رأيكم في العيش في ذلك العالم؟

لقد تبين لنا بالبحث أن الإنسان يعيش في دائرتين، دائرة تسيطر عليه وتقع فيها الأفعال جبرا عن الإنسان، لا يملك الإنسان دفعا لما يحدث له فيها، كتاريخ ولادته، وتوقيت وفاته، وأنه ذكر أو أنثى، وتلك القضايا التي تقع في دائرة القضاء والقدر، والإنسان غير محاسب على ما يقع عليه فيها مما لا يستطيع دفعه أو تغييره، ودائرة أخرى يسيطر عليها، وهو مسؤول عن تصرفاته فيها، هي دائرة التكليف، فهو يستطيع أن يصلي أو أن لا يصلي، وأن يؤمن أو يكفر، وأن يكون تقيا أو شريرا، أن يقتل نفسا، أو أن يحييها بفعل الخير لها وإكرامها، أن يشعل نار حرب أو أن يطفئها، فهذه الدائرة يختار فيها الإنسان تصرفاته بلا إكراه عليها، والحياة مسرح هذه الأفعال التي يقوم فيها الإنسان بأعمال ناتجة عن إرادته الحرة، فكأني بمن يطرح مشكلة الشر يريد أن تكون كل الأفعال التي تصدر من البشر أو عليهم ضمن دائرة القضاء والقدر، لا يملك الإنسان فيها أن يعجن رغيف خبز إلا بقضاء وقدر!

ولكن، حين نبحث في معضلة الشر، وانتشار الأمراض النفسية والمجتمعية، وانتشار الفقر والمجاعات، والحروب، وقبل النظر في نسبة المسؤولية عن الغالبية الساحقة من المشاكل التي يعاني منها الإنسان اليوم إلى

---

[٢٥٣] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص١٨.

الخالق أم إلى الإنسان، فإنه يلزمنا أن نفهم بدقة أثر نمط العيش السائد، **والفكر الغربي الذي نشأ في أوروبا منذ القرن السابع عشر الميلادي، ومن ثم طغى في العالم عبر موجات من الاستعمار والهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية، التي امتدت إلى اليوم، والحروب والاستثمارات الاقتصادية، وكان أثر ذلك واضحا على هذا الإنسان، ودوره في إفراز هذه المشاكل، ودوره في تشكيل عقلية ونفسية الإنسان الذي يعيش نمط الحياة الذي أسست له الحضارة الغربية، في العالم الغربي، بل وحتى في البلاد التي سيطرت عليها، سواء من خلال الإعلام، أو التعليم، أو السياسة والاقتصاد والاجتماع، أو النمط الثقافي السائد، أو أسلوب العيش، أي إننا ندرس هنا جذور المشكلة التي أفضت إلى انتشار غير مسبوق "للشر" في العالم، ونحمل الفكر الغربي المتمثل بالعلمانية والليبرالية والديمقراطية والرأسمالية والحداثة وما بعد الحداثة والعولمة والاستعمار والشركات العابرة للقارات، والبنك الدولي، والسوق الحرة مسئولية ضخمة عن الشر الذي يعاني منه العالم:**

## الرؤية المادية الميكانيكية العبثية التي أفرزتها الأنظمة العلمانية و انعكاساتها على الإنسان:

وسندرس ثلاث أفكار مركزية لوضع اليد على هذه الرؤية العبثية، أولها: نشأة العلمانية، وقطعها للحبل السُّرِّي بين الإنسان وبين الفكر عن الوجود، وعن وظيفته في الحياة، وأثر ذلك، وثانيها: إحاطة الإنسان من كل جوانبه بالرؤية الميكانيكية المادية التي لا تعترف بأشواق روحية، وحصرها للمنفعة بالمنفعة المادية، والرفاهية، وتأسيسها للنظام الاجتماعي على أساس النشوة والمتعة، وثالثها: التحولات الفكرية في الفكر الغربي من الحداثة إلى ما بعد الحداثة والتحول من مركزية الإنسان في الكون إلى مركزية السوق الحرة، والانتقال من النضال والتنظير لتحرير الإنسان إلى تشييئه تمهيدا لابتلاعه واستغلاله. جدير بالذكر، أننا فصلنا تفصيلا حول هذه القضايا مبنياً على الأدلة ومستنداً إلى الآراء الفكرية المباشرة من أفواه منظري المبدأ الرأسمالي العلماني الديمقراطي الليبرالي أنفسهم، ومن تاريخ تطور ذلك المبدأ، في كتابنا: الصندوق الأسود للفكر الغربي: مأزق الدولة الحديثة.

## بابوات الكنيسة، وبابوات الليبرالية الرأسمالية!

صادرت الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى عقلَ الإنسان برمته، ومنعته أن يستقي تصوره للوجود إلا من خلال تأويلاتها المحتكِرة للكتاب المقدس، وسنرى كيف أن الفكر الغربي الذي نشأ في عصر النهضة انتهى بإيجاد بابوات جدد يسيطرون على الإعلام والتعليم، وعلى الاقتصاد والسياسة، والحروب والأدوية، والبنك الدولي، واحتكروا لأنفسهم الحق في سيادة العالم وتسييره خلف أطماعهم!

نشأت العلمانية كمذهب فكري في القرن السابع عشر في أوروبا، إبان عصر النهضة، وقام منظرو عصر النهضة بوضع الأسس الفكرية **للعلمانية بصورة جعلتها "تأسرُ العلمَ والمعرفةَ" وتحتكرُ ما كانت الكنيسةُ تحتكره**! وتبع سيطرة العلمانية على المعرفة سيطرة الليبرالية الرأسمالية على المجتمع بتفتيته عبر النظر إليه على أنه كومة أفراد وكومة أقليات؛ (أقليات: من حيث القدرة على التأثير في السياسة لا من حيث الأعداد)، وبالتالي يسهل على الأحزاب السياسية والرأسماليين المتنفذين أن يتحكموا بمفاصل الدولة والحياة، فسيطروا على الدولة (بقصر دورها على تنظيم مصالح الطبقة الرأسمالية) وعلى العلمانية (باستعمالها وسيلة)، ومن ثم ظهر وبكل

**وضوح أن "البابوات" الجدد (بعد تنحية دوربابوات الكنيسة في القرون الوسطى) هم النيوليبراليون الرأسماليون الجُدد!**

وكانت الميزة الأخطر في التحول الفكري إبان عصر النهضة هو التحرر من الوحي، والاستعاضة عنه بالعقل، بهدف واضح: هو نبذ الغيب جملة وتفصيلا، والقطيعة التامة بكل ما لا يقع الحس عليه، ومن ثم سيطرت العلمانية على الدولة، وسيطر الرأسماليون على مفاصل الاقتصاد في الدولة، وسخروا غايتهم وأدواتهم المعرفية المتمثلة في القياس والتنبؤ والسيطرة والتحكم على العلم والفلسفة والمعرفة، بحيث غدت غاياتها: هي القدرة على التنبؤ لأجل التحكم في الأشياء، بعد أن كانت مهمة العلم والمعرفة والفلسفة هي المعرفة لذاتها، وتوجهها نحو تفسير العالم، وإدراك الحقيقة، ونحو استكشاف قوانينه وتفسيره تفسيراً منسجما مع طبيعة الأبحاث بغض النظر عن نوع النتيجة، أكانت روحية أم مادية، إنسانية أم أخلاقية، فيزيقية أم غيبية، والعقل، ولا شك يتخيل المنفعة المادية في نواح قد لا تكون فعلا متحققة فيها، ويكتشف ضررها لاحقا، أو تكون منفعتها نسبية، أو خاصة بفئة دون فئة، وإذن، فهو توجيه للبحث في أحيان كثيرة وجهة منتقاة، مختارة، لغايات معينة، لا مطلق المنفعة، أو مطلق النتيجة، وهذا توجيه خطير لبوصلة العلم والفلسفة والمعرفة، تسهل على الرأسماليين استعمالها لأغراضهم النفعية، فقد أصبحت النفعية غايةً للمعرفة والعلم والفلسفة معا، مقتصراً على الناحية المادية الدنيوية، فعلى سبيل المثال: قد تنصرف شركات الدواء عن إنتاج دواء يعالج أمراضا كثيرة إذا لم يكن بمقدورها جني الأرباح الطائلة عبر احتكاره ببراءة اختراع، وكان تحضيره سهلا بمواد متوفرة، فلا تكتفي بالانصراف عن إنتاجه، ولكنه لا تظهر أبحاثها للبشر ليستفيدوا من العلاج، أو ترفض أن تعطي شركات محلية حق إنتاجه بأسعار في متناول يد المرضى الفقراء في دول أخرى ينتشر فيها المرض، بينما ثمن الدواء الذي تنتجه تلك الشركات مرتفع جداً.

يقول غنار سكيربك ونيلز غيلجي في كتابهما (تاريخ الفكر الغربي): "تميزت حقبة عصر التنوير بالتفاؤل التقدمي داخل الطبقة الوسطى المتوسعة، فهناك ثقة متيقظة في العقل وفي الإنسان، كان هناك مذهب خلاص مدني، **حل فيه العقل محل الإنجيل**، وبعونٍ من العقل صار بإمكان الإنسان أن يكشف الجوهر الداخلي للواقع ويحقق التقدم المادي. وسيستقل الإنسان تدريجياً، ويستغني عن السلطة التي لا أساس لها، وعن الوصاية اللاهوتية، **لقد تحرر الفكر لأن الإنسان شعر أنه حاكم نفسه، و أنه مستقل عن الوحي** والتقليد وصار الإلحاد زي العصر"[٢٥٤] وقال جون لوك: "إنه لم تبق حاجة للوحي طالما أن الإله أعطانا وسائل حسية أكثر يقيناً لنتوصل بها إلى المعرفة"[٢٥٥]، ويقول موريس باربيه (Maurice Barbier) في كتابه (اللائكية): "تعني اللائكية في مفهومها الواسع الفصل بين الدين والحقائق الدنيوية، فهي تفترض أن هذه الحقائق لا تخضع لاحتواء الدين أو تأثيره، سواء عنى الدين إيمانا ما أو جمعية ما أو سلطة دينية ما، وهكذا، نرى أن الفلسفة في الغرب استقلت عن

---

[٢٥٤] نقض الفكر الغربي الرأسمالي مبدأ وحضارة وثقافة، من إصدارات حزب التحرير صفر ١٤٤٣ هـ، أيلول ٢٠٢١ م. ص ١٣-١٤

[٢٥٥] معنى كلامه أن الإنسان يعلم أكثر من الخالق! فلا حاجة للوحي طالما أن العقل أقدر على الوصول لليقين من الوحي! وهذه **بداية نزعة جعل الإنسان سيد الكون!**

اللاهوت، وأن مختلف العلوم تكونت خارج إطار المسيحية، بل ضدها أحيانا، وأن كل الحقائق الإنسانية: السياسية والاجتماعية والثقافية وغير ذلك قد استقلت عن الدين. وقد تم تحقيق هذا عبر إجراء من الفصل ليس بقصير المدى، وهو ما نطلق عليه العلمنة (Secularization)، ولهذا السبب يمكن أن نصف مجتمعا ما أو فكرا ما أو أخلاقا ما باللائكية إذا تخلصت تماما من أي أثر ديني، ولم تطع إلا المبادئ الصرفة ضمن النظام العقلاني أو الطبيعي، وأما بالمعنى الضيق للكلمة، فيمكننا أن نتحدث عن لائكية التعليم للدلالة على أنه لا يحوي أي خصائص طائفية (دينية)."

لكن العلمانية إذ اكتفت بفصل المعرفة والعلم والفلسفة عن الدين والأخلاق والعادات والتقاليد، وحصرتها بالعقل المجرد، فهل تملك العلمانية فكرة كلية (holistic world view) عن الكون والإنسان والحياة؟ هل تمثل العلمانيةُ عقيدةً تستطيع معها أن تشكل منظومة فكرية لتجيب على تساؤلات تؤهلها لتكون إطارا تنبثق منه أسس عقدية تنبثق عنها أنظمة لمعالجة المشاكل؟ سواء أكانت مشاكل اقتصادية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو أخلاقية؟

فهي حين تهدف إلى تنظيم حياة المجتمع والدولة، لا بد لها من نظرة شمولية تستطيع على أساسها تنظيم هذه الحياة، وحين تريد أن تضع قوانين يسير عليها المجتمع لتنظيم معاشه، لا بد لها من أفكار ومقاييس فكرية تعالج هذه المشاكل، ولا بد لها من مرجعية معينة (مقاييس) تستطيع على أساسها إرجاع الحلول لها لتكون متناسقة متسقة متناغمة تفضي إلى ألّا تتناقض مع بعضها بعضاً!

بالإضافة إلى أن العلمانية لم تقم بتقديم سَرْدِيَّةٍ أو روايةٍ تفسرُ فيها للإنسانِ الغايةَ من وجودِهِ، ولم تَسْرُدْ له قصة وجوده وارتباطه بالخالق وبالكون وبالحياة، وأثَر ذلك التفسير على سلوكه بما يتضمنه من تفاصيل منهج الحياة الذي يجب أن يعيش على أساسه، وبما يحويه من نظرية قيمية تحدد للإنسان القيم التي يعيش لتحقيقها أو التي يمكنه اتخاذها مقاييس لأعماله، فإنها عمدت إلى فصله عن الرواية أو التفسير الذي يمتلكه هو عن الكون والإنسان والحياة، بما عمدت إليه من قطع الحبل السُّرِّيِّ بينه وبين ذلك المنهج، وتلك القيم، فلا هي قدمت له منهجا ولا تفسيرا، ولا حتى حفلت بالقيم، ولا تركته يعيش وفق منهجه وتفسيره وقيمه! وهذا الأمر تناقض عقلي، وإشكال فكري ضخم.

فإن إدراك الغاية من الوجود ليس بالأمر الثانوي الذي يمكن أن تتجنبه الأيديولوجيات بسهولة، ولا يمكن أن يكون أثر انعدامه من التصور على حياة البشر إلا مدمراً، إذ لا يمكن بحال إحداث شرخ فكري في العقل البشري بين التصور عن الغاية من الوجود والمنهج والقيم من جهة، وبين الحياة من جهة أخرى، كما ولا يصح أن تخلو الحياة من ذلك التصور؛ والعلمانية إنما هي فصل لذلك التصور عن الحياة نفسها!

كذلك، إن فصل منهج الحياة -الذي تريد العلمانية للإنسان أن يخطه بعيداً عن أي معتقد يضع له تصوراً عن وظيفة ذلك الإنسان في الحياة (الغاية من وجوده، والمسئوليات والتكاليف المترتبة على هذا التصور) - هو أمر بالغ في التناقض! فكيف لإنسان أن يعزل منهج حياته عن السؤال المركزي المتعلق بدوره ووظيفته ومسئولياته التي وجد في هذه الحياة ليقوم بها!

حيث إن ذلك التصور عن الوجود والحياة لا بد وأن يعطي آليةً (ميكانيزماً) أو طريقةً أو منهجاً يبين السلوك والاعتقاد الذي يجب القيام به لأجل بلوغ تلك الغاية أو ذلك الهدف الذي لأجله يعيش الإنسان في هذه الحياة!

خصوصا وأن العلمانية نأت بنفسها عن أن تقدم له تفسيرا يوضح دوره ووظيفته في الوجود، وهدفه من العيش -باستثناء التركيز على المنافع واللذات الآنية وإطلاق العنان للحريات السلوكية- وبالتالي فهي عمدت على أن تقطع الحبل السُّرِّيَّ بين السلوك والاعتقاد الذي تريد للإنسان أن يطبقه في الحياة عن أي آلية تبين له الأهداف التي تترتب على قيامه بذلك السلوك في إطار تحقيق أي غاية وجودية له! فالعلمانية -من خلال **نظرية المعرفة الخاصة بها (الأبستمولوجيا)**- ترفض بحث "الغائية" والغيب بشكل كامل أصلا!

كذلك الأمر فإن العلمانية نفسها لا تقدم روايةً سرديةً أو تفسيراً داخلياً من نفسها ليبرر وجودها أو الحاجة إليها هي، فمثلا حين يؤمن المسيحي بالإله وبالتثليث وبالمخلِّص وما شابه من قضايا، فإن هذا الإيمان يجعله مسيحياً وعلى أساسه يتّبع تعاليم الديانة المسيحية (من أخلاق وسلوك)، وقس على هذا سائر الأديان وبعض المناهج الأيديولوجية، فالشيوعي يؤمن بالمادية أو بالماركسية، وهو ملحد، الأمر الذي يبرر وصفه بالشيوعي، باقتناعه بالمادية والقوانين الجدلية والنظرية الاشتراكية والنظام المنبثق عنها للحياة. بينما الأمر ليس كذلك في العلمانية، فالعلمانية ليست إلا مجرد محاولة براغماتية لإفراز حل قابل للتطور والتغيير مع الوقت والظروف، لا يمكن وضع اليد على معالمه الفكرية، إذ إنه قابل للتلون والتحوير، وهو نسبي، متغير دائما بحجة التطوير، ويتهرب من أن يضع مقاييس أصولية فكرية تبنى عليها الحلول المفروضة للواقع، بحجة الحيادية أو عدم تسلط فئة على غيرها في المجتمع، أو بحجة دوام التغيير والتطور، أو بحجج أخرى، وستترك للمشرعين في الدول أن يختاروا ضوابط لعلاقات المجتمع وفقا لآرائهم بوصفهم فقهاء دستوريين، ومشرعين، وأحزابا سياسية، **دون أن تؤصل لهم أي أصول يتبعونها عند التشريع**، ودون أن تبين لهم **مقاصد عامة يراد للتشريعات تحقيقها**، وبذلك نرى أن العلمانية **فكرة سلبية**، تعرف ما لا تريد، فهي **لا تريد** أن يكون التشريع صادرا عن أي دين أو قيم خلقية أو عادات مجتمعية، ولكنها **لا تعرف ما تريد**، فهي لا تقدم حلولا لمشاكل الإنسان، **لا تقدم تصورا للمقاييس والقيم والقناعات والمقاصد التي يراد للتشريع أن يوجدها في أي مجتمع أو دولة** حتى يرجع المشرعون إليها حين قيامهم بالتشريع، وأقصى ما قدمته هي مفاهيم هلامية عامة غامضة ضبابية[٢٥٦] مثل تأليه العقل ونواتجه، فهو معيار الصواب والخطأ، ومثل "العقل السليم"، **والحق الطبيعي (بدلا من نظرية: الحق الإلهي)**، ومثل الحريات، وعصمة الإرادة العامة، وجعل العدل الطبيعي والإخاء والحرية والمساواة هي وحدها مصدر التشريع، وهذه كلها مفاهيم فضفاضة غامضة قابلة للتأويل والتغيير والتضارب بحيث يصعب على المشرع مراعاتها أو حتى التحقق

---

[٢٥٦] على سبيل المثال "دارت أفكار المدارس العلمانية التي تمثل عقلانية عصر التنوير، وعاطفية روسو، ونفعية بنثام على الأفكار التالية: إن العقل المجرد هو الموجه لمسار التطور الاجتماعي والإنسان خيِّرٌ بطبيعته، ولكن المؤسسات الاجتماعية قد أفسدته، تقاليد البشر أساطير خادعة، قدرة البشرية على التقدم اللانهائي، غاية المصلح الأخلاقي والسياسي تحرير الإنسان من العقائد القديمة والمؤسسات القديمة، ومستقبل الإنسان يكمن في حرية خالصة وديمقراطية بلا حدود، والسلطة السياسية هي أداة الإصلاح". (الأصولية والعلمانية، مراد وهبة ص ٢٠-٢١.) فكما ترى هذه أفكار فلسفية وليست مقاييس تشريعية، وليست حلولا تفصيلية للمشاكل الناتجة عن الاجتماع.

من مراعاتها في كل شأن، وبحثها الموغل في النظرية، والمنفصل عن الواقع في فصل السلطات ومنع استئثار قلة من المجتمع بها، لمنع الاستبداد، الأمر الذي نجدها قد غضت الطرف عنه تماماً حين مورست العلمانية في الواقع!

## إحاطة الإنسان برؤية مادية ميكانيكية عبثية

أما عن الرؤية المادية الميكانيكية التي أحاطت الإنسان بها، فإننا سنجد لو أنعمنا النظر في التحولات الخطرة التي أسبغتها هيمنة الحضارة الغربية وتسلطها اليوم في العالم وعلى البشرية، سنجدها أعادت هيكلة الإنسان في هذا العصر وفق رؤية علمانية ميكانيكية، أرخت العنان لنسج حياته وفق ماكينةٍ ماديةٍ بحتةٍ، فَصَلَتْهُ عن ذاتِهِ، وسحقتْ كينونَتَهُ، ليتمظهرَ إنساناً غريباً عن إنسانيته، مُعْرِضَاً عن إله السمواتِ خالقِ الكونِ والإنسانِ والحياةِ، وعن فردوسِ السماءِ الموعودِ جزاءً على إحسانِ العملِ في هذه الحياةِ، مُقْبِلاً على عبادةِ آلِهةٍ أرضيةٍ جديدةٍ، محجوبةٍ بغطاءِ العلمانيةِ والحداثةِ حيناً، وستارِ التقدمِ التقنيِّ حيناً آخرَ، تَعِدُهُ بفردوسٍ أرضيٍّ تسوسُهُ الرغباتُ والشهواتُ الهائجةُ، وتعظيمُ اللذاتِ، فأورثته هذه النظرة الأرضية ضنكَ المعيشة، وشِقوةَ الروح[٢٥٧]، وخواء الفكر، وحيرةً ولا أدريةً تَسَرْبَلَ بها، ولم يعد يُبالي!

لو أنعمنا النظر أكثر لوجدنا انقلاباً كاملاً على مفاهيمِ الثقافةِ والحضارةِ بتفريغها التامّ من كل قيمةٍ ومعنى، ومن كل بعدٍ إنسانيٍّ يمثّلُ سُلَّمَ القيمِ الاجتماعيّةِ والمعارفِ والمعتقداتِ والفنونِ والأخلاقِ والتقاليدِ والفلسفةِ وباقي المواهبِ والقابليّاتِ والعاداتِ المميزةِ للمجتمعاتِ، وتحويلها إلى القيمةِ الماديةِ والمنفعةِ الآنيَّةِ واختزالِها في زيادَةِ الإنتاجِ والتسويقِ والربحِ فقط، ومراكمةِ الكَمِّ على الكَمِّ، من سلعٍ ومعدلاتِ إنتاجٍ واستهلاكٍ، حتى غدا الاختراعُ هو أبو الحاجة، **وتحول الإنسانُ نفسه ليكون سلعةً**، أو مادةً دعائيةً لترويجِ سلعةٍ لا يزيدُ ثمنها عن ربعِ دينارٍ!

وتحولت المجتمعاتُ من أن تكونَ كياناتٍ ثقافيةٍ تتجسد قيمُها في نمطِ عيشِها إلى مجموعاتٍ استهلاكيةٍ، لم تلبث طويلاً بعد خوائِها الفكريِّ الثقافيِّ الحضاريِّ ذلك، والذي صاحبه إذكاءٌ لنارِ العنصريةِ والتفرقةِ والتناحرِ والإفناءِ حتى دارت فيما بينها رحى حروب ودماء تسفك، لها أول وما لها آخر، وانبهر الناس بالتقدم التكنولوجي على حساب التراجع الشديد في مجال القيمِ الإنسانيَّةِ، ولم تتمكن العلومُ والتقنيةُ من حلِّ مشكلاتِ العالمِ، **ولا أفضت لتفسيرِ معنى الوجودِ**، ولم تزد اللاأدريينَ إلا مزيداً من الشك والتِّيْهِ والوَحشةِ والحَيْرَةِ والصُّدودِ، لذلك، نجد أن العلمانية لم تجب على الأسئلة المصيرية للإنسان، فكانت أوّل مبدأ في تاريخ البشرية يقوم على تجاهل قضية الإنسان المصيرية، مما أنتج حضارة الشقاء والقلق، حيث يعيش الإنسان جاهلاً بكينونته وصيرورته.

يقول كولن ولسون في كتاب (سقوط الحضارة): "أَنْظُرُ إلى حضارتنا نظري إلى شيء رخيص تافه، باعتبار أنها تُمثل انحطاط جميع المقاييس العقلية."

ويقول المؤرخ أرنولد توينبي: "إن الحضارة الغربية مصابة بالخواء الروحي الذي يُحوّل الإنسان إلى قزم مشوّه يفتقد عناصر الوجود الإنساني، فيعيش الحد الأدنى من حياته، وهو حد وجوده المادي فحسب، والذي **يُحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف**، ويُحول حياته إلى **جحيم مشوب بالقلق والحيرة والتمزق النفسي**".

---

[٢٥٧] الدكتورة كريمة دوز: الوثنية الجديدة: الأشكال الجديدة لعبادة الإنسان الحديث بتصرف.

ويقول الكاتب والسياسي الفرنسي أندري مالرو: Malraux "حضارتنا هى الأولى في التاريخ، التى إذا طرح السؤال الأهم "ما معنى الحياة؟"، أجابت "لا أعرف" على مدى القرن، فشلت كل محاولات الإجابة"![٢٥٨]

## تحولات الليبرالية.. من التنظير لتحرير الإنسان إلى تشييئه تمهيدا لابتلاعه:

في مقالته الشهيرة، التي نشرت عام ١٧٨٤، أوضح الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" جوهر مشروع التنوير والحداثة، وهو "تحرير الإنسان من كل قوى الاستلاب التي تقف بينه وبين حريته في ممارسة اختياراته وإعمال عقله وتحديد مصيره، وتشكيل تصوراته عن العالم"[٢٥٩]؛

ذلك العالم الذي أخذ يقتصر شيئا فشيئاً على مملكة الطبيعة، أي العالم الحسي المادي الذي يمكن أن يخضع للتجربة، والذي يحمل جميع أسراره وآليات فهمه داخله، دون الحاجة لإقحام الميتافيزيقيا أو أي مرجعيات غيبية تتجاوزه في عملية فهمه، خصوصا في "عصر التنوير، عصر الإيمان بقدرة العقل على **فض كل مغاليق هذا الوجود**."[٢٦٠]، "![٢٦١].

فالحرية باعتبارها -من وجهة نظرهم- إعادة الاعتبار للإنسان في هذا العالم، (الإنسان الأبيض الأوروبي المنتمي للقوى البورجوازية الصاعد نجمها في أوروبا، صاحب الطموحات الاقتصادية الواسعة، الراغبة في إنهاء الملكية المطلقة والقضاء على النظام الإقطاعي الذي يقف بينها وبين حقها في حرية التملك والتجارة والتنقل والتصرف) ورفع أغلال القوى التي تسلب وجوده وذاتيته؛ كانت **الحرية هي الشعار الأبرز لعصر التنوير والحداثة**، واعتبرت تلك الحقوق أخلاقيات عامة ومقدسة لا يمكن التنازل عنها، وتمركزت فلسفتها حول الإنسان.

بتمركزها حول الحرية الفردية كقيمة مطلقة، اعتبر أندرو هيود أن الأيديولوجيا الليبرالية "هي **الأيديولوجيا الأكثر ارتباطا بفلسفة التنوير** وتعبيراً عنها وبنظرتها للإنسان والتاريخ".

---

[٢٥٨] أنظر مقالة بعنوان: الفاتحة: من الله.. لله.. إلى الله.. الكاتب: ياسين بن علي. والدكتورة كريمة دوز: الوثنية الجديدة: الأشكال الجديدة لعبادة الإنسان الحديث بتصرف.

[٢٥٩] أنظر: استذئاب الليبرالية.. من النضال لتحرير الإنسان إلى النضال لابتلاعه، ويحيا الفرد ويسقط المجتمع.. المسيرة المظلمة للفردانية في الغرب،شريف مراد، ميدان، الجزيرة نت. هوبز: الدولة التنين {الإرهاصات الأولية للعقد الاجتماعي}، سليم اللويزي، ما هي الليبرالية؟ موقع: حكمة، نص مترجم د. جيرالد غس وآخرون، ترجمة: أمين حمزاوي، مراجعة: سيرين الحاج حسين، والمنشور على (موسوعة ستانفورد للفلسفة). نقد الليبرالية، عيوب الليبرالية وأخطاؤها، د. الطيب بوعزة، مفهوم الحرية، عبد الله العروي.

[٢٦٠] فلسفة العلم في القرن العشرين د. يمنى طريف الخولي ص ١٢،

[٢٦١] يقول الأستاذ عباس العقاد في كتابه "الله" ص ٤٩-٥١: "وقد كان للحاسة الدينية فضل الإنقاذ من هذه الجهالة الحيوانية [يعني جهالة قصر الموجودات على المحسوس فقط، بالادعاء أن كل ما هو منظور أو ملموس أو مسموع فهو واقع لا شك فيه، وكل ما خفي على النظر فهو والمعدوم سواء]، لأنها جعلت عالم الخفاء مستقر وجود، ولم تتركه مستقر فناء، فتعلم الإنسان أن يؤمن بوجود شيء لا يراه ولا يلمسه بيديه، وكان هذا فتحا علميا، لم ينحصر في عالم التدين والاعتقاد، لأنه وسع آفاق الوجود وفتح البصيرة للبحث عنه في عالم غير عالم المحسوسات والملموسات، ولو ظل الإنسان ينكر كل شيء لا يحسه لما خسر بذلك الديانات وحدها، بل خسر معها العلوم والمعارف وقيم الآداب والأخلاق.... ويجيء الماديون في الزمن الأخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم وإصلاح للعقول وتقويم لمبادئ التفكير، والواقع أنهم في إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى إلى أعرق عصور في القدم، ليقولوا للناس مرة أخرى إن الموجود هو المحسوس وإن المعدوم في الأنظار والأسماع معدوم كذلك في ظاهر الوجود وخافيه، وكل ما بينهم وهمج البداءة من الفرق في هذا الخطأ، أن حسهم الحديث يلبس النظارة ويضع المسماع على أذنيه.". انتهى مختصرا.

آذن القرن السابع عشر والثامن عشر بتحولات فكرية هائلة في أوروبا، التي رزحت تحت مزيج من النظام الكنسي/الاقطاعي الذي كان يحول بين **الإنسان الأوروبي وبين "حقه" في التملك والحرية**، وتحديد مصيره بنفسه، **بلا** حقوق سياسية تمكنه من المشاركة في الحكم واختيار من يحكمه، إذ تصارعت الملكية ومجلس النواب (البرلمان) والكنيسة على تلك الحقوق (أواخر القرن السادس عشر أوائل السابع عشر، في مجتمع بريطاني بروتستانتي يعمل على قلع كل أثر للبابوية المكروهة، إبان بروز توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) وجون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤) (وهما فيلسوفان منظِّران سياسيان)، ولا أخرى تعطيه قيمة إنسانية ترتفع به، ويشعر معها بكرامته ودوره في الحياة[٢٦٢].

## التحولات الفكرية بين مفاهيم عصر النهضة وفلسفة ما بعد الحداثة:

وأما أثر التحولات الفكرية في الفكر الغربي، وأثرها على الإنسان والمجتمع، فكانت مرحلة الحداثة وكان عمادها وركنها هو إلغاء الدين، أو تحييده، أو فصله، أو بتعبير مارتن هايدجر "الانسلاخ عن المقدسات ونزع الطابع الإلهي عنها"، ويقول آلان توران في كتابه (نقد الحداثة): "تحل فكرة الحداثة فكرة العلم، محل فكرة "الله" في قلب المجتمع، وتقصر الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصة بكل فرد، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإنه لا يكفي أن تكون هناك تطبيقات تكنولوجية للعلم كي نتكلم عن مجتمع حديث، ينبغي أيضا حماية النشاط العقلي من الدعايات السياسية أو الاعتقادات الدينية... ترتبط فكرة الحداثة إذن ارتباطا وثيقا بالعقلنة"[٢٦٣]

تأسست الحداثة[٢٦٤] بتأثر شديد بأفكار عصر التنوير على فكرتين: فكرة الثورة على التقليد، وفكرة مركزية العقل، لكن على حساب المشاعر والقيم الإنسانية، بحيث أضحت العقلانية قهرا، وتركيزا لتفوق الإنسان الأبيض الأوروبي وغطرسته، وحقه في استلاب واستعباد البشر والأمم الأخرى، وفي هذا السياق "صفق عظيم مفكري الحداثة في أوروبا (هيجل) لما سمَّاه بانتصار الروح الأوروبية وعودتها إلى مجدها عند احتلال فرنسا للجزائر"، وكانت خطابات الاستشراق تتمركز حول الطابع الاستعماري، نجد أيضا أن فرانسوا ماري أرويه المعروف باسم فولتير الذي هاجم الكنيسة الكاثوليكية وآمن أن "مصير الإنسان بين يديه وليس في الجنة". وشجعت أفكاره الناس على القتال ضد امتيازات وهيمنة الكنيسة، واعتُبر الفيلسوف الفرنسي "رمزاً لعهد التنوير"، وذاعت شهرته بسبب سخريته الفلسفية الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية وخاصة حرية المعتقد، نجد أنه: كان عنصريا

---

[٢٦٢] أنظر: استذئاب الليبرالية.. من النضال لتحرير الإنسان إلى النضال لابتلاعه، ويحيا الفرد ويسقط المجتمع.. المسيرة المظلمة للفردانية في الغرب، شريف مراد، ميدان، الجزيرة نت. هوبز: الدولة التنين {الإرهاصات الأولية للعقد الاجتماعي}، سليم اللويزي، ما هي الليبرالية؟ موقع: حكمة، نص مترجم د. جيرالد غس وآخرون، ترجمة: أمين حمزاوي، مراجعة: سيرين الحاج حسين، والمنشور على (موسوعة ستانفورد للفلسفة). نقد الليبرالية، عيوب الليبرالية وأخطاؤها، د. الطيب بوعزة، مفهوم الحرية، عبد الله العروي.

[٢٦٣] نقض الفكر الغربي الرأسمالي مبدأ وحضارة وثقافة، من إصدارات حزب التحرير صفر ١٤٤٣ هـ، أيلول ٢٠٢١ م. ص ١٤-١٥

[٢٦٤] الحداثة هي مدرسة فكرية أو حركة ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وتمتد فترة ما بعد الحداثة من سنة ١٩٧٠-١٩٩٠ م، ويعيد كثير من الباحثين نشأة مفهوم ما بعد الحداثة وإرهاصاته إلى الفيلسوف الألماني نيتشه الذي نادى بموت الإله (الإنسان المقدس)، وليعلن أنه لا حقيقة مطلقة طالما أن هناك اكتشافات جديدة خارج سيطرة الإنسان، ويؤرخ لها توينبي بسبعينات القرن التاسع عشر، أي إن هناك اختلافات في تاريخ ظهور الحركة، ولكن الحداثة تأثرت تأثرا واضحا بأفكار عصر التنوير والنهضة الأوروبي منذ القرن السابع عشر.

بحسب تقرير لمجلة فورين بوليسي، كان فولتير قد استثمر شخصيًا في شركة الهند الشرقية الفرنسية، التي تأسست عام ١٦٦٤ لاستغلال العالم الجديد، بما في ذلك تجارة العبيد الأفارقة الذين تم بيعهم كسلع من أجل الربح. ومع ذلك، فقد أحب تعريف نفسه بأنه "فيلسوف تاجر" وبالتأكيد قام بتمويل شركة الهند الشرقية الفرنسية بلا شك في أربعينيات القرن ١٨، عندما ركزت فرقاطاتها المسلحة على الرحلات التجارية إلى أفريقيا. بالإضافة إلى امتلاك أسهم الشركات، تم توثيق أن فولتير وضع أمواله الخاصة مباشرة في مغامرات نقل الرقيق بواسطة سفن مثل Le Saint-Georges، التي غادرت قادس، إسبانيا، في ديسمبر/كانون الأول ١٧٥١ متجهة إلى غينيا... وكانت كراهيته الشديدة للجماعات الدينية كافية بسهولة للتحريض على العنف ضدهم، وأكدت عنصريته البيولوجية أن هناك تدرجات لأشكال الحياة وأن السود جاؤوا في مكان ما بالقرب من القاع، بعيدًا عن "القرود". وعام ١٧٦٩ صور فولتير في أحد كتبه الأفارقة على أنهم "حيوانات" ذات "أنف أسود مسطح بذكاء ضئيل أو معدوم"."[٢٦٥] الأمر الذي دفع لإزالة تمثال فولتير من خارج الأكاديمية الفرنسية في باريس في أغسطس/آب في حمأة مهاجمة رموز العنصرية والعبودية التي اجتاحت العالم الغربي في أواسط عام ٢٠٢٠ إثر تحركات "حياة السود مهمة" Black Lives Matter.

إذن، فمن الطبيعي أن نتساءل عن شعارات العلمانية وعصر التنوير الأولى: الحرية، المساواة، الإخاء، هل هي لكل البشر؟ أم للجنس الأبيض فقط؟[٢٦٦] بل فوق ذلك: للرجال من الجنس الأبيض دون النساء!

"ناقش ستيوارت ميل في كتاب "عن الحرية" أن "الحرية كمبدأ، لا مجال لتطبيقها على أية حالة سابقة على الوقت الذي يبلغ فيه البشر القدرة على التطور بواسطة المناقشة الحرة على قدم المساواة" من ثم فإن "الاستبداد هو نظام مشروع للحكم في التعامل مع البرابرة، على شرط أن تكون غايته تطورهم"[٢٦٧]. غالبًا ما يتم تجاهل هذا المقطع – المُشبّع بالروح الإمبريالية للقرن التاسع عشر- (وربما كما يعتقد البعض العنصرية الكامنة) من قبل المدافعين عن ميل وذلك بداعي الحرج.[٢٦٨] لكن هذا لا يعني أن مثل هذه المقاطع الميلينية ظلت من دون مدافعين "مرموقي الفكر". –انظر على سبيل المثال(2011) Inder Marawah .."[٢٦٩]

---

[٢٦٥] فيلسوف الثورة الفرنسية "المبجّل".. هل نشر فولتير التنوير أم الظلام والاستعباد؟ الجزيرة نت. وتقرير المجلة الأميركية فورين بولسي، الذي كتبته الصحفية الفرنسية الجزائرية نبيلة رمضان.

[٢٦٦] يشير مصطلح "التفوق الأبيض"(White Supremacy) ، وفقًا لمعجم ميريام ويبستر، إلى الأيديولوجية العنصرية الشاملة التي ترى أن العرق الأبيض متفوق في الأصل على باقي الأعراق، وينبغي أن يسود عليها.

[267] (1963, vol. 18: 224)

[268] (Parekh, 1994; Parekh, 1995; Mehta, 1999; Pitts, 2005)

[٢٦٩] ما هي الليبرالية؟ موقع: حكمة، نص مترجم د. جيرالد غس وآخرون، ترجمة: أمين حمزاوي، مراجعة: سيرين الحاج حسين، والمنشور على (موسوعة ستانفورد للفلسفة).

## لسنا عنصريين، بل كثير من الناس الغربيين أيضا يكتوون اليوم من نفس النار التي اكتوت منها البشرية

لكن قد يتساءل إنسان غربي، -وهو صادق في تساؤله- ليقول: أنا لا أؤمن بالعنصرية، ولا بتفوق الجنس الأبيض، ولم أرث هذه الموروثات الثقافية، ولست أؤيد الحروب، ومع ذلك، فإننا نريد أن نؤكد وبشدة، أننا نناهض كل أشكال العنصرية ونبغضها، ولا يمكن أن ننظر إلى الإنسان الغربي كجنس أبيض، وإنما كنا ندرس مرحلة بغيضة في تاريخ البشرية قامت في أوروبا منذ عصر النهضة، ملأت جنبات العالم بتاريخ متوحش للاستعمار الأوروبي، وفظائعه التي تعتبر من أسوأ التصرفات في تاريخ الجنس البشري، ولا شك بأن نتائجها مستمرة إلى اليوم، وأن كثيرا من الدول الغربية اليوم، ما زالت تستعمر أجزاء كثيرة من أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، وما زالت تمارس نفس الممارسات الاستعمارية السابقة، بأشكال جديدة، وما زال العالم يكتوي بنار هيمنتها الرأسمالية، وشركاتها العابرة للقارات، ونهبها لثروات الشعوب، **ولا يتحمل أحد وزر أحد**، فنحن لا نحمل الإنسان الغربي اليوم الذي ينظر إلى الاستعمار نظرة ازدراء، ويستنكر الحروب، ويرى حق الأمم الأخرى في العيش الكريم، لا نحمله أيا من أوزار الإنسان الأوروبي في القرون السابقة، والذي كان يعترف بعنصريته ويؤمن بتفوق الجنس الأبيض وحقه في استعمار الشعوب الأخرى، واستقى نظرته تلك من مفكري عصر النهضة، وسار في ركاب دوله التي انطلقت تستعمر العالم، وتنهب خيرات الشعوب وثرواتها، وتسوقها عبيدا، ومن ثم تخوض الحروب تلو الحروب، ذلك هو الإنسان الذي هاجمناه في السطور الماضية، بل فوق ذلك: إن كثيرا من الناس في الغرب اليوم يعانون أشد المعاناة من آثار هذه الرؤى الثقافية والاقتصادية والنفسية، فتنتشر فيهم الأمراض النفسية وقد غرقوا في وحل الديون الهائلة، والفراغ الروحي وانتشرت من حولهم في مجتمعاتهم آفات الشذوذ السلوكي والجريمة والسجون المكتظة، فهم أيضا ضحايا لعين المشكلة التي يعاني منها الناس في العالم كله جراء هيمنة الحضارة الغربية على العالم، وجراء سياسات دولهم الحاضرة الاقتصادية والثقافية والقانونية التي أفرزت تلك الأوضاع!

## الانتقال من تأليه الإنسان ومركزيته للكون إلى تأليه ومركزية السوق الحرة!

وتمركزت الحداثة حول فكرة الحرية والعلمانية، واعتبرت أن الإنسان هو جوهر كل شيء، فهو سيد الكون، ومركزه، وكانت أفكار "إيمانويل كانط" ذات بريق مهم في تطوير الأفكار التي قامت الحداثة عليها، ولكن الحداثة لم تستطع تحرير الإنسان، بل على العكس، كانت شعاراتها المناهضة للعنصرية وتخليص الانسان من الاستغلال واهية وغير حقيقية.

والحداثة هي **مرحلة انتقالية قصيرة** استمرت فيها سيادة الفكر النفعي مع تزايد وتعمق آثاره على كافة أصعدة الحياة، فلقد واجهت الدولة القومية تحديات بظهور النزعات العرقية، **الأمر الذي أفرز حربين عالميتين**، وكذلك أصبحت حركيات السوق (الخالية من القيم) تهدد سيادة الدولة القومية، واستبدل الاستعمارَ العسكريَّ بأشكال أخرى من الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي، واتجه السلوك العام نحو الاستهلاكية الشرهة، واستمرت مرحلة الحداثة حتى ظهرت إرهاصات ما بعد الحداثة كردة فعل على **الإخفاقات الحضارية والفكرية التي أفرزها عصر التنوير**.

ثم ظهرت "ما بعد الحداثة" في ظروف سياسية معقدة فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة، وانتشار التسلح النووي، وظهور حقوق الإنسان، وظهور وانتشار الفلسفات اللاعقلانية، كالسريالية، والوجودية، والفرويدية، والعبثية، والعدمية... وقد كانت التفكيكية مُعبّراً رئيسا للانتقال من مرحلة الحداثة إلى ما بعد الحداثة. ومن ثم، فقد كانت ما بعد الحداثة مفهوماً مناقضاً ومدلولاً مضاداً للحداثة. ولذلك، "احتفلت ما بعد الحداثة بأنموذج **التشظي والتشتيت واللاتقريرية** كمقابل لشموليات الحداثة وثوابتها، وزعزعت الثقة بالأنموذج الكوني، وبالخطية التقدمية، وبعلاقة النتيجة بأسبابها، **وحاربت العقل والعقلانية**، ودعت إلى خلق أساطير جديدة تتناسب مع مفاهيمها التي ترفض النماذج المتعالية، وتضع محلها الضرورات الروحية، وضرورة قبول التغيير المستمر، وتبجيل اللحظة الحاضرة المعاشة"[٢٧٠].

في هذه المرحلة تَنَحَّتْ فكرةُ مركزية الإنسان جانبا، ولأجل بلوغ الأهداف التي سعت الحداثة لبلوغها وفشلت فيها، قامت مرحلة ما بعد الحداثة على نقدٍ "وتصحيح داخلي" لأفكار الحداثة، بما يتواءم مع الأشكال الجديدة للهيمنة، في ظل عقلية غربية (أوروبية وأمريكية) قائمة على السيطرة والاستلاب، عن طريق **أفكارتقوم بتفتيت الإنسان وتفكيكه**، عبر **تحويله إلى كائن عبثي متناقض مغترب**. **وتفكيك المجتمعات وتفتيتها**، بإقامتها على فكرة **الفردانية وفكرة الأقليات**، فلا "أغلبية" في المجتمع لها حق فرض قيمها أو تشريعاتها في الحياة، فالكل أقليات، المرأة والطفل والشواذ والمستقيمون والأقليات العرقية والدينية...الخ.

**أصبح الاستهلاك هو الهدف النهائي من الوجود، ومحركه: الحرية واللهو والتملك**، واتسعت معدلات العولمة **لتتضخم مؤسسات الشركات متعددة الجنسيات والعابرة للقارات والمنظمات غير الحكومية الدولية**، وتتحول القضايا العالمية من الاستعمار والتحرّر إلى قضايا المحافظة على البيئة، والمساواة بين المرأة والرجل وبين الناس، وحماية حقوق الإنسان، ورعاية الحيوان، وثورة المعلومات. لقد غيّرت ما بعد الحداثة النظام الإمبريالي القديم المبني على توازن الرعب، إلى نظام يدعو إلى الديمقراطية **وفتح العقول والحدود أمام العولمة والسوق الواحدة والرأسمالية**، فكانت مرحلة انتقال من عنف الحداثة إلى الليونة والانسياب: **لإغراء الآخر وتفكيكه تحت شعارات وأمنيات خيالية**. من وجهة أخرى ضعفت في المجتمعات الصناعية المتقدمة مؤسساتٌ اجتماعيةٌ صغيرة بطبعها مثل الأسرة، بسبب الإسهاب في مسألة المساواة بين الرجل والمرأة، وظهرت بجانبها أشكال أخرى للمعيشة العائلية مثل زواج الرجال أو زواج النساء، وزاد عدد النساء اللاتي يطلبن الطلاق فشاعت ظاهرة امرأة وطفل أو امرأتان وأطفال، كل ذلك مستنداً على خلفية من غياب الثوابت والمعايير الحاكمة لأخلاقيات المجتمع والتطور التكنولوجي الذي يتيح بدائل لم تكن موجودة من قبل.[٢٧١]

لقد قامت ما بعد الحداثة **لنقد فشل أفكار الحداثة** وأساليبها في بلوغ غاياتها، والاستعاضة عنها بأفكار وأساليب جديدة **تعيد النظر في المجتمعات والأسرة والثقافات والإنسان والطبيعة** وآليات التشتيت والتشكيك

---

[٢٧٠] د. سعد البازعي وميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، ص:١٤٢. مدخل إلى مفهوم ما بعد الحداثة د. جميل حمداوي، موقع الألوكة،

[٢٧١] الدكتور عبد الوهاب المسيري، العلمانية، أرشيف إسلام أون لاين.

والتشريح والتفكيك (بانتقاد اللوغوس، أي قانون التفكير المنطقي)، والاختلاف، والتغريب، **والعدمية، والفوضى، واللانظام، واللاانسجام، وعدم وضوح الهوية، واللامعنى، واللامركز.**

كانت ما بعد الحداثة تهدف إلى تقويض الفكر الغربي، وفضح الأيديولوجيات السائدة المتآكلة، وذلك باستعمال لغة الاختلاف والتضاد والتناقض، **والتشكيك في المعارف اليقينية**، وتقويض (العقل والمنطق والانسجام والنظام)، وتقوم في ذلك بالاتكاء على **فلسفة عدمية، فوضوية، تُغيِّبُ المعنى**، بمعنى أن فلسفات ما بعد الحداثة هي فلسفات لا تقدم بدائل عملية واقعية وبرجماتية، بل هي فلسفات عبثية لا معقولة، تنشر اليأس والشكوى والفوضى في المجتمع.

وفي هذا الصدد، يقول ديفيد كارتر (David Karter) في كتابه (النظرية الأدبية): "وتعبر هذه المواقف من "ما بعد الحداثة" عن موقف **متشكك بشكل جوهري لجميع المعارف البشرية**، وقد أثرت هذه المواقف على العديد من التخصصات الأكاديمية وميادين النشاط الإنساني (من علم الاجتماع إلى القانون والدراسات الثقافية، من بين الميادين الأخرى). وبالنسبة للكثيرين **تعد ما بعد الحداثة عدمية على نحو خطير، فهي تقوض أي معنى للنظام والسيطرة المركزية للتجربة. فلا العالم ولا الذات لهما وحدة متماسكة**".[٢٧٢]

وبعد[٢٧٣] أن **كان الإنسان** في العلمانية الأولى هو **سيد الكون ومركزه**، وكان مرجعية ذاته الفردية، منغلقاً عليها، لا يستمد معياريةً إلا من ذاته، متجاوزاً الطبيعةَ والمادةَ بقوةِ إرادتِهِ، فهو إنسانٌ فردٌ لا يفكر إلا في مصلحته ولذَّته، كفردٍ، أي إن الإنسان قد أَلَّهَ ذاتَهُ في مواجهة الطبيعةِ وفي مواجهة الآخرين، وأصبح إنساناً إمبريالياً عنصرياً يحاول استعباد الآخرين، ثم ما لبثت التحولات الفكرية في الفكر الغربي أن اكتشفت أن **الطبيعة أو المادة** هي موضع الحلول، وأنها مرجعية ذاتها، تكتفي بذاتها، **فهي مركز الكون بدلا من الإنسان**، إذ إن لها قوانينها التي يخضع لها الإنسان، ولا يستطيع تجاوزها، فلا بد للإنسان من أن يذعن للطبيعة، أي **تم تفكيك الإنساني ورده إلى الطبيعي المادي**، فأضحت المادة والطبيعة مركز الكون في المصطلح الما بعد حداثي، ثم ما لبثت التحولات الفكرية في فكر ما بعد الحداثة أن اتخذت **الصيرورة والنسبية مركز الحلول والمرجعية النهائية**، فلا مطلقات، ولا ثبات، والتغيير هو الثابت الوحيد، **وتفكك العالم بحيث لم يعد له أي مركز**، عالم لا يوجد فيه قمة أو قاع، أو يمين أو يسار، أو ذكر أو أنثى، وإنما يأخذ شكلاً مسطحاً تقف فيه جميع الكائنات الإنسانية والطبيعية على نفس السطح وتُصَفّى فيه كل الثنائيات، وتنفصل الدوال عن المدلولات فتتراقص بلا جذور، ولا مرجعية ولا أسس، وتصبح كلمة إنسان دالا بلا مدلول، أو دالا متعدد المدلولات، وهذا هو التفكيك الكامل، وهو أيضا الانتقال من عالم التحديث والحداثة (الإمبريالية) إلى عصر ما بعد الحداثة (والنظام العالمي الجديد)، وتم تغييب الإنساني وتفكيكه وتقويضه، وتذويبه إما في عالمٍ مركزهُ الطبيعةُ أو في عالمٍ لا مركزَ لهُ. كل هذه التحولات في ظل **صراع داروني يكون البقاء فيه للأقوى**، استمر الحال حتى تم ابتلاع الإنسان والتخلص من فكرة أنه مركزي، وتحويل الإنسان لشيء مادي في **عالم مركزه: السوق الحرة!**

---

[٢٧٢] ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، ص:١٣١.

[٢٧٣] بتصرف عن الدكتور عبد الوهاب المسيري: قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى، ص ٤-٨

إذا تركزت لديك هذه التحولات الخطيرة في الفكر الغربي، والتي انعكست على حياة الإنسان، فإنك لن تجد صعوبة في ربط مشاكل الإنسان، وخوائه الروحي، وشذوذه السلوكي، وفراغه الذي أسقطه في مستنقع اللاأدرية، والعبثية، وبالتالي كان عرضة للأمراض النفسية، وكانت المجتمعات والدول عرضة لاستعمار القوي للضعيف، ونهب الثروات، وإفراز الفقر، وما ينتج عن هذا كله من مشاكل ملأت أرجاء الأرض، ثم يقوم السائل بالسؤال: أين عدل الله؟ لماذا لا يتدخل الإله لينهي الشر المنتشر في الأرض! أو لماذا لم يخلقنا الله في الجنة! وهي ولا شك أسئلة غير مشروعة!

## العدل الإلهي، والسببية:

بداية لا يُقاس العدل الإلهي على مفهوم العدل كما يفهمه البشر، ولا يُسأل الله تعالى عما يفعل، فليس المقصود من البحث هنا إسقاط فهم البشر للعدل على الله تعالى، ولكن المقصود أنه قد ثبت أن الله تعالى قد بين لنا أنه أقام القسط والعدل في السموات والأرض، وحرم على نفسه الظلم، فهذه "**محاولة**" لفهم نظام الكون وكيف جرى مفهوم القسط والعدل في ثناياه بما يقيم الحجة على المخلوقات بأنهم تساووا في الفرص، والآلات، والأنظمة، والمسئوليات، وأن من تخلف عن فهم القوانين الناظمة لهذا كله، ووقع ضحية ظلمٍ من أخذ بالأسباب ولكنه استغلها استغلالا خطأ، أو ضحية عدم أخذه بالأسباب، **فإنه يتحمل مسئولية ذلك**، ولا يقال بأن نظام القسط الذي أقامه الله في الدنيا لم يحقق له ما حققه لغيره!

**فحجة الله تعالى بالغة، وقائمة، ولا ينفع الإنسان أن يغفل أو يتهاون في دراسة السببية والسنن وأن يأخذ بها!**

فقد وجدتُ بالتفكير أن الله تعالى إذ:

١) قدر وخلق الكون والإنسان والحياة والمجتمعات وفقا لسنن كونية، وأخرى مجتمعية، ولأنظمة سببية دقيقة، ثابتة، مضطردة، لا تحابي أحدا،

٢) وأرسل رسله بالبينات ليقوم الناس بالقسط، أي إنه أنزل النظام الحكيم الذي يحقق الغاية من الخلق!

٣) وزود الناس بآلة العقل والتفكير بالغة التعقيد والدقة والقدرة،

٤) وجعل للاجتماع وفقا لغايات معينة قوة تجلب تحقيق غايات لا يستطيعها الفرد بمفرده،

٥) وجعل ذلك في مُكْنة الإنسان والمجتمع وأرشده لطرق استثمار ذلك كله ليحقق الغايات!

فإنه قد أقام الحجة على الخلق جميعا، فمن أخذ بأسباب الفلاح من إنسان أو مجتمع ارتقى، ومن أعرض عنها ارتكس، فعلى صعيد الفرد، وجدنا أن الإنسان مزودٌ بقدراتٍ خارقةٍ للفهمِ والإدراكِ، والحركةِ في الدُّنيا، فإن استغلها الاستغلال الصحيح وأخذ بالأسباب حصلت له المُسَبَّبَاتُ، ولكن هناك عوائق مجتمعية قد تحول بينه وبين بلوغ المسببات، كأن يكون المجتمع والدولة منحطتين، أو أن يتحكم أولوا القوة بمقدرات الدولة فيمنعون عنها الأفراد أو ما شابه،

لذلك وجدنا أسباب تغيير ونهضة المجتمعات في متناول اليد، وقوانينها الصارمة تجري في كل مجتمع، فلا بد أن يعمل الإنسان أيضا على هذا الصعيد كي يرقى، وينهض ويتمكن من تحقيق ما أوجِدَ فيه من أسباب فردية لم يتمكن منها كفرد أن يحصل على الغايات، لوجود المعوقات، فإذا ما أزيلت تلك المعوقات **بالعمل الجماعي المنظم** وتحمل المسئوليات الجماعية، تحققت الغايات، فالأصل أن يكون نتاج ذلك أن توزع الثروات توزيعاً صحيحاً، وبالتالي أن يمحي الفقر، لأن الأرض ممتلئة بالثروات بما يكفي أن يغمر البشرية كلها بالخيرات، والأصل أن يكثف الناس البحث العلمي لدراسة الأمراض واكتشاف أدويتها وعلاجها، دون أن تتدخل الأغراض الرأسمالية الجشعة في صرف الأبحاث إلى وجهة زيادة ثراء شركات الأدوية فقط، على حساب علاج الأمراض، وأن يرافق هذه الجهود اضطلاع الدولة بمسؤوليات رعوية تقيم برامج صحية عالية المستوى وتمكن منها الجميع، وهذا من شأنه أن يخلص الملايين من أمراضهم، والأصل أن يقف الناس في وجه من يطغى ويستأثر بالحكم ويقيم الحروب لغايات استعمارية، وهكذا فإن الكثير من أنواع الشر والمآسي هي نتاج مباشر لعمل الإنسان، وفي مُكنته أن يمنعها.

وهكذا، فإن العدل في إيجاد وإنشاء الكون وفقا لقوانين السببية، تمكن الناس جميعا من الارتقاء والانتفاع والعيش بما يحقق لهم التساوي (مع شيء من الاختلاف في التوزيع، فقد يحصل البعض على شطر أكبر من المال مقابل شطر أقل من الأولاد مثلا، والآخرون بالعكس، ولكنهم في النهاية نالوا نصيبهم الكامل من الحصص)، ولكن الناس إذا أعرضوا عن الأخذ بالأسباب، وارتكسوا ولم يتحقق حصولهم على ما به يتساووا في التوزيع، فإنها مسئوليتهم وذنبهم، وستجد التفاوت أينما نظرت، وستتساءل عن حال أقوام استشرت بهم الأوبئة والفقر والضلال، وتقارنه بحال أقوام لم يجدوا من ذلك شيئا، وقد تعجب! ولكنك إن فهمت وتأملت في أن العدل الإلهي المطلق كان قد وفر لهم الأسباب ووفر لهم الآلات، ووفر لهم النظام الصحيح، ووفر لهم كل ما لو أخذوا به لارتقوا ونهضوا وعزوا واغتنوا ورضوا، وأناط بهم التكليف والمسئوليات، فالسببية حققت العدل بشكل دقيق، وحمّلت الإنسان مسئولية أن يرفع عن نفسه ومجتمعه الظلم والاستعمار والتفاوت وجور الأحكام، وما شابه، فإن قصر فعليه أن يتحمل التبعات! لزال عنك التعجب!

ومن التطبيق العملي لهذا الأمر، أننا وجدنا مثلا أن عصر التابعين امتاز بالسكوت على نظام الوراثة في انتقال الحكم بدلا من الشورى، وكان ذلك نتيجة أنهم رأوا الاقتتال والصراع في عصر الصحابة رضي الله عنهم في معركة صفين، ووقعة الجمل، وما صاحبه من دماء، فآثروا عدم التغيير، ومضت سنة الوراثة، وكانت وبالا عظيما على الدولة، فهؤلاء إذ رضوا بهذا فإنهم لم يأخذوا بالأسباب المجتمعية للتغيير وإظهار ثقل المجتمع في رفض الانحراف عن فكرة الشورى، والضغط بقوة الكيان المجتمعي بقيادة العلماء ليمنعوا الانحراف، فلما سكتوا، أو لما لم يلتحقوا بالثورات التي عملت على التغيير لتحقق القوة القادرة على تحصيل المطلوب، مضت فيهم عادة الوراثة زهاء ألف وأربعمائة سنة! فالنظام الإسلامي بين لهم سنن التغيير، وسنن الإنكار، وسنن الشورى، فإذ لم يأخذوا بها حصل ما حصل من فواجع في التاريخ!

## التصور الإسلامي لفلسفة الخير والشر:

من الطبيعي أن يكون الأخذ والرد بين الفلاسفة الماديين وبين اللاهوتيين في أوروبا حيال هذه المسألة، لأن نظرتهم للمسألة قاصرة، وتحوي عناصر لاهوتية لا أصل لها، وفي المقابل، فإن الفلاسفة الماديين ينظرون للمسألة نظرة مادية بحتة منفصلة عن فلسفة الوجود، وسوف ترى تفنيدا تاماً لنظرتهم إن شاء الله، وعلينا هنا أن نبرز جوانب تظهر بعض خصائص التصور الإسلامي لفلسفة الخير والشر.

وحين تفكر أرسطو في الصفات التي يتوجب على الذات التي يُعهد إليها تفسير وجود العالم ونشأته وبنيته الشاسعة أن تمتلكها، توصل إلى الصفات التالية: "الثبات، واللامادية، وطلاقة القدرة، وطلاقة العلم، والوحدانية أو عدم القابلية للتجزئة، و**الخير التام**، والوجود الضروري".

إلا إنَّ العقل قد يضفي على الخالق سبحانه صفات خاطئة لا وجود لها، كما فعلت الجن بظنهم أن لن يبعث الله أحداً، وفعل الذين يتقربون إلى الله بعبادة آلهة تكون وسيطا بينهم وبينه، وأيضاً افترض النصارى أنه يستوجب على الله تعالى القدير الرحيم أن يكون (كُلِّيَّ المحبة والقدرة والرحمة والخير)، مما ترتب عليه سؤال الملحدين: هل "يجب" على الإله أن تتجلى هذه المحبة والرحمة والقدرة والخير، بأن يتدخل بقدرته ومحبته فيمنع شقاء البشرية وحروبها وآلامها، بل وأن يقضي على الشر كله في الحياة الدنيا!

فكان التساؤل هذا مبنيا على أهوائهم التي افترضت طريقةً وتصوراتٍ أوجبوا على الخالق أن يتعامل وفقا لها مع المخلوقات، فيختار لهم الأصلحَ، وفقا لفهمهم الذي انبتَّ تماما عن تصور فلسفة الوجود، وانبتَّ أيضاً عن منهج الاستخلاف الرباني الصحيح لعمارة الأرض، ذلك المنهج الضامن لمنع الإفساد في الأرض وسفك الدماء فيها بغير حق، والضامن لإحقاق الحقوق ليقوم الناس بالقسط، والقائم على ابتلاء واختبار الإنسان العاقل في الحياة الدنيا بإعطائه مطلق حرية الإرادة في اختيار معتقداته وأفعاله، وتمكينه من خيار اتباع المنهج الرباني أو الإعراض عنه، مع تحميله المسئولية الكاملة على أفكاره وأفعاله وقراراته، وما ينتج عنها من ظلم لنفسه أو لغيره، ومع المحاسبة الدقيقة على أفكاره وسلوكه وعلاقاته، والثواب والعقاب، وإنصاف المظلوم من الظالم في الدنيا والآخرة.

وواقع الأمر أنهم قد حمّلوا الخالقَ وِزرَ ظلم وطغيان واستبداد الناس بعضهم ببعض، حين انحرف الناس عن منهج الله تعالى، فأساءوا استعمال حرية الإرادة والاختيار وأفسدوا، وزودهم الله تعالى بالمنهج القويم للاستخلاف في الأرض ليمنع الإفساد والظلم فأعرضوا عنه، واستبدلوا به منهجا قائما على رؤية علمانية مادية ميكانيكية فَصَلت الإنسان عن ذاته، وسحقت كينونته، واستسلم لرغباته الجامحة وشهواته الهائجة، مما أورثه ضنك المعيشة، وشقوة الروح، وخواء الفكر، وأمراض النفس، وحيرة ولا أدرية تسربل بها، ولم يعد يبالي! وانعكس هذا على تصورهم للصالح والفاسد، والخير والشر.

وكان التساؤل هذا مبنيا أيضا على فهمهم الذي لا يتسق مع التصور الصحيح من خلق الإنسان والحياة لاختبار الإنسان أيهم أحسن عملا، في السراء والضراء، وبتسخير الكون لغاية هذا الاختبار، وتنظيم الكون وفقا لنواميس كونية ثابتة لا تتخلف، وتنظيم الخالق حياة البشر وفقا لنواميس إنسانية ومجتمعية سببية أرشدهم إليها يمكنهم استغلالها لمكافحة وعلاج أسباب الشر والفساد الذي ينشأ عن مخالفتهم للتنظيم الرباني الصحيح

لعمارة الأرض، والتي تصوب لهم تقدير الخير والشر، فليس كل ما تكرهه شر، ولا كل ما تحبه خير، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ذلك التنظيم الرباني الذي يربط الحياة الدنيا بالآخرة، فيضفي على مفاهيم الصبر على الابتلاء، والتوكل على الله، والأجر ورفع الدرجات رفعةً لفاعلها، ونظرة إيجابية لها تهون معها مصائب الدنيا وتذل معها صعابها.

فهمهم المنبت عن حكمة الابتلاء بالخير والشر، وعن حكمة تدافع الناس واحتياجهم بعضهم لبعض، ورفع بعضهم فوق بعض ضرورةً لعمارة الأرض ولتخفيف ثقل مسئوليات الإنسان عن إشباع حاجاته الأساسية والكمالية عليه، باعتماده على غيره في ذلك الإشباع، ولضمان قدرته على الوصول للسلع والخدمات بصورة يستطيعها ضمن كيان مجتمعي.

ففلسفة الوجود هذه التي يمكن أن نسميها تجاوزا "بالخطة الكونية" لا تتفق أبداً مع جعل الأرض جنة خالية من الشقاء والعنت، وتدافع الناس واحتياجهم بعضهم لبعض، وأسباب الفلاح والنجاح والألم والأمراض التي تذكر بنعم الله، وتدفع الناس لشكره عليها، أو التقرب إليه لشفائها، وفي كلٍّ خير لهم، أو تكافؤهم أضعاف عنتهم في الدنيا وفي الآخرة، وغير ذلك من المفاهيم التي تجعل السؤال الأصلي عن تجليات محبة الله ورحمته وقدرته بالغ الخطأ أصلا!

لقد كتب الله تعالى على نفسه الرحمة، ولكن كثيرا من البشر أعرض عنه واضطروا أنفسهم إلى أن لا يقعوا في موجبات رحمته -سبحانه وتعالى- لشدة ظلمهم لأنفسهم، وأعرضوا عن منهجه الضمين بأن يعيش الناس رغد العيش، فكان إعراضهم سببا مباشرا لمعيشة ضنكى.

ولعل في الباب التالي تلخيصا لبعض القضايا التي تبين "فلسفة الإسلام" في الابتلاء والخير والشر، ثم سنتناول بشيء من التفصيل إظهار الجوانب العظيمة مما ظاهره الابتلاء في الأبواب التي تلي.

## ملخص تنفيذي لأهم القضايا المتعلقة بنظرة الإسلام إلى الابتلاءات والمحن:

### الابتلاءات من حيث المسئولية:

**أولا**: نوع ناتج عن تقصير الإنسان في معرفة السنن والأخذ بالأسباب والتفاعل مع القدر، تقع مسئوليته على الإنسان، (يمكن تفاديه):

أمثلة: أمراض وراثية يمكن تفاديها بإجراء فحوصات قبل الزواج، سكوت العامة على طغيان الخاصة يوقعهم في العقوبة، العيش في منطقة نشاط بركاني، تنقيب عن ثروات باطنية يفضي لخلل في طبقات الأرض ينتج عنه زلازل، جلطات ناتجة عن إهمال الصحة، سرطان ناتج عن التدخين، تعاطي الأم للكحول خلال الحمل، الحروب، الاستعمار، الفقر الناتج عن الحروب والاستعمار وتوزيع الثروات غير العادل بين الناس، وعدم استغلالهم للسنن المجتمعية التي تكافح الاستعمار وتحسن التصرف في استغلال الثروات وتوزيعها، الأمراض الناتجة عن تلوث البيئة، تدمير الناس للنظام البيئي.

**ثانياً**: ونوع يصيب الناس بغير علمهم أو خيارهم أو تقصيرهم (القضاء). (لا يمكن تفاديه)

أمثلة: زلزال في منطقة غير معروفة بالنشاط الزلزالي، تسونامي يصعب التنبؤ به، أن يولد الطفل أعمى.

**الابتلاءات من حيث الأهداف:**

**أولا: أهداف إيجابية**: (الأصل أن ينظر للابتلاءات كلها نظرة إيجابية، وأجر الصبر على الابتلاء أعظم من كثير من الطاعات)

١. كشف عن معدن الإيمان والصدق، تعجيل عقوبة، تكفير سيئات، رفع درجات، تقريب العبد من ربه، تطهير وتقوية وصقل للنفوس، تمييز للصفوف.

٢. تنبيه عن غفلة للرجوع إلى الله (تخويف للمبتلى نفسه أو غيره)، تحذير وعبرة للغير لردهم إلى الله.

٣. تذكير بنعم منسية، فالمرض يذكر بنعمة الصحة، فيشكر الله عليها.

٤. ضرورات كونية ناتجة عن نظام الوجود (يمكن تفادي بعضها بدراسة السنن، ولا يمكن تفادي بعضها الآخر) (الزلازل، البراكين، الفيضانات، انفجارات المستعرات الأعظمية) ضرورات لصلاحية الأرض للحياة واستمرارها ضمن نظام الوجود.

٥. دليل على تحكم الله في الكون، فلم يمارس الله تعالى سلطانه مرة واحدة فقط حين خلق النواميس وأجرى الكون بناء عليها، بل هي من مقتضيات قيوميته سبحانه وتعالى، فيظهر فيها قدرته، ويظهر منها حاجة الكون لخالقه، "ليس في الكون ما يدل على أنه، ككل أو بأجزائه، واجب الوجود، أي: ما يلزم من عدمه محال عقلي، ومن دلائل حقيقة أنه كذلك وجود الشر فيه كنقص معبر عن قصوره، وفي تعبير الكون عن قصوره **دلالة على حاجته إلى واجب الوجود** الذي يرجح وجوده على عدمه، وهو الله سبحانه، فالشر بذلك دليل من الأدلة على وجود الله، إذ لا يستقيم فهمنا لأصل الوجود دون واجب للوجود في كونٍ ممكن الوجود"[٢٧٤].

٦. وهذا الدليل على تحكم الله يعطي الحياة معنى إيجابيا، إذ إن الحياة من غير الله تكون مادية بحتة، عبثية بحتة، عدمية بحتة (Nihilism) خالية من أي مقاييس تعيّن الخير والشر، والحسن والقبح، تصيب الناس بالتأزم النفسي، والانكفاء والانطواء للفشل الذريع في أي محاولة لتفسير الوجود ومعناه، والحياة والغاية منها، والمقاييس التي سيبني عليها الإنسان سلوكه، لذلك فوجود (الشر) أو (الابتلاء) من أعظم الأدلة على الحاجة للخالق ومن أعظم الطرق لجعل حياة الإنسان ذات قيمة بوصل الإنسان بخالقه، وبتعميق هذه الصلة من خلال الابتلاءات.

٧. "إذا كان الله غير موجود، فالقيم الأخلاقية الموضوعية، والخير والشر غير موجودة، لكن معضلة الشر تنطلق من إثبات وجود الشر، إذن فالمعايير الأخلاقية الموضوعية، والخير والشر موجودة، إذن:

[٢٧٤] صاغ هذا البرهان أبو منصور الماتريدي، مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٦٧. يراجع كتابنا: (نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىْ وُجُوْدِ الْخَالِقِ) فصل: "دليل الإلزام العقلي بين الوجود والعدم" لتفصيل شرح هذا التدليل.

فالله موجود[٢٧٥]" وإذا اقتضى التفكير وجود أمور على صورة معينة هي الخير، وأنها الأصل في الوجود، فلا بد من معيار متعال على المادة يفرض على الذهن أن يتصور وجود تمييز بين الخير والشر، ولا يمكن ذلك في كون مادي بحت كما استنبط الدكتور سامي عامري.

٨. مثلا أن يهدم العدو بيتا لمجاهد، أو أن يقتل أسرة بصاروخ، فينظر المؤمن لمصير هذه الأسرة بأن الله اجتباها شهداء، فانتقلت إلى خير دار وخير جوار، فهو خير لها، ورفع درجات، وإقامة للحجة على المسلمين ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ﴾، إن لم تقوموا بمسئولية نصرة الدين والمستضعفين، فهي تحصيل حاصل نصر من الله، فإما أن تنالوا شرف القيام بواجبكم أو يستخلف قوما غيركم يحبهم ويحبونه وينصرون الله ودينه، وينصر الله بهم دينه، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ **لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا** فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا **وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ **وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾، فمن وثق بنصر الله وأن لله جنود السموات والأرض، أقوى من حاملات الطائرات والقنابل النووية، يسخرها لنصرة دينه وأوليائه، تفوق كل ما لديهم من عدد وعدة وعتاد، نظر إلى معايير النصر والهزيمة بعينٍ غير التي ينظر بها غيره، ولم يحزن، لأن الله معنا، وحين يتأمل قوله تعالى ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا **كَتَبَ اللّهُ لَنَا** هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة ٥١]، أي **إن كل ما يصيبنا** ما كان إلاّ **بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك، فهو نفع محض، فليست النهاية أن يموت من يموت تحت ركام بيت مقصوف، أو قنبلة فسفورية، بل إن نهاية دنياهم بشرى لهم بما اصطفاهم الله واختارهم من بين خلقه شهداء، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، وذلك كله في ظل قانون ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، شعر بمدى البشرى والفوز العظيم الذي نالهم، ولم ينظر بعين الخوف لما يمتلكه عدوهم من آلات قتل وتدمير، ولم يسأل عن الدائرة، فإن الله تعالى ناصر دينه ومعز المؤمنين، ومذل الكافرين.**

**ثانيا: أهداف سلبية** (استحقاق، جزاء وفاق للذنوب):

١. عقوبات عاجلة (جراء ذنوب، جراء عدم تفعيل السنن والسكوت على الظالمين).

**ثالثا: أهداف غير معروفة العو اقب للإنسان**: (يميل الإنسان لتفسير الابتلاءات بناء على ما يصيب من نفع أو ضر متخيل للإنسان، ولا يعلم العواقب الحقيقية على الحقيقة، ولا يربط الابتلاء المعين بنعم أخرى تعوض عنه، فيتخيل أنه ابتلاء في حين أنه نعمة، مثلا بيتهوفن أصيب بالصمم وكان أعظم موسيقي)، مثال: أن يصاب المولود بالعمى، ويعوضه الله نعما أخرى، أو يدخله الجنة بغير حساب، أن يموت في زلزال فيكون شهيدا.

---

[٢٧٥] اللاهوتي وليام لين كريغ، مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٦٢ – ٦٤. راجع أيضا: تاريخ الفلسفة الغربية، براتراند راسل، الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة، ص ١٨٢ تعريف لوك للشر والخير.

## الابتلاءات والمحن والعدل الإلهي:

١) قصور عقل الإنسان عن إدراك الحكم جراء عدم معرفته بالمعلومات الكافية اللازمة لدراسة القضايا المتعلقة، فلا يعلم عواقب الأمور، والمقاييس الصحيحة للحكم، ولا أحوال الآخرة.

٢) اتخاذ الإنسان لمقاييس خطأ للنفع والضر، وظنه أن الخير هو ما جلب له منفعة مادية، أو شهوة أو لذة،

٣) توزيع عادل للنعم: سلب نعمة البصر مقابل زيادة في نعمة البصيرة، توزيع النعم المختلفة بنسب متفاوتة، لكن المحصلة النهائية هو توزيع عادل للنعم على الخلق.

٤) لا بد للإنسان من أين يموت، فأن يقضي الله بموته في زلزال، ويجعل هذا الموت عبرة للغير، ليس بظلم للإنسان الذي يموت في الزلزال.

٥) العقوبات على الذنوب، والعقوبات زواجر جوابر وهي موافقة للذنوب لا تتعدى.

٦) لا يفسد الشذوذ الذي يحصل في الأفراد صحة النظام الكلي، ويرجع بعضه لمسئوليات قصر فيها الإنسان عن إدراك السنن وتفعيلها، وبعضها من التوزيع المتفاوت للنعم، فيسلط النظر على النعم المفقودة متناسيا النعم الأخرى، أو يسلط النظر على مقارنة إنسان بغيره في نعمة واحدة، دون مقارنة إجمالي النعم الموزعة على كليهما، وبعضها من القضاء الذي ينسجم مع خطة الوجود (الموت حتمي)

٧) لا يبحث موضوع الابتلاء ومعضلة الشر، إلا إذا عم النظر إلى الجانب الآخر، وهو الخير ونعم الله تعالى السابغة على المخلوقات، والتنظيم الدقيق للكون وللحياة، فالابتلاء استثناء والشر عَرَضٌ ونشوزٌ، من الأصل الذي يعم، وحالات خاصة تخدم أغراضا خاصة، والأصل هو النظام والخير. (يقول ديفيد بك (David Beck): "لو كان الإلحاد حقا، لما كان علينا أن نتوقع أن يكون الخير هو الرئيس أو الأكثر أصالة من الشر، في الحقيقة، كنا سنتوقع ألا يكون هناك قسما الخير والشر أصلا"[٢٧٦]

## المساواة: زاوية خطأ لدراسة العدل:

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ الزخرف

حين ندرس كثيرا من القيم التي تقوم عليها الأسس الفكرية للعلمانية، التي يروج من خلالها لفكرة "المساواة"، فإننا نلحظ ملحظا هاما يسري على تلك "القيم" وهو "ضبابية المصطلح"، فماذا نعني بالمساواة؟ هل هي التطابق؟ (قطعا لا، لاختلاف الهوية والطبيعة بين الرجل والمرأة مثلا)، فتجريد المرأة من هويتها لتطابق الرجل يعني إهمال أهميتها في المجتمع، وجعل الرجل مثالا متفوقا غايتها أن تبلغ شأوه، أم التشابه (التطابق التقريبي)؟ أم التماثل؟

[٢٧٦] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٥٩.

(وهو أقرب معنى للمساواة)، يفترض حكم المساواة وجود فرق بين الأشياء التي تتم مقارنتها. وفقًا لهذا التعريف، فإن فكرة المساواة "الكاملة" أو "المطلقة" متناقضة مع نفسها.[٢٧٧]

ومن ناحية أخرى، فإننا وجدنا أنه لا بد في الحياة من وجود فروقات تفضي إلى اختلاف الذكر عن الأنثى، اختلاف الخبير عن غير الخبير، اختلاف المهندس عن الطبيب، وهكذا، فهل هذه الفروقات مهمة في الحياة، أم أنه في الأساس لا بد أن يكون الكل سواسية؟

لا يشك عاقل أن من ضرورات الحياة وجود الاختلافات بين الناس، فلأجل تمام حصول الاجتماع المفضي إلى قيام مجتمع سليم، يحتاج المجتمع إلى الصانع والمستهلك، وإلى الطبيب والمدرس، وإلى الذكر والأنثى، وأي محاولة لإزالة هذه الفروقات يؤدي إلى دمار المجتمعات وإلى الثغرات الهائلة التي تفضي إلى فساد الحياة.

ومن المهم إدراك أن بعض هذه الفروقات مترتبة على اختيار البشر، مثل أن يختار الإنسان أن يكون طبيبا، أو مهندسا، أو ألا يعمل، وبالتالي فتفاوت القيمة والمنزلة والعطاء المترتب على ذلك أمر طبيعي، ينتج عنه أن يسد كل منهم مكانا ودورا في الحياة،لكن الله آتاهم أساسا العقل والملكات -في أصل الخلقة- والتي تهيئ لكل منهم أن يختار، ويبلغ، إلا إن بعض الخيارات قد تكون صعبة نتيجة الظلم الاجتماعي في المجتمعات التي لا تقيم موازين العدالة في تمكين الناس من الفرص نفسها، أو الظلم الناشئ عن تطبيق نظام معين برمته، كالنظام الرأسمالي على سبيل المثال وطريقة تركيبة النظام التي تشكلت من أجل ضمان حقوق فئات على حساب فئات أخرى، وهناك فروق لا خيار للبشر فيها، كأن يكون الإنسان ذكرا أو أنثى،

ومن المهم فهم أن كلا من الذكر والأنثى، من الطبيب والمدرس والعامل يسد ثغرة مهمة في المجتمع فله قيمة اجتماعية مهمة، وأن بعض هذه الفروقات ترفع البعض فوق البعض في حالات معينة، وتساويهم في حالات أخرى، فمكانة الأم مثلا لا تضاهؤها مكانة! بسبب الجهود المطلوبة للوصول لهذه المنزلة، يمكن تفاوتهم في الأجور، فمثلا الطبيب يدرس سبع سنوات طب يصل فيها الليل بالنهار، والذي اختار تخصصا أسهل في الحياة لا يحتاج لمثل هذا المجهود لا يصح أن يساوى بينهما في الأجر، ولكنهما يتساويان في القيمة الإنسانية وفي أساس الاستعدادات على سبيل المثال! وفي تمكين الكل من الفرص نفسها بالتساوي، (بما يشبه الأواني المستطرقة).

إن اتخاذ مسألة المساواة أساسا في البحث خطأ فكري جسيم، لأن "كون المرأة تساوي الرجل، أو الرجل يساوي المرأة ليست بالمسألة ذات البال التي تؤثر في مجرى الحياة، بل المسألة التي يجب أن تُبحث هي الحقوق والواجبات التي للإنسان، فهي متماثلة بين الرجل والمرأة حيثما تقتضي طبيعتهما التماثل، ومن العدل أن تختلف تلك الحقوق والواجبات حين تقتضي طبيعتهما الاختلاف، ومن الظلم أن تتساوى الحقوق والواجبات حين الاختلاف في طبيعتهما، وهذا التباين لا يُبحث من باب المساواة أو عدم المساواة، بل يبحث بوصفه مشكلة ينتج عنها سلوكٌ وعلاقات مجتمعية تقتضي حلا وعلاجا بوصف الإنسان -ذكرا كان أم أنثى- كائنا اجتماعيا متفاوت القوى والاستعدادات بما يؤثر في طبيعة حقوقه وواجباته بناء على ذلك.

---

[277] https://plato.stanford.edu/entries/equality/

فحين تكون الحقوق والواجبات إنسانية تتعلق بالإنسان كإنسان تجد التماثل في الحقوق والواجبات بين الذكر والأنثى في الإسلام، قال تعالى في سورة (النحل ٩٧): ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وكذلك جعل للمرأة كما للرجل الحق في أن تمتلك ما تشاء وأن تنمي أموالها كما تشاء -وفقا لضوابط الشرع المنطبقة على الذكر والأنثى سواء بسواء- قال تعالى في سورة (النساء ٣٢): ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

وحين تكون هذه الحقوق والواجبات متعلقة باختلاف في طبيعة الرجل والمرأة كأنثى لها مكانتها في المجتمع جُعلت هذه الحقوق والواجبات متنوعة، ويتجلى ذلك في باب الشهادات على سبيل المثال، فشهادة الرجل في الرضاع لا تقبل، وتكفي فيه شهادة امرأة واحدة، لأن هذه الأمور في العادة لا يطلع عليها إلا النساء، كالشهادة على البكارة والشهادة على الولادة، وعلى ذلك فجميع الأمور بين الرجل والمرأة تسير وفق ما تقتضيه الحياة لمجتمع صالح في بيئة إسلامية من التماثل أو التنوع أو التفاوت".[٢٧٨]

وحيث إن للمساواة مفاهيمَ متعددة، فمثلا قد لا يكون من العدل أن تساوي بين ضعيف وقوي في التكاليف المرهقة التي تحتاج لقوة بدنية، فتستفيد بدلا من ذلك من قدرات الضعيف الأخرى، كقدراته الذهنية مثلا، وبالمثل، فلا يجب أن يكون مفهوم المساواة أن تحمل المرأة والرجل على القيام بعين الأعمال، في حين إن حاجة المجتمع ملحة لاضطلاع المرأة بأعمال معينة، والرجل بأعمال أخرى، فتكون النظرة للمساواة أعمق وأبعد نظرا من مجرد القيام بنفس الأعباء الجسدية في العمل، فهو ينقل أثقالا على ظهره من الشارع للطابق الخامس في مشروع بناء، وهي تفعل الأمر ذاته!

بل تتحقق المساواة بقيامه بواجبات معينة تتناسب مع قدراته وطبيعة خلقته وحاجات المجتمع، وقيامها بواجبات معينة مناسبة لطبيعة خلقتها وقدراتها وحاجات المجتمع وحاجاتها هي، وحين تتكامل المهام وحسن القيام بها يتساوون في الثواب والقيمة الاجتماعية، وذلك بالضبط مثل أنه لا يصح أن يكون كل أفراد المجتمع أطباء، فالمجتمع بحاجة للطبيب وللنجار وللمدرس وللوزير، وكذلك بحاجة للذكر وللأنثى!

ويمكن للذكر والأنثى أيضا أن يعملا نفس الأعمال لحاجة المجتمع للمُدرِّسة وللطبيبة حاجته للمدرس وللطبيب! لا مانع من أن تعمل المرأة ما يناسب خِلقتها وطبيعتها من الأعمال المباحة!

ثم لنأخذ المساواة غير المشروطة بين فئات المجتمع في الحقوق السياسية، فالمجتمع بحاجة لحلول المشاكل، فإذا كان لدينا مشكلة اقتصادية وساوينا بين الناس في رأيهم في حلها، ساوينا بين من امتلك دكتوراة في الاقتصاد السياسي، وبين أي شخص آخر لم يدرس كتابا في الاقتصاد في حياته، فهل يا ترى مثل هذه المساواة سينتج عنها الحل الأمثل لمشاكل المجتمع أم أن الغالبية التي لا علاقة لها بالاقتصاد ستفرض حلولا تناسب نظرتها السطحية للمشكلة والتي تتعلق بحلول تتناسب وأهواءها ولا تتناسب مع الصالح العام؟

---

[٢٧٨] الشخصية الإسلامية، تقي الدين النبهاني الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢ ص ٧٦. فصل: المساواة بين المرأة والرجل، بتصرف بسيط.

فالنظام السياسي الذي يتجاهل الفروق العلمية والإدراكية لأفراد المجتمع، ويتجاهل القيمة النسبية لبعض أفراد المجتمع، بل ويفرض نوعا من المساواة غير المشروطة بين أفراد هذا المجتمع ستفضي به هذه المساواة إلى كوارث على المجتمع!

لذلك، فالخلاصة أن القضية الأساس هي: النظام الصحيح الذي يضع كل مسألة في نصابها لصلاح الحياة، وسعادة المجتمع، وأن يستوي الكل في قضايا معينة، ويختلفوا في قضايا أخرى، وبهذا تفهم قضية العدل.

## "الإرادة الحرة" ومسؤولية الخالق عن العلل الواضحة في الخلق.

يصف الفيلسوف الإنجليزي أنتوني فلو موقفه القديم والجديد لمعضلة الشر في كتابه: (هناك إله):

"القضية الأخرى التي غيرت رأيي فيها هي حرية الإرادة؛ حرية الإنسان المطلقة. هذه المسألة لها ثقلها وأهميتها، لأن مسألة ما إذا كنا أحرارًا أم لا؟ تكمن في جوهر أغلب الأديان الرئيسية. في بداياتي في الكتابة المناهضة للأديان، لفتُّ الانتباه إلى تناقض وجود الشر في كونٍ خَلَقَهُ ويَحكمُهُ كيانٌ مطلقُ القدرةِ وكُلِّيُّ المحبة. جاء رد المؤمنين على ذلك التناقض المدرَك المحسوس بادعاء أن الإله يهب الإنسان حرية الإرادة، وأن معظم –إن لم يكن كل– تلك الشرور الواضحة المخزية، سببها جميعا **سوء استخدام الإنسان لهذه العطية الخطيرة**، ولكن النتائج النهائية لتحقق ذلك في المجموع، ستكون أكثر خيرية مما قد يتاح في انعدام وجود الإرادة الحرة. في الواقع، كنت أول من يسمي ذلك ب "دفاع عن الإرادة الحرة".

**وسواء رُمِزَ إليها كمناظرة بين "حرية الإرادة" و"القدر المسبق"، أو في الإطار العلماني بين "حرية الإرادة" و"الحتمية"**، فإن سؤال ما إذا كان لدينا حرية أم لا؛ أمر جوهري. رددت بمحاولة للجمع بين كلا الاتجاهين، وذلك من خلال طرح افتراض يعرف حاليا بالتوافقية (Compatibilism)، فبينما يقول غير التوافقي أن الجبرية التامة غير متوافقة مع حرية الإرادة، يؤكد التوافقي ليس فقط على إمكانية اتساقهما؛ بل الجمع بين القول بأنه يمكن لشخص ما اتخاذ قرار بحرية، وإدراك أن هذا القرار المستقبلي معلوم سلفا لجهة مستقبلية، ولكن أيضا أن القرارات الحرة يمكنها أن تكون حرة وقرارات في آن، حتى ولو كان السبب في حدوثها بالطريقة التي حدثت بها سبب فيزيائي، وحتى ولو كان حدوثها بهذه الطريقة تحتم حدوثها بقانون ما أو بقوانين الطبيعة.

بينما لا زلت أؤمن بقدرة البشر على الاختيار الحر، لكني توصلت في الأعوام اللاحقة لاستحالة الجمع بين الإيمان بكون الخيارات حرة وكونها نتاج أسباب فيزيائية في نفس الوقت، بعبارة أخرى، مبدأ التوافقية لا يعمل. قانون الطبيعة ليس بياناً لحقيقةٍ مجردة عمياء في أن حدثا معينا -كما يحدث- سيعقب بعض الأحداث الأخرى، ولكنه حدوث حدث معين، والذي يستلزم فيزيائياً حتمية حدوث مجموعة أخرى من الأحداث، الأمر الذي يجعل من عدم حدوث المجموعة الأخرى من الأحداث "استحالة فيزيائية" وليس هذا الحال إطلاقا في "الاختيار الحر"[٢٧٩]".

"وفي ضوء ارتدادي عن الاقتناع الكامل بمبدأ التوافقية، فإن أغلب موادي المنشورة عن الاختيار والإرادة الحرة، في السياقات الدينية أو العلمانية على حد سواء، تتطلب المراجعة والتصحيح. ونظرا إلى أن القضية هنا

---

[٢٧٩] هناك إله ص ٧٢-٧٣

تتعلق بالتساؤل الثاني لمجموعة التساؤلات الفلسفية الثلاثة لعمانويل كانت (الإله، والحرية، والأزلية)، فإن تحولي في هذا الأمر، وكما كان الحال في تحولي بشأن موضوع الإله؛ تحولٌ جذريٌ"[٢٨٠]. وقد أجبنا على هذه التساؤلات بوضوح شديد في أبواب: السببية والحتمية في ظل تدبير الله، والتنبؤ وسؤال حرية إرادة الإنسان، وباب: خطة الوجود: هل الإنسان مسلوب الإرادة؟ أين يقع سؤال حرية الإرادة في عالم سببي حتمي؟ ويجدر التنبيه أيضا إلى ضرورة التفريق بين السنن الكونية والعلاقة السببية الفورية فيها بين السبب والنتيجة، وبين السنن المجتمعية الإنسانية، التي يعترض العلاقة السببية فيها: الإنسان العاقل الحر المريد المسئول عن خياراته.

## عدل الإله مطلق القدرة، كلي المحبة/ كلي الرحمة!

تقوم حجة مشكلة الشر على أن "وجود الشر في العالم يتنافى مع أن يكون الرب عليما لأن علمه يقتضي أن يمنع هذا الشر من الوجود، ويتنافى مع أنه قدير، لأن قدرته تقتضي أن يمنع هذا الشر من الوجود، ويتنافى مع أنه رحيم، لأن رحمته تقتضي بمنع هذا الشر من الوجود، ولذلك فإن وجود الشر ينفي وجود هذا الإله الذي لا يمكن أن يفتقد الصفات الثلاث السابقة جملة[٢٨١]" "وتقوم حجة مشكلة الشر على مغالطة وهي افتراض أن كمال الله يتعارض مع إرادته، فإرادته مقيدة بكماله، وأن الحكمة تقتضي أن يكون كل مخلوق كامل الصنعة في ذاته، وهو يحصر أبواب الحكمة"[٢٨٢] في زاوية واحدة (انتفاء الألم، ودوام الملذات) دون التأمل في مزايا الزوايا الأخرى التي أوردناها في الملخص التنفيذي لأهم القضايا المتعلقة بمعضلة الشر، الأمر الذي ينتهي في النهاية بأن على الله أن "يخلق إلها مثله" حتى يثبت له كمال الكمال، وتفترض الحجة أن الشر يتعارض مع الحكمة، ومع القدرة، لكننا بالتأمل وجدنا قصورا وسطحية في حصر الحكمة بمقتضيات هذه النظرة، فمثلا: حين يجتمع الناس على دولة واحدة بنظام يُرسي فيهم الطمأنينة والأمن والاستقرار، ويأتي من ينازع على الحكم ويشق الصف، ويريد فرض نظام يفضي للفساد، فإن قتله (والذي هو في ظاهره شر) إنما هو خيرٌ للمجموع، وعقاب له على ما أراد من الإفساد، حتى وإن حشد معه جماعة تؤيده لمصالح آنية لها، تضر بالمصلحة العامة للمجتمع، فقتلهم جميعا فيه صلاح للمجموع، وموافقٌ للحكمة.

كما أن المعضلة تغفل التأمل في خطة الوجود، وخلق الإنسان حرّ الإرادة المسؤول عن الاستخلاف في الأرض، واختباره في خياراته، الأمر الذي يتعارض مع "جبره على أن يكون كاملا خاليا من العيوب والآثام والأخطاء"، وهم بذلك **يجعلون الجبر أفضل من الاختيار**، ويجعلون غاية خلق الإنسان إسعاد الإنسان لا اختباره على محك العبودية لله، ويجعلون إسعاد الإنسان متمثلا باللذات الآنية، والمتع المادية، ويغفلون القيم الإنسانية والخلقية والدينية التي تجعل للحياة رونقا خاصاً، ويغفلون لذة أن **يتقرب الله لعبده بالابتلاء**، فيتضرع العبد إلى ربه، ويقترب من ربه، فيحس بسعادة روحية هائلة بعد أن نأى عن ربه وراء دنيا مادية، ويغفلون لذة مصارعة الشر بأنواعه، والصبر على الوجع تقربا من الله، ورضا بقضائه، وإلا فإن النفس المسرفة في اللذات، الغارقة في المادية

[٢٨٠] هناك إله ص ٧٦.

[٢٨١] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٢٢.

[٢٨٢] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٦٠ بتصرف

**سرعان ما سيصيبها الضجر**، والذي سيعقبه بشكل حتمي أمراض نفسية من كآبة، ولولا اعتراض اللذات بالألم لما كان للذات المعنى الرائع لها الذي يجليها، فيدرك الإنسان عندها حجم النعم التي يرفل فيها دون أن ينتبه إليها.

ثم إن السؤال عن الحكمة من الشر لا يمكن أن يكون ذا معنى إلا إذا آمن السائل بقيمة الحياة، وتلمس الحكمة في جوانبها المختلفة، ثم رأى أن الحكمة من الشر غير متوافقة وغير متلائمة مع نسيج الحكمة العام الذي يكتنف الحياة، فهذا يعني أن الملحد الذي يطرح قضية الشر دليلا على عدم وجود الإله لا يملك إلا أن يرى الحكمة متألقة في جنبات الكون، إلا في نواحي شذت عن ذلك الإطار في نظره، بحيث يستطيع تعدادها، أو تعداد أشكالها (الحروب والأمراض والمجاعات والفقر...) أما الباقي مما يملأ جنبات الأرض والسموات، فالمرض خروج عن أصل العافية، أو فساد لعمل عضو بينما باقي أعضاء الجسد بخير وعافية، وهكذا، فالباقي إذن: خير موافق للحكمة، فهو أمام إشكالين: كيف يمكن لملحد ينكر وجود الإله أن يفسر كيف لكون عبثي مادي يسير بلا غاية أن يمتلئ بمؤشرات على الحكمة لم ير إلا شذوذات قليلة عنها؟ فالخير هو الأصل، والشر نشاز عن ذلك الأصل، ولكن الكون العدمي العبثي المادي لا يعرف قيمتي الخير والشر أصلاً، فالمادة والطاقة لا تعرفان: الرحمة والعطاء، ولا التنظيم والتدبير، ولا الخير والشر، ولا الحب والكره، ولا الأخلاق، ولا العقل ولا العاطفة، فإذا لم يكن ثمة إله، فلم ومن أين جاء كل هذا الخير الذي وصل أن يكون أصلا قورنت به شذوذات قليلة في منظور الملحد المادي العبثي! فالشر لا يعرف لنفسه وجوداً إلا إذا كان ثمة خير يقارن به، فيكون الشر غيابا للخير في تلك الجزئيات (بحسب المنظور المادي البحت)، وقد أدرك الفيلسوف الوجودي الملحد جون بأول سارتر مبلغ الإحراج الفكري في مسألة أصل التمييز الأخلاقي بين الخير والشر، ولذلك قال: "يجد الوجودي حرجا بالغا في ألا يكون الله موجودا، لأنه بعدم وجوده تنعدم كل إمكانية للعثور على قيم في عالم واضح، لا يمكن أن يكون هناك خير بدهي، لأنه لا يوجد وعي لا نهائي وكامل من الممكن التفكير فيه، لم يُكتب في أي مكان أن "الخير" موجود، ولا أن على المرء أن يكون صادقا أو ألا يكذب[٢٨٣]"، ويوافقه تشارلز دوكينز بقوله: "إنه من العسير جدا الدفاع عن الأخلاق المطلقة على أسس غير دينية[٢٨٤]"

إننا حين نحس بالألم فإن ذلك إنما لوجود جهاز عصبي يستشعر الألم وينقله ضمن شبكة من ألياف طويلة جدا بوسائل غاية في التعقيد إلى الدماغ، فلم وجد هذا الجهاز لتحقيق هذا الشعور؟ وكيف اختلفت الرسائل العصبية الناقلة للألم في حدتها بناء على نوع الألم، ونوع التحذير؟ أهي الصدفة أم العشوائية أو العبثية؟ أم إن لهذا الجهاز فوائد جمة تجعل الإنسان حين يشعر بالألم يلجأ للطبيب ليكتشف أنه بحاجة لعلاج وإلا ربما تلف أحد أعضائه وأفضى به للموت؟ لا يمكن للإنسان العاقل أن ينشئ منظومة هندسية معقدة تحل محل النظام العصبي الناقل للألم، فالألم من أعظم مزايا تصميم الجسد البشري، ومن أكثره فائدة للإنسان" [٢٨٥]

---

[283] Jean-Paul Sartre, Basic Writings 2001 p 32.

[284] Richard Dawkins, The God Delusion, p 232.

[٢٨٥] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٥٧-٧٢ بتصرف

## انعدام المقاييس المؤسسة للأخلاق وللخير والشر في ظل استبعاد الدين:

أولا: لا يمكن أن تؤسس العلمانية (ولا الديمقراطية ولا الليبرالية) ولا الإلحاد لمقاييس للأخلاق ولا للفضيلة ولا للخير ولا للشر، ففلسفة العلمانية قامت على أساس "مادي، حسي" يفضي لانفضاض "المعرفة العلمانية" عن الغيب، وعمّا وراء الطبيعة، والتركيز على الطبيعة، مملكة المعرفة الإنسانية، ومفاهيم الخير والشر ليست مفاهيم مادية، ولا يقع الحس عليها لقياسها أو إخضاعها للتجربة، وبالتالي "فالضمير الأخلاقي" أو "الإنساني" مفاهيم غير مادية، فكيف ستبحثها العلمانية وتؤسس عليها مرجعية للسلوك لوصفه بالأخلاقي؟

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: "الفلسفة الهيومانية في الغرب، بتأكيدها القيم الأخلاقية المطلقة ومقدرة الإنسان على تجاوز واقعه الطبيعي/ المادي وذاته الطبيعية/ المادية، تعبير عن الإله الخفي وعن **البحث** غير الواعي من قبل الإنسان **المادي عن المقدس**، فمثل هذه القيم، ومثل هذه المقدرة **ليس لهما أساس مادي**"[٢٨٦]

من هنا، "عند مناقشة السؤال **الأنطولوجي** (الوجودي) للأخلاق وهو السؤال الفلسفي المتعلق بوجود الأخلاق من عدمها، يفر الملاحدة [والماديون] فتراهم يحاولون صرف الموضوع إلى السؤال الإبستمولوجي (نظرية المعرفة) وهو سؤال يتعلق بكيفية التعرف على القيم الأخلاقية،... فحين نتحدث عن الفلسفة الأخلاقية، ثمة مستويان مهمان للحديث: المستوى الأول: هل للقيم الأخلاقية المطلقة وجود أم لا؟

المستوى الثاني: كيف نتعرف على تلك القيم الأخلاقية إن كان لها وجود؟

فالماديون يبقون السؤال الأول معلقا دون جواب، لأنه يشكل مأزقا حقيقيا ضخما للفلسفة المادية الإلحادية"[٢٨٧] (وذلك لأنهم ماديون، والأخلاق والضمير، والخير والشر كلها مفاهيم غيبية لا يقع الحس عليها).

ثانيا: في ظل طغيان الليبرالية كأساس معرفي منذ عصر النهضة في أوروبا، حرص المنظرون على عدم وضع مبادئ منطقية أو سلطوية أو ثقافية أو طائفية أو تراثية أو دينية أو غير ذلك توجه التفكير البشري لمعرفة الخير من الشر، بدعوى أن هذا سيحد من قدرة العقل على التفكير، وبالتالي يركزون على "خيرية الإنسان" ذلك المفهوم المستعار من المسيحية، [وهم هنا يقعون في إشكال فلسفي عظيم يقعون فيه في الدور، إذ كيف تعرف أن الإنسان خيّر بدون أن تقيسه بمقاييس الخير والشر فما يفعله من خير يجعله خيّرا، أم أنها صك غفران للإنسان يعطيه العلمانيون له يفعل ما يشاء بوصفه خيّرا؟] ومسئولياتهم عن قراراتهم الإنسانية، دون مرجعية إيمان أو دين تحدد لهم أن سلوكياتهم أخلاقية أو غير أخلاقية،

---

[٢٨٦] العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة / ١/ ١٨٩،

[٢٨٧] عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مدخل لفهم الإلحاد الجديد، مركز تكوين، ص ١٥٠، ويضرب أمثلة منها محاولة سام هارس في كتابه: "المشهد الأخلاقي" التنظير أن العلم التجريبي يحدد القيم الإنسانية بأنها التي ترتقي بعافية الإنسان، وبما أن العلم قادر على إخبارنا بما يحقق العافية، فهو قادر على تحديد القيم الأخلاقية الحسنة والقبيحة" ويقول ريتشارد دوكنز في كتاب "وهم الإله": "ليست جميع الأحكام المطلقة مستمدة من الدين، ولكن **من الصعب جدا الدفاع عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين**" The God Delusion 232، ويقول دوكنز أيضا: "ما الذي يمنعنا من القول بأن هتلر كان على صواب؟ أعني هذا سؤال صعب فعلا" http://byfaithonline.com/Richard-dawkins-the-oatheist-evangelist، وفي مناظرة بين حمزة تزوريتزيس، والبروفسور لورنس كراوس، في بريطانيا عنوانها الإسلام أو الإلحاد، أيهما أكثر منطقية؟ قال لورنس كراوس مجيبا على سؤال حول سبب كون زنا المحارم خطأ، قال: "لا يظهر لي أنه خطأ" وأكد "أنه لا يرى مشكلة من ممارسة الجنس بين الأخ وأخته".

ثالثا: وهناك توجه عواقبي يبدأ فيه المرء بالأهداف لا بالقواعد الأخلاقية، لا بمقياس خير أو شر، ومن ثم يقيسون السلوك من خلال تحقيقه للأهداف، فالفعل خير أو حسن أو أخلاقي أو صائب إذا جر نتيجة صالحة، أو عاقبة حسنة، وهذه العاقبة الحسنة أو الصالحة من المقياس الغربي هي: النفعية (Utilitarianism) المادية؛ الأساس الذي بنت عليه الحضارة الغربية مفهوم السعادة، والتي ارتبطت بها فكرة اللذة[٢٨٨] (Hedonism) الحسية، وفكرة الرفاهية (Welfare) كمقاييس غائية، ينقل برتراند راسل في كتابه تاريخ الفلسفة الغربية عن لوك نظريته الأخلاقية فيقول لوك: "تكون الأشياء خيراً أو شراً فقط من حيث ارتباطها باللذة أو الألم، بحيث إننا ندعو "خيرا" ما هو خليق بأن يسبب اللذة أو يزيدها، أو يخفف الألم فينا"، "ما الذي يحرك الرغبة؟ أجيب: السعادة، والسعادة فقط"، "إن تفضيل الرذيلة على الفضيلة هو حكم خاطئ واضح الخطأ"[٢٨٩]

"والتبرير النفعي البراغماتي للأخلاق يفقد الأخلاق قيمتها... وتقرير أن الأخلاق نسبية يفقدها قيمتها المطلقة"[٢٩٠]

وحين يُعْرَضُ لنا السلوك نفسه من شخصين جَرَّ على أحدهما نفعا وعلى الآخر ضررا، (فأحدهما ربح في القمار والآخر خسر منه، أو أن الشخص نفسه ربح مرة وخسر مرات؟ أو أنّ قاتلا مأجورا قتل شخصا وقبض ثمنا ماديا مقابل فعله، بل أصلا فوق ذلك، كيف ستصف القتل نفسه بأنه خير أو شر؟ أو أن تاجرا روج للمخدرات واكتسب ثروة طائلة، ثم استغل نفوذه في الدولة لتقنين تجارتها مثل القنب الهندي مثلا؟[٢٩١]) فعلى أي أساس سنفاضل في اختيار النظام الأخلاقي الذي سيسود المجتمع؟ لا بد أن تصبح مفاضلة أي نظام أخلاقي على آخر مسألة عشوائية لا يمكن الدفاع عنها.

رابعاً: الإنسان كائن اجتماعي، ولا بد أن تضبط علاقاته بالغير على أسس منها تحقيق المصلحة العامة، وفعل الأصوب الذي يرتضيه المجتمع وإن خالف عن رضا الفرد، الأمر الذي يستوجب مقاييس تحدد الخير والشر، والصواب والخطأ، والحسن والقبح، والثواب والعقاب، فليست مقاييس الخير والشر إلا ضرورة لتستقيم حياة البشر، ويصلح اجتماعهم، ولا يمكن للفرد أن يستغني عن هذه المقاييس والمفاهيم في حال الاجتماع، بحجة قدرته

---

[٢٨٨] الفعل الذي ينتج منفعة للإنسان (الفرد) هو المرغوب فيه، والمنفعة -كما عرفها جيريمي بنثام- هي: "كل لذة أو كل سبب لإيجاد لذة، إنها القدرة الكافية في غرض معين على إنتاج ربح أو نفع أو امتياز أو لذة أو خير أو سعادة"، وهكذا تحدد النفعية (Utilitarianism) غاية الإنسان بسعيه إلى الحصول على السعادة، وهذه السعادة تتحقق بكل ما ينفعه، وما ينفع الإنسان هو اللذة، وهذا الرأي هو الذي يشكل التصور العملي الغربي للحياة، إلا أنهم يعبرون عنه حديثا بمفهوم الرفاهية (Welfare)، فيقولون: يقوّم الفعل للقبول الأخلاقي أو الرفض ولعده حسنا أو قبيحا بحسب ما يحقق من رفاه للإنسان بوصفه الفردي أو الجمعي، وما القيم والمعايير الموضوعة إلا لتحقيق ذلك، فالنتيجة واحدة وهي النفعية التي يقررها العقل البشري، ولا دخل للدين أو الإله فيها.

[٢٨٩] تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند راسل، الكتاب الثالث: الفلسفة الحديثة، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي، ص ١٨٣-١٨٤

[٢٩٠] عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مدخل لفهم الإلحاد الجديد، مركز تكوين، ص ١٤٩، ونختلف معه في اعتبار الأخلاق قيما مطلقة، إذ إن البحث ليس في أنها مطلقة أو نسبية، إذ إن الفعل لا يحمل قيمة ذاتية فيه، بل يعتبر خيرا باعتبارات خارجية عنه، فقد يكون القتل خيرا أو شرا بحسب الاعتبارات الخارجية المسلطة عليه، وهنا مربط الفرس.

[٢٩١] عائلة دوبونت في أميركا من العائلات صاحبة النفوذ الضخم، برزت في صناعة البارود والمتفجرات، وخلال الحرب العالمية الأولى أنتجت ٤٠% من القنابل والمتفجرات المستعملة في الحرب، وتسيطر على تجارة القنب الهندي (الماريجوانا)، والذي تخلصت من الحظر المفروض عليه مقابل تصنيعها للبلوتونيوم المستعمل في القنابل الذرية، والدعم المقدم منها في الحرب العالمية الثانية للحكومة الأمريكية!

على فعل ما يشاء، ولما كان الأمر كذلك، كررنا بالسؤال عن مصدر صحيح يتخذ مقياسا لهذه القضايا الضرورية، ووجدنا عدم قدرة العقل أن يكون المرجع الصحيح لهذه القضايا، فلزم أن تؤخذ من الخالق.

خامساً: يقول اللاهوتي وليام لين كريغ: "إذا كان الله غير موجود، فالقيم الأخلاقية الموضوعية، والخير والشر غير موجودة، لكن معضلة الشر تنطلق من إثبات وجود الشر، إذن فالمعايير الأخلاقية الموضوعية، والخير والشر موجودة، إذن: فالله موجود" ويضيف كريغ: "رغم أن المعاناة تشكك على المستوى السطحي في وجود الله، إلا إنها على مستوى أعمق تثبت وجود الله، إذ إنه في غياب الله لا تمثل المعاناة شيئا قبيحا، إذا آمن الملحد أن المعاناة شيء سيء، أو أنها أمر يجب ألا يكون، فهو بذلك يقدّم أحكاما أخلاقية لا يمكن أن توجد إلا إذا وُجد الله"

وفي مناظرة شهيرة بين الفيلسوف برتراند راسل، والفيلسوف: فردريك كوبلستون، جاء فيها:

__راسل__: أنا أشعر أن بعض الأشياء جيدة، والأخرى قبيحة، أنا أحب الأشياء الجيدة، التي أعتقد أنها جيدة، وأكره الأشياء التي أعتقد أنها قبيحة، أنا لا أقول: إن هذه الأشياء جيدة لأنها تشارك في الصلاح الإلهي.

__كوبلستون__: نعم، ولكن ما هو مبررك للتمييز بين الجودة والقبح؟ أو كيف ترى التمييز بينهما؟

__راسل__: ليس عندي أي تبرير أكثر مما لدي لما أميز بين الأزرق والأصفر، ما هو تبريري للتمييز بين الأزرق والأصفر؟ بإمكاني أن أرى أرى أنهما متخالفين.

__كوبلستون__: جيد، هذا تبرير ممتاز، وأنا أوافقك، أنت تميز بين الأزرق والأصفر برؤيتك لهما، فبأي ملكة أنت إذن تميز بين الجودة والقبح؟

__راسل__: بمشاعري"

استفز الحديث السابق أحد الفلاسفة ليقول: لقد كان كوبلستون مؤدبا للغاية، ولو كنت مكانه لسألت راسل: "تدعو بعض الحضارات إلى أن نحب جيراننا، وتدعو أخرى إلى أن نأكلهم، والاختيار قائم في كل منهما على المشاعر، هل عندك تفضيل لأي منهما؟"

"وقد أدرك الفيلسوف الوجودي الملحد الشرس (جون بول سارتر) مبلغ الإحراج الفكري في مسألة أصل التمييز الأخلاقي بين الخير والشر، ولذلك قال: "يجد الوجودي حرجا بالغا في ألا يكون الله موجودا، لأنه بعدم وجوده تنعدم كل إمكانية للعثور على قيم في عالم واضح، لا يمكن أن يكون هناك خير بدهي لأنه لا يوجد وعي لا نهائي وكامل من الممكن التفكير فيه، لم يُكتب في أي مكان أن "الخير" موجود، ولا أن على المرء أن يكون صادقا أو ألا يكذب"،

ويوافقه ديكنز بقوله "إنه من العسير جدا الدفاع عن الأخلاق المطلقة على أسس غير دينية"[٢٩٢].

سادساً: "وأما التيار الإلحادي الذي يدعي أن الأخلاق نسبية، ويقولون بأن الذوق الأخلاقي نسبي، فردي، شخصي، وليس لأحد أن يلوم غيره على فعل ما أو عادة ما إذا كان يرضاهما الملوم، فإن مشكلة الشر لا يمكن أن تتأسس على القول بنسبية الأخلاق، إذ الاعتراض على وجود الرب الرحيم، القدير العليم بوجود الشر لا يمكن أن يكون حتى يَثبت وجود الشر الذي لا يختلف في أنه شر، ولكن عندما يكون الشر محل خلاف ذوقي، فإنه بذلك

---

[٢٩٢] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٦٢ – ٦٤

يغدو مجرد رأي وليس حقيقة يُعترض بها على وجود الله"[٢٩٣]، كما أن الأخلاق النسبية لا يمكن أن تصلح أرضية للتعايش بين الناس في المجتمعات، فلا بد من جهة تحدد الخير والشر، والصواب والخطأ، وأن تفرض رأيها على المجتمع، ولما فشل النظام الغربي في إيجاد جهة تمثل رأي الناس بشكل صحيح، فإن وجود الأخلاق النسبية سيفضي إلى فساد اجتماع الناس، وتنمر قويهم على ضعيفهم بحجة الحرية في التصرف، أو أن يخضعوا لدكتاتورية الدولة التي تفرض عليهم رؤاها، وبالتالي فهذا يثبت فشل نظرية الأخلاق النسبية.

سادساً: وقد لاحظ الثيولوجي المسيحي "رون رودز" أنه "من المستحيل تفريق الشر والخير من دون وجود نقطة إحالة تكون خيّرة مطلقة" أي الإله.

وأضيف لملاحظته: أيضا من دون مقاييس تؤصل أساسا لما يمكن وصفه بالخير أو بالشر وأن يكون مصدر هذه المقاييس قطعياً لتفضي إلى أخلاق مطلقة بغض النظر عن الإنسان، وزمانه، ومكانه، أو مجتمعه: مبتناها على صحة الأحكام، والعصمة من التناقض والاختلافات والنقص والخلل والعبثية، وللموضوعية المتمثلة في البراءة من التحيز والهوى والميل مع الأهواء والمصالح، فلا تحابي أحدا على أحد، والقدرة على النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة وما يؤثر فيها وما يتأثر فيها والإحاطة بها، بمعرفة النفس الإنسانية وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها، وتحقيق التوازن في إشباع حاجات الإنسان العضوية وغرائزه، والتوازن في تحصيل الحقوق الفردية والمصلحة العامة والحق العام، وتحقيق العدل والإنصاف والتيسير ورفع الحرج، فهذه أسس أساسية لا بد أن توجد في المقياس القطعي لإضفاء صفة الخير أو الشر أو تحقيق الصواب والحسن أو القبح في السلوك[٢٩٤]،

وعبّر روسو عن هذا الواقع ببراعة قائلاً: "Il faudrait des Dieux pour donner des lois aux hommes" أي "أننا نحتاج إلى آلهة لكي نسنّ القوانين للناس"!

وبالتالي لتتأسس على أساسها السلطة التي ستكون مرجعية قانونية للثواب والعقاب، وهذه لا يمكن أن توجد إلا عند الخالق سبحانه، ولا يمكن أن يتوصل إليها بالعقل[٢٩٥].

سابعاً: بحث المتكلمون المسلمون قديما تحديد موقف الإنسان من الفعل الضابط للسلوك على أساس زاوية الحسن والقبح، ومبتناها على أساس الكمال والجمال، وزاوية الخير والشر، ومبتناها على أساس النظرة العقائدية أو الأخلاقية، أي **تسليط قيم الإنسان على الفعل والشيء لوصفه بالخير والشر**، وزاوية المدح والذم أو الثواب والعقاب، ومبتناها تسليط نتيجة القيام بالفعل والغاية المرجوة من القيام به عليه.

---

[٢٩٣] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٦٤.

[٢٩٤] قال فولتير - كما أوردها ول ديورانت في (قصة الفلسفة): "...لا بد للبلد ليكون صالحا أن يكون له دين. أريد من زوجتي وخياطي ومحامي أن يؤمنوا بالله، **وبذلك يقل غشّهم وسرقاتهم لي**. وإن كان لا وجود لله يجب علينا أن نخترع إلها..." فالخُلق نفسه في الفكر الغربي لازم بمقدار ما يحقق من مصلحة أو منفعة".

[٢٩٥] راجع كتابنا: (الصندوق الأسود للفكر الغربي) فيه تفصيلات تتعلق بإناطة التشريعات للدولة في النظام الغربي، وإثبات أن هذا أفضى إلى دكتاتورية الأحزاب السياسية، وتسلطها على الإرادة العامة، وسلط الضوء أيضا على الإشكاليات القانونية التي تتعلق بمرجعية الدستور.

فالحسن والقبح باعتبار ملاءمة طبع الإنسان وميوله الفطرية وأغراضه أو منافرته لها، كقولنا إنقاذ الغريق حسن، واتهام البريء قبيح، وما وافق الغرض وجلب منفعة أو دفع ضرا كان حسنا، وأسماه علماء "أصول الفقه" بالمناسب.

لكن العبرة ليست بمجرد إصدار حكم أي حكم، وإنما لضمان صوابية الحكم ومقدرته على معالجة مشاكل بشرية متعلقة بذلك السلوك علاجا صحيحا، دائميا يصل لكل إنسان في كل زمان ومكان، ولتحقيق قيم مجتمعية وفردية، **فلا يكفي لإصدار الحكم على الفعل أن يشعر الإنسان بفطرته بالنفور منه، أو الميل له،**

الأمر الذي لا يحيط العقل به لكثرة الملابسات الخارجية عنه وتعقيداتها، فليس الأمر نظير الحكم على الشيء بأنه حلو وبالتالي حسن، أو مر وبالتالي فهو قبيح، أو صفة الصدق بأنها حسنة، والغش بأنها تصرف قبيح، إذ إن الصدق في المعركة قبيح، فهو اعتبار خارجي ضابط للتصرف، فالفعل في ذاته خال من مرجحات الحسن والقبح، فالأهواء تجعل بعض العقول تميل للزنى، ولشرب الخمر، فلا يكفي ذلك لجعل الحكم الصادر عن العقل صوابا، فَقَدْ فُقِدَ الميزان والمقياس السليم، والفطرة والميول قد يتأثران بعوامل خارجية وثقافية تجعل فطرة الغربي غير فطرة المسلم، والعقول تتراوح قوة وضعفا، دقة في الفهم وضبابية، فلا يتأتى للعقل القدرة على الحكم على كل الأفعال في مختلف الظروف والحالات لغياب عوامل غيبية، أو بسبب نظرة جزئية غير شاملة، أو مرجحات يتبين فسادها فيما بعد، أو مما قد لا يتفطن له العقل من فهم مجزوء للواقع، تقلب الحكم إلى نقيض الصواب في عواقبه، فما تراءى له مصلحة أو جالبا لمنفعة اتضح له أن الشرَّ يكمن في أحد زواياه المعتمة، إذ لا علم له بشكل قاطع بمآلات الأفعال ونتائجها، لهذا السبب درجت تشريعات البشر على الانتقال والتقلب من أقصى النقيض إلى نقيضه!

وهذا لا يجرد العقل البشري (المتأثر بالثقافة الدينية، بشرط أن يكون غير مادي) من القدرة على إصدار الأحكام جملة وتفصيلا، مثل حسن العدل والصدق، وقبح الظلم والعدوان، إلا أن العقل لا يستطيع إدراك حسن ولا قبح جملة من الأفعال لا ضرورة ولا بالتفكر والتأمل، ولا أن يجزم بعاقبة أي فعل، أو الشروط التي تكتنفه لتجعله حسنا مطلقا صوابا في ذلك الموقف، أو بنتائجه على الفرد والمجتمع والمصلحة العامة، فلا بد له أن يأخذ ذلك من الشرع لا من العقل، فليس في الفعل مقومات ذاتية تجعل الحكم عليه واضحا لا لبس فيه.

هذا، وإن كان العدل حسنا بحكم العقل، إلا أن تحقيق ما يقيمه أمر وراء قدرة العقل على الحكم فيه، فقد يظن البعض أن العدل يعني مساواة الرجل والمرأة في الميراث، أو في المسئوليات العامة والخاصة، فيتبين قصور تلك النظرة وأنها تكرس الظلم لا العدل في أحيان كثيرة، لأن نظام اجتماع الذكر والأنثى أعقد من أن يتعلق بقضية ميراث أو عمل، بل يتعلق به نظام مسئوليات رعوية، وواجبات، وحقوق، وقدرات واستعدادات متفاوتة، وأحوال مختلفة، مما يجعل تحقيق العدل في كل شأن منها أمرا لا يستطيع العقل الحكم عليه.

ومثل ذلك يقال عن زاوية الخير والشر، إذ أطلق الإنسان على ما يضره أو يكرهه وصف الشر، بغض النظر عن الحسن والقبح، (أي إن الزاوية التي ينظر من خلالها هنا هي زاوية أثر قيمه في وصف الفعل، لا زاوية كمال الفعل أو نقيض كماله)، وبغض النظر عن الصواب والخطأ، وبناء على هذه النظرة يُقْدِمُ على الفعل ويُحْجِمُ

عنه، فجاء التصحيح لهذه النظرة بأن الفعل لا يقال إنه خير أو شر حسب الكراهية والحب أو النفع والضر، وإنّما قياس كونه خيراً أو شراً هو مرضاة الله تعالى، أي إن الخير والشر لا يقوّمان بمقوّم الحب والكراهية، أو النفع والضر، (فالخمر والميسر فيهما ضر كبير، وإثم عظيم، ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما) وإنما بمقوّم مرضاة الله، فالخير والشر أثران لنظرة قيميّة، وليس لمنافع ومضار حسّيّة ماديّة أو معنويّة، وهذه النظرة القيمية خارجة عن الفعل نفسه، وتتفاوت القيم عند البشر، فالقتل قد يوصف بأنه خير أو شر بما يكتنفه من عوامل خارجية، وبتسليط القيم التي لا تستطيع الحكم بالخير أو الشر إلا أن تكون صحيحة بمرجعيتها الإلهية، لتحكم حكما صحيحا على الفعل بأنه خير أو شر، وبالتالي فلا بد لها من مصدر معصوم عن الخطأ والأهواء والتحيز...الخ،

إذن: ليس للأفعال قيمة ذاتية توصف على أساسها بأنها خير أو شر، وإنما وصف الخير والشر يأتي باعتبارات وملابسات خارجية عن الفعل، (أي من النظام، والذي بدوره لا بد أن يضمن صحة معالجاته لتحقق صواب الوصف بالخير أو الشر بالصورة التي فصلنا فيها عن طبيعة المقاييس في النقطة الرابعة أعلاه، والتي لا تتمثل إلا بنظام إلهي المصدر) بغض النظر عن النفع والضر، الحب والكره، فالقتل قد يكون خيرا وقد يكون شرا، فقتل العدو المعتدي خير وقتل النفس بغير حق شر، والمرجعية في هذا كله إلى الدين، لا للعقل، لأن العقل عرضة للتفاوت والاختلاف والتناقض، إذ قياسات العقل للحسن والقبح تتأثر بالبيئة التي يعيش فيها، بل تتفاوت وتختلف بالعصور على تعاقبها، فإذا ترك قياس القبح والحسن للعقل كان الشيء قبيحا عند فئة من الناس، وحسنا عند آخرين، بل قد يكون الشيء الواحد حسنا في عصر، قبيحا في عصر آخر، مع أن وصف الفعل بالقبح أو الحسن يجب أن يكون ساريا على جميع بني الإنسان في جميع العصور، ولذلك كان لا بد من أن يكون بيان كون الفعل حسنا أو قبيحا آتيا من قوة وراء العقل، وهو الله سبحانه، وعليه فإن قياسات الإنسان للخير والشر، وللحسن والقبح قياسات متفاوتة ومتناقضة لصدورها عن عقل قاصر، وشعور متفاوت غير ثابت، فلا يصح إذن أن يترك قياس الخير والشر، والحسن والقبح للإنسان، لأنه يجعلها مختلفة من عصر إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى،[296]. والاعتبارات الخارجية التي تكتنف الفعل تجعل الزوايا التي يجب مراعاتها عند الحكم بالحسن أو القبح، بالخير أو الشر كثيرة قد لا يحيط العقل بأكثرها، أو بأثرها المستقبلي على الفاعل، أو على المجتمع، فتظهر له منفعة آنية تنقلب ضررا بعد حين أو العكس، أو تجلب نفعا على شخص وضرا على المجتمع، أو العكس، فيصدر حكما ثم يتبين له نقص ذلك الحكم لاعتبارات أخرى لم يحسب لها حسابا، فيعيد النظر فيها وهكذا، وقد استفضنا في نقاش مفهوم الحسن والقبح، والخير والشر، والثواب والعقاب في فصل: (الزوايا والاعتبارات التي يجب بحثها حين الإجابة على السؤال: لمن الحق بالتشريع؟) في كتاب: الصندوق الأسود للفكر الغربي، وفي كتابنا: معجزة التشريع الإسلامي خصائص ومقومات.

ثامناً: لذلك فالقيم هي التي يوصف من خلالها الفعل بالخيريَّة أو الشَّرِّيَّة، وهذه القيم هي عين قولنا: الشرع هو من يحكم بالخير أو الشر، أما القيم البشرية، فإن جعلها أساسا للحكم بالخير أو الشر **هو دور، وهو باطل،**

---

[296] نقض الفكر الغربي الرأسمالي مبدأ وحضارة وثقافة، من إصدارات حزب التحرير صفر ١٤٤٣ هـ، أيلول ٢٠٢١ م. ص ٢٦ -٣٣.

لأنها هي نفسها بحاجة لتوصف بالخير أو الشر، يعني لو فرضنا أن القيم الرأسمالية هي التي ستسلط على الفعل لوصفه بالخير أو الشر، وهذه القيم نتاج العقل، وقد اتفقنا على أن العقل لا يستطيع الحكم على الفعل بالخير أو الشر إلا بتسليط قيم خارجية، فهذه القيم الخارجية إن أتت من العقل نفسه فهي بحاجة لما يصفها بالخير أو الشر أو يجعلها صالحة لوصف الفعل بالخير أو الشر، وهذا دور والدور باطل ومستحيل! فوجب أن يؤخذ الحكم بالخير أو الشر من الشرع لا من العقل!

## حوار خطير في فيلم المعادل ٢ equalizer غاية في الأهمية!

يكتشف الممثل المبدع "دينزل واشنطن" أن رفيقه القديم في المهنة "ديفيد" هو من قتل صديقتهما المحققة "سوزان" في بلجيكا، كيف تحول "ديفيد" من رجل مهمات خاصة يفترض فيها أنها تقتل الأعداء والمجرمين إلى قاتل أجير؟

لقد بدأ الأمر حين أنهوا خدمات "ديفيد"، فبدأ يعمل لحسابه الخاص! قبل ذلك كانت تأتيه أسماء من عليه تصفيتهم من "الأعداء"، لكن من يحدد أن هذا عدوٌ أو صديقٌ؟ خَيِّرٌ أم شِرّيرٌ؟ هل يستحق القتل أم الحياة؟

كان مستخدمهم الأول (الحكومة) هو من يحدد لهم ذلك!

والآن حين أصبح "ديفيد" يعمل لحسابه، أي أصبح مرتزقا، كان عليه أن يعيد تعريف من هو العدو، من هو السيء؟ من هو الذي يستحق الموت؟

كان عليه أن يعيد "جرد" مبادئه وقيمه، والمرجعية التي على أساسها سيحدد الخير من الشر! إن كان يهمه أصلا مرجعية معينة، أو إن كان يؤمن بشيء اسمه الخير، وآخر اسمه الشر!

اكتشف فجأة أن هذه تعريفات زائفة، فلا يوجد شيء اسمه عدو أو "سيء" أو "شرير"، بحيث إن صاحب تلك الأوصاف يستحق لأجل هذه الأوصاف القتل! بل يوجد شيء اسمه "سيء الحظ"، وقع عليه الاختيار ليموت،

**كان الاختيار يقع في السابق من قبل "الحكومة"، والآن يقوم من يستعمله بأجرة بتحديد من يقع عليه الاختيار!**

ثم أضاف "ديفيد": لا تعطني مواعظ عن تأنيب الضمير، ولا عن الإثم، لأنه لا يوجد شيء اسمه إثم ولا تأنيب ضمير! بل لا يوجد "ضمير".

هذا الحوار يستفز الأعماق للتفكير بالقضية التي يجليها، خصوصا إذا ما قُرنَ بترويج كثير من الأفلام الأمريكية لفكرة الرجل الخارق أو البطل الهمام، مثل "السوبرمان"، و"المنتقمون" وغيرهم، ذلك البطل الذي يحل مشاكل المجتمع بنفسه، فهو القاضي والجلاد في الوقت نفسه، هو الخصم والحكم والمنفذ للحكم في نفس الوقت، والمرجعية هي ما يراه هو من خير وشر، ويحدد الشرير ويعاقبه فورا دون محاكمة ولا دفاع، وهذه الفكرة في أغلب افلام "هوليوود" تجعل العدالة الناجزة هي الخلاص من الشر، وحتى في الأفلام التي يحكم بها القضاء أحكاما لا توافق هوى الضحية يقوم بتصفية المجرم على أدراج المحكمة!

عودا على بدء، في الحوار أعلاه، نطرح السؤالَ الهامَّ التالي:

كيف سنعرف الخير من الشر؟ من سيحدد القيم والمرجعيات الفكرية لتحديدهما؟ من سيحدد أن هذا إثم، أو انتبه للسؤال الأخطر التالي: هل هناك "إثم"؟ هل هناك "خير وشر"؟

الاثم مخالفة لقواعد معينة، سواء أكانت أعرافا مجتمعية، أو تشريعات دينية،أو تشريعات قانونية، أو قواعد معينة تواضع عليها الناس!

فإذا ما كان الدافع لحركة الناس في الحياة هي "الحرية"، أي الانعتاق من المرجعيات سواء تلك التي مصدرها الأعراف المجتمعية، أو التشريعات الدينية، أو القوانين التي وضعها "الغير"، ممن سيحدد للانسان أن هذا خير، وهذا شر، هذا إثم لا يجوز اقترافه، بل ستُعاقَب على فعله!

فيقفز الداعي للحرية ليقول: عقلي هو من سيحدد لي الخير من الشر، والصواب من الخطأ، أنا إنسان عاقل مفكر، حر، فرد أبحث عن تحقيق ذاتي، دون " أعرافٍ مجتمعية"!

لكنك أيها العاقل المفكر لا تعيش في غابة، ولا في جزيرة معزولة، بل تعيش وسط أناس، تختلط بهم، فتحتاج علاقاتك الدائمية معهم لتنظيم، وتقنين وتشريعات واتفاق على ما يجوز وما لا يجوز، فأنت ترى إباحة الإباحية، والعري التام في الشوارع (كما في أوروبا)، وغيرك يريد منعها تماما، تضاربت النظرة ولا بد من حل!

بعض الأمور شخصية في المنزل، ولكن معظم الأمور من الحياة العامة التي ستختلط بالغير ويجب أن يتحدد الموقف! هل سنسمح بالتصرف الفلاني وماذا سنفعل مع من يخالفه من عقوبات!

وهذا الحل بالضرورة سيقيد حرية كل من يعيش في ذلك المجتمع بما تواضع عليه المجتمع، وسيعاقبونه لو قرر ممارسة "حريته" بما يفضي للخروج على ما اتفقوا عليه!

ولا بد أن يكون في مواد كثيرة من هذه التشريعات ما لا يوافق رأي هذا الشخص أو ذاك، وبالتالي فقد يتفقوا على بعض الأمور، ولكنهم سيختلفون على أكثرها، وسيضطرون للتنازل عن "حرياتهم" وأفكارهم لصالح ما تواضع عليه المجتمع! إذن، لا يمكن وجود شيء اسمه حرية في الواقع نهائيا!

مصطلح الحرية يتناقض تماما مع عيش البشر مجتمعين وحاجتهم لذلك الاجتماع، حتى في القضايا التي تواضع عليها المجتمع ووافقت أهواءك، فأنت لست حرا لأنك تمارسها لأن "الغير (القانون)" سمح لك بممارستها، ولو تغيرت نظرة "الغير (السلطة)" لها لاضطررت لتغيير موقفك للنقيض!

### كل شيء مباح إذا غاب الدين:

إذن، فلا يوجد سلطة للعلمانية للتأسيس للأخلاقية، أو لل "قيمية" وخصوصا لأخلاقيات أو مرجعيات الأمر والنهي، أو للقيم التي سيقوم المجتمع على تحقيقها (إضافة للقيمة المادية النفعية)،

في رائعته الأدبية "الإخوة كارامازوف" قام الروائي الروسي الكبير دوستويفسكي بالتعرض لمواضيع فلسفية وجودية وطرح علاقتها مع الخالق والإرادة الحرة والأخلاق. وهي عمل درامي روحي تتصارع فيه رؤى أخلاقية مختلفة بما يخص الإيمان والشك والعقل، وروسيا المعاصرة لفترة الرواية.

أبطال الرواية هم الأب فيودور كارامازوف؛ رجل بلا وازع أخلاقي ولا مبادئ، وأولاده الثلاثة الذين يمثل كل منهم نموذجاً لما كان شائعاً في المجتمع الروسي في القرن التاسع عشر؛ فالصغير رجل تقي، والثاني مفكر مادي يبحث

عن معرفةِ إشكالية ماذا يترتب على "عدم وجود الخالق"، **وإذا كان كل شيء سيصبح مباحا ومسموحا به في هذه الحالة**، وأكبرهم رجل متهور تتصارع فيه الرذيلة والفضيلة بقوة، وهذا الأخير تتجسد فيه الشخصية الروسية بحسب المؤلف.

ما هي المرجعية التي ستؤسس للخير والشر؟ للأخلاق والمقاييس التي ستضبط السلوك الإنساني في حياته اليومية (فيما هو أكثر من مجرد الالتزام أو عقوبة مخالفة قوانين الدولة)!

وما يهمنا أيضا هو أثر تغييب أثر الإيمان بالله والحساب في الآخرة على أفعال الإنسان في الدنيا، **وعلى أي أساس** سيقوم إنسان ما **بوضع قوانين ملزمة لإنسان آخر** تحدد له الخير والشر كمقاييس لدفعه للقيام بأفعال معينة أو الانتهاء عن غيرها، كيف ستسد العلمانية هذه الفجوة الهائلة المؤثرة في السلوك البشري والعلاقات المجتمعية بشكل كبير! وهذا عين ما نظَّرت له "الليبرالية" حين حاربت "نظريا" مبدأ أن تفرض الدولة تشريعاتها على الأفراد، وفشلت فشلا ذريعا لأن الناس لا بد أن يعيشوا في مجتمعات، لا على الأشجار في الأدغال!

## هل عالمنا أفضل العوالم الممكنة؟ وهل هذا دليل على عجز الإله؟

بل إن "براتراند راسل" يقول في كتابه: "لماذا أنا لست مسيحياً" في الصفحة العاشرة: "إنه من المدهش أنه عندما ننظر إلى حجة التصميم هذه، نجد أن الناس بإمكانهم أن يؤمنوا أن هذا العالم، بكل الأشياء التي فيه، بكل عيوبه، ينبغي أن يكون العالم الأفضل الذي أمكن لكائن كلي القدرة والعلم أن ينشئه في ملايين السنين، أنا لا أستطيع في الحقيقة أن أؤمن بذلك"[٢٩٧] إذن، فراسل يعتبر أن وجود الشر يتناقض مع دليل التصميم الذكي الحكيم، باعتبار أن هذا العالم ليس أفضل العوالم الممكنة، أي إنه ليس الجنة! أو بمعنى: أليس بإمكان الله فعل أفضل مما فعل، فيخلق عالما أقرب إلى الجنة، يخلو من الشقاء والأمراض والحروب وضنك العيش؟

فهذه المدرسة في التفكير[٢٩٨] اتخذت ما ظنته شذوذات أو عيوبا في الكون دليلا على عدم وجود الخالق، ومدرسة أخرى اعتبرت رتابة النظام في الكون دليلا على عدم وجود الإله وأن الارتقاء والنشوء إنما يتم بالانتقاء الطبيعي.

ولكن النظر في نظام الكون وأنه غير فاسد يدل على وحدانية الخالق، والنظر في النظام دليل على المنظم، والنظر في الشذوذات والحوادث التي تجري تبعا لسيطرة الإله على حوادث الكون دليل على وجود الإله، وعلى أنه لم يخلق الكون ونواميسه ويتركها تعمل دون سيطرة وتدخل منه، أي إنه لم يمارس سلطانه مرة واحدة فقط حين خلق الكون والنواميس، بل سلطانه مستمر، فحين يُخرق الناموس، أو حين يجري على أكثر من صورة[٢٩٩]، فإن

---

[٢٩٧] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٤١

[٢٩٨] استفدنا بعض الأفكار في هذا الباب من محاضرة: ما الحكمة في البلاء؟" - تفسير الشعراوي للآيات من ٧٨ إلى ٧٩ من سورة النساء

[٢٩٩] وقد رأينا أن الله تعالى أحدث اختلافا في بعض الأنظمة الحيوية لفتا للنظر أنها لا تسير سيراً آلياً ذاتياً ميكانيكياً بلا تدبير أو تدخل منه، فمثلا وجدنا فرس البحر والكائنات التي تنتمي إلى نفس فصيلته مثل الأسماك الأنبوبية وتنين البحر المورق كائنات غير عادية للغاية، فيحمل الذكور الأجنة في كيس يشبه نوعاً ما كيس الكنغر، ويلدون بدلا من الأنثى، ورأينا بعض النباتات تحمل العضو المذكر والمؤنث معا، وبعض الكائنات تتكاثر بالانقسام (التكاثر اللاجنسي، في الكائنات وحيدة الخلية)، ووجدنا بعض الحيوانات جرابية (كالكنغر والكوالا، تكمل حمل وليدها بعد ولادته في الجراب)، وبعضها ثدييا،

هذا يدل على الخالق أيضا، أو **لحكمة بالغة تصب في تنظيم الكون**، فعلى سبيل المثال، تنفجر نسبة معينة من النجوم انفجارات مستعرة أعظمية، لكن النظر المستنير إلى هذه الظاهرة يجد أنها ليست بشذوذات، بل ضرورة للخلق ولتشكيل النظم المجرية والنجمية الجديدة، فتجد النظام "يحكم الذرات المتناثرة الناجمة من الجيل السابق من المستعرات المتفجرة الوقت، لتتجمع في أنظمة شمسية من الجيل اللاحق من النجوم، وليضمن توزع وتكرار الانفجارات النجمية باعتدال، فلا يشتد فيغرق أسطح الكواكب بحميم الأشعة القاتلة مراراً، ولا يقل لدرجة تمنع صنع كفاية من الذرات الثقيلة في المستعرات الأعظمية لتتجمع على سطح الكواكب المتكونة حديثا"[٣٠٠] فالانفجار ظاهرةُ حدث يموت فيه نجم، وينفجر، لكن التأمل في هذه الظاهرة يراها سببا ضروريا لتوزيع الذرات الثقيلة في مناطق كونية احتاجت لها، فالنجم ماتَ ليُحْيِيَ.

وتجد البراكين تُنفِّس الضغط الهائل والحرارة من باطن الأرض، وتمد القشرة الأرضية بمعادن ضرورية، ولها فوائد أخرى، وتجد الزلازل تخلص باطن الأرض من الطاقة الموجودة فيه، إذ إن للغازات المحبوسة في باطن الأرض تأثير كبير في إحداث اهتزازات عنيفة في قشرة الأرض أو إنفجارات بركانية، وهذه الغازات تنكمش أحيانا وتتمدد أحيانا أخرى، فتحدث موجة من المد تخترق طبقات الصخور في قشرة الأرض، في إتجاه أفقي أو رأسي، ينتج عنها الهزة الأرضية، وتتشكل نتيجة لحركات طبقات الأرض الجبال، وفي دراسة في جامعة هارفرد في العام ٢٠٠٨، قدر الفلكيون أن كتلة الأرض تقع **في حالة حدية لكوكبٍ قابلٍ لاستقبالِ الحياةِ**، وأنه لو كانت كتلة أو حجم الأرض أصغر، فإن الصفائح البنائية plates tectonics التي تشكلها الطبقات الصخرية للأرض (تتحرك لتنشأ عنها اليابسة)، هذه الحركات كانت لتكون مستحيلة لو كانت الأرض على غير حجمها الحالي، وقد قارنوا الأرض بالزهرة التي يعادل حجمها ٨٥ بالمائة من حجم الأرض، فوجدوا أنه لا أثر لهذه النشاطات الصفائحية البنائية على سطحه، لذا اعتبر حجم الأرض ومساحة سطحها، وكتلتها، والتناسب بين ذلك كله مثاليا لاستقبال الحياة عليها"[٣٠١] فالزلازل والبراكين ضرورية لجعل الأرض صالحة للحياة!

لكن الشذوذ عن الانتظام يظهر على صعيد جزئيات لا على صعيد النظام العام، فلا يفسد الشذوذ الفردي صحة الانتظام، فيولد طفل بستة أصابع، ويكون بعض الناس عقيما، أو أعمى، أو أصم، فقسم من هؤلاء جراء أمراض وراثية كان بالإمكان تفاديها بدراسة الجينات قبل الزواج، وقسم ناتج عن سوء تصرف الأم خلال الحمل كتعاطي الخمر، وقسم مقدّر من قبل الله تعالى لا علاقة له بالقسمين السابقين، ولا يُسأل الله عن حكمته في توزيع النعم على الخلائق، فيمنع أحدهم نعمة البصر مقابل أن يسبغ عليه نعماً أخرى لا حد لها تعوضه، كنعمة الذاكرة والبصيرة، وما مثال بيتهوفن الأصم الذي كان علامة فارقة في دنيا الموسيقى ببعيد، أو أن يعوضه عن

---

وبعضها يبيض، وهكذا، وهذا كله وفقاً للسببية، ولكن قدر الله أشكالا متعددة تجري وفقاً لها حتى لا يظن ظان أن الله تعالى خلق الكون ووضعه -كالقطار- على سكة، وكل شيء ينتج تلقائيا وحتميا وآلياً بنفس الصورة دون تدخل من الخالق سبحانه وتعالى.

[٣٠٠] قدر الطبيعة، قوانين الحياة تفصح عن وجود الغاية في الكون. د. مايكل دينتون، ترجمة د. موسى إدريس وآخرين، مركز براهين، ص ٤٩ - ٥١

[301] However، a 2008 study by the Harvard-Smithsonian Center for Astrophysics suggests that the dividing line may be higher. Earth may in fact lie on the lower boundary of habitability، since if it were any smaller، plate tectonics would be impossible. Venus، which has 85 percent Earth's mass، shows no signs of tectonic activity. http://en.wikipedia.org/wiki/Planetary_habitability

فقدان بصره دخول الجنة بغير حساب، بينما هو يحاسب غيره، ومِنْ حِكَمِهِ في هذا أن يلفت نظر عموم الناس إلى هذه النعم التي يرونها في أنفسهم أو في غيرهم، فمن ذهب إلى المستشفى تذكر نعم الله عليه التي يرفل فيها دون أن يتنبه لها، أو أن يخوف الله الناسَ بالحوادث كالزلازل فيرجعوا إليه، ويتضرعوا له، فيكون رجعوهم إليه عاصما لهم من عذاب الآخرة بغفلتهم عنه، أو يعذب العامة بعمل الخاصة، حين سكت العامة عن إفساد الخاصة في المجتمعات، ذلك الإفساد الذي أنتج شرورا لا حصر لها من سوء توزيع الثروة، والحروب والطغيان والاستبداد، فاستحق العامة العقاب بسكوتهم وعدم استعمالهم للسنن المجتمعية للتغيير كي يعيشوا حياة أفضل، وفي هذا كله إقامة للحجة على الخلائق لا لحاجة الله تعالى أن يعلم من يصبر ومن يكفر، بل هكذا تكون الحياة جميلة لها معنى، بخيرها وشرها.

قال الإمام الغزالي في كتاب (الإملاء على إشكالات الإحياء): "ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم، ولا أحسن ترتيبا، ولا أكمل صنعا"، ولا يفهم من كلام الغزالي أنه ليس في إمكان الله أن يخلق أفضل من هذا، لكنه يقصد أن كمال الصنعة ظاهر معجز مبهر، قال الإمام ابن حزم في الدرة فيما يجب اعتقاده ص ٣١١: "ومن قال: إنه ليس عند الله عز وجل أصلح مما عمِل بنا؛ لأنه لو كان عنده أصلح مما فعل بنا، ولم يعطنا إياه لكان بخيلا محابيا، فهو كافر من وجهين:

أحدهما: أنه عجّزَ ربه، تعالى، فجعله عاجزا مطبوعا، لا يقدر إلا على ما في قوته أن يأتي به فقط، وهذه صفة منقوص البنية، متناهي القوة، ذي طبيعة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

والوجه الآخر: تكذيبه القرآن فيما أوردناه، ومع ذلك فهو مكابر لا يشك ذو مسكة عقل في أنه تعالى كان قادرا على أن يخلقنا ملائكة أو أنبياء كلنا، أو في الجنة كما خلق آدم عليه السلام، ولا يكلفنا شيئا، أو لا يخلق من يدري أنه يكفر به، أو يعصيه، أو أن يميتهما قبل البلوغ كما أمات سائر الصبيان".

"وحيث إن النزاع ليس حول تحقيق عالمنا المخلوق للغاية من خلقه، دار اختبار وممر للآخرة، وإنما حول إمكان خلق عالم أفضل من عالمنا، فالمعترضون من الملاحدة هنا يتحدثون عن عالم اللذة الذي يحقق للإنسان المتعة دون منغص من شر أو ألم، بعيدا عن غائية الخلق ضمن هدفي الابتلاء والجزاء، إننا نقول إن الله سبحانه قادر على خلق عالم لا يعتوره أي نقص بالمعنى الإلحادي، وقادر على إزالة جميع أسباب الألم، وتحقيق غاية الإمتاع للإنسان، وأن الله تعالى **خلق مثل هذا العالم فعلا**، حقيقة لا افتراضا، **وهو الجنة**، لكن هذه الجنة هي **جنة الجزاء**، وليست محلا لقبول غاية الخلق المتمثلة في اختبار العباد، فدعوى سقوط حقيقة وجود الإله لأن هذا العالم ليس أفضل العوالم التي من الممكن لإله قادر وحكيم أن يخلقها قائمة على تصور أولي باطل، وهي ساقطة،

على أنه لا يلزم من كون الله كاملا أن يخلق عالما كاملا، إذ إن **دواعي الخلق عديدة ومتنوعة**، وليس يفترض أن تؤول كلها إلى أن يكون المخلوق مثاليا"[٣٠٢]، **والنظر المستنير يظهر أنه مثالي في مناسبته للغاية التي خلق من**

[٣٠٢] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٤٤-٤٥.

أجلها، كما سنظهر في كل الأبواب القادمة، والتي تجلي بصورة لا ريب فيها أن العالم مثالي في مناسبته للغاية التي خلق من أجلها، فيسقط الاعتراض جملة وتفصيلاً.

### إتقان الصنعة، الدقة اللامتناهية في نظام الكون والحياة:

على أن المتأمل في خلق الله ونواميس الكون يجد الدقة المتناهية وإحكام الصنعة في كل شيء في الكون، من الذرة إلى المجرة، ويجد النواميس التي تضبط سير هذا كله، لا يمكن أن ينازع في دقة قوانينه المبهرة، **لقد توقفت كيمياء الكون، وعمليات نشوء واستمرار وتطوير الهياكل الفيزيائية الفلكية astrophysical structures، التي يتشكل منها الكون، من نجوم ومجرات، وعناقيد، وعناقيد فائقة، وتوقفت عمليات تخليق العناصر التي تتم في أعماق النجوم عبر الاندماج النووي، وتوقفت العمليات التي أفضت إلى كون صديق للحياة، يدعم نشوءها واستمرارها واستقرارها، على نظام معقد من التعيير المنضبط الدقيق المحكم لمقادير القوى والمجالات والطاقات، ولأشكالها، مما يعني أنها قوانين مصممة مسبقا لضمان نشوء الكون والحياة واستمرارهما واستقرارهما من خلال اختيار أنواعها، (الجاذبية، والكهرومغناطيسية والقوة النووية القوية والضعيفة)، ولطريقة عملها (مثل نطاق تأثير كل منها، وشدتها النسبية)، وللأدوار التي تلعبها في تنظيم أنظمة المواد المعقدة، وعلى تفاعلها السببي الذي توقف على اختيار خصائص معينة محددة في الجسيمات أمدتها بهوية معجزة، من كتل وشحنات وعزم مغزلي، معيرة بدقة بالغة، وجعلتها تخضع لها، وتسير وفقا لها، وتتميز بها!**

**كان لا بد من تعييرٍ منضبط دقيق محكم للمعايير، (المحددات، المعالم، المتغيرات الوسيطة) الكونية cosmological parameters، والثوابت الفيزيائية الأساسية fundamental constants، ولشدة القوى النسبية، التي تصف القوانين الفيزيائية والتي تحدد خصائص كوننا ضمن نطاقٍ من القيم الدقيقة المعينة، وفي إطَارٍ ضَيّقٍ من التَّبَاينِ المسموح به في قيمِ وعلاقاتِ القوى والحقولِ والثوابتِ والخصائصِ والعملياتِ الفيزيائيةِ للمادةِ والطاقةِ، بحيث يكون الخروج عن إطار ذلك الضبط والتعيير المنضبط الدقيق المحكم، أو الخروج من نطاق ذلك التباين المسموح به مؤذنا باستحالة نشوء واستمرار الكون، أو استحالة نشوء واستمرار الحياة.**

**ولقد توقف نشوء الكون واستقراره واستمراره أيضا على تعيير منضبط دقيق محكم وعلى صعد متعددة للشروط الابتدائية المسبقة بالغة الدقة، غير العشوائية، والمختارة بعناية، التي صاحبت نشأة الكون وترتب عليها إمكانية نشوء هذه الحياة التي نراها في الكون، من إنتروبية منخفضة جدا، و انفتاق منتظم للرتق الذي حوى المادة والطاقة، ومن توسع منتظم للكون، ومن كمية محددة محسوبة بدقة للمادة والطاقة، ومن كثافة طاقة الكون العالمية التي كانت قريبة جدا من القيمة الحرجة، فمنعت التوسع غير المنتظم أو الانكماش للكون البدائي، ومن سعة نسبية لتقلبات الكثافة في بدايات الكون.**

**بل لقد احتاج نشوء واستقرار واستمرار الكون ليس فقط إلى هذا كله، لقد احتاج فوق ذلك إلى التناسب المحكم بين هذه كلها، فلو اختل أحدها لما كان لتوليف وضبط الآخر من منفعة، والضبط هذا لا يتم بشكل آلي**

ذاتي لمجرد وجود المادة بعضها مع بعض، إذ إنه ثبت أن نطاق تفاعل تلك القوى والثوابت والمجالات والكتل والشحنات وخصائص المادة السببي المتبادل محدود جدا، بحيث إن أي خروج عليه كفيل بانهيار المادة، و أيضا فإنها علاقات تداخلية تحتاج لتضبط نسبة كل قوة مع الأخرى، (مثلا القوة النووية القوية والكهرومغناطيسية)، وكل كتلة مع الأخرى، (مثلا كتلة البروتون مع كتلة النيوترون)، وكل شحنة مع الأخرى، (شحنة البروتون مع شحنة الإلكترون)، والقوى مع الشحنات والكتل، وكل قوة مع خصائص معينة في المادة مهيئة للتفاعل مع تلك القوة بشكل معين، وهكذا، فهو تنظيم على مستوى أوسع من مجرد اجتماع نوعين من القوى أو نوعين من الكتل أو نوعين من الشحنات فينضبطا، بل لا بد أن يتم على مستوى المادة والطاقة على مستوى الكون كله.

بل ويتوقف نجاح سير سلاسل من العمليات المختلفة المعقدة المتنوعة، أو معدلات إنتاجها على ضبط قوة معينة أو على أن تتصرف تلك القوة بصورة معينة.

بل احتاج فوق ذلك إلى تعيير سرعة توسع الكون، كي تجتمع الجسيمات فتشكل الذرات، وإلى تباين الكثافة، كي تتمكن الجاذبية من إنشاء الهياكل الكونية والعناقيد المجَرِّيَّة، احتاج الأمر وجود كل هذا وغيره الكثير في نفس الوقت وبنفس النسب الخارقة المعجزة كي يكون كون، ولا تكون فوضى!

**وأن أيا من هذه المقادير المضبوطة بعناية لو اختلف، أو تخلف عن موقعه وعمله وقيمته لما نشأ الكون ولا الحياة ولا الإنسان العاقل الذي يتفكر في الربط الذكي بين كل هذا التعيير، ويتفكر في استحالة أن يكون نتاج عمليات عشوائية غير عاقلة**، وبالتالي فهو تنظيم ومخطط مسبق، ومفروض على المادة من خارجها، أي من الخالق سبحانه وتعالى.

ووضوح صورة أن هذا يشكل نظاما مصمما تصميما محكما حكيما غائيا سببيا، والربط الذكي بين هذا كله و**أن يكون صنع الله الذي أتقن كل شيء** ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ ٨٨ النمل. **احتاج ذلك كله إلى الخالق العظيم**[٣٠٣]!

أما على صعيد الحياة، فقد احتوت الخلايا الحية والكائنات الحية على مخطط يمتلك شيفرة كيميائية، تحوي المخطط والمعلومات الدلالية التي تحركه باتجاه إقامة أنظمة معقدة، وباتجاه أن يمتلك قدرة على التكاثر الذاتي والاستمرار، وما فيها من قدرة على قراءته وتحليله وترجمته، وتخزينه وحمايته، وتحويله إلى أنظمة (الجين مثلا وصفة لتصنيع البروتينات)، أو أوامر أو صفات (لون العيون مثلا) يحتاجها الكائن الحي، وفوق ذلك لماذا هذا التشفير بالذات (خيار من ضمن خيارات تحتاج لمرجح، وخيار ذكي ضامن لحصول النتائج وفقا لمخطط غائي من بين خيارات أخرى كان بالإمكان أن تنتكس بالحياة وتنهيها، وفوق ذلك أن هذه التعليمات والأوامر فعالة فقط في بيئة قادرة على تأويل المعنى بالشيفرة الوراثية"، ثم إن سلب الخلية الحية اليوم من مكونات رئيسية فيها، مثل البروتينات أو الأحماض النووية أو الأنزيمات مثلا، يعطل وظائفها، أو يفسدها ويحدث خللا فيها، فوجود بعضها حتمي لاستمرار حياة الخلية، تتوقف عليه الحياة واستمرارها، وبالتالي فهذا دليل أيضا على أنها، أو جُلُّها يجب أن

---

[٣٠٣] الملخص التنفيذي لكتابنا: (نَشْأَةُ الْكَوْنِ، دَلِيْلٌ عَقْلِيٌّ عِلْمِيٌّ حِسِّيٌّ عَلَىٰ وُجُوْدِ الْخَالِقِ).

توجد دُفْعَةً واحِدَةً وفي آنٍ واحدٍ لتقوم بتأديةِ وظائِفِها. وهذه الوظائف تدل على الغائية، وهذا الاجتماع بالشكل المعقد يدل على التصميم الذكي الحكيم المسبق للخلق، واحتاجت لحد أدنى من الجزيئات التي تتركب منها الخلية الحية، في أدنى كائن حي فما فوقه، سواء من الجينات، أو من البروتينات، أو الأنزيمات أو باقي الجزيئات التي تشكل البنية الأساسية للخلية الحية، واحتاجت لطرق ارتباط صحيحة بأشكال هندسية بالغة الدقة ثلاثية الأبعاد، فكانت الحياة معجزة خارقة تظهر كمال ودقة الصنعة وإحكامها، ومهما حاول البشر أن يخترعوا آلات إبصار أو تصوير فإنها لن تضاهي العين البشرية في دقتها، وإذا نظرت إلى الأجهزة التي تشكل تركيب الكائن الحي، تجد التنظيم الكياني للأنظمة المختلفة (السمع والإبصار والأعصاب) وتجد التكامل التكويني بين الأنظمة المختلفة التي تنتج كائنات بالغة التعقيد والدقة، وقد وصف العلماء الكائنات الحية كنظم غاية في التعقيد، على مستويات وطبقات متعددة حيث تعتمد الخصائص المميزة لها على "تنظيم الكيان" أكثر من اعتمادها على "تركيب الكائن"، فارتباط الكل بأجزائه في عالم الحياة، لا يقتصر على التكامل الكمي بينهما، بل يشمل أيضا ما ينتج عن ذلك من سيطرة الكل على أجزائه، وقيام الأجزاء بالتفاعلات المخصوصة بحيث تفضي لحصول التكامل، وبحيث يكون الترابط بين الأجزاء المشكّلة للأنظمة المختلفة شرطا لعمل النظام الكلي الكياني، ومثال هذا الكائن الحي نفسه كالإنسان والبقرة والبعوضة بما فيها كلها من أنظمة كلية وصفات كيانية وتحكم مركزي في الأنظمة. فهذا دليل قاطع على التصميم الذكي الحكيم المسبق، ويستحيل أن ينتج عن الانتقاء الطبيعي.

فهذه كلها تدل على طلاقة قدرة الخالق وإحكامه لصنعته، والله تعالى أرشدنا إلى التفكير العقلي في أن الكون غير فاسد النظام دليلا على وحدانية الإله سبحانه وتعالى، وقد حاول بعض المتفذلكين الإتيان ببعض التصاميم للبحث في قصورها أو خطأ التصميم، وفشلوا في تلك المحاولات كلها، كتساؤلهم عن سبب وجود أجنحة للبطريق وهو لا يطير، فتبين أنها ضرورة لتحقيق مهارته في السباحة، فكان سؤالهم دليلا على شديد قصور نظرهم وعلمهم، وتساؤلهم عن الزائدة الدودية في جسم الإنسان[٣٠٤]، وعن "إصبع الباندا الزائدة التي لا قيمة لها، على أساس أنها عظم ناتئ لا وظيفة له، وكانت المفاجأة في دراسة علمية يابانية نشرت في مجلة الطبيعة سنة ١٩٩٩ بعد تصوير يد الباندا بالرنين المغناطيسي والكشف عن أمور تشريحية لم تكن معروفة خلصت تلك الدراسة إلى أن إصبع الباندا هو "واحد من أعظم أنظمة التحكم الخارقة" في عالم الثدييات"[٣٠٥] وغير ذلك من الأسئلة.[٣٠٦]

إن الخطأ في دوران الأفلاك (مثلا) يفضي لاصطدامها أو فساد نظامها، ولكن النظام غير فاسد، فثبت أنه يستحيل أن يعزب عن الله تعالى مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، كما يترتب عليه أن القوانين الكونية التي يسير الكون وفقها -في حال الخطأ والفساد- قد تتخلف أو تخطئ أحيانا وهذا سيترتب عليه دمار أو فساد نظام

---

[٣٠٤] يستنتج الباحثون أن الزائدة الدودية **مصممة** لحماية البكتيريا الجيدة في الأمعاء. بهذه الطريقة، عندما تتأثر القناة الهضمية بنوبة إسهال أو أي مرض آخر ينظف الأمعاء، يمكن للبكتيريا الجيدة الموجودة في الزائدة الدودية إعادة ملء الجهاز الهضمي والحفاظ على صحتك.

Appendix May Actually Have a Purpose WebMd.,

[٣٠٥] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٦١.

[٣٠٦] التي تتبع بعضها الدكتور إياد قنيبي في حلقة خاصة من بحثه: سلسلة رحلة اليقين، في سلسلة "رحلة اليقين" للدكتور إياد قنيبي - الحلقة ٢٩ بعنوان "أحرجتك". وتفصيل ذلك من جهة علوم الحياة وعلوم وظائف الأعضاء يعلم دقتها أهل الاختصاص، ولست موضوع بحثنا هذا.

الكون، وقد تبين للإنسان أن الكون بالغ التنظيم من خلال استقراءٍ تجلي ذلك عبر دراسة ملايين الظواهر والقوانين والثوابت والحقول وخصائص المادة والطاقة وانتظام ذلك كله وفقا لقوانين بالغة الدقة من الذرة إلى المجرة، حتى بلغ الأمر ببعض علماء الفيزياء لوصف الكون بأنه مكتوب بلغة الرياضيات المتقدمة جداً[٣٠٧].

## دليل الحكمة والإتقان

أما على صعيد الكون، فإن قوام **دليل الحكمة والإتقان** الدالّ على أن الله تعالى **حكيم ومتقن لصنعته، (أي إنه لا يخطئ)**، من خلال ملاحظتنا لجميع هذه الأشياء الكونية، بالمنهج العقلي في التفكير، ندرك بداهة في كل واحدة منها أنه كان من الممكن عقلاً؛ أن تَتَّخِذَ هذه الأشياء صورة وصفة وحالة غير ما هي عليه الآن، فهنالك احتمالات كثيرة لا حصر لها في مجال الممكنات، لا يرى العقل مانعاً من أن تتحول هذه الأشياء الكونية إلى واحد منها.

أ- فالعقل لا يمنع من أن تتخذ هذه الأشياء صورة غير الصورة التي هي عليها، وشكلاً غير الشكل الذي هي عليه، أو حداً غير حدها الواقع كمّاً وكيفاً؛ فتكون أكبر مما هي عليه أو أصغر، أو مركبة غير التركيب الذي هي عليه، أو في حيز من الكون وزمان من الدهر غير حيزها وزمانها، أو أن تكون لها صفات وقوى غير صفاتها وقواها، أو حركات ومدارات وسرعات مغايرة لما هي عليه، كل هذا وأمثاله من الاحتمالات التي لا حصر لها، مما يجوّزه العقل بداهة، ويعتبره من الممكنات العقلية، التي لو كان تركيب الكون على وفقها؛ لم يكن في ذلك منافاة لأصل عقلي.

ب- ومن جهة أخرى؛ حيث إن كل شيء في هذا الكون يحتمل أن يكون على واحد من أوضاع كثيرة غير الوضع الذي هو عليه؛ فإن عقولنا لا بد أن تحكم بداهة بأن ما كان كذلك **فلا بد له من مخصص قد خصَّصه باحتمالٍ موافقٍ للحكمة والإبداع والإتقان**؛ من جملة احتمالات كثيرة (العين والبصر، الأذن والسمع، الخلية الحية وما يجري فيها من عمليات حيوية معجزة، الدماغ وقدراته الهائلة، الكون ونظامه المتقن)، كل هذه أمثلة تبين ضرورة أن يكون هذا الخلق من صنع حكيم خبير عليم، **ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح**؛ أو القول بأن: **موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريق التصادف، وكلاهما مستحيل عقلاً**.

وأما أنه موافق للحكمة، فإن نشوء واستمرار واستقرار الكون والحياة يتوقف عليه، وإن القوانين التي تسير الكون بالغة الدقة والتجانس بعضها مع بعض، من الذرة إلى المجرة[٣٠٨]، وإن تكامل تكوين المخلوقات وأجهزتها

---

[٣٠٧] مثل جاليليو جاليلي، وعالم الفلك الإنجليزي جيمس جينز James Jeans، وباول ديراك Paul A. M. Dirac الذي أكمل عمل هايزنبرج وشرودنجر بوضع صياغة ثالثة لنظرية الكوانتم، حيث صرح أن "الإله هو عالم رياضيات على درجة عالية من التنظيم، وقد استعمل رياضيات متقدمة جداً في بنائه للكون".

[٣٠٨] يقول باول ديفيز: "إن علامة القوة في القانون أنه يذهب إلى ما وراء البعد الإيماني في وصف أي ظاهرة أو طريقة شرحها، ويقوم بربطها مع غيرها من الظواهر، وعلى سبيل المثال، فإن قانون نيوتن عن الجاذبية يمدنا بحساب دقيق لحركة الكواكب، كما يشرح لنا ظاهرة المد في المحيط، وشكل الأرض، والحركة التي يجب أن تسير عليها السفن الفضائية، وكثير غيرها، ونظرية الكهرومغناطيسية لماكسويل ذهبت بدورها بعيدا عن مجرد وصف الظاهرة الكهربية أو الظاهرة المغناطيسية، حيث شرحت لنا أمواج الضوء، وتنبأت بوجود أمواج الراديو، وهكذا تقوم القوانين الأساسية والحقيقية **ببناء**

ووظائفها يوافق الحكمة والدقة والإتقان الشديد، وإن الإنسان إذا ما أفسد النظام البيئي على سبيل المثال، فإنه يرى تبعات ذلك التغيير الكارثية، مما يدل على موافقة الحكمة والإتقان.

والعقلاء في هذا الوجود لا يصح منهم قبول التزام المستحيلات بينما هم يرون أن قوانين هذا الكون ثابتة لا تتخلف أبداً، ومن هذه القوانين رفض الترجيح بلا مرجِّح، ورفض احتمال المصادفة في نظام هذا الكون البديع.

ت- وأيضا يُحيل العقل أن يكون هذا النظام الحكيم البديع في الكون نتاج العشوائية أو المصادفة المستحيلة، ويفرض العقل أيضا نسبة هذا النظام الحكيم إلى حكمة مُخَصِّصٍ حكيمٍ قد خصَّصَ هذا الممكن في احتماله الموافق للحكمة!

ولا يصح القول بالمصادفة في تفسير قيام هذه الظواهر الطبيعية والقوانين الخارقة الصارمة في الكون، ذاك النظام الذي لا يتخلف، ولو كان بالإمكان قيامه عن طريق المصادفة، لما استطاع العقل تفسير هذه المصادفة التي لم تتعدد ولم تتخلف في المسألة الواحدة التي تعلق البحث فيها لتقنينها ودراستها، فلو كان الأمر مصادفة لأمكن أن يتخلف القانون أو يتصرف في كل مكان بطريقة مغايرة للأخرى، أمّا أنه حقيقةً ينتظم ولا يتخلف، فإن هذا ينفي المصادفة، إذ يستحيل عقلاً تكرارها في كل مرة، ويفرض العقلُ وجود التصميم الحكيم المسبق، أي وجود الخالق!

فليس أسوأ من تفسير الظواهر الخارقة بالمصادفة، إلا الإيمان بمُصادفةِ أنَّ المصادفةَ تكررت، ولم تتعدد أنواعها، ولم تتخلف ولا مرة عن إنتاج عين القانون الدقيق وسريانه بنفس الطريقة! وإذا ما كان موضوع البحث الإثبات أو النفي فإن المحتمل لا يصلح للاستدلال به على أي منهما، إذ يكون ضربا من الخيال، وحتى العالم في المختبر لا يستطيع تفسير الظاهرة المبحوثة إذا ما أمكن حصولها مصادفة، فلا بد لديه من العلاقة السببية حتى يتمكن من تفسير الظواهر، فالمصادفة لا تصلح تعليلا لا في العلم التجريبي ولا في الفلسفة. هذا، والحديث هنا ليس عن نفي مصادفةٍ في أمر عارض، كأن تصادف شخصا في مكان على غير موعد، بل إن الكون منظمٌ في جريانه وفقا لقوانين كونية بالغة الدقة يسري التعيير الدقيق في مفاصله، بأرقام بالغة الدقة، فلا يمكن أن يكون اجتماع كل تلك الخوارق التي اعتمد عليها تنظيم الكون على المصادفة!

ث- وحين استقر أنا شواهد الكون ونظامه، ودرسناها أيضا بالمنهج العقلي الوصفي الاستدلالي وتبين لنا أنها موافقة للعناية والحكمة والإتقان، حتى إننا استطعنا في نواميسها الكونية استنباط قوانين ناظمة لها عَلِمنا أنها لا تتخلف أبداً، وفي أنظمة الحياة وجدنا تصميما مذهلا للكائنات الحية قامت فيه الأجهزة بالتكامل التكويني والتنظيم الكياني وفقا لأدق نظام، وفي تهيئة الأرض للحياة وجدنا عناية تامة بكل التفاصيل، وتسخيرا كاملا لتضمن معيشة الإنسان المستقرة، وفي نواميسها الإنسانية

---

روابط عميقة بين العمليات الفيزيائية المختلفة، وتاريخ العلم يكشف لنا أنه بمجرد قبول قانون جديد يبدأ البحث عما يترتب على هذا القانون، ويخضع القانون نفسه للاختبار من خلال مشاهدات، وإنه من المعتاد أن يؤدي ذلك إلى اكتشاف الجديد وغير المتوقع والظواهر الهامة، وكل ذلك يقودني إلى الاعتقاد بأننا نكتشف من خلال العلم المُرَشَّد جيدا الاضطرارات الحقيقية والروابط الفعلية، وأننا نقرأ الاضطرارات الحقيقية والروابط هذه في الطبيعة ولا نضعها أو نكتبها فيها" باول ديفيز، الاقتراب من الله بحث في أصل الكون وكيف بدأ، The Mind of God ترجمة منير شريف ص ١٠١-١٠٣.

**تجلت في أدق نظام يضمن صلاح الاجتماع والعيش، فإننا نتوصل من ذلك كله إلى أن الذي نظم الكون والحياة والكائنات وفقا لهذه النواميس يوصف بالحكمة والإتقان والعناية، فإذا ما حَزَبَ علينا أمْرٌ لم نستطع الحكم بالعقل أنه موافق للحكمة أو العناية لقصور العقل ومحدوديته، وجب أن يسلم العقل بحكمة الرب فيه، جريا على عدم تخلف الحكمة والعناية والإتقان فيما يمكن للعقل أن يحكم فيه.**

## الفقر والغنى، والصحة والمرض، وخطة الوجود:

بقي أن ننظر في خطة الوجود بالنسبة للإنسان، ووجود الفقر والغنى، والصحة والمرض، والعقم والإنجاب، والموت والحياة، والجوع والشبع، والسعادة والشقاء، وتسلط الأقوياء على الضعفاء، وينقسم النظر إليها إلى نوعين من البحث:

أولا: نوع ناتج عن تقصير الإنسان في تفعيل النواميس المجتمعية، والأخذ بالأسباب، أو سوء تسخيرها واستعمالها، فتصيب الإنسان نتيجتها السيئة، كالحروب والاستعمار والفقر والمجاعات وإفساد النظام البيئي وغيره، فمسئوليته عن نتائج هذا التقصير وسوء الاستعمال يرجع عليه، ولا بد من الإشارة إلى العلاقة بين الاستعمار ونهب خيرات الشعوب وتسليط حكام عملاء للغرب على رقاب الناس (في أفريقيا مثلا) وبين المجاعات والفقر، على الرغم من أن أفريقيا من أغنى وأخصب قارات الأرض.

ثانيا: ونوع ثان: هو المصائب التي تصيب الناس بغير عملهم، وبغير قدرتهم على دفعها، بقضاء الله تعالى، وقد يملكون القدرة على علاج بعضها (كبعض الأمراض)، فإن الإنسان لا يملك قدرة استيعاب كل حكمة في الكون، والنظر العقلي في عواقبها ومآلاتها، إذ تتوقف استطاعة العقل على إصدار الأحكام على العدل والظلم والخير والشر وعلى الحكمة في النوازل عموما على فهم طبيعة الأفعال، والمصالح، والعواقب، والحسن والقبح، والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، وعلى أدوات ومعلومات وقدرات ليست متاحة له، (كمعرفة عواقب الفعل أو الواقع المستقبلية، هل سيكون خيراً له أم شراً عليه؟ هل هو خير عاجل في الدنيا، وشر آجل في الآخرة؟ أو العكس؟ هل تكمن المصلحة التي حكم من خلالها بحصول الظلم أو العدل في النفع المادي، أم في تحقيق منافع غير مادية؟ فهذه مغاليق لا يستطيع العقل فكها)، أو إن بعض القضايا التي تلزم لإنشاء الأحكام متاحة بشكل جزئي للعقل، لكنه لا يكفي لإصدار الأحكام (كفهم طبيعة الواقع)، أضف إلى ذلك أن **القضايا التي تتوقف عليها صحة الحكم بالعدل أو بالظلم متشعبة**، أو معلومة بصورة نسبية أو غير كاملة للعقل، مما سيؤثر قطعا على أحكامه فلربما يجعل الإنسانُ العدل ظلماً، أو ينصرف عن فعل فيه صلاحه إلى نقيضه للأسباب السابق ذكرها، من هنا فلا مجال للعقل للإحاطة بشئون الدنيا (لماذا هذا مريض، والآخر سليم، ولماذا حصل لي هذا...الخ)، ولا بشؤون الآخرة ولا بعواقب الأمور، ولا بحساب الله تعالى يوم القيامة، ولا كيف سيقضي بين الخلائق حتى ينصب الإنسانُ نفسه

حاكما على عدل الله تبارك وتعالى[٣٠٩]. وهذا ما سنفصل فيه في باب: عدل الله، تأملات في مناظرة أخرى رائعة، فراجعه هناك.

على أن من يحاكم دقة الصنعة، وحكمتها، إنما يحاكمها بأهوائه التي صورت له الحسن والخير والصواب ما وافقها، والقبيح والشر والخطأ ما خالفها، مع أن عقل الإنسان محدود، ولا يستطيع الحكم على شيء من ذلك ليصلح حكمه مقياسا تقاس عليه أفعال الله تعالى، فإن عقولنا لا تملك المعلومات الكافية لإدراك هل المرض خير أم الصحة خير للإنسان؟ هل رغد العيش أفضل أم الكفاية المصحوبة بالطمأنينة، أم الجوع؟ لأن الزاوية التي ينظر منها قد تكون مضللة، أو محدودة بالناحية المادية فقط، فقد نسلط زاوية أخرى مقابلة وهي: أن الله تعالى يبتلي الناس بالفقر أو بالمرض أو بغيره مما ظاهره الشر ليرفع درجاتهم في الدنيا والآخرة، أو يبتليهم ليختبر إيمانهم، فيمحصهم ويجتبي منهم من صَدَقَ في إيمانه، أو يبتليهم ليتقربوا إليه في الشدائد بعد أن غفلوا عن التقرب إليه في حال رغد العيش، أو ليدركوا نعمة الصحة التي لا يتفطنون إليها وإلى دقائقها إلا في حال المرض، فيدرك المريض الذي بلغ الثمانين من عمره حين يسعفه الطبيب بأجهزة التنفس ليلتقط نَفَسَاً واحداً عز عليه التقاطه في حال مرض ألمَّ به عظمة أن يعيش حياته كلها بغير حاجة لأجهزة اصطناعية تعين على التنفس! أو أن يعجل لهم عقوبةً جراء ما اقترفوه تجبُرُ عنهم عقوبة أعظم، أو يكفر عنهم سيئاتهم، أو أن يدل البشر على أن طلاقة قدرة الله هي من تسير الكون وأنه لا يسير سيرا رتيبا يستغني فيه عن خالقه، فيضرع الإنسان إلى خالقه في الشدائد والمحن، ويدرك الإنسانُ عجزه أمام قدرة الخالق، فلا يطغى الإنسان ولا يستبد، فيضر نفسه ويضر غيره.

كما أن الله تعالى -بوصفه ربا مدبرا لشؤون الخلق- نظم الكون والمجتمعات بسنن لا تحابي أحدا، تنطبق على المسلمين وعلى الكفار، مطردة، تنفعل بالأسباب، وأمر الناس باكتشافها، فما من داء إلا وله دواء إلا الموت، فإذا ما صادف الدواء داء عالجه، فلم يكن الابتلاء بالمرض إلا حالة طارئة مرحلية، وكذلك الفقر، فقد وضع نظاما عادلا يقوم في قسم منه على تحقيق التكافل الاجتماعي، وبيّن مسئوليات الدولة الرعوية تجاه الرعية لتكفيهم حاجاتهم الأساسية، وجعل الله الأرض صالحة للحياة وللمعاش، وقدَّر فيها أقواتها، فجعل في التربة قابلية إنبات النبات وفيها الصلاحية للزرع، وجعل في الأرض كميات وافرة من الماء وأنزل هذا الماء من السماء لينتشر فوق الأراضي اليابسة ليعيش منه النبات والحيوان.

وبالإجمال فالله تعالى قد خلق جميع ما يلزم لمعاش وحياة المخلوقات، وجعل في الأرض أشياء خاصة بالإنسان بأن أودع ثروات في باطن الأرض من حديد ونحاس وذهب وفضة ومعادن وبترول الخ، وجعلها بكميات كافية لمعيشة البشر، حيث جعل الله فيها قابلية إعادة الاستخدام مرات ومرات، كدورة المياه في الطبيعة مثلا، ولو وسد أمر معيشة الناس لدولة إسلامية ترعاهم لكفت البشر حاجاتهم الأساسية، ولانعدم الفقر، وحين يعرض الإنسان عنها فإن له معيشة ضنكى، ولكنها الرأسمالية الجشعة! استأثر فيها قلة بما هو حق للجموع، ازدادوا غنى ليزداد الفقراء فقرا، ونهبوا ثروات دول ليتجاوزوا بشعوبهم حد السرف والترف، وبحساباتهم البنكية مليارات

---

[٣٠٩] يراجع كتابنا: الصندوق الأسود للفكر الغربي، فصل: **انعدام المقاييس المؤسسة للأخلاق وللخير والشر في ظل استبعاد الدين، وما بعده من فصول.**

المليارات، فافتقرت أفريقيا لتغنى فرنسا، ولكنه ظلم الإنسان للإنسان، وخضوع المظلوم للظالم دون أن يستعين بالسنن المجتمعية للتغيير.

ولكنها سوء تدبير الحكام والإنسان عموما في ألا يستغل الأرض في الزراعة وفي استصلاحها وعمارتها بالصورة الصحيحة مستفيدا من تسخير الله إياها له، وإفساد الإنسان للنظام البيئي الذي ينتج ما ينتج من كوارث.

## هل مصائب الدنيا هي عقوبات على الذنوب؟

وأما العقوبات، فإن الله تعالى عجل للأقوام الذين خلوا من قبلُ عقوباتٍ في الدنيا جراء ارتكابهم مخالفة الرسل والكفر بهم، وحين أُرسل محمدٌ ﷺ تغيرت سنة الله في إهلاك الكفار الذين يكذبون رسوله. وبرز هذا التغيير في النصوص التالية:

١. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، [سورة الأنفال ٣٢ـ٣٣]. والذي أطلق هذا التكذيب والتحدي هو النضر بن الحارث وأبو جهل، وهذا كان لسان حال مشركي مكة. ولم يأتهم الجواب بالإهلاك، بل أعطاهم أمانين: الأمان الأول وجود الرسول ﷺ بين ظَهرانَيْهم، والأمان الثاني الاستغفار. وإذا زال الأمان الأول بوفاة الرسول ﷺ فإن الأمان الثاني لا يزول بالكلية.

٢. قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة العنكبوت ٥٣ـ٥٥].

قال القرطبي ج١٣/ ص ٣٥٦: (قال ابن عباس: يعني هو ما وعدتك ألاّ أعذّب قومك وأؤخرهم إلى يوم القيامة. بيانه ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾.

٣ـ قال تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [سورة ص ١٥ ـ ١٦]. قال القرطبي في تفسيرها: ﴿يَنظُرُ﴾ أي ينتظر. ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني كفار مكة. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي نفخة القيامة. ﴿قِطَّنَا﴾، قال مجاهد وقتادة: عذابنا.

٤ـ قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، [سورة الأنعام ١٢] قال القرطبي في تفسيرها: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أي وعد بها فضلاً منه وكرماً، ولذلك أمْهَلَ.

٥. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، [سورة الإسراء ٥٩]. قال القرطبي في تفسيرها: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ التي اقترحوها إلا أن يكذّبوا بها فيهلكوا كما فُعِل بمن كان قبلهم ... فأخّر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمناً ... إنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصفا ذهباً وتُتَنحى الجبال عنهم، فنزل جبريل وقال: «إن شئتَ كان ما سأل قومُك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يُمْهَلوا، وإن شئتَ استأنيتُ بهم» فقال: «لا، استأنِ بهم».

٦ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ **إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ** تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، [سورة إبراهيم ٤٢].

وهذا خطاب من الله للرسول ﷺ بعد أن اشتد استفزاز المشركين وتحديهم له واستهزاؤهم به وبالعذاب الذي يهددهم به. وهذا الاستهزاء والتحدي والاستفزاز يبرز في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، [سورة الإسراء ٩٠ ـ ٩٣] وقد قام الرسول ﷺ من بينهم حزيناً متألماً. فأنزل الله عليه تسلية له بأن الله ليس غافلاً عنهم إنما يؤخرهم إلى يوم القيامة.

لقد تحدثنا حتى الآن عن الأقوام الذين يأتيهم رسل الله فيكذبونهم. فما هي سنّة الله في الناس بشكل عام، أي حين لا يكون هناك رسول بين ظَهرانَيْهم يدعوهم إلى الله، كما كانت الحال في الفترة بين رسول ورسول، أو كما صارت الحال واستمرت منذ وفاة الرسول محمد ﷺ؟ هذه الحال العامة للناس تحكمها النصوص التالية:

١. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ **وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، [سورة النحل ٦١].

٢. قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ **وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [سورة فاطر ٤٥].

٣. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ، بل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾، [سورة الكهف ٥٨].

٤. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ **إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ** تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، [سورة إبراهيم ٤٢].

٥. قال رسول الله ﷺ: «اليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل» [رواه البخاري].

هذه النصوص الخمسة وما كان في معناها تفيد بوضوح أن الله سبحانه لم يجعل الدنيا دار حساب، بل هي دار عمل، والحساب غداً. واستيفاء الحساب يكون يوم القيامة الذي يسمى يوم الحساب ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، [آل عمران ١٨٥].

أما ما يصيب الناس في الدنيا من المصائب فهذه تحصل بحسب سنن الكون وخصائص الأشياء التي أودعها الله فيها، وهي تصيب المؤمن كما تصيب الكافر، وتصيب التقي كما تصيب الشقي.

والمصائب في الدنيا ليس من الضرورة أن تكون عقوبة من الله على معصية، وليس من الضرورة أن تكون انتقاماً إلهياً من العبد المصاب. فهذا قول الله تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، [سورة البقرة ١٥٥ ـ ١٥٧]. وهذا قول الرسول ﷺ:

«أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسب دينه. فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة» [رواه البخاري].

فالمؤمن الذي يصاب ويصبر ويحتسب ذلك عند الله تكون المصيبة نعمةً عليه وليست نِقمة، فهي تحط من سيئاته وتزيد في حسناته يوم القيامة.

وأما الكافر الذي يُصاب فإن مصيبته لا تكون محواً لسيئاته ولا زيادة في حسناته يوم القيامة، لأنه ليس له حسنات يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾، [سورة الفرقان ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، [سورة الأحقاف ٢٠].

وقد وردت كلمة (عذاب) في النصوص الشرعية بمعنى العقوبات التي أمر الله بإيقاعها على العصاة، مثل قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، [سورة النور٢]، ومثل: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، [سورة النور٧].

وقد وردت كلمة (عذاب) وكلمة (عقاب) وكلمة (هلاك) وكلمة (تدمير) وكلمة (استبدال) في النصوص الشرعية بمعنى ما يصيب الناس من أذى أو مصائب **بحسب سنة الكون، وبحسب الأسباب والمسببات**، مثل قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، [سورة الأنفال ٦٨]، أي إن ترك القتل أثناء المعركة والحرص على الأسر طمعاً بأخذ فدية الأسير قد يؤدي إلى خسرانكم المعركة وأن تصبحوا أنتم القتلى والأسرى.

**فهذا يرينا أهمية فهم السنن حتى لا نقع في مظنة السبب فتنزل المسببات بساحتنا!**

ومثل قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، [سورة التوبة ١٤]. ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾، [سورة الإسراء ١٦]، **وذلك حين تقع حروب أهلية بسبب كثرة الفساد، والذي يفضي إلى الظلم والتفاوت الاقتصادي/ الاجتماعي، ويولد النقمة وعدم استقرار المجتمعات، فتنشأ الصراعات والحروب والإهلاك للوقوع في مظنة تلك الأسباب**، أو يطمع عدو خارجي حين يرى تلك القرية غارقين في الترف واللذات ومهملين في أسباب القوة والجهاد.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾، [سورة محمد ٣٨]. **فتولّي المسلمين عن شريعة الله سيؤدي بهم إلى التمزق والضعف ما يجعل أعداءهم يقضون عليهم حتى يأتي من الأمة غيرُهُم يتمسكون بدين الله**.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾، [سورة طه ١٢٣ ـ ١٢٤]. **فأي النظم غير نظام الإسلام يجلب للناس السعادة وحسن التصور لسبب وجودهم، ويجلب حسن تطبيقه عليهم الرخاء والرضا، والتكافل الاجتماعي، وحسن رعاية الرعية من قبل الدولة وتحمل مسئولياتها؟ فإذا ما أعرضوا عنه وقعوا ضحية الأنظمة البشرية الجائرة! فهذه كلها سنن مجتمعية ينبغي فهمها ودراستها**!

ومثل حديث الرسول ﷺ وقد سُئِل: «أنَهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كَثُر الخبث» [رواه البخاري ومسلم]. ومثل ذلك قول الرسول ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليوشكَنّ اللهُ أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعُنّه فلا يستجاب لكم» [رواه الإمام أحمد والترمذي]. **وهنا الكلام عن سنة إلهية، فالله لا يستجيب حينها للدعوات، ويقع الناس في عقوبات ما تجلبه عليهم المنكرات من أمراض لم تكن فيمن قبلهم، أو في استشراء الفساد والمنكرات والنظم الوضعية الربوية وما شابه!**

**هذه النتائج التي تنتج حسب قانون السببية ليست هي الحساب على الذنوب، بل الحساب على الذنوب سيأتي يوم القيامة.**

لاحظوا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [سورة طه ١٢٤ـ١٢٦]. فالإعراض عن ذكر الله (أي شرع الله) تنتج عنه المعيشة الضنك (أي الشقاء) في الحياة الدنيا، وهذا الشقاء لا يجبر عن صاحبه عذاب يوم القيامة. العذاب الدنيوي الذي يجبر عن صاحبه عذاب يوم القيامة هو العقوبات الشرعية من حدود وتعزير، إذ إن هذه العقوبات هي زواجر وجوابر. أما المصائب والأمراض التي تحصل جراء الأسباب والمسببات فهذه ليست عقوبات تجبر عقوبات يوم القيامة. فالذي يرتكب الزنا ويصاب بمرض الآيدز مثلاً لا يقال بأن هذه هي عقوبته عجلها الله له في الدنيا ليسقطها عنه في الآخرة. بل مرض الآيدز هو نتيجة حينما تتوفر أسبابه، وتبقى عقوبة الزنا إلى يوم الحساب.

أما الأمور التي تحصل في الكون، وليس للإنسان فيها أي دور، مثل الزلازل والأعاصير والفيضانات والبراكين وانحباس المطر وشدة الحر وشدة البرد وما ينتج عنها من آثار، **فإنها من أفعال الله وحده، حسب السنن التي أودعها الله في الأشياء، هذه الأمور تصيب الناس لا فرق بين مؤمن وكافر، ولا بين صالح وطالح.** وهي ليست شراً بالمعنى الشرعي للشر. وهي بالنسبة للمؤمنين ابتلاء فإن صبروا واحتسبوا كانت خيراً ونعمة. وهي بالنسبة لجميع الناس: مؤمنين وكافرين آية من الله تدعوهم للتفكر والاعتبار، وهي تخويف لهم من عاقبة إهمالهم واستغراقهم في الشهوات العابرة ونسيانهم ما هم مقدمون عليه من نعيم أو جحيم.

إن هذه الأحداث لا تحدث عشوائياً ولا صدفة، إنها تحدث حسب التقدير والترتيب الذي اختاره الله سبحانه بحكمته وعلمه[٣١٠].

## عدل الله تعالى، تأملات في مناظرة رائعة

قابلت شابا ولد ونشأ في كندا، مقبلا على الإسلام، وسألني فقال: نحن لم نُسْتَشَرْ في أن نقدم على هذه الدنيا، ونخضع لامتحان رهيب فيها، نتيجته إما جنة وإما نار! ولو كان لي الخيار لربما رفضت دخول الامتحان أصلا، لأني لا أعلم ما يكون مني أو علي!

ذكرني سؤاله بقصة، تُدْرَسُ في إطار مسألة أخرى، لكنها تصلح تماما للإجابة على سؤاله!

---

[٣١٠] هل مصائب الدنيا هي عقوبات على الذنوب؟ مجلة الوعي العدد ١٥٠ بتصرف

في تفسير القرآن العظيم تصنيف الشيخ فخر الدين الرازي في سورة الأنعام: "أن الإمام أبا الحسن الأشعري لما فارق مجلس الأستاذ أبي علي الجبائي وترك مذهبه وكثر اعتراضه على أقاويله عظمت الوحشة بينهما، فاتفق يوما أن الجبائي عقد مجلس التذكير، وحضر عنده عالمٌ من الناس، فذهب الأشعريُّ إلى ذلك المجلس، وجلس في بعض النواحي مُختفيا عن الجبائي، وقال لبعض من حضره من النساء: أنا أعلمكِ مسألة فاذكريها لهذا الشيخ، ثم علَّمها سؤالا بعد سؤال،

فقالت: أيها الشيخ، ما قولك في ثلاثة مؤمن وكافر وصبي؟

فقال الجبائي: المؤمن من أهل الدرجات، والكافر من أهل الهلكات، والصبي من أهل النجاة.

فقالت المرأة: فإن أراد الصبي أن يرقى الى أهل الدرجات هل يمكن؟

قال الجبائي: لا، يقال له: إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة، وليس لك مثله.

فقالت: فإن قال: التقصير ليس مني، فلو أحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن.

قال الجبائي: يقول له الله: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وعوقبت، فراعيت مصلحتك، وأَمَتُّكَ قبل أن تنتهي إلى سن التكليف.

قالت: فلو قال الكافر: يا رب، علمتَ حالَهُ كما عَلِمْتَ حالي، فهلا راعيت مصلحتي مثله.

فانقطع الجبائي"!

تذكر هذه الحادثة في مجال الرد على المعتزلة في قولهم إن الله تعالى يتوجب عليه أن يختار الأصلح لعباده، وليست هذه مسألتنا هنا، فلن نخوض فيها، ولكني أذكرها هنا لأبين لكم مسألة أخرى تظهر جلية من هذه المسألة، وهي ما أجبت به السائل آنفا! وهي أن الله تعالى وهو الحكم العدل القائم بالقسط الرحيم بعباده، إذ يقارن عدله في صبي مات ولم يستحق عذابا، وكان في هذا عدلا مقارنة بتعذيب مجرم بالنار، فهما متكافئان في الاشتراك بأسباب النجاة ويسرها عليهما وتمكنهما من الأخذ بها سواء، إننا حين ننظر في أسباب النجاة والعقاب، ونركز النظر عليها، تحل لدينا الإشكالية بسهولة.

وأقول فوق ذلك فإنا لا نعلم من حال الصغير في الآخرة ما يناله، وأما المحسن والمسيء فقد آتاهما الله آلات التفكير والأدلة التي تملؤ جنبات الكون، وأنزل البينات وأرسل الرسل بالنذارة والبشارة، فاستحقا جزاء أعمالهما، فلم تكن عقوبة المسيء بغير سابقة نذارة وإقامة للحجة عليه، فاستحق ما قارفت يداه، وأما الصغير فلم يدخل هذا الاختبار برمته، فلم يكن دخوله الجنة ونجاته من العذاب ظلما للكبير؛ فالله تعالى يخلق الوِلدان المخلدين ويدخلهم الجنة لا جزاء على أعمالهم، ولكن فضلا منه وكرما لم يستحقهما المسيء فتأمل!

من هذه القصة يظهر أن قياس عدل الله تعالى على عدل البشر يوقع الناس في مشاكل فكرية أصل التفكير فيها هو الخطأ، فالإنسان يقيس العدل والخير والشر بمقاييس أرضية محدودة، لذلك لا يجوز قياس عدل الله على مفهوم العدل عند البشر. ﴿ألا يعلم من خلق؟ وهو اللطيف الخبير﴾!

فإن الله تعالى لا يعذب حتى يبعث رسولا نذيرا ببلاغ مبين بما تحويه هذه الجملة من معان تامة، بلاغٌ مبينٌ، واضحٌ لا لبس فيه، حُجَّةٌ بالغةٌ، ونذارةٌ تامةٌ فيها مكاشفةٌ تامةٌ عن المصائر، ويسبقها أن يمد الله تعالى الإنسان

بأعظم آلة في الكون، ألا وهي العقل، بما فيه من قدرات خارقة على الربط والتفكير والتحليل، وما يحتاجه من أدوات استكشاف كالأسماع والأبصار والإحساس، فالعقل الحجة الأولى على الخلق، ثم تأتي الحجة الثانية على الخلق بأن يمتلك النبي معجزة خارقة لقوانين الكون، تفرض نفسها على السامع والقارئ فرضا فلا يجد بدا من أن يراها علامة واضحة على صدق النبي في رسالته!

وبعد هذه المعجزة الخارقة تأتي الحجة الثالثة الدامغة متمثلة بأدلة تملأ جنبات الإنسان، وتملأ أرجاء الكون، لا مجال فيها لنقض ولا حيرة ولا شك، كون منظم لا فوضى فيه، مضبوط كأدق ساعة، فالعالم يجد من الأدلة ما يناسب أبحاثه وعقله وتفكيره ونظره، والأديب يجد كذلك إذ ينظر في بلاغة القرآن ونظمة، والطبيب يجد كذلك، إذيرى أنسجة الإنسان وأجهزته، ولقد خضع أكبر ملحد في القرن العشرين "أنتوني فلو" لمعجزة الدي أن إيه، ولم يملك منها فرارا بالتسليم باستحالة أن تكون إلا من صنع خالق قدير حكيم! والفلّاح إذ ينظر في البذرة والأرض والثمرة والمطر ودورته، وكل إنسان يرى في جنبيه من الآيات ما لا مجال لرده بأنه مخلوق لخالق عظيم كريم.

ثم تأتي الحجة الرابعة، فقد أتبع الله تعالى العقلَ والمعجزةَ والأدلةَ بالدين نفسه، بكتاب حكيم فيه فصل الخطاب، وفيه عقيدة تطمئن لها العقول وتستبشر بها القلوب، قولا فصلا حكيما موافقا للفطرة، ثم انبثق عنه نظام حياة يضمن السعادة والرفاهية والطمأنينة والعدالة والقيام بالقسط للناس،

فهذه الأسباب الأربعة: العقل والمعجزة، والآيات، والدين نفسه بشقيه العقدي والتشريعي حجة واضحة لا لبس فيها على الناس جميعا! وهي من البساطة والوضوح، والقوة في الدلالة بمثابة أنها لو عرضت على أي عاقل خال من المعوقات الناشئة عن زخرف الأهواء وضلالة الرغبة في الإعراض عن الحق، أو الإعراض بالكلية عن محاولة التفكير والإخلاد للأرض أو الركض وراء المال بطرق غير مشروعة، وغير ذلك من الأسباب التي تتسبب في إعراض الكافر عن النظر في هذه الآيات البينات الواضحات التي هي حجة دامغة واضحة، لما وسعه إلا أن يتبعها!

وهي من السهولة كما لو أنها عرضت على صبي لم يبلغ سن التكليف، فقبلها فنجا من العقاب!

وهي بالسهولة والبلاغة نفسها بالنسبة لذلك الشقي الذي اختار الإعراض عنها مع ما فيها من بيان مبين وحجة قائمة لا يمكن لعاقل أن يدفعها لشدة سهولها ووضوحها!

وأما الكافر فتلك الحجة أمامه بنفس الوضوح ولديه نفس القابلية للنظر من عقل تام، وليس بينه وبين تلك الحجج أي معوقات جبرية تحمله على الكفر، إنما قام بذلك بمحض اختياره، فاستحق العذاب التام، لذلك فالعدل تام متحقق فقد كان الذي أعرض عنه بمنزلة مشابهة تماما للصبي، ليس فيها تعقيد يبعده، ولا باطل يصرفه، وإنما هي شقوته التي هو السبب فيها، قال تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾، نعم، تبين الرشد من الغي لدرجة أن لا حاجة للإكراه على قبول الدين لشدة وضوحه وتبينه وانفصاله عن الغي ومبالغته في صفة الرشد، أي أن أي حمل على الاتباع لا حاجة له، لأنه حق بالغ الوضوح، وإنما الغرابة في الإعراض عنه، لذلك، فمن دخل هذا الامتحان، فقد وجد أنه قد زوده الله تعالى بكل أسباب النجاح سهلة ميسرة، العقل والمعجزة والأدلة ومنهاج الحياة، فهو امتحان في كتاب مفتوح لا مغاليق فيه!

ومنشأ هذا السؤال – الاعتراض- متعلق بكمالات الله وصفاته، وبشكل أدق هو متعلق بصفة العدل الإلهي، والأسئلة التي من هذا القبيل عادة ما تكون مشكَلَة ان لم تكن طريقة التفكير فيها مبنية على أسس صحيحة، وهذا الذي أوقع المعتزلة في إلزام الله بأمور بناء على مقاييس بشرية للعدل.

ولو عدنا لالتماس الجواب من المصادر الشرعية لما وجدنا جوابا مباشرا، فالله تعالى لم يخبرنا عن تجليات صفات الخالق بكمالها فيما يتعلق بهذا السؤال ونظائره، وهذه الأسئلة، مثل لماذا خلقنا الله تعالى، تتفرع عن السؤال الكبير الذي يسبقها وهو من هو الله تعالى الذي آمنا به وخلقنا على غير إرادة منا؟ هل يتصف الله تعالى بصفات الكمال المطلق وبالتالي لا يعتري أفعاله ما يعتري أفعال البشر من عرضة الصواب والخطأ؟ أم يتصف بالنقص فيحتمل فعله الخطأ؟ إن التنظيم العظيم الذي نراه حيثما وجدنا في الكون من حولنا، وتقدير كل شيء بدقة متناهية وبإحكام صنعة ظاهر يدل دلالة قاطعة على صفات الكمال، واستحالة الخطأ والنقص، مما يوجب أن يقع الجواب إلى جانب الصحة والحكمة في خلق الإنسان وامتحانه.

وللإجابة على هذا الاعتراض يجب مراعاة الأمور التالية:

الأمر الأول: أن هذا الاعتراض مبني على مغالطة عقلية ظاهرة، وهي أن الانسان قبل وجوده يمكن أن يُسأل ويُستشار، ويمكنه أن يشعر ويريد ويحدد اختياراته، وهذا أمر مستحيل، لأن هذه الأمور لا يمكن أن تتحقق الا ممن يملك أدواتها وشروطها، وأهم ذلك الحياة ووجود البنية والعقل والتمييز، والمعدوم لا يملك من مقومات الحياة شيئاً، فكيف يمكنه أن يُسأل ويُستشار ويتخذ القرارات المصيرية في حياته؟!

الأمر الثاني: أن هذا الاعتراض منطلق من التعامل مع الانسان على أنه ند لله تعالى ومناظر له، ولهذا استساغ أن يسألَ الله، ويعترضَ على فعله وخلقه، والحقيقة أن الانسان هو مجرد مخلوق صغير لا يحق له التعامل مع الله بندية ومناظرة، وانما يجب عليه أن يخضع لله ويسلم لأمره تعالى، ويفكر فيما يجب عليه القيام به، ويبتعد عن الأمور التي لن تغير من حقيقة كونه مخلوقاً، ومع ذلك فالتكليف في ضمن المستطاع، والاعتقاد قامت عليه أدلة سهلة قاطعة، الأمر الذي يجعل الامتحان "في كتاب مفتوح".

الأمر الثالث: أن هذا الاعتراض عادة ما يصدر من انسان متألم في حياته، ولا تكاد تجد انساناً يعيش في رغد من العيش وسعة من الرزق واستقرار في الحال يتأفف من وجوده، ويعترض على خلق الله له، وهذا يدل على أن منبع هذا السؤال العاطفة، فهو اعتراض عاطفي بامتياز، ولا يصح في مقاييس العقل أن تكون العاطفة معياراً تقاس به أحداث الوجود ومظاهره وحكمه، فالعاطفة عادة ما تكون غير منضبطة وخارجة عن الموضوعية والاعتدال.

الأمر الرابع: أن المعترض بهذا الاعتراض يميل الى اعتبار العدم أفضل من الوجود، وهذه المفاضلة مبنية على أسس غير صحيحة، فالعدم بالنسبة لنا مجهول تمام الجهل، ولا يصح تفضيل شيء على شيء الا بعد العلم، فانحصر حال الانسان بين أمرين: الأول: حياة يعلم ما فيها، ويشعر بحجم ما يصيبه من الآلام ويمكنه أن يسعى في التخلص منها، والثاني: عدمٌ لا يدري ما فيه، ولا يعلم شيئاً عن حقيقته وماهيته، ولا يدري أفيه خير أم شر، أم لا خير ولا شر؟

والعقل السليم والفطرة المستقيمة توجبان تقديم الحال الأولى على الحال الثانية، لأن الحال التي فيها خير وشر أفضل من الحال التي لا خير فيها ولا شر، ومن الحال التي لا يعلم الانسان عنها شيئاً، والحال التي فيها شر يمكن أن تفعّل النواميس والسنن التي سبق ذكرها ليخرج بها الإنسان من ضنك العيش إلى رغده، فعلى الإنسان مسئوليات، ولديه قدرات (فردية وجماعية) تمكنه من التغيير، ورغد العيش لا يعني أن الغنى أفضل له من الفقر، بل قد يكون الإنسان الرضي بما قسم له ولديه قوت يومه وطمأنينة قلبه أسعد من غيره، وبالتالي لا بد من إعادة النظر في المفاهيم والمقاييس والقناعات التي تؤسس لنظرة الإنسان إلى واقعه، في ظل قدراته ومسئولياته عن التغيير.

الأمر الخامس: أن هذا الاعتراض مبني على نظرة ناقصة للحياة والوجود، فالمعترض حين وجد حياته الخاصة مليئة بالأتعاب والمشاق والتكاليف طفق يتذمر منها، ويعترض على أصل وجوده في الحياة، وكأنه بذلك يشترط لقبول الحياة في الأرض أن تكون حسنة وجميلة في كل وقت، وفي كل مكان، وأن تكون جارية على ما يحب أبداً، فان لم يجدها كذلك حكم عليها بالبطلان والفساد، وأخذ يعترض عليها! فحَكَمُهُ هي أهواؤه وما وافقها!

والحقيقة أن طبيعة الحياة كلها ليست قائمة على أذواق الناس ولا على رغباتهم، وكل انسان يجد من المشاق والأتعاب ما يتناسب مع حاله، بل كل الحيوانات لا تجري الحياة بالنسبة لها على وفق ما تشتهي، وليس ما يُشتهى ويوافق الأهواء بحسن دائما، والإنسان لا يعلم الخير من الشر في حاضر أمره وعاقبته، فرب إنسان طُرد من عمله، فدفعه طموحه للقيام بعمل أفضل منه جر عليه نفعا عاجلا أو آجلا ما كان ليبلغه لو بقي في عمله الأول، فسؤاله إذن مستظل تماما بظلال جهله بالخير والشر، والحسن والقبح، وجري وراء الأهواء، لا يجعل من تأففه وأهوائه مرجعا للصواب والخطأ، ولا يدري عواقب الأمر الذي لم يعجبه لعل فيه الخير له في الدنيا والآخرة!

فظهر بذلك أن المعترض في الحقيقة لا يعترض على حاله فقط، وانما يعترض على قانون الحياة كله، وهو لا يتأفف من طبيعة وجوده فقط، وانما يتأفف من طبيعة الوجود كله، والمطلوب من الانسان أن يتفاعل مع قوانين الحياة وطبيعة الوجود، لأنه جزء منها، ولا يصح أن يطالب بتغييرها وتبديلها، لكون ذلك أمراً مستحيلاً متعذراً.

**هل يقع السؤال "نحن لم نُسْتَشَرْ، ولو خُيِّرْنَا ربما رفضنا الحياة أصلا" تحت بند العدل أم الحكمة؟**

فأما العدل، (نقيض الظلم) فيتجلى في حياة البشر في أربع صور:

العدالة التوزيعية (تحديد من يحصل على ماذا بناء على معايير متناسبة (وقد يكون من العدل تفاوتها أحيانا أو تساويها في أحيان أخرى)، والإجرائية procedural (تحديد كيفية معاملة الناس بإنصاف، كما يحصل في الحكم)، والعقاب (على أساس العقوبة على الفعل الخاطئ بأن تكون العقوبة مكافئة للجريمة ورادعة للمجتمع)، والتصالحية (الذي يحاول إعادة العلاقات إلى "الصواب"، أو الحقوق إلى أهلها).

فبالتأمل في هذه لا نجد مسألتنا منطوية تحت أي منها، لأن الخلق كلهم وضعوا في هذا الاختبار وفقا للمعايير نفسها، والمقومات التي يستطيعون معها اجتياز الاختبار، وفي التنبيه المسبق (البلاغ المبين) لمآلهم، فلا ظلم، ولا يرد السؤال تحت بند العدل،

بل هو ألصق بمفهوم الحكمة، هل من الحكمة أن يخلق الله خلقا ويعطيهم الأمور الأربعة السابق ذكرها في المقال لتساعدهم على اجتياز الاختبار؟ وهل هي كافية؟ هل فيها مثالب لا يستطيعون معها النجاح، فإذا خلت من المثالب، فالحكمة تامة.

"عرف ابن تيمية والماتريدي والغزالي العدل على أنه من أفعال الحكمة، قال ابن تيمية: "الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والعدل وضع كل شيء في موضعه، وهو سبحانه حكم عدل يضع الأشياء موضعها، ولا يضع شيئا إلا في موضعه الذي يناسبه وتقتضيه الحكمة والعدل، ولا يفرق بين متماثلين، ولا يسوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة فيضعها موضعها في ذلك من الحكمة والعدل"[٣١١]، وعليه، فالحكمة في تزويد الناس بما يلزمهم لإتمام الاختبار بنجاح تفضي إلى تحقق العدل كاملا.

## عدل الله، تأملات في مناظرة أخرى رائعة!

وسألني سائل، قد أفهم قضية تعذيب المترفين الذين كذبوا في هذه الحياة الدنيا، وعاشوها "بالطول والعرض" ونالوا كل حظوظهم فيها، أو المتجبرين الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وعم طغيانهم البر حتى ضاق عنهم، فملأت جرائمهم الجو براميل متفجرات، والبحر "سفينا" حاملاتٍ الهاربين منهم ومن جورهم!

قال عمرو بن كلثوم في معلقته:

مَلأْنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَظَهرَ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِيْنَا

لم يكن يعلم أن البشر الظالمين سيملؤون الجو أيضا بظلمهم بعد أن يضيق البر والبحر بهم! يتابع السائل: ولكن، ماذا عن ذلك الفلاح البسيط الذي عاش في "كوريا الشمالية"، ولم يسمع عن الإسلام شيئا، أو ذلك الذي عاش في الهند، واتبع دين آبائه وعاش "مسخما"، ثم يقضي على الكفر فيعذبه الله، كيف أفهم ناموس العدالة؟

ذكرني هذا السؤال بمناظرة، دخل رجل على أبي علي الجبائي، فقال: هل يجوز أن يسمى الله تعالى عاقلاً؟

فقال الجبائي: لا؛ لأن العقل مشتق من العقال، وهو المانع، والمنع في حق الله تعالى محال، فامتنع الإطلاق.

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري ﷺ فقلت له: فعلى قياسك لايسمى الله سبحانه حكيماً؛ لأن هذا الاسم مشتق من حَكَمَة اللجام، وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج، ويشهد لذلك قول حسان بن ثابت:

فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

وقول جرير:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني اخاف عليكمُ أن أغضبا

أي نمنع بالقوافي من هجانا، وامنعوا سفهاءكم فإذا كان اللفظ مشتقا من المنع، والمنع على الله محال لزمك أن تمنع إطلاق حكيم عليه سبحانه وتعالى.

---

[٣١١] مشكلة الشر، ووجود الله، د. سامي عامري ص ٤٠.

قال: فلم يحر أبو علي جواباً، إلا أنه قال لي (لأبي الحسن الأشعري): فلم منعت أنت أن يسمى الله سبحانه وتعالى عاقلاً واخترت أن يسمى حكيماً؟

قال: فقلت له: لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي، فأطلقت حكيماً؛ لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلاً؛ لأن الشرع منعه؛ ولو أطلقه الشرع لأطلقته!

لقد تسمت فرقة المعتزلة بأهل العدل والتوحيد، لأنهم اتخذوا قاعدة نسبة العدل المطلق لله تعالى أساسا لفهمهم للعقيدة، ولكن وفقا لفهمهم هم لمفهوم العدل الذي يتم بين البشر ومن ثم إسقاط هذا المعنى والفهم على الله تعالى، فإذا ما تعكر ذلك الإسقاط، حارت ألبابهم وأسقط في أيديهم!

إذن، فمقاييسنا نحن البشر لمفهوم العدل والأصلح والأنفع والخير والشر مفاهيم قاصرة، ناقصة، لا ترى الصورة الكبيرة كما هي، وتقيس ما يحصل في عالم البشر على خالق البشر وهو قياس لا يصح!

لكننا سنحل الإشكال بإذن الله حلا يطرح رؤية جديدة كل الجدة، ناتجة عن تفحص وفهم ودراسة عميقة للموضوع نسأل الله أن تبلغ الاستنارة:

لقد زود الله تعالى البشر كلهم بآلة العقل، فأما من لا عقل له فقد رفع عنه القلم!

وجعل في الإنسان نجدين يستهدي بأحدهما فيقوده للهداية، ويستدرجه الآخر في مغاوي الضلالة فيضلله، والنجدان هنا هما اختيار الإنسان لكيفية إشباع رغباته وحاجاته العضوية، فله مطلق حرية الإختيار أن يشبعها بأوامر الله ونواهيه أم بما يخالف ما أمر الله، وجعل له مطلق حرية الاختيار المبني على استعمال العقل أو الهوى والعمى، وزوده بالمنهج القويم ليرشده للحق، ويبين له ما يحذر منه!

ولما لم يكن الإنسان من طبعه أن يعيش في غابة منفردا مع الوحوش، فكان لا بد من سنن مجتمعية تلزم الإنسان كي يدركها ويستعملها ليمنع ظلم أخيه الإنسان الذئب عنه، فإن الإنسان إن استطاع في أحيان أن يختار سبيل الرشاد ويقوده ذلك الاختيار لسعادة الدنيا والآخرة، فإن آخرين ستجبرهم كياناتهم المجتمعية، وتسلط القوي فيها على الضعيف، والرأسمالي على الفقير، والدكتاتور على الشعب كله على اختيار العمى على الهدى، أو للعيش عيشة كريهة لولاها لما كان الرأسمالي يتحكم بتسعة أعشار ثروة المجتمع ويترك للفقير فتات العيش!

لذلك كان لا بد من سنن مجتمعية يستطيع معها "الفرد" و "الجماعة" أن تغير مفاهيم المجتمع وتركيبته وتوزيع ثروته وأن تحتكم لشرعة ترضاها، وهذه السنن المجتمعية في متناول اليد، على الفرد والجماعة أن تتعلمها وتستعملها فيحصل التغيير المرجو ويسقط ظلم الإنسان عن أخيه الإنسان!

فالإنسان المسحوق سيبقى مسحوقا إذا استسلم لفرديته، ولم يدرك السنن المجتمعية التي تمكنه من أن يتقوى بأخيه في المعاناة في نفس المجتمع، فيتحصل باجتماعهما لهما ما لم يحصل لأحدهما بفرديته، لذلك كان التحزب من صميم سنن المجتمع التي خلق الله تعالى المجتمعات وتدافع البشر على أساسها بحيث تتشكل الأحزاب على فكر معين مثل فكرة رفع الظلم أو على فكرة أن تسود الشريعة في الحياة محل التشريعات الظالمة التي تفضي للاستبداد، فإذا ما أخذ البشر بتلك السنن المجتمعية فإن أحوالهم ستتغير، فيمحى الفقر، ويرفع الظلم، ويحكم الناس بالعدل، يأتون به رغم أنف القلة التي تستأثر بالحكم وبفرض الأنظمة التي تفضي للقهر والطغيان والجهل

والأمراض، لذلك فالمسئولية تقع على كاهل الناس أن يفهموا سنن الله تعالى في الخلق، تلك السنن التي تتعلق بالفرد وكيف يستعمل عقله وحواسه لفهم الوجود ويستنير بالهدى المرسل له من رب العالمين ليعيش حياة سعيدة راضية مرضية، أو تلك السنن المتعلقة بتغيير المجتمعات وأطر الظالم على الحق أطرا ومنع الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تسود القيم الفاضلة في المجتمعات وتوزع الثروات توزيعا عادلا، ولا يتسلط القوي على الضعيف، لذلك، فالوضع الغلط الذي تحياه البشرية والذي يفضي لأن نرى ذلك الفقير المتعوس في الهند وكوريا الشمالية أو في أمريكا وأفريقيا وغيرها يعيش حياة كد وشقاء ليعيش الرأسمالي حياة رفاه، ويعيش بلا هداية لأن أنظمته تمنع عنه النور وتعمي حقيقة الهدى عنه بغلاف من التضليل الإعلامي، هذا الوضع الغلط الذي سيفضي لنتساءل فيه عن كيفية تحقيق العدل، هو من صنع البشر، من صنع الرأسمالي ومن صنع الدكتاتور، والأخطر: هو من صنعنا نحن حين نسكت عن الظلم ونسكت عن الأنظمة الفاسدة والحكام الفاسدين وعن العُرف الفاسدة في المجتمع حتى تسحقنا تحت أرجلها سحقا، ثم نسأل أين عدل الله!

إنه سؤال بالغ الظلم!

وأما كيف سيتحقق عدل الله، فليطمئن السائل، فإن الله تعالى بعباده خبير!

فلسنا نشك في أن عدل الله تعالى سيتحقق في الدنيا والآخرة حتى يقول كل كائن حي: ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾، من شدة ما يرون من عدل الله ورحمته وقيام الحجة على الظالم وإنصاف المظلوم، كل هذا سيكون وهو من تمام النظرة الكاملة للصورة الكاملة لنرى تكامل الحق في الدنيا والآخرة، وحال العباد في الآخرة لله تعالى يحاسبهم وينتصف لضعيفهم من قويهم، ولكن في الوقت نفسه، فإنه قد أخبرنا عن أولئك الذين سكتوا على الطواغيت والأشرار فأوردوهم النار، فطلبوا من الله أن يضاعف لهم العذاب، فقال لكل ضعف! لأن هؤلاء لم يتجبروا إلا بسكوت هؤلاء!

## خاتمة:

بعد هذا التطواف، أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يكون أجرى الحق على ألسنتنا، وأن يكون هدانا لما فيه الحق والرشاد، فقد بينا طريقة إقامة الدولة ودللنا على ذلك بالكتاب والسنة، وأجبنا على كل الأقوال التي قالها الدكتور المطيري في مقالته تلك مما له علاقة بالطريقة، وما بعد ذلك كله تكرار لا أرى تسويد صفحات في الجواب عليه.

ومع ذلك، فإننا نجل الدكتور المطيري، وإن اختلفنا فإن خلافنا لا يفسد للود قضية.

وقد حرصنا أن نتوسع في مادة الكتاب لتكون منهاجا يتدارسه المخلصون الحريصون على تغيير ما في الأمة لتعود خير أمة أخرجت للناس.

﴿بِسمِ ٱللّه الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * ٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * ٱلرَّحْمـٰنِ ٱلرَّحِيمِ* مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

اللهم صل وسلم وبارك على خير خلقك نبينا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة من في السموات وأهل الأرضين عليه وأجر يا رب لطفك الخفي في أمورنا بفضل رحمتك وكرمك ولطفك يا كريم.

اللهم إني أسألك بك يا رب العالمين، أسألك باسمك الأعظم الذي إن سئلت به أجبت، وإن استغفرت به غفرت، وإن استرحمت به رحمت، وإن استشفيت به شفيت، وإن استرزقت به رزقت يا مجيب دعوة الداعين:

أسألك يا رب بك يا أيها الذي ليسَ إلَّاهُ ربٌ يُدعى، سألتك يا مالك حوائج السائلين الذي يُعطِي إذا سُئل، ولا يزداد على كثرة السؤال إلا جودا وكرما، وعلى كثرة الإلحاح إلا تفضلا وإحسانًا، يأتيه المُثقَلُ بالهموم شاكياً، فيفرج كرباته، والغارق في الذنوب مستغفراً، فيغفر زلاته، والمستيئس من النجاة، فيمد له يد نجاته، إذا أساءت العباد حَلِمَ وأمْهَلَ، وإن أحسنوا تفضلَ وقَبِلَ وإن عصوا ستر، وإن أذنبوا عفا وغفر، وإذا دعوه أجاب، فكان أقرب إليهم من حبل وريدهم، وأرحم بهم من والدهم على وليدهم، وإذا نادوه سمعهم، وإذا أقبلوا عليه أسرع إليهم، من تقرب إليه بشبر قربه ذراعا، ومن أتاه يمشي أسرع إليه هرولة، وإذا ولَّوا عنهُ تكرم وتفضل ودعاهم، ولم يوصد بابه أمامهم، شديد العقاب، وهو الغفور الرحيم.

لكل مُسترحِمٍ لديه رحمة، ولكل راغبٍ إليه زُلفى، تتابعت نعمه وآلاؤه، حتى اطمأنت الأنفس بتتابعها، وتظاهرت المنن منه حتى اعترف أولياؤه بالتقصير عن حقه، أسبغ نعمه عليهم ظاهرة وباطنة،

سألتك بمن تظاهرت العِبَرُ حتى نطقت الصوامتُ بحجته، ودل كل ما كُتب على صفحة نجوم السماء، وحبات رمل أديم الأرض على عظيم قدرته، وأظهر من الآيات حتى أفصحت السماوات والأرضون بأدلته، وقهر بعظيم قدرته حتى خضع كل شيء لعزته وعنت الوجوه لعظمته.

سألتك يا الله بك أن تنزل علينا شآبيب رحمتك، وأن تتقبل أعمالنا وان تجعلها خالصة لوجهك، وان تستر علينا في الدنيا والآخرة، وأن تقضي حوائجنا وحوائج المسلمين، وتنفس كرباتنا، وكربات المسلمين، وتشفي مرضانا ومرضى المسلمين، وترحم موتانا، وموتى المسلمين، وتتولانا والمسلمين فيمن توليت، وتتولى أبناءنا وأهلنا برعايتك وعنايتك وتربيتك وإصلاحك وحفظك فإياك نستودعهم، ونستودع أنفسنا، وأموالنا، وأعراضنا، وديننا وأماننا

وخواتيم أعمالنا، اللهم إني أسألك لنا وللمسلمين أجمعين من خير ما سألك الحبيب المصطفى ﷺ وعبادك الصالحون، وأعوذ بك لهم ولنا من شر ما استعاذ بك منه الحبيب المصطفى ﷺ وعبادك الصالحون.

أسألك الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم، نسألك خلافة راشدة على منهاج النبوة، يعز فيها الإسلام وأهله، ويؤمر فيها بالمعروف، وينهى فيها عن المنكر،

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد خير خلقك، وعلى آله وصحبه وسلم صلاة من في السموات وصلاة أهل الأرضين عليه وأجر يا رب لطفك الخفي في أمورنا،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الحمد لله على نعمائه، ونسأله تعالى أن يكون أجرى الحق على ألسنتنا وبأيدينا، وأن يكون عصمنا من الزلل، وأن يتجاوز عنا برحمته، وفضله، وكرمه، فإنا والله لذاته العلية محبون، على ما فينا من التقصير، والشرود عن الجادة، والانغماس في الدنيا، ومع أن هذا كله يدل على تقصير من جانب المحب، إلا أننا نسأله تعالى ألا يكون حبنا له ادعاء،

**أنا مذنب أنا مخطىء أنا عاصي　　　هو غافر هو راحم هو عافي**

**قابلتهن ثلاثة بثلاثة　　　وستغلبن أوصافه أوصافي**

حدثنا المزني قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبدالله، كيف أصبحت؟ فرفع رأسه، وقال: أصبحت من الدنيا راحلا، ولاخواني مفارقا، ولسوء عملي ملاقيا، وعلى الله واردا، ما أدري روحي تصير إلى جنة فأهنيها، أو إلى نار فأعزيها، ثم بكى، وأنشأ يقول[٣١٢]:

**إليك إله الخلق أرفع رغبتي　　　وإن كنتُ -ياذا المنّ والجود -مجرماً**

**ولَّما قسا قلبي وضاقت مذاهبي　　　جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا**

**تعاظمني ذنبي فلَّما قرنتهُ　　　بعفوكَ ربي كانَ عفوكَ أعظما**

**فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ　　　تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا**

**فلولاكَ لم يصمد لإبليسَ عابدٌ　　　فكيفَ وقد أغوى صفيَّكَ آدما**

**فإن تعفُ عني تعفُ عن متمردٍ　　　ظَلُومٍ غَشُومٍ لا يز ايلُ مأثما**

**وإن تنتقمْ مني فلستُ بآيسٍ　　　ولو أدخلوا نفسي بجُرْم جهنَّما**

**فَللَّهِ دَرُّ الْعَارِفِ النَّدْبِ إنَّهُ　　　تفيض لِفَرْطِ الْوَجْدِ أجفانُهُ دَمَا**

**يُقِيمُ إذَا مَا الليلُ مَدَّ ظَلاَمَهُ　　　على نفسهِ من شدَّة الخوفِ مأتما**

---

[٣١٢] روى المزني بعض هذه الأبيات، وألحقت بها باقي القصيدة من مراجع أخرى.

| | |
|---|---|
| فَصِيحاً إِذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِرَبِّهِ | وَفِي مَا سِواهُ فِي الْوَرَى كَانَ أَعْجَمَا |
| ويذكرُ أياماً مضت من شبابهِ | وَمَا كَانَ فِيهَا بِالْجَهَالَةِ أَجْرَمَا |
| فَصَارَ قَرِينَ الهَمِّ طُولَ نَهَارِهِ | أخا السُّهدِ والنَّجوى إذا الليلُ أظلما |
| يَقُولُ حَبيبي أَنْتَ سُؤْلِي وَبُغْيَتِي | كفى بكَ للراجينَ سؤلاً ومغنما |
| ألستَ الذِّي غذيتني وهديتني | وَلاَ زِلْتَ مَنَّاناً عَلَيَّ وَمُنْعِمَا |
| عَسَى مَنْ لَهُ الإِحْسَانُ يَغْفِرُ زَلَّتِي | ويسترُ أوزاري وما قد تقدما |
| حَواليَّ فضلُ اللَّه من كل جانب | ونورٌ من الرحمن يفترش السَّمَا |
| وفي القلب إشراقُ المحبِّ بوصلِهِ | إذا قارب البشرى وجاز إلى الحمى |
| حواليَّ إيناسٌ من اللَّه وحده | يطالعني في ظلمة القبر أنجما |
| أصونُ ودادي أن يدنسه الهوى | وأحفظ عهد الحبِّ أن يتثلما |
| ففي يقظتي شوقٌ وفي غَفوتي مُنًى | تلاحق خطوي نشوة وترنُّما |
| ومن يعتصم باللَّه يسلم من الورى | ومن يَرْجُه هيهات أن يتندَّما |

كذلك ونسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، صائبة، خالية من حب الشهرة، وحب الذكر، وألا يكون نصيبنا منها إلا الخير في الدنيا والآخرة،

وأن يغفر بفضله لسادتنا العلماء، ولمن أخذنا عنهم هذا الدين العظيم، وألا يجعل في صدورنا غلا للذين آمنوا، فإنا والله نحب المسلمين، ونحب لهم الخير، ونحب لهم أن يجتمعوا على ما جمع الله عليه قلوب من لو أنفق رسول الله ﷺ ما في الأرض جميعا، ما ألف بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم، فاللهم ألف بين قلوب المسلمين واجمعهم على محبتك وطاعتك وحسن الإيمان بك، وحَسَنِ العمل الخالص لوجهك الكريم.

وبعد، فهذا ما اجتهدنا فيه في هذه المسألة الشائكة، وهو جهد المقل، وللمسلم على المسلم حق النصح، فمن أراد مخاطبتي وأداء واجب النصح لي على زلة غير مقصودة، أو رأي مرجوح، أو استفسار عن شيء من ذلك، فعليه مكاتبتي.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه:

الفقير إلى رحمة ربه سبحانه وتعالى

أبو مالك

ثائر أحمد سلامة

كندا في ٢٥ آب ٢٠١٧

٠٣/ ذو الحجة/ ١٤٣٨هـ.

راجعه ودققه، الأستاذ عصام الشيخ غانم، والأستاذ يوسف الساريسي، جزاهم الله كل خيروبارك الله فيهم.

للتواصل مع الكاتب عبر البريد الإلكتروني:

tasalameh@gmail.com

والموقع الشخصي على صفحات التواصل الإعلامي:

https://www.facebook.com/tasalameh

وقناة اليوتيوب الخاصة بالكاتب:

https://www.youtube.com/user/taasalameh

ونشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب على موقع المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

http://www.hizb-ut-tahrir.info/ar/index.php/sporadic-sections/articles/cultural/44261.html

وكذلك على موقع الخلافة:

http://www.khilafah.net/archives/4556